

سَعْدُوتُ حَمَادَةَ

تَارِيخُ الشَّيْعَةِ فِي لَبْنَانَ

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

الْحُكْمُ الشَّيْعِيُّ فِي لَبْنَانَ





مرکز تحقیقات و پژوهش در علوم اسلامی

الحُكْمُ الشَّيْعِيُّ فِي لِبْنَانِ

تاريخ الشيعة في لبنان

الحكم الشيعة في لبنان

مغدوت حمادة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



مركز تحقيق وتطوير محتوى

للطباعة والنشر والتوزيع

بناية بمقويان بلوك ب طابق 3 - شارع الكويت

المنارة - بيروت - 2036 6308

لبنان - فاكس : 009611-740110

E-mail: alkhayal@lncq.com.lb

الاخراج والتغيد **دار الخيال** للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2008

تصميم الغلاف: مهدي شمس

طباعة: دار شمس للطباعة والنشر، هاتف: 00961-1-450280

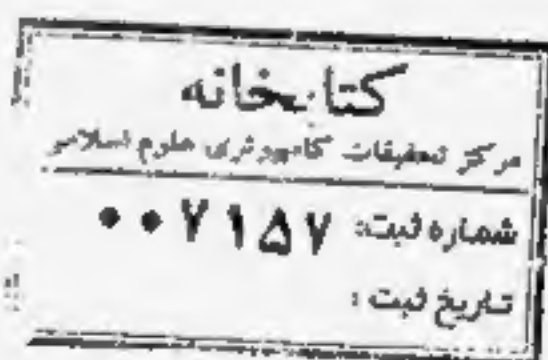
تجليد فني: مؤسسة أنطوان جلع وإخوانه للتجليد، هاتف: 00961-1-688430

سَعْدُوتُ حُمَادَة

تَارِيخُ الشَّيْعَةِ فِي لَبْنَانَ

مَرْكَزُ تَحْقِيقَاتِ كَلَامِ شَرِي عِلْمِ دِينِ
الْمُجَلَّدُ الْأَوَّلُ

الْحُكْمُ الشَّيْعِيُّ فِي لَبْنَانَ



الانجیل
للطباعة والنشر والتوزيع



مرکز تحقیقات اسلامی علوم و معارف

مقدمة

إن التاريخ هو علم غايته البحث والتحري عن أخبار السلف لإدراكها وإحيائها. ولما كانت الحياة الإنسانية في سيرها المتواصل تشكل وحدة متكاملة، صار من العسير تعيين حدود فاصلة دقيقة وواضحة بين كل من الماضي والحاضر والمستقبل؛ فالحاضر ليس أكثر من الصورة الأخيرة للماضي كما أن المستقبل هو إحدى صورته التي لم تقع أمام أنظارنا بعد. فالتفاعل والتكامل بينهما طبيعيتان وحتميتان لا يمكن تجنبهما. وهما مستمران لا يتوقفان أبداً.

إن موضوع التاريخ قد يكون شخصاً واحداً أو مجموعة من الناس أو شعباً بكامله. ولا بد أن يكون التاريخ لأي من هذه الموضوعات جزءاً من تاريخ عام لا يمكن فصله أو النظر إليه إلا من خلال منظار شامل متعدد الدوائر، يتداخل فيه الأشخاص والمجموعات والشعوب في مسيرتها بكل أوجه نشاطاتها وتحركاتها، وتتفاعل مع مجموع العادات والتقاليد والمعتقدات والتجارب والأمزجة والثقافات بمفاهيمها المجردة الواسعة وأنماط سلوكها وأصاليبها التي تتحكم في مسار أوسع هذه الحلقات وأكثرها ضيقاً في التعاطي والتطور والتصرف مع مختلف أوجه النشاط الإنساني الفاعل والحي والمستمر بحيث يتحتم، في النهاية، عند التعرض لتاريخ شخص ما، تأريخ العصر الذي عاش فيه هذا الشخص بشكل كامل.

لم يعد التاريخ سرداً متتابعاً لسلسلة من الحروب والمعارك والحكومات والكوارث والأحداث التي شهدتها العالم في زمن معلوم، بل أصبح علماً له قواعده يشمل أوجه النشاط البشري كافة يبحث عن أسبابها ومسبباتها وتطوراتها وتشعباتها، إقتصادية

كانت أم اجتماعية أم ثقافية أم فنية أم خلقية، أدبية أو دينية، بجميع مظاهرها الواضحة والملتبسة في آن، كما يقتضي اعتبارها المسبب الفعلي للحوادث التاريخية الصاخبة والبارزة التي استأثرت باهتمام المؤرخين لمدة طويلة سابقة، قبل أن يصبح التاريخ علماً كغيره من العلوم وقتاً ليست غايته إبراز حدث من أحداث الماضي فحسب، بل دراسة هذا الحدث ورده إلى أصوله ومسبباته، والإحاطة بكل ظروفه، ونقده وتحليله وتشريحه وإخضاعه إلى المنطق والعقل واستقراء دلائله ومعانيه وإدخاله في سياق البحث التاريخي السابق والمعاصر واللاحق له، بهدف وضعه في مكانه الصحيح وإبراز دوره في مجريات الأمور، وتبصير الغاية دائماً من ذلك كله معرفة الحقيقة كما حصلت بشكل منصف ومجرد ومستقل تماماً عن الرأي الشخصي والانفعالات العاطفية سواء من المؤرخ الذي يعرض لهذه الواقعة أم من المؤرخين السابقين الذين يرجع إليهم.

وهذا ما يتطلب منه إعمال المنطق والفكر وربما الحدس أحياناً عندما تمجز الملكات الأخرى عن إقتاعه وإثارة اطمئنانه إلى كل ما يستعصي أو يتمرد على الإدراك الجازم والحاسم في كل ما يرى أمام ناظريه من التواريخ اللبنانية المبالغ، والتي يكون معظمها أقرب إلى الشعر والوعظ والخطابة وربما الصراخ أحياناً لفرض رأي أو معتقد أو قناعة في عرض وإبراز أحداث تاريخية محددة ومعلومة أثبتتها أمهات المراجع واستعملت هي نفسها أحياناً لتأكيد الرأي ونقيضه وتمجيد القناعة أو نسفها عن طريق التلاعب الساذج أو الخبيث بطريقة المعالجة والعرض والتفصيل...

لا شك أن بعض المؤرخين - ومعظمهم من رجال الدين - قد سحروا مواهبهم ومواقفهم لأداء خدمات جليلة للتاريخ اللبناني بحثاً وتنقيباً وكشفاً لما لا يُعدّ من مجهولات الفترة العثمانية وملابساتها. إلا أن البعض الآخر توهم أن التاريخ هو منبر عام يسخره عندما يشاء لتمجيد من يرغب وتسفيه من يريد بإطلاق شحنات من المشاعر الشخصية المتأججة دون أي اعتبار للأمانة والحقيقة، والتلاعب في إبراز وقائع وأحداث وتصنيفات، وإلقاء الأحكام جزافاً حسب ما تشير به نوازع الهوى ورياح الغرض، فكادوا يوهنون هذا التاريخ بثغرات فادحة لا بدّ من جهود حثيثة ومضنية لسدّها وإزالة آثارها. وقد كان لتاريخ الشيعة التصيب الأوفر منها سواء في البقاع، أم في جبل عامل، وعلى الأخصّ في جبل لبنان.

إن تاريخ لبنان هو تاريخ وطن وشعب عاش ولا يزال في بقعة معلومة من الأرض تتكون من جبال وسهول وسواحل ومراكز سكانية وحضارية متعددة، وينتمي إلى طوائف متنوعة ومتداخلة تشكل في مجموعها موضوع هذا التاريخ ومادته. فليس من الجائز أن يبقى محصوراً بالجبل دون غيره من المناطق وينحصر في تاريخ الأسرتين المعنية والشهابية وتاريخ الموارنة والدروز دون سائر اللبنانيين⁽¹⁾.

يقول مؤرخ لبناني معاصر:

«إن المؤرخين الموارنة وخصوصاً من رجال الإكليروس يعتبرون الآباء، الشرعيين لتاريخ لبنان، وكان يتوجب عليهم أن يحافظوا على سلامة هذا التاريخ وأصالته ويرفضوا الكثير من الأساطير والأوهام والخرافات وأعمال التزوير والتحريف التي لحقت به، ولكن نلمس مع الأسف أن البعض منهم أصر على أنها من ثوابت تاريخ لبنان وأن لا مجال للشك بصحتها».

وقال أيضاً حول أدبيات المؤرخ:

«لا يجوز للمؤرخ أن يخرج عن أصول الأدبيات العامة التي تقوم على احترام كرامة الآخرين والابتعاد عن التجني عليهم والتشهير بهم، فالتحقير والشتائم ليست من العمل التاريخي وهي تفقد قائلها صدقيته. وتجرده من وقار المؤرخ، وتعتبر عن ضعف الحجة لديه وعن عواطف مشحونة يترفع عنها رجال الفكر وأهل العلم»⁽²⁾.

وقد تعرض الشيعة في تاريخهم إلى الكثير من التجني الذي تجاوز هذه القواعد. لذلك لا يمكن تناول تاريخ الشيعة في لبنان إلا بوصفه وجهاً آخر لتاريخ لبنان الوطني العام وليس جزءاً من هذا التاريخ أو فصلاً هاماً وأساسياً منه، تتحرك فيه مختلف الجماعات والمناطق بدون أن تحجب إحداها الأخرى أو تتوارى خلفها. إن ظروف لبنان التاريخية والجغرافية والاجتماعية ميّزته عن سواء من البلدان المجاورة والقريبة التي تتشارك معه في الكثير من الخصائص والعوامل والصفات، إلا أنها تختلف عنه في تركيبته الطائفية المعقدة والعلاقات الداخلية التي تحكم هذه

(1) لم يتجاوز عدد أفراد الملائقة الدرزية بالإضافة إلى جميع الطوائف المسيحية أكثر من 30 % من سكان لبنان في مستهل العهد العثماني. راجع الأرقام في فصل قادم.

(2) انقلاب على الماضي، عادل اسماعيل، ص 17 و 24.

الطوائف من جهة وعلاقة كل منها بالسلطة الحاكمة من جهة أخرى.

نستطيع بسهولة ويسر أن نعرض لتاريخ شخصية قبطية مصرية أو أن نؤرخ لدور الأقباط عموماً في تاريخ مصر. إلا أن كتابة تاريخ هذه الجماعة في مصر لا يخلو من تكلف وتجاوز يمكن أن يثير الكثير من التأمل والنقاش. وهذا ينطبق أيضاً على تاريخ الشيعة في العراق والعلويين في سوريا مع أن أفراداً وأسرّاً من الطائفتين كانوا أحياناً يقومون بدور قيادي في فترات مختلفة من تاريخ البلدين.

إن معظم ما كُتب عن تاريخ لبنان حتى اليوم لا يعدو في الواقع كونه تاريخ طائفة من طوائفه. حتى في الأحوال النادرة عندما لا يحمل هذا التاريخ إسم الموارنة أو الدروز، وهذا أمر نادر على كل حال.

يقول باحث غربي حول تغييب الدور الشيعي المحوري في تاريخ لبنان: «إن التجربة الشيعية في العصر العثماني حذفت من الرواية اللبنانية الوطنية، وأقصى المسيحيون المعاصرون المختصون بكتابة عرض الأحداث وسيرة القديسين، اللبنانيين الآخرين عن باقي مكونات لبنان التاريخي. وأصبح النظام اللبناني الكلاسيكي المستقبلي هو نتاج مخيلة المنظرين المسيحيين. فلم تكن الإمارة على القبائل الدرزية يوماً هي المؤسسة الوحيدة للحكم الذاتي في لبنان».

إن تاريخ أمراء الدولة العثمانية الشيعة هو البديل للروايات الشائعة، من المنحأ الدرزي الماروني الجبلي، الذي أصبح فيما بعد لبنان، وهو يتحدى الروايات اللبنانية في جوانب مختلفة.

إن أمراء آل حمادة في جبل لبنان وأمراء آل حرفوش في بعلبك وأسياد الشيعة في جبل عامل الأقل أهمية، كانوا إما حلفاء أقوياء أو منافسين للامتداد الإقليمي والنزود السياسي لأمراء الدروز في الشوف.

منذ القرن السابع عشر أوجد الدويهي رواية تاريخية حول صورة الأمير كحاكم حقيقي فريد على الجبل. وقد نقلت الكتب المدرسية الحديثة، الفعالية التاريخية لهذا النظام، حيث هناك قائد درزي أعلى على رأس السلطة، وحاكم على لبنان موحد سياسياً، وهمش كل التيارات الأخرى، زاعماً أنها دولة لبنان الدرزية

المارونية العالمية. إن أمير العرب المنصب القديم الذي كانت الدولة المركزية تسنده إلى رؤساء القبائل في الصحراء السورية لم يتمازج أبداً بما يعرف بأسطورة سوريا الحديثة كما حصل في لبنان⁽¹⁾.

إن الاهتمام بتاريخ الشيعة في لبنان وخصوصاً في الحقبة العثمانية لازماً منذ عهد الدراسة ولا يزال، ليس لأن هذا التاريخ - حسب علمنا - لم يكتب بعد على أنه موضوع رئيس ومحموري فحسب، بل ليقيننا أن دور هذه الطائفة التاريخي في السياق العام للتاريخ اللبناني لم يُعطَ الفرصة بعد حتى اليوم في إدراكه ودراسته وإبرازه بشكل موضوعي ومنصف، بل تعرّض لما لا يُحَدّ من تجنّب وتجاهل وإهمال وغبن بدون قصد أحياناً وبتخطيط مفروض وربما خبيث أحياناً أخرى.

إن هذا الاهتمام القديم هو ما دفعنا في العام 1968 م. إلى التقدم من كلية الآداب في باريس لتسجيل بحث جامعي تحت عنوان «تاريخ الشيعة في لبنان في العهد العثماني». وقد يسّرت حينها إقامتنا في باريس وخبرات الأستاذ المشرف المستشرق المروف «كلود كاهين» بحثنا في هذا الموضوع الشائك على أمل أن تسنح الأيام الآتية بالتعمّق فيه والمساهمة في دفعه إلى دائرة الضوء والاهتمام والتصنيف.

لقد قمت وعلى امتداد هذه السنين بأكثر من محاولة لتحقيق أمنيّتي القديمة وكتابة تاريخ الشيعة في لبنان. إلا أن قناعاتي بصعوبة هذا الأمر كانت تترسّخ أكثر كلما عرضت له وتوغّلت في شعابه؛ فأحجم بعد إقدام، أملاً أن يقدم أحدهم حيث أحجمت ويكفييني مؤونة الجهد والجد حتى مرّت السنوات وتقدّم العمر وعزّت المهل.

إن أهمّ الصعوبات التي لا بدّ أن تعترض كلّ من يتعمّق في بحث هذا الموضوع تعود إلى الأمور الآتية:

1 - ندرة المراجع

لم يتخذ أيّ مؤرّخ حتى الآن تاريخ الشيعة في لبنان موضوعاً مستقلاً بذاته وشاملاً سائر المجموعات الشيعية التي عاشت فيه. ولم يصل إلى متناولنا مرجع قديم أو حديث

(1) أطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية ستيفن وينتر Stefan Winter، جامعة شيكاغو.

The Shiite Emirates of Ottoman Syria.

يبحث تخصيصاً في هذا الأمر، ممّا يحرص على الباحث الرجوع إلى عددٍ غير محصورٍ من أمّهات المراجع لاصطياد بعض المعلومات المتناثرة والأفكار العرسية التي عادةً ما يوردها واصعها بدون تعمّد أو تركيز. والعمل على استخلاص مدلولاتها ومحاولة ردها إلى واقعة تاريخية معلومة وربطها بسياق متواصل ومحدّد.

إنّ المراجع التي وضعت هي جبل لبنان تحديدًا وعالمياً كان واصعوها رجال دين موارنة دفعهم الحماس والرغبة في إبراز دور طائفتهم إلى الإشادة بها بدون إعارة اهتمام يُذكر لدور الطوائف الباقية إلا من حيث ارتباطه بالغاية المنشودة. وهي مراجع قليلة ومحددة تفرض على الباحث فيها الحذر الشديد واليقظة المتواصلة عند استخلاص بعض وفائدها ومدلولاتها من برش العرص وشطط الهوى ولا يحصى صعوبة هذا المرز ومخادير.

أمّا ما وصل إلينا من مصنّعات جبل عامر، وهي الوحدة التي كتبها مؤلّمون من الشيعة فهي أشبه بالملاحم الشعبية منها بالمأريخ. يطعن في أصلها صليل السيوف وصهيل الحيول على السباق التدمخي، وتسرد المنطق المتناسك وقلما تحاورت اهتماماتها حدود جبل عامل الصريقة.

2- الخوف من النفس

إنّ تاريخ لبنان كما هو معتمد ومتمدول حاليًا هو أقرب إلى الأسطورة التي تسجها المخيلات المستترة على هواها ومراجها. هرب واصعه المعلومين والمجهولين تحيلوا تاريخاً ينسجم مع ما يمتصّون ويرعبون، وفترصوا أو ملوا لو أنّ باريج لبنان جرى كما يطمحون، فلم يفتفتوا إلى ما حصل فعلاً وإلى ما حدث واقعاً، بل وصعوا تاريخاً افتراضياً ينسجم مع تطلّعاتهم وتمثباتهم أكثر ممّا يتطابق مع الحقيقة والواقع. ولما كان على من ينمذ خلال هذا البناء الوهمي، أن يعبر بعضاً من ردهاته ويستحدم بعض مداميكه ويستظلّ بحدرايه وسقمه بما لا يتعارض مع قواعد التجرد والبراهة والرأي التي ألزم نفسه بها معتمداً على قواعد البحث وأصول التحري ومقاييس الموضوعية والتجرد، حقت أن أقع في بعض ما وقعوا فيه وأن يكون للرأي الذي أراه تأثيراً يقل أو يكثر على بعض الوقائع التاريخية المتداخلة، ولا سيّما في استنتاج مدلولاتها وتفسير مظاهرها دون أن أنسى أن الإنسان سليلته وجموح عرائره قد ينزلق دون قصد بحكم

موقعه وعواطفه حمية لعشيرته أو طائفته أي ما لا يرتصيه الالتزام الكامن بالدقة والتجرد رغم كل ما قد يستحصره من يقظة وحرص

أخيراً، عزم على المصّي في هذا الأمر رغم كل شيء متهيباً من عثراته، تاركاً لعبري أن يصدّ ما قد يعيب عني ويقوم ما قد أتعثر فيه ويكمل ما قد أعر عن بلوغه، متمثلاً ما تمثاه المؤرّخ الكبير (Lepold Von Ranke) ليوبولد هون رانكه على من يكتب التاريخ «أن تدثر رغباته كلها ونختفي بضمه ذاتها ليكون مرآة صافية تعكس ما وقع في الماضي دون أن يكون له أي تأثير فيها».

إن سيرة «عنترة»، المعروفة في التراث الشعبي العربي هي أكثر انتشاراً وديوحاً وشهرة من تاريخ الشاعر المارس كما ورد في كتب الأدب ودواوين الشعر إذ تحوّل هذا المارس الإنسان، بمصل المتحمسين له المعجبين بشعره وبمروسيته والمنعصبين لقصيته، إلى بطل أسطوري حارق يقوم بالمعجزات المستعيلة وينصر دائماً على أعدائه الأشرار من الإنس والجن والمخلوقات الوهمية الأخرى هي معارك ملحمة، متحدياً بفجاح كاسح كل القوى الطبيعية والبشرية والخرافية التي زرعتها الخيال الجامع المتفاطم معه إلى حدّ الهوس في طريقه المظفرة واضعين على نسيانه الأهارج الحماسية المتناعمة عوض نظمها المين الرائع الذي طالما أعجب أحياناً من البقاد والمشددين المرددين لشعره

قد يكون هناك بعض أوجه الشبه بين ما ذكرناه عن تاريخ عنترة وسيرته وما نراه، وبين تاريخ لبنان المقتصر والموصوع، وتاريخه الحقيقي كما حصل فعلاً، وبما أنّ التاريخ هو علم التحري والبحث وإدراك نشاط البشري والوقائع وما حدث في عصر معلوم مصي، وإبرار ذلك بمعزل عن كل عاية شخصية أو وجود ذاتي بدون نقص أو مبالغة أو احتراء أو زياده أو توفه أو بصور أو تم، أكان ذلك عن قصد أو جهل سهواً أو عمداً فإنّ تاريخ عنترة العسّي يختلف عن سيرة عنترة احتلاها كبيراً مطلقاً و-توهرياً

إنّ الديسوف أو السياسي أو رجل الدين أو الداعية إلى معتقد أو رأي أو مذهب قد يعمد أحياناً إلى تدعيم ما يذهب إليه بالرجوع إلى أحداث لتاريخ ونظّماته، ليستعين بما يرى أنّه يخدم غايته في إقناع نفسه أو إقناع الآخرين بتفسير الواقعة التاريخية بما يتلاءم مع ما يبادي به ويروّجه ويدعو إليه. إنّ المؤرّج، فأولى مهامه أن يبرر الحدث كما

حدث لا كما يريد ويتعنى أن يحدث بدون تدخل منه بأي أسلوب كان، وبدون استعماله لغاية تتجاوز سرده كفاية أولى وأخيرة

إن تاريخ لبنان كما يكاد يعتمد اليوم دون نجاح كبير، والذي يعود إليه أحياناً لتفسير بعض أوضاعنا الحاضرة وبلقنه لأحيالك في المذرم، هو هي سياقه العام ومصمونه الأساسي تاريخ مختصر حشرت به بعض لماصل لرئيسة الموضوع والمرقة، هأفقدته مصداقته وقدرته على الإقناع. وحرقة بعمل فاعل ثمرات واسعة جمعت منه بناءً هشاً لا يصمد أمام أي محاولة ولو سطحية لاحتراجه وعرعة أركابه.

إن أخطر ما يواجهه لتاريخ هو تحريده من صفته كعلم قائم بذاته لا هدف له خارج هذه الذات، واستعماله أداة سياسة أو حذيه لتأكيد نظرية مسبقة تنتمي إلى ميدان آخر من ميادين الفكر والمعرفة المتعددة، وقولية حوادثه وسكها في سياق مراحلي لترويج لها وإثباتها وتأكيد صحتها هيجهد المهتم في استنباط واقعة يرى أنها تحقق عرصه ليعرضها مصححاً دورها مبالغاً في مدلولها متحاهلاً ما ينافسها، أو يتلاعب في موضعها وموقعها من الأحداث هيجرح من بين يديه تاريخ منقوص مشوة بدعو إلى فكرة معينة مهأ يستثير مؤيديها ومعارضها، هيجاول كل فريق الرجوع إلى التاريخ لتأكيد دعواه ويمعن الطرهار في شويه الحقائق وبرويصها، وسلاعلان بالتاريخ وبمصداقته وهي جميع الحالات تكون لحقيقة هي التي تدفع الثمن.

إن الدين وصنعوا التاريخ السياسي وصنعوه كما رغبوا أن يكون، اضطروا لتمدّد مآربهم إلى استعمال أماليب متنوعة عن جهل حياً وعن عمد أكثر الأحياء. تبتدئ هذه الأساليب بالمبالغة والاجترار وربما تصل في محطّات مصصلية إلى الوضع والتروير. إنها عيوب فاصحة وواضحة مع أن تكرارها باستمرار قد يوهم العابر الطارئ أنها حقائق واقعة دون أن تعجز بحسرة المتوسطة والعادية عن كشف عورتها وريمها. وبما أن التاريخ هو وحدة متكاملة مترابطة الأجزاء، فلا بد من سدّ هذه الفجوات وتصحيحها كي لا يتزعزع البناء هي أساسه ومن إعادة الأمور من نطاق الافتراض والتمني إلى حير الحقيقة والواقع. وهذا أمر لا بد منه لحلاء ما له علاقة بموضوع بحثنا وتاريخ لبنان الوطني العام. منذ لجدور الأولى لبناء هذا الوطن مع بداية الاحتلال العثماني سنة 1516م حتى ظهرت ملامحه العصبة مع نظام

المتصرهية سنة 1861م، وهي الفترة التي ترسخت فيها هذه الجذور حتى تمت وترعرعت.

وأخيراً، ليس من صلب اهتمامنا في هذا البحث استعراض تاريخ لبنان العام والإشارة إلى ما هدد منه بفعل الماعليين أو جهل الحاهليين أو سذاجة الناقليين بدون استحصار الحداث والمنطق. فهذا مركب شاق ووعر وعسير ويتجاوز مهمتنا في الوقت نفسه. ورتما يتجاوز طاقتنا وقدراتنا. إننا لا ندّ من أن نشير إلى بعض المفاصل في تاريخنا، التي لا يستقيم ما نريد عرضه بدون إعادتها إلى حجمها الصحيح وموقعها الدقيق ودورها الطبيعي والمفعول في محريات الأمور والأحداث وأن تلقي بعض الضوء على الأفكار الأساسية والرئيسية والمفصلية. ولشي لها علاقة مباشرة وحيوية مع الموضوع الذي نحن بصدده. وإن اقتضى تقسيم البحث زمنياً وجغرافياً التوقف أحياناً عند محطات معينة والتركيز على إعادة النظر في بعض المسلمات المتوارثة وقد يقع مرعمين في تكرار بعض الأفكار والحوادث التي قد تحتل أكثر من مدلول واحد، وتستدعي نفسها هي أكثر من منمطف وعابسا من كل ذلك هي قول شيء رأينا أنه يستحسن قوله مع يقين ثابت أن المركب شاق وأن الإقدام حير من عدمه

إن التاريخ لا يمكن حجبهُ أو تعدّله أو تشويهه إلى الأبد، فلا بد أن يسطع نور الحقيقة يوماً هبيد الزيف والفت ويوهظها من سبائها مهما طال، وقد يأتي صوت الحق عبر القارات والشعوب والحصارات ليقول إن عموص الصورة التاريخية هي لبنان يعود إلى «أن المؤرخين المحليين طلبوا من وهائع التاريخ أن تشهد بأن هوية هذه المناطق تعود إلى الدور والموارنة لا إلى «الطارئين»⁽¹⁾

(1) أطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية للباحث ستيفن وينتر Stefan Winter

The Shiite Emirates of Otroman Syria

جامعة شيكاغو 2002 - تاريخ تنوير، شربل داعر، ص 143 هـ.



الباب الأول

الشيعة

في الدولة العثمانية



- الفصل الأول: الشيعة والدول الإسلامية الثلاث
- الفصل الثاني: الشيعة رعايا الدولة العثمانية
- الفصل الثالث: التكامل الشيعي
- الفصل الرابع: الشيعة وجبل الدروز



الفصل الأول

الشيعة والدول الإسلامية الثلاث

من النادر أن تقوم دول كبرى في الشرق، إلا على دعوة دينية هتية، تستمد من العقيدة الإلهية شرعيتها وطاقتها، وتتخذ من بشر هذه الدعوة هدفاً ورسالة وهذا ما حصل في نهايات القرن الرابع عشر في إيران، بعد أن تحولت حركة صوفية محلية إلى مشروع إنشاء دولة طموحة، ما لبث أن أصبح لها شأن بالغ، وأثر خطير في الأحداث التي برزت على المسرح الإيراني خاصة، والإسلامي عامة.

لم يكن الشاه اسماعيل مؤسس هذه الإمبراطورية المنزمية الأطراف عسكرياً قدماً وهاتحاً متميزاً، ورحل دوله بارعاً، إنما كان قبل كل ذلك، صاحب عقيدة راسخة، وحامل رسالة مقدسة، وداعية تعبيري وإيماني فلم تكن السياسة والحرب عنده، تهدفان إلى إحصاع مريد من البلاد والمكان لسلطوته ودولته، إنما أقصى ما كان يسعى إليه هو تحويلهم إلى معتقده واعتناق أفكاره والإيمان بما يؤمن، حتى تقتصر الدعوة الحديده وتطغى على المعتقدات والمذاهب الأخرى.

لم تكد تنقضي سنوات قليلة على وفاة والده السلطان حيدر الذي لم يكن إلا أكثر قليلاً من شيخ طريقة صوفية هي بدابات بطلاقها، حتى اكتسحت حيوشه المظلمة الدويلات المعولية العديدة التي ظهرت بعد الإجتياح المعولي للجناح الشرقي من الدولة العباسية السالفة هارتقت رايته ذات الاثني عشر لوباً، إشاره إلى مذهبيه الشيعي وأئمتيه الاثني عشر، ما بين الخليج الفارسي ونهر المرات حتى الأفغان ونهر جيحون، وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعد.

نشأ هذا الداعية الهاشمي⁽¹⁾ في بيئة شيعية صرفة، وحو صوفي إشرافي، في كنف

(1) كان الشاه اسماعيل يقول إنه من أحفاد الإمام السابع موسى الكاظم

والدِ وجد، هما أقرب إلى رجال الدين، منهما إلى الملوك والسلاطين فكان هاجسه الكبير، تحويل رعاياه إلى مذهب الشيعي فصرف معظم جهوده في هذا السبيل، حتى إذا أحرر نجاحاً ملحوظاً في تحقيق غايته، وجه اهتمامه إلى المناطق البعيدة من العالم الإسلامي، خارج حدود سلطانه واحتهد لنشر مذهبيه فيها عن طريق مريديه وأتباعه، وعن كل سبيل آخر تيسر له تبشيراً كان أو عسكرياً أو مادياً.

توح اسماعيل «شاه» سنة 1500م، فاستولى على إيران كلها، ثم العراق 1508م، وما وراء النهر 1512م ففعل من هذه البلاد الواسعة، دولة الشيعة المركزية شعدراتها وممارساتها، فأذن بحري على حير العمل ونقش على النقود أسماء لأئمة وآل البيت، وحدد المراتب الشيعية المقدسة في العراق وإيران، وبث الدعاة في سائر أقطار العالم الإسلامي، وحشد جميع طاقات الدولة في خدمة المفيدة، فكان من الطبيعي أن يلتصق الشيعة، حيثما وجدوا، حول هذه الدولة الناشئة، ويتجهوا بعواظهم وولائهم نحوها، حتى في الأناضول نفسه وهو قلب الدولة العثمانية وحرانها البشري، وهي صعد مصر، وهو السبيل الحلمي للدولة المملوكية وعاصمتها

كما يحدث غالباً هي السياسات المتبعة في ذلك العصر، تماقم اصطهاد الدولة العثمانية لرعاياها من الشيعة، بتوجه «صراع» بين الدولتين، مما أدى إلى انفجار ثورة شيعية عارمة هي أسيا الصفري نفسها كادت أن تشكل خطراً جدياً على الدولة العثمانية هي الثورة التي قامت في السنة الأخيرة من حكم بايريد الثاني 1510م - 1512م بقيادة الشاه قولي و نبي عمر الحبش الذي قاده الصدر الأعظم عن إحمادها وبعد محاولات شاقة قصي عليها بعد أن سقط قائدها الشاه قولي قتيلاً، وأوقعت الحيووش العثمانية مذبحه رهبة، سقطت صحيتها أربعون ألفاً من الشيعة العثمانيين في الأناضول .

سواء قامت هذه الثورة، بإيعاز من الشاه اسماعيل كما يرى توينبي، أو بتأثير من المد الصفوي، والصفط العثماني كما يرى آخرون. ونرحبه الوقائع فقد أصاب اسماعيل فرصة لا تتكرر بإحجائه عن التدخل المباشر لدعم الثوار ربما لأنه كان في مصر الوقت منهمكاً بحربه على الحبهة الشرقية

هرب أحد قادة الثورة «استادجي» وحبوه بعد مقتل قائدها إلى بيريز، وعاد بعد ثلاث سنوات، ليقوم بمحاولة هاشلة لإصرام بارها من حديد إلا أن المبادرة

بانهجوم، انتقلت إلى السلطان سليم الذي حلف بأه بايريد، فأمر بالشيعه قتلًا ودبحاً ومطاردة في جميع أنحاء مملكته حتى حقق انتصاره التاريخي على الشاه اسماعيل في معركة جالديران 1517 م، مما فتح له الطريق إلى تبريز عاصمة عدوه. ورغم كل ما حل بهم قام الشيعة بمررد دموي حديد بقيادة خلال، أحد أتباع اسماعيل، على رأس عشرة آلاف من مؤيديه و انتهت كسافقتها، بمدحة سقط فيها خلال، بعد أن ترك اسمه «جلالي» علماً على كل العصاة من الشيعة منذ ذلك التاريخ ولكن هذه الهزائم العسكرية المتكررة، لم تحل دون انتشار أفكار اسماعيل ومعتقداته الدينية في مختلف أنحاء الامبراطورية ولم يسلم منها حتى مماليك السلطان سليم أنفسهم. فأعلن أحدهم سنة 930 هـ أحمد باشا بنسبه سلطاناً مستقلاً، ولكنه انتهى مشنوقاً على باب رويلة في القاهرة لأنه كان داعية لاسماعيل الصوفي وعزم على تقديم الإثني عشر إماماً على اعتقاد الرافضة⁽¹⁾.

لم يكن العداء العلوي العثماني من أولويات السطية هي مرحلة تأسيسها فقد بولي علويون كثيرون مناصب عابرة في دوائرها وكان لرجال الدين العلويين وأفكارهم دور مهم في الحياة العامة وكان التركمان يشكل عام يؤمنون عصبراً ناشطاً في نبيها وسجها ولكن التحول نحو السنة، الأصولية بدأ في عهد السلطان بايرد الأول (بيلديرين) (1389م - 1402م) وأصبحت الدولة ممسدة معالية في عهد هاتج الفسطاطية محمد الفاتح، فانقسم العنصر التركي وهو عماد الدولة الأساسي إلى قسمين، السنة العثمانية تحت راية السلطان والتركمانية العلوية الموالية للدولة الصموية وهي تركمانية الشاه وللمة والمحاربين بالإصافة إلى وحدة المذهب والإيديولوجية، وهذا ما حمل الخلاف بين لدولتين أكثر عمقاً وحدراً ويشمل العراق والمنعقد بالإصافة إلى التنافس على ترعم العالم الإسلامي برمته خصوصاً بعد أن رالب

- (1) الكوكب الصائرة، العربي ج 1 ص 159 استمررت ثورات الشيعة على السلطنة فترة طويلة لارعت لصراع العثماني الصموي وهم هذه الحركات بعد خلال شاه ولي 1519م تلميذ خلال سوكلين قوفا 1525م وبابارينيون - أتماجا 1525م - ابن رينون 1527م - دومور أوعلاف ويبيجه بك 1526م - ولي خليفة 1526 - شهدي بك 1529م - كالندر شبي 1528 - شاه كلدي 1580م - حيدر بير سلطان عبدال 1577م و 1590م وهو عربي هاشمي

دولة المماليك من مسرح الأحداث .

كان عدد العلويين في الأنابول يبلغ ستين دلتة من السكان المسلمين فقاموا بانتماصتهم الأولى قبل ظهور الصمويين سنة 1420م ولم يعرفوا بالقرلباش إلا بعد ظهور كتائب الشيخ حيدر الصموي ولد 'سماعيل وهي ترتدي القبعات الحمراء ذات الإشارات الإثني عشر دلالة على أئمة الشيعة⁽¹⁾. فكان من الطبيعي أن يوالوا الحركة الناشئة وتثير لديهم حماساً بالماً دفع أحدهم إلى القيام بمحاولة هاشلة لاعتقال السلطان بايريد سنة 1492م، دفع لعلويون ثمنها عالياً قتلًا وتشريدًا وريادة في الكرم والتمور ووصية لحلمه سليم بأن يأخذ ثار الإسلام من القرلباش الكاهرين

بدا واصحاً أن السلطان سليم حفظ الوصية جيداً فكان عهد الأكثر دموية في تاريخ الصمويين وحول عيان حواده من العرب حيث كان من عادة أسلافه أن يقودوا جيودهم نحوه واتحه إلى الشرق فقصى على دوله المماليك وأوقع بدولة الصمويين هزيمة قاسية وأتحن بالعلويين، حيث واصلت حيوشته، قتلًا وهتكاً وتدميراً.

مع ظهور الصمويين تولت الثورات العلوية عليه لقرن السادس عشر كان أولها ثورة شاه كولو أو حولي سنة 1510م حتى أصبحت من تعاليد السياسة العثمانية وكان بعض كل منها مداح وحملات لم تتوقف حتى نهاية القرن

إن كل ما رافق هذه الثورات وحملات فمعها من تقاليد وأعراف وما حلصته من تراث في السياسة العثمانية ونظمها العسكرية نقله العثمانيون فيما بعد إلى لبنان ومارسوه مع الشيعة اللبنايين فأطلقوا عليهم اسم 'قرلباش طيلة قرون، ودرع أنهم ربما لم يسمعوأ به قبل ذلك أو يعرفوا معناه، ودرع اختلافهم عن علوي الأنابول في العرق والمذهب والتاريخ والأهداف وهي الكثير من الأمور الأخرى

ولكنهم لم يشعروا بصرق كبير بين الدولة سهرمة و تحكم الحديد، فإن السلطان سليم أحياناً فتاوى الشيخ نوح القديمة، وقتل كل شيعي طالته يده في الساحل السوري وحبال اللادقية وأماكن أخرى، مفضداً أحكامها بحماس.

إن هؤلاء الكمرة، والبيعي الضهرة، جمعوا بين أصناف الكمر والبيعي والعساد، وأنواع المسق والزندقة والإلحاد ومن توقف في كفرهم والحادهم وجوار قتلهم فهو كافر مثلهم...

(1) هي أول انتماصة علوية قام بها لشيخ بدر الدين حد أنهار ورفقه وبن قاسمها (1359 - 1420)

وسبب وجوب قتالهم وجواز قتلهم الكفر والمعصية معاً، إنهم يستخفون بالدين، ويستهزئون بالشرع المبين، ويستحلون الحرمات وينكرون خلافة الشيخين فيجب قتل هؤلاء الأشرار تائبوا أم لم يتوبوا،⁽¹⁾

إن هذه العلاقات العدائية بين الدولتين لم تكن أسبانيا وأبرز مظاهرها التناحر المذهبي والتناهي الديني السائد بين المعتنقين، والذي بقي مستمراً ودموياً، وقاد إلى حروب متواصلة بينهما لسنوات كثيرة لاحقة مما سيشكل عاملاً مهماً وهاعلاً، هي مختلف أوجه السياسة اللبنانية ترك بصماته العميقة على مجمل الأوضاع العامة في هذا البلد بوجه خاص، لأن انعكاساتها وجدت مرتعاً خصباً ورد فعل دائم سبب تعدد طوائفه وامتداداتها المتشعبة.

كانت الدولة العثمانية تعتبر نفسها، ولا سيما بعد انتقال عاصمتها إلى القسطنطينية، الدولة الدينية المحورية في العالم الإسلامي، فهي حاملة لواء السنة، والمدافعة عن الشريعة، وحامية الإسلام وحرته المتقدمة، وبهذه الصفة، فمن أهم واجباتها التي أباطت نفسها بها، هي الحفاظ على العصبية وحفظها والتشكيل لكل من نصنمه بأفقها الضيق ومفهومها المشدد ماركاً أو صالاً أو متولاً للشريعة، كما تصورها ويعتمدها، جعلت من سياستها الثابتة، ومنذ وقت مبكر التضييق على الشيعة واصطهادهم إلى حد محاولة استئصالهم بالقتل والاعفاء باعتبارهم محذرين لهذه الشريعة وخارجين عن تعاليمها في جميع المناطق الخاضعة لسيطرتها فكانت لفتاوى الصادرة عن أعلى السلطات الدينية الرسمية المتمثلة بالهيئات القضائية والدينية الخاصة لمحاكمة معني اسطنبول بوصفه شيخ الإسلام، تكرر وتؤكد وجوب قتل الشيعة واستحلال ذرائعهم وأن لا تقبل لهم توبة،⁽²⁾ كما تحير أصول المحاكم وأعرسها، قتل الشيعي على الشبهة وعدم قبول شهادته في المحاكم وغير ذلك، مما دفع لشيعة من رعايا الدولة ومن غير رعاياها، إلى اعتبارها بالمقابل عدواً عاشماً وظالماً لا يعك شرعية الإمامة ولا صفة ولي الأمر، بينما تنظر هي إلى رعاياها من الشيعة كخارجين عن الملة وحوثة غير موثوقين، وإلى غير رعاياها كأعداء ألداء يقتضي إحصاءهم أو إهلاكهم.

إن العداء الصموي العثماني، والصناعة لدائية لدى كل فريق، بأنه يحمل سيف الله، للدفاع عن الدين القويم والإنقاذ من الكفرة المارقين، حمل من التشيع في نظر العثمانيين،

(1) تاريخ الشيعة هاشم عثمان، ص 112

(2) العقود الدرية في الفتاوى الحامدية فتاوى الشيخ نوح آل صما ص 77.

وهي تراثهم القصصائي والعرفي، أقرب إلى أن يكون تهمة جنائية من واجبات السلطة تصيداً لأحكام الشرع البحث عن أصحابها وتقديمهم إلى القاصي للحكم عليهم وتأديبهم. وأن الحالات التي حوكم فيها الشيعي على تشييعه دون أي حرم آخر، لا يمكن أن تحصى لتعددتها وكثرتها، ولو أن بعض القصصاة انحدرت بوجوب استتابه الشيعي قبل الحكم عليه، فإن تاب نجا وإن عصي وأصر على صلاله فمقوته الموت وقد احتفظ القضاء له بطريقة خاصة لإعدامه فإن كان تصيد هذه العقوبة يكون عادة بالشق أو بالسيف فالإعدام على التشيع لا يكون إلا بالحرق أو الخازوق⁽¹⁾.

كان المسيحي واليهودي أحسن حالاً من الشيعي، وإن كانت الدولة لا تعتبره مواطناً كاملاً إلا أنه، وبموجب نظرية أهل بدعة وأحكامها، يتمتع بحقوق محددة ومعلومة، فهو من طائفة معترف بها، وحياته وماله مصوب بحكم العائون والشرع ويمر في أحواله الشخصية إلى رئيس طائفته دون تدخل من سلطة الحاكم التي قد تفرس عليه أحياناً بعض القيود في مظهره، والتحديد في حقوقه، دون أن يكون انتهاؤه الديني هي أي وقت، جريمة تستحق المحاكمة والعقاب.

قبل شروع السلطان سليم في رحلته نحو سوريا لقتال المماليك والصفويين، قام بقتل آلاف الشيعة دون أن يوفر النساء والأولاد وأجلى من هدر عليه إلى أوروبا العثمانية، وذلك لحماية خطوطه الخلفية مدة عيانه، وبعد انصرافه على المماليك في مرج دابق، عرج على حلب التي فتحت أبوابها له سلباً، ولم يعذرهم نحو دمشق، إلا بعد أن أصاب مدحجة أخرى إلى سحله الشيعي، اختلف المؤرخون في تقدير عدد ضحاياها، وإن كانت المصادر الشيعية تتكلم عن ستين ألفاً.

اصطهد العثمانيون الشيعة وأسرفوا في قتلهم، وقملوا بهم الأهالي، ومن ذلك ما أصاب أربعين ألفاً من الشيعة الترك ممن قتل أو سجن مدى الحياة على يد سليم الأول سنة 918 هـ - 1512 م أصاب ذلك حتى الصبي الذي في السابعة، ولم ينجو منه الشيخ الذي بلغ السبعين⁽²⁾.

يرى توينسي، أن حركة الإنتفاض الثوري الشيعي السياسي، التي انفجرت في هذه الفترة، أدت إلى صدام حتمي مع العثمانيين ثم يكن من الممكن تجنبه فليست المرة الأولى التي تشتعل فيها الحروب المذهبية في هذه المنطقة من العالم فالحماس الديني، كان

(1) دائرة المعارف الإسلامية لشيعة ج 3 ص 96 نقلاً عن فون هامر

(2) اعلام الوری. ابن طولون حواش 940 هـ ص 280.

الذاهع الأول إلى جانب غيره هو الذي حرك حيوش لعثمانيين والصفويين نحو المواجهة، في الوقت الذي كان جيش ثالث يتجه في طريقه إلى الميدان نفسه، هو جيش الدولة المملوكية، وعلى رأسه عجز هزم لا يقل مداهة، لدسي والسياسي عن زميليه الآخرين إن اعتبارات عديدة تجعل من لدولة المملوكية هي لدولة الإسلامية الكبرى والرئيسة هي هذه الفترة وأهمها.

أولاً - هي حامية الحرمين الشريفين بحكم سيطرتها على الأماكن المقدسة هي مكة والمدينة، ولم يكن يمارعها أحد على هذا الشرف الذي يتمتع بأهمية بالغة في ضمير العالم الإسلامي برمته مما جعل بعض الفقهاء بشرطون لسيطرة الصعية على الحرمين، شرطاً لصحة الخلافة واستحقاقها، ولا سيما عند تعدد ادعياتها هي ومن واحد وهذا ما يفسر رضى السلطان سليم وسرويه، عندما أطلق عليه حبيب المسجد في حلب، لقب حامي الحرمين الشريفين، بعد دخوله لمدينة، على إثر انتصاره الحاسم على قانصوه العوري عام 1516 م.

ثانياً - اقتصص المماليك حليلة من بني اعباس يعتبر استمراراً لخلافة بغداد، قبل سقوطها في يد المغول عام 660 هـ، وحافظوا على استمراريتها، واحاطتها بمظاهر الشرعية، رغم تحريضها من أي محتوى سياسى أو سلطوي، إلا أنها بقيت تحتفظ بقدر ما من القيمة المعنوية والشرعية، كافي لدفع بعض ملوك الإسلام ليس للإعتراف بها فحسب، بل للسمي إلى الاستعصال على تثبيت شرعي من لحليلة، يقرهم على ما يبداهم من السلطان. ومنهم بعض ملوك الهند وسلاطين آل عثمان أنفسهم، مما منح الفرصة للمماليك، لاستغلال هذا الامتياز، هي تثبيت شرعيتهم وجني المكاسب لامساكهم برمام القدره على تثبيت شرعية الآخرين

ثالثاً - هيأت الظروف التاريخية للمماليك، أن يكونوا حماة العالم الإسلامي والمدافعين عن حماه، في مواجهة أشرس وأقوى عدو هاجمهم هي عقر دارهم لقد قدر لهم، أن يحرروا آخر معاقل الصليبيين في بلاد الإسلام، وأصعب بذلك حداً مشرفاً لصراع طال أمده بين الشرق والغرب. عجزت لخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية هي القاهرة، والدولة الأيوبية التي حمتها، عن حسم هذا الصراع لصالح المسلمين، وتمثل العدو الآخر، عالم المغولي التوتى الذي بدأ منذ وقت مبكر يفتاح شرق العالم الإسلامي وعلى موجات متعاقبة يفتش الموت والدمار حيث وصل، ثم ما لبث أن اجتاحت قلب هذا العالم، ودمر ما وصل إليه من حصونه ومدنه ومراكز حصارته، فتصدى له المماليك

وحدوا من اندفاعه جنوباً، بل وقدر لهم أن يتصرفوا عليه في أكثر من موقع، مما ساهم في إنقاذ الكثير من معالم الحياة والحضارة الإسلامية ولما اعتنق الموعول الإسلام، وصاروا من حماة لم يتوقف الصراع، لأنه تجد أحياناً بعداً مذهبياً بين الشيعة والسنة، مما زاد في معاناة الشيعة الحاصصين لسلطة المماليك، بعد أن أصبحوا موضع رغبة وشبهة، بممالة الأعداء، هي آخر عام 916 هـ أرسل سماعيل إلى القوري علة فيها رأس «أزبك خان»، أحد ملوك القنار، مع رأس سبه ووريره، مع أبيات من الشعر يمزج فيها التهديد بالسخرية وتلقى منه جواباً من نفس النوع، ولما هاجم اسماعيل بغداداً واحتلها، هرب ملكها ولد خان، مستحداً بالعوري، وكادت الأمور تسير نحو الصدام العسكري بين الدولتين

لم يكد القربلاش يؤسسون دولتهم الشيعية حتى طهر العداء واصحاً مع المماليك، ولو لم تحسم معركة مرج دابق الصراع بسقوط الدولة لمصرية، لاستمر الشاه يرسل إلى مملكة حصمه ما هو أخطر من الحوش، وأشد فتكاً فقد «نشرت أفكاره ودعوته، وتقاطرت رسله تستثير الناس، وبسئهم وقد قبض نائب البيرة على بعضهم وهم يحملون مكاتبات لقصاص الدولة في مصر، تعرض عليهم التعاون لقتال العوري وسليم معاً»¹ بعد أن أبرم معاهدة عسكرية مع البرتغاليين لتحالف في وجه الأتراك.

بن تأسيس دولة شيعية كبرى في فارس على أساس مذهبي، وانتشار تأثيرها في عمق الدولتين السنتين اللتين عاشى الشيعة لقرون طويلة من العيب والجور والتكيد تحت سلطتهما وقيام تنافس وعداء بين الدول ثلاث، واتحاد الأمور نحو التآمر السياسي والعسكري، بحيث أن نشوب الحرب بين الدول الثلاث أصبح مسألة وقت، أدى إلى ملاحظة الأمور التالية

1 - تحولت الدولة العثمانية من حامية لإسلام في العرب، وحاملة لواء شره في دار الحرب غرباً، ضد المسيحية إلى دولة سنية في الشرق، تقف في وجه الشيعة، بحيث أن هدفها الديني الأول الذي كان حتى الآن يتجه إلى تحويل المسيحيين إلى مؤمنين، أصبح

(1) تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية - عباس صباغ ص 233 تطلب من القصاص بأن يكتبوا إلى ملوك مصر بأن ياتوا بمراكب لبحر ويرحب هو برأ على سلطان مصر وبن عثمان (ابن ملج 4 ص 204) وقد أرسل عبد من الصموي بعثة إلى قورم شاسي لسمي إلى تحالف ضد العثمانيين، تاريخ فجر الدين ماريتي، ص 84

بعدها معاقبة الشيعة على هزطقتهم واعادتهم إلى الشريعة السليمة والصحيحة.

2- لم تكن دولة المماليك وسلطانها المعز متحمسين للصدام مع أي من الدولتين، بل اتبعوا سياسة المسايرة والانتظار، ومراقبة ما يحصل بين الجارتين لقويتين، وبعد أن كانت تجهد لمنع معتقدات الشيعة وردعهم عن صلالهم ورجاعهم إلى السنة والجماعة، وملاحقة المتظاهرين بالشتيع، وإباحة دمائهم وأموالهم، حمصت من تشدددها لكسب ود الشاه اسماعيل من جهة، وللإفادة من وقوف الشيعة إلى جانبها في حربها المرتقبة مع العثمانيين من جهة أخرى.

إن هذا الصراع الدولي الذي اتحد مطهراً وعمقاً دوليين، دفع شيعة لبنان إلى التوجه بحواطمهم وأموالهم وعلمائهم نحو لصمويين، باعتبارهم أئمة دولتهم الحقيقية، رغم أنهم لا يقيمون على أرضها، وهي الوقت نفسه، راد التناظر والعداء بينهم وبين العثمانيين، مما سبب لهم مزيداً من لقمع الذي تحطى ما لحفهم في ظل دولة المماليك في القرون الماضية.

أما لعثمانيون فلم يصفوا كثير من ضيبي وهارسي وكانوا يعاملون شيعة لبنان على أن «قتل هارسي واحد في الحرب أكسب أجراً عند الله من قتل ستين مسيحياً» وخصصوا حروباً مواريه لحروبهم في العراق وإيران، واستنعموا حتى القرن الثامن عشر، يطلقون على الحماديين الشيعة في حيل لسان اسم «القرلباش» بعد أكثر من ثلاثة قرون على اشتهاار هذا الإسم لدى أعدائهم للصمر² وأن قتالهم وأحب ممدس على الدولة وفرض شرعي على كل مسلم.

الشيعة والمماليك

حصص لبنان، هي العصر المملوكي لسيطة مركزية قوية وقادرة، أحكمت قبضتها على الاحد عشرة ولاية التي قسم إليها لبنان، والتي تتسع النيابات الكبرى الثلاث، دمشق وطرابلس وصمد من خلال تنظيم عسكري صارم، يعتمد على سلسلة من

(1) رحلة إلى جبل لبنان، دومنيكو ماعري، الماطي ص 88 Domenico Magri Moltese

(2) «لرؤوس الحمر» إسم أطلق على أنصار سعديين لصموي.

المراكز العسكرية الكبرى والدائمة، كقلاع بعلبك وحنجر والشقيف وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وتبنين، تعصدها سلسلة أخرى من الأبراج والأدواق، على طول الساحل. وكانت هذه المراكز العسكرية مشحونة بالجنود النظامية، من الأكراد والأتراك والشركس تحت قيادة صباط من المماليك، يرتبطون عملياً بالسلطان في القاهرة.

كان نظام الاتصالات الذي يربط هذه المراكز فيما بينها وبين قياداتها، يتمتع بقدر كبير من السرعة والفاعلية، فواسطه سرب الحيل، والحمام الراحل، والاشارات النارية في الليل، كانت أخبار الساحل تصل إلى دمشق في اليوم نفسه، ولم تكن تحتاج لأكثر من ثلاثة أيام لتصل إلى القاهرة.

أمن النورج العسكري المرن ونظام البريد المنقذ والسريع، بالإضافة إلى قرب مراكز النيابات وتعددتها، ووجود أمراء من القادة المماليك المحترفين على رأسها، قيام سلطة مركزية قوية ومنتاسكة، حالت إلى حد بعيد دون قيام تنظيمات محلية مهمة ومستقرة سواء على الصعيد الطائفي أو القبلي أو العائلي، كما سيحصل لاحقاً في العهد العثماني. لمد بقي الإقطاع تعيينياً، تديره الدولة، وتنظمه وتتحكم بحجمه وديمومته، وبقي معوطاً بديوان الحش في مركز النياية، بحيث يصدر عن هذا الديوان منشور رسمي يحدد صاحب الإقطاع، ومداه ومدته بدقة ملحوظة، وكان يعتبر عند وفاء السلطان أو نائبه، أو وفاة لأقطاعي، أو عرله فهو أقرب إلى موظف عند الدولة، يستمد وجوده وسلطته منها أكثر مما يستمد من عصيته أو ملائحته أو حمايته أو أية قوة ذاتية أخرى.

رغم احتفاظ العهد العثماني بالمظاهر الأساسية للتنظيم الإداري السابق، وعدم أجرئه أي تغيير يذكر في بنيته العامة، وهيكلته، وحتى في العديد من عناصره إلا أن الاختلاف يبدو واضحاً، وربما إلى حد النقص في روحيته وطبيعته.

سيطرت الدولة العثمانية على مساحات شاسعة من الأرض لم تعد الدولة المملوكية السابقة شكل إلا بعض أقاليمها النائية، بعد المساهات التي أصبحت تفصلها عن العاصمة الجديدة، ولضعف المواصلات والاتصالات، بين السلطة المركزية في اسطنبول ومن يعثلها في مراكز النيابات السابقة، كدمشق وطرابلس، بالإضافة إلى أن أمراء المماليك الذين كانوا يباشرون الأمور باسم السلطان في

مصر، هم في الواقع جزء أساسي من هذه السلطة، ومن أهم أركانها، وكل منهم هو مشروع سياسي «سلطان فادم» أما في العهد الجديد، فقد حل مكانهم باشوات دحلاء، وصلوا غالب الأحيان إلى مناصبهم عن طريق شرائها بأثمان مرتفعة، فأنحصر معظم مهمهم في الاحتفاظ بها و الانتقال منها إلى أخرى، أجرل نفعاً وأعظم مردوداً.

كان المماليك يصدرن منشوراً يعين بموجبه موظف تحدد مهامه بدقة، ويعدد بصورة حصرية أسماء القرى والمزارع التي تتناولها هذه المهام، وذلك لقاء موحيات محددة وكل ذلك تحت رقابة الحاكم الرسمي الذي لا يقيم بعيداً عن مكان الإقطاع، ويمسك الأمور بواسطة دراعه العسكرية المتواحدة دائماً، هي القلاع والحصون الخاصة له، والتي يمكن أن تتدخل في الوقت الذي يشاء وتقتضيه الظروف.

في ظل هذه النظام الصارم، الذي ختمت لنفسه بكامل القدرة على احتيار من يشاء لتولي الإقطاع الذي يرغب ومنحه له واستعادته في الوقت الذي يناسبه رغم أن هذا الاحتيار قد يبقى لمدة غير محدودة، محصوراً في أفراد عائلة واحدة، أو أسرة اعتادت على تولي مثل هذه المهام فقد بقي منشور التولية، وخدم، مصدر التكاليف والسلطة مما أبغى الإقطاعي في محيطه محدود التأثير، محدود الطموح، محدود المعالية، يصرف غالب جهده السياسي، للحصول على رضى السلطة ليبقى حائراً على انعاماتها، لأن عصبها سيفقده ميرته دون أن يكون بمقدوره الاعتماد على قوته الذاتية، أو عصبيته العائلية، أو الطائفية لذلك قلما حاول تدعيم هذه العصبية لاسيماها في تحدي السلطة أو الخروج عليها.

قد لا نجد في تاريخ لبنان إبان الفترة لملوكية، الكثير من الأسماء التي برزت على صعيد القوة أو النمود أو العصبيية، وقامت بمحاولات تمرد أو عصيان أو خروج على السلطة الرسمية، أو تحدي هيبتها، الأمر الذي سيصح من خصائص الفترة العثمانية الحافلة بمثل هذه المحاولات.

إن الحروب الشرسة والمتواصلة التي خاضها المماليك لطرد الصليبيين من جهة، ولصد هجمات المغول و غاراتهم من جهة أخرى، ألهت نار التعصب الديني والمذهبي، واشتعلت بمواراتها، مجادلات ومناقشات لا تقل شراسة عنها، تمثلت بالمناظرات الجدلية والتاريخية والفقهية، التي استعرت في هذه الفترة بين المذاهب المتنافسة، مما شجن النفوس بمريد من النمود و لبعضاء لدى الحكام والمحكومين على السواء، لا سيما

وأن التشيع قد استقطب أعداداً مهمة من المفلول، شملت حتى بعض ملوكهم وقوادهم، بتأثير من بعض المبشرين والدعاة الشيعة الذين استطاعوا الوصول إلى بعض حكام المفلول، عن طريق العمل في خدمتهم، أو تحب ظلمهم، أو في بلاطاتهم، مما حدا ببعض هؤلاء الحكام إلى ادخال عمليات القتل والتدمير والقتل التي يقومون بها، في دائرة الأخذ بناصر الشيعة، والاقتصاص لهم من الاصطهاد التاريخي الذي كانوا عرصة له. هذا الموقف الذي سيفاقله شيعة بلاد الشام على الأقل، تتصاؤل مشاعر العداء عندهم تجاه المفلول، عن سائر حيراتهم مما حملهم هدفاً لحملات التشكيك والاتهام، بممالاتهم، الشيء الذي لم يتوقف الشيعة عن نفيه دائماً، كما ينفون التهم التي تناولت تعاونهم أو تقاعسهم عن محاربة الصليبيين

عندما حسم الصراع في النهاية لصالح المماليك، على الحثين الصليبية والمعلوية كان من المنتظر أن يعرض الشيعة إلى التصف والتكيل، وحتى إلى حملات الانتقام والتشريد التي قامت بها بقسوة بائقة جيوش المماليك في لبنان، مستندة إلى قاعدة صلبة من رأي عام سني مؤيد وتكريس رجال الدين وتعاونهم، التي دعت عالياً، إلى اعتبار الشيعة مرتدين عن الاسلام، والمردة يكون شرعاً مهدور الدم والمال وقتاله فرص على جمهور المسلمين فأصبح كل ذلك من سياسة الدولة، طمئنه من خلال إصدار مراسيم وبواقيع يحظر معتقداتهم وتعز عقوبتها

هناك دلائل عديدة، على أن موقف الشيعة في هذه الفترة، تجاه المفلول والصليبيين، على فرض صحتها وثبوتها⁽¹⁾، ليست هي الدافع الأساسي الذي سبب السياسة القمعية المملوكية إزاءهم، وإنما قد تكون حجة، يرمي إلى تبرير القسوة المبالغ فيها التي كانت موضع اعتراض واستنكار لدى الكثيرين وسبباً لإقناع جمهور العامة بشرعية، وعلى الإجمال يمكن أن يكون القصد منها، لا يتجاوز خلق جو عام مؤيد ومساعد لحملات الاصطهاد المتكررة التي استهدفتهم ومن ملاحظ أن رسالة بن بيمية، هي تبرير هذه القسوة التي رافقت حملات كسروا، قد ركزت على بعض التصرفات الشيعية التي تندرج في باب تعاونهم مع أعداء الاسلام، إلى جانب التعريض بفساد عقيدتهم وممالاتها للسنة والجماعة، وتعاليم الشريعة، كما تنهها السلطة الحاكمة في ذلك الزمان، كما نلاحظ أن المنشور الرسمي أو ما يسمى «بنسخة توقيع»، الذي يقضي بمنع

(1) لا يزال الدور لعاصم للوزير الشيعي بن علقمة مثار جدل بين المؤرخين عند استيلاء هولاكو على بغداد ومقتل الحليلة العباسي مستعصم بالله في 17 كانون الثاني 1258م.

اعتقادهم، ووجوب استئصالهم، لا يورد غير فساد عقيدتهم، دون أن يتطرق إلى مواقف سياسية أو عسكرية مع أية جهة كانت، وإنما يكتفي بإيراد اتهامات اعتقادية، لا تتعدى المسائل المعتادة والاختلافات الشائعة بين المذاهب.

«تجروا على تعديل قواعد الدين، وأقدموا على بطل أقوال الأئمة المرشدين، وأعظموا الصرية فيما حملوا كلام الله ورسوله، وفرقوا إجماع المسلمين، واستحلوا المحارم، وارتكبوا العظائم، واكتسبوا الحرائم، وعدلوا عن سواء السبيل»⁽¹⁾

ويتضمن هذا التوقيع العابه من إصداره، وينص عليها صراحة، بعد أن يتوعدهم بأشد عذاب، وأشد نكال، دون الإشارة إلى أي مطلب، أو موقف له طابع سياسي، يتعدى هذا الإطار الفقهي والديني الضيق.

«الرجوع إلى السنة والجماعة واعتقاد مذهب أهل الحق وأن لا يدعوا سلوك أهل السنة الواضحة، وليداوموا على امتداد الحق والعمل بالسنة الصحيحة»⁽²⁾

يصح من هذا الموقف العدائي لموثق تحاد الشيعة، أنه لا يحتمل أية خلفية سياسية أو تأديبية عارضة، أو مرحلية، إنما يثبت ويعلن سياسة مذهبية عمائدية ترمي إلى قمع الشيعة، بسبب اعتقادهم واحسانهم المذهبي عن مذهب الحكومة، ويرمي إلى إعادتهم إلى حظيرة الاعتقاد المستقيم، أو القضاء عليهم باقتنائهم أو تدوينهم في المذاهب الأخرى.

لقد أظهر الممالك ساهلاً مع غيرهم في أمور أكثر خطورة، وأوضح دلالة في تعاملهم مع العدو أو الإنصار له.

إن جمال الدين حجي من أمراء العرب الفتوحيين، حارب مع الممولى في معركة عين جالوت الحاسمة، بينما حارب ابن عمه في المعسكر المناهض، كما سجن عدة أمراء من نفس الأسرة، بتهمة التآمر لمصلحة الصليبيين، ثم ما لبث أن عفي عنهم، وكان غيرهم قد حصل على أقطاعاته في العمروسية من صاحب بيروت الصليبي «همري الفريجي»⁽³⁾ (Humfroy De Montfort) كما حصل آخر على تثبيت أقطاعه من القائد الممولى «كتف» نائب تيمورلنك، دون أن يتخذ المماليك بعد انتصاراتهم، أي إجراء عقابي في حق أي منهم، أو غيرهم في الحالات المشابهة.

(1) صبح الأعشى، القلقشندي ج 13 ص 135

(2) نفس المصدر

(3) تاريخ بيروت، صانع بن يحيى ص 73، واستمر القائد نصيري في صغوبة بيروت من 1264 م حتى 1283 م.

(4) المصدر السابق ص 52 وكتبة قائد مسيحي بصوري في التحيش الممولى لتسلم رمام الأمور في دمشق بعد فتحها في آذار 1260 م وقتل في معركة عين جالوت في الثالث من أيلول من نفس العام.

«إن ذنبهم أنهم اقتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه وعملوا به وقرروه وبثوه في العامة ونشروه واخذوه ديناً يعتقدونه وشرعاً يعتمدونه»⁽¹⁾
 «إن هذه الأمور التي فعلوها والمذاهب التي انتحلوها، تبيح ذمهم وأموالهم، وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم، فالعقوبة على اعتقادهم وليس على أي فعل أتوه».

لم يكن من الغريب أن تؤدي سياسة المماليك تجاه الشيعة، وعزمها الأكيد على استئصالهم، وممارسة كل أنواع الصعوط والتكيد بحوهم، إلى انحسار وجودهم المكثف في المدن الساحلية المهمة، حيث يتواجد بواب المماليك وعساكرهم، والسكن بعيداً عن متناول يد السلطة، هي الجبل الشاهقة والوعرة التي يجدون فيها مكاناً آمناً، وحماية طبيعية، تحد من وصول اليد التي يحشونها ويحسبون لبطشها حساباً كبيراً.

«إن كل من تظاهر بشيء من بدعهم قول بأشد عذاب وأشد نكال»⁽²⁾
 إن هذه الهجرة القسرية، أصبحت المجاني، أمام السلطات لاسكان أعداد متزايدة من التركمان والأتراك مكانهم حيث يستفيدون من وجودهم، هي مهمة رقابية عسكرية مزدوجة، أمام غارات الفريج من الخارج، وتحركات المصموعين الشيعة في الداخل لم تكن هذه السياسة حديثة على الشيعة، عهد المماليك هي عهد الدول السابعة منذ عهد الدولة الأيوبية إلا أن ممالك أصفاء عليها الطابع الرسمي، باعتمادها منهاجاً مستمراً، بنى عليه الكثير من قررات الدولة الأخرى وقد أمر السلطان الظاهر بسرس سنة 1267م باتباع المذاهب السننية الأربعة وتحريم ما عداها، ولم يكن للشيعة الحق، في وظائف القضاء، والإمامة، والتدريس، حتى ولا تقبل شهادته في المحاكم⁽³⁾ فكان لناس د، أرادوا الكيد لشخص، دسوا عليه من رماء بالتشيع⁽⁴⁾ فتصادر أملاكه ونهال عليه العقوبات⁽⁵⁾

لقد تناقصت أعداد الشيعة من سكان مدن شكل مصطرد خلال الحقبة المملوكية⁽⁶⁾

(1) نفس المنشور السابق

(2) إيواعظ، المقريري، الجزء الرابع ص 161 بقية لبنان محمد علي مكي ص 217

(3) المصدر السابق، ص 218 عن الدرر الكامنة من حجر، الجزء السابع ص 161

(4) تاريخ الشيعة في ساحل بلاد الشام لشامي، هشام عظم ص 109

(5) عشية دخول العثمانيين، كانت مدن تكبيرة مثل صيدا وطرابلس وحتى بعلبك حالة تماماً من الشيعة ولم يكن في بيروت المدينة التي عرفت ثورات شيعية صرفة في أوائل العهد المملوكي الا أقلية ضئيلة تسكن هي إحدى الصواحي الجنوبية مع أن هذه المدن لم يحنو من سكان بشاري ويهود.

إلا أن ذلك لم يمنع الحاكمين من مطاردتهم في الحبال التي هربوا إليها، فكانت ما عرف في تاريخ لبنان «بمتوح كسروان».

عاشوراء كسروان

في مستهل القرن الرابع عشر، وبعد سلسلة من الحملات العسكرية، شن المماليك الفارة الأخيرة والحاسمة على أهل كسروان بعد أن «كثروا وطفوا، واشتدت شوكتهم وامتدوا إلى أدي العسكر عند انهزامه، من التتر، في سنة تسع وتسعين وستماية، وتراخى الأمر عنهم، وتمادى وحصل اغفال أمرهم، فزادوا طغيانهم، وأظهروا الخروج عن الطاعة، واعتزلوا بحبالهم المنيع، وجموعهم الكثيرة، وأنه لا يمكن الدخول إليهم، فاجتمعت عليهم العساكر 50,000، مقاتل، واحتوت على جبالهم، ووطئت أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً يطأها، وقطعت كرومهم، وخربت بيوتهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وتمزقوا في البلاد، واختفى بعضهم، واضمحل أمرهم، وحمل دكرهم، وجعل المأوى في بلاد بعلبك وجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش، فأخلا من كان بأخر في جبال كسروان، وقتل من أعيانهم جماعة ثم أعطوا أماناً لمن استمر في غير كسروان».

أثارت هذه الحملات الكثير من العموص والتناقض والالتباس لدى المؤرخين ولا تزال مدار جدل وتأويلات بين الباحثين المحدثين إن من حيث طبيعتها أو من حيث المدى الجغرافي الذي بلغته، وعلى الأخص من حيث هوية الدين استهدفتهم

تسبق هذه الحملات من حيث هي حدث تاريخي، العصر الذي يؤرخ له رمزياً، ولكن تأثيرها في الأوصاع الجغرافية والسكانية، وتنقل الطوائف، امتد إلى

(1) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى ص 28 عدد مقالاتين عن السلوك المبرزي ج 2 ص 389. واليهوبي ص 516 وكانوا خمسين ألف راحل عبر العسكر بداية طرابلس القطار ص 89 ومن نهب امرأة كانت له جارية، أو صبيها كان له مملوكاً، ومن أحضر منهم ر ساً ظه بهار وإن سقر توجه لاستئصال شائقتهم، ونهب أموالهم، وسبي دراريهم وهذا يؤكد أن الجيش المهاجم لم يكن يعتبرهم مسلمين ولا من أهل الدعة صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ص 209

القرون اللاحقة، وشمل معظم أنحاء لبنان، ولا سيما البقاع وجبل عامل وجبل لبنان، فإن حراب كسروان وتشتت سكانها، لم يكن الهدف الوحيد لهذه الحملات، إنما تدأخلت فيه عوامل طائفية وعرقية ومذهبية كثيرة متشعبة.

هناك اختلاف واضح و صطراب شديد، في تحديد هوية الكسروانيين المذهبية إنسان هذه النكبة التاريخية فهي حين بحرم النعمان، أنهم كانوا من الموارنة ويرى، فيما حصل، أحد المصوّل المهمة في الصراع المسيحي الإسلامي في الجبل. يجعلهم الآخرون دروياً أو من الظنبيين أو حتى من الإنصاريين والصيريين فيما يرى فريق ثالث أنهم كانوا مريحاً من كل هذه المذاهب ومن شيع أخرى قد لا تكون وطأت أرض لبنان في أي وقت مضى⁽¹⁾

إن بواعث هذه الحملة وأهدافها ونسائحتها، وما رافقها وأعقبها، تؤكد أن أهل الحرد والكسروانيين كانوا من الشيعة الإمامية الاثني عشرية، دون غيرها من فرق الشيعة الأخرى، أو على الأقل، كان أتباع هذا المذهب، هم المستهدفون الوحيدون، من هذه الحرب دون غيرهم. حتى إذا افترضنا وجود أقطاب صنيعة العدد، وعبر دات شأن تعيش بين أكثرية شيعة ساحقة على هذه المعامل الحنبلية الوعرة،

إن هذه الحرب، نصنف في هذه لحروب الدينية المذهبية التي ترمي إلى هدف واضح وأكد. هو إخلاء هذه الحبال من الشيعة بفتانتهم وإجلاء من هذا يسمى منهم واسكان عناصر معايرة في المذهب مكانهم وهذا ما دفع النعمان إلى تسمية هذه الملحمة التي وقعت في محرم من عام (705 هـ 1303 م) عشواء كسروان⁽²⁾

يقول أحد المؤرخين اللبنانيين، بعد أن عرّض لهذه الحرب على طريقتة ووفق رعايته

«في تلك المعركة تكوّن أو ولدت أو تكرست فكرة لبنان الوطن القومي للدروز والنصارى معاً، هكذا كسروان النصارى وجرد الدروز، هما مهد لبنان بالمعنى الحديث⁽³⁾».

ويقول آخر

(1) تاريخ الامة النبوية ص 286 وما يليها وص 287 المطران دريان ص 70 وما يليها بن القلاعي وكثيرون غيرهم ويتوهم لطران دريان بهم من نقايا الإفرج لدين هريو، من انطاكية بعد ستمادتها فاسكنهم بطريرك الموارنة في حبر لبنان

(2) ابن سباط ج 2 ص 588 المملوك المعري ج 2 ص 231 د جع أبو لهداء وابن الورد حول حوادث 705 هـ

(3) الحقائق الراية، الشيخ اعنا برك لصهراني ص 192

(4) تاريخ الموارنة، بطريرك صو، الجزء الثاني ص 528

«إن أبرز أهداف معركة فتوح كسروان التي تشكل محطة تاريخية كبرى هي تاريخ لبنان هي صرب الإستقلال اللبناني وتحرير سكانه الموارنة والدرور واسكان الشيعة محلهم»⁽¹⁾

لم يكن ثمة وجود ماروني أو درزي في كسروان في ذلك الوقت، وبالتالي لم يكن أي وجود من هذا النوع مستهدف في ذهن المعبرين. لقد كانت هذه الحرب نتيجة مناخ عام، أوجدته مواقف سياسية وعسكرية ومذهبية معينة، وسبقته مناقشات فقهية ودينية، لم تؤد إلى تقارب ما، وهو ما جعل اللجوء إلى عطر بدلاً من فرض نفسه لحسم الموضوع لا يميز جمهور السنة عادةً وحتى الآن. كما كان الحال في الماضي، بين مختلف المذاهب الشيعية المتقاربة والمتباعدة في فكرها ودقيقها العلوية والاسماعيلية والشيعة والنصيرية والرافضة، تعني في الواقع شيئاً واحداً في ذهن العامة، من الصعب التصريح بينها، رغم أن السابن العقلي والاعتقادي، ليس الوحيد، الذي يصنف كلاً منها، وإنما يتعدى ذلك إلى سمات عرقية وثقافية واجتماعية مختلفة تظهر بدون مشقة عند كل فئة من اتباع هذه المذاهب، لذلك كان إطلاق أي من هذه التسميات أو كثير غيرها، كافياً وواضحاً للدلالة عند جمهور المؤرخين السنة عن الشيعة إطلاقاً دون تحديد أو تمييز بينها على خلاف ذلك، كان أهل العلم على دراية بدقائق هذه المرق على قدر اطلاع كل عالم منهم، وهذا أمر ينبغي لأن من تعمق في تفاصيل المذاهب الشيعية، والفروقات بينها يستطيع، بسهولة، أن يميز كل فئة من خلال معتقداتها وتأويلاتها، لما طرأ على الإسلام من تطورات سياسية، وسياقات إيمانية ومجادلات فقهية، وإن كان الجميع يشتركون في شيء واحد، وهو الخروج عن التفسير التقليدي الذي حافظ عليه جمهور السنة وعموم المسلمين

وهي مقدمة هذه الفئة يأتي الإمام ابن تيمية أشهر علماء عصره، وأهم من دعا إلى هذه الحرب وساهم في القيام بها، بفقهه واعتقاده ومكانته وسيفه وكان حجة في إطلاعه على كافة المذاهب الإسلامية، و«شيعة الإمامية الحعفرية الاثني عشرية خاصة، وكان له اهتمام خاص بمناقشة كبر أئمة هذا المذهب، والرد عليهم، وتسفيه معتقدهم، والانتصار لمذهبه والتشدد فيه وقامة الحجة على صحته وبطلان ما عدا، وقد ترك لنا هو ومعاصروه، رسائل متنوعة ومؤلفات جامعة، ترخر بمناظراته مع أئمة سائر المذاهب، كالجهمية والمعتزلة والقدرية، إلا أن الإمامية استأثرت بأوفر نصيب من

(1) إيليخ من المصبي إلى الحاضر، كميل سلامة ص 115

مناقشاته الفقهية ومحاوراته الجدلية و لمسلمية، مما يؤكد سعة اطلاعه على دقائق وأركان وعادات وقباعات هذا المذهب وغيره¹.

كما صنف هذا الفقيه السني المتشدد كتباً من مجلدين في الرد على أهل كسروان، لا بد أن موضوعه لا يخرج على حدود الجدل العنيف الذي ولع به حول الخصائص الفقهية والكلامية عند الشيعة².

وهذا تأكيد آخر على أن هذا الجيل قد عرف تشيع سكانه واشتهر بهذه الخصوصية مما دفع ابن تيمية إلى توجيه مصنفه تحديداً إلى أهل كسروان دون غيرهم من الشيعة في سائر البلاد.

تميزت هذه العترة بعبارات متتاعة يقوم بها التتار على سوريا، فينحج المماليك في صدهم حيناً ويعمقون أكثر الأحيان فكان للاستنصارات التي حققها قاران، واحتياجه دمشق وعمر المماليك عن صده، أثر نفسي عميق، ألهم الشعور الديني والمذهبي عند عامة أهل المدينة، كما عند أعيانها وعلمائها وحكامها، وولد موجة حماسية دينية عارمة، أدت إلى حرص بدايكة قاسية وقيود عسيرة، على انبعاث الديانات والمذاهب الأخرى فتعرض الشيعة لأقسى الأعمال الاستقامية، بعد أن اتهموا بممالأة التتار وانتشروا مقتضاه العداء بحوثهم، والرغبة في الانتقام منهم، وتآديهم هاتري رجال الدين، وعلى رأسهم الإمام ابن تيمية، يثيرون في الناس روح القتال ووجوبه شرعاً، واعتبار قتال الكسرويين عروة مقدسة هي سبيل الله وهي فرض على عامة المسلمين يؤخر من يماهم فيها ويؤثم من يتخلف عنها.

إن النصير الديني، أدخل الهجوم المرتصب في دائره الحرب المقدسة والجهاد الشرعي، وما يمتصيه ذلك من مبالغة في لقسوة والعنف والاستجابة لإرادة الله هي إنزال الحكم الشرعي بالمذنبين.

يورد الشيخ ابن عبد الهادي سبباً لقيام هذه الحملة «المقدسة».

«أولاً: كون أهل هذا الجيل نعاة رافضة سيابة.

ثانياً: إن جبل الصالحية لما استولت الرافضة عليه، عند استيلاء الطاغية قاران، أشار بعض كبارهم بنهب الجبل ومبى أهله وقتلهم، وتحريم مساكنهم انتقاماً

(1) شيخ الإسلام ابن تيمية، لشيخ محمد بهجة بيطار ص 129 - 131.

(2) هوث لوهيات الجزء الأول ص 77 (لأسميس ساريخ الشيعة المهاجر ص 150) وهناك معلومات عن فقه شيعي يبدو أنه كان د مكانة عالية هو ابن العشرة لكسرواني

منهم، لكونهم سنية، وسماهم ذلك المشير «نواصب، فكوفىء الرافضة بمثل ذلك، بإشارة كبير من كبراء أهل السنة ورد بورن جراً على يد ولي الأمر وجيوش الاسلام»⁽¹⁾.

إن هذا الكاتب، هو رجل دين معاصر لحملات كمروان ومؤيد لها، يأتي على ذكرها في معرض تقريره لاستاده ابن تيمية، فيقل ما سمعه على السنة الناس ساعياً إلى تبريره من منطلق استاده بمصه

تبرر هي حيثيات هذا التقرير وقائع تاريخية حاسمة، تأتي على مسبباته وإطاره الشرعي. والرأي العام الذي أرره ليصل إلى تأكيد واضح، بأن هذه الحرب قامت باسم الدفاع عن الدين القويم، على يد ولي الأمر شرعي لتنفيذ الحد الذي توجبه الشريعة على من أساء إلى الاسلام الصحيح

إن أهل كمروان «رافضة سيئة»، وهما تعبيران حص السنة بهما الشيعة الامامية وحدها، دون غيرها من المذاهب. ولا يمكن أن يشعلا أو يشيرا إلى أية طائفة أخرى ولا سيما الدرور والنصيرية كما أطلق الشيعة قسمة النواصب على السنة، رداً على تسميتهم بالرافضة وهذه التعابير والمصطلحات معروفة ومتواترة عند العام والخاص ولا يثير تمسيها أي ليس أو جدل.

إن حبل الصالحة السني، هي دمشق مقرب جين كمروان الشيعي، والعماد شرعي وعادل لأنه على يد ولي الأمر، وحيوش الإسلام ثم بروي هذا الشيخ واقعة على لسان استاده، تريد من تأكيد إمامية الكمروانيين وتثبيتها، عندما تحاور ابن تيمية مع أحد أهالي حبل كمروان له إطلاع على مذهب رافضة، وكان البحث يدور حول عصمة الإمام علي عن الصفائر والكناثر هي كل قول أو فعل⁽²⁾.

ومن المعلوم، أن الشيعة الإمامية المردوا وحدهم بالاعتقاد بعصمة الامام، وللمذاهب الباقية كالدرزية والنصيرية والاباضية، اعتقاد هي الإمام علي شديد الاختلاف عن مبدأ العصمة

إن رسالة الإمام ابن تيمية، إلى الملك لناصر هي القاهره يبلغه بتفاصيل الحملة وبواعثها ومناهجها مبرراً القسوة الشديدة التي عتمدها العسكر في قمع العصاة وتأديبهم، تلقي الكثير من الضوء على حقيقة أسبابها وأهدافها وتحسم الجدل حول أي التباس أو غموض يحاول البعض أن يثيره عن هوية سكان كمروان المستهدفين وحقيقة مذهبهم.

(1) العقود النورية، محمد بن أحمد بن عبد الهادي ص 180

(2) المصدر السابق ص 181

يقول ابن تيمية في وصف أهل كسروان

«أهل البدع المارقون، ودوو الصلال المافقون، الخارجون عن السنة والجماعة، المارقون للشرعة والطاعة، مثل هؤلاء الدين غروا بأمر السلطان من أهل الجبل والجرد والكسروان، هم وأهل هذا المذهب المنعون، مثل أهل جرّين وما حواليتها، وجبل عامل ونواحيه.. لأن عندهم أن كل من لم يوافقهم على صلاتهم، فهو كافر مرتد، ومن استحل الفجاء فهو كافر، ومن مسخ على الحسين فهو عندهم كافر، ومن حرم المتعة فهو عندهم كافر، ومن أحب أن يكرأ عمر أو عثمان أو ترضى عنهم فهو عندهم كافر ومن لم يؤمن بمنظرتهم فهو عندهم كافر، وهذا المنتظر حي صمره سنتان أو ثلاث أو خمس، يرعمون أنه دخل السرداب من أكثر من أربعماية سنة، وهو يعلم كل شيء وهو حجة الله على أهل الأرض فمن لم يؤمن به فهو عندهم كافر.. هذا هو المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم، مثل بني العمود فإنهم شيوخ أهل هذا الجبل»

إن كل ما ورد في هذه الرسالة، يشير إلى هوية أهل الجبل والجرد وكسروان والمذهب الذي ينتمون إليه، دون أن يشمل تفسيراً أو اجتهاداً أو رأياً يلقي بعض الشك على ذلك أو يحالمه وهي المسند التاريخي الأهم الذي يعسر أغلب الأمور التي أثّرت حول هذه الحرب وأن ليس من المستبعد أن أحد ينتمي إلى «حس الاسماعيلية والنصيرية والحاكمية والباطنية» وهي المذاهب التي ذكرها في مكان آخر من رسالته، معسراً أهلها أكثر من اليهود والنصارى، «حماة المسلمين، ناصحاً السلطان، بما يحب عمله لإدخالهم إلى حظيرة الاسلام» بهم شيعة امامية اثني عشرية حصراً وإن مذهبهم كمذهب أهل جرّين، وما حواليتها، وجبل عامل ونواحيه ومذهب أهل جرّين هي ذلك الثمران، وجبل عامل حتى اليوم لم يكن محل خلاف في أي وقت،

كانت «لعمري» من هذه الحملات المتعقبة، تتجاوز الرعية في تأديب العصاة والاقتصاص منهم، بسبب مهمة التعاون مع السار، أو الحاق الأذى بالجيش المملوكي المنهزم، أو إعادة متمردين شقوا عصا الطاعة، إلى حظيرة الدولة، إما كان هالك تصميم على إخلاء منطقة العمليات من مكناها، إخلاء كاملاً مقصوداً ومديرأ ومخططاً له بعناية يقول صالح⁽²⁾.

«والسائم منهم تصرفوا في جرّين وبلاها، والبصاع وبلاذ بعليك. وبعضهم أعطوه الخولة أمانهم وجعل الناطق في بلاد بعليك وجبال الكسروانية بهاء الدين

(1) المصدر نفسه ص 186

(2) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى ص 28

قراقوش فأخلا من كان تأخر بجبال كسروان. وقتل من أعيانهم جماعة، ثم أعطوا أماناً لمن استقر في غير كسروان،

إن الشيعة المستهدف في هذه الحرب، هو الساكن في كسروان، وله الأمان عندما يتركها لا قتل ذلك.

إن العاية الأولى، هي إحلاء كسروان من أهلها وقتل من يرفض معادرتها إلى جرين، أو بعلبك، أو جبل عامل لأن المطلوب قبل كل أمر آخر هو الاستيلاء على البلاد، أرضاً بدون سكان، لإسكان التركمان فيها

وهذا الأمر يؤكد أن تنمية عندما يبرر قطع الأشجار، بأن العاية منه منع الهاربين من النخعي وراءها وأن الكسروانيين لن يتركوا بلادهم، إلا إذا جلب من الشجر فمن ترك كسروان، من أهلها ينحو بنصه ويأمن عبيها، أما من بقى فيها، فليس له إلا عقوبة وحيدة وهي نصل، لأن العاية واضحة لا لبس فيها وهي إسكان التركمان مكانهم.

فإن القوم لم يحصروا كلهم من الأماكن التي احتتموا فيها ويئسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار ولا كانوا يختتمون حيث لا يمكن العلم بهم وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم لأن التركمان، إنما قصدهم الرعي وقد صار لهم مرمى وسائر الملاحين لا يتركوا عمارة أرضهم ويحيثون إليه،⁽¹⁾

في رسالة ابن بعية نقاط ثلاث ذات دلالات حاسمة، تحدد بدقة من هم المستهدفون بالقتل والإحلاء، وتدمير البيوت وقطع الأشجار، ولا تترك أدنى التباس حول هذا الموضوع مهما تماهى عنها أصحاب الجهالة والهوى، وبلغت بهم الرعية، في أن يكون أهالي كسروان الذين تعرضوا لكل هذه المكبات موارية، أو دروزاً، أو من اتباع المذاهب الباطنية الكثيرة، التي لم يعرف لبنان معظمها في أيه حقبة من تاريخه.

أولاً إن من نجا من سيوف المهاجمين، هرب أو أجلى إلى جرين وما حوايلها، وحبل عامل وبواحيه، وبلاد بعلبك. فلماذا هصر الهاربون هذه البلاد البعيدة سبباً عن كسروان منجاً لهم، ولم يقصد أحد منهم بلاد الموارية الملاصقة أو بلاد النصيريين إلى الشمال أو بلاد الدرور القريبة التي تحاور بلادهم جنوباً، والوصول إليها، لا سيما أن سلوك الشعاب الجبلية المحاذية التي يسهل احتيارها، والتخفي في شعابها، أسر صالاً، وأقل عناء، وأكثر أماناً، من الوصول إلى مناطق الشيعة الأبعد في جرين والبقاع

(1) رسالة من تيميه في المصدر المذكور لا يزال يجري على سنة لماعة حتى ليوم تبير حكم قراقوش لدلالة على القسوة والظلم.

وحبل عامل، دون أن يتوقفوا في البلاد المحاورة، حيث يجدون في وعوره المسالك، وترحيب السكان المتحاسين مذهبياً، مأمناً قريباً بأروى إليه وهذا ما يحصل عادة في ظروف مشابهة إلا إذا كانت عمية المطاردين الوصول إلى حيث يجدون في حماية اخوانهم في التشيع ملاذاً طبيعياً، يرجعه لتعكير لسوي، والمنطق السليم فإن البلاد المقصودة كانت وما زالت، حتى يومنا هذا أهلة بالشيعة الامامية، ما حلا جزين التي انحصر عندها التشيع في عصر لاحق كما هو معروف وشائع

ثانياً يعدد الإمام في رسالته، بعض لأمر لسادية ولتفقيه والاعتقادية التي تحالف مذهب أهل السنة وأهمها

أ - المسح على الخفين،

ب - حواز زواج المتعة،

ت - تحريم القناع

ث - ما ينسب إليهم من سب بعض الصحابة

ج - انتظار ظهور المهدي.

إن هذه المسائل الخمس، تحتص باعتقادات الشيعة الامامية وحدهم، دون أن يشاركهم فيها أحد من اتباع المذاهب الإسلامية الأخرى كانت ولا زالت من الأمور المشهورة عنهم، والتي تثير الكثير من المناظرات والنقاش حتى اليوم، وهي لا تحتج كلها في اعتقادات أي من المذاهب الأخرى، التي لو كانت، في ذهن أو قصد ابن تيمية عند كتابة رسالته، لذكر اعتقادات أخرى أكثر إثارة لنفور علماء السنة واستنكارهم من كل ما ذكره،

فليس في كل ما عدده ما يختص بالندرية أو البصيرية أو الاسماعيلية، أو أي مذهب معروف آخر حتى من المذاهب البائدة اليوم ومعني عن البيان أن المارونية وسائر التحل البصرانية، عاثبة تماماً عن كل ما كتبه ابن تيمية، وعبره عن حروب كسروا منها يحسم موضوع نواحدهم في المنطقة المستهدفة في ذلك الوقت،

ثالثاً: يقول ابن تيمية

«بني العود هم شيوخ هذا الجبل (كسروا) يأمرؤهم بقتال المسلمين ويستونهم بهذه الأمور وقد حصل بأيدي طائفة من كتبهم تصنيف ابن العود»

(1) يبدو من كثرة عدد المهاجمين والمدافعين (بيع عدد الزمارة التي عشر ألفاً دون غيرهم من المقاتلين) السلوك القريري انجرء الأول من 903، إلى حبال كسروا ربما كانت تشمل في تلك الفترة بالإضافة إلى المتن أجزاء من جبل والميطرة وفتوح بني رجال

«إذا أمسك رؤوسهم الذين يضلونهم مثل بني العود زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله».

بنو العود عائلة دين وفقه واهتداء، على مذهب الإمامية، اشتهر من أفرادها كثيرون في مختلف ميادين التصنيف والافتاء، وكثر طيلة قرون من شيوع المذهب. حفلت كتب السهر بتراجم بعضهم وذكر آثارهم. وفي «أمل الآمل» لا يخل عن ترجمة خمسة من مشاهيرهم، يبدو أنهم انتشروا بعد النكبة، هي محسن أنباء سوريا، وخصوصاً في حربين، في عصرها الشيعي الذهبي، حيث عاش بعضهم، واسماؤهم معروفة ومشهورة ومتواترة هي كتب الشيعة وغيرها من التراجم، تورثوا التبحر في العلوم الدينية، والتشيع، لقرون متعاقبة، مثل الشيخ بهاء الدين محمد علي بن الحسين العودي الحزيني من تلامذة الشهيد الثاني⁽¹⁾ ومحمد بن موسى بن الحسين بن العود، وشرف الدين حسين بن نصير الدين بني العود والأخير من علماء القرن الثامن، كان مقيماً في حلب ثم انتقل إلى حزين، مأوى الرافضة فأقبلوا عليه⁽²⁾ وغيرهم كثيرون.

هذا هو مذهب شيوخ هذ الحبل كما وصفهم بن تيمية، ومذهبهم معروف كمذهب جميع أهالي كسروان، الدين واحهوا، هذه الفكاهات على يد الممالك، واستمروا صامدين قروياً عديدة لاحقه، ولم يتركوا كسروان إلا مرجعين، وعلى امداد مئات المنين ولا زال بقية باقية منهم حتى اليوم

الشيعة بين الممالك والعثمانيين

«سقطت دولة الممالك، وقام على انقاضها دولة العثمانيين، فخضع الشيعة لسلطان سني آخر، أشد قزماً من سلعه وأكثر تحاملاً، فاستحصل من بعض شيوخ مذهب على فتاوى ترى أن الشيعة خارجون على الدين، يحب قتلهم، فأمر بقتل كل من كان معروفًا بالتشيع داخل بلاده، حتى لم يبق شيعي واحد في مدن كان التشيع فيها راسخاً ومنتشراً»⁽³⁾.

(1) أمل الآمل ج 1 ص 166، ويعرف بابن المودي

(2) شيخ الشيعة وأمامهم وآبائهم ابن كثير ج 13 ص 287

(3) الشيعة والحاكمون، محمد جواد مغنية ص 194

الدول الإسلامية الثلاث



كانت المتأوى الشرعية تتوالى بالمعنى بمعنى، هي عهد الدولة العثمانية المعاصرة، مما جعل سياسة البطش والتنكيل إزاء رعاياها الشيعة، هي السياسة المعتمدة غالباً وإن كانت فسوتها والتقييد الدقيق بها يختلف باختلاف الظروف والأشخاص والسياسات

تحولت الطوائف إلى مثل معترف بها رسمياً، تتمتع كل منها بامتيازات معينة وحماية دولية فاعلة، واستمر الشيعة خارج هذه الأطر وظلوا في نظر السلطة، مجموعة أفراد، تصنفهم الدولة في حده المشبوهين دائماً، والأعداء أحياناً، خصوصاً عندما تكون الحرب بينها وبين فارس معلنة ومستعرة وهي حرب دامت على تقطع لمدة طويلة من الزمن.

لم يستسلم الشيعة في لبنان لهذا نواقص الصعاب، وتجنبوا السكن في المدن، مفضلين الحال المنبعا ينشدون الأمن والحماية في وعورة مسالكها ومعايرها، يدفعون

أحياناً الضريبة السلطانية المقررة لتحبب عصب الولاة العثمانيين، واستبعاد شرهم. وهم يعرفون أوليه هذا الأمر لديهم وإنما كن لهم سياسة عامة ثابتة مستقرة ودائمة كمجموعة تشعر بوحدة انتمائها ومصالحها ومصيرها وتحاول بما ملكت من وسائل، وما تسمح به الظروف أن تدفع الأذى عن كيائها وأفرادها، وتدافع عن استمرار وجودها، وتدعيمه وترسيخه، بكل الوسائل المتاحة هي الميادين السياسة والعسكرية والمدنية.

توهم بعض الباحثين والمؤرخين، ولا سيما الأوروبيون منهم، أن مصير هذه الطائفة هو الروال والتلاشي في مستقبل قريب لكن هذه النبوءة لم تتحقق بفضل عوامل تتعلق بالظروف التاريخية العامة وبالحمد الديني، والسياسة النشطة التي اعتمدتها هذه الطائفة وأدت إلى عكس توقعات بعض المتشائمين

يمكننا من خلال استعراض تاريخ لسان العثماني، منذ بديته، أن نستخلص ونتلمس خطوطاً سياسية عامة أو بعض الملامح البارزة لهذه الخطوط على الأقل، سار عليها الشبيعة في مختلف مباحثهم، واعتمدوها في سياق تاريخهم وربما دون تحطيط مسبق، وإنما بدافع من الضرورة والدفع عن ذات والوجود، والبقاء والتطور، بالمساهمة في التاريخ العام المشترك، لمختلف المجموعات والطوائف التي عاشت إلى جانبهم في بقعة مشتركة من الأرض، وبما عاينوا معها على مر العصور، بحيوية متبادلة، كوت يبينهم نقاط التواء عديدة رغم أن أدرب حصن بما لا يمكن تحايله من حواجز وصعوبات

ومن المرجح أن يستهوا بالروال وأن يواروا معهم حتى اسم هذه الأمة⁽¹⁾.

هذا ما قاله «هولني» (volney) الذي زار لبنان سنة 1782م في فترة صعبة من تاريخ الشبيعة على اثر النكبات التي حلت بهم في الحس، وجبل عامل والبقاع، وتمرصوا خلالها لأقسى حملات العنف والإهراء والتهمجير، في مؤامره رسمت بسقة وعناية مدد سنين كثيرة واشتركت في تنفيذها جهات دولية ومحلية عدة

(1) voyage en Egypte et en Syrie volney p 247

(2) Le pays des Métoualis comprenant ci - devant la vallée de Bequâa jusqu'à Sour.

"Mais ce peuple a essuyé une révolution qui l'a presque anéanti"

voyage en Egypt et en syrie volney p. 193.

«إن بلاد المتاولة، تضم وادي البقاع حتى صور ولكن هذا الشعب قام منذ فترة بثورة أفتته تقريباً»⁽²⁾ ولكن نبوءة «فولسي» (volney) لم تتحقق رغم أن جهات نافذة وقادرة كانت تسعى إليها وقد سمحت بقوانين التي ترعى رفع السرية عن الوثائق الرسمية لدى الدول، والكرسي لرسولي والأرشييف العثماني. بتوصيح أسباب ما تعرض له الشيعة هي المترة الساقطة لريادة هذا الرحالة الفرنسي إلى لبنان، بعد أن كانت دراستها سابقاً تثير الريبة والتساؤل حول ماهية العموص الذي يكتنف الأساطير الكامنة وراء هذه الحوادث التاريخية السالمة التأثير في تاريخ لبنان، التي امتدت إلى حاضره وهي تبدو لنا اليوم، حلقات متعددة هي سلسلة مترابطة، تهدف إلى غاية نهائية واحدة، وكل ما يبذل في سبيل الوصول إليها من جهد بالغ الفعالية، تقف وراءه قوة نافذة تحرك الأمور في اتجاه واحد، يصب في افعال حملات عسكرية وسياسية مواصلة على الشيعة في مختلف مناطقهم اللبنانية، بغية القضاء على عموانهم ومقاومتهم وشمورهم بالذات القومية كباقي الجماعات اللبنانية الأخرى»

بعد معركة مرج دابق سنة (1516م)، دخل لبنان والبلاد المحاورة هي مرحلة تاريخية جديدة لم يوقف الشيعة فيها عن استكمال مسيرتهم الشاعمة منذ العهد المملوكي، واتحاد الخطوات المستقيمة والخاصة التي تتبع من واقعهم المميز هي دولة لم تعبّر نفسها دولتهم كما لم يعتبروا أنفسهم يوماً من رعاياها فكانت مواقفهم تجاه الأحداث والتطورات المصليّة، عدناً ما تعبّر عن غيرهم بما يحتارونه من مواقف، أقرب إلى مشاعرهم، ونسب لمصالحهم، ومواقفهم ورؤيتهم العامة لسير الأمور

بعد انتصاره الساحق على حصنه قدصوه لعوري، أكمل السلطان سليم الأول رحله المظمر باتجاه دمشق، فسار على بطريق لقديمة محتلا حلب وحماه وحمص دون أن يحتار، هو أو جنوده أي مكان في لبنان ولكن أساء انتصاراته والمدايح التي قام بها وكان صحتها الآلاف من الشيعة، لابد أنها انتشرت بين اللبنانيين، ودفعت كل هريق منهم إلى الانحياز إلى الجهة التي تملئها فتاعاته أو مصالحه أو الإكتفاء بإيثار السلامة والترقب

إن الحرب التي شنها السلطان العثماني على لماليك، هي في جوهرها وأسبابها

(1) هذا البحث موضوع دراسة شاملة في فصول لاحقة

وعايتها، حرب السنة ضد الشيعة، للاقترصاص من هذه الطائفة والقضاء عليها. وهذا وحده يفسر هول المذابح التي قام بها الجيش المنتصر قبل وأثناء وبعد دخوله إلى بلاد الشام.

ويؤكد السلطان سليم أن الذي أفتى بوجوب هذه الحرب، هم علماء الأعصار والإمصار وهي ليست غير جهاد ديني ومقدس ضد الشيعة، وفرض إلهي تحيزه الشريعة وتعاليمها وتوجيه

«أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والإمصار وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة والضجار فلما اتفق العوري مع الرافضة تركت الرافضة ومشيت إليه»⁽¹⁾

هذا ما يؤكد السلطان العاري في مفاخرته مع طومان باي⁽²⁾ آخر سلاطين الشراكسة في مصر، مبرراً شرعية حربه ووجوبها وأسابيها وهي الوقت الذي سارعت فيه أمهات مدن سوريا إلى فتح أبوابها لاستقبال الحاكم الجديد والترحيب به.

كان السلاطين العزاة يعترضون حروبهم مع النصاري جهاداً إسلامياً في سبيل الله، وكانوا بعد كل عروة مظفرة يرمبلون البشائر إلى الممالك الإسلامية في الشرق لكي تحتفل بانتصار الإسلام وتقيم الرست والأفراح، ويتلقون من حكامها التهاني والهدايا مشموعة بمشاعر المرح والتأييد وقصائد المديح والثناء.

وكان السلطان سليم أكثرهم حماساً وندفاعاً لنصرة الدين، ومحاربة الهرطقة فجعل لجهوده الحربية هدفاً معلناً وهو وجوب المصاء على الشيعة قياماً بواجب ديني مقدس، وتنصيلاً لإرادة إلهية سامية

بعد أن قام بتدمير بعض الإمارات التركمانية الواقعة على حدود دولة المماليك الشمالية، أرسل سليم إلى العوري في 14 جمادى الأولى سنة 921 هـ - 1515م رسالة يدعوها فيها إلى التعاون والتأزر في سبيل نشر السنة في العالم والقضاء على مخالفيها.

«صممنا العزيمة في السنة الآتية إلى تسخير البلاد الشرقية ودفع بقية السيوف

(1) تاريخ عروة السلطان سليم الإشيبي ص 129

(2) في المقابلة التي حرب بين السطاطين عقب أسر طومان بي وقبيل مقتله راجع «آخرة المماليك» بن ريل الرمال، ص 244

من المرضة القرطاشية، خذلهم الله ودمرهم بعون الله، فلا تلتفتوا إلى تضرعاتهم ولا تتصدقوا بسفسطاتهم..

ولما تلى الفوري في الحواريات اتبعها برسالة ثانية في أول محرم سنة 922 هـ - 1516 م يقول فيها

«إن قيامنا بتأديب القرطاش الملاحين، هو مجرد إظهار النواميس الإلهية، والشرائع النبوية، وكشف حجاب ظلام أعداء الدين والدولة، والعمل على نشر نور الشرائع النبوية على العالم..»

ولما بدأت العلاقات تتأزم بينهما، أرسل له تهديداً وكأنه إعلان حرب يشير إلى أسبابها.

«اتصحت لنا تصرفاتك الرامية إلى تقوية المبدأ المسد الذي لا يدين بدين..»¹

كان مصير الإمارة الشيعية الأخرى في الجنوب أكثر مأساوية، فقد احتوى مع الاحتجاج العثماني اسم بنى بشارة مقدمي العشير في معاملة صمد، وبوري في روبا النسيان، ذكر ابن بشارة مقدم التيامنة الذي كن من عادة السلطان المملوكي «أن يكتف باستقراره في بطن الشام بعد أن يسميه وريثاً»² كما توارث منذ ذلك التاريخ أسماء عائلات شيعية قوية طالما برزت على مسرح الأحداث المهمة في المصرة السابقة في بعض أنحاء النجف الأوسط والعربى وحتى مشعرة وحربس وحولهما.

أما الشيعة في جبل لبنان، لذين كانوا من بطش المماليك وعاراتهم النصيب الأوفر، فقد اعتمدوا مرة أخرى على حصونهم الطبيعية الشاهقة، في جرود الحبال، واستعدوا لجولة طويلة أخرى من المقاومة والمعاناة والتصدي

كان الحكم المملوكي في لبنان مبدئياً شديداً الوطأة، وقادراً على التدخل العسكري السريع في أية لحظة يرى بمسه بحاجة إلى التدخل، لإبقاء الأمور في الحيز الذي يرسمه ويسمح به هوابة وهم في العادة من رجال الدولة وأبنائها وقادتها العسكريين، يقيمون في أماكن وحصون قريبة، وتحب إمرتهم الحشد

(1) الفتح العثماني للشام ومصر أحمد مؤيد موسى ص 86

(2) السووك، المشرقي ج3 ص 456

الحاهرون عند الحاجة. فقد كان نائب صرابلس يشرف على الأمور في جبل لبنان عن قرب كما يفعل نائب بعلبك في البقاع ونائب صفد في جبل عامل، بالإضافة إلى معاملة بيروت صيدا التي تمسك بأمور الساحل اللبناني حتى أقصى جنوبه.

أدت هذه القصة الشديدة إلى احصار الشيعة نحو الداخل الجبلي، وانكماشها التدريجي حيث كانت رقعة تواجدتها وانتشارها تزداد مع الوقت ضيقاً وتراجحاً. فلما حل الباشوات الأتراك مكان المواب المماليك ولم تعد بعلبك وصفد مراكز حكم، وعلبت صفا النحابي على الوالي العثماني بدي بولي اهتمامه إلى جمع أكبر مقدار من المال ليعوض مادفعه ثمن منصبه، ويبقى له ما يمكنه من شراء منصب آخر، تراحت هذه القصة الحديدية وتضاءل اهتمام السلطة رغم موقعها المعادي، نشاط رعاياها من الشيعة وغيرهم لانصرافها إلى الاهتمام بأولويات أخرى شغلت حل قدرتها واستأثرت بمعظم جهودها، الأمر الذي سبقتهم الشيعة ويحاولون الإستفادة منه في العودة إلى استئناف مسيرتهم الأولى

«فمن بعلبك وجبل قويت عائلتا مشايخ بني حمادة والأمراء الحرافشة وقد اعترفت بهم الحكومة الحديدية»⁽¹⁾

«يعود إلى هذه المترة ملامح الوجود والقوة، فقد ظهر عند المناولة الحماديون والحرافشة، عائلتان كبيرتان ستلعبان دوراً غير محدود في تاريخ لبنان فيما بعد»⁽²⁾

يقول المؤرخ حاك بান্তه في تقويمه لوضع شيعة في هذه المترة الإنتقالية

«استعاد المتاولة تصدعهم إلى الامام بعد جمود مؤقت، أنعشه وقاده الحرافشة الأقوياء، فسيطروا بقوة من بعلبك حتى صور»⁽³⁾

«استأنف الحماديون من جهتهم على رأس المتاولة تقدمهم المردوج إلى الامام بعد أن جمده المماليك»⁽⁴⁾

(1) سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم لتركلي، باريس ص 45

(2) Histoire Du LIBAN G NANTET p 178

(3) Histoire Du LIBAN G NANTET p 95

(4) Histoire Du LIBAN G NANTET p 94.



مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی

الفصل الثاني

الشيعة رعايا الدولة العثمانية

في مسهل القرن السادس عشر وقبل سطلاق لجهاهل العثمانية إلى قلب العالم الإسلامي وعواصمه التاريخية القديمة في الشام ومصر والعراق، تبعت السياسة الرسمية هي اسطبول الحط المشدد لسحب الدينية والقصاصية المؤثرة، هي وجه الهرطقة، مشرعين بذلك قتل الروافض كقصوبة شرعية وحيدة وواحدة التطبيق على كل من يثبت شيعه فكان ذلك هو المبرر القابولي والإيديولوجي للمدابع الكثيرة التي قام بها الجيش السلطاني في الأصول أولاً، ثم من سائر البقاع التي احتاحتها حجاجه. وبالطبع تابع البلاط العثماني تنفيذ سياسته في القرون التالية هي ظل مساوشات متكررة وعندة ضد نقاطات الشيعية في لبنان، فواصل قمعهم واصطهادهم شكل منهجي وعنفي. وقد بقي الحكام من الشيعة، الذين تعود جذورهم إلى أيام المماليك، هدفاً لحملات بأديبية متلاحقة على اعسارهم لصوصاً وقطاع طرق ومختصين

إن الأساس الإيديولوجي للدولة العثمانية يرتكر على مبدأين ثابتين، هما حماية المذهب الحنفي باعتباره ممثل الاسلام القوي والعقيدة الصحيحة، المتناقضة مع كل ما يفسد الإيمان، والخلافة السنية الكونية التي أحدثت على عاتقها شر الإسلام وتقويم اعوجاجه عن طريق الحرب المقدسة - العرو - التي تعتبر كل من يساهم فيها مجاهداً هي سبيل الله، وكل من تستهدفه رديفاً وكفراً لا بد من عقابه في الدنيا قبل أن يقوم الله بهذا الواجب في الآخرة.

إن مزيجاً من رواسب التراث السلجوقي العسي والتقاليد الصوفية المتسربة من الديانات التركمانية⁽¹⁾ تسابقة لسيادة الإسلام بينهم، وأفكار الحرم الأرثوذكسي

(1) الشامانية (shamanism) الديانة التركمانية قبل الإسلام

المتشدد هي الإمبراطورية البيزنطية هو اندي مير النعمان العثماني عن باقي الأصولية السنية في العالم العربي القديم ورغم عد ثقتها الحامجة للشيعة، فإن تيجيلاً خاصاً للإمام علي وبنيه وروحه فاطمه بقي مرعياً في الكثير من الطقوس الصوفية، والتقاليد الرسمية، ربما بتأثير من طبقة الأشراف، سيادة المحدثين من الرسول، والتي كانت على الدوام تتمتع بمكانة خاصة وبمود لاف في المجتمع العثماني. ونحن نلاحظ حتى اليوم أن الحوامع العثمانية وحدها تحمل نقوشاً ترمز إلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء إلى جانب العلماء الراشدين الأربعة الذين حافظت جميع المساجد السنية في العالم الإسلامي على مكانتهم المقدسة إلى جانب الرسول.

إن فكرة العرو المقدس ضد أوروبا المسيحية كان لشعار المحوري الذي قامت السلطنة هي ظله، هشكل لحمة ببيوية، وعصيدة جامعة، وهذا قومياً للمجتمع الأناضولي على اختلاف مشاربه وشعوبه وضيائه ومبعتهم مثلاً أعنى يوحد بينهم برابطه متماسكه في عياب تطابق العرق والجنس والمطامح لذلك لم يكن عربياً أن بصطحت السلاطين معهم إلى ساحات الحروب المئات أو الآلاف من رجال الدين «والدراويش» العرل يمتصر دورهم على إثارة الحمية الدينية والإنهال إلى الله ليشارك في تحقيق النصر، فلما انتقل ميدان الصوحات والمعارك إلى الشرق الإسلامي ولم بعد فكرة عرو المسلمين هي ديارهم هذه المرة صالحة للقيام بدور حرمع بلهب الحماس والإندفاع السياسي، استبدلت بمكرة الحرب المقدسة المبرمة بالمتاوي الشرعية التي تدعو إلى الجهاد ضد الهرطقة الإسلامية عند الصمويين وحلفائهم المماليك وسائر المارقين من الإسلام الصحيح وأصبح العداء للشيعة وقتانهم شديراً قومياً وديبياً ووطنياً للسلطنة لمدة قرون بعد ذلك

بدأت السياسة العثمانية تعطى الأولوية لقتال الشيعة على قتال النصارى في البلقان، قبل سنوات قليلة من بدء الاحتياح العثماني شرقاً وتكاثرت المتاوى الشرعية الصادرة عن أرفع المقامات الروحية تصع الأسس التشريعية والقانونية لهذه السياسة وتطبيقاتها العملية

في سنة 1512م صدرت فتوى برعاية لمسلطان سليم عن القاضي حمزة أفندي تعتبر «أن القرباش كاهرون لا دين لهم ويتوجب على جميع المسلمين قتلهم مالههم حرام، ونكاحهم باطل، وقتلهم جائز شرعاً» دون جوار قبول ثوبتهم، وتوزيع أملاكهم

(1) لانتماضات العلوية هي لاناصول محمد نور الدين ص 117

ونصائهم وأولادهم على المجاهدين إن ممارسات القزلباش الإلحادية وخاصة لعنهم لصحابة النبي حسب التقاليد السننية يكفي لهدر دمائهم واعطاء الصلاحية المطلقة لقادة الجيش العثماني بتنفيذ ذلك،

«اعلموا أيها المسلمون وحادروا، إن العصاة القزلباش يعارضون قانون النبي وتقاليدهم وتعاليم الإسلام وإيمان به وبالقرن المقدس، إنهم يعبدون أنفسهم ويسجدون لقادتهم الملعوبين ويشتمون أبائكم وعمر وينكرون خلافتهم»

لهذه الأسباب ولغيرها من المعاصي أحكم أنا وجميع علماء الإسلام، بأن كل من ينتمي إلى هذه العصاة هو كافر ومرتد وكل من يعيل إليهم أو يعينهم هو مرتد وكافر أيضاً، إن سحقهم وتشتيتهم هو فرص على كافة المسلمين، إن كل مسلم يموت في سبيل تنفيذ هذا الواجب هو شهيد في السماء الأعلى يستحق الثناء، وإذا قتل أحدهم فهو خسيس في أسفل جهنم وحكمهم أسوأ من غير المؤمنين. وكل ما يدبونه أو يصطادونه ولو بصقر أو قوس أو كلب فهو دنس ورواجهم آكان علياً أو باطلياً فهو باطل ولا حق لهم بالميراث»

ويذهب ابن كمال أبعد من ذلك فيحكم بإدانة الشيعة عموماً دون تخصيص واسفاط هويتهم الإسلامية والعصاة عليهم وعلى عائلاتهم وممتلكاتهم

ولم تخرج هياوى شبح الإسلام أبو السمود⁽¹⁾ عن إحكام أسلافه على الشيعة والقزلباش مما أرسى السياسة العثمانية لرسميه ضد المجتمعات الشيعية التي لم يرحح عنها المثقفون العثمانيون وأهل الرأي والمكر ويجب أن يشير إلى أن أصحاب هذه الهياوى هم غالباً موطنون عثمانيون يتقاصون رواتب حكومية، أو من المتصررين من ثورات القزلباش وحروب الصمويين واللاحثين إلى بلاط لسلطان ومملكته يطلبون حمايته وقد استحوذت على مشاعر العامة وأفكار الحجة وفي جميع الأوساط حتى أصبحت المكرة الغالبة على نعية المحتمع بأسره و ستمر لاصطهاد في عهد سليم الثاني (1566م - 1574م) ومراد الثالث (1574م - 1595م) فتسب إليهم «المسق والصجور وعدم إقامة الصلاة ولعن عمر وعثمان والإلحاد والرفص والزبدقة والتعاون مع الصمويين»، ودعا الشيخ عزيز محمود هدائي⁽²⁾ إلى تعيين أمد سنني في كل قرية شيعية أو علوية

وما أن انتصف القرن السابع عشر حتى كان العويون في الأناضول قد سحقوا فعالوا إلى «التقية» والإختفاء في بلاد كانوا كثرية أهلها وكان عليهم أن ينظروا إعلان

(1) الامارات الشيعية ص 26 عن 4-55 p 1967 Tarh Derg si 22

(2) المشايخ حمرة اهدي وابن كمال، بو السمود وهدي هم من شيوخ الاسلام ومفتيي اسطنبول

النظام الجمهوري العلماني على يد أتاتورك لاستعادة بعض من هوية فقدت الكثير من سماتها الأصلية⁽¹⁾

لا شك أن النظرة العثمانية إلى الشيعة كانت هي الأساس ولادة أحداث عسكرية وسياسية، أكثر منها نتيجة تباين هي المقمة أو هي لإحتهاد، فإن الحروب الصموية وثورات القرلباش على السلطنة قبل كل شيء آخر هما اللذان كانا المنطلق الرئيسي لرسم السياسة العثمانية نحو المذهب الشيعي بشكل عام⁽²⁾، ولكن كان لا بد في مرحلة قادمة من إيجاد مبررات فقهية وقانونية لهذا لحلاف الدموي ذي البعد الإلهي، فظهرت بعد فترة مناقشات ومحادثات تتناول الكثير من مظاهر الخلاف اللاهوتية بين المذهبين، حتى وصلت إلى أعلى مقامات الدينية لعثمانية وأمرها فأرسل شيخ الإسلام محمد أسعد أفندي رسالة إلى فقيه شيعي هرب من الشاه عباس تأتي على ذكر بعض أهم ما كانت تتناوله المآخذ لتعليدية على لشعة من لعن شيعيين والمهدى المنتظر، وصلاة الجماعة وغيرها من الأمور الخلافية، ويؤكد فيها رغم السلام الذي كان سائداً في حينها بين الدولتين على حق مملكتها في قتال الشيعة وقتلهم حتى ولو كان بين السلطان والشاه معاهدة سلام مرجعية الحاش⁽³⁾

إن الحروب الطويلة مع الصفويين، والجمع الماسي والدامي لثورات القرلباش الخطيرة والمتكررة هي بصر الأناصول عرست هي المجتمع العثماني، من الإدارة العليا المتمثلة هي السلطان ومماليكه وبطانته ومقربين منه، إلى حيوشه وانكشاريته هادة ومحاربين إلى التنظيمات الدينية والمؤسسات الشرعية والمدنية المردهرة هي كعب السلطة وتحت إشرافها ثقافة، رسخت في عمق كل مكونات هذا المجتمع العدائية المبرطة نحو الشيعة واحتلتها في المقام الأول من الشؤون العامة وهي سلوكها الفكري والديني والسياسي والعسكري، وإذا كانت هذه الدولة هي مبدأ بشأنها، قد جعلت من العداء للعالم المسيحي في رأس أولوياتها فقد حققت عليه انتصاراً حاسماً بسقوط القسطنطينية، حمف إلى حد ما من علواء هذه العدائية وحموحها، الشيء الذي لم يتحقق بالقدر نفسه أمام العدو الصموي على تحومها الشرقية، فبقي هذا الشعور

(1) لأقليات وعلوميات هي السلطنة العثمانية بعد 1516م مجموعة باحثين ص 118، الباحث محمد نور الدين.

(2) قام القرلباش بأكثر من خمس عشر تنعاسة كبيرة هي الأناصول ضد السلطنة هي القرن السادس عشر

(3) الإمارات الشيعية ص 29.

بالعداوة متأججاً، يريد من استعمار الثورات الدخيلة الموثلية للصنفيين والمنادية باسمهم، فقد كان شعار الشاه كولو اسمهم لكل لثورات التي قامت بعده، الدولة والسلطنة لنا،

ولم يكد الصروع المارسي العثماني بهمد أخيراً، وترتاح السلطنة من ثورات القزلباش المتتالية بعد أن نجحت في إخمادها ويسود العلاقات ميل غير مسبوق إلى التعاهد والسلام، حتى اتجهت الدولة لتصمية حساباتها مع الوجود الشيعي في عرب سوريا، وهو بطبيعته يميل إلى العصيان و التمرد و إبعاد مما يقط مشاعر الكراهية القديمة والمتأصلة في الوجدان العثماني شكل عام واستقطب من حديد حملات القمع والإساء والتدمير مصحوبة بالمعطاء الإلهي من فتاوى العلماء الداعية إلى الانتصار للإسلام، ومطبيق الحدود والجهاد في سبيل الله والملة

في هذه الفترة التي بدأ العثمانيون يركزون عداوتهم التقليدية على الشيعة اللبنانيين، ظهر في عاصمة السلطنة اتحاد لتصميم دورهم في شوء الدولة الصفوية ومعتقداتها الخبيثة، فسست بعض لكتاباته إلى شيخ شعي من جبل عامل أنه كان وراء أفكار الشاه اسماعيل ومنعقداته، الخارجة عن الإسلام.

من منطقة جبل عامل قرب دمشق، ظهر الطريد الشيعي، ونافورة الهرطقة، الراهصي الملعون، عبد العال قائد المشاغبيين، ورئيس كهنة الصلال التحق بالشيخ الأردبيلي اسماعيل ودعمه وساعده لنشر هذه التعاليم الباطلة راعماً أنه شيخ الإسلام وهو في الواقع شيخ الكفرة⁽¹⁾.

إن هجرة العلماء الشيعة العاملين إلى إيران الصفوية ودورهم المؤثر فيها هو واقع معروف ومتواتر، ولكن قيمة محطوطة السيمانية العائدة إلى القرن السابع عشر أنها تقدم مستنداً معاصراً على أن الدولة العثمانية كانت على علم ومعرفة بدورهم السياسي وبأنه كان هناك اعتقاد في ذلك الحين على أن لبنان هو رأس ينبوع الشيعة⁽²⁾.

(1) عبي بن عبد العال لكركي ب 1533م درس في الكرك ثم أقام في دمشق والقدس والحلب وأكمل دراسته في مصر

بدأت علاقته مع الشاه اسماعيل بعد فتح هراء 1510م، وصدر بوجه النشاط الديني في كامل الدولة الصفوية ولعب «بمجنه لرماء» وبقية بقوده الشديد أيام طهماست ابن اسماعيل الذي أصدر أمر بغير أن كل من خالف حكم محتكم لمتكهدين وورث علوم سيد مرسف و نائب الأئمة المعصومين الذي لا يزال كاسمه العبي علماً عالياً، فمن حاله يقع عليه استأديت ذليلة، والتدسرتب المظيمة

(2) محطوطة عثمانية عبر موقفة وصفت في القرن السابع عشر وموضوعها لراع العثماني الصفدي وحسيناته المذهبية بأسلوب ساحر شعرأ ونثرأ

وهي الواقع كان العالم الشيعي السناني عبي بن عبد ثعال أكثر الشخصيات بصوداً هي مبدأ الدولة الصموية دينياً ورمنياً وفكرياً وكما قال عنه عالم أرائي عباسي «انه كان ملك ايران وأهلها».

وبما أن مختلف الجماعات الشيعية المستشرة في أنحاء الإمبراطورية هي دائماً عرصية لتطبيق أحكام شرعية وحرثية خاصة تنال من حياة أفرادها وحرثياتهم العامة حتى أن التزاوج بين الشيعة والسنة كما هو لو رث بينهما كانا محطوريين بحكم القاسون على الإحتهاد الغالب، فقد اصطر الشيعة هي مهادساتهم العامة والعلمية إلى الإحتماء «بالتقية» لدفع الضرر، فلم يكن من الماد أن تحكم بعض العائلات الباقدة مبدأ مثل المدينة والإحساء شرط إحصاء تطيعها أو على الأقل عدم التركيز عليه واستحصاره أو أن يعتمد بعض كبار علماء حل عامر في أسماهم وثقلاتهم بمن فيهم الشهيد الثاني إلى إظهار شافعييتهم في العلن⁽¹⁾ أو لتكرار إحصاء لصمة كما فعل بهاء الدين العاملي عند عودته إلى بلده الأم عن طريق حلب⁽²⁾.

وكان الحجاج من الشيعة يجهدون في التعتير وكنتم حقيقة معتقد هم في طريقهم إلى تأدية المريضة فكانت الدولة تقصد من أو مرها إلى معثلها لتقصي حقيقتهم وكشف بنكرهم وإبرال التعاب الشرعي بهم.

في شباط 1581م صدرت الأوامر إلى حاكمي نصرة والإحساء بوجوب الكشف عن هوية الحجاج المذهبية الحقيقية وخصوصاً القدم من فارس وليمراق فإن بعض القزلباش من الشرق يدعون أنهم تجار ويقصدون دمشق وحلب ليسدوا بعض المؤمنين ويعرروا بهم ثم يلحقون بمافله الحاج الشامي للذهاب إلى الأماكن المقدسة.

أختر من بين رجالك أكثرهم ثقة وخبرة في التجسس واجمع المعلومات عنهم بكل وسيلة ممكنة تحري عن وضعهم بالسر والعلن وإن وضع ذلك شرهم أسجنهم وبلغنا فوراً وبكل تأكيد بلغ كل الأمراء والقضاة والصباط في المنطقة⁽³⁾، وحدهم شيعة المرتفعات اللبنانية وبحلاف أهل المدن الساحلية المتسنيين، لم تحجب التقية حقيقتهم وطهروا وكانهم طليعة الموحدة الشيعية العثمانية هي فترة تاريخية ومصلية، لم يتوقف عندها التأريخ اللبناني لمداول الإقليلاً.

(1) تاريخ جباع على مروة ص 46

(2) الهجرة العاملة إلى ايران المهاجر ص 162

(3) ا. د. م 175:42 - 553

ولم يمنع كل ذلك من ظهور بعض لمحات التسامح المتناثرة نحو المعتقدات العلوية عموماً كانت تبدر من السلطة الحاكمة من إمينة والأخرى

فقد قام السلطان سليمان، بعد احتلال جنوب العراق سنة 1534م، بترميم المشاهد المقدسة في النعم وكربلاء حيث يتجه الشيعة لزيارة قبر الإمام علي والإمام الحسين باعتبارهما المشاهد المقدسة الأهم في العالم الشيعي، ووافق الديوان الإمبراطوري على السماح لأصمهان بكسوه مرار الإمام العسكري في سامراء⁽¹⁾ حتى أن المزارات الشيعية في الريف الأنصولي نفسه عرفت بعض لتساهل وتنامت الأخويات المهنية الشيعية بالنقابات ذات الجذور السلجوقية والعواطف الشيعية⁽²⁾ وهذه كلها مظاهر بقيت مفعودة ومقموعة في سوريا الشيعية، حتى مقام نسيده زيب في صاحية دمشق ومقام النبي نوح في الكرك وغيرها من المزارات المشبهة لم يعترف بهويتها المذهبية حتى العصر الحديث وكأن السرور اليسير من التسامح العثماني لم يصل أبداً إلى بلاد الشام

وبقيت الشيعية القبلية في غربي سوريا ومرتمعاتها (لبنان) أكثر مواد سحلات الحملات والشكايات ندواولاً مماراة معيرها من المحرمات العثمانية الأخرى وبقي تاريخ ثوراتهم ومعاقبتهم وقمعهم وتأقلمهم دليلاً ساطعاً على تعصيدات المكر الديني في الإمبراطورية وعلى الطابع لمحي التاريخ اللبناني وبعض أجراء من سوريا في المصور الحديثة⁽³⁾.

كيف تحولت الطوائف إلى شعوب

عرف لبنان، الانقسامات الطائفية والمذهبية، وما تحرره من صراعات وحروب ونراعات منذ ما قبل ظهور الأديان السماوية ولم تكد المسيحية تنتشر في ربوعه في بداية ظهورها، حيث تأسست أول مطرانية في صور قبل نهاية القرن الثاني، حتى نشبت

(1) لإمام الحادي عشر الحسن بن علي المعروف بالعسكري

(2) حول هذه الأخويات في العصر السلجوقي راجع رحنة ابن بطوطة إلى بلاد الروم من 265 - 269 لجزء الأول

(3) الإمارة الشيعية ص 59

صدّامات دموية حادة بين أتباع الدين الجديد وكل من الوثنية كما حصل في بعلبك في عهد المطران شاودوسيوس الكاثوليكي، واليهودية كما حصل في صور في مذبحة عيد الفصح الشهيرة. وعندما عم انتشار المسيحية في لبنان، وتغيرت سياسة الدولة الرومانية حيالها وأعلنتها ديناً رسمياً للدولة في عهد تيودوسيوس (379 - 395) م، بدأت المسائل العقائدية والاحتلافات الابدانية تحتل دوراً هاماً في ظهور المذاهب المسيحية المتصارعة اعتباراً من القرن الرابع الميلادي بعد مجمع بيقيا 325م، والمجمع الخليقدوني 451م. فظهر في لبنان الصراع السرياني البيزنطي، واقتربت الفروق النظرية بممارقات اجتماعية واقتصادية وسياسية فظهرت مذاهب المسيحية المختلفة والمتنافسة⁽¹⁾، مما أصبح فيما بعد من أهم سمات تطورها في لبنان أما عند المسلمين، فقد بدأت الصراعات والحروب المذهبية منذ وفاة الرسول، وانطلقت من منافس أصحابه على منصب الخلافة⁽²⁾ والحروب التي حارب بينهم شيعية ذلك، فكان لابد من إعطاء هذا النزاع بعداً دينياً ومذهبياً، في دولة كان الدين هو سبب وجودها ومبرر دوامها.

بلغت المذاهب الإسلامية في لبنان أوج انتشارها في العهد العاطمي، فصار التشيع في جميع أنحاء وظهر المذهب الدرزي في وادي النعم ثم انتشر عرباً إلى جبل الدروز، وتعددت الشيع الإسلامية البطنية فيه ولكن الاحلال الصليبي وما أسستبعه من حروب متواصلة مع الايوبيين، ثم مع المماليك، دمر غالب المدن الساحلية التي كان التشيع قد غلب عليها كطرابلس وحبل، فصر المأحون إلى الحبال القريبة هرباً من ويلات الحروب واصطهادات الحكم. وعندما استمر الخلاف الصصوي العثماني، ووصلت جيوش السلطان سليم إلى بلاد الشام، كان لبنان يتعدد طوائفه، أرضاً خصبة، زودت نظام الملة في البلاد التي حصصت لسيطرة العثمانيين بعداً قومياً وكهانياً لم تعرفه سائر أنحاء الامبراطورية

ففي بداية القرن السادس عشر، بدأ أن هذه المنطقة من الشرق مقبلة على تطورات سياسية وعسكرية ومذهبية حاسمة فأعدت الدول الكبرى الثلاث جيوشها وبدأت تستعد لما كان يلوح في الأفق من معالم التحول والتبدلات

تحت ضغط الوضع المستجد على حدودهم الشمالية، بدأ المماليك يتوددون إلى

(1) لبنان في تاريخه وتراثه مركز الحريري النقاوي ص 129

(2) وربما في بعض الحالات تعود إلى أسباب قبيلة تسبق في تاريخها وجودها ظهور الإسلام

الشيعة، تحسباً لما قد تؤول إليه الأمور، ولا سيما وأن التحالف مع الشاه اسماعيل لمجابهة الخطر العثماني الراحف من الأنصول قد أصبح من الاحتمالات التي يجري التداول بها، وأن اكتساب ود الشيعة قد يساهم في تحقيق هذا التحالف، وقد يدفعهم إلى الإشتراك في المواجهة المستطرة إلى جانب مصطهديهم السابقين، فأظهروا تساهلاً غير مسبوق في إطلاق حرية الشيعة في ممارسة شعائهم ورفع سيف القمع عن رقابهم حتى أنه سمح لهم لأول مرة في دمشق، ومنذ عهد بعيد بإحياء ذكرى عاشوراء علناً، وهي أهم المظاهر و مراسم الشيعة التي كانت ممنوعة ومحزنة، ورغم اعتراض العامة على ذلك سمح نائب العيبة بها دون الالتفات إلى الأصوات المستهجنة والمستنكرة والمعتضة

قبل أن تصل جيوش السلطان سليم المنصرة إلى لبنان أو قريباً منه، كانت أخبار المذابح التي قام بها حاصداً الآلاف من الشيعة في مختلف مدن سوريا، ولا سيما حلب، والتي لم تمل وحشية عما تعرض له أتباع هذه الطائفة على يده في الأنصول قبل وصوله، قد حركت مشاعر اخوتهم في لبنان، فتنامت عداوتهم له، وكان قد جتاح بلاد الشام، ودخل عاصمته قبل ذلك بمدة وجيزة كل ذلك راد في ادعائهم لاتحاد موقف سلس من الفاتح الحديد ومن جيشه ومن بولته.

أكمل السلطان المنصر في مرج دبق طريقه نحو دمشق، دون أن يصادف في طريقه مقاومة حدية بل سارع أهل المدينة كما فعل أهل حلب قبلهم، إلى استقباله استقبالاً ودياً، والخطبة بإسمه على منابر مساجد والمناذاة به سلطاناً وحادماً للحرمين الشريفين

«إن طوائف السوريين من العرب و لدرور ومارونية و قبائل البدو المقاتلة التي كانت تقطن المرتفعات السورية فتحت له أبواب دمشق» إلا أن الشيعة كان موقفهم معاكساً تماماً إذ تجمعوا في منطقة البقاع بقيادة أمير حرعوشي لمقاومة الجيش الفاتح، ولكن هزيمتهم ومقتل أميرهم، أودى برأسه إلى الأستانة ممتهماً الطريق أمام رؤوس شيعة كثيرة سيقطعها السيف العثماني ويرسلها إلى الأستانة وغيرها من مراكز الحكم في القرون الأربعة التالية.

إن السياسة التي اعتمدها العثمانيون في المناطق المحتلة، ساهمت في ادكاء الشعور بالانتماء المذهبي عند رعاياهم عموماً و هي لبيان على الأخص. وأعطت دعماً كبيراً لعملية تحول طوائفه إلى مجموعات مبنية لكل منها تنظيماتها وسياستها ومسيرتها الخاصة

إن أهم ما ساعد على هذا الاتجاه الخطير في مسيرة الطوائف اللبنانية نحو التحول إلى شبه دويلات مستقلة ذاتياً هي حجم الدولة الضعيف والمهك هو مجموعة من السياسات والتدابير التي سهبت حصول هذا الأمر ولم تشكل عائقاً يحد من ديمومته والدفاعه وأهمها

1 - اعتماد نظام الملة

2 - تراخي قبضة الدولة المركزية على لأقاليم والولايات

3 - تبدل طبيعة النظام الإقطاعي وظهور الحكم المحلي

4 - تركيز جهود الدولة على عمقه تحصيل الضرائب والأتاوات.

5 - تحول رعماء العشيرة إلى رعماء على الطائفة

6 - تراجع دور رجال الدين لحساب رعماء الطائفة.

7 - دخول الموارد في وقت متأخر إلى المعادلة السياسية اللبنانية، وقيام تنظيماتهم الكنسية المتطورة اقتصادياً وفكرياً والعنصرية بانصلاحياتها وعلاقتها الخارجية.

1 - الدولة والملة

اعتمد العثمانيون التابعة الدينية أساساً وحيداً لتصنيف الرعايا، دون اعتبار آخر للجنس أو العرق أو القومية، فصار المسيحي لسانياً على مذهب الملك يعتبر من «ملة الأروام» مع البلعاري والروماني لارثودكسي، تعاملهم الدولة «كجماعة واحدة» تحصص لقانون واحد، ورئيس واحد هو بطريرك الروم هي القسطنطينية. كما هو حال باقي طوائف النصارى واليهود وجميع أهل الدمة بحسب مصطلحات الشريعة.

فكان من الطبيعي أن يعرر هذا لنظام لتلاحم والترايط، بين أبناء الملة الواحدة، ويخلق بين أفرادها رابطة من نوع خاص ليس في الشؤون الدينية والعبادية وحسب، وإنما تشمل القضايا المدنية والسياسية بحيث يصبح هذا التكتل المعترف به قانوناً، أشبه بحكومة مصغرة لها قوانينها الخاصة والمتميزة، ليس في أحوالها الشخصية وحسب، بل في أمور متعددة أخرى سعت بالقضاء الحرائي والمدني، وتحصص لسلطة رؤوسائها الروحانيين دون تدخل من أجهزة الدولة وقضائها وكانت جالية البندقية من أولى الحالات التي تمتعت بهذه الامتيازات بموجب معاهدة عقدت بين السلطان سليمان الأول والبندقية وازداد حجم هذه الامتيازات بتساقط القبضة العثمانية في الإمبراطورية بأكمل شؤون رعاياها وفي عام 1740م ومع السلطان محمود الأول، معاهدة مع لويس الخامس عشر، أصبحت فرنسا بموجها حامية جميع المسيحيين الدين يروون الإمبراطورية العثمانية، وكان ذلك أساس إدعائها فيما بعد أنها حامية جميع الكاثوليك في الشرق، لقد اتمد هذا النظام مع الزمن ليشمل بعض رعايا الدول الأحسية، فأصبح هناك ملة الافريج، وملة الإبكثير، وغيرها من الملل، التي بحصص هي الكثير من شؤونها لسلطة فصيل الدولة التي تسمى إليها مما عرر أواصر الترايط بين أفراد الملة الواحدة وثبت امتيازهم الأول إليها، على حساب امتيازاتهم الأخرى، ولا سيما إلى الدولة التي يعيشون في ظل سلطتها مع مواطنيهم من الملل الأخرى.

أما الطوائف الإسلامية غير لسنية هم تتمتع بميزة اعتبارها ملة شأن غيرها، إذ أن الدولة لا تعترف بها وتتجاهل حتى وجودها فهي لا تدخل ضمن طائفة الدولة الحاكمة ولا تعتبر ملة أخرى، مما خلق وصفاً عربياً ومعتقداً، صار فيه تصنيف هذه الطوائف كجماعات معادية أو شاذة عن الأنظمة المعمول بها والمعترف بشرعيتها

تشاك في ظل هذا النظام العثماني الفريد والمعقد، مفهوم العقيدة والقومية والطائفة والانتماء، بحيث لم يعد من لسهل التمييز بين كل منها وتحديد مواضع الالتقاء والتمايز لا هي دهن الحاكم ولا هي دهن لرعية

في معرض تحليله للصعوبات والعلل التي تحول دون تقدم الدولة العثمانية، يقول أحد مفكرها ضياء باشا «هي اسيا العرب والأكراد والبردية والشيعة نشأوا وكبروا

ببذر الفساد الذي بدره الشاه اسماعيل، فكان الأولون خصوم الإسلام، والآخرون خصوم الأتراك. وكانت مناداتهم بنصر السلطان من الألسن لا من القلوب،⁽¹⁾

تحت تأثير هذا النظام، وجد كل من يعيش في المناطق العثمانية نفسه مضطراً إلى الالتجاء بالدفاع وحماس نحو طائفته ليصوي تحت لوائها، ويشعر بانتمائه النهائي والأقوى إليها مما أعطى لكل طائفة، شكلاً من الوحدة القومية التي تنمرد بتوجه اجتماعي وهكري وحصاري ومياسي قد لا يتشابه مع الملوك الباقية، فتتسع الهوية الماصلة بينها، وتتحول الطائفة إلى شعب له خصائصه وتطلعاته يتميز عن باقي شعوب الامبراطورية وملها ويمرّد بضمور وتوجه متميزين.

أدخلت الدولة العثمانية بسببها باعتماد هذا لنظام هي فئة معينة دون سائر الملل حصص بسببها بها وميرتها عن مثيلاتها وشميتها بعطف خاص، ورعاية كاملة، ومنحتها كل الحماية والاهتمام. يشعر الباقون أنهم مواطنون محتلمون، لا يتمتعون بالمساواة مع غيرهم. وأنهم بحاجة إلى حماية في وجه ما يمكن أن تتعده هذه الدولة والملة الأقوى من تدابير تؤدي إلى اضطهادهم أو طمسهم أو التشكل بهم، أو على الأقل اعتارهم مواطنين من الدرجة الثانية. فنادرت إلى الماء بسببها في أحضان أول دولة أو سلطان يعرض عليها الحماية أو سمحت إلى إيجاد هذا الحامي، لتقيم معه علاقة التابع بالمتبوع والعمل على التصرب منه واستحلاب المصالح التي يمكن الحصول عليها، مادية كانت أم معنوية. تنمو هذه العلاقات مع الوقت وتتحدّر، وتشمل مختلف أوجه الحياة، من سياسة و اقتصادية وثقافية، فيصبح ملك فرنسا هو الملك الفعلي على الموارد، كما هو في مصر روسيا على الأورثوذكس، وملك انكلترا على البروتستانت أو ملكاً على الدور في ظروف سياسية معينة

تعدّ على الشيعة إيجاد دولة أجنبية أو ملك يؤمن لهم الحماية المأمولة، لأن الدولة الشيعية الوحيدة في ذلك الوقت وهي دولة الصمويين، لم يكن لها أية علاقات دبلوماسية أو اقتصادية مع الدولة العثمانية إنما كن بين الدولتين تاريخ طويل من الحروب والعداء، ورغم ذلك استمر التواصل بين الشيعة والصمويين، حتى أصبحت أصمهان وغيرها من المدن الفارسية مقصد كل سابه وطامح من شيعة لبنان

(1) حطّط لشام، كرد علي، الجزء الثاني، ص 228

2 - تراخي قبضة الدولة وسلطة الإدارة

تحولت الدولة العثمانية إلى دولة عظمى في فترتها الأولى بفضل قوة جيشها وحسن تنظيم الإدارة فيها، فامتد سيطرتها من أواسط أوروبا غرباً، إلى شمال أفريقيا شرقاً فصارعت مملوك أوروبا ودولها إلى التقرب من سلاطينها العظام بعد سقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح (1456م) ووصول حشوها إلى أسوار هينا، بعد أن أصبح البلقان وشرق أوروبا محرد ولايات عثمانية ولكن عوامل الضعف الكامنة في سبيلها والتقدم الحصارى الذي شهدته أوروبا، والحروب المتهكة التي حاصتها على جهات مختلفة تراققت مع تحول سلاطينها من قادة عسكريين وفاتحين تاريخيين، إلى طغاة فاسدين ومترفين فدخلت ابتداءً من القرن الثامن عشر في طور التمهك والوهن والانحدار المتواصل حتى لم تعد أكثر من « رجل مريض طال برأعه ». فظهرت روح التمهك والمرد لدى سائر الشعوب والأقليات الدينية والعرقية التي حصفت لها في الماضي، وتوالت الثورات وحركات العصيان في ولاياتها البائية والقريبة، حتى وصلت أحياناً إلى العاصمة نفسها وتحول الجيش الذي أزهى العالم فيما مضى، إلى شر دم مبعثر من العوماء والمشاعين تعيد، فساداً في مختلف الولايات ومراكز الحكم، وتحولت الإدارة التي كانت من أسباب عظمة الدولة وحسوتها في الماضي، إلى سوق رنج للرشوة وشرء المصائب والتعدي على هيئة الدولة وأموال الناس وكراماتهم

في ظل تفاقم هذه الأوضاع السيئة، وجدت الأقليات العرقية والطائفية والمذهبية فرصة لتأكيد ذاتها، والتعبير عن وجودها وكيانها، فتمحرت في مختلف أرجاء الامبراطورية الشاسعة التي تتكون أساساً من مجموعات متعددة ومتناهرة من الأقليات المتباينة

وقد انعكست هذه الحالة العامة على نبيان كباقي الأقاليم، إلا أن ما اختلف به هذا البلد، من تعدد مذهبي وامتياز على الأفكار والتيارات الحارحية، مبرت تحاويه وتفاعله مع هذه الحالة فكان له أن لها تحرك على شيء كسر من الحصوصية والتشعب والتعقيد،

إن العوامل التي ساعدت في اطلاق هذا التحرك في لبنان تعود إلى أوضاع خاصة به وأخرى تعود إلى الدولة الحاكمة وطبقتها وأهمها

أولاً: الموقع الجغرافي

يعتبر لبنان من بين المناطق العثمانية الشّية، لبعده الجغرافي عن العاصمة، هي ظل نظام إداري وعسكري، يمتدّ إلى الوسائل الفعالة لمراقبة ما يجري في الولايات البعيدة، والتدخل العسكري السريع هيها، مما حدّ من رهبة اللبنانيين من السلطة المركزية ودفعهم إلى الاستحفاف بأحراءاتها الانتقامية والتأديبية.

ثانياً: الدولة الدينية

قدمت الدولة العثمانية نفسها إلى رعاياها والعالم الخارجي كدولة دينية ومذهبية، تعتبر رسالتها الأولى نشر الدين، وتطبيق أحكام الشريعة، فهي تدافع عن الإسلام وحامية المذهب السني، هوحد اللبنانيون أنفسهم دائماً عرباء عنها، وشعر أبناء مذهب الكرى الثلاثة المورثه وتشيعه والدرور، أنهم حسم مختلف هرصت القوة الطاعنة على كل منهم الخصوع لمن يعتره هجياً وحارحاً فكان الإحساس بالنشاهر مبادلاً، وينتظر لهزيمة المناسبة للإعراب عن حذته، مما زاد من تعلق المرء بأبناء مذهبه وتمسكه به باعتباره وحدة جامعة تؤمن له الحماية والأمان فاصبح الانتماء المذهبي هو العائد على سائر الانتماءات ولو أن بعضاً من ملامح الاصططاف العرقي كانت تلوح أحياناً في مناسبات معينة ومحصورة¹ خصوصاً وأن الشعور العرقي والقومي لم يكن قد نشأ بعد، في داخل الأميراطوريه وحارحها، كما حصل في نهايات القرن التاسع عشر

ثالثاً: التدخلات الأجنبية

منذ القرن السادس عشر، شهد لبنان تديماً مطرداً في الحضور الأجنبي، أفكاراً ومؤسّسات على شكل تجار أو دبلوماسيين أو قصائد² رسولين، ومنظمات دينية. مما أوجد قنوات اتصال متعددة وفاعلة ومستمرة تعاملت مع اللبنانيين كمذاهب، دون أن تنظر إليهم كشعب أو كمجموعات مباطقية فكان البنادقة أول من دعم ثوره مذهبية هي لبنان، ضد الحكم العثماني في أو سطر القرن السادس عشر، هرودوا الدرور

(1) بررت أحياناً في ظل العثمانيين حركات عصيان وتمرد بلوح في تعاملاتها اللبنانية حسب من الرابطة العرقي أو لقومي المتركر على الأصغر المرئي هماوت على القيام بها عائلات ذات أصول عربية رغم اختلاف انتمائها المذهبي بين الدرور والمو. به والشيعة مثل حركة هقهر، هي جبل لبنان سنة 1659م وتفصيلاتها في مكان لاحق.

بالسلاح والمساعدات، مما دفع لسلطان لنعثاني في حينه إلى إصدار حكم بملاحقة تجار بنادقة، في سعيه للقضاء على انتعاش ومصادرة سلاح المتمردين^(١). كما نظر العثمانيون إلى الشيعة كامتداد داخلي لصوة أعدائهم الصمويين، فحاولوا استبدال حكم الحرافشة وجردوا على الحماديين حيوشاً لإصنائهم، باعتبارهم من القزلباش الملاحين أما الموارد فقد اعتبروا أنفسهم دائماً كرعايا الملك هرنسي يقيمون في لبنان، ولم يشد أتباع المذاهب المسيحية الأخرى كالأورثوذكس والبروتستانت عن هذا التوجه

رابعاً. الامتيازات الأجنبية

لم تكن المعاهدة التي أبرمها فرسو الأول ملك فرنسا، (1515 - 1547) م مع السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566 م) تعني عند توقيعها أكثر من نصر دبلوماسي للسياسة الفرنسية على الجمهوريات الإيطالية كالبندقية وخنوا ومحاولة من الملك الفرنسي لتدعيم موقفه السياسي أمام الحصم المشترك الامبراطور شارلكان ولكنها تحولت مع التطبيق العملي لبنودها وتعدلاتها اللاحقة والمعاهدات المشابهة مع الدول الأوروبية الأخرى التي عقدتها لسلطته، بعد أن دخلت في عصور انحطاطها وضعفها، إلى منعد خطير للسياسات الأوروبية إلى عمق الطوائف المسيحية العثمانية، وتعاظم معها ككليات معيرة وحارحة عن التسيج العام للإمبراطورية، مما زاد من برور هذه الطوائف كوحدات داخلها لها علاقاتها لدولية الخاصة وسياساتها المستقلة، وتطلعاتها المستقبلية، وساهم هذا العامل في تحول الطوائف إلى شعوب مختلفة الميول والأهداف والتحالفات ولا بد أن ينعكس ذلك على الطوائف الأخرى في الإمبراطورية التي تراقب ما يجري وتتأثر به، فارداد الشعور بالإنتماء حدة وبروزاً، وصارت الطائفة هي التنظيم الأقوى التي ينحأ إليها لمواطني العثماني الخارج عن طائفة الدولة لحمايته وشعوره بداته وتحديد حيارته السياسية، وأمانيه لقوميه، وساهم كل ذلك في إعطاء كل طائفة هي لبس كياناً ذاتياً، أشبه بكيان شعب موحد الأهداف أكثر من مذهب ديني وجماعة إيمانية تتعاطى أمور العبادات والغيبيات والمراسم الدينية البحتة.

(١) لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 48

3 - ظهور الأحكام الولاية

استبقى العثمانيون على النظام الإداري في لبنان، الذي كان معمولاً به أيام المماليك، واستبدلوا اسم النيابة بالولاية. بقي لبنان منقسماً بين ولاية دمشق وولاية طرابلس، بعد أن ألغيت نيابة صيدا، وانحفت بولاية دمشق. وكان الوالي يمثل السلطان وأدارته هي جميع أرجاء ولايته فهو الحاكم الإداري والعسكري والمالي، ولا حدود لسلطته إلا الأوامر والتوجيهات التي ترد إليه من الباب العالي، ويتلقى قاضي الولاية نسخة منها لتسجيلها في سجل خاص.

إن من أولى مهمات هذا الوالي أن يطرح المقاطعات التابعة لولايته سنوياً على الإنترام، ويكرم عقداً في مجلس خاص بديونه مع لذي يدفع السعر الأعلى، بعد أن يحصل على الصمائمات الكفيلة بتسديد المداع المتفق عليها في أحوالها المحددة⁽¹⁾ إلا أن الذي كان يحصل هي تلريم المقاطعات الليبية لم يكن يتوافق دائماً مع هذا الترتيب.

إن الإلتواء الأساسي إلى المذهب الذي ميّز في لبنان في الفترة العثمانية، وخصوصاً بعد إتحاد الدولة إلى الصعق والتمكك، وممارسة السياسة والحياة المدنية العامة من خلال هذا المذهب أوحد حالة من لعصبة الطاعية التي تشد أرباب المذهب الواحد إلى بعضهم كمجموعة موحدة ومميرة ومحاسنة، وتخلق منهم كياناً اجتماعياً وسياسياً، تجمعهم وحدة الإلتواء والمصير، وتنطبق عليه اجتماعياً ومدياً وسياسياً معظم العناصر التي تكوّن الشعب الواحد فلم يكن عربياً أن يرى الباحثون والمؤرخون الأحاب أن هي لبنان ثلاث أهم هي المواردة والدرور وشبيعة

إن هذه العصبية القوية هي التي عطلت صلاحيات الوالي العثماني في لبنان، وفرضت عليه بحكم فعاليتها أمراً واقعاً طالما فشل في تحاوره، فقبل به مرعماً وأصبح دوره يقتصر على توثيق هذا الأمر الواقع واعطائه الصفة الرسمية والشرعية، إلا إذا فصل مواجته بقواه العسكرية التي لم تحقق نتائج تذكر طيلة قرون من المحاولات غير المجدية.

إن العائلات التي أفرزتها هذه العصبية، ستمرت تحكم مقاطعاتها دون أن تقيم شأناً كبيراً لقرمادات الوالي ومشيتته. بقي الحماديون يحكمون جبل لبنان، دون أن يكون للوالي العثماني إلا ما يريدون إعطاءه له⁽²⁾، حتى كان مجرداً من كل صلاحيته كالباطور⁽³⁾ كما بقي الحرافضة في بلاد بعلبك، والوائليون في جبل عامل، حكاماً في مناطقهم، رغم

(1) يلاحظ تكرار ذكر طريقة الإنترام العثمانية لاحتلال العاية أو المعركة التي تستدعي ذلك في كل مرة

(2) D. D. C. T3. p 266.

(3) الدويهي ص 546.

محاولات العثمانيين المتكررة لاقصائهم حتى نهاية الحكم الاقطاعي في منتصف القرن التاسع عشر. وهي عهد السلطان سليمان القانوني. اعترف العثمانيون بإمارة زعيمها منصور بن فريخ لكي يواربوا به قوة آل لحرهوش المتأولة المسيطرين على منطقة بعلبك كما أنهم اعترفوا بأسرة آل حمادة في النطاق الشمالي وبابن طرباي البدوي وجعلوه نائباً على صمد⁽¹⁾

رغم العصبية الدرزية الموية التي سادت الشوف منذ وقت مبكر، وأعطت لهذا الحبل اسمه وتميزه عن الوحدات اللبنانية الثلاث لأخرى فهي لم تتركز أو تتمثل طيلة الفترة العثمانية هي عائلة أو عشيرة أو بيت واحد. وبما بقيت على الدوام مورعة على عدة عشائر متعادلة في القوة والتأثير، تتنافس فيما بينها أحياناً على النفوذ والتقدم، مكونة طبقة أرستقراطية عسكرية الطابع مهدد حال عجز الدوام دون قيام عائلة درزية واحدة، تحرر التقدم على غيرها وتحظى بقبول عام سمبجها وترؤسها على غيرها من العائلات، دون مفاضة أو خدال كما حصل في جبل عامل وبقاع وجبل لبنان.

إذا كان الأمير فخر الدين استطاع في وقت ما، أن يشكل حالة تاريخية استثنائية على مستوى السلطنة في جبل الدروز، فهم مكن المعيون قبله إلا عائلة تتقاسم النفوذ في الشوف مع عدة عائلات درزية أخرى لا تقل عنها قوة ووجاهة وطموحاً كالتنوحيين والارسلانيين وغيرهم وبعد وفاته، ورغم كل ما أحرزه من شهرة وسلطان، لم يتمكن ورثته وحلفاؤه من الاحتفاظ بالحكم بمرددين، بل مع عائلات درزية أخرى منافسة ومعادية وترفع الراية الحمراء وهي النهاية سعى الدروز إلى استقدام حاكم عربي الدار والمذهب ومعدوم العصبية لتعذر الاتفاق على أحدهم ليتقدم على الجميع، مما اضطر إحماده إلى الاستقواء بعصبية واحدة قليلة الخبرة في شؤون الحرب والحكم فتتصر الشهابيين الأخيرين، وهذا ما أدى إلى سلسلة من الحروب والسراعات والكوارث أما الموارنة فإن أصولهم الملاحية واعتقاد بيتهم الاجتماعية إلى عائلات زهدة أو عشائر قوية، وانعماستهم في تحالفات والانقسامات الدينية التي لم تعرفها المذاهب الأخرى من دروز وشيعة وبعدهم عن الاهتمام بأمور الحكم والنفوذ السياسي، حصرت عصبيتهم المذهبية في الحصوص لرؤوسائهم الدينيين، وأولتهم البطريك قبل أن يبدأ في وقت متأخر، بتعاطي الأمور السياسية والعامّة، عن طريق لمدرين الذي كانوا عائداً من الموارنة، وبتشجيع ودفع من التنظيمات الرهبانية والكنيسة الغربية، أو المتأثرين بها فيما شعروا بحاجتهم إلى رعيم مدني لم يكن أمامهم سوى البحث عنه بين أفراد العائلات البائدة المسلمة الذين قبلوا أن يتصرفوا.

(1) العرب والعثمانيون، عبد الكريم رافع، ص 97.

4 - تحصيل الضرائب

كان الهاشمي الرئيسي للمملكة العثمانية هي جميع البلاد الواسعة التي حصصت لها، هو تحصيل أكبر قدر ممكن من الضرائب من رعاياها وقد أدى ذلك إلى تسخير جميع مؤسسات الدولة وأجهزتها المختلفة في سبيل هذه الغاية. فمهمة الوالي الصالح، هي توريد ما يستحق على ولايته إلى الخزينة المركزية في مواعيدها، بصرف النظر عن كيفية تحصيل هذه الضرائب، وعن مسئلة الإداري بوجه عام فالجهاز الذي يستعين به، بما فيه الجيش الخاص لأمرته هو مسخر لهذه الغاية بالدرجة الأولى وكل الأمور الأخرى، تأتي بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية.

كانت المهمة الأولى للجهاز الإداري العثماني هي تحصيل الضرائب قبل أية مهمة أخرى. وقد اكتسب مع الوقت حرة وبراعة تثير الدهشة والإعجاب في شعوليته ودقته وكفاءته فعن اليوم يستطيع أن يعرف بسهولة كم شجرة مثمرة وحدث في أي عام من القرون الثامن عشر هي كل قرية ودسكرة في لبنان وكم كان عدد سكانها البالغين داهمي الضرائب وكم كان عدد الطواحين والأنوال في هذه القرية وسحب من دقة لمسح الكامل لكل مصادر الضريبة منها من بشرية و انتاحة، مما قد يكون الحصول عليه أقل يسراً في يومنا الحاضر.

إن حدود العثمانيين القبلية لعبت دوراً مهماً في نظرتهم إلى الشعوب التي يحكمونها

بأن طاقاتهم الرعوية انتقلت فجأة من رعاة لقطعان إلى حكام لامبراطورده، ومثل كل البشر فإن الحلول التي استعانوا بها لمواجهة المشكلات التي استحدثت عليهم، كانت متأثرة بتحاربهم السابقة، فما زال عالماً بتمكينهم أنهم رعاة، وكل ما في الأمر أن قطعانهم لم تعد من الماشية، بل من البشر، ولكن تظل هذه القطعان البشرية تحت السيطرة، فقد انتقوا ودرروا كلاباً لحراستها فأهالي البلاد المفتوحة هم «رعية» يحكمها «الراعي» ويتعهدوا بتعطيه في النتيجة، أكبر كمية ممكنة من الإنتاج وهذه الذهبية التي عمت كل المستويات الإدارية في هيكلية الدولة من السلطان هي قمة الهرم حتى أصبح موطن في نقاعدة حولت الوطيمة إلى سلعة تحصى لحساب الربح والخسارة بعد أن جعل لها سعراً معروفاً يحتمل باختلاف الإيراد الذي يمكن أن تؤمنه، فلدنك كان من الطبيعي أن تكون مهمة جمع الضرائب، أهم المهمات

المنوطة بالإدارة الحاكمة وهي أساس مجريات جميع الأمور الإدارية الأخرى.

إن من يملك المال يستطيع إذ شاء، أن يصل إلى مراكز هي الدولة تتوقف أهميتها على مقدار المبلغ الذي يدفعه فهو يقوم بعمل استثماري يرمي من ورائه إلى الربح وتقاس مراعاته، بمدى قدرته على تخصيص أكبر مقدار من المال، والمواطن الذي يدفع ما عليه من صرائب يكون قد قام بما هو مطلوب منه، وأبرأ دمه تجاه دولته ومن يمثلها هي مراكز السلطة.

كان نظام تحصيل الصرائب يقوم على أساس الالتزام، وهو عقد بين الوالي والملتزم يحدد فيه المناطق التي يشملها الالتزام وأنواع الصرائب والرسوم والمبلغ المتفق عليه ومدته سنة واحدة عادة يحصل ملتزم الولاية بحكم منصبه على رتبة «مير ميران» أو وزير ولقب الباشوية، ويتعهد بدفع مبالغ معينة إلى خزانة الدولة في مواعيد محددة ويدفع علاوة على ذلك مبالغ أخرى لأصحاب الحظوة والنمود، هي دوائر الباب العالي كي يضمن دعمهم ومساندتهم والتحديد له عند انتهاء مدته. ولا بد أن الوالي العثماني، كان بمصل أن يكون الملتزم معمر، طبعاً وبنياً وصعباً وكان يطلب منه تقديم ضمانات من صيرهي في العاصمة، تأميناً لحسن قيامه بتعهداته في مواعيدها المقررة، مما يجعله الواسطة الوحيدة بين دافعي الضرائب من الأهالي، وبين الدولة، فيقوم هو بدوره بتلزم مختلف الماطعات والأقاليم في ولايته ليمدد التزامه وتعهداته بالإصافه إلى ما يتمكن من تحصيله لحسابه الخاص.

كانت مصلحة الوالي تقتضي تلزم ماطعات ولايته، إلى من يتوسم فيه القدرة على الدفع بدون مشقات، وأن يحصل عن طريقه على أكبر قدر من المنافع الشخصية، فمن المفصل أن يكون المتعاقد معه مليوناً، قليل الطموح السياسي، وجايباً بارعاً ولريادة الإطمئنان، قد يطلب الوالي منه كعلاء مقندين يصممون حسن تنفيذه، أو يسلم أحد أقربائه رهناً بين يديه حتى أتمام العهد هي أجله المعين، ولو كانت حرية الخيار مطلقة له لفصل أن يكون شريكه في العقد دميماً أو صيرهياً لا تتجاوز اهتماماته الشؤون المالية، دون تجاوزها إلى محالات سياسية أو إدارية، قد يكون من شأنها خلق المتاعب في المستقبل.

عند دخول العثمانيين إلى سوريا دحيت في «رعيتهم» مذهب لم يتعاملوا معها من قبل كجماعات غير ذمية وغير مسلمة أبصاً. ولا بد من تحديد وصعيتها الشرعية والقانونية والصرائبية هي الإدارة الامبراطورية التي تعصع لسيطرتها العديد من

الأديان والطوائف والمذاهب. فلا بد من تحديد الأطر الإدارية اللازمة التي ترعى إدارة شؤونها وعلاقتها بالدولة بعد أن أصبح أفرادها من مواطني السلطة ورعاياها.

إن التحاسن المذهبي بين الشيعة الإمامية في لبنان والصوماليين في إيران أكسب الدولة العثمانية خبرة سابقة بشأن معتقدات هذه الجماعة وأسلوب التعامل معها وتصنيفها بخلاف الطوائف الأخرى ذات الحذور الإسلامية كالنصيرية والإسماعيلية والدرور. ولما كانت حماية الصرائف على رأس اهتمامات نواب الدولة الملوك بهذه المهمة قبل أي أمر آخر فقد صدرت لقوانين نصريته الخاصة بكل من هذه الطوائف في السنوات الأولى من استقرار سلطتها في لولايات السورية

كان على كل حاح شيعي يتبعه من منطقة دمشق وسنحقي حمص وحماه نحو المرات المقدسة في جنوب العراق أن يدفع أربع عثمانيات صربية بحكم قانون صدر سنة 1526م بنما يكتفى من الحجاج المسيحيين بدفع عثمانيتين فقط

وفي سنة 1519م صدر قانون يلزم بعض الصرائف التي كان الإسماعيليون يدفعونها منذ أيام المعاليك

كان النصيريون أكثر من باقي الطوائف عرضة لسياسة صرائفه خاصة وفاسية، فمموراه صربية الحرية المروضة على كل مسيحي كان يمرض شبيهاً لها على كل نصيري أيضاً ثم ما لبث أن نظم بقانون في عهد السلطان سليمان سنة 1547م

وفي قرى سنحوق طرابلس يوجد شعب معروف بالنصيريين لا يصومون ولا يصلون ولا يرضخون لأية شريعة إسلامية وحسب السجلات القديمة كان بعض أفراد هذه الطائفة يدفع صربية تدعى قرش الشعب «People - piaster» على أساس صربية عن كل شخص، وكانت تحبى سويماً حسب السجلات، ولكن بعضها لم يحبى ولم يسجل

وبناءً على طلب قدم إلى الدولة أن العرش السامي، أمر بنحصيلها من الجميع حسب العادة القديمة على أساس اثنتي عشرة نارة من المتزوج وست نارات من الأولاد الفقارين على العمل وتحصيل مال مستقل على أن تسجل في الدفتر الجديد⁽²⁾

(1) أ د م 5747

(2) الإمارات الشيعية ص 61

إن النصيريين هي مظهر السلطة لا دين لهم وقد تكرر هذا الوصف في السجلات التي تذكرهم ولذلك ترتفع الضرائب لحاصه بهم باستمرار حتى وصلت سنة 1570م إلى أربعة وعشرين أقة⁽¹⁾ فصبية على المزوج ونصمها على العارب واستمرت في الارتفاع حتى وصلت في دفتر لطابو بحريه العائد لسنة 1649م إلى مائة أقة عن كل اثنين منهم بدون تمييز بين العارب والمتروح⁽²⁾.

وهناك أنواع أخرى من الضرائب فرضت على بعض نشاطات النصيرين المخالعة للشرع

، إن معظم المقاطعات الرئيسية هي طرابلس يسكنها النصيريون وبما أنهم هراطقة فهم يجلسون الحمراء باستمرار فيجب أن يدفعوا ضريبة «الخمرة» و«ضريبة الدمعة» و«ضريبة الأوران» في مقاطعه حمص⁽³⁾.

لم تنعقد السجلات الرسمية العثمانية أن تشير إلى الدور بوصفهم فريقاً بحصص لصريه خاصه. إن مرجعاً وحيداً هي قانون بامه المتعلق بـ«ضرائب منطقة طرابلس» يذكر

«أنه يوحد في الجبل 40 حياً من الدور لخبر المسلمين وأن كل منهم يلتحق بعشيرته»⁽⁴⁾.

قد تكون براعماته الدولة العثمانية هي سعيها للحصول على أكبر قدر ممكن من الضرائب بأقل التكاليف وأسر لسبل ربما لعبت دوراً مهماً في منح أعيان المناطق التي يصعب التحكم فيها أمنياً. لوعورة مسالكها أو طبيعة أهلها المشاكسة، عقود الإلتزام الصربية ونظمت نوعاً من العلاقة، وإن كانت غير مستقرة ومنظمة، مع الإمارات القبلية وسكان سوريا ولسان بدهم المتعددة

(1) تعادل الأقة 120/1 من القرش

(2) المصدر السابق ص 62.

(3) ا. د م 546 - 52:210

(4) الإمارات الشيعية ص 59

5 - تحول زعماء العشائر إلى زعماء طوائف

في العهد المملوكي برزت هي مختلف المصطفى للنسابة رعامات محلية عائلية وقبلية، يرجع أسباب قيام بعضها، إلى تكليف رسمي من ممثل السلطة إلى إحدى العائلات بالقيام بمهمة معينة يمنحها اقطاعاً محدداً تنقضى متمنعة به طالما استطاعت، بدعم من صاحب الشأن في إحدى مراكز النيابات.

أما الرعامات الأخرى التي لم ترتكز على اقطاع سلطاني، فقد أفرقتها عصبية قبلية قوية فرضت بها نفسها على محريبات الأحداث، وقامت بدور يتناسب مع قدرة هذه العصبية وكيفية تعاملها مع ممثلي السلطة الرسمية إلا أنه هي الحاليتين، لم استطع هذه القوى أن تتجاوز نطاقاً محدوداً من السلطة، فرصته طبيعة الإدارة المملوكية وإحكام قبضتها القوية على البلاد.

كان النائب المملوكي هو الحاكم المحلي، ومصدر الاقطاعات والمناشير التي تعين رتباً وبصوداً حتى أن الرعامات العشائرية وجدت لها منصفاً رسمياً بحسب اشرافه ومرقبته، هصار شبح العشيرة هو «مقدم العشيرة» هي لفراتنية والألقاب المملوكية، لذلك فلما جعل لنا التاريخ، محاولات تمرد وعصبية، على مر ما سيتكرر هي، الحصنة العثمانية ويصبح من تقاليد الأحكام هي لنن أن مركزية السلطة المملوكية الطاعية، ووجود بواب ينمون عالماً إلى طبقة الامراء التي حصرت في يدها كافة شؤون الحكم، من تعيين السلطان الذي يكون عادة من أفرادها إلى الولاة الآخرين وصولاً إلى أصحاب الاقطاع من الرب الدنيا والمناخرة، حالت عالياً دون تطور هذه الرعامات إلى مرتبة القيادة الواسعة والفعالة التي يمكن أن تشكل عائقاً أمام سلطة النائب المطلقة هي تعيينها وتحديد مدى الصلاحيات المتعلقة بهذا التعيين، فلما حل والي العثماني مكان النائب المملوكي في مراكز الحكم كدمشق وخراسان تراجعت القصة الحديدية، ومالت هيبة الدولة إلى التقهقر، واحتفى أمير مملوكي صاحب الرتبة والخبرة العسكرية، وظهر مكانه باشا من عبيد السلطان، تنحصر أولى مهماته في توريد مردود ولايته إلى الخريفة هي اسطمبول، وتعلق بعض الباعدين في دواوين نائب العالي، لتمديد فترة بقائه في منصبه أطول مدة ممكنة، وما كان لها أن تطول كثيراً في غالب الأحيان⁽¹⁾

(1) توالى على حلب تسعة من الباشاوات هي مدة ثلاث سنوات وعلى دمشق مئة وثلاثة وثلاثين والياً هي أقل من قرنين. المصدر السابق حتى ص 314 وبع عدد لولاء هي لقرن لثامن عشر في طر بس 72 والياً وهي صيدا 61 سلطة هي بلاد الشام هي القرن لثامن عشر عبيد لمسي عماد ص 68

إن الحلمبات المذهبية للصراع لعثماني الصموي وتقسيم الرعايا إلى ملل متعددة ومتفرقة، وطبيعة النظام الإداري لعثماني واتصاع البلاد الحاصصة له، وتمايز أهلها وتناحرهم، وانصراف الولاة إلى تحصيل كُمر قدر من المنافع الشخصية، فرصاً أو استقراراً، دون الإلتفات إلى مصلحة الدولة ومكتميتها. هذه الدولة التي عجزت عن تقديم قيم موحدة تجمع حول تقديرها مختلف عناصر هذه الإمبراطورية الشاسعة، كان من شأن كل هذه العوامل أن تحدث تغييراً أساسياً وسببياً في تطور النظام الإقطاعي في لبنان، فبما وتشعب وتحدّر أكثر من قبل، وتداخل في الكيانات الطائفية التي اردادت بدورها بروزاً ومثانة. وانقسم لبنان الحالي إلى اقطاعيات طائفية ترسخت مع الوقت وبدأ أن الحدود بينها ترسم وتردد وصوحاً، حتى أصبح يمكن أن يقال دور الإستعداد كثيراً عن الواقع، إن في لبنان ثلاثة شعوب محتملة، تقيم في ربوعه، بالإضافة طبياً إلى أنصار الدولة والملتمس حول ولايتها و مقيمين في المدن ومراكز الباشونات وهم السنة

إن الذي ساعد على ترسيع هذا الاصطدام الطائفي، ووحيد المناح الملائم لسموه وشموله، عن قصد أو عن إهمال، وعدم اهتمام، هي السياسة العامة للدولة من خلال ولايتها طالما أنه لا يؤثر سلباً ومباشرة على جهاز تحصيل الضرائب الذي كان الإهتمام مركزاً على تعمله، قبل أي أمر آخر بل ربما وحدوا في رعايته واستعماله عاملاً بحايياً لتسهيل آلية التحصيل وزيادة إنتاجيته

لم يكد يمر بعض الوقت على دخول لبنان ضمن لأقاليم العثمانية حتى بدأت ملامح النظام الإقطاعي الجديد تظهر وصحة، وتردد مع الوقت ومع الممارسة ومع تلامبالاة الرسمية بروزاً وبأطرراً وبممكنا لإشارة إلى أهم الخصائص التي ميرت هذا النظام الجديد عن سالفه قبل الحقبة العثمانية وهي مستهلها

أولاً: إحتواء العائلات الإقطاعية التي أقررتها العصبية لقبلية والعشائرية فيما مضى لصالح العصبية الطائفية المستجده وهذا أمر طبيعي، لأن الثانية أعم وأشمل فقد يعتري الانتماء القلي وهو أو ضعف لأي عامل من البعضاء أو الهوى أو المنافسة أو احتلاف الدار أو لصالح، بينما الإلتزام الطائفي يبقى راسخاً في جميع هذه الظروف، لأن العوامل الشخصية و لتطورات لأنية محدودة الأثر هي ديمومته ومدا، فلم تلت أن احتضت أسماء عائلات كانت بارزة في أواخر العهد المملوكي، كبني الحنش وهريخ وبشارة وغيرهم، وهي عصبية عشائرية لم تقوى على الصمود طويلاً بعد أن

عجزت عن التحول أو الانتماء إلى عصبية صائفة كانت تطرق مسرح الأحداث بقوة. ثانياً: انحصار دور العائلات الاقطاعية الصائفة تدريجياً وتلاشيها هي آخر الأمر كآل عساف وآل سيف وال شعيب.

إن العائلات التي كانت تستمد قوتها ومبرر وجودها هي الحكم، من مجرد مناشير رسمية فرصتها اعتبارات عرقية ومهنية دون وجود عصبية قلبية أو عشائرية تدعمها. وتحيل بقاءها هي مناصبها إلى حاجة واقعية لا يمكن تجاهلها دون عائق أو ثمن، وكان اعتمادها في الأساس على علاقة خاصة، بمن له نصبة والقدرة على تعيين أحد أفرادها في مراكز السلطة، تتيح لها ممارستها وتحاول إقامة وضع خاص دائم من خلال استعمال هذه العلاقة الشخصية لقد وكل المماليك إلى بني عساف الدرك من نهر الكلب حتى مغارة الأسد وتعاطم بمودهم في أيام العثمانيين، فتولى أحدهم على طرابلس، وبقوا ولاية لمدة طويلة إلا أن كل هذه المناصب لم تمتنع رواتهم بعد سنوات قليلة من عزل الأمير منصور كبير العائلة عن ولاية طرابلس سنة 1580م ولم تكن العائلة التي حلتهم بأحسن حال فإن آل سيفها وقد تولى العديد منهم على طرابلس ووصل بمودهم في أيام عرهم إلى كامل الساحل الشمالي حتى حدود بيروت، وهم كال عساف من العائلات التركمانية التي زرعتها المماليك في الساحل اللباني لغايات عسكرية وأعموا عليها بالمناصب والاقطاعات إلا أن مصيرها لم يختلف عن مصير سائمتها فألت إلى الانقراض والروال بعد مدة وحيرة

ثالثاً: إن الاقطاعية القائمة على العصبية القلبية تحتل طبيعتها وجود عدة عصبية تقرر رعامات متعددة، في منطقة واحدة، ومن طائفة واحدة تتنافس، على المركز الأول فتحسم السلطة الأمر بتسمية من تراه ويبصر الآخرون ينتظرون الفرصة أما العصبية الطائفية فلا تحتل طبيعتها أكثر من رعامه وحيدة، وطائفة على مستوى القيادة فيحسم الصراع مرة واحدة لمصلحة الجهة التي ستقطن القوى الأكثر فعالية، والأهم شأناً في الطائفة الواحدة، وترفع إلى مرتبة قيادية لا يشاركها فيها أحد وتختفي باقي القوى من مقدمة الصراع لتأخذ مكاناً ذا أهمية ثانوية هي «الصموف الحلقية» لذلك كان حبس الدور وحده معروفاً بتعدد عائلاته البافذة والمتنافسة «علم الدين، القاصي، ارسلان، عماد، بكر، حنبلاط» لأن الحاكم الأول ينتمي إلى طائفة عبر طائفة العالبة الساحقة من سكانه الأمر الذي لم تعرفه باقي المناطق.

6 - تراجع دور رجال الدين

تراجع الدور الرمزي والسماوي والعسكري لرجال الدين في مختلف الطوائف وانتقلوا من المساهمة في الرئاسة والقيادة، إلى الإقتصار على الدعم والمساندة والولاء للإقطاعي، وانحسر بصودهم المادي وتأثيرهم العام، ليقتصر على المحالات الروحية والدينية، وما يلحق بها من شؤون ذات طابع خاصه إلا أن الطائفة المارونية وحدها، تجاوزت هي وقت متأخر هذه الماعدة لصروف اجتماعية ورهبانية وسياسية خاصة بها، فتعاظم دور رجال الدين السياسي والعدم ابتداءً من القرن الثامن عشر، وذلك على مستوى التنظيم الكهنوتي الذي أصبح يدرس دوراً أساسياً متعاطفاً، رغم أن زمن البطريرك المقاتل أو المنعزل، ورجل الدين المتعمد والمقدم هي قريته، قد انتهى مع العصر المملوكي إن زمن البطريرك الرعيم الروحي والرمزي الذي يعاونه مساعدون من أساقفته ورهبانه قد تراجع حتى لم يعد في القرن الثامن عشر أكثر من مطران في الكنيسة اللاتينية الواسعة.

لم يميز علماء جيل عامل إلى حد كبير بين مهامهم الدينية البحتة ودورهم السياسي والعسكري في محيطهم، هتملت في البعض منهم وهي وقت مبكر، لرعايات السياسية والدينية هي أن واحد فلم يكن عريفاً أن يشترك رجل الدين في القتال، ويصود الحبوش ويشعل الثورات، حتى اشتهرت منهم عائلات جمعت القياديين الدينية والسياسية في وقت واحد¹. ثم تراجع القيادة الدينية وتركت مكانها لسيطرة الإقطاع

أما عند الدور، فقد أثرت بصلات لقائمة من رعاياتهم والحكومة المركزية الإسلامية في دمشق، إلى حد كبير في تركيب المجتمع الدرزي ونسبه وتراتبته. تركزت السلطة بين يدي الإقطاعيين لمحاربين وتقدموا على «العقال» في رعاية الطائفة، وجعلوهم أعواناً لهم وخداماً لصلاحهم². بينما يرى مؤرخ أوروبي أقام طويلاً بينهم في القرن التاسع عشر، أن الدور لا يزالون يخضعون للحكم التيوقراطي، أي حكم رجال الدين حتى اليوم³. ولعل ما يقارب بين التظلمات المتناقضتين أن اعتقادات المذهب الدرزي وراثته وأعرافه تمنح كل رعيم درزي إقطاعي، مساحة دينية عامصة غير محددة إلا ربما عند بعض تعاريف⁴.

(1) تاريخ لسان، محمد مكي ص 254

(2) تاريخ لسان لحديث كمال لصليبي ص 18.

(3) الدور والمواربة، تشارلز تشرشل ص 9.

(4) يعتمد الدور بشكل عام أن الرعيم هو احتب، إلهي واحد لتسليم به حتى ولو كان الشخص المختار لا يتمتع بالأهلية الدينية والصفات الواحدة في رجل إلهي.

7 - دخول الموارنة إلى المعادلة السياسية اللبنانية

نشأت المارونية على صفاة العاصي، وبتشر الموارنة في الوادي الخصيب من حمص حتى اطاكية، إلا أن خلافهم المذهبي مع الشيع المسيحية الأخرى وخصوصاً اليعاوية، ما لبث أن تحول، وعلى امتد دقرون عديدة، إلى صدامات دموية أجبرتهم في فترات متباعدة على التراجع والهجرة شمالاً مع مجرى النهر، حتى وصلوا إلى منبعه في منحدرات جبال لبنان الغربية قريباً من الهرمل¹ حيث بدأ تاريخهم الطويل مع لبنان.

«خلف المهاجرون الأولون وراءهم دبراً عظيماً بقي مزدهراً حتى القرن العاشر، يزهو ثلاثمئة صومعة للرهبان، وشيء عظيم من آلات الذهب والعصاة والحواهر² وبأتباع يستشرون في معرفة النعمان، وشيرر وحماة وحمص، وربما حتى قورش واطاكية حيث عاش على الأرجح القديس مارون مؤسس المذهب».

طرد الموارنة من ديارهم أو أرموا على تركهم، هرباً من اضطهادات حيراهم وأعدائهم اليعاوية، الذين كانوا في ذلك الوقت أصحاب بطش وسطوة لهم في أمانيا وبواحيها الكعب الأعلى وكان لهم فيها دير عظيم على اسم ماري ناسوس بلغ عدد رهبانه 6300 راهباً³، ولما استفحل العداء بين المذهبيين اضطرت الموارنة هرباً من الإضطهاد، إلى الهجرة نحو مسلك الجبال القريبة من النهر ينتشرون في وهاده ووديانه، حيث لا يزال، حتى اليوم، سلسلة من القرى والمزارع المبعثرة في المنحدر الشرقي لجبل المكمل المطل على ودي العاصي وسهل البماح اهله بهم وقبيل قدوم العثمانيين كانت قوافل المهاجرين المؤلفة عادة من عدد صغير من الأسر، لا تزال تسلك الطريق القديم نفسه، من بلاد الشرق الصددية نحو حرود الهرمل وشري، حيث شكلت هذه البلدة مركز تجمع للنارحين، ومحطة لنزول إلى المنحدر الآخر، نحو أماكن أقل ارتفاعاً وأكثر انفتاحاً، باتجاه مناطق حبي وبترون، مدفوعين بمقتضيات المعيشة، والعمل، ثم هي مرحلة أخيرة نحو مناطق الشبة والدرور هي كسروان والشوف وأطراف جبل عامل.

«من الواضح أن هذه الهجرة حدثت في أرمئة متوالية، وعلى دفعات متواصلة».

(1) رجلية القلاعي ص 7

(2) التتبه والإشراف، المسعودي ص 153

(3) شريح الأبيصار، لامانس ص 51.

من آثار الموارنة في وادي العاصي قرب الهرمل



مصر البسات

دير مار مارون



فكان المهاجرون ينتقلون إلى لبنان «ررافات ررافات»، لقد دخلوا البلاد من الشمال أي أنهم قبطوا وادي الأرندل فاجتاروا «قاميا وحماه وحمص، إلى أن قر قرارهم في الجبل. فسكنوا أولاً جهاته الشمالية ثم تقدموا إلى وسطه ثم بلغوا جنوبه، وهذا ما يمكن استخلاصه من النصوص التاريخية التي ورد فيها ذكر انتشار الموارنة في لبنان⁽¹⁾».

استمرت هذه الهجرات المتعاقبة قروياً طويلة، تتجه نحو أماكن قليلة السكان، كثيرة الأشجار واهرة المياه، هي عملية استيطان مضطمة، تهدف إلى ملء فراغات حفرافية بانتماء طائفي معين.

إن ظروف الانتشار الماروني الجديد، فرصت مرة أخرى أن يتعايش الموارنة مع أعدائهم القدامى من المذاهب الأخرى، هي مراكز سكنية متجاورة تتحدد النراع، لا سيما وأن اليعاقبة لم يتوقفوا عن ممارسة جهود تشييرية ناشطة، اتحدت شكل إقامة مراكز ثابته لهم وإدخال كميات كبيرة من كتبهم إلى هذا الحبل، حتى أن بطريرك اليعاقبة في وقت ما، كان يقيم في مكان لا يبعد عن مقر البطريرك الماروني أكثر من أميال قليلة⁽²⁾.

إذا تأملنا الخريطة السكانية في جبل لبنان، قبل انقضاء القرن الأول لدخوله هي ظل السلطة العثمانية، لوحدها تداحلاً ممتناً هي تواجد أبناء الطوائف المسيحية المتنافسة والمتنازعة، على الصور بانتماء المؤمنين إلى كنيساتها، والقاء أفسى التهم وأشع السموت بالهرطقة والكفر على اتباع الكنائس الأخرى بالإصافة إلى السكان الشيعة الذين يعيشون بين الصنيتين وفي جوارهما.

كان الوجود الماروني يتركز في شرق طرابلس «من قرن ابطو إلى قرن حردين»، ويقتصر وحود مراكز المطرانيات على العاقورة واليمونة وبشري واهدن ورشعين ولحسد بالإضافة إلى قبرص، كان لليعاقبة أدرة في حردين وحدثيت واهدن وبقوقا وحصرون وبشري ولحسد والعاقورة

كان الجمهور الماروني في ذلك الوقت يتألف من مجموعات من الملاحين والمكارين الناشطين يمارسون طقوسهم الدينية ياندفع قروى ساذج، وعندهم أن الدين القويم

(1) لا ماسر م. م ص 52.

(2) راجع الموارنة في التاريخ، مي موسى ص 347-350 ادحر اليعاقبة إلى جبل لبنان ما يعارب حمسين إلى سنين حمل بعل من كتبهم رحلة الأب دديني ص 248.

هو الممارسة الحرة لطقوسه التي يتلموها بالتقليد عن رهبانهم وكل تعبير شكلي في أحدها، يقود إلى الهرطقة والكفر والإلحاد فكان الشعور المملك بهم هو العداء السافر الحاد لكل المذاهب المسيحية الأخرى التي تشاركهم العيش في هذا الجبل، من يعاقبة وملكيين وسريين في حين أن مشاعرهم تجاه الشيعة الدس بقيموني بينهم، أكثر مودة وأقل عنفاً، ولم يتبدل هذا الشعور إلا في مراحل لاحقة، حينما صار لديهم تطلعات سياسية وسلطوية بدلت المشاعر تبديلاً جذرياً.

من الواضح أن هؤلاء الملاحين الأتقياء، كانوا عرصه منذ وصولهم إلى حملات شطلة من التشهير، لحملهم على التحول عن إيمانهم «القيوم» إلى اعتقادات مسيحية أخرى، حملت بطاركتهم ورهبانهم على القيام بحملات مصادة من الدفاع الشرس، للحوّل دون وصول هذا التشهير إلى عابته والحد ما أمكن من تأثيره وبحاجه

«صرنهم أعداء المواربة وعلّموهم من أفوههم، ومنفطعين عن صلاتهم، ويلتزمون ببعنوكهم في الصبح والمساء، كيف تقول أنك مارون وأنت نصر يا تعال! ارحلوا من أوكاركم وتحهروا قدامي امتدادكم الأعوج وكما سابقاً كانت الأخوة كذلك تكون العداوة بيننا»⁽¹⁾

هذا الخطاب القاسي من أحد أبرز رهبان المواربة وصاحب أول اثر شهير، اعتمدوه في تراثهم، واعتبروه من بعض أول ثوبهم الناريحة رغم أنه لا يعدو كونه رغبة شعبية، تروي بعض الاساطير المتداولة على الصعيد المحلي ولا يمكن أن يركز إلى روايتها في معظم الوقائع التي تناولتها

إن حدة هذا الصراع الذي كانت قيدته من أهم واجبات البطريرك ورهبانته، منحتهم ولا شك دفعا صافيا، عزز يعودهم العام في أوساط الطائفة على حساب المقدمين في القرى الذين كانت تنقصهم المعرفة الدينية والخبرة والمرس، على المحادلات الكسبية التي ترداد زواجا في مثل هذه الظروف، وفتحت للبطريرك الباب واسعا، أمام طلب المعونة من الكرسي الرسولي في روما التي استجابت بحماس وأرسلت في فترات متعاقبة قصاداً وكهنة ليقوموا بتحصين المواربة أمام التعاليم الخطرة، ولتأكيد الولاء الماروني للكرسي الرسولي وتثبته، مما عزز هذه العلاقات ودفعها إلى أن تترسخ وتتشعب لتجاوز الدين إلى أمور معيشية وسياسية عامة.

كان البطريرك الماروني بحكم مركزه لذيبي تكبير وسلطته الكهنوتية التي تتمتع

(1) من رسائله القلاعي إلى ابن عمه القس الماروني سى تحول إلى مشر يعقوبي رجليه القلاعي من 38.

بالتنظيم والخبرة والعلم وامكانياته المالية الضعفة، يمارس، بالإضافة إلى دوره الديني نوعاً من السلطة السياسية التي تعاطت باطراد مع الوقت، على حساب الرعماء الرسميين، الأمر الذي جعل لتداهر بينهما حتماً، مما حدا بأكثرهم أهمية وهو مقدم بشري إلى حد الخروج من كنيسة البطريرك والانضمام إلى صفوف الكنيسة المناهضة⁽¹⁾.

إن دور الكنيسة القيادي عند الموربة قد تطور مع الزمن وأصبح أكثر رسوخاً وثباتاً وشمولية، على عكس ما حصل لدى الطوائف الباقية حيث لم يتوقف تراجع الدور السياسي لرجال الدين لحساب العائلات ورؤساء العشائر الكبيرة، وذلك يعود إلى أن هذه الطائفة قد تميزت بأمر أهمها

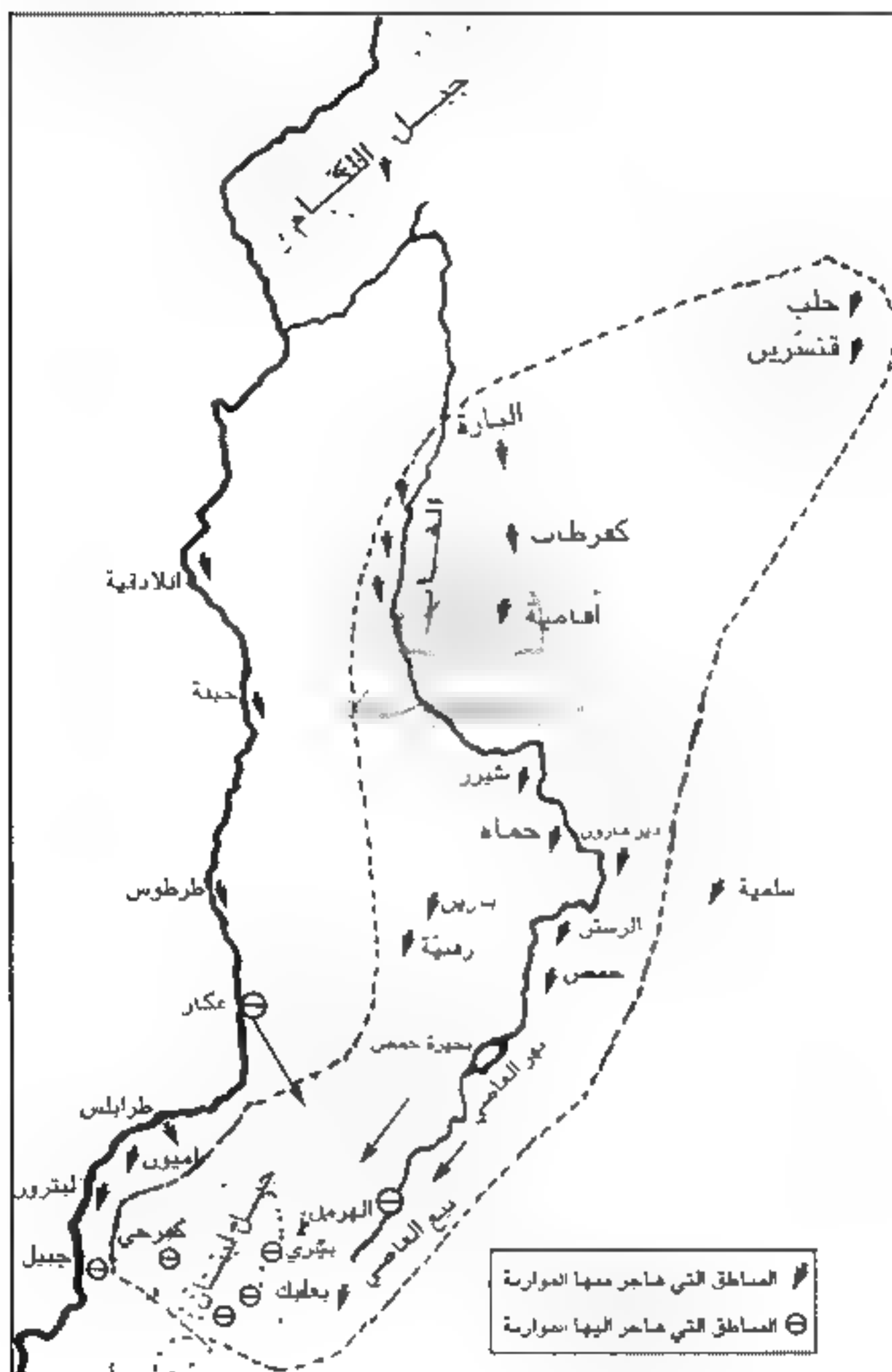
أولاً - قبلفتح العثماني وهي طلبة لم تترك قيادة مدسة ذات شأن عند الموارنة، تلعب دوراً في إدارة أمورها العامة، بل انحصر الأمر على قيام رعامات قروية يتنازع ويتقاتل لأسباب تافهة، مجردة من أي هدف عام، أو رؤية تتجاوز إلى أبعد من النطاق المحلي الضيق

ثانياً - إن، لحدود الملاحة الحضرية، الغالبة على القسم الأكبر من أساع هذه الطائفة، لا تقبل بطبيعة بنيتها الاجتماعية، نشوء عصبية عشائرية أو قبلية أو عائلية، وهي التي تشكل في العادة البؤة لصالحة نمو الرعامة القوية القادرة التي تلتمس حولها العصبية الأخرى الأقل شأناً وقوة

ثالثاً - خلافاً لكل المراع والتحيلات، لم يؤلف المواربة يوماً تشكيلاً عسكرياً أو سياسياً أو قوة مقاتلة موحدة ومستقلة، تحت قيادة مارونية بعثة، قاظت من أحل تحقيق مصلحة مارونية حالصة ومحددة لذلك ليس من المنه أن يتمكن من تسمية شخصية مارونية سياسية أو عسكرية قيادية و حدة، دون أن تكون مرتبطة بولاء أو بمصلحة لجهة أخرى، أو تنشط لحسابها، الأمر الذي حال دون توفر قاعدة لنشوء تجمع، أو قوة طائفية مهمة حول قيادة مارونية لعدم توفرها أصلاً

لم يبدأ هذا الواقع السياسي والتاريخي بالتغير، إلا بعد منتصف القرن الثامن عشر، وبتأثير من بعض القناصل والارساليات الأجنبيّة والمترددون على دوائر ومدارس الفاتيكان، الذين ابتدأوا يروجون لكيان ماروني، بنشأ بدعم ومساعدة من باريس وروما، ومع ذلك، وبما أنهم لم يجدوا شخصية مارونية مناسبة لقيادة هذا المشروع، اضطروا

(1) تحول المقدم عبد المع 1487م من المارونية إلى الميمنية وأصبح راعياً في بشري



إلى السعي لتتصير بعض أبناء العائلات السنية القوية سرّاً، واختيار أحدها¹ للعمل باسمه وهي ظله هي تحقيق هذا الهدف.

رابعاً - من بين جميع العائلات الاقطاعية اللبنانية التي تمكنت من الوصول إلى حكم مقاطعة ما، لفترة معقولة من الزمن لا يعرف عائلة مارونية واحدة، حصلت على ولاية التزام، أو حكم أي مقاطعة لبنانية. واستمرت تتوارثها لمدة من الزمن دون انقطاع وأقصى ما استطاعت بعض عائلاتهم الوصول إليه، هو دور ثانوي مساعد في خدمة الحاكم وتحت امرته، فكان منهم الكواخي و لحياة. وهذه الصفة كانوا ينفذون سياسة الطائفة التي ينتمي إليها الوالي، لا سياسة مارونية مستقلة، تستقطب حولها عصبية قوية، تؤهلها للمدور قيادي داخل الطائفة وقد شمر المورثة بهذا الواقع وحاولوا تغييره في فترة متأخرة عندما نجحوا في تنصيب آخر حاكمين شهابيين²

خامساً - كان للكنيسة المارونية جهاز كبير يتردد مع الزمن تنظيمياً وحرية وهماوية، خصوصاً بعد توثيق العلاقات مع روما وما نتج عن ذلك من انتشار التعليم وتواجد المصائد الرسولييين وعمرانه لمساعدات الأوروبية المادية والنوحيية والسياسية. وقد انتشر هذا الجهاز النشط بفعل مهامه المتنوعة في كل مناطق التواجد الماروني، وكان على احتكاك دائم بجميع المؤمنين بحكم سلطانه الطقسية والفصائية والرعية وقد وظفت كل هذه الامكانيات لمصلحة تعزيز قيادة الكنيسة ورئيسها للأمور الدينية والدينية على السواء.

سادساً - تمتعت الكنيسة المارونية بوضع اقتصادي ممتاز مكّنها من إدارة مؤسسات ذات طبيعة عامة، حتى عدت رب العمل الأول عند الطائفة، ودخلت في معظم مجالات الأنشطة الزراعية والتجارية والثقافية وخدمانية. ولا بد من الإشارة إلى تأثير المساعدات المادية الصاعدة التي كانت الكنيسة المارونية تطلبها بالحاح واستمرار، وتتلقاها من مختلف الهيئات والتنظيمات الكاثوليكية في الخارج.

سابعاً - وظفت الكنيسة بمهارة علاقاتها بالكرسي الرسولي، والمراجع الكاثوليكية الأوروبية لمصلحة توجهاتها السياسية، مما كاد أن يجعل منها الممثلة الحصرية لهذه

(1) يوسف الشهابي

(2) يوسف وبشير وذلك رغم صرار المارونيين بورية على احتراع عائلات مارونية نافذة وعطائها لقاءاً رائعة فإن لتاريخ اللبناني ثم يعرف عائلة مارونية واحدة قبل تنصيب الشهابيين وأقاربهم وصل أفرادها إلى مرتبة يفوق تجاوز قريه و عدة قرى غير أن منصب الكاحية عند حكام الطوائف الأخرى كاد أن يقتصر عليهم.

المراجع، هي لبنان، وللطائفة المارونية في الحارج، وانحصرت قنوت الاتصال عرّها ومن حلالها، في معظم الأحوال، حتى من العرب وبعض القوى اللبنانية غير المارونية⁽¹⁾

تصافرت هذه العوامل جميعها، لتعزّد من سلطة الكنيسة الرمنية، وتحمل منها المؤسسة القيادية الأهم والأوسع بالإصافة إلى سلطتها الروحية. لمعترف بها من الجميع، على كل أبناء الطائفة. ولما تمت فوه بعض العائلات المارونية، وتنامى دورها، بعد انحسار النفوذ الشيعي عن حبل لبنان وسقوط الإمارة الشهابية المتحصنة، وجدت نصّها في تناقض حاد مع الكنيسة تحول في بعض الظروف إلى عدوّ وتصادم⁽²⁾ إلى جانب سلطة البطريرك واساقفته. قام في بعض القرى المارونية - كما في القرى الأخرى - وحهاء من سكانها عرفوا بالمقدمين، وقد حملت هذه الصفة أكثر مما تحتمل، وبالعكس هي تفسيرها، وبنوا عليها نظريات في لحكم والسياسة، واعطوها دلالة تاريخية عميقة العور ومالعة القيمة.

في الواقع ان المقدم هو وحيه القرية الذي لا يتمتع بالصورة بأية سلطة سياسية أو قبادية، انما هو مهيمن من أقرانه لعلاحي في قريته، بوصفه العائلي أو المادي، أو ربما قد يكون حكماً من قبل صاحب الصل بمهمات ذات طابع سياسي أو إداري أو ديني أو مالي، لا تعني أنه رتبة رسمية من أي نوع هي حد ذاتها، وانما يطلق هذا اللقب على أي شخص له الصدارة في وحدته سواء كانت هذه لوحده عشيره أو عائلة أو قرية أو مدينة أو أي مجموعة من الأشخاص، يتحد فيما بينها في شأن أمر دائم أو آسي وهو معصب يعود إلى أيام لمالك الدين أقدمو على كل قرية ذات شأن، مسؤولاً عن هذه القرية هو المقدم، أو الكاشف ومهمته تنحصر في حباية الصرايب ومنع الخلافات وإعلام الحاكمين عن العاصير والنآمرين⁽³⁾

إن انتشار الموارد الجغرافي وحدوده ونظامهم في مجموعة شرية مهيمنة لها مؤسساتها العامة، ومواقفها المبدئية المسجحة أمام لأمر المهمة التي تعرض لها والمواقف والتطلعات التي يشاركون في الإيمان بصو بينها وحدواها كل هذه الأمور لا تزال تثير جدلاً وتبصراً وهي موضع بحث ونقاش إن العامل الذي كان يحدد الأماكن التي اتخذها الموارد مستقراً لهم هو اقتصادي بالدرجة الأولى. لذلك عندما تكاثروا في المناطق

(1) كانت اتصالات أمراء جبل لدروز وأعيانه تتم عسباً عن طريق رهان من الموارد

(2) وهذا ما يفسر بعض الإبتصاصات المارونية بني قديم في هذه الفترة

(3) زجلية لقلاعي من 4.

الشمالية والوسطى اتجهوا جنوباً إلى الشوف وجبل عامس، حيث ينشط الطلب على الأيدي العاملة الملاحية والمهنية المدربة (نحر - حد د - بيطري إلج) ، حيث استعادوا من الفراغ البشري الناتج عن التصدام الشيعي الدرزي الذي أدى في وقت سابق إلى نحسار شيعي نحو جبل عامل، فصرع الشوف والمناطق مجاورة له من الشيعة، وكانت قرية المختارة وما يليها إلى جبل عامل كهذا التحول الهمة بالطمعة الشيعية⁽¹⁾، ولم يكن في كل جبل الدور وما فيه، المتز مسيحي واحد⁽²⁾.

كانت هجرة الموارد نحو الشوف وحريص، وما يجاور هذه المناطق، قد تمت تلبية لحاجة الدور، وتحت كمهم وباشراهم، حتى تكاثروا في هذه الأرجاء وكوّنوا الطبقة الملاحية المنتجة للعداء، والممارسة لمختلف المهن والحرف في مجتمع درزي منصرف إلى السياسة والحرب كما كانوا في أماكن تواجدهم المباشرة مع الشيعة في الميظرة وكسرون.

إلا أن واقع الأمور والأهلية الثقافية والابصاحية، التي اكتسبها بعضهم بسبب النشاط الكهوتي في الدحل والحارج، وانتشار التعليم بينهم أفسحت لهم مجال استلام الوظائف التي تتطلب حداً معيناً من الثقافة والعلم من الصعب إيجاد عدد غرهم، حتى كادوا أن ينمردوا بوظائف الكتبة والمساعدين «و كواحي» عند أعيان الدور والشيعة وهذا الأمر وهر لهم طبقة من البعثة المثقمة التي اكتسبت حرة سياسة، من خلال ممارسة الوظائف، عند الولاية وأولي الشأن، وقد تمتعت هذه الفخبة بوضع اجتماعي راقر وإطلاع وافٍ على مداحل السياسة اللبنانية، التي انقبوه ومارسوها بمرعه لحساب أرباب عملهم، كما يسر لهم وضعهم الوظيفي والثقافي والمذهبي إنشاء علاقات مع الجهات الأجنبية الكهوتية منها والفضيلية كل هذه الأمور سمحت عندما تيمرت الظروف المناسبة لهذه الطبقة المارونية المستجدة من الإبحراط في السياسة، بما لحسابهم الحاضر هذه المرة.

لقد استطاع الدور دفع الشيعة بعيداً عن جبل الشوف، في مرحلة أولى وعن المناطق المتاخمة له في مرحلة لاحقة وحاول الموارد تدع السياسة نفسها مع الشيعة في الشمال دون أن تكون لهم حبرة الدور القتالية فاعمدوا لسد هذه الثغرة على سيوف الدور من جهة، كما حصل في حريص، وعلى حيوش السبطة في الشمال، بعد أن تمكنوا من توظيف هذه القوى لمصلحتهم اعتماداً على ظروف دولية ووطنية مساعدة.

إن هذا ما سبب لتصادم الماروني لشيعي في الشمال في منتصف القرن الثامن عشر، كما سبب فيما بعد التصادم الماروني الدرزي جنوباً بعد عدة عقود من الزمن.

(1) الحركات، أبو شقرا ص 150.

(2) راجع جدول سكان لبنان في القرن السادس عشر.

السياسة الشيعية اللبنانية في ظل الدولة العثمانية

عززت السياسة العثمانية المترنمة وبقمعية من اندفاع الشيعة إلى الالتفاف حول أهداف وتطلعات وعواطف متقاربة، لتكون جماعة متميزة ذات إحساس وحداني، وإدراك عملي موحد، تحركها التحديات والمشاعر والهواجس نفسها فكان لكل ذلك تأثير بالغ على المواقف المتعاضدة لهذه الجماعة إزاء الأحداث الهامة، رغم تعدد المناطق والمقاطعات التي تنتمي إليها، مما حدد أسساً مشتركة للعلاقات الداخلية الخاصة فيما بين وحداتها الثلاث من جهة، وبين المجموعات الأخرى التي يحاورها أو تتعامل معها من جهة أخرى ولا سيما جبل الدروز، ورسمت خطوطاً عريضة وثابتة هي منحنى تعاملها مع الجميع خصوصاً لسلطة العثمانية الحاكمة والدول الأجنبية التي كثرت تدخلاتها وتوسعت في الأمور السياسية الداخلية للدولة العثمانية ورعاياها

ترافقت السيطرة العثمانية على لبنان مع عدد من العوامل والظروف التي ساهمت في تعزيز قوة الشيعة ودأبعت الطوق الذي كان يشلهم⁽¹⁾، حسب تعبير المؤرخ الفرنسي بانت

في البقاع، قتل ناصر الدين بن الحش واحتضت أسرته القوية عن مسرح الأحداث، بعد أن كان في أيام المماليك مقدم العشير وحاكم بيروت وصيدا والبقاعين، وبررت مكانها أسرة بني هريج حليلة لحراشنة⁽²⁾، الذين تمكنوا من ترسيخ سيطرتهم على بلاد بعلبك، وازداد عدد الشيعة فيها حتى أصبحوا يشكلون الأكثرية من سكانها كما تابعوا إدخال البقاع بأسره في دائرة حكمهم للوصول إلى مشجرة القاعدة القديمة لابن الحش والمعبر التاريخي والثقافي بين شعبة البقاع وشيعة جبل عامل، ما سيقود حتماً

(1) تقلبت علاقة بني هريج بالحراشنة بين التحالف والعداوة، ويعتقد البعض دور دليل أنها أسرة شيعية وكانت نهايتها على يد تحالف معني حراشيني.

إلى زيادة التواصل وإزالة العوائق بين المنطقتين الشيعيتين الكبيرتين، ويساهم بحلق واقع سياسي وديمقراطي قد يكون له بالغ الأثر في المستقبل القريب⁽¹⁾

إلى الغرب، عزز الحماديون تحركهم في الاتجاهين لملء الفراغات البشرية في المناطق الجبلية التي نجمت عن الحملات المملوكية في القرن الرابع عشر، وكانوا قد تمكنوا من الحصول على العديد من المقاطعات الممتدة من سموح صنين الشمالية إلى جبة بشرى في الشمال⁽²⁾، كانوا مقدمي شتات منذ ما قبل 1488م⁽³⁾ كما تمشيح المتأولة في المنيطرة قبل هذا التاريخ⁽⁴⁾ وسكن بعضهم في غرير قاعدة كسروان⁽⁵⁾ التي كانت لم تزل من مناطق الشيعة قبل هجرة الموارنة إليها ومن الطبيعي أن يؤدي هذا التحرك إلى تباعد دائم وهادئ مع الموارنة على ملء الفراغات البشرية وتصادم مع بني عساف وبني سيف⁽⁶⁾ وهما من أهم العائلات التي زرعا المماليك على طول الساحل الشمالي وكلموها مهمات أمنية وعسكرية، وربما أرادوا منها المساهمة في إحصاء منطقة عاصبة، معظم سكانها معادون لهم بحكم إيمانهم الطائفي والمذهبي المعابر، فاستعدوا بعده عائلات من أصول عبر عربية، تسلمت السلطة وشارعت فيما بينها، إلا أن الجميع مالبتوا أن اندثروا هي وقت مبكر ولم يعد لهم وجود إلا على صفحات التاريخ.

مع الدخول العثماني، احتوى بنو بشاره من ناحية الأحداث، في ظروف يصعب التكهن بها، لعدم وجود ما يمكن الركوز إليه في هذا الموضوع وإن كان من المحتمل أنهم اندثروا كأعدائهم بني الحشر نتيجة الحروب والتصفيات التي قام بها الفرالي، تقريباً من سيدة الحديد في فترة أولى وثائراً عليه في آخر الأمر. وكان من نتيجة احتفائهم أن بدأت بعض الأسر الأخرى تبرز على الساحة وأهمها الأسرة الوائنية (آل علي الصغير) وريثتهم المباشرة التي ستلعب دور القيادة في الفترة التالية، تشاركها أسر أقل أهمية وبمقدار كل منكر وبني صعب⁽⁷⁾

(1) بيت بشارل كثيرة كمال الصليبي ص 165

(2) لبنان من المنح العربي إلى المنح العثماني، محمد علي مكي، ص 266

(3) الشدياق 12 ص 193

(4) البويهي ص 363

(5) البويهي ص 488 هي أواخر القرن الأول للمهد العثماني كد لا تزال أكثرية أهل كسروان من الشيعة

(6) لبنان، مكي نفس المصدر ص 266

(7) الأرجح أن أسرة علي الصغير منحدرة من بني بشاره. راجع فصل لحكم الشيعي في جبل عامل

كما لم تعد صمد تتمتع بالإشراف المباشر على سير الأحداث في جبل عامل، وإن بقي يشكل جزءاً من معاملتها قبل أن تصبح صيدا مركز الباشا في مستقبل لاحق، ولم تعد مركز نيابة، كما كانت أيام المعانيك، وأصبحت مجرد منجق يعرض للإلتزام كل عام، مما جعل العاميين أنعد عن مسؤل السلطة ومراقبتها مما كانوا من قبل.

في هذه الاثناء لمع نجم أمير بدوي شيعي، فجمع بين حكومة بابلس وصمد وعجلون والبقاع، وأصبح ربما أهم أمير محلي بعد بن الحش. لاسيما بعد أن أضيفت إليه إمارة الحج أكثر من مرة، ولكنه انتهى كغيره من لامراء قتيلاً في دمشق على يد مراد باشا عام 1594م.

إن واقع الشيعة الجعراهي ألزمهم بالسعي إلى إيجاد تواصل بين مناطقهم ليجعلوا منها وحدة متصلة ومتراصة تتمتع بعدد أوسع، يمحهم مرابا حربية واقتصادية وسياسية عديدة ومهمة كانت منطقيا شمال لبنان والبقاع متجاورين لا يفصل بينهما أي حاجز إداري أو شرعي، خلا الطبيعة القاسية المسيطرة على قمم الجبال عند انحدارها إلى السهول الشريفة ورسم نهج كانت عموماً غير صالحة للسكن الدائم، إلا أن سكانها من الشيعة استطاعوا لتغلب على هذه المصاعب، بقوة تحملهم وتعودهم على شغل العيش فانشأوا شريطاً من القرى على الجانب الشرقي للجلل بدأ من الهرمل شمالاً حتى حرزتا جنوباً، مما حمل الحدود بين المنطقتين متداخلة والتواصل مستمراً ودائماً.

ولم يكن الأمر كذلك بين البقاع البعلبكي، وجبل عامل، فهناك فاصل بالغ التعقيد هو البقاع العريري الذي كان في البدء حرجاً عن سلطة الحراشة ولم يكن الوجود الشيعي عالياً على سكانه⁽¹⁾، إلا أنهم تمكنوا بعد وقت وجيز من السيطرة على كامل سهل البقاع حتى تحوم جبل عامل ووادي التيم.

في هذه المرحلة كان المسافر لشيعي يستطيع أن يبدأ رحلته من صمد، ويصل إلى آخر حدود لبنان الشمالية في أي نقطة شاء، دون أن يسير خطوة واحدة في بلاد لا يحكمها شيعة. كان نفوذ الحراشة وحكمهم يصل في الشرق إلى أوسط البادية، لأن حمص وتدمر كانتا غالباً تحت حكمهم وكذلك صمد أحياناً أما جبل عامل التابع رسمياً إلى منجق صمد، فقلما استطاع عريب لسيطرة عليه إلا في ظل الأرمات

(1) كانت ناحية شوف الحرايين في لنباع لاوسط أحياناً موضوع نزاع بين حكام بعلبك و لكرت وحكام جبل الدروز

والحروب التي تنشأ لهذا السبب ولا تدوم طويلاً كما أن الحماديين في المناطق الساحلية والجبلية، الواقعة بين بيروت وطرطوس، كانوا في غالب الأحيان يصمون إلى حكم بلادهم مناطق وسعة تقع الآن خارج حدود لبنان، كصافينا وحصن الأكراد وحيال الكلبين وصار لشيعة في جبل عامل وبعليك مراكز علمية مهمة ومشهورة، تستقبل طلاب العلم من مختلف بلاد وتخرج الأعداد الوفيرة منهم إلى سائر أماكن تواجدهم، في ذلك الوقت، هانتشر تعلم وما الاقتصاد وأصبح لهم عموماً في لبنان بعض الملامح السياسية المشتركة على اختلاف مناطقهم، بقيت تعلن عن نفسها وتظهر مهميرة وواضحة أمام كل ما يستجد من أحداث مهمة وتطورات كبيرة، ويبدو أثرها هادعاً أمام كل ما يتعرضون له من محن

إن أهم ملامح هذه السياسة تتركز حول المبادئ الثلاثة الآتية

أولاً الاحتفاظ بعلاقات خاصة بينهم تحكمها الأعراف والتقاليد المشتركة، وما يقتضي ذلك من تحالف وتعاون في المصالح وأمام التبعيدات والأخطار، والتشاور الدائم في الأمور السياسية والعامة.

من العسير على المنصف، في زوايا تاريخ لبنان، أن يجد معركة هامة أو قتالاً ذا شأن، شجب بين مجموعتين شيعيتين كبيرتين لأسباب حربية أو سياسية أو مناطقية، أو بسبب تنافس على حكم أو معمم أو نفوذ كما كان يحدث باستمرار عند جيرانهم من بعض الطوائف الأخرى التي عانت من الانقسام الحربي والقبلي والسياسي والمعارك المتواصلة بين قيس ويم، كما هو شائع ومتواتر، حتى أصبح سمة بارزة في تاريخ لبنان وما نتج عنه من دمار، أزال بعض القرى وهدم الكثير من العائلات، فإذا وضعنا جانباً ما نتحدث عنه بعض الأحرار العاملة القديمة، وهو أقرب إلى الأساطير والروايات منه إلى التاريخ، من صراعات دموية بين عائلات تنافست يوماً على الحكم، ولم يبق من أثارها شيء كثير ومن ذريتها أحد، وبحيطة لشك ولا لتباس بحقيقة وجودها وحصنها، كآل سودون ومشطاح وطريفة وما تبقته المرويات عن نزاعات مع الصعيريين وما سمك فيها من دماء وسقط من قتلى لو وضعنا جانباً كل ذلك، لوحدنا أن النزاعات على الحكم بين الشيعة، قد اقتضت على أفراد من العائلة الواحدة، وهذا الأمر هو تقليد شرقي قديم، ساهمت السياسة العثمانية وهرماناتها في إذكائه واستغلاله.

«أظهر الشيعة في هذه الديار وجودهم واجتمعوا كتلة واحدة يدافعون عن كياناتهم وتلمبوا يومئذ بالمتاولة ولم يلق به غيرهم من الشيعة الخارجين عن جبل عامل ولبنان وبعلبك أظهر المتاولة وجودهم وانضموا جميعاً تحت رعاية كبرائهم». فقد كانت مقاطعة جباع والشومر لآل منكر من عشائر الشيعة، وكانت مقاطعة الشقيب لبني صعب، وهم من سلالة الأيوبيين، وكانت بلاد شارة الحويية لآل علي الصغير الوائليين، وهم المعروفون بالزعامة على كل جبل عامل في ذلك العهد وكانت الشيعة في بعلبك تحت إمارة آل حرفوش، وفي شمالي لبنان المتوح وكسروون والهرمل وبلاد جبيل وما إليها، تحت قيادة مشايخ آل حمادة والكل يد واحدة على مساوئهم ما أمكن».

وكان على رأس مناوئتهم الولاة العثمانيون في دمشق وطرابلس وصيدا وغيرها من مراكز الولايات، التي ترسل قواتها أحياناً لتأديب الشيعة وإحصاعهم وعندما يعجز الولاة المعسرون وحدهم عن القيام بهذه المهمة تشبه دائمة، يستجدون بالباب العالي الذي يصدر أوامره إلى باقي الولاة للمساعدة، التي تصعب دائماً من أولويات اهتمامات أصحاب الشأن في العاصمة اسطنبول.

كان السبب في السلطنة العثمانية عصب الدولة وماده الحكم، وطائمه، تسلطه وموضع عنابتها ورعايتها وهم أكبر الملل وأهمها، منها الولاة والموظفون ورؤساء الجند ورجال القضاء والإفتاء والتدريس أم أكبر الملل المسيحية فكانت ملة الروم «الأرثوذكس» وملة الأرمن، وفي وقت متأخر ملة البروتستانت التي اعترفت الدولة بها بتأثير النفوذ البريطاني. كما صدرت مع بوقت كل جالية أوروبية تشبه الملة وتتمتع بحماية دولتها، التي غالباً ما ترتبط مع لدولة العثمانية بمعاهدات تؤمن لمواطنيها معاملة مميزة وخاصة، فكان هذا النظام عتواف بحكومة داخل حكومة، وأوسع المجال واسعا أمام تدخل الدول الأجنبية في حمسة مواطنيها وإحصائهم، واستخدم هذه الحماية عنصراً هاماً في خدمة مصالحها لسياسة والاقتصادية

كان من الصعب في لدولة العثمانية كما في العديد غيرها من دول الشرق، أن تحدد حدوداً واضحة بين الدين والمواطنة، فكان لرعابا نصتمون على أساس مللهم، حتى في نظر الدولة، فهناك ملة الأرمن وملة اليهود، وليس هناك مفهوم محدد للمواطنة العثمانية. حتى أن قتاضل الدول الأوروبية الذين يؤمنون في بلادهم بمفهوم

(1) لبنان، مباحث علمية واجتماعية، ص 672.

الأمة والشعب والوطن، يرسلون من لسان تقاريرهم إلى بلادهم يتحدثون عن متاولة وموارنة ودرور بحسب العرف والمفهوم السائد في هذه البلاد

لم تعترف الدولة العثمانية بملة المتاولة ولم تستعمل أبداً هذا التعبير، فحصرت الإفتاء والقضاء بالمذاهب الأربعة (الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي). وقد حاول الشيعة عبثاً تجاوز وهذا الواقع باختيار علماء بقصور ويمتنون على المذهب الجعفري، إلا أن الدولة كانت ترفض إصدار مرسوم يسمح هذا الأمر. وبقي نشاط هؤلاء العلماء خاصاً وشعبياً ودون أي مفعول رسمي ولم يتمكن لشيعة في أي وقت من الحصول على بعض حصائص الملل الأخرى، كاليهود والنصارى ونصائفة، ولا أن يصبحوا ملة معترفاً بها كما لم يتمتعوا في أي طرف بحماية دولة أجنبية يستظلون بحمايتها ويعبرون بنموذها اعشارهم أمام السلطة، ويحدون من معايير عداوتها لهم

يقول السارون دي هو والسائح شارم

«لما كان المتاولة لا يتلمون أي حماية دولة فقد ضعف مركزهم مما أدى إلى انهيارهم،» إن ضعف الدولة العثمانية الذي تصافح مع الوقت، حتى أصبحت تعرف في الأندية الدبلوماسية والصحفية بـ «الرجل المريض» سمح للدول الأجنبية وممثليها، ممارسة سلطة على أمورها الداخلية يختلف حجمها باختلاف الظروف السياسية الدولية وبوعية العلاقات مع هذه الدولة ومداها.

كانت البندقية أول دولة مُنحت رسمياً بعض الامتيازات لرعاياها بموجب معاهدة عقدت عام 1521م وبعثتها فرنسا 1535م، ثم إسكترا 1580م ولم تلبث هذه الامتيازات أن تطورت وتشتعت، وأصبحت تشمل جميع النصارى داخل الإمبراطورية العثمانية. وأصبح لهذه الدول، وخصوصاً فرنسا، نفوذ سياسي بالغ في دوائر القرار في اسطنبول وسائر عواصم الولايات

إن النفوذ الفرنسي خصوصاً و لأوروبي عموماً، المتنامي داخل الدولة العثمانية الضعيفة، دفع الطوائف اللبنانية إلى التمسك بإقامة علاقات مع الدول الأجنبية، لاسيما مع فرنسا، للحصول على الحماية ولتساعدت المادة والدعم السياسي، عن طريق الطلب منها استعمال نفوذها لدى الباب العالي لتحقيق إجراءات عثمانية تعود عليها بالمنافع المشودة وربما طمعت بعض الجهات في ظروف معينة بالحصول على

مساعدة عسكرية، عند ما يسمح الأحوال، ويكون لدول المعنية مصلحة ورغبة بذلك.

وهكذا نشأت بين الطوائف اللبنانية وبعض الدول الأجنبية، علاقات ثابتة ودائمة عن طريق المراسلات أو المندوبين أو قناصل هذه الدول ومعتمديها، وربما بعض تجارها المؤهلين لهذا الأمر. كما حرصت الحاجة إلى التوصل وإيجاد قنوات دائمة تتولى هذه المهمة، حتى أصبح من التقاليد السياسية المعروفة والمعمول بها في العلاقات الدولية. إن فرنسا تشكل مرجع الموارد كما هو حال إنكلترا بالنسبة للبرونستات أولاً وللدرور هي مراحل أخرى، بينما روسيا هي مرجع ملة الروم «الأرثوذكس».

هي هذه المعادلة المتداخلة بين الطوائف السياسية وبعض الدول الأجنبية والدولة العثمانية، بقي الشيعة وحدهم الطائفة التي لم تستطع أو لم تسمح لها الظروف الدولية، بإيجاد أي نوع كان من لحماية لدولية. أو العلاقة الخاصة أو قناة دائمة تؤمن لها التواصل المتين والناهم الثابت مع جهة خارجية، مما أفقدها باستمرار مواقع أساسية ومهمة هي السياسة اللبنانية على مر العصور وعرضها أن تواجه معزولة هجمات شرسة تستهدف وجودها وكيانها وأمنها هي أكثر من محطة تاريخية وهذا الواقع نفسه هو الذي أثار محاروف وهولجن دالة وخارجية، حول قدرتهم على مقاومة باحثة وفعالة في عياب دعم دولي يستندهم أمام ما يتهددهم من أخطار و محططات. إن «الرجل المريض»، أصبح أخطر من أن يدفع التدخلات عن أحص شؤون، ويمنع بعض رعاياه من الإرتقاء هي حصن أول من يؤمن لهم لحماية والأمان، ويحقق لهم مصالح ومطالب. كانت دولتهم أحر من يهتم لها، وهي عياب كامل للإبصار والمساواة بين الطوائف واعتبار جميع الرعايا مواطنين هي موقع وحد، بصرف النظر عن أي انتماء ديني أو مذهبي أو عرقي أو عنصري، حتى ولو كانوا موضوع اهتمام أحبي خاص، سواء كان فرنسياً أو بريطانياً أو روسياً أو أي حماية أو عطف أحر.

إن هذا المبدأ لا يعني أنه غير قابل للتعديل والتبديل في هوية الحامي، تبعاً للظروف، فلطالما حاول الدرور أن يكسو ودّ فرنسا أيضاً، وينسجوا معها علاقة ودية، كذلك الروس، الذين دفعتهم حروبهم شبه الدائمة مع الدولة العثمانية، أحياناً، إلى مساعدة طوائف أخرى غير الأرثوذكس لإثارة لمتاعب هي داخل الامبراطورية، خدمة لأهدافهم كذلك لا يمكن تجاهل المصالح التجارية العائدة للجمهوريات الإيطالية في مرافئ لبنان وغيره من بلاد الإمبراطورية كالبندقية وجنوا وتوسكانة، وما استتبعته هذه المصالح من إقامة علاقات سياسية بحتة ليست أدواراً لا يمكن تجاهلها في بعض

الفترات الرمنية. وكادت أحياناً أن تترب بصماها على محرى الأحداث كذلك لا بد من التأكيد على النفوذ الشديد والعلاقات الشطة التي كان يباشرها الكرسي الرسولي بواسطة قُصّاده⁽¹⁾ ومبعوثيه والتنظيمات الرهبانية و لاكيريكية المرتبطة به، والتي أمنت له شبكة واسعة من الإتصالات الكموة والمحصصة، بالاصافة إلى الإعتقاد الديني الواسع الذي يربط الاف المؤمنين من الدين يعتبرون روما كمبتهم المقدسة الكبرى.

كانت فارس الصفويين هي الدولة التي يمكن أن يتعاطف معها الشيعة، ويطلبون منها الحماية والدعم، لأنهم لا يلتقون معها بوحدة مذهبية إمامية فحسب، بل إن الشاه الحالي على عرشها قد استمد شرعيته انطلاقاً من فلسفة المذهب الفقهية، من كونه من سلالة الإمام الشيعي السابع موسى لكاطم وهو والد الإمام السادس جعفر الصادق الذي ينسب إليه شيعة وصح الأئمة من المقهي والتشريعي لمذهبهم حتى أصبح اسم المذهب ينسب إليه⁽²⁾

إن كل حاكم، غير الإمام هي نظر الشيعة، من ناحية الإعتمادية هو متسلط لا شرعية له، ولا تترم طاعته بل إن لواجب الشرعي يمرض التصدي له، إلا هي حالة التقية، التي تحير انتظار ظروف أفضل تنتهي معها من الخوف والحذر على النفس أو المال أو العرض. وبما أن الامام عائب ومحبوب، فقد حل هذا الإشكال بجوار قيام ولي أو نائب له، يباشر الأمور باسمه ولغاية ظهوره، وبطلافاً من هذه المعطيات الفقهية الحالية، والمطرية البحتة، فإن الحاكم لضموي هو الولي الشرعي الواجب الطاعة والنصرة. وأما من الناحية العملية والواقعية، فإن العلاقات العملية والمذهبية القائمة بين شيعة لبنان والمملكة الصموية، منذ أيامها الأولى، والتي تجلت في هجرة متواصلة لعدد غير محدود من رجال الدين و لعلم وظلايهما، وعدد آخر من المطاردين الساعين وراء ظروف أفضل، فاستقبل الجميع بترحاب رسح هي الأدهان أن أية علاقات هي مجالات أخرى قد تكون مرغوبة ومطلوبة بيد أن فتاعة تامة وبهائية، فرصت نفسها على كل من يعنى بهذا الأمر، وهو استعانة قيام علاقات خارج الأطر العلمية والمذهبية والعاطفية والشمائرية بين شيعة لندن والحكم الصموي في إيران لأن المواع العملية والحرفاية والسياسية تحمل التفكير فيه صرباً من لغت وتحيال للأسباب الآتية

(1) القصاص الرسوليون تعبير يطلقه المؤدية على المؤشرين أو مقاصدين، أو المبعوثين، البابويين. وممرده القاصد الرسولي

(2) يطلق على المذهب الشيعي اسم المذهب الجعفري و لجمعريون هم لشيعة، نسبة إلى الإمام جعفر الصادق.

أولاً عند قيام الدولة الصفوية هي مستهل القرن السادس عشر، قبل فترة قصيرة من خضوع لبنان للحكم العثماني، والعلاقات بين الدولتين هي حالة عداء دائم وحروب تكاد أن تكون متواصلة، ومعاملة العثمانيين لرعاياهم من الشيعة، بما فيهم اللبنانيين تتأثر عادة باشتداد الحروب بين الدولتين أو حمودها، فلم يكن من المنتظر أن تتساهل الدولة حيال أية صلة تقوم بين أعدائها وبعض رعاياها، وقد يتعرضون في حالة صيبتها إلى ما تعرض له غيرهم من شيعة الامبراطورية من تكيل، بلع حدود الإهساء أحياناً. فقد كانت نهمة الولاء للحاكم الصفوي كهيئة لتعريض أية جماعة تتهم به إلى أقصى التدابير الإنتقامية، وقد كانت السلطات تنظر بعين الريبة الدائمة إلى كثير من الجماعات الشيعية اللبناية حذراً من مشعر النود والحمية لمذهبية لتي قد تقربها من أعدائها اللدودين، فقد حاولت من أجل ذلك استدال الحكم الحرفوشي هي بعينك، بحكم سبي صادق الولاء كما أنها أطلقت على شيعة جبل لبنان اسم المزلباش، وحاولت على امتداد سنوات طويلة استئصانهم ونقصاء التام على وجودهم

ثانياً: لم يملك الصفويون اسطولاً بحرياً فعلاً يجعل التواصل ممكناً من الباحثين العسكرية والتجارية، خصوصاً وانهم لم يصلوا هي أي وقت إلى السيطرة على منعد بحري على المتوسط ومنصرعاته يجعل هذا التواصل ممكناً أو محتملاً، بينما كانت الموانئ اللبنانية هي متناول الأساطيل الأوروسية و لروسية، تحارباً وعسكرياً هي اي وقت ارادته

ثالثاً لم يكن للصفويين مطامح سياسية أو تجارية هي بلاد الشام وإنما كان الدواع عن بلادهم بوجه التوسع العثماني أقصى ما يطمحون إليه، وبعد سقوط الصفويين لم تتميز السياسة المارسية هي حظوظها مريضة، وكان تدخل الدول الأوروبية قد بلغ أقصى مداه في شؤون الدولتين لثمانية والصفوية، بينما تراجعت قدراتهما ودب الصعف والتحلف هي كيانهما وانصرحت جهود كل منهما الى معالجة وضعها المتقهقر.

وهكذا تمكنت معظم الطوائف في لبنان من لاعتماد على راع دولي تلحاً اليه وتستمد منه الحماية والعون في الوقت الذي اعتقد الشيعة فيه الدعم الفارسي لاستحالته وعدم فاعليته وفقدان الأسباب الموضوعية لقيامه من حالات ومعتدين ووسطاء. فكيف كانت العلاقات بين الشيعة والدول الأجنبية الأخرى التي تتمتع بتأثير ونمود هي الدولة العثمانية، لاسيما فرنسا باعتبارها من أكثر الدول صداقة للدولة العثمانية، والدولة الأكثر حضوراً وبسوداً تصالاً هي لبنان.

لعب رجال الدين الموارنة وخصوصاً لدير راروا روما وأوروبا وأصبح لهم علاقات وتواصل مع بعض المرحمات السياسية والدينية الأوروبية والتنظيمات الرهبانية هي القدس وحلب، دوراً محورياً في ترسيخ العلاقات الوثيقة التي قامت بين الموارنة وفرنسا عن طريق مباشر أو غير المباشر بدوائر الكرسي الرسولي في روما

كما سهل هؤلاء الوسطاء قيام تصارب وود بين الدروز وفرنسا في مرحلة سابقة لتوجه الدروز نحو بريطانيا، بعد أن تدهورت علاقتهم بالموارنة، حتى قامت المعارك أحياناً بين الطائفتين.

لقد بدل الوسطاء جهوداً ملمّة لحلق حالة من التعاطف بين الدروز والأوساط الدبلوماسية الفرنسية، حتى شاع في مرحلة ما في أوروبا اعتماد عريب أن الدروز ربما كانوا من أصول مسيحية ومن بقايا الصليبيين الذين هددوا بالأصل من أوروبا، ثم اضطروا إلى اللجوء في الحال إلى أن فقدوا أصول دنائتهم ومزجوها بتعاليم ديانات أخرى حتى وصلت إلى ما صارت عليها.

وهي مرحلة لاحقة اقتصر الدعم الفرنسي على موارنة وحدهم وعلى أمراء الدروز دون الطائفة ولم يكر أمير دروز درياً في أي وقت إنما هو مسلم معرّض للتصّير في أية لحظة، وصار الدروز كجماعة وكطائفة، يصنّفون في حابة العداء لفرنسا بعد أن ساءت علاقاتهم بأمرائهم وبحيرائهم الموارنة، وأصبح بريطانيا هي حاميتهم الأولى، وصار القدس والتعاضد بين سياسة الدولتين الكبيرتين، ينعكس على علاقة الموارنة ودروز ويتداخل في تشعباتها، بينما استمر الشيعية في عزلتهم الدولية معرّضين بدون حماية مؤثرة لكل ما يبيّت لهم.

(1) ساد اعتقاد عريب في ذهن بعض المهتمين الأوروبيين بقضايا لبنان، وهو أن الدروز هم من سلالة أحد القادة الصليبيين، وربما روج بعضهم بهذه الأسطورة من حل الحصول على منافع سياسية ومادية فقد رجعوا أن الدروز هم من سلالة الحمود الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت «دي درو» وهو الذي أسكنهم في لبنان بعد سقوط عكا وأن كلمة الدروز هي تحريف لإسم هذا المائد De Dreux و غير الأب أوجين روجيه المرسيمسكاني أن المعنيين هم من سلالة عودفرو نو بويون وكذلك هير وباريني وأحد عنهم بعض المؤرخين العرب مثال الأب برسان شكري وجرجي يسي وجرجي زيدان وندره المطران، (تاريخ دروز حان ميشال بار دي ص 548).

كتب فتصل فرنسا في صيدا إلى حكومته في 20 آب 1743 م.

«إنني هائلاً أكثر من يشهد لسعادتكم عن مشاعر الاحترام وإذا جار لي القول الحنان الذي يكنه امراء الدرور للملك بهم أتو إلى بيتي يؤكدون لي صداقتهم. لا أستطيع أن أصبر لسعادتكم عما أظهروا من إعجاب واحترام عند مرأى صورة جلالته، مما دفعهم إلى القول بصوت عال والترديد أمامي مرات عدة أنهم لا يعترفون في قلوبهم بسيد آخر غير منك فرنسا».

إن الحماعات نفسها التي كانت تكيل مديح يدون حساب للموارة والدرور، وتتغنى بصماتهم الحميدة، وتعلقهم بفرنسا ومليكها واستطار المرح على يدها وعن العلاقات الحميمة والحصارية التي تربط لطائفتين وترسل التقارير المتلاحقة بهذا المعنى إلى المراجع المرسية والبابوية والقنصل الأوروبي في صيدا وببيروت، كما وأنها كانت تستعمل الخطاب نفسه وربما بحماسة أشد في اتصالاتها ومقابلاتها الشفوية مع المراجع نفسه، كانت تلتصق بالشيعة أشجع النفوس وأشدّها تحاملاً هم عرباء عن البلاد، ومعادون للمسيحية والحصارة الأوروبية، فلا بد من الخلاص منهم لتستقيم الأمور ولا ييؤى في لبنان عبر المسيحيين سلعين بالكرسي لرسولي وملك فرنسا. وأن الدرور ليسوا إلا هرقّة تكاد أن يكون شبيهة بالفرق الكاثوليكية، وأنهم ينتظرون الفرصة المناسبة لإعلان تنصرهم الكامل فهم مسيحيون رُغموا على سبيل معتداتهم

إن هذا الخطاب المتحامل والمتجاهل لواقع، خلق شعوراً أوروبياً عاماً معادياً للشيعة ليس عند الحكومات ورجال السياسة والدبلوماسية فحسب، بل تسرب إلى أفكار معظم المهتمين بقضايا الشرق والدولة العثمانية ولبنان، فلم يعد من المستبعد أن يصف كاتب أوضاع الشيعة في لبنان بأنهم جماعة متوحشة تعادي المسيحيين والدرور المسلمين ولا تكتمل شعائر رمضان عندها إلا بالاعتداء على كاهن كاثوليكي لتكسب بذلك لأحر والثوب... إلا أن هذه الآراء لم تكن ثبته ورأسحة هي جميع الظروف وعند سائر المرجعيات، بل كانت تحصى للتصورات السياسية على الأرض، ولطبائع الأشخاص وعمايتهم.

اهتقد الشيعة صديقاً دولياً يعتمدون عليه ويستندون إلى حمايته، إلا أنهم كانوا جميعاً، حكاماً ومحكومين يعرفون أن لهم عدواً واحداً على اختلاف العصور والظروف

هو السلطة العثمانية فكانت سياستهم لعمامة ثباته والدائمة تتمثل في مبدئين، أحدهما جميع تصرفاتهم خلال حقبة طويلة من الزمن هما عداوة الدولة العثمانية، ومحاولة التخلص من سلطتها مهما كان الثمن وبأية وسيلة كانت إن تأكيد هذين المبدئين وتعميرهما وسوق الوقائع التي تؤكد التواضع على ثباتهما وتحذرهما في الوجودان الشيعي التاريخي وشرائحه تندو واصحه في معظم المحطات التالية. ولقد بدأ هي مرحلة مبكرة من الوجود العثماني ن الأمير الحرهوشي هو الحاكم اللبناني الوحيد الذي سقط مع دخول السلطان سليم سنة 1516م كما أنه من المرحح سقوط بني بشارة في المناسبة نفسها جنوباً بينما أعين الحماديون عداؤهم الساهر للكافر العثماني وحمايتهم لكل بصراحي يعاديه، في ماضي موثقة.

ولم تكن هذه المواقف مقتصرة على هزم السلطة عند الشيعة بل كان هو الشعور العام الذي عبرت عنه جماهير هذه الجماعة حرباً أو سلماً هي كل فرصة ومناسبة

زار الرحالة دي لا روك، DE LA ROQUE هناك بعكس برفقة أحد صباط الأمير الحرهوشي الذي يستنصحه وأمضى وقتاً طويلاً في معاينة آثارها مما لفت انتباه الأهالي واعتمدوا ان السائح مهندس أحسن استدعاء الأمير لعموية حصون الملعة في حال حصول هجوم من باشا دمشق، فاحتشد الأهالي وعمروا عن سرورهم بذلك من جراء كرههم الشديد للباشا وقد تركهم الأمير على اعتقادهم الحاطيء كي لا يفسد عليهم فرحتهم⁽¹⁾.

«إن الجمهور الذي رأكم تخرجون من هنا وتسلكون طريق القلعة مع معاوني والدي لاحظ اهتمامكم بريارتها لعدة ساعات توهم أنني أريد تحصينها لصد أي هجوم من والي دمشق، وخالكم مهندسين استقدمتهم من أجل هذه الغاية فجاءوا يعلنون تصامنهم معي لأن الباشا هو مكروه بعمق من الجميع فلم أقل لهم شيئاً يناهني اعتقادهم وإذا لم ترغبوا في الإعادة من هذه المناسبة فهذه خلعتكم هان فضولهم لم يمنحهم أبداً مثل هذه المناسبة ليصرخوا ويعنبطوا».

إن وصول هذا الرحالة من بشري إلى بعيت لم يكن ممكناً دون محاربة لولا الرسالة التي حملها من شيخ بشري، الشيعي وصديق شيخ بعلبك الحميم وهما يشاركان رحالهما كره الأتراك، «قال لنا شيخ بشري ان هذه الرحلة لا تحلو من المخاطر بسبب الهريان

رحلة لاروك ص 35-35 voyage De Syne et Du Mont LIBAN, Jean De La Roque p 35-35

والتركمان لأن تحبيبهم في طريقنا هو شبه مستحيل، ثم أعطانا رسالة إلى شيخ بعلبك صديقه الحميم يمكن أن نستعملها كحوار صبر في حال النفي بالعرسان الذين يوالون هذا الشيخ ضد تسلط باشا دمشق والذي يستعد لإعلان عصيانه⁽¹⁾.

إن المبدأ الآخر الذي تلازم مع سياسة الشيعة العامة، وساهم في تحديد مسيرتها ووجهتها، كان الفروع إلى الاستقلال عن سلطة الوالي العثماني والامتناع عن دفع الضرائب له.

إن كل المحن والمآسي والخطوب التي عانى من وطأتها الشيعة في لبنان، منذ دخول العثمانيين والحروب التي حاصوها والتي كانت السمة البارزة ربما في تاريخ لبنان كله، هو انشأت على هذا المبدأ والإخلاص له وُلدي لحصه القنصل دو توليس (DE Taules Chevolier) في تقريره المرفوع إلى حكومته في باريس بتاريخ 18 حزيران 1772م، إن المتأولة لا يكسبون في ثورتهم سوى الاستقلال والامتناع عن دفع العائدات المتوجبة عليهم للسلطان⁽²⁾.

أما زميله هنصل فربما في طرابلس، فقد وصف حال الشيعة المتمردين هناك بأنهم قد حققوا الهدفين معاً وهما الاستقلال والامتناع عن دفع لعائدات السلطنة⁽³⁾.

(1) المصدر السابق ص 27

(2) D.D.C. T2 P253 Ils ne gagnent dans leur révolte que de l'indépendance et de ne point payer les revenus qu'ils doivent au grand Seigneur

(3) المصدر السابق ص 265 - 267 D.D.C. T3 P

الفصل الثالث

التكامل الشيعي

تركز الوجود الشيعي في لبنان طيلة الفترة العثمانية في ثلاث وحدات إدارية متميزة وهي:

أولاً - جبل لبنان الملحق بولاية طرابلس،

ثانياً - جبل عامل الملحق بولاية صيدا منذ عام 1660م

ثالثاً - بلاد بعلبك والدمع الملاحمة بإداراً بولاية دمشق

وبين المناطق الثلاث تكامل في المشاعر والتحريك والمصير وتعاطف أبنام المحر والكنيات

كان على بلاد الشيعة في الحبل والقاع أن تمتثل هجرة عاملية جماعية، شملت عائلات بأسرها من المشايخ والعامة ورجال الدين على اثر معركة يارون، فوجد العاملون من حرارة الإستقبال وحسن اللقاء ما لا يراولون يذكرونه حتى اليوم⁽¹⁾.

وعلى رأس هؤلاء المهاجرين كان الشيخ قنلان الحسن أهم شيوخ المتابعة، بعد مقتل ناصيف، وأكبرهم سناً وأكثرهم تقدراً، وهو صهر لحمايين فتم التدبير على اقتطاع جزء من إدارة بعلبك وقسم من ولاية طرابلس وصمم المنطقتين في مقاطعة واحدة تتألف من رأس بعلبك والقاع والهزمل وتولية الشيخ قنلان عليها طيلة فترة⁽²⁾ نزوحه التي امتدت إلى سنوات، صوباً لكرامته وحفظاً بقدره من أن يضطر إلى التفرول ضعفاً أو لاجئاً على أحد من الناس.

(1) جبل عامل السيف والقلم، حسين الامين ص 357

(2) حوث لبنان وسوريا، النفس يوفائيل كرمه ص 74 وهذه الأحداث مفصلة في فصل آخر

إن استقبال الأمير مصطفى الحرفوش للهاربين من بطش الجرار، كان على رأس الأسباب التي دفعت والي الشام محمد درويش باشا، بتحريض من الجرار، على مهاجمة بعلبك والعمالق، حكم الحرافشة عليها وإحلال متسلمين من أعوانه، أو من مماليك الجرار، مكانهم. (سنة 1784م) كما كان جبل عامل بدوره ملجأ أميناً للهاربين من شيعة الشمال، حتى من الأمراء ولشيوخ الحاكمين أنفسهم لجأ أمير بعلبك حيدر الحرفوش إلى جبل عامل في شهر ربيع الآخر سنة (1180هـ) فسكن في عيناتا قبل أن ينتقل إلى صور في عهد حاكمها عباس المحمد، ويعود بعدها أميراً على بعلبك كما لجأ الأمير محمد الحرفوش في آخر شعبان (1193هـ) إلى شحور.

إن ما يدل على حسن استقبال جبل عامل لهاربين واللاحثين إليه من شيعة الشمال، واشتراك جميع القرى والأهالي في تحمل أعباء هذا اللجوء ما أورده الركيصي عن روح أحد المشايخ الحماديين بعد البكة التي حث بالشيعة في شمالي لبنان وأدت إلى هجرة عامه كان بعضها من نصيب جبل عامل في هذه السنة (1194هـ 1779م)

نقل الشيخ أبو صليبة الحمادة إلى مدينة صور وسخروا له كل دواب القرايا والذي ما يرسل دابته بأحدوا منه كراها والتبدد التي ما ترسل دوابها بأحدوا من أهلها قرشين أو ثلاثة ويستكروا بهم على ناييهم لكي تحصل دمنهم،⁽¹⁾

إن اهتمام هذا المؤرخ الشعبي بأخبار الحرافشة والحماديين، يعكس بساطة اهتمام العامة من العاملين بأخبار إخوانهم في لنقا وجبل لبنان، في الوقت الذي نادراً ما يأتي هذا المؤرخ على أخبار سواه في خارج حدود جبله، إن فيما ذكره من أخبار الحرافشة، أو من تسجيل تواريخ وفاة عدد من المشايخ الحماديين دون غيرهم، بما هي للحوادث المهمة التي وقعت خارج المناطق الشيعية، والتي لم يتوقف عندها، فتحرى أخبارهم رغم بعد المسافة وصعوبة التوصل على مؤرخ يعتمد السماع والملاحظة مصدراً وحيداً لمعلوماته، مما يدل على تتبع عامي دائم للشؤون الشيعية في سائر المقاطعات

كما أن اشتراك جميع القرى في جبل عامل بالمساهمة في نقل واستقبال الشيخ أبو صليبة الهارب من الماسي التي تعرض لها شيعة في جبل لبنان، في هذا التاريخ، يدل على المشاعر العامة للعاملين وتعاطفهم مع بكة إخوانهم

(1) جبل عامل في قرن، حيدر الركيصي، حواشي 1194هـ من 93.

كانت العلاقات بين هذه العائلات الحاكمة في أيام السلم، كما في أثناء الحروب، تختلف جذرياً عما ساد العلاقات بين العائلات الأخرى في ذلك العصر، حتى ولو كان أحد الأطراف فيها من الشيعة

إن الصراع بين الوائليين والريادية على قرية البصة الحدودية، قاد إلى حروب دامية بينهما لم تنتهي إلا بعد الاتفاق على وضع مصير هذه القرية. بينما يرى، في الفترة نفسها تقريباً، إن الأمير الحرفوشي يتنازل عن سدة لعاقورة المهمة والتي كانت حتى ذلك التاريخ تنزع والي الشام وبالتالي تدخل في إقطاع إمارة بعسك تحب حكم الحراشنة محاملة للشيخ اسماعيل حمادة لقربها من المقاطعات الواقعة في حكمه وقد أعرب الحمادي عن إكباره وامتنانه لهذا لتصرفه للأمت من صديقه في أكثر من مناسبة⁽¹⁾

وكان هناك تقليد يؤكد أن العلاقة بين العائلتين تتجاوز الود في السلم، والتحالف في الحرب إلى ما يشبه نوعاً من الاتحاد في ممارسة السلطة فكان الحاكم الحمادي والحرفوشي يوقعان معاً على بعض التماس التي تدخل في اختصاص ومقاومة أحدهما دون الآخر تعبيراً عن مشاركتهما في تقرير أمور عامة باتحاد موقف موحد وتتميد إرادة واحد تجاه الموضوع نفسه⁽²⁾

وقد عبر أحد الرحالة الاحاب عن هذا النوع من الشراك الودي في الحكم، دون أن يلاحظه عندما اعتمد رساله توصيه من شبح بشرى حواد مرور في مناطق الحراشنة المنورة، والتكريم الرائد الذي كان عمال الحاكم الحرفوشي وأعوانه يبدونه عند اطلاعهم عليها⁽³⁾.

إن العلاقات الوثيقة بين المناطق الشيعية الثلاث أيام السهم أحدث طابعا أكثر برورا وأشد وصوحاً أيام الحروب، فكثيراً ما، حاص الشيعة ميادين القتال متحدين متحالفين، رغم أن دوافع هذه المعارك وأسبابها قد تكون أحياناً مقتصره على منطمة دون أخرى، وقد تكون أحياناً معركة مع عدو ما، هي سبب اشتعال معارك شيعية في غير مكان بوجه العدو نفسه. وكان ثمة تحالفاً غير معلن سدسه قناعة وحدانية فاعلة بأن الاستهداف يشملهم جميعاً

(1) الشدياق ج 1 ص 90

(2) تاريخ الكمور ابي صعب ص 83 أو وثيقه رفع لأموال لأمبرية عن آل لنداح موقعة من الأمير اسماعيل الحرفوش والشيخ اسماعيل حمادة

(3) م م de la Roque ص 27

بادراً ما أشار المؤرخون العامليون، رغم ما عرف عنهم من قدرة على التعمق في مجريات الأحداث التاريخية واستدراج مكوّناتها ودلائلها، إلى اشتراك مقاتلين شيعة من خارج جبل عامل، في معاركه التي لا شأن لها في السراعات المحلية، بل يغلب عليها الطابع العام، كونهما شئت بين العاملين وغيرهم دفاعاً عن الأرض والمصير.

هناك من الدلائل ما يثبت أن الحماديين وهو اسم يشمل شيعة جبل لبنان القديم عموماً، شاركوا في القتال مع العاملين في عدد من معاركهم التاريخية الكبيرة. وهذا ما يرجح اشتراكهم في غيرها، إلا أن الذين على ذلك، هو الذي عاب، كما غاب عن الكثير من وقائع تاريخ جبل عامل، في معركة أنصار الشهيرة عندما استنهض الوالي سعد الدين العظيم الأمير ملحم شهاب، فسرّ جيشه إلى قتالهم فاحتضمت عليهم كامل الأحزاب الشيعية، ولم يتحلف أحد، فحكمت جيوش المتأولة وبلغ عدد قتلاهم ألفاً وستماية قتيل منهم ثمانية من آل مسكر وسبعة من آل صعب وثلاثة عشر من الحمادية⁽¹⁾

إن سقوط عدد من القتلى الحماديين بفوقها سقط من العائلات التي قادت المقاومة هي وسط جبل عامل، يؤكد على وجود الحماديين بين المتحاربين، وعلى كثافة هذا الوجود، وما علقته حتى يقتل هذا العهد الكثير منهم، ولا يشير المؤرخون العامليون إلى اشتراك مقاتلين من خارج جبل عامل في هذه المعركة وعبرها إلا عرساً من خلال تعداد القتلى التي اسمرت عنها هذه المعركة.

في معركة البحرة، التي انهزم فيها عثمان باشا الوالي أمام العاملين، بعد أن حصر معظم جيشه، لم يسقط من المنتصرين غير قتيل واحد هو الشيخ حبر من الحمادية⁽²⁾. ولا بد هنا من التساؤل عما إذا كانت هناك معارك جرى حاصها العاملون ولم يحفظ التاريخ هوية قتلاهم فيها أو لم يهتم أحد بتحديد هذه الهوية.

إن بعد المسافة بين جبل عامل والإقليمين الشيعيين الآخرين، وقف حائلاً مهماً دون التعاون العسكري الدائم والفعال هي ما بينهم، فقد كان لعامل الوقت ولشقة الطريق هي ذلك الرمان، الحساب الأول في وصول النجدة عند حاجتها، وإمكانية احتياز مناطق حاصصة للسلطة، التي تكون هي معظم الأحياء هي العدو المعبر والمهاجم، فضلاً

(1) جبل عامل في لتاريخ، محمد القمي ص 176 ورد أنها وقعت سنة 1659 م

(2) تاريخ الأرمية الدويهي، ص 550 - 551 تعاقب هذه الحركة الهامة في تاريخ لبنان موضوع فصل خاص.

عن تعسر الإمكانات اللارمة لنقل المحاربين وتمويلهم وتجهيزاتهم مسافات طويلة. فالحرب عند المقاتلين الشيعة على احتلاب ديارهم، هي غارة مباغتة يعقبها انسحاب سريع، بانتظار فرصة أخرى لهجوم آخر. فهم يكن عندهم في أي وقت قوات محترفة ومجندة ومهيأة بانتظار الحاجة لها إنما هي دعوة للقتال يجمع على صوته كل من يرغب من المتطوعين، ثم يمود كل مقاتل من حيث أسي بانتظار بفير آخر يدعوهم إلى القتال من جديد. لذلك كان التحالف العسكري بين الإقليمين المتجاورين بطلبك وجبل لبنان ممكناً وفعالاً، بسبب تداخلهما الحمر في والبشري، حتى أصبح سياسة ثابتة ودائمة ومعادلة معتمدة عند الجميع من أعداء وأصدقاء.

إن حصر الشواهد والأمثلة التاريخية على هذا التكامل العسكري، هو جهد عيبي، نظراً لكثرتها وتنوعها ودوامها لقرون عديدة، وقد يكون من المصيد الإشارة إلى بعض المحطات المتناثرة التي يبدو فيها هذا الواقع المرص واصحاً وحلياً⁽¹⁾

كان من عادة كل من الحراشنة والحماديين، قبل مباشرة القتال أن يرسلوا نساءهم إلى المنظمة الأعد عن مبادئ القتال، من المنظمات، حماية لهم من السبي على يد العثمانيين.

وكثيراً ما سبب هذه الحماية معارك، استمات فيها المدافعون عن أعراض حلفائهم وحربهم، وليس أهمها سقوط الشح عند سلام الإبن الأكر للشبح اسماعيل، فقتلوا على حسر إفقاً وهو يقاتل دفاعاً عن نساء الحراشنة اللاعنات إلى حماه، في الوقت الذي كان رجالهم يقاتلون دفاعاً عن ديارهم في بطلبك.

ومسرى في المصول القادمة أن مبداء معارك الشيعة الكبيرة كان يتسع ليشمل كامل المناطق الشيعية الثلاث وأن الثورة التي تبدأ في أية منطقة منها لا بد وأن يشارك الجميع في ديولها الأمنية والعسكرية.

(1) ثاني تفاصيل هذه المعارك في مصول أخرى



مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی

الفصل الرابع

الشيعة وجبل الدروز

«خرج العسكر العثماني من الشام قاصدين مصر فقالوا للعزالي من يحفظ الشام؟ فقال الأمير ناصر الدين بن الحش فأرسل خلمه وخلع عليه، فإنه كان من شيوخ العربان بتلك الديار»⁽¹⁾ انطلق العسكر المنتصر إلى مصر، وترك الشام بين يدي ابن الحش حاكم البقاع وسيد، وبيروت، التي كانت معاملته واحدة يدخل هي عملها جبل الدروز الواقع بين المدينتين، حيث كان لايزال بعض الشيعة يشكلون قسماً من سكانه، ويتنازع فيه النعود عدد من العائلات التي حملت اسم الأمير⁽²⁾ كالسوحين والمعيين والأرسلانيين ول علم الدين وغيرهم

عاد جان بردي العزالي من مصر والياً على دمشق، وحاملاً سيف الدولة الجديدة الذي قطع به رأس ابن الحش، وأرسله إلى سظمبول، قبل أن تلقى هو المصير نفسه بعد فترة قصيرة إثر انهزامه في العابور بعد أن أعلن نفسه سلطاناً باسم الملك الأشرف في 27 كانون الثاني 1521م.

استقرت ولاية سنجق بيروت وصيدا وبو حبهما على محمد بك قرهقمار أوغلو، التابع لوالي دمشق وتعدد الطامعون في حكم جبل الدروز حيث تسبق كل أسرة بمقاطعة صغيرة منه قد لا تشكل أكثر من بضع قرى برز في مقدمتها قرهقمار المعني إلى جانب أقاربه من أمراء العرب، محمد بن جمال الدين من عرمون وابن عمه مندر من عبيه، الذين كانوا هدفاً لحملة إبراهيم باشا ولي مصر، التي قادها إلى لبنان لتأديب المتهمين بالنسطة على مال السلطان، كما يرى بعضهم دون إثبات⁽³⁾، بينما يعتقد آخرون

(1) آخرة لمالينك ابن ربيع الزمال ص 115

(2) حول لقب «الأمير» راجع ما ورد في فصل آخر

(3) الأمير فخر الدين عيسى أمبندر العلوف ص 46

جبل الدروز



أنها أستهذفت المواليين للدولة القديعة المهرمة، لتمسحين بالبنادق المتطورة التي سلحتهم بها جمهورية البندقية النحارية لطموحة، التي تصررت من التطورات الجديدة، وحاولت أن تخلق المتاعب للدولة لعثمانية الفتية من جريرة قبرص، التي كانت تحت سيطرتها، كما يمكن الاستنتاج، المتحفظ من الأوامر السلطانية المتعلقة بهذا الحدث⁽¹⁾.

قام ابراهيم باشا، كعادة الباشوات العثمانيين، في مثل هذه الظروف، بمجررة عامة راح صحتها المئات من عقال لدروز ووحشائهم، وجمع منهم اسوأ وأسرى بعض أمرائهم، وحمل الجميع معه إلى دار المسطنة ليدخلها في أنفة المنتصر، ويعود الأسرى فيما بعد إلى بلادهم متمسحين بعمو السطان ورصام. وقبل أن يعود إلى بلاده عين ابراهيم باشا ابن الحرهوش قائداً أعلى للدروز ومنعه لقب باشا، فكان أول حاكم على جبل الدروز، ولم يكن هذا المنصب موجوداً قبل ذلك، إذ لا نعرف أحداً حمل هذا اللقب في تاريخ سابق.

ويبدو أن هذا التعيين قد استحدث منصباً إدارياً لأول مرة في سحقية بيروت صيدا، الملحقة بولاية دمشق، مما سيكون له الأثر البالغ في تاريخ لبنان المعمل

لم يستمر ابن الحرهوش طويلاً في منصبه، ربما لأن قوة عصيته لم تكن كافية لتأمين ذلك، رغم أنه استعان بمحاربين من الشوف وكسروان لاستعادة بعلبك من ابن الأقرع سنة (944 هـ - 1535 م)⁽²⁾.

في بداية القرن السابع عشر، كانت كل البلاد الواقعة بين الدائرة التي رسمها المتأولة والبحر، تقسم إلى قسمين أولهما المعروفة بجبل الدروز أو جبل الشوف، والأخرى المأهولة بأكثرية مسيحية والتابعة للأولى باسم كسروان⁽³⁾.

يقع جبل الدروز في وسط مناطق الشيعة المحيطة به من جهاته الثلاث من الشمال والجنوب والشرق. بينما يمتد من ناحية الغرب إلى ساحل البحر بين مدينتي بيروت وصيدا

لم تستكمل معالم جبل الدروز السياسية ويتوسع كيانه كمملكة موحدة، يقوم على

(1) بيت بمنارل كثيرة كمال الصليبي ص 164

(2) خطط الشام، محمد قرق علي ص 230 الجزء الثاني

(3) D. D. C. T 9 - P196

هرم، بقيادة هيها حاكم واحد، إلا وأحر قرن السادس عشر مع فجر الدين المعني، الذي قبل أن يتمكن من صم قسم من كسروان إلى حكمه، بدأ محاولاته بالضغط على سكانه الشيعة ساعياً إلى إحصاءهم أو تهجيرهم، وهكذا بدأت العلاقات بينهما تصطبغ وتتجه إلى مريد من العداة حتى مجيء حبيتيه قرقمار وأحمد فيدهع الأول حياته والثاني منصبه، بتهمة مساندة لقرلش في عصبانهم الدائم على ولاية السلطان.

تركزت سياسة فجر الدين العاملية مرة وتدهراً خصوصاً وأن الحاكم الشهابي على جبل الدور تحول فيما بعد إلى أداة طيعه يستعملها الوالي العثماني كلما أراد الإنتقام من الشيعة العامليين وتآديبتهم وعادتهم إلى الخسوع والطاعة⁽¹⁾.

يختلف الحاكم في مناطق الشيعة عنه في جبل الدور، يصل الأول إلى منصبه ببيعة أوصاف طائفية واجتماعية وعشائرية، يحمله إلى مركز القيادة إرادة جماعية لجماعته من محكوميه وسائر الناس دون كسر اعتبار لإرادة السلطات ورغبتهم بينما يبدو الأمر على خلاف ذلك في جبل الدور، حيث الحاكم لابد أن يجد نفسه أسير عريتين يتحكمان في منصبه، ويحددان له خطواته ومطامحه وسياساته أولهما عربة الطائفة إذ أنه ينتمي إلى صائمه تعتمد عن طائفة محكوميه وثانيهما، وعربة لعصبة لأن عائلات درزية عديدة استاثرت بالعصبات القوية وحجرت لنفسها مكاناً دائماً في سلم القيادة في حير جعراحي محدد، وضعها في مكان الوسيط والحاحر بين الحاكم ومحكوميه يتعذر لاتصال بينهما مباشرة فلا يمكنه حرص سياسته أو صرائبه أو الدعوة إلى لقمان، إلا بواسطة هذه العائلات القوية التي هي وحدها تملك، في الواقع سلطة بقرار في الأمور الأساسية والهامية

هي ظل هذا الواقع، كان حاكم جبل -رور، يستمد كامل قوته وشرعيته وأهليته كحاكم من فرمان الوالي العثماني الذي وحده يمنحه من السلطة ما يشاء ويحرمه منها حين يريد، دون أن يأبه لإرادته وبرغبته فكان الحاكم يضطر في ظل هذه الظروف إلى الاعتماد التام على رعية الوالي، وحرصه على استمرار رضاه وتلبية جميع أوامره، دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى، لأنه يكفي فرمان آخر ليحرمه من كل شيء.

(1) كان الأمير بشير (الأول) الأداة الطبيعية في يد الباشا العثماني لتتبعص من متاوله، ويعمل باريبي ص 62 أن ملحم أقمي ثار والده حيدر فجع نفسه بحربه السياسية لتركية ضد جيرانه الدولة

سكان جبل الدور في القرن العثماني الأول

درور	سنة	نصارى	شعبة	المجموع
31764	5508	12	606	37890 ⁽¹⁾

أمام حشع لوالي العثماني، كان الحاكم في جبل الدور، مضطراً إلى تلبية مطالبه بالأموال المحصلة من دافعي الضرائب، لأن سيف التهديد بمن يدفع أكثر، هو حارس دائم يقصر مصاحبه ويدفعه إلى الإحتفاظ بالرضا السامي بأي ثمن كان وقد عرف الولاة كيف يستفيدون من هذا الوضع الدقيق، هممدوا إلى تغيير الحكام استعاء الحصول على أكبر مفعة مادية ممكنة لذلك رأينا تبدل الحكام الدائم في جبل الدور وتسرب عائلات عديدة أخرى غير المعيين والشهابيين، إلى منصب الحاكم، كما رأينا تغيير الحاكم وعودته مرات عديدة بلغت على الأقل خمس مرات مع بشير الثاني أقوى الأمراء وأطولهم عهداً.

إن فقدان عصبة سيد امير جبل الدور وسعته وتحفظ له موقفاً في منطقة حكمه، جعلت الولاة الأتراك لا يحسنون له حساباً وهذه كانت من الأسباب المهمة التي جعلتهم يهاجمون بلاد الشيعة عند نقل إشاره من والي صيدا، وأوحدت بين الشيعة وحكام جبل الدور عداوة عميقة أوقعت صحنياً وأسالت دماء في مناسبات كثيرة وجعلت منهم سيف الفمة العثمانية صد حير بهم المتأولة

هي الوقت الذي كان حكام جبل الدور يتسابقون لاكتساب ود الوالي العثماني بأدائهم ما يطلب من أموال، ويسمك ما شاء من دماء الشيعة، وتدمير قراهم وبيوتهم، كان الحكام من الشيعة في حالة عداة دائم مع لوالي بسسه، وتوتر قد ينمحر في أي لحظة، حتى الضرائب المروضة على مناطقهم رغم محدوديتها، قلما دفعوها إلا مرعمين، وحاولوا دائماً حرمان حرية الباشا منها، فسحبوا أحياناً وعجزوا أحياناً أخرى

كان الحاكم الشوهي محيراً على التشبث بمرسوم لوالي ورضاه، فهو سني يحكم منطقة معظم أهلها من الدور المعفيين عن تراثهم العشائري والمتمسكين بتقاليده

(1) يشمل هذا الإحصاء سكان الشوهي وبقية الحروب ومنتى ونجره والعرب وجبل الدور وكاتب كسروان حينها خارج نطاقه

وحربياته الموروثة، وليس في لحوار القريب من أهل السنة وفرة كاهية لتغيير المعادلات، فلم يعد هناك من محزون بشري هائل عبر النصاري المتعطشين إلى التمدد نحو مجالات عمل زراعي وحرقي خارج مناطق المتواحددين هبها، فيسر لهم الحاكم المعني ثم الشهابي ذلك، وشجعهم عليه وسأدته رعيته الدرر به في سياسته لحاجتهم إلى الأيدي العاملة الماهرة والمستوردة لينسى لهم الإهتمام المتردد بما تعودوا عليه من أمور السياسة والحرب. فكانت المسيحيون مع الزمن، وتغيرت ديموغرافية الجبل بصورة حدريه، وهذا ما أشعل منافسات وصدامات وقلاقل كانت وراء زوال الإمارة بهائياً في أواسط القرن التاسع عشر.

الشيعة والإمارة اللبنانية

إن الدين بعدوا تشويه تاريخ لبنان، ونسبوا مصداقيته وجديته، وسكبوه في القالب الذي يرعون ونتمون ويفترضون، دون التفيد بالاصول التدينية للبحث الموضوعي والتجرد العلمي، استنبطوا نظريات مزاجية، وحاولوا إصغاء طابع الواقعية عليها، وذلك عن طريق الإستعانة بنصوص، ووقائع ثانوية ومحددة، ثم حولوها وسكبها بطريقة مصطنعة تصب في تفريب المكر المقصودة التي يروجون لها في الأذهان وتسهيل امكانية الاختناق بها

إن على رأس هذه التخيلات، التي أنست بدون نجاح كبير، ثوب الحقيقة تتمثل هي تنصيب أمير مفترض على رأس إمارة وهمية، لم توجد يوماً، وتسميته بأمير لبنان بسمي إلى سلالة حاكمة تورثه بحكم وسلطة، وتدين له سائر المقاطعات اللبنانية بالانحسار والطاعة فيسمى على رأسها، عائلات أو أفراداً معينين يرجعون له في كل الأمور، ويستمدون منه الصفة والشرعية، ويعملون جميعاً بتوجيهاته، وتحت مراقبته لتدعيم مركزية السلطة وإيجاد رصية تاريخية لأفكار سياسية معاصرة.

إنها صورة وهمية لإمارة لم يعرفها لبنان في تاريخه أبداً، فلم يسبق أن قام فيه في مختلف العصور، ومنذ المتع العثماني وقبله بعده، حاكم أو شخص أو قائد يمكن أن يسمى نفسه أو يسميه غيره أمير لبنان أو وحدث إمارة يمكن أن تحتل مثل هذا التعبير.

إن الذي عرفه لبنان في مختلف الحقب، وخصوصاً منذ القرن الخامس عشر،

وحتى إلغاء النظام الاقطاعي، وإنشاء نظم لقائمفمينين ثم المتصرفية، عدة أمراء وحكاماً ومشايخ يتمتعون إلى طوائف محتلفة ويحكمون في وقت واحد، كل منهم في مقاطعته، باستقلال تام ومساواة كاملة لا يجمعهم إلا الارتباط أحياناً، بمركز ولاية واحدة، سواء في دمشق أو طرابلس أو صيدا حيث تمرى عليهم جميعاً نفس الأساليب الإدارية، في الترام مقاطعاتهم سنوياً بدون تمييز جوهري إلا في بعض المراسم الشكلية والتفصيلية حسب قوة الحاكم وعصبية ودرجة اعتماده الطاعة أو العصيان أمام الوالي العثماني ويسير كل منهم في إدارة مقاطعته، بحسب احتياجه والظروف التاريخية والاجتماعية والطائفية التي تتحكم بها، وتحدد له هامش التحرك والحرية.

إن الدين وصعوا الأسس الأولى لهذه الطريقة، هم الذين سهلت لهم ظروف معينة احتكار المصادر التاريخية المحتملة بسبب أوصاعهم الرهبانية أو الاكاديمية التي هيأت لهم سبل الوصول قبل غيرهم إلى المصادر الأم، والوثائق المتوفرة، فاستباحوها تعديلاً وتنكلاً، لتلائم مع آمانياتهم التاريخية وكان لربادتهم في هذا المجال، ولأسمائهم الكبيرة المعروفة ومؤلفاتهم المتعددة التي تؤكد على نص الموضوع، كما كان للتكرار المتواصل تأثير لا يمكن التمليل من شأنه في تحويل هذا انوهم إلى ما يشبه الحقيقة هي آلهان من لم يتمموا فيها، فتبناها الكثيرون من المقلدين الذين أتوا بعدهم، ومن حسنئ نية ومدعي المعرفة، حتى أصبحت حقيقة مسلماً بها، نادراً ما تعرضت للتحليل والمناقشة.

أختار هؤلاء الرواد الأسرة المعنية، من بين العديد من الأسر اللبنانية الأخرى التي تماثلها أو تتصوق عليها، إن كان في مجال سلطة والصدور أو العصبية، والعشائرية، أم في المدى الجغرافي الذي تفاعل معها، واستجوبها أسرة أميرية مميزة، وحتى وحيدة. واصطبروا من أجل دفاع أنفسهم، واقناع غيرهم، إلى توهير كل مستلزمات هذا التنصيب الأميري ومتطلباته دون الإلتفات كثيراً إلى الأمانة التاريخية الواحدة، وعدم البلاعب استعمد في أولويات الأحداث والتطورات، وهكذا اعتلت الأسرة المعنية كرسي الإمارة اللبنانية، ثم أورثتها للأسرة الشهابية، بفعل مؤرخين تمنوا ذلك، وأتوا متأخرين بصعة قرون عن أوانه، فعمموها وبشروها حتى أصبح المؤرخ المعاصر أسيرها، يلتزم بحكم ما هو متداول ومتمسك بين يديه، إلا إذا بدل جهوداً عسيرة للتوقف عندها وإحصاعها لتحليل والبحث والمنطق، ليتبين مدى تأرجعها بين الواقع والخيال.

تاريخ لبنان وتاريخ الشوف

هناك فرق شاسع بين كتابة تاريخ شوف أو الأشواف أو أشواف صيدا أو جبل الدروز، وتاريخ كامل المناطق، التي بشكل ليوم الجمهورية اللبنانية هاشوف، لم يكن يوماً إلا جزءاً معدداً من لبنان بعدد لجغرافي وتطوراته التاريخية وكيانه الإداري والسياسي، فلا يمكن إطلاق اسم الجزء على الكل، فتاريخ الشوف هو تاريخ المنطقة التي حملت هذا الاسم على مر العصور وتاريخ لبنان هو تاريخ المناطق التي يتألف منها اليوم، بما فيها جبل عامل والبقع وجبل لبنان وجبل الدروز. هم يكن سكان الشوف، في أي وقت، هم سكان كل لبنان، من بعضهم وكذلك أمراؤه وعائلاته وأحداثه. كيف يمكن تجاهل تاريخ القسم الأعظم من لبنان، واستبداله بتاريخ إحدى مناطقه؟ فهل يمكن اعتبار تاريخ جبل حوران هو تاريخ سوريا أو تاريخ اللجون هو تاريخ فلسطين أو تاريخ البوزماندي هو تاريخ فرنسا بأسره؟ علماً أن هذه المنطقة سواحيلها لتاريخية الخمس «الشوف، اقليم الحروب، المتى والجرد والمرب» لم تكن تشكل هي القرن السادس عشر أكثر من 15% من مساحة لبنان لحالي ولم يتعدى سكانه بطوائفهم المحتملة⁽¹⁾ أكثر من 9% من عدد سكانه الإجمالي.

صده في الماضي أن كل المؤرخون الأوتزل يسمون إلى إحدى مقاطعات جبل الدروز، كالشدناق والأمير حيدر وابن سباط والميز وعصرهم فكان من الطبيعي أن متأثر منطقتهم المحدودة، بالقسم الأكبر من هجماتاتهم، لم يكن لبنان محدوده الحالية، قد وجد بعد فلم يلتصق إلى ما حدث في المناطق الأخرى والمحاورة إلا شكل عرصي، وعلى قدر ما تتأثر أو تؤثر بالأحداث التي يؤرخون لها هم معيرون أساساً بتاريخ منطقة محدودة من لبنان لا يجاورون نطاقها إلا نادراً، ودا فعلوا فيكون ذلك بإيجار شديد وسطحية واصعة وهي معظم الأحيان بدائية سادحة، لأن علاقات جبل الدروز بحيرته في الجنوب و لشمال واشرق لم تكن دائماً علاقات ود وسلام وتناصر، وهذا ما فعله مؤرخو جبل عامل أيضاً، على قلتهم، هم يذكروا الشوف وباقي المناطق اللبنانية، إلا بما له علاقة مباشرة بالحير الحمري الذي ينتمون إليه، جاهدين كرملائهم في الشوف إلى إبرر مفاخر ومآثر قومهم غير ملتفتين إلى ما يحدث خارج حبلهم، مهما بلغت أهميته، إلا بقدر تأثيره على ما يحدث عندهم وعلاقته بالتطورات المحلية أو مقارنته بها.

(1) راجع الجدول العام

حكام الدروز والشبيعة



جاء المحدثون واكتفوا غالب لأحيان بالوصول إلى هذه المراجع اليسيرة المثال، وكانت قد طبعت وحققت ونشرت، وانتشرت وأصبحت بمتناول كل يد، فوقعوا في الخطأ الكبير الذي لا بد من جهود معقدة لإصلاح ما أمكن منه، هتلاشي تاريخ لبنان وصاع في طيات تاريخ الشوف وعمموا هذا على داك، فأصبح تاريخ لبنان هو تاريخ الشوف، واستبدلت أسماء بأخرى، فصار أمير الشوف وأعيانه ومشايخه وحروبه وأحداثه وفتنه وسكانه تطلق على كامل تراب لبنان، فحتفى التاريخ الحقيقي لباقى المناطق والمدن، مما سمح لكل صاحب مصلحة باحتراؤ هذا المرغ الواسع والخطير واصطناع ما يشاء من التحيلات والأوهام وإدخالها في صلب لتاريخ بعد أن حجت الحقيقة إلا عن الأعيان النصيرة والتمادة.

عندما اكتسحت الجيوش العثمانية المنتصرة هلول المماليك المنهزمين هي مرج دابق، وتابعت رحمها بحود دمشق والقاهرة، كان يحكم لبنان أربعة أمراء كبار، يتولى كل منهم إحدى معاطفه المعنة التي تتسع أو تضيق طبقاً لعموده الشخصى وعناصر قوته وعلاقته مع السلطة الحاكمة هي مراكز لبيات، إلى جانب عدد من العائلات توفرت فيها مميزات معينة وساعدتها ظروف تاريخية واجتماعية وقبيلية محددة أهلتها لممارسة خبر محرك من السلطة إلى جانبهم وفي ظلهم. مما نسي أحياناً إلى قيام ذراعات وتنافس وصلت إلى صدامات دامية فيما بينهما أو فرصت المصالح المشتركة والعصبيات المتقاربة، قيام تحاللات أنية، سرعان ما تنهاوى هي أول مناسبة والحكام اللبنانيون الأربعة هم

1- بنو الحنش وأهمهم عند المنح لثماني هو ناصر الدين بن الحنش. بدأ إسم هذه الأسرة يبرز في لبنان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وكانت علاقات أمرائها مع المماليك لا تستقر على حال، وقد تولوا مراراً حكم النطاق وبيابة بيروت وصيدا. وفي مستهل القرن السادس عشر، كان ناصر الدين بن الحنش أهم وأقوى الحكام في لبنان قابل السلطان قانصوه الغوري عند مروره بدمشق في طريقه إلى مرج دابق، وحصل منه على تقديرات كثيرة وهي العهد العثماني أضاف إلى ولايته بيابة حمص، وأعطى الأمرية الكبرى بالشام ولقباً أخرى لم يحصل عليها غيره⁽¹⁾.

(1) السلوك المثيري ج3 ص 456.

2- بنو بشارة وأميرهم عبد الساتر بن بشارة برزت هذه الأسرة في تاريخ لبنان في القرن الرابع عشر، ولعبت دوراً سياسياً مهماً بين الأمراء المماليك في نيابة دمشق، ونيابة صفد، وحاز بعض أفرادها على مناصب رفيعة في الجيش والإدارة والحكم، وكانوا يتولون غالباً جبل عامل ووادي السيم وعمو، دوراً عسكرياً في اندفاع عن السواحل اللبنانية بوجه غارات الأتراك والصليبيين

3- الحرافشة: من الثابت أن أميراً حرفوشياً كان يحكم بعلبك وبلادها، وبلاد حمص المجاورة قبل نهاية العهد المملوكي ورغم أن الحرافشة كانوا من بين القوى القليلة التي حابته العثمانيين عند دخولهم بلاد الشام، إلا أن هذه العائلة استمرت في حكم إمارة بعلبك وقسم من المقاع حتى لصر التاسع عشر وكانت مناطق حكمها تشمل أحياءاً حمص وتدمر وحماة ووادي التيم وصمد وبانياس وعجلون والزبداني وهناك ما يرجح أن أول حاكم على جبل الدرور كان من أساء هذه العائلة⁽¹⁾

4- الحماديون بنو عساف عائلة تركمانية عهد إليها المماليك بمهام عسكرية وسطوية في شمال لبنان وربما ساعدتهم أصولهم العرفية، كالسيما على الاحتفاظ بمناصب إدارية مهمة في مستهل العهد العثماني، فكان من الأسرتين أول حكام على باشوية طرابلس في القرن الأول من الوجود العثماني ثم انصرف الحماديون بعد انقراض العائلتين في حكم شمال لبنان -جبل لبنان-، حتى منتصف القرن الثامن عشر وكان يدخل في حكمهم أحياناً معظم مناطق الساحل الشمالي التابع لولاية طرابلس، والمناطق الداخلية كصاهيتا وجبل الكلبين ووادي النصاري حتى حلب⁽²⁾

ليس هناك دليل يركز إليه، على أن جبل الدرور شكل وحدة إدارية ما أو إمارة سياسية محددة، قبل التمرد الذي قمعه القائد العثماني إبراهيم باشا سنة 1585 م، وعين الأمير علي الحرفوش حاكماً على المناطق المتمردة، التي عرخت بحبل الدرور، وحكمها فيما بعد ابن أحد قادة التمرد حمر الدين بن قرقمار المعني وأصبح منذ ذلك الوقت مقاطعة تابعة لوالي دمشق، ثم لوالي صيدا فيما بعد 1660م.

(1) راجع أخبار الحرافشة، في فصل حمص

(2) راجع تفاصيل ذلك في فصل حمص

إن المؤرخين الثلاثة الذين شكلوا ولا يزالون المثل الأساسي والأولي لكل من جاء بعدهم واعتبروا المصدر الرئيسي لتاريخ لحفظة العثمانية اللبنانية، ولا سيما في أولى مراحلها، تجاوزوا الأمراء الثلاثة على حضورتهم واهميتهم، كما تجاوزوا جميع القوى الحاكمة الأخرى وانحدروا باكتشاف أمير معني قدموه على غيره ورأسوه وهذا من حكام لبنان وأعيانه، وأنقوا على لسانه بين يدي السلطان سليم خطاباً بليغاً لا يمت أسلوباً ومصموباً إلى العصر الذي ألقى فيه بصله مما أثار إعجاب السلطان ودفعه إلى تكريس الأمير المعني أميراً على الشوف، وإسباغ الأنعام والألقاب الصالحة عليه، بما لا يتناسب مع صفة الأمير وامكانته على أحسن الافتراضات

إن النتائج التي حققتها البعثة اللبنانية، التي قادت السلطان، على رأي الدويهي، هي: تولية الأمير قرقمار ابن يوسف ابن معني بلاد الشوف، والأمير جمال الدين اليمني بلاد العرب، والأمير عساف كسروا وبلاد جبيل، أما أمراء الغرب، المتنوخيون، فلم يتحاسروا على مواجهه السلطان لأنهم من الحرب المقاتل، وقد جهد الدويهي لتقديم آل معني كحكام فرعيين على الشوف منذ وصول العثمانيين، فقد رسم لهم السلطان مناصيرهم وقدمهم على عمرهم وأصمى عليهم المراسم والألقاب التي تميزهم عن الآخرين⁽¹⁾.

إن معاصره الدويهي للمعنيين وعلاقته بالشخصية بالأمير أحمد، بصفي على معلوماته أهمية وثقة أكثر مما نورد حيدر الشهابي وطنبوس الشدياق، في تواريخهما لتعددهما الرمني عن تاريخ الحدث، وعلاقتهما الخاصة بالأسرة الشهابية التي كانت تتولى مقاطعات جبل ندور في زمانهما واعندرها وريثة المعنيين وشرعيتهم في وجه أعدائهم من الأسر الأخرى فقد كررا ما قاله الدويهي عن مثول الأمير المعني وحطته السحرية أمام السلطان، إلا أنهما جعلتا سمه فجر لدين بن عثمان الذي نال الأنعام السلطانية هولاة على الشوف ومنحه لقب سلطان البر، حتى ورث الشهابيون الحكم عن أحماده.

إن هذه الرواية التي ادخلها المؤرخون الثلاثة في تاريخ لبنان، ومثلها وبنى عليها أكثر المؤرخين المتقدمين، حتى اعتمدت في لتاريخ اللبناني الرسمي، وصارت منطلقاً وأساساً للتاريخ المدرسي والأكاديمي اللبناني، هي رواية موصوعة بمحملها وخرافة تاريخية لا تصمد أمام أي بحث حاد ودلت للأسباب التالية

أولاً، إن هذه الرواية لم تورد في أي مصدر آخر معاصر أو لاحق لتاريخها غير عند

(1) الدويهي ص 394، في تعبير لاماره اللبنانية لم يستعمله أي من الأمراء المعنيين أو الشهابيين باستثناء أحرهم بيت بعلبل كثيرة نصليبي ص 167

النطيريك الدويهي (متوفي 1704م) وهو معروف بتحرره للمعنيين، وإيثاره لهم وصلاته بأمرهم، ومحاولته دائماً برزهم كحكام وحيدين وشرعيين على جبل الدرور. بينما لا يذكر ابن سباط الدرري، أي شيء، عن هذه المقابلة المزعومة، وهو المعاصر لها والشاهد الحي على زمانها، وانتماءه الحرفي والسياسي والطائفي يحتم عليه أن يكون أكثر الناس إطلاعاً على تفاصيلها وشدهم دافعاً لإيرادها والتعليق عليها، وهو يذكر أن الأمر اللبناني الوحيد الذي قابل السلطان سليم، وقبل يده بعد عودته من مصر إلى دمشق، هو الأمير شرف الدين يحيى التوحي و كل ما حصل عليه من أنعام لا يتعدى «العلامة على ماشيره»⁽¹⁾

ثانياً إن المكانة والسلطة والألقاب التي اجمعت المصادر الموثوقة، على أن ناصر الدين بن الحش ومصور العسافي وابن شرف قد حصلوا عليها من الدولتين المملوكية والعثمانية وتعدد الولايات التي دحت في حكمهم، ومنها حل الدرور الناع لصيدا، بيروت، وهي نفس التاريخ الذي كان فيه السلطان سليم لا يزال في دمشق، تحمل من المستهجن تجاهل الدويهي أو غيره من المؤرخين لهم، في الوقت الذي يصمون على المعني كل هذه الأهمية، ويستمعون السلطان له كل هذه النعم متجاوزاً بذلك حتى ناصر الدين أمر الشام ومقدم العشر وحاكم النعاع وخمس وصمد وصيدا وبيروت

إن لقب سلطان البر الذي ادعى الدويهي، بن السلطان قد منحه للأمير المعني، هو من ألقاب السلاطين العثمانيين نفسه فلا يمكن أن يشاركه فيه أحد، لا سيما إذا كان من درجة المعني وأهميته ومكانته، ولم يعرف أن أحد ما قد حصل على هذا اللقب في الحقيقة العثمانية،⁽²⁾ مما يفيد أن الألقاب الأخرى كأمر عرستان، هي من وضع محيلة المتحمسين لسيرته، كذلك فإن الشخصيات والمواضع المركزية في التاريخ اللبناني، كما هي متحيلة ومروية تقليدياً «بقول أبو حسن» هي دراسة لمجموعة من الوثائق العثمانية، إما أن ترد بشكل مختلف في الوثائق التي نحن بصدددها، أو أن تكون غالبية كلياً من محتوياتها والشخصية البارزة المتمثلة في الأمير فخر الدين المعني (ت 1635م) تشكل خير مثال على ذلك، فهذا الرجل يظهر عموماً للمعد والصغار في التواريخ اللبنانية التقليدية، وفي كتب التاريخ المدرسي، باعتباره الأمير اللبناني البطل والوطني، الذي منحه العثمانيون لقب «سلطان البر» كتقدير لموقعه المتقدم، هذا، بينما يظهر فخر الدين

(1) التوحيون حرة عن صدق لاجبار، ابن سباط ص 213.

(2) حتى الأمير فخر الدين بن قرقمار لا تفيد الوثائق العثمانية به حصل على لقب يتجاوز أمير لواء صمد وهو لقب يطلق على كل من يلزم لواء كقدمر وخمس ووادي النجم لبنان والإمارة الدررية أبو حسين ص

ذاته في وثائق المهمة، كحاكم مقاطعة سورية كائب علاقته بالعثمانيين لا تختلف عن علاقة الكثيرين من معاصريه، بحسبها وسوئها، وهو لم يمتح أبداً رتبة عثمانية أرفع من رتبة «أمير لواء» (Sancakbeyi) على صيدا - بيروت وصمد.

ثالثاً: في الوقت الذي حرت فيه هذه المصيبة المزعومة، كان الشوف يحتار مرحلة من الموضى امتد فيها النزاع على السلطة بين أسر ثلاث متفعدة، على الأقل وهي المعنية والتوخية والارسلانية وغيرها، ولم تكن أقصى مطامع كل منها، تتجاوز الحصول على بعض النمود هي عدة قرى، دون أن تكون لولاية والحكم من اهتماماتها المباشرة بعد⁽¹⁾ فكيف يحصل هذا المعنى العامص على كل هذا التكريم والاهتمام، ويكرس أميراً وحيداً على جبل الدرور، ولم يكن هذا المنصب قد عرف بعد، ثم يصبح في عصور لاحقة أميراً على كل لبنان.

رابعاً إن أسلوب الخطبة نفسه، يؤكد أنها تنتمي شكلاً ومضموناً إلى عصر لاحق وهي تحوي على تناقضات تاريخية هاصحة واصطلاحات لم تكن معروفة في زمانها، بل دخلت إلى عالم الخطابات السياسي في وقت لاحق⁽²⁾.

خامساً إن الأمير فخر الدين بن عثمان المعني، الذي يمول الشهابي، إن السلطان أنعم عليه بحكم الشوف، ولقبه بسلطان البر، بعد لحظة الشهرة والذي هو أشهر الأمراء المعنيين، وبه عابت شمس الإمارة التوخية وأشرقت شمس الإمارة المعنية بعد أن أعجب السلطان بمصاحبه وفوص اليه كل أمور الشام، كان عندما احتاج السلطان سليم سوريا هي عداد الأموات منذ سنوات عدة كما يؤكد معاصره ابن سباط بقوله «إن فخر الدين عثمان بن معن أمير الاشواف من أعمال صيدا قد توفي ربيع الآخر عام 912 هـ الموافق 1506م⁽³⁾ بينما يسميه الدويهي قرقرمار ابن بونس ابن معن ولن يكون من السهل حلاء هذا الأمر ما دام أي مصدر آخر لم يعرض لهذا الموضوع ولم يذكر شيئاً عنه

سادساً بعد حملة تنويع المعني المختلف على اسمه، «متولياً على الشام»، وسلطان البر والمقدم على الجميع، تحتفي فجأة جميع أخباره وأخبار إمارته عند الدويهي والشدياق والشهابي، وهي غير موحودة أصلاً عند غيرهم وكان ابن سباط قد توقف عن التدوين عام 1519م ولا يُسمع لهذه الإمارة، أو لأحد أقطابها، ذكر حتى عام 1585م تاريخ وقوع حادثة جوى عكار التي انتهت بقتل قرقرمار ثم تعود لتحتفي مرة أخرى، حتى عام

(1) بيت بمسارل كثيرة، كمال الصليبي ص 163

(2) التوحيون، بديم حمرة ص 216

(3) صدق الأخبار، بن سباط ج 2 ص 931

1592م تاريخ انتهاء حكم الأمير فخر الدين الشهير (وهذا أمر له بحث آخر)، وكيف يمكن أن تحتفي أخبار إمارة عن كل مصادر تدوين لمدة قرن كامل بعد تأسيسها، دون إشارة أو ذكر لها، هي جميع المصادر المهمة بهذه الفترة

الشعبة وفخر الدين

إن فخر الدين المعني هو أكثر الشخصيات التاريخية اللبنانية إثارة للاهتمام والنقاش عند الباحثين الغربيين واللبنانيين على السواء. تميز هذا الأمير بشخصية فريدة وطموح حامح ورؤيا سياسية بعيدة ومعامرة وستهارية مصرطة بالمخاطرة جعلت منه اللاعب الأبرز لفترة طويلة، هي معادلة معقدة ودقيقة دخل فيها القوى السياسية المحلية والسلطة العثمانية والمطامع والمصالح الدولية الإقتصادية والتاريخية والسياسية وحاول أن يسحر ما أمكنه من هذه العوامل لإشباع طموحه فتعامل مع كل منها بما يعتمد عليه، أسس الطرق للوصول إلى ما يريد،

كان فخر الدين مبالعاً في بهمه إلى المال والسيطة فسمى إلهما دور الإهتمام بالوسيلة، حتى استطاع أن يمد سلطته إلى مناطق عديدة خارج جبل الدرور، وجمع من الأموال ما أمكنه من أعراق الباشاوات لعثمانيين برشاونه وعطاياه، ورياده ماية ألف دهماً على بعلبك مقابل ريادة أميرها عشرة آلاف قرش على صمد، فمار بالمقاطعتين و بمقاطعات كثيرة أخرى حتى وسع ملكه وكثر عدد عدد رجاله وبنيت ثروته وشعاره الدائم

«إن السلطة بقل تخم، فكلما ملكنا بلادا تنموى برجالها وأموالها تنتقل إلى غيرها»⁽¹⁾

وقد دهم به حياله الواسع المحارف إلى السعي لتحقيق مشروع سياسي معقد وحظير⁽²⁾ يقضي بأعراء بعض القوى الأوروبية، على تحقيق حبيبها القديم إلى الشرق، بمحاولة إنشاء ممالك مسيحية وأوروبية في قرص ولبنان وسوريا وعلسطين، يكون هو

(1) لبنان في عهد الأمير فخر الدين، الشيخ أحمد لصمدى في كتابه «الدين المعني» ص 133
(2) لا يمكن التأكيد إذا كان فخر الدين يحمر مشروعه انحيالي على محمل الحد أم كان يستعمله وسيلة للحصول على مساهم سياسية وتعليمات مادية أو مكان لجوء لمن على الأقل وهذا أمر يخرج عن موضوع هذا البحث

وامارته رأس الحربة في تأسيسها، مما يستر له شبكة من العلاقات الدولية والمساعدات المادية والعسكرية الأجنبية

كان لا بد لشخصية فخر الدين المسطرة، وطموحاته وكذلك مشروعه الدولي المعقد، من أن يؤديا إلى صدام حتمي مع جهات متعددة، وخصوصاً جيرانه من الدين بدأت الخطوات التمهيدية لإبعاد الأرصية لصالح المشروع تمس مصالحهم ويشعرون بوطأنها دون أن يدركوا بالضرورة بعادها وحلمياتها

إن ما بلغه فخر الدين من نمو وسلطة، وما أقامه من علاقات متعددة ومتشعبة، في اتجاهات مختلفة محلياً ودولياً ووقوع منطقة حكمه الأساسية في وسط مناطق شيعية من جهاتها الثلاث، حثم أن يعكس مشروعه السياسي على تعامله معهم وعلاقته بهم وضع الأمير الطموح لنفسه سياسته يتبعها مع الشيعة، ويمدها تدريجياً، من شأنها كما اعتد، أن تحقق له أهدافه المرسومة دون أن يقيم اعتباراً مهماً للصلات السابقة التي كانت بينهما بما فيها من محاسن ومعاون وحتى نسب ومصاهرة

إن قواعد هذه العلاقات التي وضع أسسها دخلت من بعده هي التراث السياسي لحكام جبل الدرور من حكامه، وتركب بصمات من الأمور والعداء، استمرت لمره طويلة بعد ذلك، تأثر بديولها الصربيان رغم تباین لدواعي والمسيبات

كانت تصرفاته العملية بحوهم وممارساته، خصوصاً في المرة الثانية من حكمه بعد عودته من رحلته الطويلة إلى أوروبا (1613 - 1618م) تتركز حول النقاط الآتية

1 - ظهرت أطماع فخر الدين في أراضي الشيعة الواسعة وثرواتهم الزراعية والحيوانية ومواردهم البشرية، وخصوصاً في الاطراف الشرقية كسهل البقاع وهي المقاطعات العاملة المحقة بسحق صمد

2 - حاول إراحة الحكام الشيعة عن مناطقهم والحلول مكانهم، والسيطرة عليها، ليمتقوى بأرضها ورجالها وأموالها وذلك تمهيداً، ربما لمشروعه العتيق والمصداقته أمام حكامه الإيطاليين خصوصاً بعد أن أوصمهم أنه الحاكم الأوحى للمناطق المجاورة للأراضي المقدسة والمؤدية إليها⁽¹⁾ فبدأ بحمل عامل، ثم انتقل إلى لبنان وانتهى إلى الشمال في كسروان وطرابلس

(1) يلاحظ تركيز الصمدي على ثروات البقاع وأمر له بحرقه وصدام فخر الدين لأول مع العاملين عندما حاول جمع انضريية عن ثلاث سنوات مرة واحدة بينما الرئاسة بعدد نسبه واحدة

(2) فخر الدين المعني لأب يوسف قراني ص 144-145

3 - تحسّب من وقوف الشيعة عقبة ادم محططاته. بعد أن ضمن ولاء الدروز والمواربة، وإمكان معارصتهم لها وقيام حركة شيعة موحدة تهدد نجاح مشروعاته أو تقف عائقاً دون السير بها وتعامها كما يريد⁽¹⁾.

4 - إن مضاعفات الحرب الصفوية - العثمانية، و لتوحش العثماني من موقف الشيعة الذي قد يكون موالياً للصفويين، أو قيام اتصالات وعاون بين الجانبين، يهدد الحبهة الداخلية العثمانية، «وظفت كلها لصالح هجر الدين، وحملت الدولة على تقويته واعتماده لمراقبة الشيعة واصعافهم ومنعهم من أي تصرف معاد⁽²⁾». فأسندت إليه صيدا وصمد حيث يقع الوجود الشيعي الحسبي. ثم سهلت له صرب الحرافشة في البقاع، وتحاملت كل أعماله التدميرية فيه وأحيراً منحه ولاية طرابلس، حيث اضطدم بالوجود الشيعي الوحيد الذي لم يكن قد صر به بعد.

سنة 1587م عمده الشاه عباس الكبير بعد غتلاء العرش، إلى تقوية بنية جيشه ودعمه بالأسلحة النارية المتطورة آنذاك وأصدر مجموعة من لقوانين الإقتصادية التي جعلته يهأس من الأزمة العامة، التي ثرت سلباً في ققتصاديات الدولة العثمانية ثم انحصر على الأودك وردداهم إلى ما وراء جراسان فكان لا بد للحروب ان يعاود بشوبها بين الدولتين العدوتين الصفوية والعثمانية.

إن أطماع هجر الدين المادية هي أراضي شيعية وثرواتهم، وأطماعه السياسية هي حكم بلادهم، هي صمد وعلبك وكسروان، وحرصه الشديد على بعميد مشروعه الخيالي، وتوفير أسباب النجاح له، واستغلاله خصوصاً في المرحلة الأولى من حكمه لتداعيات الحرب العثمانية الصفوية، وانعكاساتها على أوضاع الشيعة اللبنانيين، وبطرة السلطات العثمانية إليهم فاستبد بمسه ليكون عين السلطة وسيمها المسلط على رقابهم، كل هذه الأسباب دفعت العلاقات بين الطرفين إلى مرحلة التآرم ثم التوتر والعداء مما قاد إلى صدام عسكري في النهاية لم يعد من الممكن تجنبه

تكاثر المسيحيون في كسروان، بتشجيع ودعم من الشيعة حكامه وملاكه كما تكاثروا في جبل الدروز بترحب من مكانه كذلك، وبكاست الأراضي الصالحة للزراعة ضيقة وعريضة في هذا الجبل، ولما كان المسيحيون فلاحين بشيطيين ومهرة، ظهرت الحاجة إلى أراض واسعة تستوعب الأعداد المتزايدة من المهاجرين الواهدين، وسدد حاجة أهل جبل

(1) هجر الدين المعني، الأب يوسف قراني ص 161

(2) بيت بشارل كثيرة، كمال الصليبي ص 165

الدروز المتنامية إلى مساحات واسعة للزراعة والرعي، فلم يكن أمامهم إلا الاتجاه نحو أرض حيرانهم وهم كلهم من الشيعة

فعلى حدودهم الشمالية تقع كسروان، وإلى الجنوب جريس، وإلى الشرق ليس هناك غير أطراف سهل البقاع الحصيب على لسموح الشرقية، ممتداً من كرك بوح حتى مشقرة⁽¹⁾.

حاول فخر الدين المعني أن يملك رصي حصة في البقاع فادعى أنه اشترى أملاكاً هبة، من الأمير منصور بن فريخ، ورسّل فلاحين لرعايتها لحسانه من أهل الشوف، إلا أن الحرافشة مبعود من ذلك رغم طلساته المتكررة ورسائله ورسله هي هذا الخصوص وإذا كان هو أو ابنه قد عارضوا سكن أولاد الأمير يونس الحرفوشي في مشمرة لأسباب سياسية، فإن اعتراضه على سكن صهره الحرفوشي الابن الآخر في البلدة قرب الياس لا يمكن أن يمسر إلا برعيته في تملك هذه البلدة واستراحتها من الحرافشة حلفائه السامعين يقول لصفدي وهو لمطلع على أدق غايات وأهداف سيده فخر الدين عن موضوع قرب الياس وأرض البقاع بعد أن مهد لهذا الموضوع بتفصيل واضح عن ثروة الأمير يونس الحرفوشي الزراعية وما يمتد من هداين وطروش وعلال يعتبر بالنسبة لسكان الحمال ثروة استثنائية، «أحرز الحرفوش ثروة كبيرة من الزراعة وباع إنتاج أراضيه الواسعة بثمن باهظ وصار يمنع أهل الشوف من الزراعة هي أرض البقاع فأصدر ذلك بالزراع ولم يكمرث لرسائل المعتبين ومراجعاتهم⁽²⁾».

من الواضح أن الأمير المعني عند توحجه إلى قرب الياس حيث تسكن ابنته وزوجها الأمير حسين قد عزم في سره على الدخول في براع مع صهره الحرفوشي ووالده لا بد أنه قدر عواقبه، فإن ما يمكن أن يثيره يونس من متاعب أمام مشروعه السياسي من جهة، وثروته الكبيرة التي أثارت لغطه ومصدمة من جهة أخرى، لم تترك أمامه سبيلاً آخر للتصرف ولا لمريد من التفكير والدراسة

إن نوايا المعني المستترة ضد شيعه هي التي أدت بدور شك، إلى تدهور العلاقة بين الطرفين وقادت في النتيجة إلى المواجهة والقتال إن انتصاف الشيعة العاملين حول الأمير يونس واستنحادهم به ونداعه مؤثراتهم ورفع الصيم المعني عنهم هي من

(1) راجع خريطة «الدروز و الشيعة».

(2) لبنان في عهد الأمير فخر الدين، الصفدي ص 135

العوامل الحاسمة في تطور الأمور إن هذا الحلف لشيعة أثار محاولات جهات عديدة كانت الدولة الممثلة في حربها الصروس مع الصمويين على رأسها، وكان فخر الدين أداها في وقت ما للوقوف في وجه هذا الخطر بما سمع من قوة جيش وحنكة في التدبير ومطامح لا تحد. وقد وجد في هذه القوة الناشئة والتي رادها التحالف الجديد المعلن تأثيراً في محريات الأمور مما يهدد كل ما يهدد له ويسعى إليه من جلائل المخططات وعظائم الأمور

وعندما بدأت ملامح العداء المعني تظهر عيظه صد الشيعة حاول الأمير يونس معالجة الأمور بالدين والسياسة دون حدود لأن نصميم صديقه القديم على المصفي في عدائه حتى النهاية، لم يكن قبلاً لأي ممدد فلم يعد أمامه إلا الدخاع عن الشيعة في البقاع وحبل عامل والتصدي لما يتعرضون له من صنم

كان الأمير يونس يعطف عطفاً شديداً على أبناء طائفته في جبل عامل، ويمح دوره وقصوره لابوائهم وحمايتهم عندما تدور عليهم الدوائر، وتجبرهم القوة العاشمة لهجر ديارهم وطالما دفع عنهم العوائل، وصرف في سبيلهم الأموال، وفاء ومروءة، كما جرى له مع الحاج ناصر الدين مكر، الذي اعتصمه الأمير المعني لأموال متأخرة عليه فسعى يونس بإطلاق سراحه وكفل ما يطلب منه من الأموال،

إن هذه الهواجر المعنية التي تصحرت قمماً وتشكلاً بشعة جبل عامل، ستقود بعد فترة وحيرة إلى حروب طويلة بين فخر الدين وشيعة البقاع، بقيادة الأمير يونس، وستدفع الأمير المعني إلى مهاجمة بعلبك وبلادها ومحاصرة حصونها وصرب مشروع يونس السياسي، لا سيما وأن كل الظواهر نوحى بأن للمعني مشروعه الخاص، البائع الطموح والتعقيد والمناقض بقوة لما يسعى له الحرفوشي من قيام اتحاد شيعة يهدد مشروعه في الصميم، مما قاد حتماً إلى تصادم عسكري بينهما كانت له انعكاسات أساسية في علاقة فخر الدين بسائر شيعة لبنان.

ليس من العسير الاستنتاج، أن إقامة الأمير أحمد أو شقيقه الأمير علي الحرفوشي هي مشعرة، وتأسيس ساء لإقامة أحدهما فيه، والمراسلات والمكاتبات بينه وبين بني متوال، وتردد كبار مشايخهم عليه للتشاور معه، واضطرارهم لإيجاد سبب مقنع يبرر الدافع لهذه الزيارات أمام المراقبين، تحمي عايات سياسية هامة

(1) تاريخ جبل عامل محمد جابر أن صفا ص 112 الصراع المعني الشيعة موضوع بحث في فصول لاحقة

أثارت هواجس المعنيين ومحاولتهم ودفعتهم إلى توحيه إدارات وتهديدات قاسية إلى نسيبهم الشيعي الأمير يونس. «لأن محيي الأمير أحمد إلى مشغرة مبني على هساد وقصده هو استمالة بني متوال واجتماعهم عليه»⁽¹⁾ كل ذلك يؤكد أن الأمير المعني يتخوف من ولادة إمارة شيعية تعتمد من بعليك إلى كرك بوح فقبح الياس همشغرة وصولاً إلى جبل عامل وصفد.

بدأت محاولات حجر الدين للسيطرة على جبل عامل في وقت مبكر من عهد ولايته. فهي تعود إلى سنة 1603م عندما التزم بلاد صفد من والي الشام، ودخلت بذلك لأول مرة مناطق جبل عامل في إقطاعات أمير من جبل الدروز. وكانت مطامع حجر الدين قد ظهرت قسراً لذلك، عندما تسلم صيدا وسكن فيها واصطدم بال سودون، ثم بسائر القوى العاملة. إن عاملين لم يستسلموا بسهولة لحكم حجر الدين، فكان أول التأثيرين عليه المشايخ ولاد علي الصغير، الذين سلبوا بعض رجاله وعاثوا في تلك الجهات، فقصدهم حجر الدين على إثر وصوله إلى الكوثرية فوحدتهم عاشرين، وفي جميعه مشايخ بني متوال فذهب جميع أركانهم وأخذ ما لكل واحد منهم من الدواب.

وسنة 1617م توجه حسن البارحي إلى صفد بعد أن التزمها من والي دمشق فتحلص الشيعة بذلك من نفوذ حجر الدين وجمعوا على تأييد الملزم الجديد ومساندته.

«قبله بعض ناس مثل المشايخ القبلية بيت منكر وبيت شكر وبيت علي الصغير»⁽²⁾ إلا أن ولاية حسن البارحي، لم تدم طويلاً فسرعان ما سقط قبلاً وتكفل المعني بحال الإرسالية وديون القتل.

أثمرت مساعي الأمير يونس الحرفوشي في الحصول على رضى الدولة وموافقتها على عودة الأمير الهارب، فعاد من إيطاليا سنة 1618م ولم تكد قدمه تظاً أرض عكا بعد وصول باخره، وتوجه الياس للسلام عليه «حين وقعت عينه على الحاج ناصر الدين بن منكر مسكه لأنه من أعيانهم، وانجر الخلاف بقوة بينه وبين المتأولة» فطاحب مشايخ بلاد بشارة بيت شكر وأولاد علي الصغير وكلهم راوحوا إلى عند الأمير يونس بن حرفوش»⁽³⁾ وعلى إثرها توالى عارات حجر

(1) لبنان في عهد الأمير حجر الدين، الصفدي ص 66

(2) الدويهي ص 476.

(3) الصفدي ص 66

الدين على ديار المتأولة، وحملاته عليهم ولم تسلم لهم بلدانهم من بطشه وتدمير
هي المقاع أو جبل عامل بما فيها بعثك بمعناها ولبوه وكرك بوح وسرعين وكذلك
عيناتا وبنت جبيل وأنصار والزراية وحومن

ثم يقتصر استهداف حجر الدين للشعبة على حل عامل والبقاع، فتوجه لتنفيذ
محططاته نحو حل لبنان وكانت كمرون على رأس أهداه، حين كان التواحد
الشيخي لا يزال منتشرًا وكثيماً تحت حكم الحماديين، الذين دأبوا على تشجيع نزوح
المسيحيين إليها بمنحهم أماكن يقيمون فيها وأراضٍ يستغلونها، وبالسماح لهم ببناء
دور عبادة، واستقدام رجال دين وحمايتهم قبل كل ذلك من سطوة الوالي العثماني
وأعوانه .

كان آل سيماء يتناوبون على ولاية طرابلس في ذلك التاريخ، فتصدوا لمطامعه في
كسروان باعتبارها من مقاطعات الولاية، وجرت موقعة بينهما في حويية انتهت
بانتصاره، فانقسمت كسروان إلى مقاطعتين، وانفصل عنها المتوح وجعل مقاطعة
مستقلة بقرب من ولاية الحماديين المتأولة لأن أكبر قسم من أرضها كان ملك
المشايخ المذكورين،⁽¹⁾ بينما الحق القسم الباقي بحل الدرور، ونصب حجر الدين
عليه يوسف بن المسلماني أحد معمدته ليقوم في عرير ويماطي أمور الأحكام فيها
أما هي بلاد جبيل فقد استأصل الحماديون نفوذها عندما قام الحاج يوسف
وقائضوه حماده بقتل مقدمي حاج الأربعة أحلافه فيها وتمشيخا عوضهم
عليها⁽²⁾

كما صدده الحماديون في شمال لبنان أكثر من مرة، ومنعوه من دخول طرابلس
وقاتلوه على أسوارها وردوه على أعقابهم سنة 1631م⁽³⁾ وكان قد أمر عساكره يوماً
أن يصلوا إلى قرايا أولاد حمادة وأولاد الشاعر ليهبوههم ويحرقوهم⁽⁴⁾.

طوي مشروع حجر الدين بعد قتله في سطنول، وعادت الحياة السياسية إلى

(1) راجع وثيقه محمد حمادة E1

(2) المقاطعة الكسروانية ص 96

(3) أخبار الأعيان الشدياوي ج 1 ص 193

(4) تاريخ الأرمنة، الدويهي ص 499

(5) الصمدي ص 44.



مسيرتها السابقة في لبنان. وحكم أولاد الأمير يوسف نعلك والباق، وعاد لبارحون إلى ديارهم في بلاد شاره، وبقيت قلعة طرابلس وحمل يد أصحابهما، وترك حجر الدين بصمات وأثاراً استمر تأثيرها حتى إلى أحيال بعده

إن ممارساته تجاه الشيعة في مختلف مناطقهم، حمت عندهم احساساً عميقاً بالحسنة والنفور والعداء فهو لدى مسح كسروا عن محيطها، وسبب إلحاق قسم كبير منها بجبل الدرد ووالسائي أصبحت من معاملة ولي الشام الذي عانى شيعتها من اضطهادها، وتنكيل حكام الجبل مع سهل محاولات تهجيرهم لاحقاً، كما ألقى بدور الفتنة والصدام في حزين بمحاولة تغيير طابعها بالعنف والإكراه مما أورت أحقاداً بين الطوائف عمرت طويلاً وحرب بعلبك وقلعتها، وأحرق قب الباس والكرك وسرعين وعددا من أهم بلدات البقاع وحصونها ومررت بها، ولم يبق على بيت واحد في عدد كبير منها، كما فعل بقرى كثيرة في جبل عامل ونهب وأحرق القرى الشيعية «قرى أولاد حمادة» في جبل لبنان

الشبيعة وآخر المعنيين

بعد وفاة هجر الدين حصلت أول مواجهة بين المعنيين والعاملين، عندما داهم ملحم بن يوسف عدوه علي عزم الدين الذي التحا إلى بلاد بشارية وباصره آل علي الصغير فكبس المعني قرية أنصار مقر المناكرة الواقعة في إقليم الشومر.

دخل الأمير ملحم إلى القرية دخول المسالم، بعجه التفتيش عن حصمه، ولما آمن القوم هاجمهم بعتة، وأمر بهم هدمهم⁽¹⁾ المسكرين⁽²⁾ أحرهم في المرح المعروف حتى اليوم، بمرح الدحاح، وأباح البلدة ثلاثة أيام قبل أن يعادها محلاً عاماً وستمايه هيل من أهلها في معركة أطلق عليها المؤرخون العامليون اسم معركة أنصار الأولى عام 1638 م، وكان من ديولها في العام الثاني الهجوم على بلدة مشعره وبهها دون أن يواحه الهجومان مقاومة تذكر، ربما لأن أهالي البلدتين لم يكونا على تأهب عسكري واستعداد قتالي كونهم غير معتادين مباشرة وإنما كانوا صحية صراع لا علاقة مباشرة لهم به

ولكن معارك أخرى شنت بين الطرفين تصرد للعاملين بذكرها عندما استلم الأمير ملحم القرام سنحق سعد، ومن صممه مقاطعات جبل عامل، بمبلغ ثلاثين ألف قرش سنة 1658 م وربما يكون هذا الالتزام وما يقتضيه من تعامل واحتكاك، بالإضافة إلى العداء القديم من أهم العوامل التي أدت إلى شوب هذه المعارك، التي لم تكن حاسمة، وإنما سجالات بين الطرفين كمعركة عبات 1660 م⁽³⁾ ومعركة النبطية الفوقا 1666 م ومعركة وادي الكمور 1667 م التي برز فيها على رأس جبل عامل شيخ المتاولة أحمد بن علي الصغير المتوفي سنة 1680 م.

(1) جبل عامل هي النابيج المقيه ص 176 وورد أنها وقعت سنة 1659 م

يبدو أن هذه الممارك نصبت وتكثفت عل إثر إنشاء باشوية مستحدثة هي صيدا، وشعور العامليين بالنوحس والقنق إزاء هذا الأمر الذي جعل الباشا التركي وجنده وأعوانه على تحوم حبلهم مباشرة فظهر الملمس والتعرد بينهم فطلب الباشا تدخل الأمير ملحم كعادته لتأديب العصاة وإرهابهم

كانت الأمور والعلاقات بين حكام لشوف، وشيعة لشمال تسير على وتيرة مختلطة، وتوجه إلى قيام تحالف بوجه لسلطة بدع دروته هي حركة قمهر، التي جمعت بين المعيين والشهابيين وحماديين في جهة واحدة، أمام الحشوش العثمانية الراحمة من القنق وانتقل الجميع إلى عمق بلاد الشيعة في السيطرة للإتفاق على كيمية المقاومة، بعد أن احتاج الحشوش مناطقهم وأرذاقهم وبيوتهم وقد انصم إلى المقاومين فيما بعد، كثير من العائلات والقوى الأخرى⁽¹⁾، حتى أعطي الصراع طابعاً عرقياً لا طائفياً جمع أولاد العرب بوجه العثمانيين، الذين ردوا بأعمال انتقامية قاسية طاولت مناطق وادي النسيم وحبل لدور و تركرت خصوصاً، في بلاد الشيعة وقراهم في كسروان وحبل ووادي عقلت، بعد أن توارى الأمراء الشهابيون والمعيسون خارج مناطقهم، واستحب الحماديون إلى قمم الحبال وأعماق الأودية مقاومون كما تعودوا دائماً عاراب عدوهم لمصقو المدمر

تمكنت السياسة الشيعية المعادية للعثمانيين من كسب تحالفات مهمة هي هذه الصنرة وخصوصاً بانضمام المعيين والشهابيين إلى المقاومة في كسروان

عندما شعرت الدولة بخطر التحالف الدرزي الشيعي على مصالحها، حاولت أن تبذر الشقاق بين الحماديين والمعيينين، وذلك من خلال محاولاتها المتكررة إسناد ولاية لمقاطعات الحمادية إلى الأمير أحمد المعيني، لقاء مساهمته العسكرية مع قواتها في قتال الشيعة وقمعهم ولكن الأمير أحمد، المدرك لما وراء هذا العرض من عايات مبيتة كان يعد الأعداء دائماً لرفضها بدبلوماسية وليونة، حتى عصب عليه الدولة في النهاية وعزلته من منصبه، وعبرته أنه يحالف الشيعة سرّاً، ويقدم لهم الدعم والمساعدات ويقنصي إرزال نصر العقوبة بالجميع فطاردتهم معاً⁽²⁾

لم يكن الأمير فارس شهاب الملقب بالكبير، يتمتع بنفس القدر من الحكمة والحذر

(1) تاريخ الارمنه الدويهي، ص 550 - 551 تصحيح هذه بحركة الهامة في تاريخ لبنان موضوع فصل خاص

(2) لبنان والإمارة الدرزية، عبد الرحيم أبو حنين ص 92 - 93

التي كاتب للأمير المعني، فانزلت إلى الصبح الرسمي، وضمن بعلبك من قبل دولة الشام، بدلاً عن الحراشة وقدم بألفي فارس إلى بيحا وطرد الأمير عمر الحرقوش الذي توجه إلى ناحية بيت حمادة واستنجد بهم فجمع رجالهم ودهم الأمير فارس، تحت بيحا فقتله وقتل من جماعته خمسة وخمسين شخصاً من أجويد وادي التيم هي 27 اب 1680م.

إن تعيين الأمير فارس حاكماً على بعلبك وقدمه إلى جهاتها، وما أعقب ذلك، فتح صفحة دامية هي سجل طويل من الحروب والحلافات بين الشهابيين في وادي التيم أولاً، ثم جبل الدرور بعد ولايتهم عليه، وبين جيранهم من الشيعة في الجنوب وهي الشمال. رغم أن مساعي الأمير أحمد وعلاقته الحسنة بالطرفين أدت إلى إنهاء الحلاف أولاً عن طريق دفع دية الأمير القنير، والانساق على بداير تحول دون الاحتكاك مستقبلاً، منها أن لا يسكن الدرور في بعلبك وبواحيها أنداً⁽¹⁾

كان مجرد مجيء الدرور إلى البقاع يعتبر محاولة للأوامر العثمانية التي ربما كانت ترمي إلى منع الإحتمكاك بين الطرفين على أثر قلاقل حرت بينهما كما يسيد الأمر السلطاني الصادر في 28 تشرين أول 1700م والذي يستند إلى فرمان صادر قبل هذا التاريخ بنحو نصف قرن.

حكم إلى وإلى دمشق حسن باشا

إن مجيء طائفة الدرور إلى البقاع واستقرارهم هناك وعملهم في الزراعة أمر يبعث على الإضطراب. أن الودير الأعظم لسابور ده محمد باشا كوبرلي قد منعهم من ذلك عندما كان والياً على دمشق وهناك حجة تنص على أنه في حال جاءت الطائفة المذكورة إلى البقاع فإنه يحوز قتلهم ومصادره ممتلكاتهم⁽²⁾.

(1) تاريخ بعلبك، حسن نصر الله عن شدياق ص 275، العلاقات بين الشيعة وكل من المعنيين والشهابيين هي موضوع حصيل قادمة. يف فيها موقف الأمير أحمد المعني من ثورة العرب باش ومقتل الأمير فارس شهاب.

(2) أ.م.د 272.111 الامارة الدرورية ص 96

انتقال إمارة جبل الدروز إلى الشهابيين

«توفي الأمير أحمد المعني سنة 1697م دون عقب، وانقطعت به السلالة المعنية. اجتمعت أكابر جبل لبنان ليختاروا والياً عليهم، فاتفقت آراء الأكابر جميعاً، على الأمير بشير ابن الأمير حسين أمير راشيا، لأنه كان ابن أخت الأمير أحمد»⁽¹⁾.

«في ذلك الوقت، بعد وفاة الأمير أحمد، اجتمعت أعيان جبل لبنان للمشورة ليختاروا والياً عليهم، على ما كان في يد آل معن من الولايات، فاتفقت أراؤهم وانتخبوا الأمير بشير بن الأمير حسين أمير راشيا لأنه كان ابن شقيقة الأمير أحمد المعني ولما دخل دير القمر رصخت لأمره جميع أهالي جبل لبنان من أعيان ومقدمين ومشايخ وخاص وعام»⁽²⁾.

بهذه الأسطر القليلة حسم المؤرخان الشهابي والشدياق، أمر انتقال حكم الشوف من المعنيين إلى الشهابيين ونقل هذه الرواية عنهما كل من جاء بعدهما، دون روية أو مناقشة أو تبصر.

إن هذه الرواية تصغر إلى الكثير من عناصر الاقتناع والإثبات، حول انتقال الحكم في جبل الدروز، من المعنيين إلى الشهابيين، لأن المصادر التي روحتها، يحدوها ميل خصي، وأحياناً ظاهر للعصرية القيسية وللحكم الشهابي⁽³⁾.

إن هذه الرواية المتداولة لا تدل على تحرب لشهابيين وحسب إنما هي محاولة مقصودة لإصماء الشرعية على حكمهم، دعثارهم ورثة المعنيين الوحيدين، وصولاً إلى السلطة عن طريق الإرث الشرعي، من جهة، وحبّار جماعي وطوعي من أصحاب الشأن، اقترنت بمصادقة رسمية من أولي الأمر من جهة أخرى، مما يعرر حجتهم ويدعمها بوجه المعارضين، ولا سيما آل عم الدين وغيرهم، ممن قد يدعي حقاً أو مطلباً أو أهلية للحلول مكان المعنيين في حكم الشوف وإمارة الدروز.

(1) أخبار الأعيان، الشدياق ج 2 ص 311

(2) الشهابي ج 1 ص 3.

(3) الامارة الشهابية، أنوصالح ص 34

إن المدقق في هذا الأمر لا يحتاج إلى كثير من الجهد، لتتضح له هشاشة هذه الرواية وعدم انطباقها على واقع الحال ولأعراف، وتمايلد الحكم في جبل الدرور وسائر المناطق اللبنانية.

إن اجتماع الأعيان، للتداول في أمور انتقال الحكم ليس أمراً مألوفاً في الشوف، أو في غيره من الولايات. ونحن لا نعرف حالة واحدة مشابهة سابقة أو لاحقة. اعتمد ههنا الأسلوب نفسه ولا يخفى أن توريث لسلطة من عائلة لأخرى، ليس من الأمور أو من المبادئ المعمول بها في انتقال الحكام⁽¹⁾، بالإضافة إلى أن أحقية ابن الأخت هي الإرث، على افتراض أن هذا الأمر طرح عملاً، لا تبدو حسب الأحكام الشرعية أو الأعراف المتبعة، هو أمر مسلم به لا يقبل البحث وخصوصاً مع وجود الكثيرين من الطامحين بالمصعب كالارسلانيين والتوحيين وال علم الدين وربما غيرهم.

إن ما رواه المؤرخون أنفسهم عن أن الدولة العلية نرى أن يكون حيدر ابن موسى ابن بست المعني المتوفي هو الوالي وأن بشيراً يكون والياً بالوكالة يتناقض مع كل قوايين وأعراف وسياسة الإدارة العثمانية التي تقصر الإلتزام على سيرة واحدة لا يحفظ لصاحبه حقاً من أي نوع بعد انقضاءها:

وقد تناوب على حكم الشوف في العهد العثماني أسر كثيرة ومنهم التوحيون والمعنون وآل علم الدين وآل عماد وآل أبي عوان وآل هرموش وغيرهم دون أن يراعى أو يثار مبدأ الوراثية⁽²⁾

أما وكالة الأمير بشير عن قريته حيدر فهو أمر مناقض لبس للأعراف والنظم العثمانية وحدها بل للشرعية الإسلامية أيضاً فلم يلحظ القانون العثماني بديراً يعين بموجبه حاكماً على منطقة عثمانية غير عقد الإلتزام المنوي. ومن شروط المتعاقد أن يكون بالعم، والقاصر لا يتمثل بوكيل وإنما بوصي شرعي يكون القاضي أو من يعينه شرعاً. ولم نجد سابقة واحدة في المصادر أو التقليد أو سجلات المحكمة الشرعية في صيدا وطرابلس سابقة تشبه ما ادعاه المؤرخان.

يرى البعض أن الأمير أحمد المعني، كان يود أن يخلعه الشيخ قبلان القاضي

(1) ربما تصريت هذه النظرية إلى أفكار ملوحين متأخرين من وحي ما هو شائع في العرب عن انتقال الحكم في أوروبا من أسرة إلى أخرى عن طريق الزواج والمصاهرة

(2) الصراع على السلطة عباس أبو صالح المؤتمر الأول، ص 133

التنوحي، عمده مشايخ لدرور في حبه «كبير طوائف الشوف والكل يعترفون إليه وهو المقدم عليهم»⁽¹⁾ ويرى آخرون، أنه أوصى باستبعاد الشهابيين عن خلافته⁽²⁾، واتهمهم بمقتل ابنه الوحيد الأمير ملحم، طمعاً بالولاية، كما أوصى بتولية أمير أرسلاني بعد وفاته⁽³⁾ هذه أمور ليس من تسهر الجرم بها، لتعذر الاعتماد على مصادر معادية بعيدة عن النزاع اليميني لفيسي، والتنافس بين العائلات الذي كان على أشده. إلا أن ما يرححه، أن مراعاة وقع بعد وفاة الأمير أحمد، كما يقع دُئماً في مثل هذه الظروف، حتى بين إخوة ولأقرباء وأبناء العائلة الواحدة وأن هذا النزاع قد حسم بعد تجاذبات، لمصلحة شهابي من وادي التيم، لتعذر امكانية القبول بأحد أبناء العائلات الدرزية المنافسة على النفوذ والتقدم بسبب التراتبية الدقيقة، والحساسية لكرمنة بين مختلف العائلات الدرزية الموية، وصعوبة انقياد الباقيين إلى سيطرة العائلة التي يمكن أن يؤهلها لظروف لتولي القيادة

ولذلك نجح بشير ابن حسين الشهابي في تسميته مسرماً على جبل لدرور، بعد أن نعهد لوالي صيدا بدفع كامل الديون المترتبة على أسلحته لصالح الحربية السلطانية مما أدى إلى هراير آل علم الدين المناهضين الرئيسيين، ورؤساء الحرب الأقل هو والأضعف عصبية من الدرور، إلى دمشق كما يعود الشدياق ويذكره بعد ذلك⁽⁴⁾، وكان تولي بشير على الجبل مقدمة لفرع آخر، ما لبث أن ظهر بين الأمراء الشهابيين أنفسهم.

إلا أن ما يمكن تأكيده أن اجتماع لسمقانية في حال حصوله، عقد نداء على دعوة من أحد المهتمين بأمر آخر غير اختيار بوارث لمركبة المعيين.

إن هذا الاجتماع لم يحضره أو يشترك في مد ولاته أحد من خارج الشوف، سواء أكان من الأعيان أو من العامة ولم يكن من المشاورين والمبايعين أي قادم من المناطق اللبنانية الأخرى خارج جبل لدرور ووادي التيم، خصوصاً وأن ثورة شيعية كبيرة في جبل لبنان كانت لا تزال في وح اشتعالها بوجه جيوش السلطان الساعية

(1) الشهابي، ج 1 ص 15

(2) التحركات ص 164

(3) لبنان في القرن الثامن عشر، ص 134

(4) الشدياق، ج 2 ص 311

مند رمن إلى المصاء على الحكم نشيبي بدور نحاح¹، كما كانت المناطق الأخرى سواء في البقاع أو جبل عامل لا تهتم كثيراً بمصير الورثة هي جبل الدرور المحاور ولا يعتنيها هذا الأمر لعدم علاقتها لبشرة فيه وتترقب في ظل حكامها الشيعة، ما يجري من معارك عسكرية ومطاردات بين شيعة جبل لبنان والبقاع وجبل عامل أمام القوات العثمانية

أما من حيث الوقائع التاريخية الثابتة في الوثائق العثمانية الرسمية، يؤكد تناقض هذه الرواية وجميع ديولها وسائجها فهي تصيد أن الأمير الشهابي الذي حكم جبل الدرور بعد أحمد المعني، كان الأمير منصور بن حسن الشهابي، وليس الأمير بشير وقد عصب عليه المنطقة فيما بعد وقبض عليه والي دمشق².

وأن الأمير بشيراً لم يحكم الشوف وصياً على قريبه لناصر، وإنما لما تعهده بدفع جميع المبالغ التي كانت تستحق للحرثة السطاسة على أسلافه³

إن الأعراف التي حثمت أن يحصل المعين أمير شهابي، وليس أي طامع آخر من العائلات الناجدة التي طالما سارعت على التقدم والسلطة كصلاص الماصي عمده مشايخ الشوف أو أي أمير أرسلاني، و تنوحي آخر، فذلك يعود إلى التركيب الاجتماعي والقبلي والعشائري الذي يحول دون قبول العشائر المتنافسة، بحاكم من أحداها، وخصوعها له وقد بقي هذا سقند لضرورة قائماً ومعتبراً، إلى وقت متأخر، كما يقول معاصر للأمير بشير شدي، وهو من رجال الإدارة والحكم، وله خبرات عميقة هي مثل هذه المبادئ، متحدثاً عن بشير جبلاط، بأنه كان أرجح عقلاً وأشد حكمة من أن يطمح إلى الحلول مكان الأمير بشير الشهابي، لمعرفته باستحالة خصوع عشائر الدرور المقدمة إلى حكم أحد أفرادها وتمصيلها الإتيان بحاكم أجبي عنها لاستحالة ذلك⁴

(1) الإمارة الدرزية أبو حسين ص 61

(2) وكان بالإضافة إلى أنه حلف أحمد معني 'سرم' شوف فسد كان أمير لواء وادي لنهم وقد أعدم في شباط 1706م بعد أن تهم بأعمال شاذة لندس ولأمانة بدرية أبو حسين ص 95 وسبأني تعصير ذلك في فصل لاحق

(3) المصدر السابق ص 98

(4) من الجواب على اقتراح الاحباب، ميخائيل مشافة ص 67.

معركة عين دارا

يكاد يجمع التاريخ الاقتراسي الموضوع، على اعتبار معركة عين دارا، مفصلاً أساسياً في تاريخ لبنان، شكلت بداية عصر، وبهاية آخر، لما كان لها من تأثير بالغ على مجمل التطورات التي أعقبتها، كما وصفت حداً فاصلاً للصراع الطويل، على حكم جبل الدروز، بين كل من أصحاب الرايتين البيضاء والحمراء، حتى اعتبرها البعض أعظم المعارك في تاريخ لبنان⁽¹⁾.

إن تأثير هذه المعركة على توارث القوى، ومستقبل الحكم في جبل الدروز، هو خارج موضوع بحثنا هنا ينبغي توضيحه. هو الدور الشيعي في هذه المعركة الذي أهمل تماماً في معظم المصادر اللبنانية، والذي يحتمل بعض الملاحظات.

لقد حملت المصادر المختلفة القديمة والمعاصرة الدورية والمارونية، بالإشادة بهذه المعركة وأوردت مبالغات خيالية وساذجة، على بطولات الأعيان الذين قاتلوا إلى جانب الأمير حيدر، ناسبة إليهم أعمالاً خارقة. دفعت الأمير المنتصر، إلى توزيع المناصب والرتب على مساعديه سحاء كل بطريرك، حتى أنهم بسوا إليه، أنه منح عائلات بعض المقاتلين من أنصاره، لقب الإمارة وهو لم يملكه السلطان العثماني نفسه بحسب علمناه مع أية عائلة لبنانية أو غير لبنانية لا سيما وأن هذا اللقب متوارث في عائلات محدده ولأسباب معينة وليس من الألقاب التي يمنحها الولاة أو الحكام مهما علت رتبهم

كما أسهت هذه المصادر في تعداد المشتركين في هذه المعركة، من أعيان وعائلات ومقاتلين، فذكرت أسماءهم وطوائفهم وأدق تفاصيل القتال، ومراكز المتحاربين، دون أن يرد خلال كل ذلك إشارة واحدة ولو ممتصية، تلمح إلى وجود شيعي فيها، أو أي مساهمة شيعية الطابع، بكل ما يتعلق بهذا الحدث الهام.

إن الحقيقة التي تعاقب عنها الجميع، أكدها تقرير دبلوماسي رسمي نظمه شاهد عيان على تفاصيل الحدث، وهو على علاقة شخصية ومهنية مع جميع الأطراف التي اشتركت فيها، أو كانت معنية بها

تولى الشوف الأمير يوسف علم الدين ومحمود أبو هرموش الذي انتقل إلى دير القمر ليباشر الحكم فيها، هرب الأمير حيدر وأهم أنصاره، ومنهم الشيخ قنلان

(1) هذا ما يتردد في تواريخ عديدة حديثة

القاضي، والتجأوا إلى الهرمل حيث احتموا مدة سنة كاملة في «معر فاطمة» أو «معارة عزرائيل» النائية كما يدعوها الأهالي المحليون وأرسل عائلته إلى فتوح كسروان بسبب علاقته الحسنة مع الحماديين⁽¹⁾.

ثم طلب الأمير حيدر الحماية من شيخ بعلبك أو أميرها، وهو الأمير شديد الحرهوش الحليف الوثيق للحماديين هو فق على حمايته، وأمدّه بحيش من الفين وخمسمائة من خيره مماثليه فعاد الأمير حيدر على رأسهم إلى جبل الدروز حيث انضم إليهم ألف وخمسمائة رجل من أنصاره من لحرب القيسي دروراً وبصارى، فحاص بهم معركة عين داره التي أعادته حاكماً إلى دير الزمر بفصل حماية حاكم بعلبك ومقاتليه بعد أن انتصر على أحصانه.

يقول فنصل هرسا في صيدا، استيل (Estel e) هي تقريره المرفوع إلى وريده الكويت بونت شارتران والمؤرخ في 23 أيار 1711م. أي بعد عدة أيام على تاريخ المعركة⁽²⁾.

«طلب الأمير حيدر الحماية من شيخ بعلبك الكوي جداً، فمنحه حمايته واعطاه نحو المين وخمسمائة رجل من خيرة محاربي هذا البلد. فعاد بسرية تامة مع هذا الحيش الصغير إلى بلاد الشوف حيث كانوا بالدرور القيسيين الذين انضموا اليه وفي أيام قليلة بات تحت امرته أربعة آلاف رجل».

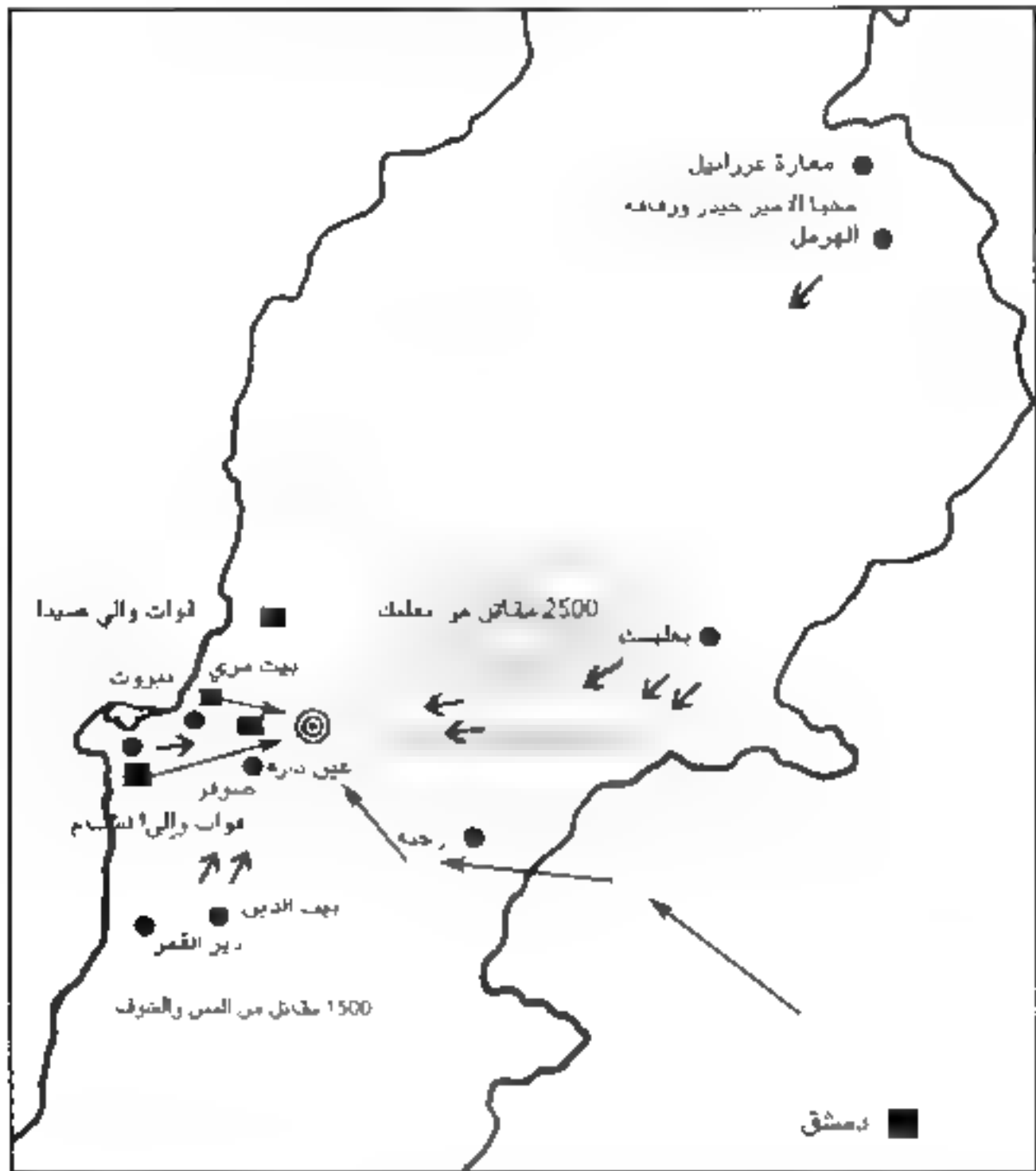
كان من الطبيعي بعد انتصار الشهابيين، في عين دارا وعودة الأمير حيدر إلى السلطة، أن يعتمد أنصاره الذين هاتلوا معه إلى تقاسم الممود في الشوف بين العائلات التي شاركت في القتال، فتولت كل منها اقليماً أو قرية أو عدة قرى، تباشر الأمور فيها باسم الأمير ولحسابه. إلا أن بعض «مراجع لتاريخية لحديثة التي كانت تتمنى لو أن الأمير حيدر، كان باستطاعته أن يمد نفوذه إلى خارج الشوف، نحو ولاية طرابلس، افترضت أن ذلك حصل فعلاً، فتصبت باسمه عائلات قامت هي باحتيارها فأعطت الزاوية لآل صاهر، والكورة لآل العارار، وحنة المييطرة لآل حمادة الشيعة الخ. وعايتهما أن تنصب الأمير حيدر أميراً على لبنان، وليس والياً على الشوف فقط من قبل والي صيدا، وأن بمقدوره أن يسمى الولاية في أي منطقته شاء من لبنان.

إن هذه التولية محض احتلاق لا أساس له ولا سند. وحتى المصادر المعروفة

(1) الريفيون والمؤسسات الاقطاعية في لبنان ص 71 بالمرسبة

(2) D D C T1 p. 95.

معركة عين دارا



● جيش الأمير حيدر

1500 مقاتل من الدرور و لحرب الشهابي قدموا من الشوف والى

2500 مقاتل من بعلبك أرسلهم الأمير حسين الحرهوش

■ أبو هرموش وهوات والي اسنم وولي صيدا

يقول الأمير حيدر المؤرخ أن والي اسنم وصل بمراته إلى قرب صوفر، ووصل والي صيدا حتى رس قواته إلى بيت مري ولكن لفصل الأمر في تقريره عن هذه معركة لم يذكر أي شيء من ذلك.

بتعيزها للشهابية، لم نشر إليها و يبدو أن رهاً قد حلتها وأوردها هي كناه، فتسربت إلى مصادر أخرى حتى دخت ولأسف في التاريخ المدرسي وأصبحت وكأنها حقيقة لا تقل الحد.

إن هيمسة آل حمادة الشبعة على حبه لميطرة قديمة جداً ولا علاقة للأمير حيدر بها² وهي تعود إلى قريين سابقين على الأقل كما أن التقارير الرسمية كثيرة جداً، وكلها تؤكد هيمسة آل حمادة على مناطق الر وبه ولكور وجيل ولبترون، طوال النصف الأول من القرن الثاني عشر³ أي قبل معركة عين د را وبعدها

إن مقاطعات ولاية طرابلس، لم يحكمها أي شهابي في أي وقت، حتى بعد سنوات على تاريخ معركة عين دارا وأن العائلات التي نصبتها لاب المؤرخ حكماً هي من محص احتلاقه فإن جميع هذه المناطق وكثير غيرها وكل المناطق الواقعة بين بيروت وطرابلس وكامل جبل لبنان، لم يكن لأي شهابي علاقة بها في هذا التاريخ وقبله وبعده بر من⁴

ومهما كان الأمر فإن الأمير حيدر، وفي والي آخر على الشوف، لا يمكنه أن يولي غيره على أي مقاطعة، حتى ولو كانت هي شوف نفسه لأن إصدار مراميات التولية موقوف ومحصور، السلطة العثمانية وحدها، حتى ولو كان من الحائر أن يكلف الأمير أو أي حاكم آخر من يشاء لمساعدته في جمع نصراث أو حمايتها باسمه ولحسابه ولا يحصى العرق الشاسع بين الحالين.

(1) هو الأب يوسف نجيم ابن أمير جبل الدروز سواء كان معنياً أو شهابياً أو من آل علم الدين أو أي حاكم آخر لم تنم ولايته هي أي فترة من الحكم عثمانية وحتى سقوط النظام الإقطاعي في منتصف القرن التاسع عشر حدود هذا الجبل وإن كان بإمكانه مثل أي شخص آخر محاولة الترم أي منطقة يشاء كما فعل فخر الدين عندما التزم صيدا وسافس على إنتر م صعد مع الأمير يوسف الحرفوش وحدة عدم واحد وقد استطاع الأمير ملهم أن يلتزم هذا السجق مرة أخرى كما فعل الأمير منصور الشهابي بعد ذلك

(2) الجدور التاريخية، مسعود صاهر ص 93

(3) نفس المصدر ص 94

(4) أول أمير شهابي حكم في جبل لبنان خارج جبل الدروز هو الأمير يوسف في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كما سيأتي تفصيله لاحقاً حتى وادي السبع بضمه كان لواء مستقلاً عن حكم الأمير المعني لشهابي ويبيع ولاية الشام في الوقت الذي كان فيه جبل الدروز متبعاً بولاية صيدا وبولاية حاكم آخر وحتى عندما التزم الأمير لشهابي الاحيراء بلاد جليل لم يكن ذلك في أي وقت بصفتها حاكمين على جبل الدروز



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

الباب الثاني

لبنان الشيعي في القرن السادس عشر

الفصل الأول:	جبل عامل
الفصل الثاني:	بعلبك والبقاع
الفصل الثالث:	جبل لبنان كسروان
	جبيل والبترون
	جبة بشري
الفصل الرابع:	المدن الساحلية
	بيروت وصيدا
	طرابلس
	صور
الفصل الخامس:	حواضر العلم عند الشيعة في لبنان
	جزين
	مشغرة
	كرك نوح



قبل العهد العثماني بمدة طويلة كان الوجود الشيعي منتشر في لبنان كله⁽¹⁾ ساحلاً وحللاً، حكماً ومحكومين وكس الساحل اللبناني يعط عليه الطابع الشيعي من طرابلس حتى صور، حيث قامت أحياناً دول مردهرة تتمتع بالكثير من مظاهر الإستقلال والتطور⁽²⁾

ومنذ عهد مبكر كانت منطقة البقاع شيعية أيضاً، وهي لا تزال في بعض أحزائها كذلك حتى اليوم⁽³⁾ وهو حال حل عامل الذي لم يتوقف، منذ العهد الإسلامية الأولى عن أن يكون حراً شيطاً للإنتشار الشيعي شرقاً وغرباً، كما كانت كسروان لخزان الشيعي الآخر التي كانت قديماً تشمل ما يعرف حالياً بالمث وكسروان وأحرار أخرى وتؤدي بصي برهد سائر المناطق بالهجرات الشيعية إلى وقت قريب.

إن الوجود الشيعي في لبنان هو نتيجة تشيع جماعات من سكانه كما حصل في أي مكان آخر من العالم الإسلامي كالحجاز ونراق والشام بحلاف ما يتوهم البعض فهم لم يندحوا إلى هذه البلاد من أي مكان آخر⁽⁴⁾ وإنما هم من سكانها الأصليين، تحولوا منذ زمن قديم إلى هذا المذهب كما فعل غيرهم في بلاد أخرى، وأن كل ما يتردد عن استقدامهم أو هجرتهم من مكان آخر، هو قول ليس له ما يبرره⁽⁵⁾ رغم أن كثيراً منهم قدم إلى لبنان في فترات تاريخية محتملة كما قدم غيرهم من جميع

(1) تاريخ لبنان الحديث، كمال الصليبي ص 15

(2) مثل دوة بني عمار في طرابلس وإمارة بني عقيل في صور وقد تأرجح بينو عميل في ولائهم بين الماطميين والسلافة

(3) راجع فصل بعبك والبقاع

(4) التحولات السياسية في مجتمع الامارة الشهابية، مير اسماعيل بحث في البس في القرن الثامن عشر، ص 85

(5) روج البعض وهماً مفاده أن معاوية قد استقدم جماعات شيعية أسكنها في لبنان لأسباب عسكرية وسياسية واشهر من قال بهذا البري الأب لامين وقد ترجع عنه فيما بعد ومن المعلوم أن المذهب الشيعي لم يكن قد تأسس بعد في أيام معاوية ولم ينتشر في فارس إلا بعد زمنه بقرور عديدة وليس هناك دليل واحد يبيد بأن هجرة شيعية كبيرة قد قدمت إلى بلاد الشام وأما تحول أكثر سكانه إلى هذا المذهب، كما تحول بعض شيعته إلى دوزر فيما بعد

المذاهب. والهجرات الصردية هي من طبيعة البشر تحصل في جميع البلاد ومن جميع الملل.

أدى انتشار المذهب الدرزي بين الشيعة في وادي النيم والشوف، إلى كثافة درزية وانحسار شيعي في هاتين المنطقتين، كما أن نهجرة المارونية من شمال سورية إلى الحبال القريبة من طرابلس، والتي كانت هي ما مضى قليلة السكان، أوجدت واقعاً سكتياً جديداً يعيش فيه الشيعة والنصارى في قرى مشتركة أو متجاورة، بينما لا يزال جبل الصنية يحمل إلى هذا اليوم اسم الجماعة الشيعية التي ستقرت هناك قبل الحروب الصليبية، وكانت الصنية وكسروان وأغلبية المناطق الساحلية ذات أكثرية ساحقة من الشيعة⁽¹⁾.

عاش لبنان في العهد المملوكي لكثير من الكوارث والمحن تركت آثارها الأليمة لسنين طويلة لاحقة، قضت على معظم سكانه ودمرت أكثر عماراته، ودكت مدنه وقرى. حتى لم يبق من ثلاثة آلاف قرية مسكونة في بياض طرابلس أكثر من ثمانماية، تنافس سكانها إلى دبح ما كانوا عليه سابقاً⁽²⁾.

كما دمع لبنان ثمناً هادجاً للحروب الصليبية التي حرت على أرضه وهي مدنه، حيث تداول المحاربون المدن مراراً، وتنافسوا على تهديمها وذلك حصونها خوفاً من وقوعها في يد الأعداء وقام المماليك بسد الموانئ اللبنانية خوفاً من عارات السفن الصليبية، لأن موتهم البحريه لم تكن كاهية لصددها وما نتج من الحروب الصليبية قامت بشد مبره عروات الممول المنكررة، وحملات المماليك الحربية والانتقامية ولم تكن المصائب الواقعة على لبنان من فعل الإنسان وحده بل ساهم عصب الطبيعة بتصيب وافر في هذا الدمار الكبير⁽³⁾.

هي النصف الثاني من القرن الرابع عشر، قام المربح بأكثر من عشر عروات كبيرة على الساحل اللبناني، كما قام الممول بعارث متعاقبة في تاريخ مقارب، حلّت مدنه كما وصفها ابن بطوطة عند مروره بالساحل الشامي.

«ثم سافرت الى عسقلان وهي خراب، ثم على الساحل إلى مدينة عكا وهي خراب، ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهي خراب»⁽⁴⁾. هي تلك الصخرة العصبية تعرضت مدن

(1) تاريخ الصنية، قاسم الصعد، ص 15

(2) بياض طرابلس، الياس القطار ص 209

(3) سنة 1400م جتمع الممول والطاعون والجرب معاً فكدت من أقصى السنين على بلاد الشام، تاريخ لبنان مكّي، ص 258

(4) رحلة ابن بطوطة، ج 1 ص 63.

الساحل اللبناني، طرابلس والبيروت وحبييل وبيروت وصيدا وصور إلى تبدلات عمرانية وسكانية أساسية، الأمر الذي ترك بصماته العميقة والواضحة على صورتها العامة وطبيعة سكانها وهويتهم في مختلف الحقب التاريخية وحتى اليوم.

في بدايات القرن الأول من العهد العثماني كان أكثرية سكان لبنان من الشيعة، ينتشرون في معظم أنحاءه في الشمال والبقع والجنوب، خارج المدن الساحلية الكبيرة، التي كانت هي فترة ما ممر الباشوات العثمانيين، فلم يتجاوزوا صواحيها (طرابلس - بيروت - صيدا) وعاشوا في قرى خاصة بهم وأخرى مشتركة مع النصارى، وفي أحوال نادرة مع السنة والدرور. وهي هذه الفترة كن عدد سكان لبنان بجميع طوائفه يقارب الربع مليون انسان 256746. أما في حل لدرور فقد انحصر وجودهم كما هو اليوم في قريتين حليتين بينما لم يكن يعيش فيه بصراني واحد⁽¹⁾.

عدد سكان كل طائفة في لبنان في القرن السادس عشر⁽²⁾

شعة	98772	38 %
سنة	76932	30 %
درور	35328	13 %
نصارى من مختلف المذاهب	44328	18 %
يهود	1104	
علويون	282	
المجموع	256746	

(1) القريتان هما القماطية وكيمون ولم يكن هناك شيعي آخر خارجهما

(2) راجع نواحي لبنان، عصام خليفة دراسة علمية وحصاءات تستند إلى التحارير العشائية مثل لطايب دفتري وقاسم مامة لمائدة للقرن السادس عشر حول عدد السكان والتقييمات الإدارية وقد استندنا إليهما في هذه الدراسة

جاء في دراسة احصائية شاملة شرتها جريدة النهار البيرونية في 29 آب 2007

المسيحيون	35%	الدرور	5%
الشيعة	29%	السنة	29%
العدد الإجمالي	4855067		



عربان من الشيعة في القرن التاسع عشر

من المعتقد أن عدد الشيعة في العهد العثماني في لبنان كان أكبر بكثير مما ذكره التواريخ الوطنية اللبنانية وهذا ما أشار إليه باحثون عديدون منهم عبد الكريم رافق «بلاد الشام ومصر»

محمد عدنان ليعيب مقاصفات دمشق في القرن السادس عشر

The ottoman province of Damascus in the sixteenth century

عبد الرحيم أبو حنين، لميادات الريفية في سوريا 1650 - 1575

provincia. Leaderships in Syria.

Shiite emirs and ottoman authorities

The campaign against the Hamadas of Mt Lebanon 1693 - 1694.

Stefan H. Winter p. 12.

الفصل الأول

جبل عامل

يتألف لبنان الحالي من ثلاثة حبال متصلة مقابل البحر هي: جبل لبنان في الشمال، وجبل الشوف في الوسط، وجبل عامل هي الجنوب، وساحله من تخوم صيدا حتى جنوبي صور

نادراً ما تحيف باحث عاملي عرض لشؤون جبله العامة، دون أن يبدأ ذلك بتعيين حدوده، مؤكداً عليها بدقة وتفصيل واضحين، وهي تحديدات، رغم وقرتها، بأي غالباً متشابهة ومتقاربة، لا يحرج كثيراً عما ذكره الأمين في خطته⁽¹⁾ وأحمد رضا في إحدى مقالاته⁽²⁾ قال الأمين: الحد الشمالي (الجنوبي) يبدأ سهر، الصرون، الحاري من شمالي «طير شيخا، إلى البحر جنوب قرية «الريد»، والحد الشمالي يبدأ بالنهر الأولي الذي يصب في البحر شمالي صيدا، والحد «العربي» ينتهي بالبحر الأبيض المتوسط أما الحد الشرقي فهو الوادي المسمى «بعود»، والممتد إلى «نهر الفجر» في الحولة، وكذلك يمتد هذا الحد إلى قرية البصة في الكرمل،

أما الشيخ أحمد رضا فيرى أن «حدود جبل عامل، تبدأ من الشمال بمصب نهر الأولي، وتذهب صعوداً إلى الشرق شمالي قرية الرامية، ويتجاوز قرية روم من الشمال، إلى جرير، فيصم واديها وشالوقها، وجميع القرى التي كانت تابعة لها، ويقطع جبل التومات مسجداً إلى مشعرة ويتصل بنهر اللبطني من شمال سحمر ثم يذهب إلى ينبوع نهر الحاصباني، ويتجه جنوباً على مجراه وينتهي على صفة بحيرة الحولة الغربية، وينعطف غرباً جنوبي مقام النبي يوشع وشمالي الهراوي

(1) خطط جبل عامل، السيد محسن الأمين، ص 55

(2) مجلة المرحان سنة 1942

جبل عامل



ويمتد غرباً فيتبع محرى وادي فاره وينتهي عند مصب وادي القرن جنوبي قرية البصة⁽¹⁾

وكان العامليون إذا أرادوا التعريف عن حدود بلادهم قالوا «من البصة إلى جباع الحلاوة. والبصة هي القرية الحدودية التي أدى النزاع بشأنها إلى نشوب معارك عديدة بين العاملين وجيرانهم»⁽²⁾

يؤكد العاملون على أن مساحة جبلهم التاريخية لا تقل عن ثلاثة آلاف كلم² بينما مساحة الجنوب حالياً لا تتعدى حوالي ألفي كلم² أي أن ثلث جبلهم قد اقتطع في التقسيمات الإدارية الحالية وقد تعرض هذا الحبل في الواقع إلى اقتطاع قرى وأراضٍ ألحقت بإقليم الشوف ومقاطعته في فترات مختلفة، مثل حريش، وكذلك اتفاق 23 حزيران 1923، وهو الذي تعينت بموجبه الحدود بين فلسطين من ناحية، وسوريا ولبنان الكبير من ناحية أخرى، وبموجبه تدارت فرنسا المنشدة عن كامل المنطقة اللبنانية في الحولة تقريباً لصالح الانتداب البريطاني في فلسطين، ونتج عنه حسارة لبنان لعدد من قرى منها هوبش، إحدى حواضر جبل عامل التاريخية، والتي يوشع حيث لا يزال يوجد فيها قبر أحد أهم زعمائه التاريخيين وشهرهم، الشيخ ناصيف النصار.

إن حبال بني عاملة أو حمال عاملة أو حبل عامل أو حبل الحليل أو حبل الحليل أو بلاد يشاره أو البشارتين، هي كلها أسماء لبقعة من الأرض تقل فيها السهول وتكثر الجبال والأودية وتتغير حدودها تبعاً للظروف السياسية والإدارية وتقلب العصور، وهي ما تعرف في التاريخ والتراث بحبل عامل

شكل سكان جبل عامل ولا سيما في القرون الخمسة الأخيرة، وحدة متميزة واضحة المعالم ثابتة الأركان، لها خصائصها العسكرية والحضارية والاجتماعية، التي نمت نتيجة عوامل دينية ومذهبية وسياسية وعرقية مشتركة بين سكانه وأهداف وتطلعات موحدة، كما أوجدت لديهم عادات ومذهبية وأسلوب عيش وهواجس مشتركة، حتى

(1) يرى العاملون أن قرى عديدة قد سلحت عن جبل عامل مع تعاقب الأيام والأحوال بفعل التعسفي وجور الحكام ولا سيما في حريش وإقليم النعاج وحبل الريح خصوصاً بعد مقتل ناصيف ونكبة جبل عامل على يد الجزار

(2) تقع في فلسطين اليوم

(3) يضم لجنوب اليوم محافظتي الجنوب والبيضاء والمساحة عن دائرة المعارف الإسلامية الشيعية حصن الامن، ج 12 ص 25

أصبحوا هي وقت ما، مجموعة تختلف عن غيرها من المجموعات لأخرى المذهبية والمناطقية التي تحاربها أو تحالفها، إنما تتعامل معها في الحالات ككيان خاص، له مصالحه الذاتية التي تملئ عليه مواقفه مدفع من شخصية عامة ذات أبعاد مستمرة وثابتة، تتميز عن المجموعات التي تعيش إلى جوارها، وإن كانت تتشارك معها في أمور كثيرة أخرى

إن هذا الكيان الذاتي أحسن ارتباطه الوثيق بمساحة جغرافية محددة ومعينة من الأرض، يقاوم إذا انتهكت ومجموعة محدودة ومعينة من الناس، يثبته ما يثيرها ويعصبه ما يعصها، وله العديد من الخصوصيات، ولكن دائماً ضمن السياق العام للتاريخ الشامل الموحد لناقي المناطق اللسبية، وكذلك أصبح «الغير» ينظر إلى أبناء هذا «الكيان» كمجموعة متميزة تعيش على أرض محددة

من نهر لمرديس المصطفى لمر القرون لي رهط وصحب
هبالك من متاوله سبال صي جمبالا كل صي غير صي

إن هذه الخصوصيات تتداخل في سماتها وملامحها ودلالاتها، هي البوحي الثقافية والاجتماعية والسياسية حتى يصعب وضع حدود واضحة بينها، فهي بمجموعها وخصياتها وأثارها مكون أساسي ومميز لشخصية إنسانية واضحة المعالم تعيش ضمن حدود جبل عامل هي ظل قيم موحدة تتمحور حول الحرب و لتشيع والعلم.

1 - الحرب

إن مظالم الحكام التي ابتلي بها «عامليون» كسائر إخوانهم الشيعة في المقاطعات الأخرى، وأطماع حيرانيهم في الشمال في جبل الشوف، وحملاتهم المتكررة بقصد إحصاعهم أو تأديبهم كلما عصب عليهم الوالي العثماني وعارات حيرانيهم في الجنوب من العربان المعتادين على العزو والنهب، كل هذه التحديات خلقت منهم شعباً محارباً ومستعداً للقتال في أية لحظة وأوحدت عنده تقاليد وأعراقاً عسكرية، رسختها الخبرة والتجربة، وعزيرة الدفاع عن النفس في عياب أية قوة عربية حامية، أو جيش وطني محترف، وأوضاع اقتصادية لم تسمح لحكمه بالاعتماد على المرنقة والسكبان والمعاربة، كما فعل حبرانه. فلم يبق أمامه إلا الاعتماد على قدرته الذاتية، فكان أفرادهم فلاحون شيطون في حقولهم إلا أنهم يتحولون بلمح البصر إلى جنود متمرسين بشؤون التهيئة السريعة والقتال الشرس

كان إطلاق نار هو الإشارة الرسمية للتعبد والتعبير، فإذا سمعوا طلقاً نارياً في إحدى قرىهم أحابوا بإطلاق الرصاص، وتجمعهم في ذلك القرى المتصلة، حتى يمتد الصوت من جباج إلى البصة⁽¹⁾ «العاملين» من أسرع الشعوب لحمل السلاح، يعني إلى حد كسر بأساليب القتال، وتبقيتها ويولي قلاعها عناية فائقة، بقصد إعدادها للدفاع ويظل في حالة دائمة من اليقظة والحدار، فهو مستعد دوماً لحوص عمار المنايا والمناذرة للجدد وحمل السلاح لدى سماعه أول طلق ناري أو عند أية إشارة من رعمائه وقادته،⁽²⁾

إن توالي الحروب والوفائع الدامية بين العامليين، وبين حيرانيهم من مشايخ فلسطين، وأمرأه وادي التيم وئيدان، أضرم في موسهم شعلة النجدة والحمية، وباتوا حذرين متحصرين لدفع كل ملعة، حتى بلغ من شدة حذرهم في زمن الشيخ عباس المحمد⁽³⁾ في أواسط القرن الثامن عشر، إن رجلاً منهم كان قائماً على مزرعة يحرسها من الوحوش، أطلق عياراً نارياً فطن أهل القرى المحاورة أنه أطلقه مستغيثاً أو مخبراً بدخول العدو، فأجابوه بإطلاق الرصاص طلباً للنجدة، وتبعهم في ذلك أهل القرى المتصلة حتى امتد الصوت - على ما قيل - من جباج الحلاوي في سمح

(1) يقصد بهذا التعبير المتواتر جبل عامل من أقصاه إلى أقصاه.

(2) العادات والتقاليد الشيخ علي لريش ص 159 154

(3) أحد أهم رعماء المناولة في عهد دميمق انصار وسأتي ذكره مراراً في مصول لاحقة

جبل لبنان إلى قرية البصة على حدود عكا، وما انجلى عمود الصبح حتى كانت الالوف من الرجال ترد وتحتشد والمرسان مهيئة للطعان⁽¹⁾.

كانوا يترقبون الغارات والحروب في كل لحظة، ودون سابق إندار أو إعلان حرب، فكانوا مجبرين على العيش في حالة استعداد دائم. فالأعداء متمددون، وقد يعبرون بدون سب وبلا مقدمات، لذلك فالمحاربون جاهزون وتكفي إشارة واحدة، وقد تكون حاطئة أحياناً ولكن الخيل و(الزلم) لا يلزمها وقت طويل، ولا تأكيد الإشارة حتى تتحه إلى ساحة القتال

قال الركيني: «في ليلة هذا الإثنين أعني ليلة العيد، على ما شهدوا به أنه أول شوال فوصلوا المدافع في مدينة صور في وقت العشاء بعد العروب بساعتين فظنبت الناس في القرايا أنها كسبت صور فركبت الخيل و(الزلم) فظهر أن سبب ذلك أنها ما تحققت الشهادة إلا بعد العشاء فوصلوا المدافع في غير وقت رؤية الهلال ولهذا ظنبت الناس أنها كبسة»⁽²⁾.

انتشرت على هضاب جبل عامل قلاع هامة بعضها قديم مرمم، والآخر بناه أهله ومكانه، يفيم في كل منها رعيم ممدى إلى أيام السلم، بسجول في الحرب إلى قائد عسكري بقود جنوده ويشرف على تجهيزهم وتسلّتهم فكل جبل هو عندهم حصن، ومالكة إقطاعي كبير، مما جعلهم أكثر تحمراً للثورة، وجعل إحصاعهم أشد صعوبة⁽³⁾.

هذا الاستعداد الدائم للقتال والخطوف المستمر من غارات الأعداء، خلق من العاملين «شعباً بأسلاً يهرأ بالمتايا ويرى في الموت حياة خالدة تحت شعار السيوف»⁽⁴⁾. يهاقلون مجدارة واندفاع وينصرفون أيام السلم إلى شحذ السيوف وتسديد الرمي والكر على ظهور الخيل يعلمونها أولادهم منذ الصغر⁽⁵⁾.

كان لهم رايات، يرفعونها في الحروب ولماسات العامة من سيج حريري أخضر وأحمر، كتب عليها بالنسيج الأبيض ثلاثة سطور

(1) العادات والتقاليد، الشيخ علي الرين، ص 159-154

(2) جبل عامل في قرن جهد، الركيني ص 89

(3) D.D.C T4. p122 .

(4) م.م آل صما ص 82.

(5) م.م آل صما ص 83.

لا إله إلا الله محمد رسول الله
لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو المقار
نصر من الله وفتح قريب

كان لكل قرية بيرق وصنوح، يلتف أهلها حوله في أيام معلومة وعند مشاهد محددة، وريارات عامة. ومن المرجح أن هذا التقليد كان لا يزال متبعاً في بعض القرى حتى عهد قريب، وربما لم يضمحل تماماً حتى اليوم.

كانت الحصون والقلاع كثيرة ومتعددة تقوم بوظيفتها العسكرية عند الحروب، إلا أنها في أيام السلم تبقى مراكز حكم ودراسة، وميدان اجتماعات عامة وديوان مشورة كلما دعت الحاجة. وأهمها قلعة الشقيف وقلعة هوبن وقلعة شمع وقلعة دوبيه وقلعة مارون وعبرها.

كان العاملون يعتبرون الحروب من المناسبات التي تستدعي تأطيرهم واتحادهم حول العقيدة والشرف، أما العقيدة فيمثلها القرآن، وأما الشرف فيمثلته السيف وكان من عاداتهم لدى التعاقد والتحالف قبل الحرب، أو لدى الصلح بعد الخصام، أن يعاقبوا ويبحالوا على السيف والمصباح. «ذلك بأن السيف يمثل شرف القوة العسكرية لدى المحاربين، وبأن المصباح يمثل شرف القوة الروحية لدى المسلمين». فإذا صمم القادة والزعماء على الحرب دفاعاً أو هجوماً أرسلوا «الصواتين» إلى عموم القرى ليعلنوا من درى الحبال والسطوح المشرفة، الدعوة إلى ملاقات الأعداء، أما النداء المتعارف عليه، في هذه المناسبة فهو التالي: «يا أهل العيرة والمروعة، ياسياح العداري، يا حماة الديار، شدوا على الخيل واحملوا سلاحكم، سارعوا إلى لقاء الأعداء قبل أن يباغتوكم في أرضكم، ويستبيحوا أموالكم وأعراضكم ودماءكم».

ساهم هذا التراث الحربي مع تعاقد «عصور» بمهامه وتنظيمه وروحته، في ترسيخ الشعور الوجداني، بوحدة المصير حيث أن الدفاع عن هذا الجيل من «جناب إلى البصة»، هو عرض على كل قادر من أهله، وهي حروب تتميز غالباً بطابع دفاعي شامل بوجه الطامعين بإحصاعه من الجيران شمالاً وجنوباً، أو بوجه الطامعين بنهبه من ولاية الدولة وبإشارتها أو أوامرها أو رضاهم، وهذا مادعم مع عناصر أخرى، ذاتية هذا الجيل وخصوصيته، وليس كالإشتراك في صربية الدم للدفاع عن نفس أو مال أو عرض ما يشد الفرد إلى التفاني في خدمة لهدف مشترك والحما من لتحقيقه.

بدأ العامليون يظهرون كمجتمع عسكري مسلح، له تقاليد الحربية وأعرافه وأنظمته وأساليب دعوته إلى القتال واستجابه لها بعد إعلان السير العام، باتباع خطوات محددة ومعينة ومعارف عليها، بعد وصول حمر الدين المعني إلى سنحقية صيدا ثم صمد، وقيام رجاله بعزات على مختلف أنحاء جبلهم، يهدمون البوت و يصادرون الأوراق ويذهبون الأرواح، فاصطدم بحكمهم من آل علي الصغير وآل سودون وآل شكر وآل منكر، وتدخل الحراشة ليرغموا سيطرته عن صمد وبالتالي عن مقاطعات جبل عامل، واشتدت، من ذلك التاريخ تنوالت الحملات العسكرية من حيرانهم في الشوف ووادي النيم مدعومة بأوامر الباشوات ودعمهم واشتراكهم أحياناً، وتماقت هذه العزات بعد أن أصبحت صيدا بأشويه يقيم فيها والرعثماني، فاشتد إحساس العامليين بالخطر والحاجة إلى الدفاع عن النفس ومحاربة الحملات المتكررة، فتحول العلاحون في حقولهم ورجال الدين في مساحدهم، عند إعلان السير إلى حدود محاربيهم، ترسخت لديهم روح المقاومة والمواجهة، وأصبح لديهم مجموعة من القواعد والعادات التي وحدوا فيها الجمع السيل التي تتواءم مع طابعهم وأوضاعهم عند الحاجة إلى التجمع و تقال و جهدوا على أن تكون علاقتهم بولاية الأمر في صمد ثم في صيدا مقصورة على أن يدفعوا للدولة ما تعرضه عليهم من رسوم لتصرفوا بحبالهم وهي ظل رعاياهم دون تدخل من السلطة العثمانية في أمور البلاد الداخلية فلا يخصصون لحاكم غريب في ظل توليهم الحاص الأخصر والأحمر المكتوب عليه «نصر من الله وفتح قريب»⁽¹⁾

إن هذه الرسوم، التي لا تريد عن مئتين ألف قرش، على مقاطعات جبل عامل الثمانية وهي الشقيف والشومر وأقليم شحاح وجبل هوبين وجبل تبيين وساحل معركة وساحل قانا وساحل صور يؤدونها إذا رقي لهم ويرقصون دفعها إذا شاقوا تبعاً للظروف⁽²⁾

كان حكامهم بهم أرفق، وعليهم أشمق، وكان الشعي إذا سار إلى غير بلده، يسير معتزاً بقوميته، لا يحرز أحد على تحديه واحتقاره⁽³⁾.

كان كل رجل، شيخاً أو فلاحاً، يعد نفسه جدياً في أوان الحرب، فيمضي إلى

(1) تاريخ جبل عامل، آل صما، ص 105.

(2) المصدر السابق ص 105

(3) المصدر السابق ص 104

المكان الذي يعينه له الحاكم أو الرعيم احداً معه سدقية ورصاصاً وباروداً وراداً يكفيه بعض الوقت⁽¹⁾

كان كل شيخ يحدد عند الحاجة مئتين وخمسين إلى ثمانمائة رجل، يشكلون إذا اجتمعوا معاً ستة آلاف مقاتل معظمهم من لمرسان اشتهروا في كل سوريا بشجاعتهم النادرة. حصر دبلوماسي فرنسي إحدى معاركهم فقال:

«شاهدناهم يقاتلون بترتيب وبطام مما جعلهم ينتصرون على أعدائهم الذين يصفونهم عدداً»⁽²⁾.



قائد عاملي بين رجاله في القرن التاسع عشر

(1) العادات والتقاليد، علي الرين ص 157

(2) الدبلوماسي الفرنسي هو parad s في Memoires sur a syrie جبل عامل، السيف و لعلم، حسن الأمي ص 347

2 - التشيع

لم يكن التشيع عند العاملين مذهباً دينياً، يأتَمرون بأوامره ونواهيه، وينظم أمور العبادات والمعاملات بحسب، بل هو نوع من الإلتواء القومي والثقافي، وهوية تاريخية مميزة، أفرزت خصوصية ملموسة في كل مباحي حياتهم وتفكيرهم واهتماماتهم.

إنه شعور متأصل وعميق، يشد كل عامي إلى الآخر، برباط محكم وثيق ودائم، يجعل من الجميع منظومة متألفة تحس بانتمائها إلى جماعة واحدة، يدوب المرء في بوتقتها إلى حد كبير، على حساب انتماءاته الأخرى، من عائلية ومناطقية وحزبية فيصبح الجميع بنو اسم واحد، يلزمهم بمواقف معينة وتصحيات محددة تحتفي أمامها كل العصبية الأخرى وينتمي كل اسماء معاير

نتيجة لذلك، فإننا قلنا نرى في تاريخ جبل عامل، وعلى امتداد فترة رسمية طويلة، صراعات حزبية أو عائلية أو احتشادية ذات شأن كبير، كما كان الحال في معظم المناطق اللبنانية الأخرى⁽¹⁾ فليس ثمة قيمي ويمني، أو هوسى وشومري، على عرار اليربكي والجنبلاتي، بل أن الجميع هم «بنو متوال» بعوضون حروبهم، ويباشرون أمورهم تحت راية واحدة وعلى وقع صرخة حرب لا تتغير⁽²⁾.

لقد كانت الأحداث الحسام والحروب المتواصلة، تنحصر في باقي مناطق لبنان، بين أميرين متنازعين أو عائلتين متنافستين أو حربين متعاديين، أو بسبب نزاع يصنف على الاعلب تحت رمز من هذه الرموز، أما عند العاملين فهم دائماً «بنو متوال» يقاتلون ذودا عن ديرة بني متوال، و«حزب النصر» أو دل نهريمة، لا يقع على أمير أو عائلة أو حزب وإنما يعس بني متوال ويعود إليهم في الحالتين.

يا بني متوال يا ضم الرجال	اسمكم رايات عا روس الجبال
لبني متوال ظهر العاديات	من ظهور الخيل يعضون الصقال
ما يخش المير ديرتنا حرام	ولو نبت من فوق راياتو بخل ⁽³⁾

من المرجح أن لفظة «متوالي» اقتصرت في مبدأ استعمالها على أهل جبل عامل وحدهم واختصت بهم، لأن صرخة الحرب التي يهزجون بها في ميادين القتال كانت

(1) تاريخ جبل عامل، محمد جابر آل همام، ص 90

(2) «مت ولياً لعلني» كانت صرخة الحرب عند لسوة، كما كانت عند الدرور بالأمر والمروء.

(3) أبيات من قصيدة منداوبة للشاعر الصعدي «شاعة».

عندهم «مُتّ ولّياً نعليه». وهذا لقب لم يطلق على الشيعة خارج جبل عامل، إلا في وقت متأخر عندما عمم البعض استعمالها، بينما بقي آخرون يقتصرون على استعمالها على العاملين وحدهم، «وفي مطلق الأحوال فالمناولة لم تشمل في أي وقت الشيعة غير المحاربين مثل شيعة دمشق وحلب، وإنما بقيت تعني في جميع استعمالاتها الشيعة المحاربين في لبنان دون غيرهم»⁽¹⁾.

إن التشيع عند العاملين هو هويتهم الجامعة التي كانت تبرر في جميع الظروف والمناسبات، حاجة أية هوية أخرى فهم ليسوا غير المناولة، وجبل عامل هو المناولة، وأدبهم وشعرهم وأهازيجهم وأساطيرهم وأعبادهم كلها «متوالية» بامتياز.

ولابد أن يرد على الذهن أن الدور وهم يجمعون في جبل واحد تحيط بهم مداخل مغايرة، قد يلتقون مع جيرانهم المناولة في هذا الشعور المذهبي المتوقد بالإشتماء، إلا أنهم يختلفون عنهم فيما وقفوا عليه من انقسامات حزبية، تشكيلها العام والخاص، وما أدت إليه من هز وحرز، وحلمته من صفات وأحقاد كما أن التنظيم الإقطاعي الطبقي عندهم أفرز عائلات معدودة تحتكر الثروة والنمو، وتتصارع من أجل ذلك، وهو الشيء الذي لم يعرفه العاملون لأسباب كثيرة.

يحمل الشيع مكره ومذهباً في بعض الأوجه عند الشيعة العاملين، عنه عند أحوالهم هي المعتقد هي كسروان وبعليك وجبل سنان، حيث لم يخرج التشيع من اعتباره مذهباً دينياً يحدد طريقه العبادة وأصول التعمد وما يمرسه الشرع وما يحلله، مع ولاء خاص للإمام علي ودريته من الأئمة الاثني عشر.

أما عند العاملين فهو فلسفة صوفية ومبدأ شامل وحيار إلهي واسلوب تمكيز وحياة تدوب إزاء كل المبادئ والمشاعر، فتأخذ شكله، وتندمج معه، فهو في أساس كل الأمور الأخرى كما هو في نهايتها، إن الدحول في بحث حواف بعض الأمور اللاهوتية والعقائدية يمكن أن يلقي بعض الضوء على تريح التشيع في جبل عامل وبعادته.

(1) يقول الشيخ أحمد رضا أن هذا اللقب اقتص بنادين عامرو هي لهوات الحرب كسكان بلاد بشارة وبلاد كسروان أما الدين لم يخصوصها كسكان دمشق وحب فم يعرفوا لقب المناولة (شيخ أحمد رضا والمكر العامي هاجر ترحيني، ص 14) ويرى محسن الأمي أن اللقب يقتصر بشيعة جبل عامل وبعليك وجبل لبنان (حطّ جبل عامل، ص 60) بينما يرى عارف تامر أن هذا الاسم لا يشمل إلا شيعة جبل عامل دون شيعة بعليك والهزمل. وأن الشيعة تسموا بهذا الاسم عندما أظهروا وجودهم السيفي تحت قيادة آل بشار الأوائلين وتحب لواء آل حروش وآل حمادة (معجم العرق الإسلامية، عارف تامر ص 115) ويبدو من المؤكد في التقليد والتوثيق أن هذا الاسم عرف به شيعة لبنان منذ القرن السادس عشر على الأقل في شمال لبنان الحالي وجنوبه، دون أن يتعدوه إلى أي شيعي آخر في بلاد الشام.

إن جبل عامل هي عرف أهله. هو أرض التشيع المختارة التي وهبها الله لجماعة متميزين من الشيعة. اهتموا عن طريق ولي من أولياء الله، فبقيت أمانته حية ومقدسة بينهم، وهم جديرون بها ومؤتمنون عليها حتى يبالوا أحرهم في الدنيا والآخرة. إنهم شيعة أهل البيت المختارون، وحاملوا «مستهم ومحل عنايتهم ورعايتهم».

ينقل صاحب أمل الأمل «عما احتضن به جبل عامل، وما يميزه عن سائر البلاد فيقول «ما وجدته بخط بعض علمائنا ونقل أنه وجدته بخط الشهيد الأول»⁽¹⁾ نقلاً من خط ابن بابويه⁽²⁾ عن الصادق⁽³⁾ عليه السلام أنه سئل كيف يكون حال الناس في حال قيام القائم عليه السلام⁽⁴⁾ وفي حال غيبته ومن أوليائه وشيعته من المصابين منهم المتمثلين أمر أئمتهم والمقتضين لآثارهم، والاحدين بأقوالهم؟ قال عليه السلام: بلدة بالشام. قيل: يا ابن رسول الله إن أعمال الشام متسعة قال بلدة بأعمال الشميف أربون ونيوت ورنوع تعرف بسو حل البحار وأوطئة الحبال. قيل يا ابن رسول الله هؤلاء شيعتكم؟ قال عليه السلام: هؤلاء شيعنا حصاً، وهم أنصارنا وإخواننا والمواسون لعربينا والحافظون لمرنا، والذين قلوبهم لنا والماسية قلوبهم على أعدائنا، وهم كسكان السمنية في حال غيبتنا، نمحل البلاد دون بلادهم، ولا يصابون بالصواعق، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعرفون حقوق الله ويساوون بين إخوانهم، أولئك المرحومون المغفور لحياتهم وميتهم وذكرهم وأمنائهم، ولأسودهم وأبيضهم وخزهم وعبدتهم وأن قلوبهم راحلاً ينتظرون، والله يحب المنتظرين»⁽⁵⁾.

يصر العامليون منذ القرون لاسلامية لأولي على أمرين ويولونهما أهمية بالغة هما إن الصحابي أبا در العماري هو الذي نشر التشيع في حلهم، كما أنهم أسبق الناس إلى هذه الهداية

يؤكد العامليون على أن الثالث عندهم أن أبا در هو الذي نشر التشيع في بلادهم وهم يتناقضون ذلك خلافاً عن سلب، ويمسمون أنفسهم شيعة أبي در ويتركون هذه التسمية ويقيمون بها⁽⁶⁾

(1) الشهيد الأول هو شمس الدين محمد بن مكّي الجريسي وقد ورد ذكره في مواضع أخرى.

(2) عالم شيعي صاحب «من لا يحضره الفقيه» أحد كتب الشيعة المعتمدة في الحديث.

(3) هو الإمام السادس.

(4) الإمام الثاني عشر المنتظر، محمد ابن الحسن (المهدي).

(5) «أمل الأمل» القسم الأول ص 15-16 وهو حديث حي في التوحيد العاملي دون النظر إلى مدى صحته نسبته إلى الإمام السادس وفقه المذهب الأول.

(6) صفحات من تاريخ جبل عامل، مدير حابر، ص 102.

إن أبا در من أكثر الشخصيات اثارة للجدل في التاريخ الاسلامي ومن أقدمهم في التراث الشيعي إنه من أوائل الصحابة ومن الأربعة الذين بدخلون الجنة بدون استئذان، وهو من أول من واثوا الامام علي و أحد الأربعة الذين أسمعوا التشيع. كان عدواً لدوداً للأمميين، نادى بأفكار إصلاحية اشتراكية متطرفة بمقاييس ذلك العصر، فدفع حياته دونهما معبداً معنياً، وله اعتبار خاص لدى الكثير من المذاهب الاسلامية الاخرى.

« ما أظلم العبراء ولا أقلت الخصرء أصدق لهجة من أبي در » جبل التقليد العاملي، المتوارث لأبي در مقامين في الصرخند وميس الحمل، حيث بث دعوته لنصرة الامام علي والتشيع له. بعد أن نهاه لحزيمة عثمان بسعاية من معاوية واليه على الشام. فانسحاب له العامليون وآمنوا بدعوته ولا ير نون حتى اليوم

كذلك يتسابق العامليون على اعتبار أنفسهم أول من اعتنق التشيع، حتى قبل أن يبايع الامام علي بالحلافة هي المدينة بعد مقتل عثمان

«إن تشيع العامليين أقدم من تشيع غيرهم ولم يسبقهم إلا جماعة محصورون من أهل المدينة، وقد كان ايضاً في مكة والطائف واليمن والعراق والعجم شيعة قليلون وكان أكثر الشيعة في ذلك الوقت هم أهل جبل عامل»

«إن التشيع في بلاد الشام هو أقدم منه في كل البلاد غير الحجاز وأن الشيعة في جبل عامل هي أقدم منها في العجم بل لقد كان لتثبيت دعائم التشيع في ايران يد لابناء جبل عامل بما اشرف من علمائه في تلك الديار»⁽¹⁾

١٨ كانت العقيدة هي محور التاريخ والترث كما تناقلها العامليون منذ بداية مسيرتهم المبررة ومن أولى شخصياتهم التاريخية لمهمة الشهيد الأول شمس الدين محمد ابن مكي الجريفي الذي قادهم إلى الطريق القويم وأعاد إلى المذهب صمائه وحارب المعتقدات والبدع. وقد قاد من أجل ذلك معركة الشهداء التي حرت في النبطية الفوقاً ضد الحارحين على المذهب، ومنهم الشيخ محمد البالوشي، منهم بالشعوذة وادعاء النبوة، وانتصر عليه، وحاولت حريين أن تحرك الشيعة في مختلف المناطق إلا أن نائب الشام بيدر الخوارزمي وضع حداً لهذه الثورة باعتقال قائدها وإعدامه سنة 1384م فكان الشهيد الأول في قافلة طويلة ممن يستشهدون مثله دهاعاً عن التشيع ودوداً عن سلامة مبادئه⁽²⁾.

(1) حديث شريف مثبت عند الشيعة

(2) حطط جبل عامل، محسن لامي ص 71

(3) تاريخ لبنان، محمد مكي ص 253.

هي هذه المرحلة المبكرة كانت الرعممة لرجال الدين، كما كان الشهداء منهم والمعارك التي يحوضونها دينية الطابع والاهداف ونتائج، إلا أن دخول العثمانيين وما أعقبه من تطورات إدارية وتشريعية، واعتماد نظام الملة والطائفة والصدامات التي توالى مع حيرائهم في حل الشوف أو مع لولاة معثلي السلطة، فرصت تسليم القيادة إلى مدنيين يملكون خبرة أكثر في أمور السياسة والحروب، فلم تعد المعارك تنشب لتقويم مبادئ المذهب والعودة بها إلى الطريق السليم دون أي هدف آخر

إن دور السياسة والاطماع التي تستهدف حرية العاملين واعتزازهم واستقلال حبيلهم قد أصبحت هي الخطر الطاعي، سقطوا يقاتلون دائماً كشيعه وانما، هذه المرة، للدفاع عن ارضهم وليس عن سلامة واستقامة معتقدتهم بحسب. لقد أصبحوا متاوله يقاتلون دروراً وبصارى واكراداً وعثمانيين .

شي درور وشي يهود وشي صنوف

وشي بصارى وشي كراد وشي مثل⁽¹⁾

شعروا بوجودهم احيرا، كهمنة مستهدفة من غيرها من الجماعات الاخرى إيلهم هم المهددون هذه المرة وليس المعتقد وسلامة مبادئه، وان واحيلهم كرهبا متصوفين هو الدفاع عن المجموعه كلها لأن هذا الدفاع في نهاية هو لصالح المعتقد وهو الذي يمرسه الواجب الشرعي على الجميع

أصبح لهم عدو آخر يرونه ويمررون مطمعه، غير أعداء الإمام ودريته وأهل بيته، لم يعد رجال الدين وحدهم القادة المديون وعسكريون، وان احتفظوا بمكانتهم الروحية الرفيعة، فقد ظهر بينهم رعاء تاريخيون يسرون بهم إلى ساحات الوعي وصار لهم شعراء وزجالون يفاحرون بمآثرهم ويمدون منحراتهم ويهاجمون أخصائهم. وبعد الشهيد الأول والثاني، اللدين كانا من رجال الدين، جاء دور الشهيد الثالث فكان رعيماً قومياً وقبلياً هر استشهاده الوجدان العام لعاملين فحزن عليه عامتهم ورثاه شعراؤهم وصار له في تراث جبل عامل حساب⁽²⁾

من هنا كان التشيع من العناصر الهامة التي ساعدت في ابراز الشخصية العاملة

(1) من قصيدة معروفة للشاعر المسلميني شاعه بن مريخ

(2) ناصيف البصار، معركة يارون، 1781م

وعزرت وحوودها إلى جانب المجموعات اللسانية الأخرى ورسمت لها دوراً وحيراً لا يمكن تجاهله في تطور التاريخ العام لهذا البلد.

يبقى لنا أن نصع المفهوم العاملي المتوارث للتاريخ جانياً ونتجاوز ما فيه من صوفية وقدسية تجعله أقرب إلى الإعتقادات الإيمانية منه إلى الحقائق التاريخية الموضوعية المحددة وتربطه بالقياسات على حساب المصادر والمرجع المادية المقنعة، وننظر إلى جبل عامل من خارج حدوده وسكانه، لنعرف من هم العامليون ومتى انتشر التشيع بينهم.

يكاد يجمع المؤرخون العامليون، ولاسيما المتأخرون منهم على أنهم عرب، أقحاح ينتمون إلى حي من اليمن وهو عاملة بن ساء، حرحوا إلى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل عرف بحبل عاملة.

لا شك أن في هذا الرأي بعض لصحة وقد قال به مؤرخون من غير العامليين فقد ذكر أبو الصداء في المختصر «أما بنو عاملة فهم أيضاً من القبائل اليمنية التي خرجت إلى الشام بعد سيل العرم ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل هناك يعرف بحبل عاملة»⁽¹⁾

وهي هجاء بعضهم لعدي بن الرقاع العاملي الشاعر ما يدل على جهة ديار عاملة في أرض الشام إذ يقول

ولسنا نبالي بأي عاملة التي

أجبرتها عن أرض بصرى انحدارها

أي التي أسرع انحدارها عن أرض بصرى، وجبال عاملة منحدره عن أرض بصرى إلى الغرب حتى شاطئ البحر. إن هذا الأمر يشير بوصوح إلى أنه يجب أن تعد بني عاملة من أسلاف متاولة لبنان⁽²⁾ إلا أنه لا يمكن أن نسلم أن بني عاملة ينتمون إلى قبيلة واحدة، أو شعب واحد، بعد كل ما مر في هذه تقرون الطويلة من حوادث وحروب وفتوحات وهجرات. وأن الإدعاء بوحدة العرق والدم والنسب هي حير جغرافي مفتوح ومستهدف هو وهم ساذج ولكن هناك أكثر من دليل على وجود العنصر العربي في جبل عامل، في عصر قديم سابق للمتح الاسلامي.

(1) حطط جبل عامل، الامين، ص 45

(2) الحركة المكية ولادية في جبل عامل، محمد كاظم مكي (عن لامس)، ص 16.

ذكر الدكتور اسد رستم في مقال له «الاسكندر الكبير اد تعدهنه صور وصمدت هي وجهه واضطر أن يحاصرها حصاراً طويلاً احب في يوم من أيام الحصار أن يروح عن النص برحلة صيد قصيره فقام من صواحي صور ممتطياً جواده واتجه شرقاً متسلقاً جوباً وتبين فوجد بمسه فحاة بين قوم من العرب هكذا يقول أريافوس أقدم من أرخ للاسكندر وأقربهم اليه زماناً» .

يحدثنا التاريخ عن هجرة أخرى إلى جبل عامل في سنة (85 ق م) ، فقد قدم الانباط من جنوبي الاردن، حيث أسسوا هناك دولة الأنباط وخلقوا في المكان الذي تقوم عليه اليوم مدينة البتة، التي لا بد انهم قد أعطوها اسمها، كما يدل على ذلك واقع الحال وقد حكموا حسب لسان واشتهروا بأعمال الري والحرف والملاحة، وبظراً لشهرتهم وانتشارهم فقد عمم العرب اسم الانباط على مجموعة السكان القديمة فحملوا كل وطني بطنياً، وبعد أن امتزج المهاجرون بالسكان الأصليين من بقايا الشعوب السامية كالفينيقيين والكنعانيين، جاء دور الهجرة الفارسية، التي أعقبت حروبهم مع البيرطيين و سنوطيت أعداء منهم جبل عامل فبيل المتح الاسلامي بمدة قصيرة

ونمضي السنون خلال المهددين الأموي و لعباسي ولا شيء يعبر تاريخ جبل عامل عن غيره سوى لمكر والشمر والادب، وحلاف ذلك لا يطمح في أن يحد له ملامح خاصة أو تأثيراً بارزاً في أحداث تلك الفترة

من الطيبي أن يحصل تمارح عرقي هدم في جبل عامل نتيجة لحروب الصليبية وما أعقبها من احتلال بين سكانه والصليبيين، وما فرض الاحتلال والحوار الجغرافي من احتكاك وتعامل على الأصعدة الادارية والاجتماعية والإقتصادية خلال عقود من الزمن حصر الرحالة ابن جبير عرساً صيبياً في صور اشرك في إحيائه المسلمون من أهل المدينة كما، مرّ في تبين وترك بطباعه عنها «رحلنا من تبين دمرها الله سحر يوم الاثنين وطريقاً كله على صبيح متصلة وعمائر مستظمة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه نعود بالله من المنة»⁽¹⁾

حصل التزاوج بين سكان جبل عامل و نصليبيين نتيجة العرو والسبي وبيع الرقيق

(1) د م ر ش. حسن الامير ج 12 ص 29.

(2) رحلة ابن جبير، ص 274 - 278.

الذي يعقب المعارك عادة، كما ان المماليك بدعوا أعداء صحة من النساء والأولاد للمسلمين بعد انتهاء الحرب وهناك اعداد من السكان غير المحاربين بقيت في هذه البلاد ثم تحولت هذه الجاليات الصيبية مع الزمن إلى مذهب الشيعة المسيطر هناك ومع الوقت استعربوا وتشبعوا ودابوا في بوتقة لاقليم، بالرغم من بقاء ملامح السحنة الأوروبية، ولا بد ان تواحداً دام قريين من الزمن لا بد ان يترك ملامح بارزة على جبل عامل في جميع الحقول⁽¹⁾

لم تبدأ الرعامات الدينية، والأسر العامية الحاكمة من بعدها، بالظهور إلا في العهد المملوكي كني صبح وبني شارة وقد جمعتهم علاقات وثيقة برجال الدين كالعلاقة التي كانت قائمة بين احد مجتهدي الشيعة وهو إبراهيم الكعمي وأمير من أمراء ذلك الزمن هو الأمير نجم الدين شارة

ولابد ان الهجرات العردية لم تتوقف عن التدفق طيلة هذه الفترة بسبب حور المماليك على الأهالي، من جهة، وموقع جبل عامل لجغرافيا المطل على البحر في منطقة متوسطة وممهدة سبيلها عن عين السبضة ومر كرها العسكرية من جهة أخرى بالإصافه إلى الشعور المعادي للمماليك الذي كان سائداً في هذه البلاد الذي تعرضت لمثل ماتعرض له غيرها من مناطق لبنان من تعاقب الدول والمناحين إلى تعدد الهجرات والسقالات، كما استقبل الهاربين ومارحين الباحثين عن ملجأ أمين أو معيشي لم يتيسر لهم في أماكن تواجدهم لأولى كما فعل العاملون منهم في ظروف مشابهة ومماثلة

إن سكان هذا الجبل لا بد أنهم مزيج من شعوب مختلفة عرب وساميون وهرس وبيزنطيون وصليبيون، وكثير من الشعوب الأخرى عاشوا في بقعة أرض واحدة فاختلطوا وامتزجوا وتراوحوا حتى كبروا، مع تعاقب لعصور، مجموعة متجاسمة من البشر يحملون تراثاً وتاريخاً ومعتقدات وحضارة وطريقة عيش وأسلوب حياة واحدة تعايشوا في ظل قيم إنسانية ودينية مشتركة وعلى هذا الحال وحدهم العثمانيون عندما احتلوا هذه البلاد.

إن التقصي عن مبدأ تشيع العاميين يقود الكثير من أهميته عندما نحرده من

(1) تاريخ لبنان، مكي ص 206

محتواه الرسولي المتصوف. كان معظم سكان لبنان من الشيعة في وقت ما، وكذلك المناطق المجاورة لجبل عامل كالحليل وطبريا و لقدس، بل حتى دمشق نفسها، فلماذا يشذ اهالي هذا الجبل عما اعتنقه محيطهم لقد أصبحوا شيعة في الوقت الذي أصبحت فيه كسروان وطرانس و لنقاع وصيدا وسائر المناطق شيعية، وعالياً في المنة البويهية والعباسية المتأخرة، قبل أن يصبح التشيع مذهب السلطة الحاكمة و يعم أيام الماطميين. وربما من الأحدى تاريخياً لتساؤل عن كيمية محاظلة العاملين على تشيعهم في الوقت الذي احتضى هذا المذهب من حصونه القديمة كطرانس وكسروان وغيرها.

أما إقامة أبي در في ربوع جبل عامل، سوء كانت حفيمة أو أسطورة هلا تعدو كونها إيماناً وجدانياً من تراث التشيع في جبل عامل واعتقاداً شعبياً محبباً إلى بنيه

إن احتماظ العاملين بتشيعهم، رغم تبدل الظروف وحصوع بلادهم لحكام معادين لهذا المذهب، يعود إلى أسباب عديدة، بعضها يتعلق بهم، والآخر بموقع بلادهم الجغرافي أو بالظروف السياسية والعسكرية العامة التي أحاطت بها وأبرزها

أولاً - في صراعهم مع الصليبيين دمر المماليك معظم مدن الساحل السوري، وحصوا على سكانها قتلاً وتشريداً، هكيت مدمرة مدة طويلة حالية من السكان، بعد أن فرغت من أهلها الشيعة، واستمر المماليك في مراقبتها خوفاً من عودة أعدائهم، وأسكنوا فيها جماعات موالية لهم، من السنة، كما فعلوا في القسم الشمالي من الساحل اللبناني، وتركوا المناطق الجبلية على حالها لعدم أهميتها الإستراتيجية والعسكرية السكانية التي أعقبت انهزام للصليبيين.

ثانياً - لم يتأثر الوجود الشيعي سلباً تحت الحكم الصليبي إذ حافظ الشيعة في معظم الأحوال على علاقات واقعية معهم وصلت أحياناً إلى حد التحالف والقتال إلى جانبهم، كما حصل في معركة بانياس (552 هـ - 1157م)⁽¹⁾

ثالثاً - إن عدم وجود مدن كبيرة في جبل عامل يمكن أن تكون مراكر حكم لمثلي

(1) تاريخ لبنان، مكّي ص 153 نقلاً عن الفلاسي، حوادث 552 هـ

السلطة وولاتها، سواء كانوا من الرنكيين أو المالكين أو العثمانيين، أبضه بعيداً عن مراقبة ولاية الأمر وعن تناول بطشهم في آن معاً.

رابعاً - لم يهتم المالك، ولا العثمانيون بعدهم في مراقبة الحبال البعيدة عن الحواضر والعواصم، والاهتمام بمداهب أهلها، كما حصل في المدن الكبيرة، حيث عمدت السلطات عند القبض على أحد الشيعة الأثري من خارج لمدينة إلى قتله والتفكيك به⁽¹⁾.

والواقع أن المدن الساحلية كصيدا وصور قد حلت تماماً من الشيعة حتى أعيد بناء صور المدمرة مرة أخرى تحت حكم الشيعة وبأيديهم.

خامساً - إن تعلق شيعة جبل عامل الشديد بمداهبهم، وانتشار العلم والمعرفة بينهم، حصنت هذا المذهب من الصلالات والمذائعات والعلو وليس كالعلم يحفظ المكر ويبقي من محاطر الإبرلاق ويحد من استنارة المخالفين والمتأولين.

سادساً - مع كل هذه الأسباب، لم تسلم بعض أحرار جبل عامل من القضاء على الشيع فيها كما حصل لأهم حواضره العلمية والسياسية، وهي حريز، والمنطقة المحيطة بها التي اهرعت في عهد العثمانيين، من أي وجود شيعي فيها، بعد أن كانت هي وقت ما من أهم عواصم الشيعة العلمية والسياسية.

سابعاً - لعب صمود العاملين دوراً مهماً في الحفاظ على عقيدتهم وتوابعهم، وتعرضوا من أجل ذلك، لأقسى أنواع التفكيك والاصطهاد والتشريد، كما حصل عند النكبة التي أوقعها بهم أحمد الجزار فشتتهم خارج ديارهم ولكنهم استمروا في المقاومة والصمود حتى عادوا إلى بلادهم من جديد ولا يزال لعامليون كما كان شأنهم قديماً، يصحرون باعزاز بأنهم أول من اتبع هذا المذهب وآخر من يصرط فيه.

(1) أعلام النوري ابن طولون ص 280.

3 - العلم

مع دخول العثمانيين ارداد تدهور العلوم والآداب، وعرف بلاد الشام عصراً من الجهل والتأخر، طاول معظم مظاهر الحياة الفكرية فيها، وسيطر الحمود والتقليد والخرافات على عقول الناس وتلاشت روح الابتكار والبحث والنفض للمعرفة والصواب، وساد التعصب الديني والمذهبي في جميع الميادين، مما انعكس تشريعات ومراسيم وتدابير قاسية على كل محالف، لما تراء السلطة وجمهورها.

«بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع الهجري، وهو الخامس عشر ميلادي، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملاً عالياً عظيماً، أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم وكثر فيه الجماعون والمختصرون وفتاحون من المؤلفين، والسبب أن حكومه المماليك، كانت تشتت في إرهاق المتعلمة و لمتهمه على غير الأصول المتعارف عليها الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، فكان المحالف يعزر والقتل أيسر مراتب التعزير عندهم

ثم راد انحطاط العلم في القرن العاشر فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف هي هذه الديار أما القرن الحادي عشر فشبه بالبه وسائمه من حيث قلة الإبداع والتعدد ثم دخل القرن الثاني عشر ولا تحديد فيه، ولا جديد إلا البطر هي قصايا قديمه لاكتها الألس لا إبداع فيها ولا اختراع، " لا أن واحدة حصراء بدت في وسط هذه الصحراء المحنة القاحلة. إذ أن النهضة العلمية والفكرية والأدبية، حافظت في جيل عامل على ديمومتها وتنقيها، وتبعث مسيرتها نحو التقدم فحفظت للإسلام وللعمرية وللأدب والشعر مكانة لائقة، وكأنها حريرة نور هي بحر من الظلمات

إن هذه الظاهرة سنوحت التوقف عندها لتحليلها ودراستها والتقصي عن أسبابها وعناصرها. إذ أنه لا بد من التساؤل كيف يمكن لهذه المنطقة البعيدة عن الحواضر والعواصم والمدن، أن تنفرد بهضة فكرية عن محيطها الواسع صاحب التراث القديم وحاضن المراكز الكبرى التي طالما كانت قبة أهل الفكر والعلم والأدب

قامت نهضة علمية في جيل عامل تفاوت معظم المجالات المعروفة في ذلك العصر، من مصنعات وأبحاث ومدارس وعلام، تجاوزت شهرتهما وتأثيرهما بلاد الشام، إلى

(1) حطط الشام محمد كرد علي ج 4 ص 51

غيرها من أمهات المدن والأمصار في العراق ويران والهند حيث أصبح جبل عامل في اعتبار الجميع منبت الفئة الحيرة من رجال الدين وعلماء المعيدة وأساطين الفلسفة والشعر والأدب.

يقول صاحب أمل الآمل بأن من فوائد وضع كتابه كثرة من خرج من جبل عامل من العلماء والمصلين والصلحاء وأرباب الكمال. ولا يكاد يوجد من أهل بلاد أخرى من علماء الإمامية أكثر منهم ولا أحسن تأليفاً وتصميماً. ولقد أكثر مدحهم والثناء عليهم القاضي نور الله في مجالس المؤمنين وذكر أنه ما في قرية هناك إلا وقد خرج منها جماعة من علماء الإمامية وفقهائها.

سمعت من بعض شيوخنا، أنه اجتمع في جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون محدثاً، وأن عدد علمائهم يقارب خمس عدد علماء المتأخرين وكذا مؤلفاتهم بالنسبة إلى مؤلفات الباقيين مع أن بلادهم بالنسبة إلى باقي البلدان أقل من عشر العشر⁽¹⁾.

لقد هاق عدد العلماء ما يمكن أن يستوعبه هذا الجبل فابتلقوا هي أرحاء المعمورة، يشيرون علومهم ومعارفهم حيث حلوا بعد أن سببهم شهرتهم، ويسامع الناس بمرارة علمهم ووهرة مداركهم.

طرق هؤلاء العلماء معظم الأعراس العلمية والدينية والشعرية التي كانت معروفة في عصر الازدهار الإسلامي، كالعلوم مثل لجم والهندسة والطب، والعلوم العقلية من فلسفة ومنطق وعقائد ولم يغفروا التاريخ والسير والتراجم والأمثال، بالإضافة إلى العلوم الدينية على اختلاف أنواعها وكذلك عم اللغة من نحو وبلاغة وبيان. أما الشعر عندهم فقد تعرض أيضاً لمختلف الأبواب من مدح وهجاء ورثاء وحين وحماسة وفخر، حتى أن جبل عامل وبعض قلاع رعماله، صارت محط انظار ومقصد الشعراء القادمين من البلدان العربية المجاورة كالعراق وفلسطين والشام⁽²⁾.

لما كان، ولا يزال، باب الإحتواء مفتوحاً في المذهب الحميري، بخلاف المذاهب المقهية الإسلامية الأخرى، مما يحتم على رجل الدين البقاء على تواصل مع ما يستجد من أحكام شرعية وإفتاء وتفسيرات، تواكب ما يمرض على المؤمنين من مظاهر الحياة

(1) أمل الآمل، القسم الأول ص 15

(2) جبل عامل في التاريخ، لفتية، ص 440 - 442

وإشكالاتها وتشعباتها، وما يطرأ بشأنها من مسائل وأصول تستدعي درجة متقدمة من الإطلاع على فروض الدين، والأهنية لتفسيرها واستنباط الأحكام الشرعية حسب مقتضاها، ولما كان من واجب المؤمن الشيعي أن يجد له مقلداً من أهل الدراية والعلم ليستعين به في أموره الدينية وما يليس عليه من لأوامر ونواهي والحلال والحرام والتقيد بأصول الدين وهروعه ولما كان من أهم لمروض الديني عند الإمامية، هو القيام بريارة العتبات المقدسة في العراق وإيران، وخصوصاً مشاهد الأئمة في النجف وكربلاء ومشهد حيث توجد بجوارها أهم مراكز العلم ومدارسه وجامعاته وأساتذته في العالم الشيعي بأسره، كان من الطبيعي أن يتوصل سيل الحجاج العاملين إلى هذه الأماكن سواء لطلب العلم أو طلب الأجر أو لإثنين معاً.

ومهما كان السمر إلى هذه الأماكن المقدسة في نظر العامل شاقاً وعسيراً ومكثماً، ورويه صعوبات حمراية ومادية وسياسية أحياناً، فقد تحطأها بإصرار وعزم تدفعه إلى ذلك رغبة، وإرادة لا تقاوم لريارة الأئمة ولتروء من رادهم العلمي والديني، تحركه حماسه دينيه مددفة وعزم لا يمتد ولا يلبس كل ذلك أوجد حركة دائمة في الاتجاهين بين حل عامل والمشاهد الشيعية، لم يقطع بينها نقل الأشخاص والأفكار والمصنعات والنوحيات والرسائل والتمتوى، مع المصاعير للتحق أو الدراسة أو الامتدنى بعد المراع من تأديه الواجب المقدس

وربما ساهم سوء الحال وظلم لحكام وطب الأمان والمعاش في دفع بحية الناس إلى هجر ديارهم فاحساروا البلاد التي لهم فيها أرب آخر، اقتصادياً أو دينياً أو ثقافياً

يقول الشيخ الحالدي النصفدي في مقدمة تاريخه عن البلاد الصمدية، وحيل عامل هي مقدمة المعادين منها

إن البلاد الصمدية كانت قد درست بمواصف المحن معانها لما استراها من ظلام الظلم والخور، بحيث صارت لا تقدر على القيام على سوقها لخرب ربوعها ودورها وسوقها وعادت نسباً منسياً وتسحت عليها عاكب الهجران وابتلى غالب أهلها بخلاء الأوطان ورحل كل منهم إلى ممكة ولم يبال بأي مكان سكن وتغربوا عن الأهل والأوطان،⁽¹⁾

إن هذه التواصيات الدينية والعلمية أعطت ثمارها في وقت ما، فأوجدت حالة

(1) تاريخ الصمدية، ص 2-1

علمية ناشطة تعدد فيها العلماء حريجو مكر الدراسة الكرى هي العالم الشيعي، وانتشرت أفكارهم وفتاواهم ومصنفاتهم هي أنحاء الحبل عموما. ولما كانت واحيات رجل الدين الشيعي لا تنحصر في الأمور الدينية البحتة، بل تنعدها إلى المشاركة في أمور الدنيا العامة فقد ساهموا في سائر الأمور السياسية والاجتماعية، بالمشاركة فيها أو بتوجيه العامة نحو ما يرويه صلاحاً لاساس في أمورهم وفلاحاً للمؤمنين في أحوالهم، سيما وأن هذه الطبقة الدينية المنتجة، كنت تتمتع بتقدير واحترام بالعين، ليس في أوساط العامة فحسب، بل عند أهل لحكم والقيادة وسائر الناس على اختلاف مستوياتهم ومشاربهم

لقد اكتسب رجال الدين، لا سيما من شتهر منهم بسعة العلم وكثرة المقلدين نفوذاً سياسياً ودينيّاً هي ان واحد شكل يصعب الفصل بينهما حتى قام بعضهم، ولا سيما هي المراحل الاولى من تاريخ حبل عامل بقيادة حركات أخلاقية دسنة وسياسية، كان السبب حلالها هي خدمة الشرع، مما ترك أثرأ بالغ الدلالة والخصوصية، هي تاريخ هذا الحبل وشخصيته العامة. فقد كانت المصلحة العليا والكلمة، لأحصرة لهؤلاء العلماء ليس في أمور العبادات والأحكام فحسب بل في سائر أوجه لنشاطات الإنسانية

إن هذه الاندفاعة نحو العلوم المعتمدة هي هذا العصر، وليس العلوم الدينية وحدها، كرسست حبل عامل، ليس كحاصرة عمية مهمة وشهيرة فحسب، بل كجامعة ترعد العالم الإسلامي، وخصوصاً الشيعي، بأعداد مبريدة من رجالها، فينتشرون في كل أرجاء العالم الاسلامي كقصاة ومفتين ومهندسين وسياسيين وأصحاب فكر بير ومتقدم، ومواهب تفتح أمامها مختلف أنواع المناصب وبلغت حركة الإعتراب أوجها في القرنين السادس والسابع عشر للميلاد وتركزت خصوصاً في الكوفة والنجف ولحلة في العراق وفي أصفهان وحراسان وطوس في إيران كما وصلب إلى الاهواز وحيدر آباد والهند، ومنهم الحابوتي الذي وصل لرتبه صدر أعظم في الهند كما يقول السيد محسن الأمين في «أعيان الشيعة» وبواصل العلماء مع ملوكها ووصل أكثر من واحد منهم إلى رتبة الوزارة والرئاسة كما وصل آخرون إلى مكة ومكة ومصر ودمشق حيث تبادلوا المعارف والتدروس مع علماء هذه الأمصار.

ولكن وتيرة هذا النروع إلى الانتقال ترجع عندما ساءت الأحوال الأمنية هي ديار الإغتراب، وانتشرت المدارس هي حواصر حبل عامل وقراها واكتظت بطلاب العلم.

حيث وصل عددهم في أكثر من واحدة منها إلى أربعماية طالب، يأخذون العلم عن أساتذة أعلام، طبقت شهرتهم الافاق لعمدة وهم حتى اليوم، يعتبرون من أهم فقهاء الشيعة وأعلامها، ولاتزال مؤلفاتهم موضع اهتمام في جميع أرجاء العالم الشيعي

انتشرت المدارس في أنحاء جبل عامل نتيجة وفرة الأساتذة والعلماء الذين تخرجوا من الجامعات الكبرى في العراق وإيران وكذلك لإتحاء العام لطلب العلم عند عامة العاملين وبرعتهم النظرية المتأثرة بالجو العام لسائد فكانت أهم هذه المدارس هي مدرسة جزيين ومدرسة ميس الحبل ومدرسة شقرا⁽¹⁾ ساهم حريجوها في دفع النهضة العلمية ونشر التعليم خارج جبل عامل وكانت هذه المدارس تدرس علوم البيان والبلاغة والبدیع وعلم الكلام، فسيه الجوهر والمروص، وعلم الحساب وحق الأدب والشعر، بالإضافة طبعاً إلى العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير⁽²⁾

كانت الجهود متواصلة لإيصال المعرفة بشكل سهل التناول، وسير الصهم، إلى أكبر عدد ممكن من طلابها وقد وضع الشهيد الثاني كتاباً في التربية أسماء ومنية المريد في اداب المعبد والمستعبد، تناول فيه واجبات المعلم والمعلم⁽³⁾

كان جبل عامل بالعمل نقطة مصيئة وسط طلام عمّ بلاد الشام وسائر العالم الإسلامي، في القرون الوسطى، وواحة محروقة وعمى في صحراء شاسعة من التخلف والجهل والتقليد⁽⁴⁾

في القرن الأول من الوجود العثماني كان جميع سكان جبل عامل من الشيعة ولم يكن فيه درزي أو سني واحد ومن أصل مائة وسير بلدة وقرية وردت في الدفتر بامة العثماني كان هناك قرية واحدة يعيش فيها أقلية من نصارى مارون - وباقي السكان جميعهم من الشيعة.

(1) الحركة الفكرية والادبية في جبل عامل محمد كاظم مكي ص 39.

(2) المصدر السابق ص 40.

(3) ترجم أمل الأمل مائة وثلاثة وأربعين علماً في سمرقند سبع عشر هاجر منهم متون إلى إيران وواحد وثلاثون إلى أقطار أخرى (العراق - الحجاز - اليمن - الهند) وسبعة هاجروا وعادوا والناجون وهم خمسة وأربعون علماً لم يهاجروا من بلادهم الهجرة العاصية جعفر المهاجر، ص 79

الفصل الثاني

بعلبك والبقاع

يطلق اسم بلاد بعلبك على جميع القرى الواقعة بين سلسلتي جبال لبنان، في سهل البقاع، حيث تقع مدينة بعلبك في وسطه وهي عاصمته، والمدينة الوحيدة فيه وتمتد إلى الشمال حتى قرىتي رأس بعلبك والقعق المسبختين، وهما آخر بلاد بعلبك على تحوم منطمة حمص، وإلى الغرب عند منبع العاصي الذي يفصلها عن منطقة الهرمل، التي كانت تاريخياً من أراضي جبل لبنان، وبقيت من ضمنه حتى أيام المتصرفية أما إلى الجنوب فلم يكن حدودها ناسئة في مختلف العصور، وإن كان طريق بيروت دمشق القديم، والذي بقي هو نفسه حتى اليوم، هو خط الأكثر بروزاً رغم أن بلدة مشعره من ناحية الغرب كانت تشكل في بعض الأحيان فاصلاً ومعبراً في آن واحد، بين طرهي الصوم الشيعي في بلاد بعلبك وحبل عامل⁽¹⁾

كانت بعلبك في العصور القديمة مدينة كبيرة وحاصرة دين وحكم وإدارة، حتى فتحها العرب صلحاً على الأراجح. وكان سكناها عرب وهرس وروم وقبط كما يفيد أماكن أبو عبيدة لهم.

بقيت بعلبك دار حكم وإمارة ومركز نيابة في ظل مختلف الدول الإسلامية المتعاقبة حتى أيام الأيوبيين والمماليك، وكانت مركزاً عسكرياً مهماً، يطلق منها المسلمون في حروبهم مع الصليبيين والمغول كما كانت حينها من أهم المراكز العلمية والتجارية، انتشر فيها التعليم والعلماء وتعددت المدارس ورها العمران مما لا يزال يمكن مشاهدة آثاره حتى اليوم، تلك العهود الذهبية ذاب الازدهار العلمي الذي أصبحت به الديار

(1) بيت سمائل كثيرة، كمال صليبي، ص 165

البعلبكية كبرى العواصم الإسلامية بمصل العلماء الأعلام وأساطير الأئمة والعقهاء العظام،⁽¹⁾

وعبر عن أهميتها القلقشندي بوصفها بأنها محتصرة من دمشق في كمال محاسنها، وحسن بياها وترتيبها وبها المساجد والمدارس والربط والخوانق والروايا⁽²⁾.

زارها ابن بطوطة، وقال إنها حسنة مدعة من أطيب مدن الشام وتساوي دمشق في خيراتها المتناهية، وقد عدد بعض صناعها وصاداتها⁽³⁾. وكانت تزود أوروبا حتى أوائل العهد العثماني بالسكر والحبوب وشتهرت مصانعها بالأقمشة الصوفية والقطنية والحرامات، التي سميت بإسمها وكانت تهدي إلى الملوك لحوادثها وتصدر إنتاجها إلى أماكن قريبة مثل اسيايا⁽⁴⁾.

حتى القرن الخامس عشر كانت بعلبك مركز نائب مملوكي، تعيينه القاهرة أو دمشق. من بين أمراء الدولة وعمالها إلى أن وصل أحد الحرافشة الشيعة إلى هذا المنصب في تاريخ عبر معروف بدقة، إلا أنه سابق حتماً لسنة 1497م عبر من طسعة السلطة والإدارة فيها هررت شخصيتها الداتة كإمرة تحكمها عائلة واحدة، استمرت في السلطة حتى منتصف القرن التاسع عشر.

في ظل النائب المملوكي كان من الطبيعي كما حصل في غيرها من المدن اللبنانية المشابهة أن يتورى التوحود الشعبي فيها بغمر الخوف أو التقية، أو الصعق والاصطهاد والتهجير القسري أو الانتقال الطوعي إلى لقرى والمزارع حيث بقي هذا التواحد ولا يزال طاعياً وكثماً

إن التشيع في بعلبك وبلاذها قديم ومتأصل، ليس من السهل تحديد بداية تاريخ انتشاره ومداه إلا أنه يمكننا أن نعصره الذهبي اقترن بالحكم الفاطمي، وتعرض بوحوده لذلك بقيت بعلبك على ولائها للفاطميين حتى عندما كانت دمشق أو غيرها من المدن السنية تتمرد على سلطتهم فبقبت شايح العلماء الفاطميين وتتنكر للعباسيين حتى سقطت أخيراً تحت سلطة منكشاه المسجوقي سنة 1075م الذي قطع الخطية للمستنصر وخطب للمعتدي العباسي وأبطل من الأدان حتى على خير العمل.

(1) بعلبك في التاريخ الشيخ هاسم الرهاوي، ص 72

(2) المصدر لسابق، ص 76

(3) رحلات ابن بطوطة ج 1 ص 80

(4) مختصر تاريخ لبنان، هبيب حتي، ص 157

وبعد ذلك، لم تعرف بعليك حاكماً شيعياً حتى جاء الحرافشة بعد أربعة قرون.

بعد المصاطميين تعاقب على حكم بعليك السلجوقيون والرنكيون والأيوبيون ثم الماليك وكلها دول سنية المذهب عرفت عداوتها للشيعة وباستعمالها القهر والبطش أداة مفصلة لتنفيذ سياساتها بحوهم فلم يكن من الممكن أن يظهر من بقي من الشيعة أنفسهم فيها وهم في حوار الحاكم المعادي، وحنده، وتحت سلطته ويدم. وحول بعليك سهول فسيحة وقرى شيعية تشكل عامل جذب قوي هي الظروف الصعبة والقاسية، مما نتج عنه كثافة شيعية في الريف والقرى مقابل احصار في داخل المدينة، وهذا ما يفسر الطابع الحنبلي الذي علب على مدينة هي الحقبة المملوكية، وأوائل العهد العثماني، وهو من المذاهب الرسمية الأربعة التي تعترف به الدولة وبرعاه، ويكمل لحامته الأمان والسلامة حتى إذا وصل الأمير، الحرفوشي إلى الحلول هي السلطة مكان النائب 11 لوكي القديم، احصى المذهب الحنبلي من المدينة مع الوقت ولا نجد فيها اليوم من آثار حنبليتها السابقة إلا اسم أحد مصاحدها.

هي القرن السادس عشر لم تعد بعليك أكثر من لواء ملحق بناشوية دمشق، يحكمه أمير لواء أو صابطاً أو أمين⁽¹⁾ حرفوشي، مما حنبه وحود حاكم عثماني بمارس السلطة فيه بشكل مباشر هداًب تتجه إلى أن تكون حاضرة شيعية هي العلم والسياسة على مستوى كامل المناطق اللبنانية إلى جانب شقيقتها وحاربها كرك نوح، لذلك قصدها الطلاب لتلقي العلم في مدارسها من سائر بلاد الشيعة، كما تواجد إليها العلماء والأساندة لإلقاء الدروس وتحريج أعلام مذهبهم، كما فعل إخوانهم في جبل عامل، هي خدمة المذهب الشيعي والرد على خصومه وشمره هي مختلف البلاد.

بيع من بعليك في هذا القرن، ومن بعض بلادها كالكرك ومشعره أسماء شهيرة خفت بها كتب السير والتراجم فوصلوا إلى مناصب علمية مرموقة، ليس أهمها منصب الإفتاء أو مشيخة الإسلام هي يران، بل قد نوص عالم بعليكي معروف⁽²⁾ أن يصبح الوزير الأول فيها ويترك أثراً عمرية وعلمية، مارالت حتى اليوم تأثير الفصول والإعجاب. كذلك عرف من أمرائها انفسهم أكثر من شاعر وأديب وقد اضطّر أحدهم أن يهاجر إلى بلاد المحم حيث أصبح معظماً عند الشاه عباس ورئيس العلماء هي

(1) لبنان والامارة الدرزية بوحسين، ص 79

(2) المصدر السابق، ص 80 وأمير لواء ص 81

(3) هو الشيخ لبهائي الشهير

بلاده، وقد فر من دمشق هرباً من بقتل بتهمة الرقص ومات في أصفهان سنة (1059 هـ. 1649م)⁽¹⁾. إلى جانب العلماء ورجال الدين، عرفت المدينة نوعاً آخر من الزوار واللاحثين والمهاجرين، من مختلف دسطني، الشيعة وأعيانهم، يأتون للمشورة أو طلب المساعدة أحياناً وهرباً من جور الحكام العثمانيين والمحليين ويطشهم أكثر لأحيان. وحينما يعاني الشيعة، ولم يكن هذا نادراً في العهد العثماني، من حملات التفتيل والاستئصال والتهجير الجماعي في جبل لبنان أو في جبل عامل، كان النروج إلى هذه البلاد هو السبيل الوحيد أحياناً الذي كان متاحاً للحد من أضرارها وأثارها.

كان الصراع مع العثمانيين، كما في باقي ديار الشيعة، هو السمة السياسية البارزة لهذا العصر في بلاد بعلبك كما في جبل عامل. وجبل لبنان لذلك لم ينقطع سيل الحملات العسكرية المتوالية نعبه إحصاعها وتأديب أهلها المخالفين والإنتقام منهم وما تحلفه هذه الحملات من محن وبكات وحسائر. فكان الهاجس الأول عند أمرائها الحراشنة هو الحؤول دون اختيار مدينتهم مركزاً لباشا عثماني ومقرأ له، كما كانت في معظم عهودها السالمة. فكان بعض أمرائها يراقبون مطهرها ونمدها ليأكدوا أن توسعها العمراني لم يصل إلى حد يشر انتهاء العثمانيين، ومطامعهم⁽²⁾. فتمتد الإمارة بعض ما تنعم به من استقلالية في إدارة أمورها وحرية أمرائها في ممارسة الحكم والسلطة وربما ساعد ذلك في تكاثر الشيعة المهاجرين إليها، حتى أصبحت مركزاً شيعياً سياسياً وسكياً في الوقت الذي كان الوجود الشيعي يصمحل مع الزمن في المدن التي اتحدت مقرات حكم وإدارة للسلطة العثمانية كطرابلس وحلب ودمشق.

كانت الكثافة السكانية في سهل البقاع الحصيب تتركز في الشريط الواقع في عمق السهل، حيث تتكاثر القرى من مشغرة في أقصى الجنوب، حتى الكرك وسرعين واللوة ورأس بعلبك، حيث أقام الحراشنة مراكز عسكرية وحصوناً للدفاع عنها، بينما كانت المراكز السككية في سموح الجبال، ولاسبعا، إلى العرب قليلة ومساثره فمن الناحية

(1) محمد بن علي بن أحمد الحريري لحرفوش نريخ بعلبك معائيل بوف (عن المجيب) ص 32. ويقال أنه صاحب البيت السائر

«ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السمن»

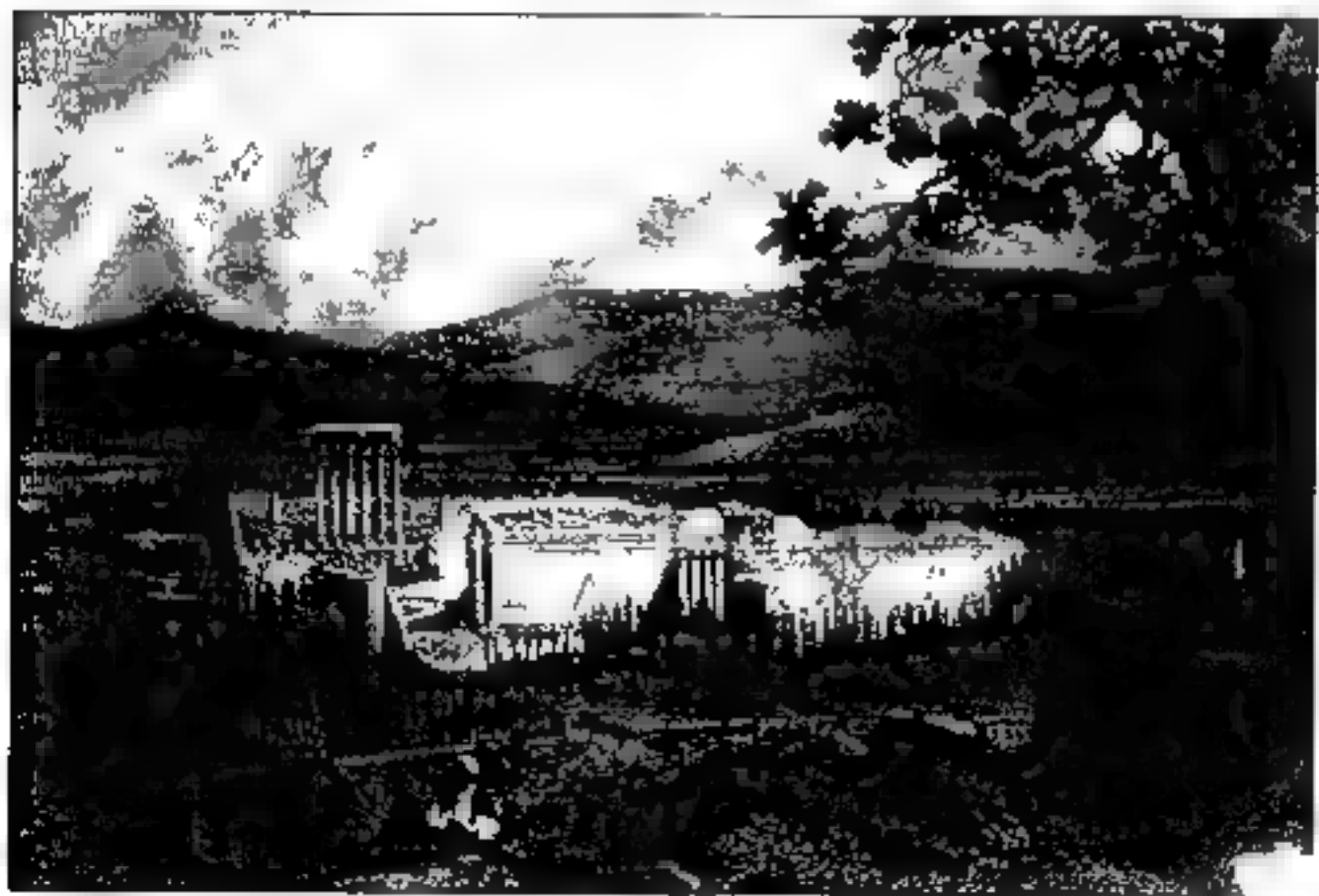
وترجمته هي أمل الامل وأعيان الشيعة وملافة لمصر وغيرها كما ترجمت هذه المصدر لولده براهيم المتوفي في طوس 1669م

(2) كان الأمير جهاء الحرفوش يصعد أحياناً إلى رابية الشيخ عبد الله المشرقة على بعلبك فإذا شاهد في المدينة مبرأناً ظاهراً أمر بهدمه لتظهر السببة ببدء متواضعة كي لا يطمع وزراء الدولة بحكمها وحاء تفصيل ذلك في فصل آخر.

مدينة بعلبك في القرن السادس عشر



بقايا المعبد في بعلبك



العسكرية لم يكن من المتوقع أن تأتي المخاطر من هذه الجهة لأن علو قممها ووعورة مسالكها تجعلها حصناً طبيعياً لا يستدعي وجوداً كثيفاً للمدافعين ومن الناحية الاقتصادية، كان السكن في وسط هذا السهل الخصيب على الطريق التي تؤدي إلى دمشق شرقاً وإلى حمص شمالاً، والقريب من مراكز السكنية المكتظة أكثر جدوى وأشدّ جذباً، وأقرب إلى الرهاية والرحاء أما السفوح والمنحدرات التي تقع إلى الغرب، فبقيت أقل كثافة سكانية حتى عهد متأخر عندما اشدّ الضغط على شيعة جبل لبنان، فعبروا قمم الحبال نحو وادي البقاع واستقروا حيث وحدوا التربة الصسيحة والماء أو احتاروا اللحاق بأقربائهم أو حيرانهم السبعين الذين قصت ظروف سياسية فاهرة أن يكونوا أسبق إلى الهجرة منهم وانتشرت في هذه السهول العديد من القرى والبلدات التي أسسها المهاجرون أو استقروا فيها، كشمسطار واليمونة وبودي والسعيدة ومضبة وحرستا، وهي لا تزال إلى اليوم من أكبر بلدات وقرى بعلبك يسكنها أحفاد هؤلاء المهاجرين من عائلات كثيرة العدد، كزعيتر وشمص وحيدر أحمد والمقداد وناصر الدين والحاج يوسف وعمرو وجمفر، انقسمت بين حائبي الحبل رغم أن علاقة النسب بين العريقين لا تزال وثيقة ومباشرة ولم يقطع التواصل بينهما أبداً.

إن وجود الحرافشة حكماً على بعلبك والبقاع، استقطب هجرة شيعية أخرى محتلّة هدت من الشرق من قرى ومرارع ووديان كست منتشرة في جبل الشيخ، ولكنها كانت هجرة طوعية دفع إليها عاملان أساسيان أحدهما سبسي والاخر اقتصادي.

إن الجماعات الشيعية التي كانت تمصّل بصرّاً للظروف المذهبية والسياسية السائدة قبلاً، أن تحمّل شظف الحياة في جرود جبلية شحيحة الموارد والمياه والأراضي الصالحة للزراعة، وكتنصي بالفيل مع تحنيه من تربية الماعز وسائر أنواع الماشية القابلة للتكاثر في هذه الحبال الحرداء، تشجعت للنزول إلى السهول الخصبة بعد أن رالت أسباب الحشية والخوف من نسط الحكم وصرائبهم واصطهاداتهم التي كان الشيعة هدهأ دائماً لها ومنحهم وجود شيعة على رأس الحكم في هذه السهول، أماناً واطمئناناً على سلامتهم ومصيرهم، فتقاطروا مع الزمن من جرودهم إلى سهولها وإلى أعماق السهل حيث مصادر العيش أيعمر مبالاً وأكثر تعدداً، فتكاثر بينهم الملاحون والحرصون والتجار.

وقد يكون الحرافشة أنفسهم، على ما يطل البعض من الدين كانوا يقيمون في

هذه الجبال وفي جهاب «عسال الورد، بالتحديد ثم انتقلوا إلى بعلبك ليصبحوا حكامها»⁽¹⁾.

زار المدينة سائح فرنسي في منتصف القرن السابع عشر، ودخل عدداً من بيوتها وبرك لنا انطباعه حولها، فإذا هي مدينة كبيرة، تبدو مبارتها في حالة جيدة جداً رغم قدمها. ويظهر أنها شيدت بعناية ودق ومن أناس يحبون الهندسة. ويعرفون العمال وأحب موقعها وتوزيعها وتزيينها وما تؤمنه من راحة، حيث يبدو الدوق الروماني جلياً ولاحظ أن سكاناً مسيحيين لاتين يملكون عدة كنائس ومطراًياً وهناك أيضاً مسلمون، بعضهم يملحون الاراضي المجاورة، وآخرون وهم الأكثرية يعملون في نسج الاقمشة القطبية لتصديرها إلى طرابلس ودمشق

إنهم في حالة جيدة توفر لهم أعمالهم وتحارتهم حياة مريحة، وربما كانوا أحسن حالاً لو أن تعرضهم لطغيان والي دمشق كان أقل حدة، عندما كانت مراكز الولايات في المدن الكبرى كدمشق وطرابلس ترخر بالتعصب الطائفي والمذهبي الذي غالباً ما يترجم تدابير تحد من حرية الناس في معتقدهم وبصرهاتهم⁽²⁾.

كانت بعلبك هي هذا التاريخ مدينته لبنانية نموذجية، يعيش فيها بأمان ونظام معظم الطوائف الموحدة في لبنان إلى جانب الشيعة طائفة الأمر. هناك السنة والروم والموارنة والسريان⁽³⁾ واليهود، ولكل طائفة مسجدها أو كنيسة لها حتى اليهود، لهم كنيسهم، ويدير شؤونهم المدينة أسقف يحسن السمات الأخنية ويرعى مصالح أبرشيته حتى الحاحام يمتلك مكتبة عامرة ويرعى الحالية اليهودية دور تدخل من الحاكم الذي يبدو تسامحه الديني⁽⁴⁾ وأعماله المصرية بادرة في مثل زمانه

إن غالب مرافق المدينة الأساسية موحدة هي بعلبك، من السوق إلى دور العبادة إلى

(1) لتأسيس لتاريخ الشيعة الشيخ حمزة المهاجر ص 113 وهيل أنهم امدوا أولاً في دمشق بعد هجرتهم من مناطق تقع إلى الغرب من نهر الفرات (راجع الحراصة)

(2) Memoires L. P'Arvieux p.174

(3) بقي السريان في بعلبك وبعض قرىها حتى القرن الثامن عشر ويظهر ذلك من سجل قديم اشمل على جريدة أوقاف دير مار موسى لحبشي بحور السك فيه عدة عقارات حبسها لسريان على رهبان هذا الدير هي قرى بشوت وبيحا والمكهة ورأس بعلبك والبعل وعيرها (أصدق ما كان من تاريخ لبنان، هليلب دي طراي ج 1 ص 48)

(4) وقد سمح بصيوفة الصاري بشرب الحمر دون أن يشاركهم (4) La Roque p 32 - 34.

المقهي إلى قصر الإمارة، الذي يصاغي فحمة ورهاوية قصور الباشوات العثمانيين. وأبرز ما فيها المدارس التي تستقطب الطلاب والمعلمين من داخل وخارج الإمارة، ويسكن المدينة من ستة إلى سبعة آلاف نسمة يعيشون في بيوت بعضها حديث وأكثرها حسن الترتيب والدوق والهندسة. في حالة من السجوحة والإكتماء، يعملون في الصناعة والتجارة والزراعة، رعمت عنهم، بعني الامرء، كارثة الجندية الإحصارية⁽¹⁾، وما كانت تسبب من مأس ومحن إلى أن استلوا بها محدداً بعد سقوط الإمارة⁽²⁾

إلى حاسب الصناعة والتجارة التي أحادف البعلبكيون، كان سهل البقاع الواسع الممتد من رأس بعلبك هي الشمال، حتى مشمرة هي لحيوب، أكثر مناطق سوريا اردهاراً وقد سهل الأمراء لسكانه زراعته والعناية به، وتصدير منتوجاته إلى دمشق وطرابلس وسائر المدن، حتى أن مصنوعات بعلبك من القماش ومنتوجاتها الأخرى قد وجدت لها سوقاً رائحة هي أوروبا نفسها⁽³⁾

عاد سهل البقاع مرة أخرى منتحاً رئيسياً للغداء، فانتشرت البساتين في القرى وعمت زراعة الأشجار المثمرة وكان القمح الذي يرسله الأمير إلى اسطنبول يقوم مقام الضرائب المروضة على سكانه كل ذلك جمع الناس في اكتماء ذاتي وراد من ثروته الأمير إلى حد بالغ كان الأمير يوس يملك ألف هدان من الأرض والآفا من أعداد الماشية من كل نوع⁽⁴⁾ وأن عدد الحبول لني يملكها أحد الأمراء، والتي شاهدها الرحالة دولاروك بنفسه، تحملاً لا يصدق الرقم الذي ذكره الرحالة الذي عاينها ويرجح أن هي الأمر خطأ أو مبالغة ولكن العدد كان كبيراً جداً إلى درجة تثير الشك بواقعيته ويدفع الرحالة المدقق إلى الوقوع في سوء تقدير⁽⁵⁾

روى الصفي أن علال بي الحرفوش التي نقلها فخر الدين من قب الياس وحدها بلغ حداً يفوق الحصر⁽⁶⁾

انتشرت حصون الأمراء ومراكز حكمهم في كل رحاء البقاع، في مشمرة وقب

(1) مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة لصناعيه في أوروبا، دومينيك شوفالبييه من 471

(2) راجع ثورة الحراشه بسبب الجندية هي بصل المصدر السابق

(3) تاريخ بعلبك، بصر الله، من 266.

(4) تاريخ لصفي، من 134-147

(5) يتكلم عن عدة آلاف من الحبل (La RoQue p. 32)

(6) تاريخ الصفي، من 134.

الياس وكرك نوح ومرعي واللبننة ورأس بعلبك، وقاموا بأعمال عمرانية واسعة من بناء المساجد والحصون والقلاع، واستطاع الحراشنة بمصن أموالهم وسيوفهم صون إمارتهم من الوقوع تحت يد السلطة العثمانية وسنطبتها المباشرة، إلا أن ذلك كان باهظ الكلفة وغالي الثمن، فاضطروا إلى بدل لأموال الطائفة، وحاصوا صراعاً حريماً هو من أهم ما يتوقف عنده في تاريخ بعلبك، وقد لم يبق الحراشنة عائلة أخرى تنافسهم، فقد كان الصراع بينهم مستمراً أيضاً ومكثفاً ودامياً.



سهل البقاع في القرن الثامن عشر

(1) كان الحراشنة مديون بأموال كثيرة للتجار نتيجة لذلك، راجع مصنع جبل لبنان شهابييه ص 174.

الفصل الثالث

جبل لبنان

دخل جبل لبنان منذ القدم في التراث لصوفي الإسلامي⁽¹⁾ كمكان مقدس يقصده الرهاد والصالحون والمتعمدون لينقطعوا عن الدنيا ورغباتها، في الكهوف والمغاور، يقتاتون من ثماره المباحة ويرتوون من مياهه العذبة فصار رمزاً للظهور والنورانية، بإقامة الأندال في ربوعه فإدا مات أحدهم يقوم بدله راهد آخر له نفس رتبته ودرجة نسكه وتصوفه، لا يزيد عددهم عن السبعين ولا ينقص

قال الثعالبي

«أبدال اللكام يصرب بهم المثل في الزهد والعبادة ورهص الدنيا وهم الرهاد والعباد الدين وردت في حقهم الآثار لا يريدون عن السبحين ولا يقصون عنها كلما توفي واحد منهم قام بدل عنه، يصعد مكانه ويؤوب مكانه لا يمكنون مكاناً من أرض الله تعالى إلا جبل اللكام حيث يسمى لبنان»⁽²⁾

(1) اعتبر جبل لبنان في النقايد الإسلامية مكاناً مقدساً تحيط به مساحة انهيبة تعبره عن باقي الأمكة، حتى توارث سمه في أحاديث نبوية وتفسير يات فربيه فقال لطبري عن ابن عباس «إن آدم بنى البيت لحرام من أربعة جبال منها جبل لبنان وهي رواية عن ابن عباس أيضاً أن البيت الحرام بمكة أسس على خمسة أحجار منها حجر من لبنان وهي حديث شريف آخر أن لبنان جبل من جبال الجنة وفي كتاب البلدان للهمداني، بيت الكعبة من خمسة أحسن أحدها لبنان فهو عصمه الأنبياء وموضع مناجاتهم ومحل كراماتهم من موسى صاحب جبل لبنان أبي هارون ويوشع بن نون وهو من سفينة نوح (ابن حردادبه) وقيل هي تفسير الآية الكريمة ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ (سورة الحاقة لآية 17) إن جبل لبنان هو أحد الجبال حمله العرش يوم القيامة، وأن نوح بنى سفينة من خشب لبنان

(2) لبنان من قيام لدولة العباسية حتى سقوط الدولة الاشيديية، عمر تدمري ص 167



خريطة جبل لبنان وكسروان من القرن الثامن عشر

وقال الشاعر

وجاور جبال الشام لبنان إنها معادن أبدال إلى منتهى نعرج

كما تغنى به شعراً ابن المارض وبهاء الدين العاملي وغيرهم من شعراء المتصوفة

قال ابن شداد

«لبنان هو جبل معمور بالأبدال والسياح المقطعين إلى الله تعالى عن الخلق، لما فيه من الأشجار والأنهار وفيه سائر الحشائش ومنها يرتقى الصالحون. وهماك التماح الذي لا يعدل به وهو مثلوج لداً.

وهو جبل بالشام معروف بالزهاد والمنقطعين إلى الله به أنواع المواكك والزروع، من غير أن يزرعها أحد يأوى إليه الأبدال لا يخلو عنهم أبداً لما فيه من القوت الحلال

وقال البشاري

إن هبة عسداً عند عيون صعبةة، قد بدوا أخصاصاً من القصب والحلما، ويتقوتون بشيء يقال له السوط على مقدار الثمر عليه قشر وهو مر إلا أنهم يلصونه في الماء حتى يحلو ثم إذا جف طحنوه وخبروه وأحنطوا عليه شيئاً من شعر بنت عندهم مباح، ورأيت رئيسهم أنا اسحاق البلوطي⁽¹⁾

وقال عنه هون سوخم السائح الأمازي الذي حج إلى البلاد المقدسة سنة 1340م «إنه جبل مليء بأروع الأشجار والفاكهة والأعشاب التي يمكن أن يصورها العقل»⁽²⁾

لا بد أن نستنتج من هذه النصوص وغيرها، من التي تحمل نفس المعنى والدلول، أن جبل لبنان كان حاليماً من أية كثافة سكانية مما جعله مقصداً للدين يشدون لوحدة والإبتعاد عن كل مظاهر المدنية والعمارة وأن ثماره مباحة، وأن ما فيه من أسباب العيش، يقتصر على ما تحوّد به الطبيعة دون تدخّل من الإنسان لأنه لا رال بكرة أو شبه بكر، لم يعرف التجمعات البشرية التي لا بد من تغير من ملامح الحياة فيه، ويبدو أن هذا الجبل، قد احتفظ بقدسيته لقرون عديدة حيث كان لا يرال يعيش فيه المریدون

(1) احصل التقاسيم في معرفه الأقاليم أبو عید الله مقدسي المعروف بالبشاري ص 189 ويقول هذا لجمرافي أن جبل لبنان من الجبال الشريفة

(2) مختصر تاريخ لبنان ص 157

المقطعون إلى الله، حتى أواخر القرن الثاني عشر، عندما مر به الرحالة ابن جبير، هو حده من أحصت حبال الدنيا، هه أنوع العواكه وهه المياه المطردة والظلال الوارفة. وقبلما يخلو من التبتل والرهاده وقد أثنى على النصاري المجاورين له لحسن معاملتهم للمقطعين به من المسلمين⁽¹⁾. ومرت به من بطوطة هي منتصف القرن الرابع عشر،⁽²⁾ هو حده كسله، لا يخلو من المقطعين إلى الله والرهاده والصالحين، وهو شهير بذلك. وقابل جماعة منهم روى له ما يدل على أن صومية جبل لبنان وقديسيته وبورانيته كانت لا تزال شائعة ومتواترة حتى ذلك التاريخ وهذا ما يؤكد أن هذا الحبل كان حتى منتصف القرن الرابع عشر على الأقل يشتهر بالصمات الآتية

1. هو مكان مبارك ومقدس بكثير فيه نساك و رهاد والمتعبدون

2. مياهه وهيرة وزروعه كثيرة ومباحة.

3. هو أرض بكر يخلو من التجمعات السكانية والمدن والقرى. يعيش سكانه القلائل هي الكهوف والمغاور ويقول لاماس أنه مما لا يختلف فيه اثنان أن جبل لبنان كان في المصور العاصرة قليل السكان⁽³⁾ وزبها لميت هذه الميراث الثلاثة دوراً مهماً هي جذب الواعدين إليه، الذين تكاثروا بعد هذا لتزيح، فكانوا مجموعات شتى من مختلف المناطق والأعراق والطوائف

والأرحح أن سكانه القلائل كانوا من العشائر العربية التي توصلت فيه قبل الإسلام ثم دخلت كمسائر جيرانها هي الدين الجديد⁽⁴⁾، فعاش في ربوعه لمسلمون والنصارى هي ود وصماء وتعاون كما لاحظ ابن جبير.

(1) رحلة ابن جبير ص 259 - 260

(2) رحلة ابن بطوطة، درويش النعويدي ص 97

(3) تسريح الابصار لاماس ج 2 ص 24

(4) بيت بعلال كثيرة، النصيبي، ص 156

كسروان

لم يكن لكسروان مدلول جغرافي ثابت عبر العصور، فهي تشمل تاريخياً المنطقة الواقعة بين مدينتي بيروت وحيل، وحدودها الطبيعية من نهر بيروت حتى نهر ابراهيم وتمتد شرقاً إلى قمم الجبال المواجهة لسهل البقاع

وقد صاق نطاقها في القرن السابع عشر، بعد أن فصل عنها القاطع في الجنوب والفتوح في الشمال، فافتصر مداها على ما بين نهر الكلب وجسر المعامتين⁽¹⁾.

وصفت بعض المرويات اللبنانية تاريخاً وهمياً موعلاً في القدم لكسروان أخرجت منها آلاف المقاتلين المواربة كما أسقطت منهم آلاف الشهداء، هي وقت من المشكوك فيه أن مارونيا واحداً عاش فيها كما نسبت سمها إلى أمير ربما لم يوجد قط اسمه كسرى⁽²⁾.

ولما كان من المألوف أن يطلق على بعض جبال لبنان وامتداداتها الطبيعية هي جبل اللكام أسماء المذهب، العالي على مكانها مثل جبل الدرور وجبل الطنبيين وجبال العلويين ووادي النصاري، فابن ترجع أن اسم إحدى المرقص الصوفية الأشرافية من الشيعة تعرف بالحسروانيين أطلق على هذا الجبل⁽³⁾ هي أواخر العصر العاطمي وهو العصر الذي كثرت فيه لراصه وافسدت عقائد طوائف من أهل الحبال تنحدر الشام⁽⁴⁾ فميل جبل الحسروانيين ثم أدلت الحاء كاهلاً مع السنين تحسناً واستحساناً لانتعاش اللفظ عن «لحسارة»، فحين جبل الحسروانيين أو جبل كسروان⁽⁵⁾

والحسروانيون⁽⁶⁾ فرقة صوفية من الشيعة، ذكرهم الملائكة من السهروردي حتى

(1) أخبار الأعيان، طومس الشدياق، ج 1 ص 21

(2) الشدياق ص 24 انحره لأول وقد حصد تواريخ الموربة باحبر من هذا النوع الجغرافي ومنها أن أمير لحبل أرسل إلى الملك العرمني لوسن شامع 25 أتماً من الحدود الموربة ليعتال إلى حاسبه في القرن الثالث عشر مع أن مجموع عدد النصاري في كل حواء لبنان لم يصل إلى أكثر من 18 ألف نسمة بكثير

(3) الحقائق الزهنية هي المائة الثامنة أعاد يرك نصهراني ص 192

(4) أبو شامة، أورد حسن الأمين في د.م. ش. ج 3

(5) الحقائق الزهنية هي المائة الثامنة أعاد يرك نصهراني ص 192

(6) هي أفعابستان وحاسبه في بدخشان يوجد فرقة من الشيعة لاسماعيلية (وهو مذهب العاطميين) عدد أفرادها ما يقارب المئة والخمسين أتماً ويسمون الحسرويين نسبة إلى أبي يوسف ناصر خسرو (معجم المرقع الإسلامية) عارف تامر ص 123

البرواري" ولا يزال لها حتى اليوم أنباع ومريدون حملت اسم مؤسسها العالم الرحالة ناصر خسرو الذي لا يزال قبره مراراً يؤمه أتباع بعض المذاهب الشيعية في الصين وآسيا الوسطى والهند والافغان حتى الآن"

كانت كسروان على امتداد قرون عديدة الحرس البشري الشيعي الذي يرهّد سائر المناطق اللبنانية، ولأسباب محتمة بمجموعات لم تنقطع من السكان الذين هاجروا منها تحت صغوط اقتصادية حيناً وسياسية أكثر الأحيان، أو رغبة في الانضمام إلى آخرين برحوا هي وقت سابق و ستقرو هي مكان آخر، آمن، لهم من سبل العيش والامن، ما كانوا ينشدون

وكانت هذه الهجرات تتوالى نحو مختلف الجهات، إلى حيل والنترن شمالاً، أو جبل عامل جنوباً، أو، وعلى الأخص إلى منحدرات الجبال المقابلة والسهول الواقعة هي سموحها شرقاً، حتى أصبح من المسلم به، اليوم، أن نجد نسبة كبيرة من شيعة لبنان يرجعون بأصولهم وأنسابهم إلى كسروان وينسبونها إلى القرية التي أنوا منها ويذكرون التاريخ الذي عاينوه فيه ومن معروف أن كثيراً من القرى الواقعة هي سموح حبال لبنان الغربية المناحمة لسهل البقاع، قد هجر أعين سكانها من كسروان، وبعضهم لا يزال لهم فيها أقارب أو ذكريات تناقلوها عن أسلافهم

إن كثيراً من الدلائل تشير إلى أن بوحود لشيعي كان كثيراً هي كسروان عند تعرضها لهجوم الحملات المملوكية في مسهل القرن الرابع عشر، يؤكد ذلك عدد الجنود الذين شاركوا في الهجوم سنة 1305م وكذلك مستوى عديده وقيادته ومن رافقه وما أعقبه من اهتمام وأثارة من تساؤلات.

(1) توفي السهروردي سنة 1191م والبرواري 1864م

(2) ناصر خسرو شاعر وفقيه وفيلسوف شغل منصب ربيعة في لدونين العربية والسلجوقية ثم ارتقى في مراتب الدعوة الماطمية حتى بلغ مرتبة الحجة وصار أحد لاثني عشر حجة المميين من قبل الخليفة الامام الذي منحه لقب وأفضل الرجال حال في بلاد كثيرة بما فيها كسروان مدة سبع سنوات ثم عاد إلى بلاده داعياً للدعاة - في حراسان (444 هـ - 1502م) وبعدها اشتهر بمذهب خاص من المذاهب الشيعية يقدم جعفر وسلمان والمقداد وأبا در على غيرهم من الصعابة - وهم المقدمون عند الشيعة الامامية، وأطلق على تسميته لقب ملك حين كان معصماً في بمكانه يدعو إلى مذهبيه ويصنف لكتب والرسائل. يعمق في اليهودية والنصرانية والهندية والمجوسية وكان من أهم شعراء انمارسية وأعرسهم نظاماً يحسن عدة لغات بما فيها السنسكريتية (سمرنامه مقدمة والتأسيس لتاريخ شيعة جعفر لهاجر ص 130)

يتفق أكثر المؤرخين على أن هذا الجيش لم يكن يقل عن خمسين ألف جندي. ويذكر المقريري أن رماة المداهمين وحدهم كانوا ثني عشر ألفاً كما أن وفرة المصادر وصحامة الفقرات التي سجت عن هذه الحرب تدلنا في عياب أرقام يركن إليها عند المؤرخين، هي هذه المترة، عن حجم المستهدفين وأعدادهم الكثيمة.

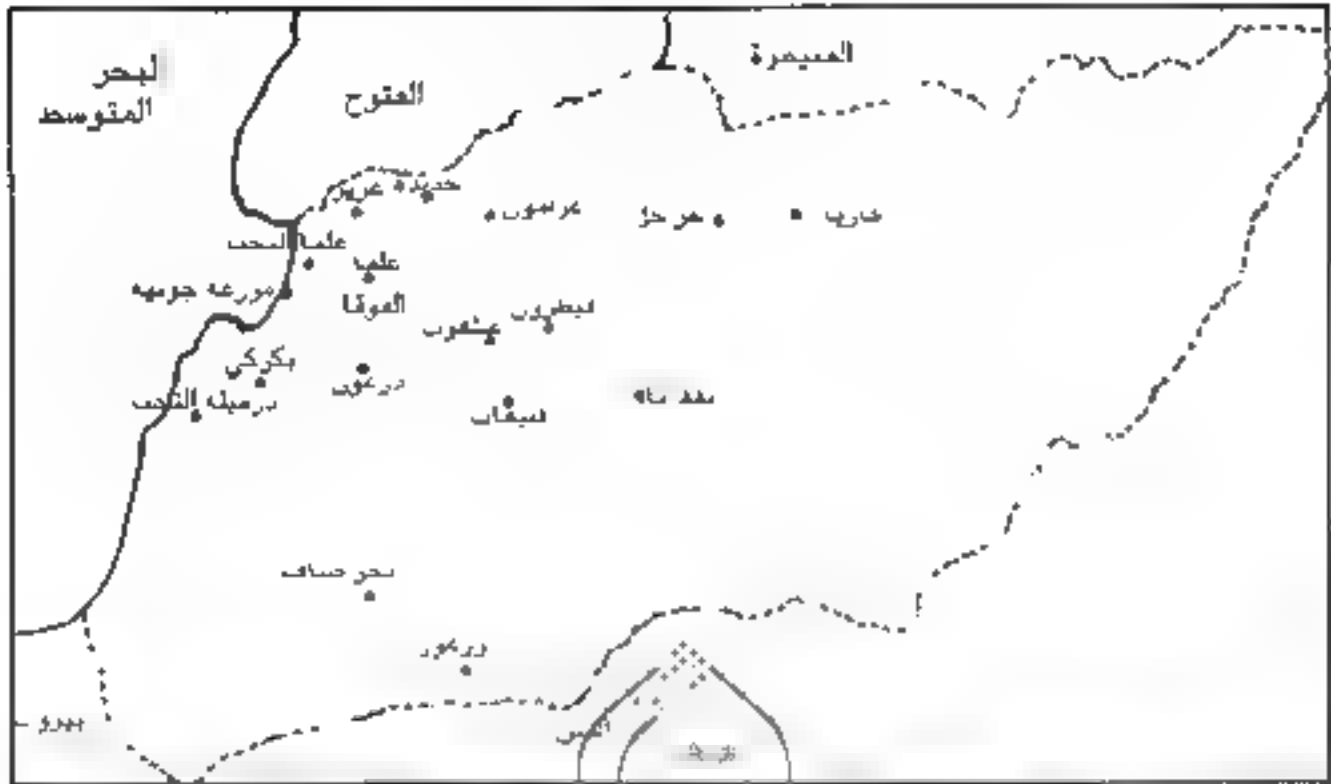
مهما بلغ عدد القتلى والهاربين نتيجة هذه الحرب فلا بد أن بعض السكان، ولو كان عددهم متواضعاً، قد تمكنوا من لاجئة من المدينة والاحتماء عن أعين المطاردين، خصوصاً وأن طبيعة الأرض وتنوع شعابها تساعد على ذلك مهما كانت التدابير العسكرية المعادية دقيقة وقاسية. ولا بد أيضاً أن أعداداً من الهاربين قد عادت بعد انسحاب الجيوش وروال الخطر وهذا ما يفسر لوجود الشيعي المستمر في هذه الانحاء، وإن كان من الصعب معرفة مدى أو تعداد الذين تمكنوا من البقاء، أو عادوا بعد هدوء العاصمة إلا أنه قد يكون من المؤكد أن الشيعة استمروا يشكلون المئة المائنة من سكان كسروان عندما دخلت، كما دخل لبنان كله، في ظل السلطة العثمانية.

لم يعد الوجود الشيعي الغالب في كسروان موضوع خلاف أو تساؤل كما كان سابقاً ولوقت طويل، بعد ظهور الدراسات الحديثة وخصوصاً تلك التي اعتمدت على السجلات العثمانية الرسمية الدهترجانية وهي التي تميزت بصحتها ودقتها ويظهر من خلالها أن هذه المنطقة كانت عند المنتح العثماني وبقت إلى عهد متأخر، منطقة ذات أكثرية شيعية يقتصر سكان قراها الخمس الكبرى على شيعه، وهي القليعات وهيترون وحرادل وبقعاتا ومحدل بني حارس، بينما يشاركون أقليات من البصاري والسنة والدروز في قرى أخرى، باعتبار أن قسماً أساسياً من المتن كان يعد من صنعها في هذا التاريخ⁽¹⁾.

بقي الطابع الشيعي هو الغالب على كسروان بعد المنتح العثماني، وكان يقيم فيها أقلية من بعض الأسر التركمانية، كذلك كان هناك جاليات متفرقة من الروم الملكيين والبيماقية وبعض السنة. أما الموارنة فلم يكونوا قد اجتاروا نهر ابراهيم حتى ذلك الوقت. فلا يوجد بين أدبرة كسروان العديدة دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر وليس هناك ذكر لرجل واحد ماروني أصله من كسروان قبل القرن السادس عشر. وإذا جاء ذكر الموارنة في تأليف الصليبيين فلا نراهم يذكرهم إلا في البلاد الواقعة بين طرابلس وجبيل أما جنوبي نهر ابراهيم فلا نرى لهم فيه أثراً وكذا قل

(1) نواحي لبنان، عصام حبيمة ص 155

كسروان في القرن السادس عشر



جسر المعاملتين في كسروان الفاصل بين ولاية طرابلس وولاية صيدا

(1) كان لا يزال أكثرية سكانها من الشيعة

من أديرتهم القديمة وكنائسهم فانها كلها في شمال نهر امراهم كما أن أصل قدماء بطاركتهم واساقفتهم من البلاد بصها⁽¹⁾

هي الوقت الذي أسس فيه دير مارشليطا سنة 1628م. وهو أول أديرة كسروان، كانت قمة المزار القائمة على قمة فوق قريتي كفر عقب وعين القيو والتي أخذت اسمها من الشيعيين الذين سكنوا بحوارها، تشكل مقصداً للمتدينين من الشيعة من سائر أنحاء كسروان والمتن⁽²⁾.

وعندما وصل أول مهاجر ماروني إلى حر حل، كان فيها ثلاثماية وسبعون بيتاً كلها من الشيعة وكذلك ميرونا وهاريا وسكنتا وبقعات والأدواق⁽³⁾

الكنيسة الأولى التي شيدت في كسروان، يوم كان يأبى تعصب المتأولة الأقوياء أن يكون للمسيحيين مكان عام يصلون فيه كما يقول القنصل هري غير Guys كانت هي منزل القنصل الحاربي الذي جعل من منزله الجبلي مصيماً له وكنيسة للمؤمنين هي أن معاً⁽⁴⁾ وإن كما لا بدري، إذا كان، لدافع إلى هذا القول هو نقل الواقع كما هو، أو محاولة دكية لطلب المساعدات من القنصل المرفسي ولكنه يدل في الحالتين على عدم وجود كنيسة واحدة في كل كسروان حتى ذلك التاريخ، رغم أن تعصب المتأولة لم يصف يوماً حائلاً دون بناء كنائس وممارسه الشعائر الدينية و ستقدام رجال دين، بل كانوا يسمحون لهم بذلك وساعدوهم على إنعاشه

في وقت مبكر من القرن السادس عشر 1505م كان حكام كسروان من بني حمادة، يشجعون هجرة الموارنة إليها ويستقدمون أعداداً متزايدة من الشمال للعمل في زراعة الارض لأن اهتمام الشيعة الدائم بالحرب، وبأمين حماية أنفسهم في وجه المعاليك ثم

(1) اليراهيم لراصة في اصر المردم والحر حمة ولورة المطران يوسف بزيان ص 180 نقلاً عن مجلة بشرق 3-9-10

(2) تاريخ بسكنتا وأسرها، الحوزة سق بطرس حبيمه ص 304 ولا تزال اليوم كثير من الأمكنة تحمل أسماء سكانها الصالحين من الشيعة مثل بيع حمصر وحوره مشيك وعامة نصير ومقيل جمعة، وجميعها في المتن. وهي أسماء عائلات معروفة حتى اليوم في بلاد بصبك ولهرمن تتفاقل أخبار أصولها الجبلية العابرة فالمرار هو قبر الأولياء الشيعة الذين كانوا في تلك الجهات ولم يكن حول بني المعلوف من الجيران سوى المتأولة في محلة المزار قرب بسكنتا وبقعات وكمرته وبقاع تونه ومررعة كمردييان. دواني القطوف، عيسى اسكندر المعلوف الجزء الاول، ص 224 - 226

(3) رجوع النصاري رعيب ص 19

(4) بيروت ولبنان هري غير ص 40 الجزء الثاني

العثمانيين، منعتهم من التحول إلى مزارعين وما يتطلبه ذلك من أمان وسلام واستقرار. تكاثرت الموارد في كسروان على مر السنين. بعضهم هاجر إليها للعمل وآخرون طلباً للحماية من جور السلطات أو «صطهادات أصحاب المذاهب النصرانية الأخرى». وهي جميع الحالات كان طموح المهاجرين يتركز حول تحسين أوضاعهم الاقتصادية والأمنية، خصوصاً وأنهم وجدوا في رعاية حكامهم الشيعة حرية دينية مطلقة، فقاموا بممارسة طقوسهم وإنشاء أماكن للعبادة واستقدم كهنة للإشراف على كل ذلك.

«كان النصاري الذي في الصيغة تحت أمر المتأولة وشركائهم، كما صاروا خمس بيوت نصاري وديانتهم ما يتركوا فيها شيء قالوا المتأولة: ما بقينا نقدر نطلع منكن وصرتوا من أصحابنا وأنتن أحسن من غيركن عمرو كيسي برا الصيغة ولا تكون قريبي للعمار»⁽¹⁾. وكان أول ماروني وطأ قدماء أرض القرية اسمه فارس شقير سنة 1664 م، وكان ترتيب أول رجل دين ماروني قدم إلى هذه الأنحاء هو العاشر من بين ثلاثين هرداً هم مجموع الملاحين الموارد المهاجرين حتى سنة 1701 م⁽²⁾.

إن هذه العناصر البسيطة التي نقلها حوري الرعيه عن لسان متأولة إحدى القرى الكسروانية، تعبر بصدق وعموية عن شعور الشيعة الكسروانيين نحو المهاجرين الموارد القادمين للعيش بينهم والسماح الديني الذي قوبلوا به، والسماح لهم بماء كميسة يمارسون فيها شعائرتهم وطقوسهم رغم قلة عددهم وقرب عهدهم بالعيش في هذه القرية الحبيبة.

استمر التعايش بين الطائفتين في القرية الواحدة، دون أن يعكر صفوه حادث واحد أو مشاعر متوترة. حتى بدأ يرور القرية مراب حاربي غير مرحب به، نصب شراكه لبعض لفقراء من الملاحين الشيعة لينتزع منهم أملاكهم المتواضعة عن طريق تسليفهم مبالغ تافهة والإستيلاء على ما يملكون عند عجزهم عن سداد الموائد الناهضة ولما فشل في تحقيق مأربه، وقوبل من ربائته المختصرين بالتجاهل والصد والإهانة⁽³⁾ عمد إلى استمداء عسكر الولاية في دمشق على أهالي القرية البسطاء، عن طريق الخداع والنفيسة واستدرج الفريقين إلى مواجهة حلفت بيوت لقرية على أثرها طعماً للبار، وسكاتها ما بين

(1) رجوع النصاري، جرجس رعيه ص 20.

(2) نفس المصدر ص 22.

(3) نفس المصدر ص 11.

قتيل ومشرّد، ثم يكتف أبو نوفل بما وقعته و"لي دمشق من دمار وتشريد" بأهل القرية المسالمة، بل استطاع بالاسلوب نفسه أن يبيع الأمير محمد المعني بالتدخل لصالحه، وخصوصاً بعد حوادث هاريا كفرديان في العام 1677م «هأمسك الأمير بعضهم وأحاطهم بكل الأحزان وحرق بيوتهم وقص أملاكهم»⁽²⁾ ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ينجح فيها أبو نوفل بجر الأمير المعني إلى مساعدته في مساعيه الدائبة إلى الاستيلاء على بعض الأملاك الشيعية المتوصعة عن طريق المكر والحديعة، ولم ينتبه الشيعة في القرى الكسرواية إلى ما يحكيه الشيخ الحارثي لهم من ماس إلا متأخرين حيث بدأت بدور الريبة ونكره تظهر عندهم تجاه هذا المرابي ومن يلتف حوله⁽³⁾.

إن كسروان ليست من المناطق التي أوى إليها الموارنة قبل القرن الخامس عشر، وإن نسال من كان يسكن كسروان قبل هذا العهد، أجبنا أن معظم أهل هذه الناحية كانوا من المتأولة أو من النصيريين،⁽⁴⁾ هذا ما يقوله الأب لاماس، علماً أن الكثير من الوقائع تؤكد أن الهجرة المارونية لم تبدأ قبل منتصف القرن السادس عشر، وليس هناك دليل تاريخي يؤكد أن النصيريين قد سكنوا يوماً هذه المنطقة، وإن كان بعض الباحثين، ولا سيما المستشرقين منهم، قد توهموا أن كلمة الراهصة لا تعني الشيعة الإمامية حصراً بل قد تعني طوائف أخرى منها النصيرية، وهذا خطأ شائع وقع فيه الكثيرون من غير أهل الدراية والعلم في شؤون المذاهب الشيعية المختلفة، ومن هنا كان توهم وجود النصيريين أو غيرهم من المذاهب العلوية في كسروان أو أنحاء أخرى من جبل لبنان، في بعض الكتب التاريخية.

إن وثيقة تاريخية صادرة عن حاكم حمادي في كسروان هو محمد حمادة سنة 1552م⁽⁵⁾ تنقل لنا بوضوح السياسة الشيعية تجاه هجرة موارنة إلى كسروان، التي كانت سائدة في هذا التاريخ، والحالة السياسية العامة التي كنت تحكم تحركات الأطراف حينئذ، وتلقي بعض الأصواء على العلاقات بين الشيعة والسلطة العثمانية الممثلة بوالي طرابلس.

(1) يروي الكاهن رعيب كيف أقنع أبو نوفل بعض سكان القرية بنصب كمين لمسكر لوالي ورافعهم إلى مكان اسدي عيبه ثم سافر إلى دمشق وأبلغ لوالي بأمر ما دبّر عن أمه من قتل السكان وخدمهم. (راجع فصل خاص عن هذا الموضوع في باب النهج).

(2) الأيدلوجية المجتمعية، جان شره، ص 329.

(3) م من ص 17. رجوع النصاري رعيب.

(4) نصريح، الابصار، فيما يحتوي لبنان، من الألف، الأب هري لاماس، ج 2 ص 57.

(5) أرشيف بكركي جازور البطريرك صريضة وثيقة B1.

جاء في هذه الوثيقة⁽¹⁾

سبب تحريره

إن المقدم البصري يوسف سمعان الحصري طلب منا كي يقعد في غبالة بالمتوح هو وعائلته وأخوته وطلبوا الأمان ونحن من حيث خاطرنا مشروح على المقدم يوسف ونحن ملرومين بوصي كن واحد من أولادنا وقرايبنا يديرو بالن من قرايبو ولا يخلوا احد يتعدى عليهم من حيث المقدم، هرب من وجه حاكم طرابلس الكافر الذي قتل المتولي والبصري والمقدم يوسف تطاول عليه وضره وقت الذي كان يقتل المتولي والبصري. ومن وقتها تحطط عليه الحاكم حتى يقتله فحارب أخوته معنا وبحر منحت هذا الرجل السحيع ومعتاره وبيننا وبينه صداقة قديمة. وكل من يتعدى عليه وعلى جنسه ومن يخفاه نحن صده. وكل بي حمادة وأنا حاكم هالبلاد اعطينوا الأمان وحصلوا بي ما يحويه أندا وطلب أن يكتب اسموا الحصري وصربا نكتبوا مثل ما طلب، وشرطنا عليه يساعدا في الكتبة وهو يعمل حربته في دينه وبحيب حوري مثل ما نهربد واد حاب بصاري ممولين وهو يصطلم فيهم والذي يخدم عنا في رجالة فعليه بالنسة ثلثمائة ناره وناحد منو بالعيد أربع دنائح وسامحاة نهيرة الرق التي بعاه إياه ولأجل راحه فكر المقدم كتبنا هذا في 15 رمضان سنة 960 هـ - 1552 م.

الشهود: طنوس البشعلاني البصري، حسن تامر حمادة

كاتبه محمد أحمد حمادة

إذا كان السكان الشيعة في كسروان قد استقبلوا الواهدين الموارنة بقبول وترحيب فإن الحكام الشيعة من الحماديين قد ذهبوا أبعد من ذلك في تشجيع المهاجرين الموارنة على القدوم إلى بلادهم، وتقديم كل المساعدة والحماية والصمات والدعم ما جعلهم يتكاثرون في وقت قصير سبباً حتى أصبحوا يشكلون قسماً مهماً من سكانه ويطمحون إلى الانفراد في العيش في ربوعه ودفع لأحرين إلى الانعقاد والهجرة.

إذا كان موقف السكان الشيعة قد أمسه اعتدات اقتصادية ودينية، فإن الحكام الحماديين قد انطلقوا، بالإضافة إلى ذلك من مشاعر تتجاوز التمايز المذهبي إلى إحساس ثابت وحماسي وعميق، بوحدة بهواجر وتلارم لتصير وضرورة الاشتراك والتعاون في الوقوف صماً واحداً متأزراً أمام العدو العثماني الواحد، الذي تستهدف سلطوته ومظالمه الجميع.

«من حيث المقدم النصراني هرب من وجه حاكم طرابلس الكافر الذي قتل المتأولي والنصارى».

«والمقدم يوسف تطاول عليه وصر به وقت الذي كان يقتل المتأولي والنصارى: إن الكافر الوحيد هي رأي الحاكم الحمادي هو حاكم طرابلس وخطره يهدد المتأولة والنصارى على حد سواء. وبما أن المقدم يوسف صر به هصار من وحب الجميع مساعدته ومساندته وتقديم كل العون والحماية الممكنة له
«كل بني حمادة وأنا حاكم هالبلاد عطيتوا الأمان وحصلتوا إن ما بخونه أبداً ونحنا ملرومين نوصي كل أولادنا وقرايينا يديروا بالي منو ولا يخلو أحد يتعدى عليه»

وبما أن المقدم المذكور، تحدى الحاكم العثماني وتطاول عليه وصر به قبل أن يهرب بعائلته وأخوته إلى كسروان، يطلبون العيش بأمان مع الشيعة، فمن واجبا أن نعطيه الأمان له ولرعاقه ولكل حسه (نقصد النصارى) لأننا نحب هذا لرحل الشجاع الذي قام بعمل نبيل يمرض علينا أن نقف ضد كل من يعتدي عليه وعلى من يلود به وعلى كل النصارى (من جنسه)

أما من حيث حرسته الدينية فهي مصونة بدون حصر وله أن يسفد ما يشاء ويرعب، وأن يمارس لطقوس التي يريد، وأنه الحرية المطلقة هي اسفد ما تعدد الذي نرعب به من النصارى، ونحن نقبلهم دون التدخل في شؤونهم (يصطلم فيهم)

ويهي الحاكم الحمادي منشوره اسريحي بنقدم عرض عمل إلى كل نصراني يرعب في الحماية والأمان والعيش في دياره، بأن يقدم هي حكومته لقاء راتب يبلغ ثلثماية بارة في العام، قبل أن يكتب صكاً بتمليك المقدم أرقافاً في عدالة دون أن يكلمه بدفع ميرتها مكتماً بتقدمة رمزية هي مدسة العيد

لقاء كل هذه الصعوبات والمنع والإعفاءات، يطلب الحاكم الحمادي حده وحده من المقدم النصراني و(جنسه) تدل بوضوح على تعطش هذا الحاكم إلى العلم وأن حقيقه مفاصده وأهدافه بالإضافة إلى مقاومة الوالي العثماني، وتصميم العون لكل من يقاومه هو أن يشر التعليم بين جماعته لأنه يعلم أن النصارى هي ذلك الوقت، كانوا لأسباب دينية وكنسية واجتماعية، يتمتعون بقسط متقدم من التعليم، الشيء الذي حرم منه قسم لا يعلم حجمه من جماعته وظائمه، فيشترط على المقدم مساعدته في لكتابة، ربما هي ديوانه أو هي تعليم بعض الأفراد من أبناء جنسه
«تشرطنا عليه مساعدتنا في الكتابة».

تبرر أهمية هذه الوثيقة التاريخية السدره في الأمور الأساسية الآتية:
أولاً - تظهر شعور العداء عند الشيعة نحو السلطة العثمانية وواليتها في طرابلس،

ومدى تحكم هذا الشعور في مشاعرهم وتصرفاتهم وسياساتهم، ويبدو أن له الأولوية المطلقة في تحديد مواقفهم أمام مختلف الأمور.

ثانياً - تؤكد على أن الحماديين يحكمون مناطقهم، رغم إرادة الوالي في طرابلس ومن يعينه، دون الإلتفات إلى حلق التولية وهراماتها التي كلما تغير من الأمر الواقع شيئاً كثيراً.

ثالثاً - تثبت أن الشيعة، لم يقبضو ورثاً كبيراً لتمييز الطائفي، فالكاfer هو الوالي العثماني، الذي يقتل المتأوله والنصارى، وهو وحده العدو الذي يجب أن تنصرف جهود الطائفتين إلى مقاومته.

رابعاً - يعرب الحاكم الحمادي عن إعجابه وتعديده وتقريبه للعمل الشجاع الذي أقدم عليه المقدم النصارى، ويعتبر أن لحماية وللمساعدة التي يطلبها هي حق له، وواجب على الجميع، بسبب تحديه للوالي الكاهر، وما يتعرض له من جراء ذلك من المطاردة والملاحقة.

خامساً - يتجلى التسامح الديني الكامل والمطلق في سماح الحاكم الشيعي للمقدم النصارى، باستقدام بشارى ورحل دين كها يشاء ويرغب. وإقامة المراسم والشعائر دون تدخل منه، وشجيع البشارى على الهجرة إلى بلاده بتوفير فرص العمل لمن يريد منهم براتب سنوي عين مقداره وطبيعته.

سادساً - تقرر رغبة الحاكم وسياسته هي شجيع الهجرة البشارية إلى بلاده، بتقديم الصعوبات والمعربات والإعصاءات الصربية لكل البشارى الوافدين، ويعلم أن مسامحته بميرة الرزق وهي رهيدة أصلاً، إذ حدها بحمسة ناريت في العام والإكتفاء ممن يعمل عنده منهم بهدية رمزية بمناسبة العيد.

إن ترحيب الشيعة الكسرويين، حكاماً وسكاناً، بالمهاجرين المواربة، أدى إلى زيادة أعداد الوافدين بأطراد، ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس عشر وقد كان لا يزال في حلب وغيرها من المناطق والمدن السورية أعداد مهمة من المواربة حتى القرن الثامن عشر⁽¹⁾.

هناك المواربة في كسروان واستقروا إلى جانب الشيعة في قرى مشتركة أو قرى مجاورة⁽²⁾. كما تقرر الوجود السنّي بأعداد جديدة، قصدت هبطرون وفقيع والمليعات وعرمون والجديدة وساحل علما وعتقا⁽³⁾ وسواها أما جوييه التي عرفت في فترة متأخرة وحواداً إسلامياً كثيفاً وناشطاً اقتضى أن يكون لمسجدها إماماً وحطيباً وأن

(1) المواربة في التاريخ، متي موسى، ص 254.

(2) بواحي لبنان، عصام خليفة، ص 154.

(3) تاريخ الارمنه الدويهي ص 392.

يشتهر من أهلها علماء هي الفقه والحديث " قبل أن يتكاثر فيها «اليعاقبة» بعد ذلك وهي هذه الفترة قصد البصري كسروان الحويية، وسكنوا قرب الشيعة في كهر عقاب وكفرتيه، وقد بدا في حينه أن في المكان متسعاً للجميع قبل أن تأخذ التطورات اللاحقة اتجاهاً آخر يسعى إلى إحلال طائفته مكان الأخرى، باستعمال مختلف الأساليب لتحقيق هذا الهدف، فاصبح لحلاف حول كسروان حروباً متواصلة فيها، وضعتها على طاولة المساومات والتحديات

جبيل والبترون

عندما تكاثرت الموارد في حبة بشري بدأوا «متددهم التدريجي نحو الجنوب» في الوقت الذي كان الماولة بقطرون في بعض بواحي لبنان الشمالية كعهاب البترون وبواحي المنيطرة والعاقورة^[2].

بعد انتشار الموارد جنوباً نحو جبيل والبترون، كانت هذه المناطق اهله بالشيعة الذين لا بد أنهم تكاثروا بعد مكنتهم في كسروان، وبعد تروجهم «لتسرى منها ومن الضنية بحكم العرب الحمراني الذي يعتنقه الحوز والصلوات الناتجة عنه، سيما وأن حرين وحمل عامس وبعليك والبقاع، وهي دار الهجرة الشيعية الأساسية، كانت من المناطق الواهمة تحت رقابة السلطة المموكية ويقتطعها، دفع حتماً بعض المهاجرين إلى تجنب الاستقرار فيها كما كان من المرجح أن يحتار بعض الهاربين ملجأ قريباً يسهل الوصول إليه والعودة منه بعد انقضاء المدمة

إلى جانب الشيعة والموارنة، كان يعيش في هذه المنطقة أعداد مهمة من السنة والروم وإذا كان السنة كمعادتهم بميلون إلى الإستيطان في المدن الساحلية فإن الروم تورعوا على قرى عديدة كدوما والكفور وعمرور وكمرشلمان وحدثون ونقسمايا^[3].

وقد حاولت السلطة العثمانية، في مستهل عهدها نولية حكام من السنة على المنطقتين، إلا أن هذه المحاولة لم تعمر طويلاً، بعد أن وصع الشيعة لها نهاية دموية^[4].

(1) لبنان، عمر تدمري م.م، ص 215 216

(2) تسميح الأبصار ههنا يحتوي لبنان من آثار لاب لاماس ج 2 ص 57

(3) أصدق ما كن عن تاريخ لبنان، هبيب بو طري ج 2 ص 54

(4) تاريخ الامنة الدويهي ص 455



حمص

في قرية حاصبيا



البقرون

فاحتكروا الولاية عليها بعد ذلك حيث كان من المعتاد أن يتحد الحاكم الشيعي الحمادي من قلعة جبيل قاعدة لحكمه.

عُرفت جبيل في الماضي أنها مركز عملي إسلامي يقصده الطلاب للدراسة، وحضور محاضرات الحديث وقد ذكر ياقوت حمسة أسماء شهيرة من العلماء المسوبين إليها⁽¹⁾ كما ذكر غيره أكثر من هذا العدد، ومنهم أئمة مساحد ورجال فقه وشرع ودين⁽²⁾

وذكر ابن حردادبه أنها كانت قاعدة كورة في القرن التاسع الميلادي، مثل كورة طرابلس وكورة بيروت وكورة صيدا⁽³⁾، كما قال عنها «قديمة» إنها من سواحل حند دمشق والثغور التي تحتلج إليها المراكب من الشام ومصر للعرو⁽⁴⁾

ومن زوارها ناصر خسرو الذي لاحظ سورها الحصين الشاهق، وحولها النخيل وعبره من أشجار المناطق الحارة⁽⁵⁾ وقد ازدهرت أيام الصليبيين، وأصبحت مركز إقطاعية يحكمها أحد سلاطهم، إلا أن انسيطان قلاوون استعادها بعد طرابلس وحربها وهدم سورها وقلمتها، حتى ساواها بالأرض فكان مصيرها مثانها مصير طرابلس وحاربتها البترون التي وصمها المحلي بأنها بليده من طرابلس الشام خرج منها جماعة من العلماء وصل عدد منهم إلى حلب حيث تولوا القضاء والافتاء⁽⁶⁾

في مستهل القرن السادس عشر وجد الرحالة الراهب فرثيسكو سوريانو مدينة جبيل خربة ومحصنة مع أن لها مرسى حسن ومحتص بأهل جنوى، على نوع ما، بينما كانت البترون مأهولة بعدد وافر من السكان وخصبة بالمواكح وغزيرة المياه⁽⁷⁾ ويبدو أن المدينتين لم تتغيرا كثيراً حتى أواخر القرن التالي، عندما مر بهما الرحالة دولاروك فوجد أن ميناء جبيل مدمر تقريباً، ويسكن البلد مسلمون لهم جامعان أو أكثر وبعض الروم الذين ليس لهم إلا كنيسة واحدة⁽⁸⁾ وحينما توقف في البترون للعيب فيها

(1) أبو سعيد لجبيلي - عبيد بن حيان الحبيبي - زيد بن القاسم السلمي لجبيلي أبو هدية

الجبيبي - اسماعيل بن حصر بن حصار لجبيلي معجم ليدن، المجلد الثاني ص 109

(2) لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط دولة الأحشيدية، عمر التدمري ص 214. سميت حرود

مقاطعتي جبيل والبيروت. بلاد المتأولة، بيروت وبيروت المنصل غير، ص 222

(3) المسالك والممالك، أوردتها التدمري في المرجع السابق، ص 77

(4) لبحراج وصناعة الكتابة، التدمري في المرجع السابق، ص 188

(5) سفرنامه، ناصر خسرو ص 48

(6) خلاصة الاثر، المحلي، ج 3 ص 493

(7) رحلة سوريانو الايطالي، ص 212 ملحق كتاب بين الدور والمواردة، جيرار بويرفال

(8) de la roque p.16



وحدها مدينة ساحلية مهدمة وشبه صحراوية، ولم يجد فيها غير ماروني واحد «ستصافه لقضاء الليل» والثابت من الدهترانه العثماني أن الوحود السنّي كان هو الغالب في المديسين، بعد دحولهما تحت الحكم العثماني مباشرة، على عكس القرى والأرباه، حيث كان التعايش الشّمي لنصرني قائماً في مختلف أرجاء الناحيتين

كان الشيعة يعيشون في نحو ثلث قرى ناحية جبيل لئلا يحمّسوا وأربعين قرية بينما يتناسمون مع النصارى قرى بحة وطورزيا وحاج، أما في البترون فيعيش الشيعة في اثنتي عشرة قرية، منها سبعٌ محتلطة مع النصارى، وهي إيليج وحربتا وحلتا وحورات وأسيا وشبطين وتولا، بينما يعيش السنة في عشر قرى ثمان منها محتلطة مع النصارى، وتتوزع المداهب النصرانية على ثمانية وعشرين قرية أخرى.

أما هي ناحية الميظرة فقد كان الشيعة يشكلون الأكثرية من مجموع سكان الناحية هي قراها الشمالي، حيث يعيش الشيعة هي خمس منها، واحدة محتلطة، والنصارى هي القرى الثلاث الباقية.

تؤكد هذه الإحصاءات الموثقة أن حينئذ كان متعدد الطوائف والمذاهب عند دخولعثمانيين. وإذ كان العسة هم غالبية سكان المدن الساحلية فإن الشيعة والنصارى ومنهم الموارنة، كانوا يتقاسمون تعيش هي معظم قراه ومرارعه .

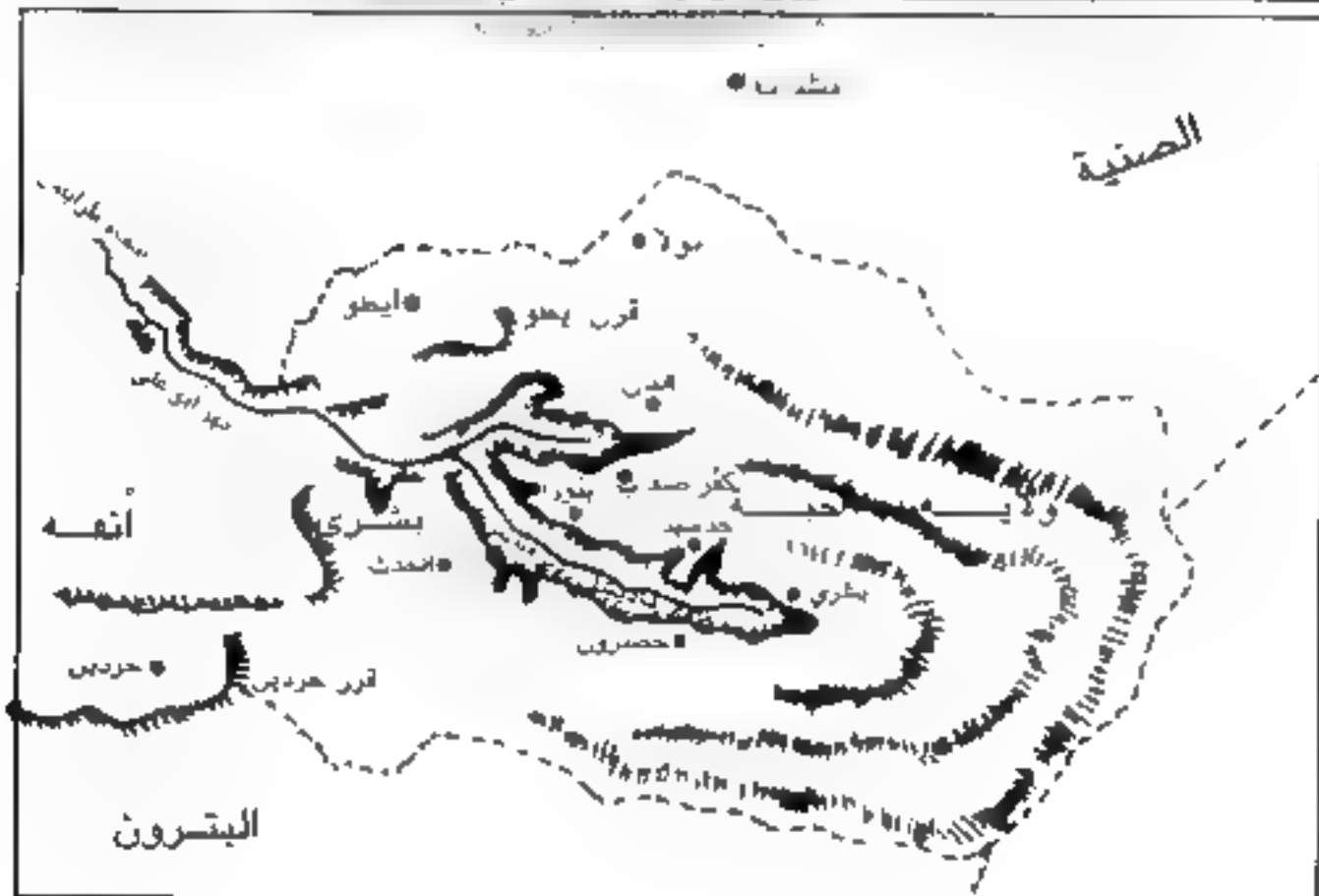
جبة بشري

إن طبيعة الطريق التي سلكها المهاجرون الموارنة الأوئل من ديارهم، حيث نشأوا هي جهات حماة وشبرر واقاميا، باتجاه حينئذ هي التي فرصت أن تكون حنة بشري قاعدة تجمع اساسية ينطلقون منها إلى المناطق المحاورة هي الجنوب فكانت هذه المنطقة بالعمل مهد المارونية اللبنانية قبل انتشارها في سائر الأنحاء

كانت جماعات المهاجرين بحار وري العاصي الصيق صعوداً باتجاه منبع النهر الذي يشكل حداً بين لشريط الخصيب على صفتيه، والأراضي المنبسطة شبه الصحراوية الممتدة وراءه إلى الشمال فكان عليهم الاختيار بين الاستقرار في المرتفعات القريبة حيث يندر الوجود السكاني أو لإعطاف إلى لغرب والصعود إلى القمم العالية نحو الحبال العربية، حيث تقع حبة بشري، لأن المناطق الواقعة إلى شمال السبع، وإلى الشرق منه هي أراضي قاحلة لا تمرى بالاستقرار فيها ولا يمكن اعتبارها إلا شق النمس على عكس السفوح العربية التي تمر عبرها أنسب الطرق إلى بشري فهي على الإجمال عذرة المياه و هرة الأشجار، تكثر فيها فسحات منبسطة من الأرض، تصلح لمختلف أنواع الزراعة، مما يجعل منها مستقراً مناسباً لكل فلاح يبحث عن أرض صالحة للزراعة تؤمن له القوت والأمان.

إذا انطلقنا اليوم من منبع العاصي، وسرنا على نفس الطريق الذي سلكه المهاجرون الموارنة في القرون العابرة، فلن نجد ثمة صعوبات كبيرة في اقتفاء آثارهم وتتبعها، على طول المسالك الحبلية التي تقود إلى الأودية والمبسطات القريبة من عابة الأرض

جبة بشري في عهد المماليك



طبيعة أراضي جبة بشري

حيث لا بد أن جماعات عديدة منهم قد استقرت مؤقتاً أو نهائياً في مزارع وقرى ودساكر، وأفامت أديرة وكنائس متواضعة على طول هذا الطريق، بقيت قائمة إلى عهد قريب، وبعضها لا يزال يمكن الإهداء إلى أثره حتى اليوم فعلى صخرة شاهقة تشرف مباشرة على نبع العاصي يقوم بناء عجيب، حفرته يد الإنسان هي الصخر بطبقاته الثلاث، لا يزال الأهالي يشيرون إليه باسم دير مار مارون، كما يطلقون على بقايا بناء مشابه آخر يقع تماماً في الجهة المقابلة، بشرفة على الصمة الغربية للنهر اسم قصر البنات⁽¹⁾ وفي قعر الوادي بين القصرين، يتدفق النهر من معارة الراهب⁽²⁾ وتملك الأراضي المحيطة بهذه المعالم حتى اليوم للرهبانية المارونية، اللبانية في دائرة واسعة حالية ليوم من كل وحوود ماروني وعلى بعد أميال قليلة إلى الغرب، تقوم بقايا كنيسة قديمة أثار توافيسها، التي كانت لا تزال تفرع إلى عهد قريب داعية المؤمنين إلى ممارسته طقوسهم المارونية، مشكلة إدارية معقدة بين متصرفية جبل لبنان وسلطات الولاية العثمانية⁽³⁾.

وإذا تابعنا سيرنا باتجاه الحرود العالية فسوف نمر بمزارع مسائرة يعيش فيها الموارنة والشيعة في بيوت متجاورة، وبمأسمون ملكية الأراضي، المرمية وليس من المستغرب أن تصادف في طريقنا عائلات شيعية ما زالت تحمل أسماء القرى التي رحلت منها والتي تقع في أي مكان من لحة، حتى أطراف الكورة والراوية الشيء الذي نلمسه واضحاً في اجتماع بعض هذه قرى بأسماء تدل على أن سكانها السالمين كانوا يدورهم من الشيعة⁽⁴⁾.

لذلك كان من الصعب تحديد المدى الجغرافي الذي تشملته مقاطعة حبة شري⁽⁵⁾ التابعة لولاية طرابلس في العهد العثماني، ونسباتها أيام المماليك لعدم ثباته على حدود دقيقة هي مختلف الحصب وإن كان ندح صغر هذا التحديد على الدوام الحرود

(1) يدل اسمه أنه كان ديراً للرهبان

(2) ينبع نهر العاصي من معارة تحمل هذا الاسم

(3) حصل خلاف حول هذه الكنيسة بين مدير حمص ومدير البهمل الفتصى تمييز لحة مشتركة بين الولاية والمتصرفية للبت فيه برئاسة ابراهيم الأسود (راجع دحائر لبنان لأسود)

(4) هذه القرى عديدة مثل رعرنا المناوبة وبيت رعيير وهما اليوم في قضاء رعرنا

(5) جاء في معجم البلدان لياقوت أن الحبة قرية من أعمال طرابلس الشام منها أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن بن أبي المرح وكان تميماً صاحباً توفي بصفهان في جمادى الآخرة سنة 605 هـ وبدو من سمه ومكان وفاته أن العال على التشيع

المأهولة بكثافة شيعية ملحوظة ليوم كما هي المأوى البعيد، فليس من شك أن الطائمتين تعايشتا لفترة طويلة في قرى متجاورة أو محتلمة، وتشاركنا في مختلف النشاطات السياسية والإقتصادية وحتى المذهبية منذ ما قبل العهد العثماني وأثناءه، في الفترة التي اتسمت بصراع مذهبي حاد بين الموارنة وغيرهم من البصارى، والتي لم يكن من النادر فيها أن يكون الشيعة إلى جانب أحد المريقين⁽¹⁾.

إذا كانت جبة بشري مهد الموارنة هي لبنان فليس معنى ذلك أن هذه الطائفة قد وجدت قبل غيرها رمزياً في هذه البعثة. فاعتقد أن طوائف بصرانية أخرى كالروم واليعاقبة والسريان، عاشوا في أنحاء متفرقة من جبل لبنان، بما فيه جبة بشري في عهد قديمة، كما أن الوجود الإسلامي فيها كما هي سائر أسحاء جبيل والبشرون وجوبية، وغيرها من المدن والقرى يعود إلى لفرور الأولى لظهور الإسلام. وقد ظهر في هذه البواحي الكثير من العلماء المسلمين البارزين في مختلف المجالات الدينية والعلمية ومند ما قبلفتح العثماني بدأ التحصير الضممي النازل على مسرح الأحداث التاريخية يظهر في الحجة هي مناسبات متعددة تدل على أهمية دورهم وأولوية السياسة والقيادية. هذا الدور الذي استمر بقوة في العهد اللاحقة حيث انحصرت الولاية والحكم فيها كما هي غيرها من مناطق جبل لبنان، بهم دون غيرهم من الطوائف الأخرى

وبلاحظ في الدهر بأمة العثماني العائد لسنة 1516م وسنة 1517م وجود العديد من القرى الشيعية الصرفة، ولا سيما بين حسن ورعرتا، التي لم تكن حينها أكثر من مررعة صغيرة، وقرى أخرى محتلمة بين بطشمتين كما يلاحظ بعض الاسماء التي تؤكد على عمق التعايش والتعامل الوثيق وتفاعل المتبادل بين الطائمتين مثل بطرس علي مرقص واسطمان علي حسن وهذا أمر له دلالة التاريخية البارزة خصوصاً وأنه لم يعد أمراً كثيراً الشيوع في هذه الأيام⁽²⁾.

وقد أكد بعض الرحالة الأوروبيين وجود هذا التنوع الطائفي في قرى الجبة⁽³⁾.

(1) كان الشيعة يهاجرون الموارنة أحياناً واليعاقبة أحياناً أخرى.

(2) لبنان في أرشيف سلميول عصام خليفة ص 91-92

(3) Memoires L. p Arvieux p 174



بهرت



صيدا

الفصل الرابع

المدن الساحلية

بيروت وصيدا

على اثر الاحتلال الصليبي، وعمارات المموس، دُمرت مدن الساحل اللبناني تدميراً يكاد أن يكون تاماً فقد دام حصار طرابلس خمس سنوات، ثم دخلها الغزاة وملكوها بالسيف، وبهتوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها ولما دخلها فلاوون سنة 1289م، هدم المدينة وأقام أخرى جديدة في مكان بعيد عن البحر، وكذلك أحدث الحبوب وأهل ببرا، مذبحة رهيبه في سكان بيروت ولم يكن صيدا اسعد حالاً فقد تداولتها أيدي المسلمين والصليبيين والمموس سبع مرات على الأقل، في مدة لا تتجاوز القربين انتهت بتدميرها بشكل كامل على يد الأشرف عام 1291م" وبعد أن هال عنها الرحالة ناصر خسرو انه لم يرمثلها على وجه الأرض أصبحت عام 1321م هي أيام أبي المدين، مدينة صغيرة وضميرة فيها قلعة مهذمة وكدت صور التي أطب الرحالة بفسه بوصف مياهها وثرانها من بين مدن ساحل الشام، لم يجد فيها ابن بطوطة الا حرايا، وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاص، وكان قد عذرهم جميع أهلها عند سقوطها، ولم يبق بها إلا صعلوك عاجز عن الحركة¹⁴⁸

إن المحن والحروب والعمارات والحواف من عرو، حولت هذه المدن القوية والحصينة، إلى حرائب شبه مهجورة، أقرب إلى أن تكون قرى صغيرة مهملة تنكي عرها القديم ومعدتها الغابر.

تناوب المتعاربون على هدم هذه المدن، وقتل سكانها ونهجيرهم، فلم يسلم من

(1) تاريخ لبنان، هليلب حتي ص 148

(2) ابن بطوطة، ج 1 ص 64.

سكانها، القدامى أحد، ممن نجا من لفتن والأسر، هرب إلى مناطق أخرى طلباً للسلامة، ولم يعد يهتم بامرها أو بأمر العودة إليها بعد مرور السنين وتعاقب الأجيال ولا بدأت هذه المدن تسعد القليل من عمرها السابق في ظل سلطة المماليك القاسية، وتواحد لتعيرها جماعات جديدة، كان من الطبيعي في ظل ظروف سياسية قمعية ومعادية، أن لا يكون بينهم أحد من الشيعة، إلا ما حصل للقرى والأرياف والجبال الواقعة إزاء هذه المدن، كان محتلاً ومديراً تماماً، لأن سيطرة الصليبيين عليها لم تستلزم خوص معارك كبيرة إنما كانت تحصص بدون دفاع تقريباً، كما يحصل عادة لمن يسيطر على المدينة الأقرب التي تشكل بحكم قوة المد العمران، المركز السياسي والعسكري والإقتصادي، لما يقع في نطاقها من أرياف

وبما أن الفاتحين المحدد القادمين من غرب، ليسوا في عالييتهم ملاحين ومرارعين ينشدون الإقامة والإستقرار، وبما هرسا من مقاتلون وسلاء سمعون إلى الفتح والسلطة يرافقهم بعض الدعار، وهذه هئات من الناس تسكن عادة في المدن والمواشي، وقلما يهتمها ما يجري في القرى والجبال إلا باعتبارها مصادر إنتاج ودخل تمرص المصلحة بقاء سكانها في أرضهم واستقرارهم فيها لاستمرار دور الإنتاج ودفع الضرائب المفروضة والمستحقة، وهي ضرائب ضخمة، يقول ابن حبيب إنها تبلغ نصف الغلة، ومن كل رأس دينار وخمسة قراريط ولهم على ثمر الشجر صريفة خميفة، "أبقى الريف في منأى عن التبدلات السكانية الكبيرة

تميزت مدينة صور بمصير مختلف عن غيرها من المدن الساحلية اللبنانية، كطرابلس وبيروت وصيدا، فقد عمّرها من بشارة تعد حرايتها الكامل إثر الحروب الصليبية (1284م) وجعل لها أمواهاً وبقى إليها حلقاً من الناس، وحصنها ودافع عنها مع حلفائه بوجه الغارات البحرية التي بقي الفريج يقومون بها إلى وقت متأخر كما أعاد إعمارها أمير شيعي آخر، هو عباس محمد النصار وجعلها مقراً لسكانه، فاستعادت سبلها إلى العمران من جديد. أما باقي المدن اللبنانية الساحلية الثلاث التي دخلت بعد دحر الصليبيين تحت السلطة المباشرة للنائب المملوكي، فقد تجلب أهل الدمة كما فعل الشيعة، لعودة إليها أو السكن فيها هرباً من الأوامر الرسمية والأعراف التي تقرص عليهم جملة تدابير استثنائية، جعلت من سكانهم في المدن، أو حتى

زيارتهم لها، محاربة محفوفة بالمخاطر وتستوجب التقيد بإجراءات معقدة ومهينة، فصل الدمى والشيعة معها البقاء بعيدين عنها والإقامة في الجبال والأرياف حيث يتمتعان بقدر أكبر من الحرية والامان.

«سنة 1363م يودي في البلد على أهل الذمة بالرامهم بالصغار وتصغير العمائم. وأن لا يُستخدموا في شيء من الأعمال، وأن لا يركبوا الخيل ولا البغال، وأن يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات أجراس، وأن يكون أحد التعلين أسود مخالفاً للون الآخر»

أما الشيعة فلم يمرض المماليك عليهم أية عقوبات من هذا النوع، لأن العقوبة الشرعية للتشيع عندهم، هي القتل والتمثيل والنسب في سلبات وسائل التعذيب والهلاك⁽¹⁾

«في التاسع من شعبان سنة 941 هـ حرق لعاصي شمس الدين محمد بن يوسف الدمشقي نائب ابن الشحنة بمصر وابن يوسف بدمشق، شخصين تحت القلعة، بعد أن ربط رقبتيهما ويديهما ورجليهما في حوازيق، ثم ألقى عليهما الصب واليوازي والحطب إلى أن صاروا كوم رماد ثم ألقى في نهر بردى لأنه ثبت عليهما أنهما راهبان»⁽²⁾

إن هذه العقوبة الرهيبة التي يحكم بها على الشيعة، دون أن يرتكب جرماً، إنما سبب انتماؤه المذهبي، حتمت عليه، إذا لم يشأ أن يترك مذهبه، أن يسكن في مكان بعيد لا تطأه فيه أيدي السطلة وأحكامها وهذا ما يفسر أن المدن المذكورة حلت من السكان الشيعة حتى عصرنا الحاضر وإن عاش فيها جاليات مسيحية، ولا سيما بعد اعتماد نظام الملة في الدولة العثمانية، وشمول الحمية القبلية معظم النصارى بينما كان الشيعة محرومين من كل حصة فكن مهم مهذورا، يحكم القانون، في كل وقت، ولم يبق لهم إذا شاءوا البقاء على اعتقادهم من حماية إلا اعتماد التقية

«التقية» لغة هي الحذر وشرعاً هي إظهار خلاف لواقع هي الأمور الدينية بقول أو فعل جوهراً حذراً على النفس أو المال أو لغيره، وهي حائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة⁽³⁾

(1) «بدييه وانتهية، بن كثير ج 14 ص 305 وبيانه طرابلس في عهد المماليك ليدان المطار، ص 286 - 287.

(2) أعلام الوري، ابن طولون ص 280.

(3) تقرير لجنة لمسجد محسن الامين، وقد دس بها شيعة وصنفوه دون حرج أو إنكار وتمسك بها الحميريون، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ج 11 ص 85 وما يليها

إن من شأن من الشيعة الإقامة في المدن أو الأماكن، لتي لا يصعب على السلطات الوصول إليها ولم ينشأ الحماية من القتل ولا اضطهاد هي الإلتجاء إلى الجبال والأماكن التي يمكن أن تؤمن حماية طبيعية لسكانها. بسبب وعورة مسالكها أو صعوبة اجتيازها، سيجد حتماً في التقية لحماية الوحيدة المتيسرة له، بانتظار تغير الأحوال فيلجأ إليها، ويقوم بممارسة طقوسه المذهبية في أحياء، وبممارسة طقوس المذهب الذي اختاره تقية وهو عادة مذهب الأكثرية في المدن.

إن التقية وسيلة حمايته عملية وباححة إذا اعتمدت في ظروف استثنائية، ولادة محدودة لا تسمح لمن يلجأ إليها، أن يبني مذهبه الأصلي وطقوسه خلالها فكما طال الوقت وتعمقت لأحياء فترت معرفة المتقي بجميعة مذهبه الأصلي وتأسل تعودته على ما يتظاهر به، حتى يعيب عنه في النهاية به ليس إلا وسيلة شرعية لدرء الأذى ويحال أن هذا هو مذهب الوحيد.

من عادة الشيعة أن لا يتذكروا هذا التاريخ لا في الأيام الصعبة، ولا بد أن من مارس المذهب السني تقية، ولأحبال عدة، قد آسب مع مرور السنين أنه وهو مذهب الحاكم، مارسه على سبيل التمية، فأخذ يحسب نفسه سنياً، وهذا ما يفسر على الأرجح منشأ الجماعات السنية المتوحدة حالياً في قرى المصاع الأوسط ووادي التيم وبعض قرى إقليم الحروب⁽¹⁾ إلا أن تأثيره الكبير ظهر حلياً في أحياء توحيد الشيعي تماماً بين سكان المدن الساحلية الكبيرة، بينما لا يزال حتى اليوم غالباً وممتشراً في صوحيها القريه حيث السرية والحصي أيمر مثلاً عما هو داخل المدن نفسها، إن العوامل ذاتها التي أدت إلى انحسار التشيع عن المدن الكبيرة، ذهبت بأعداد كبيرة من السنة إلى اختيارها للسكن كما استخدم المماليك عائلات كثيرة من التركمان، وأسكنوها في المدن والسواحل، بعد أن منحوها امتيازات سلطوية وعسكرية بحيث أنها شكلت جراً من التسيج الحاكم كما أن عدداً من التجار القادمين من المغرب ومصر، أو بعض جبر المتوسط، بالإضافة إلى طبقة من أعوان الحاكم أو النائب، الطامعين بمنصب في بطانه أو ولايته، أو خدمه في جنده، وهم عادة من نفس مذهبه وعرقه، سواء كان معلوكياً أو عثمانياً، هيما بعد حيث لا يزال حتى اليوم الكثير من العائلات السنية في بيروت وصيدا وطرابلس تحمل أسماء تمت بصلة واضحة إلى أصولهم المتوسطية أو المهراني مارسها أجدادهم في الإدارة الحاكمة.

(1) أي المذهب الشافعي

(2) تاريخ لبنان الحديث، كمال الصليبي ص 18

نعد أحد الشيعة يحتفون من أكثر مدن اسدحل السناني، لتحل محلهم جاليات سننية تركمانية، وهي مرحلة لاحقة جاليات مسيحية خصوصاً من الروم الأورثوذكس، يسرت لها الحماية القنصلية امتيازات تجارية وقصديه واسعة. جعلت كل طائفة تلتف حول الدولة الأحنينية الحامية فأصبحت وكأنها من رعايا هذه الدولة مثلما هم السنة من رعاية الدولة الحاكمة.

إن هذا التغيير الديموغرافي الذي طرأ على اسدحل السناني وخصوصاً بيروت وصيدا، لم يمر دون مقاومة شيعية حاولت التصدي له وتعطيل مسيرته رغم جهود السياسة الرسمية التي نوسلت القوة والقمع لتعريضه وتأمين استمراره.

صدر عن والي دمشق في 25 جمادى لأخرة سنة 764هـ، الموافق 20 نيسان 1363م، توقيع كريم بعلب أهل صيدا وبيروت وأعمالها، من اعتقاد الراهضة والشيعة وردعهم والرجوع إلى السنة والجماعة، تحت طائلة لفتل والاستئصال وتعميم العذاب واستباحة الدماء والأموال.

وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وصواحيبها وصيدا ونواحيها، وأعمالها المصاحبة اليها، وجهانها المحسوبة عليها، ومزارع كل من الهيئتين وصياعها، وأصفاعها وباعها، قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه، وعملوا به وقرروه وشبهوه في العامة وبشروه، وأحدوه ديباً يعتمدونه، وشرعاً يعتمدونه، وسلخوا منهاجهم، وخاضوا لحاجه، وأصلوه وفرعوه وتدينوا به وشرعوه، وحصلوه وفصلوه وبلغوه إلى نموس أتباعهم ووصلوه، وعظموا أحكامه () وأردنا أن نجهز طائفة من عسكر الإسلام، وفرقة من جند الإمام، تستأصل شأفة هذه العصابة الملتحدة، وتطهر الأرض من رجس هذه المفسدة، ثم رأينا أن يقدم الأبدان، ونسوق إليهم بالأعدان، فكتبنا هذا الكتاب، ووجهنا هذا الخطاب، ليقرأ على كافهم، ويبلغ إلى خاصتهم وعامتهم، يعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها، والمذاهب التي يتحلوها تبيح دعاءهم وأموالهم وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم، ()

إن اقتضار هذا المنشور على أهل بيروت وصواحيبها وصيدا ونواحيها، دون سائر الشيعة في جميع أنحاء السطنة كلها، يؤكد على أن هناك وضماً شيعياً خاصاً متحركاً وفاعلاً في هذه المناطق لم يتعد إلى غيرها.

ولم تكن المرة الأولى التي يتحرك فيها شيعة بيروت، وتضطر السلطات إلى التدخل لاحتواء الوضع، فقد سبق قبل عدة سنوات، سنة (1372م) أن قام الشيعة في بيروت، من الدين اعتمدوا التقية خوفاً من الحاكم، بحركة عامصة لم يتعرض لها صالح ابن يحيى بتفصيل بوصح مداها وطبيعتها، من ذكرها هي مناسبة الحديث عن علاقة أبيه الأمير بالحاكم المملوكي.

«لما تحركت الشيعة ببيروت وأظهروا لقيام بالسنة ومعهم مرسوم سلطاني وكانوا في الباطن قائمين بمذهب أهل الشيعة فحرى في بيروت بذلك حركة ردية»⁽¹⁾.

إن معرفة تفاصيل هذه الحركة الردية التي قام بها «شيعة الساحل المتسنتين» من أهل بيروت⁽²⁾ وكذلك معرفة أسباب صدور التوقيع الأندلسي الموجه إلى شيعة بيروت وصواحيها وصيدا وبواحيها، بالعداء والاستئصال، هو سابق رسمياً للحقبة العثمانية التي تعرض لها أساساً وأبعاداً من التأكيد، أن الشيعة هي ذلك الوقت كانوا يشكلون جزءاً مهماً من سكان المدينتين وملحقاتها، رغم تسميتهم بالتسني تقية دون أن يتمكنوا من إقناع أولى الأمر بصحة معتقداتهم وانهم تلاشوا مع الوقت من بيروت وصيدا وإن استمعوا هي صواحي الأولى وبوحي الثانية.

إن هذا التوجه أو المشور الرسمي، الذي أصدرته السلطة يشير إلى جانب تاريخية لافتة أهمها

أولاً «إن هي بيروت وصيدا وبواحيها، وحوادٍ شيعياً مرموقاً ومتمللاً، تحسب له الدولة حساباً وتوجه له إداراتها قبل الميادان بحرايات عسكرية لاند أنها صالحة حتى تستدعي كل هذه المقدمات.

ثانياً يحدد سياسة الدولة بوصوح وجلاء، تحاه رعاياها من الشيعة، وهي المنع التام لهذا المتقدم، وإرجاع أهله إلى المذهب الرسمي، وإلا فلا بد من قتالهم وتعذيبهم وإبادة دمايتهم وأموالهم وإرسال عسكر لإستئصال شأفة هذه العصابة المتحدة

ثالثاً إن الوجود الشيعي في بيروت وصيدا، هو ناشط ومتحرك يعلن عن نفسه بالخروج عن التقية والظهور العسي، وما يستتبع ذلك من تداعيات مذهبية وسياسية واجتماعية، يمكن أن يشكل تهديداً للسلطة الحاكمة ويوجد واقعاً مريباً لها لا بد من معالجته والإهتمام به.

(1) 129 تاريخ بيروت، صالح ابن يحيى، ص 195

(2) تاريخ لبنان، مكي ص 254 (يتظاهرون بالسنة) تقية على المذهب الشافعي

طرابلس

«سكان طرابلس كلهم شيعة، وقد شيد الشيعة مساجد جميلة في كل البلاد، وهالك بيوت على مثال الأريطة ولكن لا يسكنها أحد، وتسمى مشاهد. ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبداً عدا مشهدين أو ثلاثة من التي مر ذكرها. مساحة المدينة ألف دراع مربع وأريطتها أربع أو خمس طبقات ومنها ما هو ست طبقات أيضاً، وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة، حتى لتظن أن كل سوق هو قصر مزين. ويقال إن بها عشرين ألف رجل، ويتبعها كثير من السواد والقرى وتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والصرب والأندلس والمغرب العشر للمسلطان، وللسلطان بها سمن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للسحارة»⁽¹⁾

من الواضح أن مدينة طرابلس كانت من كريات المدن عندما زارها الرحالة الشهير ناصر بن خسرو في بداية القرن الحادي عشر، وأن حركتها التجارية النشطة، وأريطتها ذات الأربع أو الخمس وأحياناً الست طبقات، كما أن الرقم الذي ذكره الرحالة يصيد أن عدداً كبيراً من السكان كان يقطن فيها، إلا أنصفنا النساء والأولاد إليه.

إن المساحد التي شيدها الشيعة في كل البلاد، بعد أنهم موحودون أيضاً في البلاد القرية منها، والسواد والقرى التي تتبعها فلا يمكن أن يكون انتشار التشيع فيها ظاهرة معروفة عن محيطها. وقد صنعت، بعد فترة وحيزة من ذلك التاريخ، مقر إمارة شيعية مردهرة أسسها القاضي أمين ندوة الطائي، واشتهرت بعمرائها ومكتبتها التي تحوي أكثر من مئة ألف مجلد مما يؤكد أيضاً على كثرة سكان هذه الإمارة التي امتدت من حيلة في الشمال، إلى جبل في الجنوب، قبل أن تسقط في أيدي الصليبيين على عهد آخر أمرائها فخر الدولة الذي ذهب إلى بغداد هي محاولة يائسة وفاشلة لإيقاد إمارته عن طريق استنهاض لعناصريين لحدثها، والدفاع عنها ومحاولة تجنب المصير القائم الذي كان ينتظر مدينته.

ثم تُسترجع طرابلس من الحكم الصليبي، لا على يد السلطان المملوكي قلاوون سنة 1289م، والذي ثار لها وحاصرها بالمتحاربين حصاراً شديداً، وضيق على الأهالي تصديقاً عظيماً ونصب عليها تسعة عشر محبيقاً حتى فتحت عبوة، وشمل القتل

(1) سمرقانة، ناصر خسرو ص 48 يكون عدد سكان طرابلس عندما زارها لرحالة قياساً على الحسابات التي اعتمدها في غير مكان $20000 \times 6 = 120000$ (مائة وعشرون ألف نسمة)

والأسر جميع من فيها، وغرق كثير من أهل الميناء وسبيت النساء والأطفال».

ثم أمر السلطان قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العماائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها. وأن يبنى على ميل منها بئس عيرها أمكن منها وأحسن. فهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس،

لقد احتفت هذه المدينة العظيمة من لوجود بحرها وبشرها وقامت مكانها مدينة أخرى بسكان آخرين، لا يعتنوا إلى أهلها قدامى بصله⁽²⁾ ومن المعروف أن قسماً كبيراً من سكان طرابلس قد رحل بإزاء الصليبيين⁽³⁾.

فمن هم هؤلاء السكان الحدو؟ أين ذهب سكانها القدامى الأصليون الذين عاشوا فيها قبل الاحتلال الصليبي عندما كانت مدينة زهرة وحاصرة إمارة بعلبك؟

لا بد أن الآلاف من سكان هذه المدينة المزدحمة، تمكنوا أثناء الحصار وبعد سقوطها، من النجاة من المذابح والأسر وهربوا منها إلى مكان آمن، وملحاً حصين يراقبون الأوضاع من هناك بانتظار مصير المدينة النهائي.

إن الجبال الوعرة والشاهقة القريبة من المدينة تشكل ملاذاً مثالياً لا يحمي على أحد من الهاربين لقربها وسرعة الوصول إليها ووعورة مسالكها التي يصعب عائداً أمام تقدم الحيوش نحوها ولا بد أن هؤلاء الهاربين من المدينة وحوارها أو قسماً كبيراً منهم، قد توكل في هذه الجبال يشد لأمر ولاطمئنان بعد النجاة من الممارك وما أعقبها فلما استتب الأمر للمرأة الماتحة لم يعد أحد من هؤلاء الهاربين إلى داخل المدينة، لأنهم لن يأمنوا على أنفسهم من العيش تحت حكم سلطة معادية عربية الدار والدين، عرفت بقسوتها واشهرت بما قامت به من مذبح فقيقت أعداد كبيرة من الأهالي حيث هي هي قلاعها الطبيعية الجبلية التي عرفت بمساعة شعابها، وتوفر القوت والماء هي ربوعها وهكذا اشترت في حبس لبنان، أعداد وفرة من الشيعة، نفرقوا في جرودهم لكثرتهم وتورعوا في الجبال القريبة من الناصرة هي الشمال، حتى أقصى جنوب كسروان، مروراً بالمنطقة الجبلية الشاهقة الواقعة شرقي مدينتي البترون وجبيل حتى تحوم بيروت.

(1) المحاصر في تاريخ البشر، أبو المداء، الجزء الرابع، ص 24

(2) Introduction A l'Histoire Urbaine De la syrie ottomane

Antoine ABdel Nour p308 «واسمها طرابلس الجديدة التي أدرب ظهرها لماضيها»

(3) نهاية طرابلس في عهد المماليك، إلياس المصاوي، ص 197

وهذا ما يصير الكثافة الشيعية التي كانت تعيش في كسروان القديمة، عندما استهدفت لهجمات المماليك الإهائية والتأديبية في مستهل القرن الرابع عشر.

«طرد المتأوثة من طرابلس التي كثروا فيها وانتشروا في الجبل وكان معظمهم في الكورة في القرن الخامس عشر ثم انصهوا إلى السيطرة».

كان من المستحيل أن يفكر الهاربون باللجوء إلى مدن الداخل التي لم تقع في أيدي الصليبيين، أو الاستقرار فيها، لأن المماليك وقيهم أسياهم الأيوبيون، قد مارسوا أقصى تدابير النطش والسيكيل ضد الشيعة وحتى لو أقدم بعضهم على ذلك، فلن يستطيع الاستقرار طويلاً، لأن السياسة المملوكية كانت تتدرج باستمرار نحو اتحاد مواقف أشد قسوة تجاههم وعندما استرجع المماليك طرابلس والساحل، لم يكن من المنتظر أن يعود أحد منهم إلى دياره السابقة لأن عشرات السنين قد مرت واستقر اللاجئون في بلادهم الجديدة ولم يعد الشعور باسماتهم القديم يساورهم، ومن جهة ثانية، لأن حشيتهم من السلطة الجديدة لا تقل عن ما كانوا يحافونه سابقاً

أما سكان مدينة فلاوون الجديدة فقد كانوا على الغالب من الجماعات التي تعود المماليك الاعتماد عليها في الحالات المشابهة فلا بد أنهم اقتصروا على جماعات من الجنود والتركمان والموطمين وبعض التجار والساعين إلى الرزق في مدينة من المقدر لها، أن تكون مركز التيا به الحديد كما حصل فعلاً بعد سنوات قليلة وهي جميع الأحوال، فإن هذه المدينة التي كان يسكنها فيما مضى عشرات الألوف من الشيعة لم يحتو جدول الصرائب العثماني العائد لها أكثر من تسعة آلاف اسم سنة 1633م يردها انطوان عند النور إلى أصول أندلسية وتركية وتركمانية من المسلمين السنة، وأصول ريمية من الكورة أو من وادي النصاري من الارثوذكس⁽¹⁾، إلا أن أحداً من الشيعة لم يفكر بمجرد السكن في طرابلس أو في بيروت وصيدا، بعد أن صارت المدن الثلاث مركز النائب المملوكي الذي كان يقيم في طرابلس أو الوالي العثماني الذي أصبح فيما بعد يباشر سلطاته في المدن الثلاث.

(1) دواني القطوف، عيسى سكندر المعروف، ص 204.

(2) Introduction A l Histoire Urbaine De La syrie ottomane. Abde Nour p 308

صور

قبل سقوطها هي يد الصليبيين كانت صور «مدينة مزدهرة ربطتها من خمس أو ست طبقات، وكلها متلاصقة، وهي كثير منها نافورات، وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات، وقد صرفت بين مدن ساحل الشام بالشراء ومعظم سكانها شيعة⁽¹⁾». فلما ملكها الصليبيون، جعلوا منها مركزاً حربياً وحصوها وزادوا في عمرانها، حتى صارت مدينة يضرب بها المثل هي الحصانة أعدها الفرنج معزماً لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم. هي الطب من عكا سككا وشوارع، وأهلها الذين هي الكفر طبائع، واجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنارع فحلائقهم أسجج ومبارلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وسكن⁽²⁾

سقط بيد الأشرف خليل سنة 1291م، هدمها، كما فعل في باقي مدن الساحل وبقيت حرباً كما وحدها ابن بطوطة حين مر بها سنة 725 هـ - 1325 م⁽³⁾. وجاء في صبح الأعشى عند ذكر أعمال صفر عن صور «هي مدينة قديمة بساحل دمشق وبنائها من أعظم أنسية الدنيا وكانت من أحسن الحصون فلما فتحها المسلمون خربوها خوفاً أن يتحصن بها، لعدم وهي خراب إلى الآن».

وهي أواخر القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد)، «لم يكن فيها إلا محل صغير على شاطئ البحر يقال عنه ملاحه، أي مستودع للملح، حتى بناها وسكنها الأمير الشيخ عباس محمد ابن بشار، المعروف بالشيخ عباس المحمد، الذي كان حاكماً على ناحية ساحل قانا، وكانت صور داخلة في حكمه، فجاء إليها وأنشأ بها الأبنية منها السرايا والبياء الذي كان على باب المدينة، والجامع القديم والحمام، وعدة معارض، وجلب إليها السكان وجعلها مقر حكومته إلى أن توفي فيها سنة (1189 هـ 1775 م) ولا يعلم هل عمرت بعد مرور ابن بطوطة وقتل بعمير الشيخ عباس لها، وبين الأمرين نحو 400 سنة» ومن المعلوم أن أحمد بن بشاره عقر صور بعد حرايتها وجعل لها أسواقاً وبعل إليها الناس وحصنها سنة 1420م⁽⁴⁾

(1) سمرقانة، ناصر خسرو ص 50

(2) رحلة ابن حبير، ص 277

(3) رحلة ابن بطوطة، ص 63

(4) حصن جبل عامل، محسن الامير ص 266 و د م إ ش حسن، الأمين، ج 12 ص 122

(5) تاريخ لبنان، محمد مكي ص 269 (عن الاسدي)

أردهرت صور هي عهد باصيف النصار بعد عمارها، وأصبحت ميناء جبل عامل التجاري ومركزاً سكانياً وسياسياً مرموقاً ومن حواضر الشيعة المهمة⁽¹⁾.



H. Fenn 1854

صور في القرن الثامن عشر

(1) بنى عباس في صور ديراً للحكومة ثم بزل عامرة إلى اليوم وشاء فيها معجداً وكنيسة وسوقاً ودوراً كثيرة، وأمكن فيها عائلات كثيرة من جبل عامل وحسن بسن وتم يعض أربع سنوات حتى عدت بلدة تجارية كثر فيها الأخذ والعصاة وأمتها السمن التجارية تاريخ صاهر لعمر لصباغ



مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی

الفصل الخامس

حواضر العلم عند الشيعة في لبنان

جزين

من مشاهير بلاد جبل عامل، زدهت العلم الاسلامي على امتداد قرون طويلة بعدد يصعب حصره من رجال العلم والأدب استثمروا في بلاد الشام والعراق وفارس والهند والأفغان والحقار وكان جميع أهلها من الشيعة⁽¹⁾ مشهوره بعلمائها ومجاهديها⁽²⁾ وقد أطلق عليها بلاد المبادنة لكثرة ما فيها من المادني⁽³⁾ أسأ فيها الشهيد الأول مدرسة علمية أشبه بالمجمع العلمي، يخرج منها عدد وافر من رجال الفقه والدين بعد أن تعطلت الحوزات في النجف واضطربت الدراسة على أثر غارات التتار وبكفة بغداد⁽⁴⁾، حتى قاربها العاملون بالنجف⁽⁵⁾ وعدوها من مصادرهم العلمية والدينية⁽⁶⁾ واعتبروا خروجهم منها من أفسس النكبات التي حلت بهم

من حوراتها المدمرة انطلقت حركات الإصلاح الديني التي هدفت إلى مجاربة البدع وإعادة المذهب إلى أصوله وتحرك الشيعة برعايتها وقيادة عالمها الشهيد الأول صاحب أحد المراجع الرئيسية لجميع دراسات الشيعة الإمامية⁽⁷⁾ ولكن الممالك قضوا على هذه الإنتماسة في مهدها وأعدم قائدها سنة 1348م⁽⁸⁾

(1) خطط جبل عامل، ص 288

(2) جبل عامل، علي درويش، ص 127

(3) الحلقة المقودة، علي جابر، ص 427

(4) معالم الأدب العاملي، عبد المجيد النهر، ص 79

(5) قال الشاعر العاملي إبراهيم بن الحسام

خرج بعريين يا مستعد النجف
فمصل من حلها يا صاح عير حمي

(6) تاريخ جبل عامل، آل صماء، ص 235

(7) هو محمد بن مكي الحريبي والشهيد الثاني هو زين الدين بن علي الحبيبي

(8) تاريخ لبنان، مكي، ص 245 - 253

تظهر الوثائق العثمانية الرسمية العائدة لقرن السادس عشر أن سكان مدينة جزين وباحيتها والبلدات الملحقة بها مثل روم ويسدين، اللقش ومشموشة وبسري كانوا جميعاً من الشيعة⁽¹⁾ ثم هاجروا أو هجروا منها وبمرفق هي البلدان بسبب ما توالى عليهم من الفتن والمحن⁽²⁾ في ظروف غير واضحة المعالم تماماً وهي فترات مختلفة وغير محددة.

يقول السببتي في الحوضر المجرى حول حرين

أظن أن خروجها عن جبل عاملة من أيام حجر الدين ولم يبق فيها من آثار الشيعة غير حيازة قد درست اليوم وجامع حراب كان بعضه باقياً وكان ههنا من درية الشهيد الأول جماعة إلى ههد غير بعيد وكذلك من أحماد المقدمين لشيعة

«لما استوطنت الدروز هي بلاد الشوف كانت عشائر المتاوله مستوطنة اقليم جزين ومستولية عليه مع ما يتبعه من ناحيتي جبل الريحان واقليم التفاح وكانت تلك الأنحاء برمتها مأهولة بالمتاوله وقد كانت جرين في ذلك العهد قصبه مهمه محشوده بالسكان وفيها جامع كبير ومبارة رهيمة وكان في جزين اثنا عشر شيخاً من العلماء الافاضل، فكانت جرين محط رحال طلبه العلم ومنتحى الأدب، لذلك جعلوا يشجعون بأنفسهم على البرور، وحدثهم بمسهم ببسط كف السيادة عليهم، فكثرت بين الطائفتين الحوادث والمنازعات التي آلت إلى استعارة نار حرب كانت سبباً في تقلص ظل المتاوله عن معظم أنحاء جزين الثلاث أي اقليمي جزين والتفاح وجبل الريحان،⁽³⁾»

من المؤكد أن جرين كانت هي الحقبة الأولى من العهد العثماني وقبل ذلك من حواضر بلاد الشام المهمة وكانت كما هو حال ما حاورها من البلاد كجبل الريحان واقليم التفاح ومشعرة مأهولة بالشيعة وحدهم وكان من حكامها في القرن الثامن عشر الحررحيون وهم عشيرة من الشيعة كما كنت عشيرة شيعية أخرى «آل برو» تتولى الأمور في إقليم التفاح من مركزها في كصر حوبة وكان مقدمو عرب حرين من آل علي الصغير ولكنهم انحطوا بعد العظمة واعتقروا بعد لغى بعد أن قرصهم أحمد باشا الحزار⁽⁴⁾.

(1) بواحي لبنان، حليلة ص 190.

(2) خطوط جبل مامل لأمين ص 228.

(3) الحركات، أبو شقرا ص 150.

(4) كشف اللثام، نوفل نوفل ص 173 (ملهم فيما بعد من ما توهمه نوفل وكثيرون غيره لم يكن في محله)

ليس في التاريخ اللبناني المعتمد ولا في التاريخ العاملي المتناقل ما يلقي الضوء على كيفية انحسار الشيعة وخروجهم من حرين وإقليمها وما حاورها. وهي التعرض لذلك من التناقض والتباين في التواريخ والأحداث ما لا يثبت قناعه أو يبرر سببياً. والمرجح أن النزوح الشيعي لم يكن وليد حدث معين أو معركة فاصلة في وقت من السهل تحديده كما حصل في كسروان إثر حملات المماليك وإنما هو أقرب إلى أن يكون نزوحاً قسرياً متبادياً على فترات متقطعة ومتتابعة لجماعة أثر أخرى. اضطرت تحت وطأة ظروف تاريخية واجتماعية واقتصادية ومذهبية إلى مغادرة ديارها إلى حيث يتيسر لها أمناً وحماية لم تعد تجدها في مهدها لأول. وقد تحدثت مصادر درزية ونقل عنها الكثيرون من العامليين المعاصرين عن معارك نشبت عام 1757م بين الدرور بقيادة يوسف الشهابي والمتاوله وعلى رأسهم المقدم على محمد لحروحي والشبحان جهجاه برو وعلي الجواد وبعد سلسلة من الغارات المتبادلة تبادل فيها العريقان النصر والهزيمة حصلت معركة جل الشوك التي انهزم فيها المتاوله وأنت إلى انحسار وجودهم عن معظم أنحاء حرين بما فيها أقاليم حرين والتماح والربعان فدخل الدرور على أثرها إلى المدينة⁽¹⁾.

إن هذه المرويات تدخل في إطار التقعيد الشعبي المتواتر وتتاهى مع الكثير من الثوابت التاريخية الراسخة ليس أهمها أن الأمر بـ يوسف لم يول كرسي دير القمر قبل ربع قرن من هذا التاريخ وأنه، بعد أن وصل إلى كرسيه، لم ينتصر في أي من معاركه التي حاصها في جبل عامل وهي كثيرة.

بدا الشيعة في حرين يعاون من الإضطهاد والقمع. كسائر العامليين، في الفترة التي تمكن أثناءها فخر الدين أن يمد سيطرته إلى مختلف أنحاء جبل عامل من خلال الترامه سنجق صمد، وأن حصوع حزين لسيطرته أدى، فيما بعد، إلى فصلها عن محيطها التاريخي وجعلها أحد الأقاليم التي يتألف منها جبل الدرور فانتقلت ملكية مساحات واسعة من الأراضي إلى العائلات الدرزية المتقدمة، الذين ستقدموا فلاحين من الطوائف المسيحية واسكنوهم في مدطو حرين وإقليم التماح، التي أحدها من المتاوله، ليعملوا في الزراعة لاعتماداً لأرض واستدرا بركاتها⁽²⁾ بالإضافة إلى أن

(1) الحركات، أبو شقرا ص. 151-155 كما يتحدث المصدر نفسه عن معركة وادي الحجير ومعركة الطيبة بين المتاوله وعلى رأسهم الشيخ أسعد الحيل انتهت بانتصار الدرور ودخولهم إلى المناطق المتنازع عليها وكانت آخر المعارك بين الطائفتين سنة 1894 انتهت بصلح عام شارك فيه المسيحيون إلى جانب الشيعة (راجع تاريخ جبل عامل صفا، ص 258 وما يليها)

(2) الحركات، أبو شقرا ص 157.

انحسار الحكم الشيعي عن هذه المناطق ترك سكانها المتأولة بدون حماية دائمة تدفع عنهم تسلط حكامهم العرباء وعصمهم وانضم الي حل بهم وأوجب هجرتهم⁽¹⁾ وقد استمرت هذه الهجرة عقوداً طويلة تكمره أو تتعارض تبعاً للظروف السياسية التي تتحكم فيها.

إن النكبات القاسية التي حلت بالعاملين هي حكم فخر الدين، ومن بعده أحمد الجرار وأخيراً في عهد بشير الشهابي الذي عهد بحكم حريين وأقليم التماح إلى ولده خليل⁽²⁾ وما عانى أهالي حريين من عنف وقمع خلال هذه السنين، أجبرتهم على ترك مدينتهم والإنتشار في بقاع شتى ولم يسمعهم كل ذلك من القيام بمحاولات يائسة للعودة إلى ديارهم، وسلحها عن جبل الدور، كان أهمها سنة 1749م فكلهم ذلك ثلثماية قتيل وأحرقت بلاد الشقيف وبلاد بشاره⁽³⁾

إن ابتداء هجرة الشيعة من حريين، كما يرى السيد محسن الأمين، لم تكن قبل (1255هـ - 1831م) وأن آخر من هاجر منها رجل من بني المقدم، وقد أدركه فيها رجل معمر من أهل هذا الزمان (1912م) كما أن آل شمس الدين، الموحودين في حون وعربصايم، كانوا فيها وهاجروا منها⁽⁴⁾. ويقول الشيخ يوسف البحراني الذي عدد أسماء هري جبل عامل، عن حزين: «إنها بلاد الشهيد الأول وبها دريته في هذا العصر»⁽⁵⁾.

(1) حطاط جبل عامل، الأمين ص 77

(2) تاريخ الشهابي، قسم 3 ص 776

(3) المصدر السابق، قسم 1 ص 41

(4) حطاط جبل عامل، الأمين ص 77.

(5) توفي 1724م

مشغرة

إن موقع مشغرة الحمراهي كقطعة، توصل وعور بين أطراف البقاع الحنوية وتخوم جبل عامل، منحها أهمية خاصة عند الشيعة مما جعل منها، كجارتها جرين منذ وقت مبكر قبل الفتح العثماني، مركزاً شيعياً سياسياً وعلمياً مرموقاً، ومركز استقطاب للهجرات الشيعية الواحدة من مناطق الاصطهاد الشيعي، وخصوصاً كسروان بعد نكبتها، وكانت مقدمة حرين الشيعية متحالفة مع مقدمة مشغرة الشيعية بزعامه بني صبح⁽¹⁾ بعد أن انضموا بني تغلب على تقدم والنفوذ في المنطقتين ثم تعرضت القصبتان إلى حملات قمع مملوكية شبيهة بحملات كسروان استهدفت تأديب السكان المفسدين في الأرض و ستخصهم،

في سنة 690 هـ - 1291م قام لاجين نائب دمشق، بتعذيب بني تغلب، اصحاب مشغرة وسجنهم في القلعة وقرر عليهم مائة ألف درهم بأديان

في محرم من سنة (766 هـ - 1364م)، دمر نائب السلطنة سيف الدين منكلي مشغرة وثلاثيات⁽²⁾ والبلدتان في أرض حصينه لا يصل عليها إلا بكلمة كثيرة وعمر بدلتهما في أسفل الوادي بحيث يصل لهما حكم الحاكم والطلب بسهولة والسبب أنهما عاصيتان وأهلها مفسدون في الأرض⁽³⁾

وهذه التهم تقرب مما نسب إلى شيعة كسروان في تاريخ سابق إثر محنتهم تضررت كتب التراجم والتواريخ قبل ذلك العصر وبعدم بأسماء مشغرة لعت في عالم المقه والقصاء والأدب على مذهب الشيعة⁽⁴⁾ والتشعع فيها قديم⁽⁵⁾.

اختلفت الآراء حول هوية مشغرة، إذ كانت تعتبر من قصبات البقاع مثل كرك بوح وقب الياس⁽⁶⁾، أو من حواضر جبل عامل⁽⁷⁾ العلمية إلى جانب جرين وحناح وهي قرية

(1) لبس، محمد علي مكي، ص 268

(2) تعرف اليوم باسم النبي صفا قرب ناي ولا يزال الأهالي يرمونها باسم ثلاثا أو ثلاثا مشغرة في التاريخ الشيخ حسين لحش، ص 86

(3) البداية والنهاية، ابن كثير، أحداث 766 هـ

(4) مثل أمل الأمل ومعجم ياقوت.

(5) حطط جبل عامل، الأمين ص 301

(6) الإمارة الدرزية، أبو حبيب ص 175

(7) حطط جبل عامل الأمين ص 301 وهي قصبة لشوف لبياضي

منهما. وهذه البلدات الثلاث، إلى جانب كرك بوح شكلت تاريخياً الأعمدة الثابتة في نهضة جبل عامل⁽¹⁾ واشتهر الكثيرون من أهلها في علوم الدين والشعر والأدب، وانتشرت فيها المدارس في زمن عر وحودها هي سدان أخرى⁽²⁾. وتظهر السجلات العثمانية الرسمية أن سكان مشمرة كانوا في لقرن السادس عشر على الأقل جميعاً من الشيعة وهو حال سكان حارثتها ثلثيات وما حاورهما، وأنها كانت أكثر البلدات سكاناً في الشوف ولا يفوقها في البقاع إلا كرك بوح⁽³⁾.

بعد اجتماع بني الحش وبني فريخ عن مسرح الأحداث اللبنانية والبقاعية بدأ موقع مشمرة الجغرافي يثير الإنباه باعتباره أنه مفصل أساسي واستراتيجي في التمدد الشيعي بين شعبة الشمال واحواهم في الحبوب، فقرر الحرافشة وحودهم فيها وانتقل الأمير أحمد الحرفوش ابن الأمير يوسف الحكيم، وأسس فيها بنياداً عظيماً⁽⁴⁾ ليسكن هناك قصده شعبة جبل عامل وتواصلت ريارت أعيانهم وحوههم وبرح بمصهم إليها واستمال الحرفوشي بني متوال وجمعوا عليه⁽⁵⁾ يتشدون الحماية من الاضطهاد والسمع والاستعواء على مواجئة لكد الذي يعرضون له وهذا ما أثار الهواجس العثمانية المرمنة وقرر صراعاً بين الأميرين يونس وقرر الدين، نتج عنه منازعات وحروب استمرت إلى آخر أيام المماليك.

يروى أحد فقهاء الشيعة المشعريين⁽⁶⁾ أنه سبى الأمير أحمد المعني بعد هزيمته بوحه الشيعة في معركة حسر فيها مائة وخمسين رجلاً من مقاتليه رجع بعدها عن طريق مشمرة ولم يجد غير منزل شيعي يحل فيه صيفاً⁽⁷⁾.

إلى جانب دورها العلمي الهام بقيت مشمرة إلى عصور متأخرة مركز نشاط سياسي وعسكري ودار هجرة يلجأ إليها العاملون في أيامهم الصعبة والعصية حيث «تتج التدابير وتوضع الخطط».

ولا ريب أنهم كانوا يجمعون المال والسلاح أو يمكرون في كيمية الحصول عليهما

(1) الهجرة العاملة، حمير المهاجر ص 95

(2) تاريخ لبنان، مكي ص 271.

(3) بواحي لبنان، عصام حبيبة ص 136

(4) المرز الحسان المجلد الثاني، حيدر الشهابي ص 780

(5) راجع تاريخ الصمدي ص 66

(6) هو الشيخ أحمد النمر المشعري

(7) معركة النبطية.

وكان خط التواصل الشيعي يعلك كرك نوح مشمرة جرين واقليم النماح⁽¹⁾.

تواجد مشايخ الشيعة من بني علي الصمير النحون من ملاحقة الجرار، بعد معركة يارون، إلى مشمرة فكانت لهم دار الأمن من المطاردة وبقطة الارتكاز للعودة المظفرة إلى ديارهم.⁽²⁾ رغم أن تواطؤ الجرار وسعد الحوري وعذر يوسف الشهابي أديا إلى تسليم سبعة عشر شيخاً منهم انتهوا معقبين على مشانق، الحرار في عكا⁽³⁾، ورغم ذلك بقيت مشمرة تشكل مقراً رئيساً للطياح من التأثير على الجزر وحلفائه، يعيرون منه على المتسلمين، ثم يعودون استعداداً لجولة أخرى.

عندما وصلت الجيوش الفرنسية إلى سوار عكا انصم إليها الثائرون الشيعة لقتال العدو المشترك وبعد تراجع باليون عن حصارها وعودته إلى مصر رجع المشايخ إلى مشمرة⁽⁴⁾ واستأنفوا منها عملياتهم القتالية حتى عودتهم النهائية إلى جبل عامل سنة 1805م.

ويبدو أن هذه البلدة الواقعة على معابر طرق عديدة كانت تدخل أحياناً في دائرة نفوذ بني علي الصمير كما كان شأنها مع الحراشنة هي أحيان أخرى، ويرجع ذلك إلى أن لهذه الأسرة فيها مقبرة دارسه كما هو الحال بالنسبة لال الحر⁽⁵⁾، العائلة التي عرفت بكثرة النابهين في العلم والأدب من أبنائها في كل جبل عامل.

كرك نوح

إحدى أهم حواضر الشيعة ومركز ولاية البقاعين في العصر المملوكي ومن أكثر البلدات اللبنانية سكاناً في العهد العثماني⁽⁶⁾ حافظت طيلة قرون متعاقبة على تألقها العلمي والديني فكان الإمام الأوزاعي من رواد مدارسها في القرن الثامن كما فعل

(1) مشمرة، الحش من 91

(2) لقربها من جبل عامل ويبدو أنها كانت حبيها في حكم الشهابي.

(3) تفاصيل هذه الواقعة في فصل آخر

(4) تاريخ الركني ص 127

(5) حطت جبل عامل، الأمين ص 301

(6) بواحي لبنان، حليلة ص 67 قدر المؤلف عدد سكان بادية كرك نوح اعتماداً على التعداد العثمانية الرسمية المائدة للمرن السادس عشر ب 21780 وهذا العدد يبلغ أكثر من أربعة أضعاف سكان بواحي بيروت وصيدا ولا يفوقه من البواحي اللبنانية في هذا القرن السكان ناحيتي بعلبك وتبش.

الشهيد الثاني بعده بشماية قرون 1552م، واستمرت إلى جانب مشعرة وجرين مقصداً لطلاب المعرفة والعلم فترحم صاحب أمل لامن لثلاثين عالماً كركياً كلهم من الشيعة وكذلك فعل ياقوت في معجمه وابن العماد في شذرات الذهب والمحبي في خلاصة الأثر وغيرها من كتب الترحم والسير التي حلت منهن من الشيعة انطلقوا من هذه البلدة العامرة بدور العلم ورحاله إلى مختلف بقاع بعالم الإسلامي، فوصل بعضهم إلى أعلى مراتب السلطة والنفوذ على الصعيد السياسي وإلى أقصى درجات التأثير والإنتشار في ميادين الإفتاء والمقنة والعلم والأدب حتى أصبحت نسبة لعلماء إلى كرك نوح في إيران وربما في غيرها من الأمصار امياري كبيراً لا يمكن عماله⁽¹⁾

إلى جانب مكائتها العسكرية حافظت كرك نوح على اعتبارها من المراكز السياسية والإدارية المهمة في العهدين المملوكي والعثماني وكانت محطة مردهرة للقوافل بين الساحل اللبناني وبادية الشام وبعد أن كانت من أملاك ابن لحش دخلت منذ مسهل العهد العثماني تحت سلطه الحرافشه وقد أهتمت به الأسرنان خصوصاً لمكائتها الدينية



تتويجها بآثارها



(1) بلغ العديدون منهم مراتب ابوراء والصدور وسيوخ لاسلام نج

(2) الهجرة العامنية المهاجر ص 233

ووجود المزار⁽¹⁾ فيها فقصدتها الرحانة و مؤمنون تركا⁽²⁾ أوقف على مصارفها محمد ابن ناصر الدين الحنبل وقصبة صمت كثيراً من النعمانيين والطواحين وحبسها على عمارة النبي نوح وهرشه وتويره والأنفاق على المحوريين و المنقطمين وأرباب الشعائر والخدمة⁽³⁾.

وكانت منذ سنة 1534م على لأقل من مراكز حكم الحرافشة ومقراتهم⁽⁴⁾ انتسب إليها بعض أعلامهم⁽⁵⁾ فكانت بعد بعلبك من أهم قلاعهم وصنعوا فيها حامية عسكرية للدفاع عنها وكانت ولايتها تتأرجح بين حكم يربط بأمير بعلبك⁽⁶⁾ أو حرفوشي. يرتبط مباشرة بدمشق وهي الحائس لا تحلو من قاص عثمانى تناط به المراسلات الرسمية كان سمه سنة 1611م مولانا شعبان⁽⁷⁾ وكان يتابع حالة الأمن في الناحية كلها التي تشمل كل المنطقة القريبة من بلاد بعلبك والبقاع الناحية لكسروان والبترون هي جبل لبنان.

بقيت هذه الحاضرة الشيعية على زدها حتى هاجمها فخر الدين سنة 1622م على حين غره واستطاع بعد مقاومة عنيفة لحامية الحرفوشية المتواحدة فيها، والمؤلفة من نحو مائة هندي والتي برلت من البرج التي كانت تتحصن فيه على أمان علي بن الشهاب أن يدخلها وأحرق جماعته جميع البلد حتى لم يبق فيها بيتاً واحداً بلا حريق وكانت هي وسرعين من أحسن البلاد⁽⁸⁾ لم تنهض الكرك من كونها بعد ذلك أبداً فحاولت إلى مذبذب محروقة وظلت نهضتها حجولة⁽⁹⁾ ولم تعد أكثر من قرية كالعديد من قرى البقاع الأخرى وبقيت في حكم الحر هشة ومن أملاكهم حتى أهداها الأمر جهجاه الحرفوش لأولاد الأمير بشير الشهابي سنة 1807م لاستغلال مواسمها⁽¹⁰⁾

(1) اشتهرت بمرار النبي نوح ومرار آخر لابنته حيلة

(2) حلة الذهب الأبرير، عبد النبي النابلسي ص 92 - 94

(3) صفحات من تاريخ الشيعة، عمرو، ص 305

(4) أخبار الأعيان، الشدياق ط بطرس النستاني ج 2 ص 18

(5) محمد بن علي الحرفوشي الكركي وغيره.

(6) رغم أنها من بلاد بعلبك و لبقاع فقد عرفها بعضهم أنها قرية في أصل جبل لبنان وهي عنها قرية

بمعج جبل لبنان (رحلة النابلسي ص 73)

(7) الإمارة الدرزية، أبو حصين ص 178.

(8) تاريخ الصمدي، ص 147 راجع الحرافشة

(9) دائرة المعارف، حسن الامين ج 18 ص 449

(10) راجع تفاصيل هذا الموضوع في فصل الأمير جهجاه ويبدو أن تقهر الكرك بعد إزدهارها السابق

ساهم في تعريب بلدة وتقدمها على سائر البسات القرية منها

الباب الثالث

الحكم
الشيوعي في لبنان



الحكم الشيعي

عندما يكون موضوع البحث هو تاريخ فترة معينة من تاريخ لبنان، فإن تعبير الحكم الشيعي يحتمل تأويلات شتى وتفسيرات عديدة. لذلك لا بد من توضيح هذا التعبير وتحديد تعبير المقصود به شكل مسط ودقيق يبعد عن كل التباس واشكال هي فهمه على الوجه المقصود

إذا كان الحكم هو مسك القرار والتحكم بتنميده، فإنه هي الفترة التي ستعرضها كان حكماً عثمانياً بلا جدال يتمثل هي الوالي العثماني في مركز الولاية المعين بهرمان سلطاناً صادر عن الباب العالي، والنوط به تنفيذ سياسة الدولة في كافة المجالات المدنية والعسكرية وتعيين الموظفين، وقيادة المسكر، وجمع الضرائب وغيرها من الأمور المماثلة.

كانت الدول الشرقية الماصرة للدولة العثمانية والسابقة لها تعلق اهتماماً كبيراً على الخطبة والسكة ويرى الجميع فيهما أهم مظهر السلطة ودلالاتها، وهذه الأمور بقيا مستمرين رمزاً للدولة العثمانية في مختلف لحقب التي مر بها لبنان ولعاية الحرب العالمية الأولى قبل خروجه إلى مصر أمر السلطان سليم بكتابة مشور إلى السلطان طومان باي في محاولة لحسم النزاع سلماً ونهاء الحرب وإني أريد أن تكون السكة والخطبة باسمي وأنت نائب عني وأبصيك على ما أنت عليه⁽¹⁾

رفض المماليك هذا العرض لما لهدين الشعاريين من أهمية بالغة في تحديد هوية السلطة ومظهرها، رغم أن العرض يقصي ببقاء السلطان المملوكي في منصبه مع احتماظه بكامل صلاحياته.

(1) غرور السلطان سليم ابن رسل ص 119

إن المقصود في الحكم هنا هو هذا المبدأ من الحرية الذي تتحلى عنه الدولة العثمانية ممثلة بـ «كركي» الولاية في ممارسة صلاحياتها العامة في أمور ذات طابع ذاتي وأمني وداخلي وتحت ظلها دون أساس بمصالحها الكبرى، وذلك عن قصد أو هتات صغفها أو عجزها حراً من تقليد الإدارة وأعراقها طالما يمد من خلاله الطامحون للتخلص من بعض سلطاتها أو الحد من سلطاتها، قدر ما تسمح به الأحوال والظروف وموازين القوى.

إذا كانت هذه هي حدود هذا الحكم ومداه، فمتى يكون شيعياً أو سنياً أو ينسب إلى أية طائفة من طوائف لبنان وما هو المقيد الذي يعير حكماً شيعياً عن آخر درري أو سني أو أي حكم آخر، هل أن طائفة الحكم هي التي تحدد هذا الأمر أو هي طائفة المحكومين، أو أن سياسة هذا الحكم وممره وأهدافه هي التي تحدد هويته هي الدولة العباسية كان يحدث أن يعقب حليفة سنيًا وارث شيعي ثم تعود الخلافة إلى سني آخر إلا أن الدولة تنقضي هي الدولة العباسية دون أن تكون دولة شيعية أو سنية، وهي داخل لبنان هي جبل الدروز أو جبل الشوف كان الأمير دررياً أحبباً وسنياً غالب الأحيان ومارونياً في أواخر عهد الإمارة فهو كانت صفة لإمارته تتغير هي كل مرة؟

هي دولة، كالدولة العثمانية تحولت الطوائف منها إلى ملل، وشكلت دويلة هي قلب الدولة وهي بلد مثل لبنان تحولت الملة فيه إلى شعوب فأصبح يقال الشعب الدرري والشعب الماروني، ولشعب الشامي نرى أن الحكم يمكن أن ينسب إلى إحدى طوائفه فقط هي حال نشأت بين الحاكم وجماعات مؤثرة وملتزمة من محكوميه علاقة تفاعلية خاصة تعطي هذه الطائفة الشعب كياناً دائماً موحداً و متميزاً عن غيره من الطوائف والشعوب الأخرى، وتتعامل مع الآخرين من المجموعات أو الولاة الحكام ويتعاملون معها على هذا الأساس باعتبارها كيانات سياسية واجتماعية تختلف عن غيرها هي خصائص تنفرد بها وتميزها عما حاورها أو بعد عنها من أقاليم ومقاطعات أخرى، ولو كانت جميعها ملحقة بباشوية واحدة ويحكمها من الناحية النظرية الباشا العثماني نفسه، وكانت حاصلة إدارياً لولايتيه سواء كانت طرابلس أو دمشق أو غيرها من مراكز الحكم التي تتقاسم الأراضي السياسية المحتملة.

إن التنظيم الإداري العثماني لم يلحظ في أحكامه وأعراقه أو يسمح بمطلق رعيته أو إرادته بقيام حكام أو متمدين يتوارثون المناصب، أو يقصرها على طائفة معينة وعائلة واحدة وإنما كان الوالي باعتباره رأس الهيكلية الإدارية يسمى ملتزماً لمقاطعة أو

لواء أو سنحاً لمدة عام واحد واستثنائياً لمدة أطول¹ بمبلغ يحدد بدقة ويصدر منشوراً بذلك يعين فيه عادة كملاء يصممون دفع المبلغ في استحقاقه المعين دون أن يكسب ذلك الملتزم حقاً أو أفصلية أو امتيازاً عند انتهاء لأجل. ولم يكن هذا الإلتزام بالمطلق ينيط بصاحبه سلطات عامة أو يكلفه بها ولو أن بعض هذه العقود تصفنت أحياناً ما ينص على بعض الأمور الأمنية المحددة كتأمين لسبل ورد الفراح في ظروف معينة. ولكن الأمور حرب في لبنان في معظم الحقبة العثمانية على خلاف ذلك، وإن حاول الولاة الاحتفاظ، صنأ بالمظاهر، بالمراسم الشكلية المتبعة رغم أنها فقدت معظم مصمونها وعائتها واقتصرت في واقع الأمر على إصفاء الشرعية الرسمية على واقع معروض قلما تمكنت من تبديله أو الحد من تجدره رغم لكثير من المحاولات.

عندما أصبح لبنان من أقاليم الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف كانت بدور الكيانات السياسية التي ميرت تاريخه في 'الفترة اللاحقة لم تترسخ بعد، ولم تكن أكثر من مراكز نفوذ تستمد قوتها من عصبيتها العشائرية أو علاقتها المميرة بنواب السلطة المملوكة في دمشق وطرابلس وصمد لأسباب شخصية أو عرقية، ولم تكن تملك حنفاً إلا الضيل من أسباب المنة أمام قبضة السلطة المتشددة لشمكن من التطور والاستمرار وتكوين واقع ثابت ليس من السهولة محاورة أو تجاهله. ولكن مع الفتح العثماني، وما أعقبه من تراخي قبضة السلطة المركزية على أمور الأطراف والملحقات واستمرار القرار في عاصمة الدولة الجديدة مساهمات شامعة عن ولاياتها في بلاد الشام، بدأت تنتشر في وقت مبكر محاولات التخلص من سيطرة العاصمة على ولاياتها ورغم أن هذه المحاولات الأولى لم تحقق النجاح الذي أمل فيه أبطالها كالعراقي وابن الحنشر وابن الحرفوش في السنوات القليلة التي تلت مباشرة عودة السلطان المنتصر سليم إلى عاصمته البعيدة إلا أنها قد تكون ساهمت في تقريب سياسة التمرد والعصيان إلى تقاليد قواعد السياسة والحكم التي سادت لفترة طويلة بعد ذلك. خصوصاً وأن هذه الدولة الجديدة لم تعتمد كسابقتها إلى نشر عساكرها وقواتها في القلاع والأبراج ومراكز البيايات لتبقى في جمهورية مستمرة لضع أية محاولة من هذا النوع.

ومع تنامي عوامل الضعف والفساد في إدارة الدولة ومعاملة رعاياها كمل متباينة باختلاف انتمائها الطائفي، وتصنيف الطوائف الإسلامية غير السننية وخصوصاً الشيعة والليثانيين منهم بوجه أحص كمجموعات تثير الريبة والشك في ولائها،

(1) كان الجراحشة يتولون لو، حمص وعبره لمدة أربع سنوات أحياناً لإماره الدرزية أبو حسين ص 181.

والمساءلة والقمع هي معتقدها اردانت هذه الكيانات، العشائرية هي أول أمرها، وذات الطابع الطائفي المحدد، تأسراً وبروراً وترسحاً حتى تحولت مع الوقت إلى كيانات طائفية بامتياز تقوم على رأسها أقوى بعصيات التي أفرزها هذا الواقع العشائري فتقدمت على غيرها حتى احتضمت بالتدريج باقي العصبية والقبلى الأخرى في داخل كل كيان، فتم يكس القرن العثماني الأول بقرب من نهايته حتى ظهر في الأراضي التي يتألف منها لبنان اليوم أربعة كيانات متميزة. كان الطابع الشيعي غالباً على ثلاثة منها بينما هرست التركيبة العشائرية على كيان الرابع منها أن يعاي من تباين مذهبي مرمن بين حكامه ومعظم سكانه، وهذه لوحات أو الكيانات الأربعة هي

أولاً - بعلبك والبقاع.

ثانياً - جبل لبنان.

ثالثاً - جبل عامل.

رابعاً - جبل الدروز ووادي التيم

أما المدن الساحلية الثلاث طرابلس وبيروت وصيدا⁽¹⁾ فإن احناها كمراكز حكم لولاة الدولة هيأ لها مصيراً مختلفاً وتاريخاً آخر

بعلبك والبقاع

كان نائب بعلبك شيعياً من الحراشة من العهد المملوكي. وكان الوجود الشيعي غالباً في معظم مقاطعات البقاع الثلاث وإن كان المذهب الحنبلي طاعياً في بعلبك نفسها أما قصة البقاع وهي كرك بوح أهلها مشهورون بالرهص⁽²⁾ وقد عانت البلدات الكبرى الأهلة بالشيعة كثيراً من عارات المماليك وتفكيكهم.

«في يوم السبت السادس من دي الحجة سنة 899 هـ - 1493 م جهز نايب الشام قابصوه اليحيائي دواذره قحطج وصحبته صكرا فكبسوا سرعين من أعمال بعلبك ونهبوها وقتلوا جماعة منها ونهبوا ايضاً حرتعلا ويوبين وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء وفسقوا⁽³⁾».

(1) استحدثت ولاية صيدا سنة 1660 ودخل ضمن إدارتها ما كان يعرف بلواء بيروت صيدا قبل ذلك.

(2) اللمعة البرقية في النكت التاريخية ابن طولون ص 44

(3) حوادث لرماني، ابن الحمصي ص 258 - 266 وقطج هو الدواذر والمحتسب بدمشق. ولا تزال انعمى الثلاث من بلدات بعلبك المعروفة.

وفي القرن السادس عشر كان لوجود شيعي غالباً في معظم البلدات البقاعية المهمة بما فيها زحلة وبيروت وشمع وصيدا وحرية وإيقات ودورس ومقنة وكفرريد وديرريون وقصيرنيا ونبعا وكفردان وتمنيز وبوداي وبلح وبيت شاما وتعلبايا وعميق ومكسة وسعد نايل وشتورة⁽¹⁾ وكانت منطقة بعلبك التي تبلغ مساحتها نحو (1000 كلم²) ومنطقة كرك موح التي تفر مساحتها عن ذلك قليلاً (841 كلم²) هما أكبر مقاطعات لبنان وأوسمها⁽²⁾ أما المقورة التي كانت من أعمال بعلبك (81 كلم²) فقد تنازل عنها الحاكم الحرفوشي إلى حاكم الماطعة الشيعي الواقعة إلى الغرب سنة 1702م فضمها إلى إقطاعه وعين عليها يوسف الدحداح شيخاً وأصبحت منذ ذلك التاريخ ملحقة إدارياً بجبل لبنان وبالتالي من أعمال ولاية طرابلس⁽³⁾ وقد استمر الحكم الشيعي الحرفوشي بدون انقطاع دي شأن أو مناصرة يمكن التوقف عندها، حتى سقوط الحكم الاقطاعي في جميع أنحاء لبنان في منتصف القرن التاسع عشر.

وفي عهد الأمير يوسف الحرفوشي كان مشروع إنشاء إمارة شيعية تمتد من الحبل حتى بواحي حمص شبر محارف عميقة لدى السلطات العثمانية النافذة مما أدى إلى معركة عسحر وديولها⁽⁴⁾ وكان العثمانيون يخافون من قيام اتصالات غير معلنة بين الشيعة والصنويين في لبنان وقد رسمت هذه الهواش الكثير من سياسات السلطة الحاكمة بحوزعائها من الشيعة في مختلف أنحاء لبنان.

جبل لبنان

حتى ظهور حجر الدين في أواخر القرن السادس عشر 1590م «كان الموارد منحصرين في شمال لبنان أي في بعض وسط البترون وجبيل القاحلة وفي جبة شري⁽⁵⁾ ولم يكن للنصارى القاطنين في هذه الجهات حظ في مناصب الدولة وأدارتها بل يشتغلون في الزراعة وهم أدلاء فقراء واليهود أرقى منهم منزلة وثروة⁽⁶⁾».

(1) بواحي لبنان، عصام حليمه ص 124 - 137.

(2) أخبار الأعيان، لشدياق ص 90 والإمارة الدرزية أبو حسين ص 85.

(3) خلاصة الأثر، المحيي ج 4 ص 295.

(4) حجر الدين المعني، الحوزي بوس فرالي ص 36.

(5) نفس المصدر السابق ص 216.

كان الشيعة يتواجدون في جبل لبنان حكماً وسكناً قبل المتح العثماني، وكانت مراكز حكمهم هي جبيل وكسروان⁽²⁾ وبشما⁽³⁾ والمنيطرة⁽⁴⁾ والهرمل⁽⁵⁾ كانت مقاطعات جبل لبنان هي أيام المماليك هي حبة مبيطرة والظنيين وشرية وجبيل والبترون بالإصاغة إلى حصن عكار⁽⁶⁾، وتعتبر هذه التسييم الإداري في ظل ولاية طرابلس العثمانية مراراً وإن كان غالباً يستقر على كسروان والمتوح والمنيطرة وجبيل والبترون والضنية والكورة والراوية وحبة شرية وعكار والهرمل

تمتد المنطقة البرزية من نهر الكلب حتى جزين حيث تستهي الولايات الجنوبية لحكومة الأمير بشير وتسنا نجد دروراً قرب نهر كلب فمن أعالي هذا الجبل الذي يشرف على طرابلس ممتداً حتى ولاية عكار لا نجد دررياً واحداً فحل سكان هذه الناحية هم من الخوارية والروم وهذه الطوائف كانت هي مبارعات دائمة مع المتأولة حكام هذه المقاطعة القدماء ومالكها⁽⁷⁾.

أوكل العثمانيون ولاية طرابلس إلى أسرتين من التركمان والأكراد هما آل سيما وآل عساف تولوا على المدينة مزارعهم والوالي على مقاطعاتها لا يختلف كثيراً عن نموذج والي الشام على البقاع ووادي القمم أو والي صند. فيما بعد على مقاطعات جبل عامل الشمالي وبعد احماء الأسرتين مع انقضاء العرب العثماني الأول تولى على طرابلس موظفون عثمانيون مرسلون من الباب العالي ولكن سلطانهم على كامل القسم الشمالي لم يتجاوز الشكل في غالب الأحيان فقد حكم الحماديون الشيعة جبل لبنان ساحلاً وجبلاً من بيروت إلى طرابلس⁽⁸⁾ ولم يكن تاريخ جبل لبنان لفترة طويلة من الزمن إلا محاولات عثمانية عقيمة يقوم بها «باب العالي» في استعبدول للحلاص من هؤلاء القرلباش الملاحين⁽⁹⁾ وتخلص البلاد من حكمهم الشرير⁽¹⁰⁾ نون أن يحرروا بحاحاً

(1) تاريخ لبنان، مكي ص 266.

(2) راجع الوثيقة، منشور أحمد حمادة إلى الحصري.

(3) أخبار الأعيان، الشديق ص 193

(4) تاريخ الأرملة، الدويهي ص 363.

(5) أخبار الأعيان، الشديق ص 192 والهرمل معروفة بحجة المناصف مساحتها 635 كلم² وجميع أهلها كانوا ولا يزالون إلى اليوم من الشيعة

(6) حياة طرابلس في عهد المماليك، د. إلياس المطار ص 340.

(7) بيروت ولسان، لفصل هري غير، 12 ص 219

(8) D D C. T1 p180

(9) الإمارة الدرزية، أبو حنين ص 61

(10) المصدر السابق ص 63

يذكر قبل منتصف القرن الثامن عشر فاستمروا حكام لبنان وأسياده⁽¹⁾ حتى سقطوا أمام تحالف دولي عثماني محلي فاعز.

جبل عامل

كان بنو بشارة الرافضة في عهد المماليك يحكمون ولايات جبل عامل الثلاث تبين وصور والشقيف وقد اختفى اسمهم مع بداية العهد العثماني ليظهر بعد مدة ورثتهم بنو علي الصمير إلى جانب أسر شيعية أخرى كآل سودون وآل شكر وآل منكر وبقي الحكم الشيعي مستمراً في هذه النواحي طيلة الحقبة العثمانية ولم يقطع إلا نحو عشرين عاماً بعد التكية الكبرى التي أعقبت معركة برون ومقتل ناصيب النصار سنة 1781م التي حولت سهول جبل عامل إلى أرض محروقة وسكنه إلى مقموعين ومشردين وثوار ثم عاد الحكم الشعبي مع عودة الطباح ليستمر حتى سقوط الحكم الإقطاعي مع وفاة علي بك ومحمد بك العاصمة في دمشق سنة 1865م

جبل الدروز ووادي التيم

كان وادي التيم المنطقة الوحيدة التي دمجت فيها حثور الدعوة الدرزية ومن المرح أن الدين قبلوا العقيدة الحديدية كما هو من الشيعة إذا لم يكونوا من الإسماعيليين⁽²⁾ وأطلق اسم التيامنة على سكان وادي التيم من الشيعة والدروز⁽³⁾ وخلال الدعوة البوحدية كان أهل القرية الواحدة في وادي التيم من أبناء لأسرة نفسها يتقسمون فريقين. أحدهما يضل الدعوة ويلتزم بها في حين أن لفريق الآخر يبقى على مذهبه السابق⁽⁴⁾. وقد استمر الإبحسار الشيعي عن هذا الوادي وعن جبل لشوف المحاور له لمصلحة لد الدرزي حتى أصبح الأخير طاعياً على الوادي ولجبل معاً في لعصر العثماني، وبقيت الغارات المملوكية ثم العثمانية من تقاليد الإدارة في دمشق مركز الحكم

وفي سنة 1512م قام نائب دمشق المملوكي سيباي بحملة على أهل وادي التيم وقرى المن ونهب ما حولها⁽⁵⁾ وفي سنة 1524م قام أمير دمشق العثماني خرم

(1) D.D.C. T1 p271

(2) مختصر تاريخ لبنان، فريب حتي ص 117

(3) التوحيين، حمرة ص 130

(4) حوادث الرمان، ابن الحمصي 570

(5) المرجع نفسه ص 488

الرومي بحملة على وادي التيم فقتل من أهلها جمعا كثيرا وقطع رؤوسهم وأحضرها إلى دمشق وحرق بيوتهم ونهب أموالهم وقطع أشجارهم وكانوا من التيامنة والدروز وقام النائب خرم نفسه بحملة أخرى في العام ذاته على بلاد الدروز مع عسكره فأحرقوا غالبها وقتلوا غالب أهلها ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأولادهم وحضروا بهم إلى دمشق ودعواهم⁽¹⁾.

رغم ما تعرضت له المنطقتان الدرزيان المتجاورتان من حملات عثمانية، ولا سيما في القرن الأول من دولتهم، وليس هناك ما يدل على أن حكاهما كانوا في فترة ما من الدروز مذهب أكثرية أهلها فالشهابيون الذين تعاقبوا على وادي التيم كانوا من السنة واستمروا كذلك بعد أن أصبحوا حكام جبل الدروز حتى تنصر آخر حاكمين منهم وهما يوسف وشير وكذلك العائلات التي سقت الشهابيين كالتنوحيين والمعنيين فليس هناك ما يثبت أنهم كانوا دروزا، إنما تشير الدلائل التاريخية على أنهم، أو أن معظمهم كانوا، من السنة أيضاً.

هفرص أنواع الحكم الشهابي الذي كان يمتد أعماسه الأخيرة في منتصف القرن التاسع عشر، تحت وطأة الإنقسام الطائفي الحاد حوله، أن أسراً ثلاثاً توالى على حكم لبنان وأودت كل منها شرعيتها إلى الأخرى وذلك بوضع سياق تاريخي هش وواهن لا يصمد أمام التحليل والواقع ويتحبط في سرد أمور ووضع أحداث ليست في الواقع التاريخي أكثر من حرمات لا صحة لها.

لم يكن هناك «إمارة لبنانية» أو حتى إمارة تشمل قسماً من لبنان توالى على حكمها التنوحيون والمعيون والشهابيون ومتارو عن باقي العائلات اللبنانية التي كان لها في نفس الحقبة وضع داري وحنماعي مماثل أو مشابه أو مقارب لها في مناطق أخرى ولم يختلف وضع هذه الأسر الثلاث عن غيرها في سائر المقاطعات في لبنان، إن هذا الموضوع لا بد أن يحتل بعض التمهيل والنقاش⁽²⁾.

(1) المرجع نفسه 569 و 575 ومن الواضح أن المقصود بالتيامنة هم الشيعة الذين حافظوا على مذهبهم لتدعيم ولم يحولوا إلى الدرزية.

(2) راجع حول هذا الموضوع فصل الشيعة والإمارة اللبنانية.

أولاً: التنوخيون والبحتريون

بعد استرداد الساحل اللبناني من الصليبيين، عمد المماليك إلى اتخاذ تدابير تحول دون عودتهم أو قيامهم بغارات على المدن الساحلية المحررة، وذلك بتكليف بعض السكان المحليين بمهام أمنية محددة هي منطلق معينة، لقاء أجر معلوم عيناً أو مالا، حسب الأنظمة المعمول بها في ديوان الجيش الذي تعود له صلاحية تحديد الإقطاعات العسكرية والإشراف على ما يتعلق بها فكان من جملة هذه التدابير استخدام عدة أسر من التركمان وتوزيع إقطاعات عليهم لقاء أجورهم السنوية وإقامتهم فيما يعرف حتى اليوم «بالأدواق» كما أسأوا لتطيماً عسكرياً عرف بعدد الحلقة يصمم مجسدين من أفراد بعض الأسر المحلية التي تقيم خصوصاً في نطاق معاملة بيروت فشكّلوا مع التركمان قوات رديفة للجنود النظامي من أجناس السائب والأمراء تحصص لهيكلية مختلفة عن سائر الجيش بتشكيلاتها ورثتها ورواتبها. ويتألف أجناس الحلقة من ممارر يصمم كل منها عدداً غير محدد من الجنود لا يزيد عن خمسين وقد يقل عن عشرة جنود وعلى رأس كل ممررة واحد منهم يسمى أميراً.

«كان لجنود الحلقة أمراء عشرة وأمراء خمسة ولم يكن بينهم أمراء خمسين وأمراء الأربعين بينهم قلائل وقد بلغ أجناس الحلقة في أوائل القرن الخامس عشر أربعة آلاف وتكون مناشيرهم من السلطان أو من ديوان الجيش وإقطاعاتهم في الجيش حوالي الألف دينار لأعيان الحلقة المقدمين عليهم ثم ما دون ذلك إلى مائتين وخمسين ديناراً»⁽¹⁾.

إن معظم الأسر التي حملت لقب الأمير لقرون عديدة إما توارثته كرتبة عسكرية من تسميات جنود الحلقة - رئيس ممررة - وليس له علاقة بألقاب الحكم والسلطة

كان البحتريون أمراء في جنود الحلقة وليست المناشير السلطانية التي ذكرها صالح ابن يحيى وتعلق بأفراد من عائلته إلا أجورهم عن خدمات عسكرية مكلفون بها وهي سارية في مدة خدمتهم ويمكن إلغاؤها أو تعييرها في أي وقت.

كان إقطاع أشهر أمرائهم ناصر لدين بن الحسين وأقاربه لا يتجاوز عدة ثلاثين هارساً ومع ذلك عندما أرادت دولة المماليك ضبط الحراح والأراضي وتنظيم الإقطاع في بلاد الشام وعمدت إلى مسح الأراضي روثاً وبوريها بين الأمراء ورجال الإقطاع

(1) منطلق تاريخ لبنان، الصليبي، ص 129

عن طريق الحط والبحث فاستبدلت؛ قطعات لتتوحيين بعيرها في أماكن أخرى بعيدة عن ديارهم

وجه ناصر الدين كتاباً إلى نائب السلطة في دمشق طالباً منه «بما أنهم ملتزمين بمهامهم بحفظ ثغر بيروت المحروسة محتجدين في خدمة مولانا السلطان وأملاكهم الحالية بعدة ثلاثين فارساً فإذا دخل الروك هلكوا لأن مساكنهم فيها وأهلهم وعشيرتهم»⁽¹⁾ من الواضح في كتابات صالح ابن يحيى الأمير البحتري وصاحب البيت أدري بما فيه، وكذلك المؤرخ الدرري الآخر بن سباط الذي أحد عنه وتابع حتى وفاته في السنة الأولى من حكم العثماني. بن البحتريين لم يكونوا هي دماهم أسرة تتوارث الحكم في العرب أو هي أمة منطقة⁽²⁾ أخرى بل كل ما هي الأمر أنهم كانوا أسرة عائلة بين أعيان تلك المنطقة⁽³⁾ وربما أهلهم وحاهتهم وثروتهم بعد أن تعاطوا التجارة في بيروت في فترة ازدهارها إلى الطموح للمناصب الحكومية وإسما كان لذلك طابع شخصي فردي بحث لا علاقة له بشؤون الإمارة وتوارثها

يقول بعض المؤرخين أن ناصر الدين الحسين أصبح بعد وفاة شمس الدين كرامه صاحب الأمرية الكبرى وكبير أمراء العرب بعد أحد الأمره بمشور من الملك الناصر محمد بن قلاوون وهي الوافع لم يكن ناصر الدين من الناحية الرسمية أكثر من صباط حلقة من مرتبة متوسطة⁽⁴⁾ وكذلك أساؤه من بعده حتى حلّ محمد الحلقة ولم يعد له وجود هي وقت لاحق من الزمن نفسه وليس لهذا المشور أو لغيره من المناشير المماثلة التي يصدرها مسوياً ديوان الحبش هي مركز لنيابة لاجداد الحلقة والتي حمل بمثلها تاريخ صالح ابن يحيى وأحدث عنه التواريخ اللاحقة أي مدلول تاريخي يتوقف عنه هي أمور الولاية والحكم في الفترة التي صدر فيها. بما هو يعطي صاحبه مدة عام واحد حق الاستقلال العقاري لمزارع أو قرى وأحياناً جزء منها وهي عرمون ومرارعا، هي بشالا، كيصون، بيصور، ثلث عين عيوب، ثلث كصرعمية، ثلث بتاتر، مرتصون، فدان في الصريديس، عيناس، ثلث حصّة الملك بخلة،⁽⁵⁾ وهي لا تعدو أكثر من أحور عشرين جدياً بينما اقتصرت عبرها من المناشير على أحور عشرة أو خمسة أو أربعة إلى ثلاثة جنود

(1) تاريخ بيروت صالح بن يحيى، ص 86

(2) التوحيين حمرة ص 234

(3) بيت بمنارل كثيرة، لصليبي، ص 160

(4) بيت بمنارل كثيرة، لصليبي، ص 161

(5) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى ص 86 - 87

وليست الألقاب التي تقتصر بأسماء أصحابها كأمرير عشرين وأمرير عشرة وأمرير خمسة وأمرير أربعة وأمرير ثلاثة إلا رناً عسكرياً متدنية لا تعني إمارة ولا سلطاناً كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ومن المؤكد أن هذه الرتب لم تكن يوماً وراثية⁽¹⁾ رغم أن الإستعمال الشعبي قد احتفظ بلقب الإمارة لعدد من العائلات التي دخلت في جند الحلقة وكانت تقيم في نواحي مدينة بيروت على الأخص كما بقي هذا اللقب ملاصقاً لأمراء جند الحلقة من التركمان الموكول إليهم المحافظة على سواحل كسروان شمالي مدينة بيروت.

إن عدة أسر تنافست على الوحادة والرئاسة ولنمود هي جبل الدرور قبل فجر الدين، ولم يكن المعنيون هي أي وقت قبله أمراء عليه أو على غيره من المناطق اللبنانية. وإن المقابلة التي تحدث عنها بعض المصادر بين السلطان سليم ووفد من أعيان لبنان من بينهم من أطلقوا عليه اسم فجر الدين الأول، الذي استطاعت بلاغته أن تثير أريحية السلطان فيمنحه مجموعة من الألقاب والمناصب، ليسب إلا حرافة وضعها الشهابيون ونصارهم في وقت لاحق لتأكيد أهليتهم المستمدة من قرابتهم للمعنيين وإثبات شرعيتهم بوجه منافسهم لندائم آل علم الدين وليس هناك حاكم معين تناولته المصادر هي العهد العثماني قبل فجر الدين وأن الجامع الذي أقامه فجر الدين عثمان ابن الحاج يوسف بن معين في دير الممر سنة 1493م كما ذكر ابن سباط يدل على أنهم كانوا في ذلك الوقت عشيرة قوية وثرة وأن لبعض أمرائها مطامع سياسية واجتماعية دفعتهم لبناء مسجد في بلاد يندر فيها هذا النوع من الأبنية

بقي المعنيون على مدى الجزء الأكبر من القرن السادس عشر مجرد مقدمين في الشوف يسيطرون بعضهم على قرى محتلة بوصفهم متعلبة محليين أكثر منه كرعماء عشائريين. وقد قول الحكم العثماني الحديد بمقاومة ملحوظة من القوى المحلية التي كانت موالية للماليك أو متصدرة من الحكم لحديد ولا سيما من العشائر الكبيرة هبعت مقتل ابن الحرفوش حاء دور ناصر الدين ابن نحش قبل محاولة العزالي لإعادة إحياء دولة المماليك فجمع عسكرياً من العرب والحركس وبكرد والدرور من أجل هذه الغاية ولكنه دفع حياته ثمناً لهذه المحاولة

ويبدو حسب ما يتضح من وثائق البندقية التي تعود لهذه الفترة أنها كانت تتعاطف بقوة مع المقاومة المحلية للعثمانيين وتزود العناصر المنحرفة فيها ومعظمها من العشائر بأسلحة نارية هي عبارة عن «سدقية» وربما هذا الاسم لا يزال شائعاً

(1) التوحيون، حمزة ص 125

بمسببها حتى اليوم، وقد يكون هذا الدعم من أسباب قيام العثمانيين بانتزاع قبرص من البندقية لتصبح منذ ذلك التاريخ 1570م من أملاك الامبراطورية ودفعهم إلى القيام بحملات عسكرية متعددة على بلاد الدرور لنزع هذه الأسلحة والقضاء على المقاومة التي يبدو أن ال معن لعبوا دوراً في قيادتها واستمروا في المقاومة حتى بعد تراجع العديد من رعماء الدرور عنها هدموا ثمن ذلك حياة بعض رجالهم ومنهم المقدم قرقمار الذي سقط في أعنف هذه الحملات وأصابتها سنة 1586م⁽¹⁾.

ليس لآل معن أي ذكر ثابت في الشوف في الأصول التاريخية قبل القرن الخامس عشر⁽²⁾، ولم تكن متابعة أخبارهم غاية مقصودة منها ولم ترد أسماؤهم إلا عرساً في محال علاقتهم بالبحريين والإسلاميين⁽³⁾ ولم يذكر المؤرخ الدروري المعاصر ابن سباط أية واقعة تاريخية تتعلق بممارستهم القيادة والحكم وتقتصر بذكر تاريخ وفاة رجلين منهم هما حجر الدين عثمان مقروباً بلقب أمير الأشواف ووفاة يونس شافاً في تاريخ لاحق 1511م⁽⁴⁾ وتسكت بعدها جميع المصادر عن أخبارهم بما فيها المصادر المعاصرة لأحمداهم والتي حاولت عمثاً مدافع من الموالاة أو لعلاقة الشخصية أو المبل وتحترب، إسماء الأصالة والإستمرار على سلالته من ملأه المتع العثماني⁽⁵⁾ ولا يظهر اسمهم مرة أخرى إلا مع ظهور الأمير حجر الدين في وقت متأخر ومن حلفه من ورثته حتى انقرض هذه العائلة نهائياً بموت آخر رجالها الأمير أحمد المعني سنة 1697م وقبل ظهور حجر الدين كان الرعماء العشائريون يعملون في الشوف كما في سائر بلاد الدرور هم المشايخ المترنسون لتجمعات العشائر بدرية ملحقة، وكان بإمكان هؤلاء أن يكونوا أصدقاء أو أعداء للمقدمين المعنيين حسب الظروف⁽⁶⁾ وليس هناك ما يثبت أن المعنيين كانوا دروراً في أي وقت بما فيهم لأمير حجر الدين بل هناك دلائل حاسمة على أنه كان على المذهب السني كما يحرم روحه المؤكد بأكثر من امرأة واحدة، وجمعهم في وقت واحد، واندفاعه بحو بناء المساجد حتى في القاع البعيدة عن التواجد السني أو في مكان هجرته الموقفة في أوروبا وقد حاول الكثيرون إثبات درزيته أو تنصره دون نجاح كبير.

وما قصة حجر الدين إلا قصة زعيم أو عين محلي أوكل إليه العثمانيون حكم

(1) بيت بمتارل كثيرة، الصلبي ص 164

(2) مطلق تاريخ لسان، الصلبي ص 106

(3) الشوحيون، مصلح ملاعب يحيى ص 204

(4) صدق الأخبار، ابن سباط ص 931 - 934 و 930

(5) مثل البطريرك الدويهي والشهبي والشدياق

(6) بيت بمتارل كثيرة، الصلبي ص 163

سنجقي بيروت - صيدا ثم سنجق صمد فيما بعد، واعتمد عليه مراد باشا القائد العسكري وصاحب النصوص الكبير في دوائر السلطنة في مراقبة تحركات الشيعة اللبنانيين المشكوك بولائهم مع انبعاث القوة الصوفية وتحدد الحرب بين الدولتين وما لبث التوسكايون أن تصربوا منه واستشاروا فيه طموحاته كما فعلوا مع معاصره الجنبلاطي في حلب وهكذا بدأت مشاكله مع أسياده العثمانيين فخابت آماله بأصدقائه في ما وراء البحار وانتهى قتيلاً في عاصمة السلطنة⁽¹⁾، وهو لم يمنح أبداً رتبة عثمانية أرفع من رتبة «أمير لواء» وهي رتبة سنحق بك العثمانية على صيدا - بيروت وصمد⁽²⁾.

ولا بد من التأكيد على أن ألقاب الإمارة التي تطلق بفرارة هي التواريخ والتعاليق اللبنانية على كثير من العائلات ليس لها أي مدلول تاريخي أو محتوى سلطوي وإنما يبدو أنها تعود بأصولها إلى حالتين متمايزتين

يعود بعضها في جذوره إلى أن مناشير الجيش التي تصدر في دمشق إلى حشد الحلقة كانت تذكر رتبة صاحبها العسكري سواء إذا كان أمير ثلاثة أو خمسة أو عشرين حندياً ومعظم العائلات التي يطلق على أهلها هذا اللقب يعود لأنهم كانوا في وقت ما منظمين في عداد حشد الحلقة ويقومون بصدده في المناطق المريبة من سواحل بيروت حيث استمر هذا التنظيم قائماً إلى وقت متأخر⁽³⁾.

أما الأصول التاريخية الأخرى لمنشأ هذا لقب الذي عموماً استعماله على أفراد عائلة كاملاً فيمكن أن تعود إلى بعض الحالات التي وصل فيها أفراد من عائلة معينة في ولاية دمشق إلى إترام سنجق هيها كواذي سقيم بالنسبة للشهابيين وعلبك أو حمص بالنسبة للحراشنة هيدكر الملتزم في المراسلات الرسمية بلقب «مير لواء» وادي التيم أو أمير لواء حمص وهو لقب كما يبدو يحتص بمنصب «دري» أو عسكري ولا يحمل في طبيعته أي امتياز وراثي أو يعطى صاحبه أية وصعية إدارية أو بروتوكولية أو سلطوية دائمة⁽⁴⁾.

(1) بيت ممتازل كثيرة الصليبي من 197

(2) لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين من 19

(3) حول لقب الإمارة ومدلوله. راجع فصل «التقويض» وفيه تفصيل عن أمراء جند الحلقة اللبنانيين.

(4) هي سورية، حملت هذا اللقب بعض العائلات من منشأ أنسي كانت المنطقة العثمانية تسد إلى رؤسائها منصب أمير على إحدى الملاع كقعة الكهف وخرق ومصياف وحواري والقدموس مثل «أل ميرزا قبل بروحهم إلى شرق الماصي» وكانوا يدفعون الأموال الأميرية إلى والي طرابلس، الشام أو غيره من الولاة ولم يطلق هذا اللقب أو غيره على لعائلات نسي وصيت إلى المناصب الرفيعة كالوزارة والولاية مثل آل العظم. وقد وصل الكثيرون منهم إلى حكم ولايات دمشق وطرابلس وصيدا وغيرها وخصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

لحظ التنظيم الإداري العثماني الإشارة إلى مقاطعات معينة باعتبارها ألوية وسناحق عسكرية مثل صفد وحمص وحماء وسمية ووادي النجم وعلبك أحياناً وهي كسائر المقاطعات التابعة لسلطة الباشا حاصلة للإلتزام السنوي وكل من يقع في عهده هذا الإلتزام يطلق التقليد العثماني عليه لقب سناحق بك ويعطى رتبة «أمير لواء على سبيل الإلتزام»⁽¹⁾.

ولا يعني هذا اللقب أكثر من إشارة إلى منصبه الإداري ورتبته العسكرية ويبقى كبيره من ملترمي المقاطعات الأخرى تحت إدارة ورقانة الباشا العثماني هي مركز الولاية.

وكانت أكثر الألوية المذكورة هي ولاية دمشق خصوصاً. فلما أنشأت ولاية صيدا ألحق بها لواء صفد والسواحي الدرزية اللبانية في جبل الشوف. ولم يكن هذا التقسيم مرجعاً في ولاية طرابلس فلما تمكن بعض ملترمي السواحي اللبانية من الحصول على إلتزام لواء صفد أطلق التقليد العثماني عليهم رتبة أمير لواء أو سناحق بك ومنهم فخر الدين المعني وحسن اليارحي ويونس حرغوش والشهاب بن منصور وشبير الأول وموسى علم الدين كما كان من عادة الحراوشة إلتزام عدة ألوية في ولاية دمشق مثل حمص وحماء وتدمر واحتفظ التقليد الشعبي لهم ودرجتهم بهذا اللقب وأعطى مصمواً تاريخياً وسلطوياً عند العامة. أما باقي المقاطعات وخصوصاً في جبل الدروز فلا تحمل ملترمها أنه رتبة عسكرية كما كان حال مسرحان العماد ومحمود أبو هرغوش وغيرهم كثيرون من ملترمي نواحي هذا الجبل في فترات مختلفة.

هي المثرة بنسبها التي كان العموص ينف تاريخ هذه المنطقة التي لم يتجاوز اتساعها في أي وقت حدود مدينتي بيروت وصيدا بين البحر وسهل البقاع والتي يعجز المنقب عن تسمية حاكم أو أمير عليها قبل فخر الدين إلا بالنحو إلى الإقتراصات التي يعورها الكثير من الإثبات والتأكيد كانت باقي المناطق الساسية تنظم في وحدات ثلاث حددت حصائص كل منها متطلبات الموقع الحضرية ووضع الإداري والطبيعة السكانية إلا أن الإلتواء المذهبي المشترك أوحد بينها عوامل تشابه كثيرة هي محالات مختلفة ولا سيما بكل ما يعود إلى علاقاتها مع السلطة الحاكمة ومع غيرها من المجموعات الأخرى.

(1) أعطى موسى علم الدين رتبة أمير لواء على سبيل الإلتزام في لحكم لصادق في شوال 1105 هـ. م 105 - 28

تابعت هذه الوحدات جميعها مسيرتها لتاريخية طيلة القرون العثمانية الثلاثة، وسلكت دروباً مختلفة، كثيراً ما تقاطعت أو تباعدت وتناحرت أحياناً ولكنها في جميع الظروف كانت رحلة غبية وحافلة بما لا يعد من تحركات وتطلعات، امتنتها عوامل داتية أو خارجية أو قدرية، وتفاعلت معها مال وعواطف وعرائر وهواخس ومطامع، وسمت تاريخ لبنان بهذه الخصوصية التي تلوح ملامحها جلية في كل حقبة منه، ومنحته بعض التماير عن تاريخ حيرانه وشركائه في ظل الامبراطورية المترامية الأطراف.

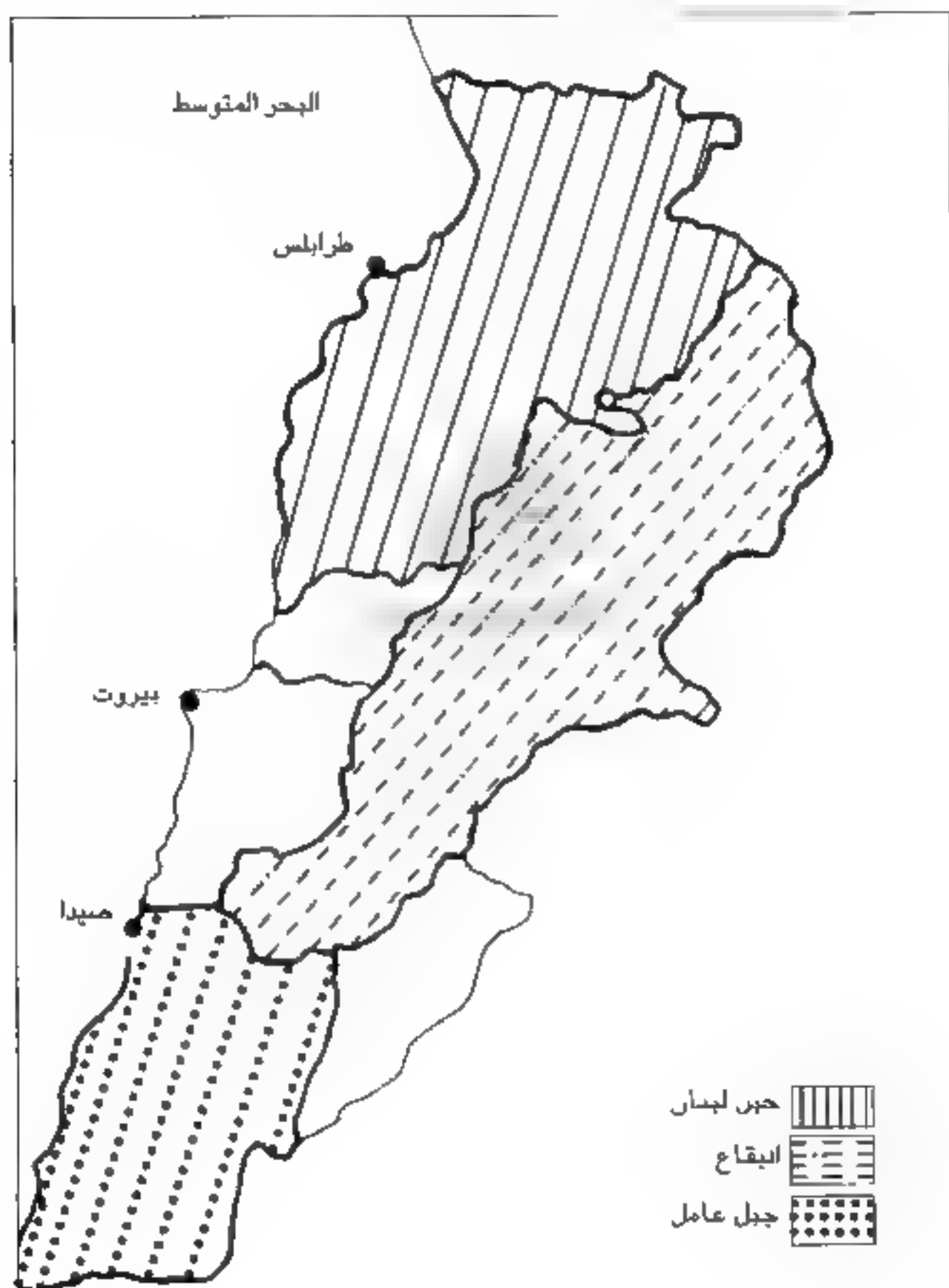
عرفت الوحدة اللبنانية الأولى في العهد العثماني بجبل الدروز، وكان وادي التيم يعتبر دائماً حديقتها الخلفية، رغم أن حكمه لم يكن دائماً من المذهب نفسه.

كان الشيعة يسيطرون على لبنان كله قبل العهد العثماني بمدة طويلة، وبقيت الوحدات اللبنانية الثلاث الأخرى تحت هذه سيطرة بعد ذلك وطيلة هذا العهد وحتى قيام نظام القائمقاميتين والمتصرفية وسقوط الحكم الإقطاعي في لبنان كله، وأن الفصل الأبرز في تاريخ لبنان والأكثر مأساوية ودموية هي المحاولات العسكرية العثمانية التي تكاد تكون متواصلة لتعبر هذا الواقع والمقاومة التي أبداها الشيعة في وجه ذلك.

إن الوحدات الثلاث التي حصفت للحكم "شعبي" معظم العهد العثماني بشكل في مجموعها أكثر من 80% من مساحة لبنان الحالية وكان الشيعة هي ذلك الوقت يريدون فيه حتماً على 38% من سكانه ويؤلفون الضائفة الأكثر عدداً بنسبة بارزة بين مجموع طوائفه.

(1) تاريخ لبنان الحديث كمال لصديقي ص 15 ويصنف ماعداً بشري وجبيل والبيروت في الواقع إن هذه التواحي الثلاث بقيت تحت الحكم "الشعبي" معظم العهد العثماني وحتى التهجير وكان بعض سكانها من الشيعة ولو كان لوجود المسيحي "السرياني" ثم دروسي كثيراً غيرها

المقاطعات الشيعية الثلاث



مساحة المقاطعات اللبنانية في العهد العثماني

المقاطعة	المساحة
البقاع وبلاد بعلبك	3285 كلم ²
جبل الدروز ووادي النعيم ⁽¹⁾	1366 كلم ²
المرهوب والبلان	244 كلم ²
جبل لبنان	1622 كلم ²
عكار	774 كلم ²
كسروان ⁽²⁾	521 كلم ²
العاقورة ⁽³⁾	82 كلم ²
جبل عامل	1796 كلم ²
مدن بيروت وصيدا وطرابلس	142 كلم ²
الهرمل	635 كلم ²
	10467 كلم ²

(1) راجع جدول المساحات المصنفة في كل ناحية

(2) كان التواجد الشيعي في هذا المنطق طاعياً في كسروان وكانت تحت الحكم الشيعي حتى استطاع هجر اسدين اقتطاع قسم منها الحق بولاية دمشق واصبح جزءاً من جبل الدروز بينما بقي القسم الآخر تحت حكم الشهابية، راجع فصل كسروان.

(3) كانت لعاقورة جزءاً من مارة بعلبك حتى سلب عنها أميرها الشيعي حسين الحرفوش، ليحاكم حين لبنان الشيعي الآخر اسماعيل حمدة سنة 1702م وبقيت هي لحاليين تحت الحكم الشيعي «الشدياق لجزء الأول من 90».

نواحي الحكم الشيعي في البقاع

المنطقة الأولى ١- بعلبك والبقاع

النواحي ⁶	القرى	أهم القرى	عدد القرى	السكان ^٧	المساحة	شعبة	منطقة	تدوير	نصاري	أقليات
بعلبك	37	بعلبك - رس بعلبك	34092	1782	14610	13908			5400	يهود 174
كرك بوج	39	كرك - رحلة	21780	841	18222	3558				
المنطق فورمة	30	ف بعلبك - رحلة	41616	181	4974	6804				
شوف، الشو، الشو، الشو ^(٨)	24	مشغرة العرعور	3052	206	4542	7260			1260	
شوف البحر ديو ^(٩)	14	عقيب - شورة	3882	194	270	3612				
حصارة	23	حصارة - عرد	7212	163	240	5226			1416	
6 نواحي	167		91644	3367	42858	36810			11634	174

(1) ساعد هذه الحدود أول إلى لبنان هي العرون لسان عسرة، التسميات لا ربه لا يصر فيها إلا ديان والد أهب عصام حايمة وهي دراسة تعتمد الطابو القرري المشاعي،

(2) شوف البياض، ناحية هي البقاع أهم بلد فيها مشغرة^(١٠)، أجمع فصل مشغرة^(١١)

(3) شوف البحر ديو، ناحية في البقاع تقع بين شوف البياض وشوف بعلبك، هم بلد فيها، عقيب وشغرة وكانت الشوفا، البياض والبحر ديو من نواحي لواء الشام، بسما شوف الدرور يتبع لواء صفد وريكة تأسيس لواء صيدا، البحر ديو من نواحي ولاية دمشق مثل بعلبك (4) يمثل مجموع عدد السكان ستة أضعاف عدد الأكراد، المسلمين في المنطق المشاعي على أرجح التقديرات

نواحي الحكم الشيعة في جبل عامل

المنطقة الثانية 2- جبل عامل

أقليات	دروز	نصارى	سنة	شيعة	المساحة	السكان	أهم القرى	عدد القرى	النواحي
		336		23228	896	23562	فسين - بت جبيل	75	بلاذ شارة
				7458	238	7458	حباغ - كمرحوة	25	أقليم النضاح
				5610	199	5610	رديرية أنصار	14	قديم الشومر
				8616	325	8778	المنطية - كمرحان	37	المشقيف
				1800	96	1800	حربين روم	8	حربين
60			420	2784	42	3264	الساحرة - علما	*	حيرة ⁽²⁾
60		336	420	49494	1856	50472		59	عريه

الحكم السني

- (1) كانت حربين تحت الحكم الشيعي قبل العهد العثماني وبقيت كذلك وحسب التقدير العثماني فإن جميع سكانها كانوا في هذا القرن من الشيعة، وكانت وأقليتها من أول لبلاذ التي هُجر منها الشيعة في جبل عامل راجع لفصل «حربين»
- (2) يقع القسم الجنوبي من هذه الناحية هي فلسطين حالياً

نواحي الحكم الشيعي في جبل لبنان

المنطقة الثالثة - جبل لبنان

البلديات	دور	تساري	سنة	شعبة	المساحة	السكان	القرى	النواحي
	312	2052	678	2310	521	6394	فيترون - حر حل	كسروان
		366		246	67	612	كفر صبرا - كور	النسوح
		96		162	139	258	لاسا - أفا	الميطرة
		2130	174	612	210	2804	جبل - حائل	جبل
		5112	1566	816	270	7494	السرون - الكور	البشرون
		5292	66	156	245	5514	سرى - الهدى	شري
		9270	2082		200	4352	أميون - بطر م	الكورة
			3402		348	570	سر - محول	المصبة
		2598	2262		143	4880	دلمية - رشعين	الرافية
282			276	300	635	570	النهرمل - أكرام	النهرمل ⁽¹⁾
علويون		3252	6498	132	774	40098	عكار - برهال	عكار ⁽²⁾
282	312	30168	16998	4734	3052	50626	374	

(1) يبدو أن الكثافة السكانية في ناحية الهرمل، المسماة لشامه و التي تبلغ مساحتها 635 كلم² (أكثر من مساحة نواحي جبل والبشرون والنواحي مجتمعة) كانت قليلة جداً.

وهناك قرأتان يؤكد أن عدد السكان في هذه الناحية يتوقف باسعداد ما يجعله لرفتر لعمامي (50 ذكر من 15000) فقد رها لرحالة ابن الماسين سنة 1990.

نواحي الحكم المحلي

المنطقة الرابعة 4- جبل الدوروز

شعبة	نصاري	سنة	فروز	المكان	المساحة	القرى	التواهي
			12750	12750	257	بعلجر - دير القمر	45 الشوف
240		4356		4596	183	شحييم - برحا	21 إقليم الخروب
	12	1628	4626	4800	164	عبادية شيابيه	24 لبت
		612	4644	5256	133	عين درزا - معدل مسا	18 الحرد
366		378	9744	10488	161	فدرون عالية	32 العرب
						لشويمات	
606	12	6972	31764	37890	898		140

تاريخ هاشم

1637م هوجد فيها حامياً كبيراً عالي، فصار به عوايد كمار مسمى بالاحجار وبها حامدان احمران كبير منه وكان هي القيرانية قلعة وأعالال اثارث اهتمام حجر الدين فبنى لها بها " ولم يكن سقوط ربيع قبله هي معركة واحدة للدماغ عن 'العلمة من الأمور مستحيلة ' وريما عهد اهل هذه 'المنطقة للحوول دون تسعيلهم في سحلات لدونه هرباً من شرها لانها طالك جعلتهم .مهورين وحالهم أسود من كل برحالك (د)

(أ) المنازل 'الحامسية في الرحلة لطل ابسية يعني بن أبي الصمصام المعروف بابي نحاس، من 50

(ب) تاريخ الصمدي، ص 77

(ج) دواني، 'ملوك، الحرة الأول، ص 272

(د) رحلة ابن معاشن ص 45

(2) كانت عكار ثلاث نواحي هي ممتهل العهد 'المعالي هي حصن 'الأكرد عرف .عكار ثم أصبحت ناحية واحدة بتولاها مصابط واحد عرف بمصابط ناحية عكار متاريخ عكار هاروق جلعن سحلات لمحكمة 'لشرعية هي طر بسن سن 7 من 118 و 132.

نواحي الحكم الشهابي في وادي التيم

المنطقة الخامسة 5- وادي التيم						
النواحي	القرى	المساحة	السكان	فروع	سنة	نصارى شيعية
وادي التيم	حاصبيا - ميمس	468	3684	2922	762	
العرقوب	رشيا - عين جرجا	165	1092		1092	
أقليم البلال	---	79	---			
		712	4776	2922	1854	

الإمارات اللبنانية في القرن السادس عشر

عدد القرى	عدد النواحي	السكان	المساحة كلم ²	
374	10	50626	3031	الامارة الشيعية في جبل لبنان
140	5	37890	898	الإمارة الدرزية في جبل الدروز
167	6	91844	3367	الإمارة الشيعية في بعلبك ⁽¹⁾
159	6	50472	1796	جبل عامل
32	3	4776	712	وادي التيم ⁽²⁾
	بيروت وسيدا وطرابلس	19548	142	مراكز الولايات
		6394	521	كسروان ⁽³⁾
		256.574	10 467	

(1) بما فيها المافورة التي ألحقت بعد ذلك بجنس بعلبك

(2) مع أقليمي العرقوب والبلال.

(3) في القرن السابع عشر. لحق قسم من كسروان بجبل الدروز

الباب الرابع

الحكم الشيعي في البقاع



الفصل الأول: إمارة بعلبك الشيعية.

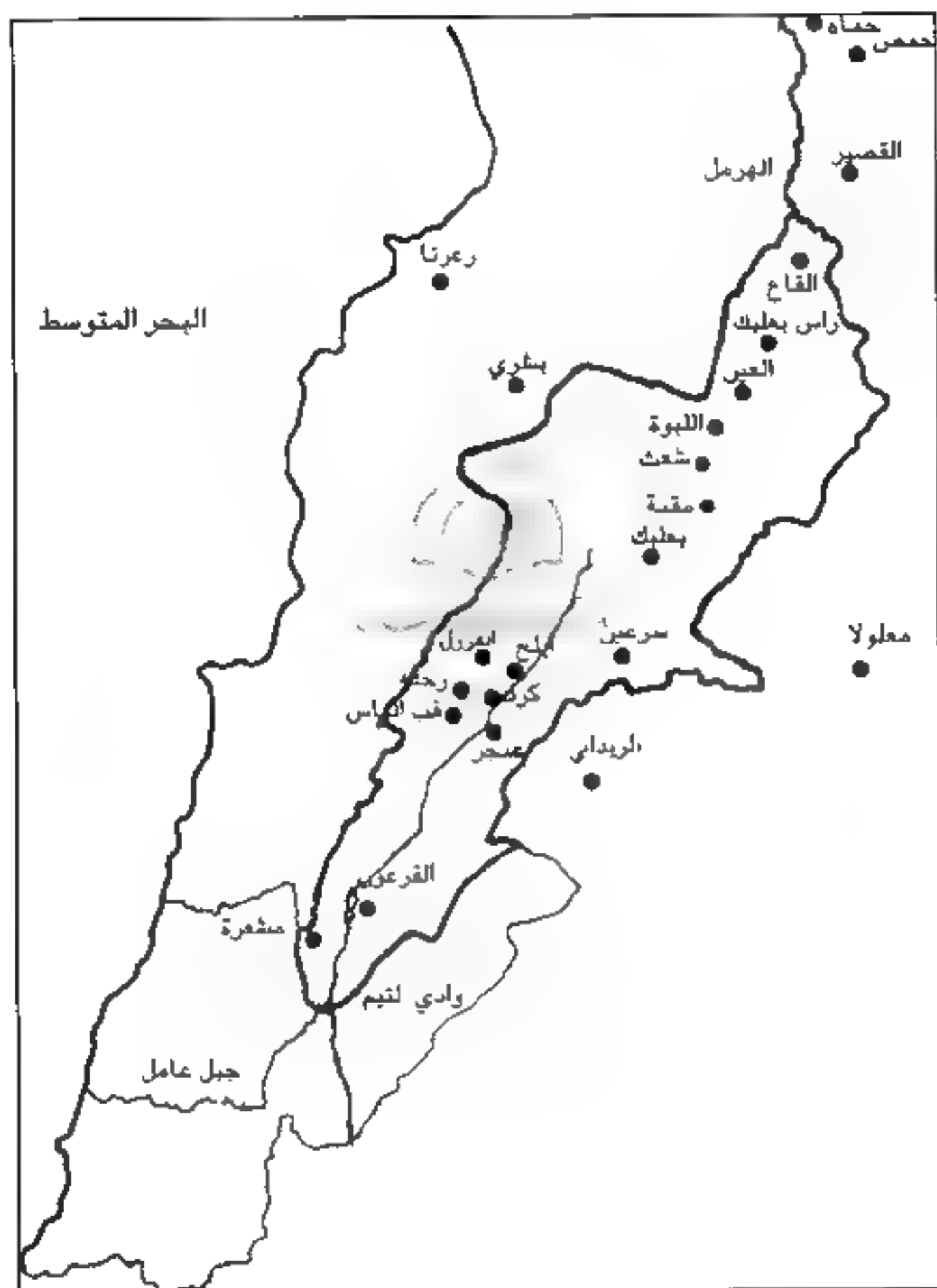
الفصل الثاني: الصراع الشيعي المعني.

الفصل الثالث: الأمراء المحاربون.

الفصل الرابع: بعلبك تحت الحكم المصري.

الفصل الخامس: آخر الأمراء.

إمارة بعلبك الشيعية



الفصل الأول

إمارة بعليك الشيعية

حكم الحرافشة بعليك وبلادها ثلاثية وحسين عاماً على الأقل⁽¹⁾، توالى خلالها أكثر من ثلاثين أميراً على الحكم، من دون أية فترة انقطاع ذات شأن، رغم المحاولات التي كان الولاة هي دمشق وغيرها من مراكز الحكم يبدّلونها عبثاً لتغيير هذا الواقع، متوسلين كل السبل العسكرية والسياسية، ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق أي نجاح يذكر

نقد استطاع هؤلاء الأمراء المحاربون الاحتفاظاً بإمرتهم متعطين بجسارة، كل المصاعب والعوائق والظروف التي اعترضتهم دون أن يهزموا على امتداد هذه الفترة الطويلة شخص، أو أسرة أو عشيرة، أو أي مجموعة أخرى تنافسهم أو تحد من سلطانهم، أو حتى تشكل بهديداً حديثاً لهم مع أنه لم يكن هناك تجمع طبقي أو ارسقراطي أو عشائري يدعمهم، أو تنظيم حربي أو طائفي أو مذهبي أو عرقي يقف إلى جانبهم، بل بقيت البلاد منقسمة إلى طبقتين الأولى الأمرء على قمة الهرم، وقد يتنازعون فيما بينهم هي حلقة صيفة لم يمد إليها أي عنصر آخر والثانية السكان الذين تجمعهم طبقة واحدة، لا ترانينه عيب، يختار الأمير من بينهم أعوانه بمطلق ارادته، بالإضافة إلى السلطة العثمانية الحاكمة في دمشق، والتي عتادت هي مناسبات عديدة، على محاولة التدخل، من خلال صاكرها وهرماناتها، لتغيير هذا الواقع وإيجاد وضع يتناسب مع مصالحها تكون هي فيه خمسكة فعلاً برمام الأمور، ولا ينحصر دورها في إصدار هرمانات تثبت واقعاً لا يد لها فيه

(1) من عام 1497م حتى 1865م تاريخ لقيص على الأمير سمان ومقتله وإلى جانب البقاع مقرهم الرئيسي حكم الحرافشة هي هرات مختلفة حمص وحماه وندهر وصمد وبرداسي.

في العهد المملوكي كانت بعلبك مركز بياضة تابعة لدمشق ويمكننا تتبع معظم أسماء النواب الذين تعاقبوا على هذا المنصب حتى يونس المحصني⁽¹⁾ الذي يبدو أنه آخر نائب على بعلبك قبل ابن الحرهوش.

ورد اسم ابن الحرهوش لأول مرة كـ نائب على بعلبك في حوادث سنة (390 هـ - 1497 م)، فكان في عداد المشاركين في حصار دمشق مع الدوادار أقبردي⁽²⁾ الذي ناصرهم من المقدمين شيخ بلاد بعلبك حسن بن اسماعيل، ونائب بعلبك ابن الحرهوش، ومقدم الرنداني ومقدم التيممة⁽³⁾، بن بشارة⁽⁴⁾، ومنذ ذلك التاريخ حتى وقت مبكر من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، استقرت سلالة هذا النائب بارزة في جميع التطورات التي شهدتها مدينة بعلبك وبلادها.

لم يتصح تماماً حتى اليوم كيف توصل هذا الحرهوشي الشيعي إلى أن يكون النائب المملوكي على بعلبك، ويورث سلابته إمارته لأكثر من أربعة قرون، بما يمكننا أن نلمس طريفاً شائكاً يعتمد على الحسد والتخمين، بقدر ما يبعد عما يردده التقليد دون إثبات مقنع وحاسم.

كان الطابع السنّي، ولا سيما الحنبلي، يعب على مدينته بعلبك هي أواخر عصرها المملوكي⁽⁵⁾، وقد اشتهر من أبنائها في ذلك العصر وبمدر علماء حملت بأسمائهم كتب التراجم كما حملت بأسماء زملائهم أبناء قرية يوسين⁽⁶⁾ القريبة منها، إلا أن باقي الرتب البعلبكي كان أهلاً بالشيعة منذ قرون عدة، وقد شاركوا في الأحداث العامة، حروباً ومداولات منذ العرو المملوكي وبحصاره بعد معركة عين جالوت سنة 1259 م⁽⁷⁾.

في القرن الرابع عشر تقرر هذا التوحيد الشيعي القديم، بموجات من المهاجرين

(1) معاكهة الحلال، ابن طولون ج 1 ص 102

(2) الدوادار هو المسؤول عن مراسلات السلطان وبيده

(3) كان بنو بشارة يحكمون وادي لقيم بالاصافة إلى جبل عامل وكان اسمهم يقرر أحياناً بالرفقة

(4) (معاكهة الحلال) ابن طولون ص 163

(5) بعلبك في التاريخ، الشيخ قاسم لرهدي ص 123 والجامع الكبير الذي تقام فيه ليوم صلاة الجمعة هو مسجد الحنبلي.

(6) هي يوسين في معجم يافوت من قرى بعلبك كانت مهددة بالعلم والعناء وكان المذهب الحنبلي سائداً فيها (المصدر السابق)

(7) التأسيس لتاريخ الشيعة ص 111

الهاريين عبر الجبال العربية من بلادهم في كسروان، بعد نكبتها المعروفة، وقد تلاحقت هذه الهجرات، واستمرت بعمل ما كان يتعرض له الشيعة في هذه الجبال من اضطهاد وتكيل، فاجتاروا القمم العالية في اتجاه المنحدرات المقابلة وما يمتد على سموحها من سهول و سمة حصبة

كان من تراث الشيعة، أن يفصلوا العيش في الجبال لما توفره من حماية طبيعية في الأحوال المتأزمة والخطرة، ولذلك لا بد أن المرتفعات الشرقية⁽¹⁾ كانت في نفس الوقت أهلة بالشيعة، حيث لا تزال آثار خراهم المدعمة بادية في الوديان العديدة في هذه المناطق. كما أن أصول عائلات كثيرة تعيش اليوم في بعينك تعود إلى هذه الوديان⁽²⁾

كما ترايد عدد سكان القرى القديمة، بما وعد إليها من عمال وهلاجين حدد ولا بد أن بعضهم قد انتقل إلى بعينك للإقامة فيها ولو بأعداد قليلة، ترايدت مع مرور الزمن والمدن دائماً هي عامل جذب لأهل الربيع القريب، خصوصاً من المتدمرين من أوصاعهم المباحية أو لمعيشية أو الأمنية.

لا بد عند الحديث عن الهجرة الواحدة من المرتفعات الشرقية باتجاه السهل ومدينة بعينك، من الإشارة إلى بعض التقليد المحلي المتواتر، الذي يفيد أن الحرافشة انتقلوا كغيرهم من الحرود الشرقية في جبل الشيخ واستقروا في بعينك وقراها⁽³⁾، حيث ما ثبتوا أن تأثروا عليها وساهموا في تنشيط هذه الهجرة نحو المدينة وصواحيها، حيث اكتسبت مع الوقت ضابعا الشيعي الذي تعرفه اليوم.

حافظ الحرافشة على إمارتهم لمدة صوية رغم العواصف التي كانت تهددها باستمرار من مختلف الجهات، من الشرق والشمال خصوصاً، ورغم الظروف الداخلية الصعبة والدقيقة التي تحيط بها في منطمة تميزت بعدم الاستقرار والثبات، وهي ظل دولة كان كثرة تغيير الولاة والحكام من أبرز سماتها وتقاليدها.

(1) المصدر السابق ص 115

(2) لا تزال بعض هذه الأسر تحمل أسماء قراها القديمة مثل لطيلي أو تنسب إلى جذورها في الجبال الشرقية مثل ياغي

(3) وبالتحديد لجة وعسال اللورد وسرعين المهاجر ص 113 وتؤيد إشارة معروفة عن الحرافشة وردت في يوميات الرحالة المملوكي ابن طوق، نصيد - الحر هسه كانوا مقدمي حبة عسال في الجبل لشرقي سنة

إن عوامل سلبية عديدة، كاست تعرض استقرار هذه الإمارة، وتشكل عوائق وصعوبات تقف في وجه توسعها وازدهارها يمكن إيجازها بالأمور التالية

أولاً - موقف السلطة العثمانية

كان الولاة العثمانيون ينظرون إلى إمارة الحرافشة كأمر واقع مفروض، يعد من سلطانهم المطلق في التصرف بالأمور، كما يعد من رعبتهم ومشيتهم هي تعيين الحكام والاستبداد بجميع شؤون السلطة وأنهم مرعمون على حصر مجال اختيارهم ومناوراتهم هي أسيرة معسة، لا يمكن أن تستقيم لأمر هي حال تحاورها وأعمالها لأن من شأن ذلك هي حال حدوثه أن يعنى مشاكل أمنية وعسكرية لا يمكن التحكم بنتائجها، وحجم تكاليفها، ولذلك كانوا عث يحاولون تغيير هذا الواقع، كلما وحدوا أن الظروف قد تؤمن لهم قدراً من السباح فكيف في غالب الأحيان ينظرون إليه كشر لا بد من التسليم بوجوده مرعمين بانتظار ظروف أفضل للتخلص منه خصوصاً وأن السياسة المركزية هي استعملت قد صممهم دائماً كأعداء تقليديين، أكان من جهة انتمائهم المذهبي الرافضي أو حوثيها الذ ثم من عاطفهم مع الصفيين وما قد يحرم هذا التعاطف من متاعب.

ثانياً - تدخلات حكام الشوف ووادي التيم

كان حكام الشوف وأقاربهم في وادي التيم، يتربصون طامعين بمد سلطتهم إلى هذه الإمارة، أو إلى قسم منها ما دام ولاية دمشق هم الذين يتحكمون سنوياً بتلزمها إلى من يدع الثمن الأكبر وهذا أمر يسير نظراً لهم الولاة إلى المال وميلهم المرم إلى التخلص من الحرافشة، فهم المقصود الأولى أمام مثل هذه المخططات والمطامع سيما وأن لحكام الشوف وغيرهم من لعائلات الشوفية ناهدة، كآل حبلاط وآل تلحوق، أملاكاً رراعية في البقاع، لا يمكن استثمارها على توجه المرعوب دون موافقة الحرافشة، أو مساعدتهم أو عدم مساعدتهم على لأول وهذا ما يفسر إلى حد كبير لصدام بين فخر الدين ويونس ومحاولة لشهابيين فارس ومنعم الترام يعلبك من والي دمشق

(1) فخر الدين الحلي الثاني الأب قرالي ص 113

ثالثاً - التمايز الطائفي والمذهبي

عدم التمايز الطائفي بين الأمرء من جهة، وقسم كبير من سكان الإمارة من جهة أخرى ولاسيما سكان بعلبك التي هي مركز الإمارة ومقر الأمير، وقد كان هذا الواقع أكثر تعقيداً في فترتها الأولى قبل حكم الأمير يوسف بن علي (1608-1623م) وأولاده الذين تعاقبوا بعده على الحكم، حسين ومحمد وعلي، حيث شهدت المدينة وبعض القرى المجاورة، حركة ازدياد ملحوظ للوجود الشيعي فيها، فتضاءلت هذه المشكلة تدريجياً مع تعاقب السنين وإن بقي الوجود سني لكثيف سكاناً ورجال دين مصداً لهواجس الأمرء ومتاعبهم

رابعاً - ضعف عصبية الحاكم.

افتقد الحرافشة عصبية واسعة ومتينة يعتمدون عليها في صرعهم المستمر مع المتربصين بهم، فلم يتكوّن في الإمارة، في أي وقت، تجمع عائلي أو عشائري أو طبقي يساندتهم والانتشار الشيعي لم يكن حاصماً في بعلبك وجنوبي البقاع، ولم يعلب هذا الطامع على المدينة إلا في عهد الأمير يوسف الذي أنشأ أول جامع شيعي فيها، بينما تحاور حيرانهم أمرء الدور في الضوف هذه العصبة بانتماثلهم إلى إحدى العصبين الساندين في منطقتهم⁽¹⁾ وكان لحماذين في الغرب عشائر وقبائل تجمعها وحدة الولاء⁽²⁾، كما جمعت عصبية مذهبية واحدة جميع لعاملين بدون عواء⁽³⁾

خامساً - الموقع الجغرافي والإستراتيجي

تقع مدينة بعلبك وغالب مراكز الإمارة لأخرى مثل كرك بوح وسرعين واللبوة هي منطقة سهلية مكشوفة من جميع جهاتها مما أفقدها ميزة الحماية الطبيعية التي تؤمنها الحبال بوعورة مسالكها، وصعوبة لتحرك فيها، وصلاحيّة البصاريح لحرب العصابات وحملات الكر والفر التي تمتع بها حوالمهم الشيعة، سواء هي جبل لبنان، أو هي جبل عامل. فكان الأمير، في لارمات يعتمد عند مواجهة أي هجوم مرتقب، إلى إخلاء المدينة من سكانها والإلتعاء إلى مراكز أكثر ملائمة للعمليات الحربية والمناورة في حال الضرورة والحوول دون استعمال مراكزه السهلية الدائمة الأخرى إلى مواقع

(1) القيسية واليمانية

(2) خملط الشام، محمد كرد علي ج 2 ص 270

(3) راجع لتشييع في جبل لبنان

يستفيد منها مهاجموه لتحويلها إلى نقاط انطلاق عسكرية للهجوم عليه أو قطع الإمدادات عنه ومحاصرته رغم أن الحور الأحمر هي والتحالف الدائم مع حكام حل لبنان الشيعة حدّ من تأثير هذا الواقع ومعاطره.

سادساً - إصرار الحراشنة على التمسك بحكم بعلبك

كان الحراشنة يعتقدون أن حكم بعلبك وبلادها، حق لهم لا يتنازلون عنه أو يستبدلونه، رغم أنهم حكموا بلاداً كثيرة غيرها كالشوف وحمص وتدمر وصيد، وتخلوا عنها إلا أن شعارهم كان دائماً: إن بعسك بلادنا وستأخذها عنوة، وهذا أمر عرف واشتهر حتى عند السلطان العثماني بفسه

رغم كل هذه الصعاب والعوثر استطاع الحراشنة الصمود والاستمرار، كحكام على بلاد بعلبك والنقاع كل هذه المدة الطويلة وقد أعانهم على ذلك تفوقهم في بعض الحصائص والميزات التي كانت عوناً لهم على البقاء والمقاومة أمام مظالم الولاة والحكام، وتقلبات الأهواء والظروف، فكيفوا كلما اضطرتهم قوة أعدائهم إلى ترك مدينتهم وسهولهم ليتحنّون إلى أماكن أكثر أمناً، يحتضنون بها ربّما يستحممون قواهم للقيام بغارات يستفيدون منها ما فقدوا من بيوت وأرزق وبلاد، ويستعمون من عدوهم وشأرون من أظهر تعاوياً معه إن استمرار هذه الغارات والعارات المضادة، أثر سلباً على عمران بعلبك وبواحيها ومراكزها السكنية وازدهار الأعمال الزراعية والبحارية والصناعية فيها، وقد كانت بعلبك هي فترة سابقة مركزاً صناعياً وتجارياً مهماً، تصدر إنتاجها من الحبوب والسماد والرماد والملح، وما يفيض عن حاجتها من خلال الزراعة⁽¹⁾، إلى دمشق وحمص وطرابلس، حيث يشحن بعضها بحراً إلى خارج البلاد وتحولت لمدينة المردهرية التي كانت تقارن بدمشق وغيرها من حواضر البلاد، إلى قرية كبيرة، فقدت لكثير من معالم مجدها العابر نتيجة المحن والخطوب والدمار والحروب التي بنيت بها على مر الزمان وكان بعض أمرائها يصعدون إلى التلة الواقعة في شرقها حيث «حجر الحلى»، ينظرون إليها من هناك، فإذا وجدوا أنها تمت واتسعت إلى درحة الظهور كمدينة ناشطة، يادروا إلى اتحاد التداير التي تقفها هذا المظهر ولو بالهدم، خوفاً من أن يثير عمرائها رغبة لدى الباشاوات الأتراك في جعلها مركز ولاية، كما كانت هي العصر المموكي، وكما هي دمشق وطرابلس وحلب هي هذا العصر، وما يحرم هذا الأمر في حال حدوثه، من بلاء على البلاد، أمراء ورعية، لا سيما على

(1) الحكم السلطاني م 86/127 لبس والإمارة الدرزية بوحسين ص 59.

(2) مختصر تاريخ لبنان، هليلب حتى ص 157

المسيحيين والشيعة منهم، لصعوبة سكنهم في مراكز لولايات، الأمر الذي يعرضهم إلى مصايقات تعرضها التشريعات المعمول بها كما بحيرها العرف والأمر الواقع.

إن أهم الخصائص والمميزات التي أعانت الحراسة على الصمود هي التالية:

أولاً. خضع جميع أهالي الإمارة لحكم لحراسة بدون معارضة أو تذمر، على اختلاف طوائفهم من مسيحيين وشيعة وسنة رغم أن السنة أو بعضهم، ربما كانوا يميلون في السر إلى حكم عثماني مباشر بعد عنهم حكامهم الحاليين لاختلاف المذهب، ويستعيدون بذلك عصرهم الذهبي يوم كانت بعلبك من مدن السنة المهمة هي سوريا. ورغم ذلك لم يمارعهم طيبة وحوودهم على رأس السلطة أية قوة محلية مهما كانت هويتها فقد كان الجميع يعترفون بمدرتهم دون أن يوحد بين الاثنين، حكماً ومحكومين، أي حاجر أو فاصل أو وسيط من أي نوع كان صحيح أنه كان لرجال الدين مركزاً مميز، بصرف النظر عن طوائفهم، يعني فيهم اليهود⁽¹⁾، إلا أن ذلك لا يدل على وجود طبقة مهيمنة ثالثة لها دور معترف به من الجميع وصحيح أيضاً أن السنة، بمن فيهم المشايخ ورجال الإفتاء، تعرضوا لتدابير انتقامية، وأحياناً بالغة القسوة من قبل الأمراء، كلما ارتاب أحدهم بأنهم يقدمون العون والمساعدة للسلطة العثمانية، أو يربحون في الالتحاق رأساً بوالى دمشق، فيتمرسون إلى أعمال تأديبية وانتقامية، لا تلبث أن يمتد وتحتفي بعد عودة الحيوث مهاجمة أو هزاعها واستقرار الأمور على أوصاعها السابقة والمعتادة إلا أنهم كانوا يتوحدون دائماً من ميول رعاياهم السنة الحقيقية، وهاعلية روابطهم وبواصلهم مع المهددين هي مركز الولاية دمشق ومن المعلوم أنهم قتلوا مهتي بعلبك مرتين على الأقل في مناسبتين مختلفتين، وكانوا يهتمون من سلطات دمشق وانكشاريتها خصوصاً بأنهم يكرهون السنة على التشيع

ثانياً كان الحراسة محاربين أشداء ومتمرسين، ولا يعني ذلك أنهم برعوا في قيادة الجيوش وهنون الحرب فحسب، بل لأن الكثيرين منهم تمنعوا بشحاعة بالفة، وجرأة ملزمة، تجعل أحدهم يواجه العدد الكبير من حدود العدو منمرداً، أو قلة منهم تواجه عدواً بموقها عدداً وعدة بأصعاف كثيرة دون خوف أو تراجع أو وجل حتى أصبح سمعهم القتالية ورهبتهم تقوم مقام الكثير مما افتقدوه من كثرة العدد وكمال العدة.

(1) كان يسكن بعلبك أيام الحراسة جالية يهودية على رأسها حاحام ولهم أماكن عبادة يعارضون

فيها شمائهم بعربية De La Roque p. 38.

كان الولاة يتحينون الفرص للتدخل و يستند إلى الحكام الأمراء بموظفين يرسلونهم من دمشق كلما اعتقدوا بإمكان التخلص من الحرافشة بثمن معقول، وأن الظروف قد تكون مناسبة لتحقيق هذا الأمر، مما حسن سير الحملات العسكرية المرودة بأوامر القتل والتدمير والبلص لا ينقطع عن طريق دمشق - بعلبك، إلا ليسنمر بعدها أكثر عدداً، وأقوى عدة وتعليمات وأوامر أشد عنفاً وقسوة

وبما أنه لم يظهر خلال كل هذه المدة لطويلة سُرة محلية أخرى يمكن الاستفادة بها ضد الحرافشة، كما كان يحصل في الشوف مثلاً حيث يعتمد الولاة إلى التلويح بتعيين أمرة آل علم الدين أو غيرها كلما شأوا أن يدكروا المعنيين، ثم الشهابيين، أن البديل جاهر فقد عمد الولاة إلى إذكاء التدفيس بين أفراد الأسرة نفسها، وذلك بإصدار مرمونات متناقضة، تدفعهم للتماتل فيما بينهم، والحرص على الاحتفاظ بأكثر دعم رسمي ممكن يعزز موقعهم داخل الأسرة، ويرغمهم على تلبية حشع الناشوات المادي الذي لا يحمد

إن تاريخ الصدام العسكري بين ولاية دمشق وأمراء الحرافشة، هو أبرز ما في تاريخ هذه الإمارة، لذلك من الصعب استعراض محطاته بتفصيل واف، فقد حرّد الوالي العثماني على سبيل المثال، أكثر من عشر حملات عسكرية، على بعلبك في مدة لا تتجاوز عشر سنوات، بمعدل حملة عسكرية كل عام (1784 - 1792) م

سنة 1784م، أرسل والي دمشق أنص إبراهيم باشا حملة على بعلبك هشتت في حتلها وهرمت وحوصرت في القلعة

سنة 1784م، أنصد والي دمشق جيشاً قوياً إلى بعلبك، فأحرق منازل الحرافشة وصادر أملاكهم وسمى ساءهم وأعدم ثلاثة من أمرائهم

1786م، قام الحرافشة بحملة مصادة احتلت بعلبك وطردت متسلمها التركي

1787م، هاجم جيش عثماني بقيادة ملا إسماعيل بعلبك فأنهزم وبقي الحكم بيد الحرافشة.

1788م، أرسل والي الشام أطر إبراهيم باشا حملة أخرى ولكنها هزمت وحوصرت أيضاً.

1788م، دخلت حملة من جنود حمص و نشام إلى بعلبك، انتهت بثولية اسماعيل الكردي، قائد الحملة، حكم بعلبك

«بتصار الحراشة على عساكر الشام في معركة الكرك ودخولهم إلى بعلبك».

1790م، انهزم الحاكم الجديد امام الحراشة الدين لاحقوه حتى الزبداني.

1791م، قتل الحراشة نحو ثلثي جنود حمة والي نشام و بهرم الناقور.

1792م، معركة القرعون بين العثمانيين و حراشة

1792م، معركة مع الحرار بعد هجومه على الفرزل وأبلح

إن التقليد المتوارث والمستمر، لا يزال حتى اليوم يروي بطولات الحراشة في ساحات الوغى، كما تتردد مآثرهم القتالية في التراث الشعبي المخطوم، قصائد عامية، قيلت على لسان بعض أمرائهم، ولا يعرف نافعها الأصلي، وإنما يرددها من يحفظها، ليس في الملاد التي عرفت أيام عرهم فحصب، بل في بلاد أخرى قريبة كبادية حمص وصحاري الحماة، دون أن يعرف منشورها بالضرورة من هم الحراشة فعلاً إنما يكتفون بترديد اسم أحد أمرائهم باعتباره هرباً معواراً، دون ربطه بتاريخ أو بمنطقة أو بمائلة. ويقولون (بفتح الميم) سلطان، ووجهام، وقيلا، وسلمان قصائد شعبية لها نفس ملحمة، دون أن يكون لها خلفية تاريخية أو واقعية محددة⁽¹⁾

وحتى لو اعتمدنا عن التقليد فإن مصادر تروحيه زريه وموثوقه، حملت بأخبار عن هروسياتهم وجرأتهم تشير إلى حادثتين منها: روى الأولى السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة، والحادثة الأخرى مذكورة في مراجع كثيرة استندنا فيها إلى ميخايل ألوف هي تاريخ بعلبك.

قال صاحب أعيان الشيعة⁽²⁾

«سمعت من أهل ذلك العصر، أن الأمير سلمان لما أراد الهرب من سجن دمشق، استحضر صبيحة من تلك وقص منها شبه السيف، وخرج وهو شاهراً بيده فهرب

(1) تتردد على السنة لإمامة قصائد وأما ريج شعبية نضمها أمر، من الحراشة كما هو الاعتقاد الشائع، ينعرف فيها الشاعر غالباً بصيحه. التكم بعصه وأهله وعشيرته وتحتوي عادة على أسماء تاريخية معروفة لأشخاص ومواقع وأحداث واقعية

(2) أعيان الشيعة، الأمين ج 11 ص 264

الموكلون بالسجن، وانحار عنه أهل لاسواق طناً بأنها سيف مشهور بيد الأمير سلمان، فخاف كل منهم أن تكون هيبة بذلك السيف فركب فرساً كان معداً له وسار.

يقول ألوف في كلامه عن الأمير أمين أمير بعلبك وعند قدوم إبراهيم باشا إلى بعلبك وإقامته فيها، واستخدامها كنقطة عسكرية لحيشه بطراً لموقعها الحربي الهام، حكم البلدة الأمير جواد الحرغوش، بينما هرب الأمير أمين من وجهه، فأرسل أربعماية فارس من الهادي لمطارده ومارال الأمير أمين منهزماً من مكان إلى آخر، إلى أن لحقته يوماً فرسان الهادي في عين الوعول شمالي بعلبك، وليس مع الأمير أمين سوى ولده الأمير قبلان، وأثنى عشر فارساً آخر هوقف الأمير أمين مع الحريم وقال قبلان لمرسانه: أحموا! اتم ظهري لأريكم كربي وفري، ثم هجم بمرسانه على الهادي هجمة الصرغام، ومال عليهم بصرب الحسام. وكان يحترق صفوف الهادي بهمة لا تملوها همة، وما زال السيف يعمل والرجال تقتل ولله در قبلان وما فعل إذ لم تستطع الهادي على الثبات، فروا هاربين طالبيين النعام. وأما قبلان فرجع عن مطاردتهم إلى أبيه وألدم على الثوابه كشعبه الأرجوان، هقل منه العيار وساروا من هناك إلى شعرة المقدسة⁽¹⁾ حيث اودعوا حريمهم وطلبوا الأستانة حيث أنزلوا هي أرفع منزله.

حتى المراجع المعتمدة والحادة، شيد بالمقدرة القتالية المائقة للحراشة والتي ساهمت في استمرارهم كل هذه المدة على رأس إماره، معظم سكانها من العشائر والعربان، التي لعب السيف في علاقاتها واحتماعاتها مكملاً بارزاً

وإذا لم يكن للحراشة عصبية عشائرية أو قبيية تسادهم، فقد أمس لهم تحالهم شبه الدائم مع الحماديين، مورداً احتياطياً واسماً من المناصرين والمقاتلين، يلبون دعوتهم عند الحاجة، كما اعتمدوا على عائلات معينة عرفت بولائها لهم وشجاعتهما في القتال كأل حمية وياعي من الشيعة ولسكرية من السنة والمعلوف من النصاري فكان جبل لبنان بما فيه الهرمل هو لعمق لاستراتيجي لهم، حيث يجدون المأوى والنصير ونقطة الانطلاق للعودة إلى ديارهم منتصرين، و طرد أعدائهم في كل مرة يجبرون على مغادرتها

(1) إقليم شعراشي عكار أول من انتمه من ساداته هريم أعاسنة 1691م.

تاريخ الحراشة

رغم أهمية الدور الذي قام به الحراشة في تاريخ لبنان، طوال المدة الزمنية التي حكموا فيها إحدى أهم مناطقه وأكثرها اتساعاً⁽¹⁾، لم يعرف لهم تاريخ مدوّن مستقل بذاته، بل هي فقرات مبعثرة لا رابط بينها، يجهّد الباحث في العثور عليها وإدراجها في سياق متتابع شامل، يعطي لسرد تراثه ودلالته، فهي ليست أكثر من نتف متناثرة في عدد قليل من أمهات المراجع عمد أصحابها إلى حشرها، ليس لغاية إثباتها كواقعة مستقلة هي معظم الأحيان بل للإستعانة بها على إيراد وجهة نظر ورأي أو واقعة أساسية أخرى

إن أول من كتب عن تاريخ الحراشة في فصل خاص هو ميخائيل موسى ألوف البعلبكي⁽²⁾ في تاريخ بعلبك المطبوع سنة 1889م، جمع فيه ما عثر عليه من إشارات مختصرة ومتقطعة من تواريخ البطريرك السويهي، وحيدر الشهابي، وطلوس الشدياق، وبعض ما توافر من أخبارهم عند عيسى أسكندر المعلوف وعلى أسنة العوام من السكان، الذين كان المعمرون منهم لا يزالون يتناقلون أخبارهم لقرب العهد بها

أهل المؤرخون اللبنانيون عموماً أخبار الحراشة باعتبارهم خارج الإطار اللبناني المعارف عليه هي أيامهم والذي لم يكن يتجاوز حفرهاً جبل الشوف و جبل لبنان وساحلهم. من جهة ثانية كان شعبهم يصنمهم خارج الملة التي ينتمي إليها هؤلاء المؤرخون، وحلهم من رجال الدين بدين لم يدلو جهداً كبيراً في إحياء تحاملهم وبحاملهم على أخبار الحراشة، كما فعلوا مع الحماديين رغم انتمائهم إلى جبل لبنان نفسه.

كان البقاع بقسميه العريزي والبعلبكي، يتمتع إدارياً ولاية دمشق حيث امتلك الحراشة هي داخل المدينة أراضٍ ودوراً ومقبرة خاصة، ومع ذلك، كان مؤرخو العسة الدين شكلت ولاية دمشق محور اهتمامهم لرئيسي أكثر طلباً وأشد تحاملاً وعداوة من زملائهم اللبنانيين، فقد تجاهل المحبي ترجمة الأمير بونس الحرهوش على أهميته، وترجم من هم أقل شأناً منه بما لا يقاس و تقتصر على ترجمة الأمير موسى

(1) كان حكم الحراشة يشمل أحياناً بالإصاحه إلى بعلبك والنماع سنجق حمص وسنجق صمد وسنجق تدمر ووادي التيم وسنجق حماه

(2) بين وفاة حر أمر و الحراشة وظهور هذا الكتاب ثلاثة وعشرون عاماً وهو في نحو عشرين صفحة من الحجم الصغير طبع في بيروت.

سلفه لأنه، كما قال، ولعله يبرر عصه سبب ترجمته. انه أقرب أهله إلى التسنن⁽¹⁾.

أما القرّبي، وهو الذي عاصر أحداثاً حساماً شارك في بعضها في بعلبك بمسها، فقد اقتصر في كواكبه على ترجمة علي بن موسى في سطور قليلة⁽²⁾، وكذلك غيره من المؤرخين اللذين أظهروا شعورهم الشخصي تجاه الحرافشة في كل مناسبة اضطروا فيها إلى ذكرهم، وألصقوا بهم أبشع لعنات والصمات يقول النديري⁽³⁾ في حوادث (1164هـ - 1750م)

«في أوائل شعبان من هذه السنة وصل خير إلى دمشق أن ابن الحرفوش حاكم بعلبك المتوالي الرافضي المشهور قبض على الممتني وأخيه وأحرقهما بالنار وهدم دارهما وقطع كرومهما وقد كات هذه لعائلة الحرفوشية الخبيثة لعنها الله ...»

يقول صاحب أعيان الشيعة «لا يمكن التصديق مرميهم بالظلم وعسف الرعية، وأخذ أموالها رياده عن كل من يتولى الحكم أما زيادة التشيع عليهم بذلك مما لا نحددهم يقولونه في غيرهم وفي غير محكم وسببه، أن القوم كانوا في عصر من يخالفهم هي العقيدة من المسلمين، وجوار غير المسلمين وحكامهم، فالقدح فيهم لا يخلو من نوع من العصبية، وكانوا من الشيعة مثلاً للأحلاق الكريمة والشجاعة المائفة والصروسية وإكرام السكّات والعلماء وقد أعملوا بسطة في الأجسام وصباحة في الوجوه»⁽⁴⁾

لم يبق أمام أي مؤرخ، مهما التزم لموصوعة والتجرد، من سبيل آخر غير اعتماد هذه المصادر المتحاملة بمسها، لسبب وحيه وهو عدم توافر غيرها، لأن التاريخ هو في النهاية ما دون منه وسجل وحفظ، أما الباقي مما صاع أو لم يدون أصلاً فلا بد أن يحتمي من صحاحته إلى الأبد، وكل ما يمكن عمله هو إهمال الشائتم واللغات التي يطلقها مؤرخو دمشق وتجاوز أماريح البصر والحرب التي يرددها آخرون مثل المؤرخ المرجع حيدر الشهابي ومعاوية الضدياق، كلما انتصر شهابي على حرفوشي أو على غيره ممن حرمنه ظروف معينة من أن يكون له مؤرخه أو مؤرخ آخر غير متحامل ولا متحامل.

(1) خلاصة الأثر، المحيي ج 4 ص 432

(2) الكواكب السائرة القوي ج 3 ص 194

(3) حوادث دمشق اليومية، النديري ص 160

(4) أعيان الشيعة، الأمين ج 11 ص 262

بقي أمر أحير، وهو أن ما دونه التاريخ مما يباهي المنطق السليم ويتجاوز القواعد الطبيعية ويوأمم النشر لا بد أن يحصع لتعليل والتدقيق قبل اعتماده كحقيقة واقعة وتثبينه والبناء عليه

يقول التقليد المتواتر

«الشايح بين الأهالي عن أصل هذه العائنة، أن الأمير حرفوش الخزاعي جث هذه العائلة عقدت له راية بقيادة فرقة هي حملة أبو عبيدة بن الحراح على بعلبك، واستوطن بعدد المدينة وكثر نسله، وكانوا من أعظم الأعيان فيها إلى أن تيسر لهم الاستقلال في المدينة وأقلموها فسادوا وحكموا،»⁽¹⁾

«ينتسب الحرافشة إلى الأمير حرفوش الخزاعي القحطاني الذي قدم أسلافه مع عمر بن الخطاب إلى بعلبك واشتهروا فيها،»⁽²⁾

لا يمكن مناقشة هذا السب ولا أي نسب آخر لاستماء ما يمكن الركون إليه في تحقيق مثل هذه الأمور إلا أنه يمكن تأكيد الانتماء الحراعي لهذه العائلة وارتباط نسائها بعلاقة ما مع حراعل المرق، نظراً إلى تواصل هذه العلاقات بينهما على امتداد قرون عدة، ربما أحرقها في منتصف القرن التاسع عشر عند حصول نزاع بينهم وبين الحماديين، كان له بعك من عشائري في جنوب المرق في لواء الديوانية حيث كانت مصارب الحر عل ولا ترال

«إن عشيرة الخزاعل التي يقطن معظمها في لواء الديوانية هي ححارية الأصل (خراعة) أما الآن فإنها تعرف بـ (خراعل) ولهم جماعة لا يستهان بها في إيران كذلك لهم جماعة في لبنان بقضاء بعلبك هم (لحرافشة)»⁽³⁾.

أما الأمر الثاني الذي يمكننا تأكيده - حتى اليوم على الأقل - أن حرفوشياً كان نائباً على بعلبك عام 1497م وأن هذا أقدم ذكر لهم أمكن رصده في المراجع التي تعرضت لهذه الأسرة التي استمرت في واجهة الأحداث منذ هذا التاريخ. بعد إشارة

(1) تاريخ بعلبك ألوف ص 32.

(2) تاريخ حجر لدين عيسى أسكندر المعروف ص 21 ونُسخة يرى السيد محسن الأمين في بعض مذكراته أن اسم جدهم حرفوش مشتق من لمتخ لعصير انتهىء نشر وقد يكون انشراحاً بمعنى الحرب (لصيف واللمع محسن الأمين ص 358) ويرى آخرون أن لحرفوش هو «الوحشي» ويقول أبو حسين في إحدى مقالاته أن الحرفوش هو المفاص «لصوهي» - رويش.

(3) تاريخ نظام المسؤولية عند العشائر المراقبة ص 410.

الرحالة المملوكي عن وجود المذميين الحرقة في الحبل الشرقي منذ 1480م

جاء في حوادث الرمان⁽¹⁾ « ركب أقردي على أهل الصالحية وقد جمع المذميين ابن الحرفوش ومحمد بن بيدمر⁽²⁾ وابن باكلو⁽³⁾ وابن معن وابن شهاب ومقدم حمارة⁽⁴⁾ وابن بشاره وخالد العرلاي⁽⁵⁾ كما جاء في مفاكهة الحلال لابن طولون عن الحادثة نفسها. اتف عليه شيخ بلاد بلس ونائب بعلبك ابن حرفوش ومقدم الزيداني وغيره ابن باكلو وكبير المرج خالد العرلاي ومقدم التيامنة ابن بشاره..

يستمد من النصين كما هو واضح، أن أحد الحرافشة كان نائب بعلبك أو مقدمها هي سنة 1497م، ولا تعلم ما إذا كان المرق هي للقبين يعني منصباً ما، مع تعلم أن ابن بيدمر كان نائب بعلبك حتى 1493م على الأقل قبل أن يشق في تاريخ لاحق

كان أمير بعلبك الحرفوشي هو الوحيد الذي حاول مقاومة العثمانيين، بعد انتصارهم على المماليك ولكن العرالي نائب دمشق الحاش، هاجمه وقبض عليه وقطع رأسه وأرسله إلى القسطنطينية

دخل العثمانيون إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور دون مقاومة وقد حصعت لهم كل المناطق البهاية ما عدا البقاع، الذي وقبض فيها الأمير حرفوش الشيعي يقاوم العرو العثماني وحده⁽⁶⁾

ولكن من المؤكد أن الحرافشة استمرو في حكم المنطقة بعد هذه الهزيمة، فقد كان حرفوشي آخر حاكماً على حمص سنة 1520م⁽⁷⁾ وكان يعاون العرالي بسنه في هجومه على حمص بعد أن هزل الشوباسي العثماني المعين على حمص⁽⁸⁾ فهل قُتل أميران حرفوشيان في هذه الفترة القصيرة أحدهما بيد العرالي، وآخر قاتل العثمانيين إلى جانبه أم أن المقتول هو أمير واحد احتلف المؤرخون في تاريخ مقتله، ولجهة التي كان يقاتل في صفوفها؟

(1) حوادث الرمان، ابن الحمصي ص 161

(2) بن بيدمر كان نائب بعلبك شقيقه نائب الشام سنة 907 هـ

(3) محمد ابن باكلو حارج على السلطنة أقدم بدمر وقطع لطريق قتله مقدم لريدني

(4) حمارة هي قرية في البقاع العربي

(5) خالد العرلاي هو مقدم المرج في البقاع العربي

(6) سبق الإشارة إلى هذا النص «ثباته»

(7) أعلام النوري، ابن طولون ص 260.

(8) بلاد الشام ومصر، عبد الكريم رافق ص 121

هناك ثلاثة مصادر تتناقض حول هذا الأمير المقبول وصاحب الرأس التي استقرت في القسطنطينية. يرى حاك ناسه أنه سقط في مقاومة الزحف العثماني سنة 1516م، وابن اياس الذي يقول أن الأمير «شيعي قتل بسيف السلطان مع ابن الحنش، بينما يؤكد ابن طولون أن العرالي والحرهوشي كانا معاً في حمص عندما قاتلا الحاكم العثماني فاستقر الحرهوشي حاكماً وكمل العرالي طريقه إلى حماه وربما كان هناك أكثر من حرهوشي واحد يقاتلون في معسكرين متباينين

أما الأمير البقاعي الآخر ناصر الدين بن الحنش، الذي تولى نيابة صيدا منذ عام 1511م فقد سارع إلى الترحيب بالماتح لحديد، الذي وكله بحفظ الشام مدة عيابه، مع نائبها القديم الحديد العرالي في مصر لإتمام المتع هقام بالمهمة وحقق مطامحه «لو سعة بتولي نيابة حمص بالإضافة إلى نيابة صيدا وبيروت، والأميرية الكبرى بالشام والعديد غيرها من «نقاب الشرف والسلطة»⁽¹⁾. إلا أن علاقته بالسلطة بدأت تهتر بعد استتباب الأمر في محصر للسلطان العثماني عندما أراد العرالي الخلاص منه كما تحلص من ابن الحرهوشي فكانت المعركة الماصلة بينهما هي أرض «حوسية» بن بعلبك وحمص، حيث «هرم ابن الحنش ووقع أسيراً ثم استقر رأسه في دار السلطنة. ونوهم بعض المؤرخين أن ابن الحنش وابن الحرهوشي قتلا في معركة واحدة حاصها متحذنين في معاومة العثمانيين، وبأنهم «عرالي»⁽²⁾ إلا أن الأرجح أن مقاومة الحرهوشي سبقت تمرد ابن الحنش، وأن الأول قاوم المرأة عند دخولهم بلاد الشام ووصولهم إلى نحوم إمارته في بواحي حمص، بينما والاهم الثاني ودخل في حملة كبار عمالهم ثم فرق المطامع المتناقضة بينه وبين العرالي فعصى وتمرد حتى قتل على يد مناصره وغريمه، تاركاً المجال لظهور شخصية بدوية من أعوانه السابقين هو ابن عريخ، فيص لها أن تلعب دوراً بارزاً في معادلات السلطة في البقاع حتى صعد وبابلس، بما فيها صيدا وبيروت قبل بهاية هذه الأسرة على يد تحالف حرهوشي معي خلفه هي السلطة، كما استولى على ما تركته من أوراق ومقتنيات»⁽³⁾

(1) سبق ذكره

(2) قد يكون سبب هذا الإشتباه ما ورد بن بيس في بدائع الزهور أن العرالي قتل بن الحنش وابن الحرهوشي وأرسل رأسيهما إلى لسطان سنة 1518م وقد يكون الأمير الحرهوشي قد قتل عام 1516م

(3) ليسان والامارة الدرزية، أبو حصين ص 188

الأمير علي بن موسى الحرفوش (1537-1590) م.

إن الوثائق العثمانية الرسمية تؤكد من خلال ذكر بعض إخبار الأمير علي والمراسلات المتعلقة به أنه كان من أعظم أمراء بلاد الشام سلطاناً ونموذجاً في عصره، وربما في العصور العثمانية اللاحقة وقد توصل إلى أن يمرض شروطاً على إسطنبول، لقاء قبوله بحكم مناطق واسعة ثم بصل أمير محلي واحد إلى حكمها من بعده، وكان من شروطه على الباب العالي أن يتحول إقطاعه 'لو مع إلى ما يشبه إدارة مستقلة تلحق رأساً بإسطنبول، ويكون هو سكرتير' على رأسها «وزير» وأن يستثنى سكان إقطاعاته من الجندية، وأن يكون جميع الحكام الآخرين من موطنيه وأتباعه، بمن فيهم حمر الدين المغني. ونمل ما وصل إليه من قوة وصولة وبمود هي التي عجبت في نهايته على يد السلطان العثماني، بعد أن سهلت دسائس الأمير المغني كولي الشام، التمكن منه عيلة وعدراً.

بعد سقوط أول أمير حرفوشي قتيلاً بيد العثمانيين الماتحين، سكت المراجع فترة وجيزة عن أخبار الحرافشة ولكن يعكس أن مستنتج من ترجمة العربي لعل بن موسى الحرفوش، أن والده الأمير موسى كان أميراً على بعلبك قبل سنة 1537م⁽¹⁾ ثم حلّاه ولده على قبل أن يقدم أبو علي بن قنبر (الشهير بالأقرع) في نفس العام، رشوة للدهندار محمود ودرهما خمسة عشر ألفاً دينار، مقابل عزل علي الحرفوش وتعيينه حاكماً على بعلبك. مما أدى إلى حرابها ورحيل معظم أهلها وتمطّل الأحكام الشرعية والحياة العادية فيها، بعد أن عتّا بن الأقرع وأتباعه وصادر الأموال والمحاصيل ليجمع الأموال التي التزم بها للسلطنة⁽²⁾.

«فهمز جماعة من أقارب الأمير علي الحرفوش صاحب بعلبك، أن ينزعوا حكومتها من يد الأقرع لأنه من غير أولاد الأمراء، وحكومة بعلبك متوارثة لبني الحرفوش فحاهه ألما رجل جمعهم بنو حرفوش من كسروان والشوف، وأرادوه أن يخرج بعياله حيث شاء و رغم أن الحرافشة انهزموا في هذه المعركة وسقط من عسكريهم ألما وثمانون قتيلاً. فقد استطاع علي بن موسى أن يقتل الأقرع بعد حين مما أغضب والي دمشق والصدر الأعظم»⁽³⁾.

(1) لقب تركي بمعنى بك البكوات، أو لحاكم النعم وملت الأمراء أو أمير الأمر، أحده العثمانيون عن السلاجقة ثم صعب شأنه مع الأيام ويكون حامله عادة يحمل رتبة وزير

(2) سبق الإشارة إلى هذه الترجمة

(3) أحمد ابن الأقرع من رجال الأمير علي وأمواله في الأصل

(4) مصطفى الشام محمد كرد علي ج 2 ص 230 - 231

امتد حكم هذا الأمير، حتى مقتنه (1589م)، أكثر من نصف قرن، وهو يقاوم دسائس ولاية الشام وحكام الشوف حتى قبض عليه علي باشا بن علوان والي الشام، وساقه مع الأمير منصور بن هريج وقابضوه العروبي إلى أسلامبول (1585م). ولكن السلطان مراد أطلقهم أحراراً وعادوا إلى بلادهم أمراء. كما فشل والي الشام الجديد سنان باشا (1586م) في لقضاء عهده قبل أن يصبح صديراً أعظم ويحل محله في ولاية دمشق ابنه محمد باشا.

وفي يوم الجمعة في ثامن عشر من شهر ذي القعدة سنة (998 هـ - 1589م) دخل الأمير علي بصحبة يانظ إبراهيم وجماعة من الينكرجية فاجتمع بمحمد باشا وبن سنان باشا وكان يومئذ نائب الشام فأكرمه وصرع إليه الناس للسلام عليه ونزل في بيت يانظ إبراهيم ثم قبض عليه بعد عشرة أيام وحبس وعرض الباشا فيه إلى أبيه وهو الوزير الأعظم وكان أبوه حين كان في الشام نائباً أراد القبض عليه فهرب منه فلما علم بإمساكه أنهى إلى حصرة السلطان أنه من العصاة فأمر بقتله فصرت عنده داخل قلعة دمشق بعد صلاة المشاء ليلة السبت في ثاني عشر من شهر محرم سنة (999 هـ - 1590م) وأرسل رأسه إلى التحت السلطاني ودفن حسده في مقبرة المر دس بدمشق وقد تم قتله بدسياسة الأمير فخر الدين المني¹.

كان أمين بعلبك وأمير لواء حمص، وأمير لواء تدمر، ويبدو أن كسروان والشوف كانت قد دخلت في إقطاعه فترة ما، وكذلك بيروت كما تدل هوية المقاتلين الذين استعاد بهم حكم بعلبك من أحمد الأقرع و لحلاف الناصب بييه وبين الأمير سيف الدين على بعض الأملاك في مدينة بيروت. حصر إلى اسلمبول سنة 1585م، حيث جرت معاوضات ترمي إلى تلزيمة لمدة أربع سنوات، مقاطعات ابن ممن هي مدينة صيدا، والمقاطعات التابعة لها، ومقاطعات محمد بن شرف الدين⁽²⁾، بما هي ذلك القرى وحصن الأكراد، على أن يدفع مائة ألف هلوي بزيادة خمسة وعشرين ألفاً عن مبلغ الترامها المعتاد لكنه اشترط تقبول ذلك مالي

(1) الكواكب العائرة، العربي ح3 ص 194

(2) أحد أقارب فخر الدين ومناصروه وصاحب قصاع في جبل الدرور يمتد حتى حدود بيروت (فخر الدين فوستقلمند ص 99)

- 1 - تحويل الولاية المذكورة إلى «بيكليك»⁽¹⁾
- 2 - تخصيص علي بك وهو اسمه في المراسلات الرسمية بالإضافة إلى لقب الإمارة بمبلغ ثمانماية ألف أقة من عوائد الضرائب
- 3 - تحويل رعامه ابن معن وشرف الدين إلى حاصة تابعة له⁽²⁾
- 4 - عدم فصل المقاطعات المذكورة عن بعضها
- 5 - تخصيص معاشات لمن يقوم هو بتعيينهم
- 6 - إعفاء الرعماء وأرباب التيمار من لحروب الهمايوية طالما ستمروا هي أداء واحسانهم المحلية⁽³⁾

ويستهي الأمر السلطاني الذي فصل كل هذه الأمور بالقول «إذا لم تقل كافة هذه الشروط فإن علي بك لا يوافق على زيادة مبلغ الإلتزام»⁽⁴⁾

رغم المناصب المهمة التي وصل إليها الأمر علي، ورغم ريارته إلى اسطنبول، والمفاوضات التي أحرها مع الباب العالي، كانت السلطات العثمانية حتى قبل ذلك التاريخ تنظر إليه بريبة وشك، وتنتظر الفرصة المناسبة للقضاء عليه كما يدل على هذا الأمر السلطاني الصادر إلى والي دمشق وقصصها (في 19 جمادى الثاني 1992هـ - 28 حزيران 1584م⁽⁵⁾)

«لقد أعطى لواء تدمر سابقاً إلى الأمير علي بن حرهوش، أمين بعلبك التابعة لدمشق، وقد نوالى وصول الأنبياء التي تصيد أنه يصوم بمساعدة أهل المساد باستمرار، وأنه شخصياً لا يخلو من المساد أجل، لقد صدر الأمر، أنه بعد حسن التدبير، فإنه يحب إلقاء القبض على المذكور، سواء كان في دمشق أو في منطقة

(1) لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 108

(2) رعامه أرض راعية تقطع للمحاربين ومصود هو الحاق قطاع بين من ودين شرف الدين بإدارته.

(3) يقصد فيها الإعماء من لخدمة العسكرية وحمدية ولم يحصع بلاد بعلبك وأقطاعات الجرافة بلقعة العسكرية طالما بقيت تحت سلطنتهم وحرى هذا الأمير كان من أهم أسباب ثورتهم سنة 1850م وتوجههم إلى دمشق

(4) حول دعوة الأمير علي إلى اسطنبول ومفاوضاته مع باب العالي والأحكام لسلطانية الصادرة بشأنه راجع لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسين ص 109 إن إبراهيم باشا قائد الحملة العثمانية وصهر السلطان نقل إدارة شؤون البلاد بكاملها إلى الأمير علي الحرهوش سنة 1585م وتوجههم إلى دمشق

مخر الدين ومماصروه، «فوستنك» ص 104

(5) ص 1 م د 53 198 الإمارة الدرزية ص 180

أخرى، وعموماً حيثما وجد يجب إلقاء القبض عليه وحبسه وعرض حالته. أمر، عند وصول رجب أحد متصرفه عتبتي لمحلة أن تقوم بإلقاء القبض عليه وحبسه ثم عرض الأمر وقد كتب هذا الأمر بهذا الخصوص،

ويبدو أن هذه المصلحة المناسبة لم تسنح قبل سنة (998 هـ - 1590م)، عندما استدرجه والي الشام وابن الصدر الأعظم إلى دمشق حيث كانت نهايته بعد أن أرسلت اسطنبول هذا الحكم الحاسم إلى دمشق المؤرخ في 15 دي الحجة 998هـ - 10 تشرين الأول / أكتوبر 1590م.

«حكم إلى والي دمشق،

لقد أرسلت مكتوباً يعيد بآلك ألفت القبض على ابن حرقوش وصاف الكذاب»⁽¹⁾ وحسنتهما في إحدى قلاع دمشق وقد مرصت أن يعطى لكل منهما ثواب امر بقطع رأسيهما وإرسالهما إلى سدة سعادتني، ويجب أن لا تتواى دقيقة أو ساعة واحدة (عن تصيد الأمر) عند وصول الحاروش رضوان أحد حاكوشية عتبتي المعلقة حاملاً أمري الشريف. إقطع رأسي المذكورين بموجب المرسوم الشريف، وأرسلهما بسرعة إلى عتبة سعادتني مع الحاروش المذكور. عليك معلوماً أن هذا من مهمات الأمور وأنك يجب أن لا تصيب دقيقة واحدة في إجراء فرماني الشريف»⁽²⁾

كان من المرجح أن تشمل المماوصات بين لأمير علي والدولة العثمانية، ورغم أن الشروط التي وضعها كان فيها قدر من سعة السلطان والاستقلالية الإدارية لم تألف السياسة العثمانية في سوريا منذ أن أصبحت إيلات في الإمبراطورية، فهو لم يكن في أي وقت حاكماً عثمانياً مطيعاً حتى عندما يمل إبراهيم باشا، قائد الجيوش العثمانية وصهر السلطان إدارة شؤون البلاد بكاملها إليه سنة 1585م⁽³⁾ فالأحكام السلطانية التي تناولته في دفتر المهمة العثماني ترخر بأخبار شقاوته وتمرده وإغارته على مختلف الأنحاء فليس غريباً أن تحاول السلطة استجالات طاعته بهذا الثمن المرتفع

في 1576م أرسل قاضي الريداني إلى العاصمة طلباً عاجلاً للمساعدة في الدفاع عن بلدته من غارات الحرقوشي مع سبعين أو ثمانين فارساً من رجائه وبعد

(1) ادعى أنه ابن طرية أمير اللجون بغير حقيقة (تاريخ حجر دين، مطوف ص 61)

(2) لبنان - إمارة الدرزيه، أبو حسي ص 180

(3) حجر الدين ومعاصروه قوسطنطين ص 104

سنوات قليلة صدر أمر سلطاني إلى حاكم دمشق باتخاذ تدابير عسكرية رادعة ضده بعد أن أغار على قرى عديدة خارجة عن سيطرته في بعلبك وأعاده الممتلكات المنهوبة⁽¹⁾ وبعد أشهر في نفس العام تلقى والي طرابلس أوامر بمواجهة الأمير المتمرد والذي يتلقى من فخر الدين مساعدات في ثورته في بعلبك⁽²⁾ ولقل السلطة على البقاع إلى الإيالة المستحدثة في طرابلس، تسهلاً للقضاء عليه إلا أن هذا التدبير لم يستمر طويلاً وأعيد إلحاق البقاع بولاية دمشق كما كانت دائماً⁽³⁾ يلاحظ من حكم سلطاني صدر في أيلول 1583م أن لهجة الباب العالي قد اختلفت عن السابق نحو علي بعد أن هاجمت عصابات بدوية وتركمانية بعلبك فبادر أميرها للدفاع عن مضايعته وحماية سكانها فوصلت الأوامر إلى والي دمشق لمساعدة الأمير هذه المرة من أجل استعادة النظام والمسلم⁽⁴⁾

إن سكوب الدولة عن عدوها القديم يعود بدون شك إلى القلاقل والاضطرابات التي سادت مناطق حكمه في هذه الفترة وحاجتها إليه لإعادة الأمن ومقاومة العائشين به. ويتأكد ذلك في انداء وجهته المسؤول إلى حاكم حيلة واحذر واحترم. فانك ستعتبر مسؤولاً عن كل عمل شعب يقوم به أقرباؤك، أولاد سيف، الدين هاجموا قرى بعلبك الهمديونية ومعهم ثمانية إلى تسعمائة فارس مسلح بالبنادق وحنود مشاة بحجة أن عبي الحرفوش حاكم حمص كان وراء إلقاء القبض على حسن سيف وقتله⁽⁵⁾.

من الواضح أن الحكومة المركزية كانت تنتظر الفرصة المناسبة للقضاء على الأمير الحرفوشي وقد سمحت لها هذه زيارة طوعية قام بها إلى والي دمشق وذكرت الأسباب رسمياً بأنها محالقاته الصربية، وليس هناك ما يؤكد الاتهامات التي وجهت إلى دسائس فخر الدين ومدى مساهمتها في مقتله

ويبدو البروفسور أبو حسين غير مقتنع بالمبررات العثمانية ولا بدور الأمير المعني في إعدامه، فانه يعتقد أن هرطقته المتشددة، وعلاقاته المترصة مع الصموية الإيرانية هما المسؤولان عن نهايته⁽⁶⁾.

(1) ا م د 227 512.

(2) م. د 39 110.

(3) م. د (363-64) 150 47.

(4) ا م د 52.20.

(5) ا. م. د 64.86-254.

(6) الامارات الشيعية ص 85.

الأمير موسى بن علي (1590-1607) م.

خلف الأمير موسى والده في جميع مناصبه بما فيها أمانة بعلبك وإمارة لواء حمص، تتجدد كل أربع سنوات وليس التراماً مسوياً كما هو معمول به في سائر المقاطعات والألوية⁽¹⁾. وليس القرب من التسنن الذي ألصقته به الدولة وأجهرتها وأوساط الباشا في دمشق إلا حجة واهية قصدت بها تبرير عجزها عن منع موسى من خلافة والده المقتول على تشييعه.

كان بنو فريخ يتقاسمون حكم البقاع مع الحرشة. فتحالف الأمير موسى مع الأمير فخر الدين للقضاء على قرقمار بن السريح. وتم له ذلك اثر انتصاره في رينون سنة 1594م حيث كانت نهاية بني فريخ.

استمر هذا التحالف بين الأميرين بوجه يوسف سيما والي طرابلس وعدو والي دمشق محمد باشا المنتقل من ولاية مصر سنة 1598م

وابهرم السيمي في معركة حرت بينهما في نهر الكلب كما يقول معظم المؤرخين سيما يؤكد غيرهم أنها حرت في أعزاز الواقعة في ولاية حلب. ثم قام موسى بهجوم آخر على السيمي قريباً من مركز ولايته فدهمها حبه بشري في حزيران 1602م وبهنا سيما كان أهلها في الساحل يعملون على التحرير⁽²⁾

دعا بلغ يوسف باشا ذلك جمع سكانه وأهل الباحة، وهم أكثر من خمسة آلاف نفس، فكبسوا بعلبك في حزيران / يونيو 1602م. ونهبوا المدينة فهرب أهلها إلى الشام والتحا شلهوب بن نعمة مع جماعة من بيت الحرهوش إلى قلعة بعلبك، وكان معهم من أهل البلاد ما يزيد على ألف رجل غير النساء والأولاد، فحرق ابن سيما بلاد الحدث وقتل ابن سيما وابن فاطمه وقد اجتهد يوسف باشا في قتل الشيخ رعد بن نعمة من طيشار لأنه كان في وقعة نهر الكلب وقتل الأمير علي الذي هو ابن أخيه⁽³⁾.

ولم تأت المصادر على ذكر موسى أثناء الهجوم. مما يرجح أنه كان عائداً لسيما غير معلوم.

كان لجيد الشام هرقة دائمة هي حلب بقيادة سردار، ومهمتها جمع

(1) المرجع السابق ص 181

(2) تاريخ الأمير فخر الدين، مخطوط ص 75

(3) تاريخ السويهي ص 456

الأموال والاتاوة ومراقبة تحركات نولاة وعائدااتها من الأموال، تقسم بين
فخر الدين وموسى الحرفوش وكورد حمرة والحدادوردي رئيس حيد
الشام

رفض والي حلب بصوح باشا الاعتراف بحقوق أمراء الجند الشامي في هذه
الأموال، مما أدى إلى فتنة استمرت طبة عامي 1603 و1604م وقد شارك الأمير
موسى هيبها وانتصر لأمراء الحيد، وقتل بصوح باشا ولعب دوراً بارزاً في شؤون
ولايات حلب ودمشق وطرطلس ومناطقها

وقد يكون الأمير موسى قام بحملتين هالتس الأمر على بعض المؤرخين إحداها
إلى إعرار لمقابلة السيفي، والأخرى إلى عرير لاحتلالها وقد جاء في تاريخ بعلبك
لابس ألوف إن الأمير موسى، نبذ طاعة الدولة فأرسلت عليه الحيوش فتوجه
خميه إلى الأستانة العليا، وكانت بئدة عزيز عاصية وقد استمحل أمرها فاستأمن
للدولة هناك وتمهد لها بفتح عرير وخرابها، وأنه ينال جزاء ذلك رضى الدولة
عليه وتولى أحكام بعلبك، فأجبت طلبه، فلما صاد إلى دياره جمع خمسة عشر ألف
مقاتل ودهم عرير واستولى عليها حسماً وعدة⁽¹⁾.

وقد يكون الشعر الدانع الذي أرسله أمير حماء أبو الموارس إلى صدوقه الحرفوشي
يتعلق بمعركته في أعرار مع السمي لقربها من مدينته ولا بد أن يكون اهتمامه قليل بما
يجري في عرير بعدها عنه.

عزيز طور ودار الحرب موقدة وبت موسى وهذا اليوم ميقات
الق المعصا لتلقب كل ما صنعوا ولا تخف فحبال القوم حيات

كان الأمير موسى بطلاً شجاعاً حوذاً مقداماً مندفعاً لعمل الخير فاضلاً
شاعراً أديباً بليغاً⁽²⁾

قال ممتحراً

(1) تاريخ بعلبك ابوف ص 33 (تناقلت مصدر هذه الرواية وهي بعيدة عن المعقول ولا تتوافق مع واقع
الامور وتقاليده الحكم العثماني وأعرافه وبير لعريز وحدها أن تفصى على الدولة وتثير اهتمامها وقد
كانت في ذلك الوقت مقر لبعض الحماديين وكان السبيعيون ولاء في طرابلس

(2) خلاصة الأثر، المجلد ج 4 ص 432

الست نجل علي وهو من عرفوا، منه المحاجة في الأحشاء والكبد
وإني أنا موسى منه قد ورثت كفي سيوفاً تدب الأمن في الخلد⁽¹⁾

كان الأمير موسى يتمتع بمزاج عديدة، ثارت إعجاب أكثر من كتب عنه، فهو صموه بالشجاعة والحكمة والجود والبلاغة وتبدو ثروسية حلية من خلال شعره، ولحكمة من سعيه إلى إحلال الصلح والوثام بين حد دمشق والمتحالفين لهاجمته، وقد فقد إمارته من جراء هذا المسعى بعد أن عذره حليمة لسابق فخر الدين.

تولى ابن سبعا قيادة حد الشام ليحارب المتعربين على السلطان، وعلى رأسهم ابن جانبولاد الذي وصل مع جيشه قاصداً دمشق، إلى نحو إمارة موسى. فقصده موسى مدارة ومحاماة من أرضه وطلب إليه حياً أن يبقى بعيداً عن إمارته واحتتمع المعني وموسى وجانبولاد على بيع العاصي هرب لهرمل⁽²⁾ فتداولوا في الأمور، فطلب موسى اتفاقية سلام تعتمد بين المتخاصمين، ونعهد بالذهاب إلى الشام ومحاولة تحقيق شروط جانبولاد سلمياً فتت الموافقة على اقتراحه وقال له جانبولاد: «أذهب سليماً وكى يا موسى كليماً، فحصر إلى الشام هزمى من عسكرها بغاية الملام والموه بعلبك الكلام ظنا من جهلائهم انه عليهم وما كان ثاوماً إلا سوق الحير إليهم⁽³⁾»، فقابل أمير الأمراء بدمشق وعرض عليه مطالب جانبولاد وحلمايه وهى

أن تعطى حوران نعمرو بن مصرح السوي من عرب الفارحة، والبصاع العريري لمنصور بن المريح.

- أن يؤذن للحاج كيوان نعمة بالدحول إلى الشام ويكتب عرساً بأن جانبولاد لم يدخل إلى أرض الشام وأن فخر الدين يؤدي ما عليه من مال لسلطان، وبلاده موصوفة بالأمان وبدا لموسى أن أهل السلطة في دمشق قد قبلوا بهذه الشروط والمطالب بعد أن عقد أمير الأمراء ديواناً لبحثها، «واقصوا أن حوران نعمرو ولكن في السنة المقبلة، واعطاء البصاع منصور غير معقول لكونه ضد الرعايا غير مقبول، وما كبوا فيرجع وعليه الأمان⁽⁴⁾». ولكن الشيخ محمد بن سعد الدين⁽⁵⁾ رفض ما تم لاتفاق عليه، فرجع الأمير موسى إلى

(1) أعيان الشيعة، الأمير ج 15 ص 85

(2) بيع العاصي هو أحمد الفاضل بين ولاية دمشق وولاية طرابلس

(3) خلاصة الآثار، المحيي الجزء الرابع ص 598.

(4) تاريخ فخر الدين المملوك ص 82

(5) هوراس مجلس لشام وأعيانها

جانبولاد محدوداً لئلا يبلعه هشل مساعيه، فحرم جانبولاد على قصد دمشق ومهاجمتها.

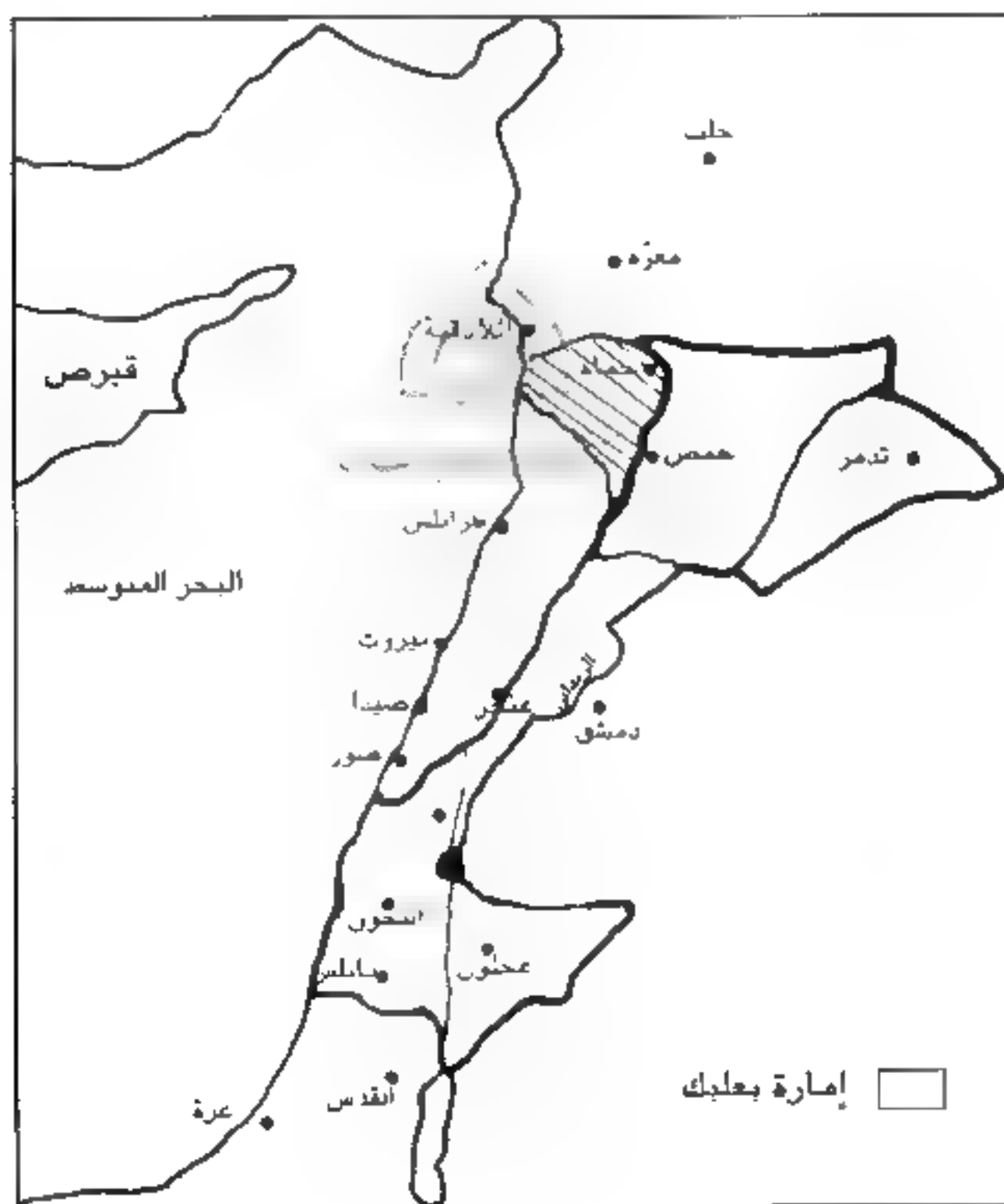
عاد موسى إلى دمشق ليحضر أهلها سيرة جانبولاد وأعوانه، فاستاء الحليمان من موقفه وانحاز إليهم الأمير يونس بن حسين ابن عم موسى، وقصد الجميع بعلبك فتهبوا وهرقوا أهلها، وتسلمها يونس وسار الجميع إلى دمشق وحاصروها يوم السبت هي حمادى الأولى سنة (1015 هـ 1607 م)، وانتصروا هي اليوم التالي على جند الشام، وحرابى سبها بعد أن ترك مائة ألف قرش لتعطى لجانبولاد لكي لا يدخل المدينة، وانتهى الحصار بصلح بال فيه جانبولاد مائة وعشرين ألف عرش ورصى المعنى على أن تكون بعلبك والبقاع للأمير يونس الحرهوش أما الأمير موسى فرفض كل ذلك وذهب إلى القبرانية قرب سع العاصى، وجمع عشيراً كبيراً لقتال ابن عمه واستعادة إمارته، إلا أن المرض داهمه فصره العشير ورجع إلى دمشق مريضاً فعات يوم الجمعة هي السابع عشر من صفر (1016 هـ 1608 م) ودفن في مقبرة باب المرادس بالقبة المعروفة بمبنى الحرهوش إلى جانب والده

إن عودة الأمير موسى إلى دمشق بعد أن هشت مهمته السلمية هي المرة الأولى، وكان فيها عرصه لتشككك والاتهام، حتى أن رؤساء الحنده ألوه بعبط الكلام، تندو بعبده عن حسن التصرف، وما عرف عن موسى من الحكمة والحصافة. فكيف يترك إمارته تحت رحمة حبش يقف ساعات قليلة بعد عن بعبك ويذهب إلى الشام للانضمام إلى حنده وهم في حالة احتلاف وضعف حيرها شخصياً في ريارته الأولى؟

إن أقل ما يمكن أن يقوم به موسى، إذا لم يكن راصياً عن مسار الأمور، أن يلتزم جانب الحياد، ويذهب إلى مركز إمارته لمراقبة مجرى الأحداث والدهاع عنها هي حالة الحاجة، خصوصاً أن الخلاف بين جانبولاد والمعنى من جهة، وأمرأ الشام من جهة أخرى، قد انتهى سلمياً بدون قتال، وتبين أن طلب إعطاء البقاع لمصور بن هرج كان مناورة سياسية عايتها طرح إمارة البقاعين العزيزي والبعبكي، على بساط النحت لاستبدال موسى بأبن عمه يونس الوثيق الصلة بصحر الدين. إن الذي نراه أقرب إلى واقع الأمور، أن الأمير موسى عاد مرة أخرى إلى دمشق لاستكمال مساعيه التفاوضية بطلب من جانبولاد وهجر الدين اللذين عمدا إلى إعادته لاستغلال فرصة عيابه ومهاجمة بعلبك ونهبها ثم تسليم الحكم فيها إلى يونس، خصوصاً بعد الأهمية التي وصل إليها موسى، حتى استطاع أن تكون كلمته مسموعة حتى هي دار السلطنة مد ريارته لها، وأن يجند في حملاته خمسة عشر ألف مقاتل، وهذه أمور لن يتقبلها صحر الدين بطسرة خاطر بل يسمى حسب عادته إلى التخلص

منه كما فعل مع والده علي وسيمعل بعد ذلك مع يوسن بنسبه وليس الإلتزام بوساطة موسى إلا مناورة قصد المعني من وراثتها بعباده عن لحكم ولسعي إلى استبداله بحرفوشي آخر توهم فيه حور الهمه والعزيمة

امارة بعلبك في أقصى اتساعها





الفصل الثاني

الصراع الشيعي المعني

صراع الأميرين

كان الأمير يوسف، الحرفوش 1608-1625م رجل سلام وصلح ومفاوضات. هي من كان القتل والنهب والتدمير من ذوي المجر والاعتزاز عند السادة والحكام، فسعى لشتر المودة والإلفة بين حيرائه من الرؤساء، والولاة، حتى صار يقصده الجميع لخص نراعاتهم وحل مشاكلهم. كما كان رجل يمد وعمرى أحياء مواب الأرض هي سهل البقاع، وأعاد له رونقه وأرداه مرة، وانتشرت البساتين في قرأه وصار فيها مياه جارية وفواكه وبساتين وأغاب وبين، وقد أشار الصمدي في أكثر من مكان وهو من رجال محرم الدين وبطائنه إلى ثروة الحرشة وعلاقتهم التي صبحتها سيده وأدهشته وهرتها وكثرتها. فقد استمر أهل الشوف والجرد والمين من مشايخ ومقدمين وفلاحين يعملون ليلاً ونهاراً لمدة شهر على نهب الحلال حتى حلسوه، كما صادروا ثلاثين حاصلاً من الفصح وثلاثين أخرى من الشعير في بعلبك وحدها، كذلك ما كان لهم من طرش عند عرب البقاع أرسل فخر الدين صبطه وكان أريد من ستمائة رأس من جاموس وبقر غير الذي أخذه الناس⁽¹⁾.

إن علاقة الأمير يوسف بالأمير فخر الدين سابقة لتاريخ توليه حكم بعلبك، فقد سبق والتجأ إليه لتسوية خلافات بينه وبين ابن عمه الحاكم منذ عام 1605م⁽²⁾. ولم يكف يصبح حاكماً على البقاع، حتى ظهرت النوى العدائية من الدولة العثمانية حياله، ربما

(1) تاريخ لصمدي ص 134

(2) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 237. كان حكم الأمير يوسف يمد أحياناً بالاصافه إلى البقاع فيشخص حمص ومهد وعجلون وبابلس، صيد عبر حقب لتاريخ مفير لحوري ص 221.

بسبب شخصيته القوية، وميله إلى التوسع والاستقلال، فحاول والي دمشق حافظ أحمد باشا بناءً على أوامر السلطان أحمد (1020هـ - 1611م) توحيه حملة لقتاله بغية تحميمه ووضع حد لمطامحه، ولكن تدحر حجر الدين مع صديقه الصدر الأعظم مراد باشا أهمل هذا التدبير.

توفي مراد في العام نفسه، وحل محله بصوح باشا، فسارع حجر الدين إلى إرسال كتحداه مصطفى، محملاً بالهدايا والخدمة إلى ديار بكر، حيث كان الصدر الأعظم الحديد على رأس عساكر الدولة ورعماً لأحكام السلطانية التي تقضي بقتل الأمير يوسف، نجح حجر الدين هذه المرة أيضاً بإرضاء الوزير وبغدير حاطره على يوسف والحصول على رضا القائد العثماني⁽¹⁾.

استمر التحالف بين الأميرين وشارك في العام التالي 1613م، في إرسال حملة إلى إربد، بقيادة علي المعني لمواجهة عساكر وُلي دمشق ولكن يوسف بالتنسيق مع الشهابيين أحمد وعلي، حاكمي وادي التيم، بصم مكرهاً إلى الحملة الكبيرة التي أرسلتها الدولة بقيادة حافظ أحمد باشا لقتال حجر الدين، وساهم بالإشتراك مع حسين سيما في معركة حاسمة عند جسر الحردلي، مع أحد صناديد المعنى الساعين للوصول إلى قلعة الشقيف انتهت بأسر بعض جنوده واسماعيل الناهين وتدمير بعض الدلائل إلى أن هذه المعركة هي أقرب إلى أن تكون تعبيراً عن موقف ظهري سياسي، يرمي إلى إرضاء القائد العثماني دون إلحاق الضرر بحصمه، ما دام جنوده القدامى من عرير بقيادة جلب حسين بلوكباشي⁽²⁾ تمكنوا من دخول القلعة، رغم هذه المباشرة الليلية مع معررة من حمسين جدياً، لاسيما وأن الأمير حجر الدين قرر عدم المواجهة ونحز إلى أوروبا.

بعد رحيل حجر الدين عاد أحمد حافظ باشا إلى تباع السياسة العثمانية التقليدية تجاه يوسف، وطالبه بتسليم عمارة قب لياس وحصن اللوة، ووصل بعسكره إلى بعلبك حيث أمضى عشرة أيام من المفاوضات انتهت بدفع يوسف حمسين ألف غرغش لقاء تسليم الحصنين وحوائج السكمانية الذين قتلهم بنه أحمد وعاد الوزير ليقتضي الشتاء في الشام بينما بقي فيها أحد فواده عمر باشا والي لاصول مع عساكره في المدينة.

عين سلاحدار جركس محمد باشا⁽³⁾ ولياً على الشام سنة 1615م فأعطى ولاية النخاع

(1) أخبار الأعيان الشدياق ص 239.

(2) المصدر السابق ص 246، ولسنجد (Sahdar) هو رئيس محارم الأسبحة.

(3) تاريخ الصغدي ص 35.

لشلهوب الحرفوش، لقاء أثني عشر ألف عرّض خدمة، وأرسل معه خمسمائة فارس مع كورد حمرة بلوكاشي ومصطفى أغا، فمابح الأمير حسين بن يوسف في حارة قب الياس ولم يسلم، وجاء لمعاونة شلهوب الشيخ مطهر ومقدمو كفرسلوان وحسن أغا مهلوك حسين سيما، لأن شلهوب ينسب إليهم من جهة أمه واستقل إلى مكسه وقدم يوسف إلى الكرك وجرت بينهما رسل ومفاوضات انتهت بمودة يوسف وأمنه حسين إلى بعلبك، ودخل شلهوب إلى حارة قب الياس حيث صعد البلاد لمدة شهرين، ولزيادة التصييق على يوسف أرسل والي الشام (صوباشيا) إلى بعلبك للإقامة فيها فتوجه الأمير يوسف إلى حلب لمقابلة الوزير محمد باشا الموجود ههنا وأعطاه أربعين ألفاً ذهباً بالإصافة إلى خدمة فأقرّه على البقاع وبعلبك، وعاد إليها ومعه أحكام من الوزير إلى حركس محمد باشا برهع يد شلهوب، وإعادة يوسف إلى البقاع فتولى ابنه حسين بعلبك وعاد أحمد إلى حارة قب الياس⁽¹⁾.

قام يوسف بجهود حثيثة لسوية علاقات المعنيين مع الدولة في عياب أميرهم فوضع حداً لسراع لفائهم بين حاكم صيدا، محمد أغا بشتاق والأمير علي المعني، انتهت بدخول الأخير إلى المدينة (واضطجعت معه إلى جنب حسين اليارجي ومصطفى كتحدا، لفائدة الوزير محمد باشا هاهنا حصار قلعتي نابيا وبرو الشقيف، واستحصل على تقرير صمد وصيدا على الأمير علي وعاد مع رسول الوزير بأكبر أغا لتسعيد الاتفاق. فخرج المحاصرون في القلاع من نساء فحر الدين وجموده، ولما أراد يوسف أغا أن يتسلم الحصون ويرفع منهم جميع أولاد العرب ويكونون بيد الترك صعب ذلك على الأمير يوسف وشرع في هدمها وقابع مساعبه التفاوضية والسياسية فساعد في إسناد سنجقية صحلون إلى الأمير حمدان بن قابصوه، واستحصل على سنجقية حمص بالإصافة إلى ما بيده ودخل على صيدا مع علي المعني وحسين اليارجي، ومعهم خمسمائة من السكبان والأمير علي الشهابي، وقرب بجهوده وكثافته في تزويج المعني بأبنة الشهابي وأرر المعنيين في وجه آل سيفا فجمع ثلاثة آلاف مقاتل من الشهابيين والمعنيين ورجال بلاد بشارة وانتصر على يوسف سيما في موقعة عين الناعمة⁽²⁾، وبدأ في هذه الفترة الشخصية السياسية والعشائرية الموثوقة والحكيمة ومحرقة الجميع وحترامهم. واستمر حريصاً على مساعدة المعنيين في عياب الأمير فحر الدين، وأدى لهم خدمات كان لها الأثر البارز في احتفاظهم بمكانتهم في عياب كبيرهم، رغم أن الأنبياء كانت قد بدأت تتوالى عن مشاريع الأمير الفائب وتحالمانه لشهرة. فقد أمر لهم استسلاماً مشرفاً للقلاع

(1) تاريخ لدويهي ص 471.

(2) تاريخ لدويهي ص 473.

والحصون، كما استحصل للأمير علي على سجنه صيدا وأمن دخوله إليها بعد ممانعة واليها السابق محمد بشاق، كما ساهم في تمام روجه من ابنه أحمد الشهابي، ولما أرسل علي المعني مديره مصطفى كتحدا إلى بعلبك ملتجئاً من الأمير يونس مساعدته عند والي دمشق للحصول على صمد مقابل أموال دفع قسمها منها وتكمل الباقي ولما عاد المدير وأحبر الأمير علي بالأمر كتب إلى الأمير يونس يشكره على معروفه بالكفالة وأرسل له العشرة آلاف عرش التي دفعها مسبقاً⁽¹⁾

أما الصفدي، المعاصر وربما المشار في تقرير هذه الأمور، فيقول: إن المدير مصطفى كتحدا تلاقى مع أصحاب الديون هي بعلبك وعندما حضر من الشام لاقاه قبوجي باشا الثواني من قبل الدهر دار وكورد حمرة والحاج كيوان البلوكباشيان، وجميع أصحاب المال وأرباب الديوان وكتبوا لحجة المطلوبة واستدان مصطفى عشرة آلاف عرش من الأمير يونس ودفعها إليهم مسجماً، وكتبوا الباقي إلى عيد شهر رمضان سنة (1027هـ - 1617م) وكفل المبلغ الباقي الأمير يونس فإذا لم يدفع عند حلول أجله يدفعه الأمير ويسلم منحنة صمد، فلما علم المعني بما حصل أرسل العشرة آلاف عرش للأمير يونس وتشكر منه،⁽²⁾

إن هذه المساعدات التي قدمها الأمير يونس للمعنيين، تقتصر على المعاملة بالمثل عند عودة فجر الدين من منفاه، ولكن ما حصل هو خلاف ذلك إذ أن بوادر العداء بدأت تظهر مبكرة بين الأميرين، حتى انتهت إلى مواجهة عسكرية ودخول فجر الدين إلى بعلبك وتدميرها ثم ما أعقبها من محاولات يونس كعادته حل الأمور بالتأني والمسامحة، ولكن فجر الدين تمكن بأمواله ووسائعه أن يدفع والي دمشق إلى قتله كما فعل هي السابق مع الأمير علي الحرفوش

إن العداء الشديد الذي ظهر من فجر الدين نحو حليمه السابق وسببه بعد عودته من إيطاليا، يثير استعراباً شديداً يدفع إلى تساؤل عن أسبابه الحقيقية والمستترة التي حدثت به، إلى البحث عن أسباب ظاهرة تبرر هذا الخلاف وتؤججه، إلا أنها تثير التساؤل والحيرة لدى الباحث المرقب

(1) برقة الزمان، الشهابي ج 1 م 2 ص 779

(2) تاريخ الصفدي ص 64

لا بد أن هناك أسباباً هامة ومؤثرة حتمت على الأمير القائد هذا التصرف، رغم أن الحرفوشي كان واسع الصدر بميل إلى المودعة، ولو فتحت التنازل عما يعتبره من حقوقه، فقد قام يونس بجميع الخطوب، التي كان من شأنها أن تربل أسباب الخلاه أو تحفف من حدته على الأقل، دون أن يترك الأمور تصل إلى نقطة الحرب والقتال.

كانت الحرب بين الدولتين الصموية والعثمانية، تنحى إلى النشوب من حديد فقد هاجم القائد العثماني حسن باشا أدرينجان سنة 1578م واستولى على خوى وسلماس وأرسل السلطان العثماني مراد الثالث حملة بقيادة مصطفى باشا، استولت على كردستان، كما سارت حملة أخرى بقيادة عثماني باشا إلى تبريز ودخلتها دون حرب.

بعد وفاة القائد العثماني انتقل الصمويون إلى الهجوم بقيادة ابن الشاه حمزة ميرزا وأجبروا الجيش العثماني على الانكفاء إلى سلماس على أثر هذه الهزائم احتدم الموقف السياسي في العاصمة اسطنبول لاسيما وأن الهزائم التي سببها هذه الحروب جعلت الوضع الاقتصادي صعباً على الحكومة والشعب معاً فلم ير السلطان محرراً إلا بحمله حديده أوكل قيادتها لفرهاد باشا، استطاعت الوصول ثانية إلى تبريز والسيطرة على كردستان ومناطق إنتاج الحرير في كتعة وشيروان، ولكن ما لبث أن استلم مقاليد الأمور في فارس الشاه عباس وبدأت معه الحروب مع العثمانيين تأخذ منحى مختلفاً عن السابق⁽¹⁾

خاف العثمانيون من تأثير العلاقة المذهبية بين أعدائهم الصمويين وشيعة لبنان على أمن واستقرار جيوتهم الداخلية ويبدو أن الصمويين كانوا في ناحية بعينك على اتصال مبري - منذ أمد - بالأمرء المحليين من آل حرفوش⁽²⁾. ومع امتداد القوة الصموية في بلاد فارس بدأ أمرء آل حرفوش بمد نفوذهم إلى بلدة مشغرة الاستراتيجية في أقصى جنوب وادي البقع، لتأمين اتصال مباشر مع إخوانهم الشيعة في جبل عامل، وكان العثمانيون يصرون على منع مثل هذا الاتصال وظلوا على يقظة تجاه موقف الشيعة في الشام ولتحصيف هذا الخطر التفت العثمانيون إلى آل معين في الشوف بعدما جرى تأديبهم ونزع أسلحتهم، على أثر الحملات العثمانية الناجحة على بلادهم سنة 1586م⁽³⁾

(1) تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، عباس صباغ ص 142

(2) بيت بهارل كثيرة، كمال نصيبي ص 165

(3) المصدر السابق ص 165

ووقع اختيار الدولة على حجر الدين ابن المقدم قرقماس فأنعمت عليه بسبحية صيدا⁽¹⁾ بيروت سنة 1590م⁽²⁾.

وصلت الدولة العثمانية إلى وضع عسكري واقتصادي حرج، بعدما تكبدت خسائر كبيرة وهزائم متوالية على الطرف الأوروبي من حدودها، حتى فقدت عام 1596 م، تسع عشرة ولاية، فضلاً عن سوء حالة الولايات المتبقية. في الوقت نفسه كان الشاه عباس قد نجح في إنشاء جيش عصري روده بالأسلحة النارية على الطريقة الأوروبية، وذلك بمساعدة بعض الحبراء الإنكليز، كما أنشأ مصانع للأسلحة رودته بحسماية مدفع وآلاف البنادق⁽³⁾.

ومع اندلاع المعارك بين الصمويين والعثمانيين، عين حجر الدين أمير لواء على سنجق صيدا مما منحه سيطرة مباشرة على شعبة جبل عامل المواليين للصمويين.

هل كانت مهمة حجر الدين المكلف بها من قبل لسلطة العثمانية هي مراقبة الشيعة والتصديق عليهم ثم صربهم إذا دعت الحاجة أو إذا تحركوا لمساعدته الصمويين؟

هناك حوادث كثيرة تحعلنا نذهب في هذا الاتجاه، ولا نجد لها تفسيراً مقنعاً آخر سيما وأن جميع الدلائل تشير إلى علاقة خاصة بين مراد باشا - أحد كبار رجال الدولة العثمانية وحجر الدين، أسبغت عليه حماية لا يمكن تفسيرها إلا بوجود مهمة غير معلنة يقوم بها المعني تؤمن له كل أسباب النفوذ والسلطان على أعلى المستويات، وتقيه غوائل تقهر الولاة وعصهم وتقضيهم.

تعود علاقة حجر الدين بمراد باشا إلى فترة ولايته الأولى على دمشق فهو الذي مهد له الطريق ليتحول من منافس على حكم جبل الدروز - مع عدد من أعيانه - إلى أحد أهم حكام بلاد الشام، بعدما أزال من أمامه أقوى منافسيه علي الحرهوش ومنصور الفريجي حيث تجمع المصادر على أن دسائس المعني هي التي دفعت الوالي العثماني إلى قتلها كما هيأت المناصب القيادية المهمة التي تولاها مراد باشا، قبل أن يصبح الوزير الأول في الدولة، السبيل لحجر الدين إلى أن يسير قدماً في مراتب السلطة والنفوذ وأن يصم إلى مقاطعته،

(1) المصدر السابق الصفحة نفسها

(2) المصدر السابق ص 166

مقاطعات أخرى يرداد بأموالها ورجالها قدرة على توسع جديد كما يقول هو نفسه⁽¹⁾.
تولى مراد باشا ولاية دمشق مرتين، ثم أصبح قائد حملة التي قاتلت جانبولاد وقره
سعيد وغيرهما من المتمردين، وولي مدينة حلب والرومسي وديار بكر، ثم أصبح سرداراً
على بلاد الأناضول ثم سرداراً على العجم وقائد الجيوش المعروفة بحيش الشرق حتى
مات سنة (1020 هـ - 1611 م)⁽²⁾.

تؤكد أهمية المناصب التي تولاها هذا الرجل أنه بقي من أصحاب النمود البائع
والتأثير القوي هي مختلف دواوين الباب العالي ومنصبه، وهو الذي منح حجر الدين
مظلة الحماية الرسمية على جميع تصرفاته ولدعم لكل متطلباته فلما توفي حاميه
تغيرت الأحوال واضطر بعد فترة قصيرة إلى الهرب من وجه جيوش الدولة باحثاً عن
سند آخر من وراء البحار

يقول عيسى اسكندر المعلوف عن هذه العلاقة الوطيدة بين الرجلين سنة 1592 م.
كان مراد والبأ على دمشق، فسار إليه المعني بالهدايا مع خاله سيف الدين التوحي،
وتمكن من مودته واستمال إليه الدولة بوسطه، ونصبت لديه كلمته فمكنه من
ولايته، وكان يحصل إلى دمشق كثيراً لمقايضته وكان صديقاً محلياً له جرن ثوبه⁽³⁾.

بدأت معاملة الدولة الخاصة لحجر الدين تتغير لحظة وفاة مراد باشا

بعد وفاة مراد باشا تولى نصوح باشا الوزارة العظمى بعده، ومن عادة فخر الدين
إذا تولى أحد من الوزراء الصدارة العظمى، يوجه إليه الخدم ويرسل معهم كتخداه
لحسن طاعته لولي الأمر، فوجه كتخداه مصطفى لخدمة الاستقبال وقدرها خمسة
وعشرين ألف غرض، ما حلا الأقمشة والخيل فلم يره الوزير تلك البشاشة المعهودة
بل كلمه بكلام قط وأعطاه أحكاماً سلطانية ومكاتب في هذا الخصوص⁽⁴⁾.

إن مقابلة الوزير المظلة لرسول حجر له بن - رعم الهدية القيمة - والأحكام
السلطانية المبررة بحقه تدل على أن مراد باشا سردار العجم وقائد الحرب فيها انفراد
وحده عن السياسة العامة للدولة، بحماية حجر لدين وتقويته وتوسعة نموده على حساب

(1) فخر الدين المعني لثاني، قرالي ص 133

(2) تاريخ حجر الدين، عيسى اسكندر المعلوف ص 62

(3) المصدر السابق ص 62

(4) تاريخ الصمدي ص 5

معظم جيرانه وإزالة منافسيه وعلى رأسهم الأمير علي الحرفوش الذي كان على حصار معه ومع حاله وأقرب معاوييه، حتى في بيروت نصّها⁽¹⁾.

تواصل الجناحين

ليس من العريب أن يبني أحد الأمرء الحرافشة بيتاً هي مشعرة ويسكنها، فالبلدة تقع ضمن إقطاعهم، وهي من مركز العلم والسكن والحكم عند الشيعة منذ أمد بعيد⁽²⁾، إن المستهجن في الأمر أن يعتبر المعسيون، أن في هذا تهديداً لمصالحهم وبعدياً لثمودهم ولا يمكن فهم موقفهم الحارم والشديد حياله، إلا إذا كان يشكل تهديداً لأحد محططاتهم المستترة، والتي لا يمكن استقرارها إلا بإلقاء الضوء على مجموعة من المواقف والتصرفات المدسمة والملاحقة، والبحث عن الدوافع الظاهرة والحمية.

إذا كان الذي أزعج المعسيين هو موقع مشعرة لحفراهي، على تحوم سنجقية صمد التي دخلت أنبياً في الترامهم، بمساعي وأموال وجهود الأمير يوسف الحرفوش، فإن علاقتهم بهذه السنجقية قريبة العهد، ولم يمسق لأي معنى آخر، أن كان له أي اهتمام بها سابقاً وليس لهم فيها، في مطلق الأحوال، أية مصالح مادية أو بشرية أو سياسية راسخة وتاريخية، يراعون في المحافظة عليها وأن الترامها السنوي متاح لأي شخص آخر، حتى أن عاملهم حسين البارجي لترمها رعماً عنهم، مما أدى إلى براع دموي معه⁽³⁾.

إن الأسلوب الذي صاغ به الصمدي روايته عن هذه الواقعة، يوحي بوصوح وكأن أحمد ابن الأمير يوسف، قد ارتكب مع أبيه جريمة كبرى بالإقامة هي مشعرة، واستقبال رواره من شيعة جبل عامل الذين تواجدوا عليه بحكم الأعراهم والروابط التي لا تخفى على أحد.

يقول الصمدي عن الأمير أحمد ابن يوسف

«غره الطمع بتدبير والده وحيله فحاء وسكن قرية مشعرة وأسس بها أساس دنيان، وصار يرسل ويكاتب بني متوالي، من المشايخ المتعينين، فطلع إليه من شيعته

(1) الإمارة الدرزية، أبو حصين ص 109

(2) حول «مشعرة حاصره العلم و لسياسة» راجع فصل آخر تحت عنوان «مشعرة».

(3) انتهى إلى مقتله على يد علي حجر الدين العمري

وملته بهدايا أولاد داغر، وأولاد علي الصغير وابن منكر الحاج ناصر الدين، بحجة أنهم يسلمون على قرابتهم الحاج علي بن منكر لكونه كان نارحاً عنهم منذ رجع الأمير علي إلى البلاد وحكمها ونارلاً عند بن الحرفوش الأمير يونس. فلما رأى الأمير علي ذلك وعلم أن محيي الأمير أحمد المذكور، إلى مشعرة معني على الفساد، وأنه مراده المحيي إلى هذه القرية ليس إلا استمالة لبني متوال إليه واجتماعهم عليه،⁽¹⁾

يبدو خلياً من هذا النص - خصوصاً وأن كاتبه مطلع عن كثب على أفكار سيده وهو أحسنه - أن اتصال الحرفوش بشيعة جبل عامس، يشكل في نظر المعني عملاً عدائياً، وتأمراً على نفوذه وسياسته وهذا هو سبب الرسالة الإبدار التي وجهها إلى الأمير يونس مع رسول شيعي خاص هو السيد نور الدين من قرية جباع. «إذا كان مرادكم محبتنا وصداقتنا فامنعوا ولدكم الأمير أحمد من البناء في قرية مشعرة ومن السكن بها أيضاً»⁽²⁾

يبدو أن المعني مصمم على منع اتصال الجرافشه شيعة جبل عامس معاً باتاً وحاسماً، رغم أن الأمير يونس في ذلك الوقت كان لشيعي الأقوى الذي يتقرب منه الناس، لحل مشاكلهم والاستعانة به في قصاص حوائجهم، بما فيهم الأمير المعني نفسه أحياناً. ومع ذلك فقد كان جواب يونس على هذا التحدير يتسجم تماماً مع شخصيته المسالمة التي تحنح إلى السياسة والمودعة، في مختلف الظروف، مهما كان الطرف الآخر متعالياً ومتوتراً

«نحن ما مرادنا إلا التقرب من جنابكم بالمليح وأن الذي خطر في بالكم لم يحظر بهائننا»⁽³⁾

فما الذي خطر في بال الأمير المعني؟ هل كان يريد أن يحول دون اتفاق شيعي وتواصل عام قد يقف عائقاً أمام بعض مخططاته التي كانت وقتها لا تزال في طور الإعداد ولم تسمح الظروف بتنفيذها بعد؟ أم أنه كان يرمي إلى إبقاء متاوله جبل عامس معرولين عن إخوانهم في الشمال، ومحرومين مما قد يوهره لهم الأمير يونس من حماية ورعاية، ليسهل استمر دهم وبتحكم فيهم، قبل الانتقال إلى عليك

(1) تاريخ الصعدي ص 66

(2) المرجع السابق ص 66.

(3) المرجع السابق ص 66.

للقضاء على الأمير وشيعته، وهو ما حصص فعلاً بعد ذلك بسنوات قليلة. أم أن التقرب من السلطة العثمانية، التي طالما برع في ابتداع أساليبه، يستلزم في ظل احتدام المعارك على الحبهة الإبراهيمية، قصع الطريق على كل محاولة للتواصل بين طرفي بلاد الشيعة في الشمال والجنوب وحسن السيامية يقتضي إزالة الحياء، الذي يهكر صفاء علاقته العثمانية، والهواش التي قد تكون حطرت على بال بعض رجالها الساعدين، من جراء ريارته الأوروبية المجهولة المقاصد، والمثيرة لبعض الشبهات

تصاعدت لهجة المعنى التهديدية في رسالته الثانية مع نص الرسول «لا بد من منع ذلك إن قصدتم صداقتنا على البصين، وإن كان لكم فيه غير ذلك فمرهونا بها لنكون على نصيرة»، إنها لهجة تسبق عادة إعلان الحرب وشعار العداء. لكن يوبس كعادته أثر الحد من تفاقم الأمور «فأرسل قريته أمير حاج إلى الأمير علي لينوب عنه في الإصحاح ويبين الأعداء ويوضح الأحبار وُرسل إلى «سه بمنعه من العمارة»

ولكن رغم كل ذلك بقيت هواجس المعنى تؤرقه لأن «حكايات الأمير يوبس ومراسلاته إلى مشايخ بني متول لم تنقطع وهم لم يمتنعوا في التردد إليه»⁽¹⁾

هل كان ذلك يعارض مع مشروع حجر الدين لقاسمي بإشياء مما لك أوروبية في لبنان وهنسطين وقصرص على الأقل، ووعوده بتسليم القدس إلى الطامعين فيها يداً بيد⁽²⁾، وما كان لمدينة صور خصوصاً من دور أساسي في هذا المشروع، كمرقأ حربي وتحاري تنطلق منه الحيوثر المادمة للوصول إلى القدس، عن طريق جبل عامل والجليل⁽³⁾ وقد بوشر فعلاً بإعداد الحرثط «للارمة لهذه المدينة وتقلع العاملة مثل نيجا والشقيف وبانياس والمبارة، استعداداً لمرور المرتقيا»⁽⁴⁾

كان حجر الدين وغيره من أعوانه ومعاونيه لأوروبيين، يعتقدون أن المسيحيين والدور يدعمون هذا المشروع وسيحاربون من أحبه فكان المطلوب من فرناندو الأول عشرة آلاف جندي لشد أزر الدور في هذه الحملة، بالإصافة إلى عشرين ألفاً من

(1) لرجع لسابق ص 67

(2) لرجع السابق ص 67

(3) في دار 1625 أوفد البابا أوربانس الثامن لاب توما إلى نوسكانا هروى لقاصد فلورنسا لرسولي أن حجر الدين كتب للبابا يستعنه على احتلال الأرض المقدسة وقد وعد الأمير بتسليمه سجن القدس يداً بيد (حجر لدين المعنى الاب فر لي ص 155)

(4) حول أهمية ميناء صور للحملة لموعودة راجع لمصدر السابق ص 154 - 155.

(5) حجر لدين المعنى قرالي ص 155، وبانياس و لمارة قريتان على حدود جبل عامل الجنوبية.

أهالي جبل لبنان، يمكن تجسيدهم وتكليمهم التخریب في أرض العدو كما جاء في تقرير رعه أحد البنادقة إلى عراندوق توسك: «فيجتمع لديكم من جنودكم الدروز ونصاري الجبل بين الأربعين والخمسين ألما تملفون بهم مرامكم وتتوجون ملكاً على القدس وسورية»⁽¹⁾

فما هو مكان الشيعة ومصيرهم في مثل هذه المشاريع؟ لابد من الوقوف طويلاً أمام التوقيف الذي احتاره فخر الدين ليش على شيعة حملة تكيل وبطش وإرهاب، بدأت منذ اللحظة التي ترك فيها الباحر وهو لم يرل في عكا قبل بروله إلى البر مما يدل على أن الأمر كان مبيتاً قبل وصوله إلى أرض لوطن والعاية منه صربهم والقاء الرعب في قلوبهم، وإبعاد مشايحهم وحكامهم لعاية لابد من النظر فيها، والنعم في إعادها وأهداها، يقول الصفدي «انه كان قد بلغ الأمير فخر الدين أحوال مشايخ بني متوال ومما بلهم لابن الحرهوش في قرية مشمرة، فحين وقعت عيناه على الشيخ ناصر الدين بن منكر مسكه لأنه من أصابهم»⁽²⁾ ومن الواضح هنا أن الحاج المذكور جاء مع غيره من مشايخ المناولة للرحب بالأمير واستقباله كما استقبله في صيدا الأمير أحمد الحرهوش بتقدمة من الحيل⁽³⁾ ويؤكد أن أول مهمة قام بها القادم من سنة استمرت أكثر من خمس سنوات، هو انتقاله إلى عكا وتزريق قصاده على سائر البلاد، والبصير على الشيعة بحجة جمع مال الارساليه لمدة ثلاث سنوات فقتل ونهب في عدة أمكة من جبل عامل مما أرغم مشايحهم على معادرة بلادهم ولالتجاء إلى الأمير يونس الحرهوش. «طاحت مشايخ بلاد بشاره بيب شكر وأولاد علي الصعير ولما بلغ الأمير فخر الدين هجاج مشايخ بلاد بشاره أرسل هدم بيوتهم وضبط جميع غلتهم»⁽⁴⁾

أحبر فخر الدين مشايخ المناولة على ترك دورهم والمرار إلى مناطق بعيدة عن ديارهم، حيث يحدون الأمر والحماية عند الحرهوشي، ثم عمد إلى هدم هذه الدور ومصادرة الأوراق كي يتخلص نهائياً من وجودهم في جبل عامل، فلا يبقى فيه إلا العوام وسائر الناس، بلا جامع يوحدهم أو قائد يلتصق حوله، فيسهل التحكم بهم. ولا يشكلون هي المستقبل أية قوة بحسب حسابها أو يؤبه إلى قرارها هي مصير أرضها

(1) من تقرير كاتشيا ماري (Catce a mar) إلى مرديساد الأول، قرالي م.م ص 159

(2) تاريخ الصفدي ص 69

(3) المرجع السابق ص 69

(4) المرجع السابق ص 71.

وباسمها، فهل كانت هذه هي الخطوات الأولى لتمهيد الأرض أمام جيوش العراة المرتقبة هي طريقها إلى القدس أم أن هذا هو المطلوب من حجر الدين، لإرضاء السلطات العثمانية التي كلمته بمهمة قهر الشيعة وبتكليف بهم؟ وهو بحاجة إلى استدراك رصاها واستعادة ثقتها بعد عيابه الطويل المثير للريبة أم أنه يصرب المصهورين بالحجر الواحد فيرضي الطرفين معا ولو خلت لأهداف بينهما؟

وما هو موقف يونس الحرفوش إزاء ما يبرله حليمه القديم بالشيعة من صرعات مؤلة متلاحقة؟

نقي يونس كعادته متحفظاً ومتأبياً بعناج الأمور بروية ودبلوماسية فأرسل مديره حسين الشارب يلتبس من الأمير حجر الدين إطلاق الشيع باصر الدين مقابل كفالته لاثني عشر ألف عرش تدفع تصديداً لدونه في دمشق، واستقبل الهاربين من حبل عامل وفي الوقت نفسه لم يتأخر عن إجنه طلبه أن يصطحب ما لال سيما من المواشي والغلال في القير بية والهرمل بعد أن حصر البرج الذي دخله سكمانيته ابن، سيما لمدة ثلاثة أيام كما أرسل وحدة من أربع بلوكشية من عساكره إلى حجر الدين للاشتراك في حصار ابن سيما في حصن الأكراد⁽¹⁾

تواصلت العلاقات الماترة بين الأمرين المعنى والحرفوش، غير أنها لم تصل إلى حد القطيعة رغم أنهما لم يتقابلتا منذ عودة حجر الدين من إيطاليا حتى عر - في بلاد بعلبك، ظهر أتياً من البترون عر حدث بعلبك ثم وصل إلى المحر⁽²⁾ على بيع لعاصي وكان الأمير يونس عندها في حصن السوة الذي لا يبعد كثيراً عن المكان فتوجه حجر الدين لزيارته فالتقيا على الطريق ومنهم كل منهما على صاحبه فدعا حجر الدين إلى حيمته على الدعوة ومكث مقدار «شرب فحان قهوة»⁽³⁾ وقام مودعاً محتب بتقديم الميرة والعارق للعسكر إلا أنه لم يرجح ولم يرسل شيئاً وهذا ما بدل على نور العلاقات بينهما، وأن يونس ينظر بعين الشك والريبة إلى حجر الدين لأن إرسال الميرة هو من التقاليد المرعية التي تعبر عن الصداقة والمودة والثقة

(1) تاريخ الصمدي من 77 سكمان و سكمان SEKBAN هو حارس الكلاب في الأصل وأصبح يعني حارس لفلمة بوهنجي TUFFENGI حصدي مشة كتحدها وكيجبا KIAYA هو سيد البيت في الأصل وأصبح يعني الوكيل أو السكرتير

(2) وادي صيق إلى الجنوب من معارة لراهد ودير مار مارون لا يزال يحمل هذا الاسم «المجر» حتى اليوم ربما لأن مياه اللوة كانت هدماً بحري فيه حتى تصل إلى بيع لعاصي

(3) يقصد بذلك أن الريادة لم تستغرق وقتاً طويلاً

قام الأمير يونس بمحاوله جريئة لإيقاد علاقته لمتدهورة مع فخر الدين وربما لكي يأمن شر تقلماته ودسائسه يقول الصفدي.

«في محرم الحرام من سنة (1030هـ-1620م) قدم الأمير حسين بن الحرفوش وكواخي والده وجماعته إلى عند الأمير فخر الدين ببيروت حاطبين كريمتيه للأمر أحمد فتوجه فخر الدين إلى صيدا وقصى لهم مرادهم، وعاد كل منهم بما حصل له من المجاورة وأرسل كريمتيه مع المتصنين من أعيان جماعته وتوجهوا إلى قب الياس، وجاء الأمير يونس والتقاهم بها وراعى الدين توجهوا من قبل الأمير فخر الدين حق رعايتهم وعادوا إلى أستاذهم»⁽¹⁾

من الواضح أن فخر الدين عاد من أوروبا وهو يحمل صفيحة وعداء نحو يونس الحرفوش وعائلته وجماعات الشيعة المولية به في حل عامل فلم تكن إقامه ولده حسين في مشمرة إلا المشقة التي قصمت ظهر البعير، وأفسحت المجال لظهور هذا الخلاف إلى العلن واتحاده المعنى لتصعيد الذي سيؤدي إلى الصدام مستقبلاً بين الأميرين

إن الاصطهاد والتشكل الذي أوقعه المعنى بشعبه حل عامل، واعتقال بعض شيوخهم، ونهجير الباقين، وهدم القرى الشيعية وحرقها ومصادره الأوراق والممتلكات، لا بد وأنها تركت في نفس يونس أثماً دهنياً حالت طبعته الهادئة دون ظهور ردات فعل فورية ومتشجعة ولكن جميع أسباب الصدام توهرت ولم يبق إلا إشعال الفتيل الذي حاول يونس تأخير ما أمكن لقد منع ابنه من الإقامة في مشمرة، وبذل المال لتحرير الشيخ المنكري المعتقل، وتحمل وحود الهاربين من مشايخ حبل عامل لديه دور أن يثير هذا الأمر أو يريد الشرح اتساعاً بينهما، ثم إنه بعد طلبات فخر الدين في مقابلة آل سيف في القيرانية، وأرسل له الجدة إلى قلعة نحصن، وأخيراً سمى إلى مصاهرته لعل النسب يهد في إحماد العداء ولكن فخر الدين كان يقب في دفاثره عن أسباب قديمة، يمكن له أن يثيرها لتعقيد الأمر ولجسوع نحو حرب حري إعداد أسبابها وخطتها بعناية وبراعة وتصميم.

إن صعوبة البحث في الأحداث التاريخية لطاهرة تتصاعف حينما يعتمد الباحث إلى

التماد من خلالها إلى حلمباتها ومسبباتها، ليصل إلى قناعة كاملة، بأن الحدث لا يحمل وحهاً آخر غير الذي يبدو من النظرة العابرة الأولى

إن العداء البالغ الذي أظهره فخر الدين عدة وصوله إلى عكا، وقبل أن يتسنى له الوقت الكافي للإطلاع على مجرى الأمور هي عيبه، ومقابلته ولده علي وشقيقه يوسف والذي عر عنه بتدبير عنيفة وفاسية أحرقت المستهدفين من متاوله جبل عامل على النروج إلى منطقة أخرى، بدون إبداء مبررات وأسباب أو الإقصاح عنها، كما أن المحاولات المتكررة التي ابتدأت قبل وصوله وتناعت فيما بعد لإثارة يوسف الحرفوش وجره إلى صراع لا يريده ويتحاشاه مهم كد الثمن، وهو الأمير الذي يملك من أسباب المنة والثروة والسلطة «وقوة النفس على ابن معن وضيئه من أمراء أولاد العرب،» ما أقر به خصمه نفسه قبل عيره إن هـد الإصرار على إشعال فتيل الصراع يكشف عن العاية الحقيقية لصهر الدين في ذلك، ما دام ليس هناك سبب حلي، مثل الكثير من الأسباب التي تشر الحروب بين رجال الحكم وأصحاب السلطة عادة

وحد فخر الدين في حارة قب الياس سبباً لإذكاء العداء فوصل فحاة إليها مع سكبانه وطرد صهره منها، وهرق بينه وبين روحه، ولما امتنع الحرفوشي عن أنه ردة فعل عييه تحاه هذا التصرف أمر جماعته بهب البدة وسلب غلالها، وعمد أخيراً إلى مهاجمه أكثر المزارات الشيعية احتراماً وتقديراً في المنطقة، فدمرها وأحرقها، لعل ذلك يؤدي إلى ما يبتغيه من إخبار يوسف على حوص حرب، لم يقتنع، رغم كل ما جرى بصورتها وجدواها.

يروى الصعدي الأسباب التي دفعت المعيين إلى إشهار الحرب على الحرافشة، فإد هي أسباب واهية وتافهة يمكن لأي مدبر أن يعالجها بدون كبير عناء إن دسب يوسف أنه «تقوى في عدد المدايين وقطعان المعر وتوسعت عليه الأرزاق وباع في سنة العلا غلالاً مابلغ الأسعار وصار يمنع أهل الشوف من الزراعة وكان للأمير علي بن معن بعض تيمار في قب الياس يسمى «قل العمورة»⁽²⁾ فأرسل إليه مباشرة من قبله فمعه الأمير حسين الحرفوش فلما ظهرت من بيت الحرفوش هذه الأحوال ركب الأمير فخر الدين من بيروت بصحبة عساكره وبرزوا تحت حارة قب الياس،

(1) تاريخ الصعدي ص 135

(2) قل قرب عنجر لا يزال يحمل الاسم نفسه حتى اليوم وهو محل مراع قصائي حالي أمام المحكم.

خرج الأمير حسين من حارة قب الياس واجتمع بالأمير فخر الدين ودعاه إلى صيافته فقبل منه ودخل مع بعض سكانه إلى الحارة فلما استقر به الحلوس أربز من يده وثائق تفيد بأنه اشترى الحارة من ورثة الأمير منصور بن الفريخ وقال له

دعني موجب هذه الحجج الحارة ملكاً وأسكنك بها هذه المدة الطويلة والآن احتجنا إلى موضعاً فتوجه أنت إلى عند والدك بالأمن والأمان⁽¹⁾

خرج الأمير حسين مطروداً بدون روحه، وانجه إلى بعلبك بينما أمر فخر الدين رجاله بنهب البلدة، وأعطى إحارة لجميع أهل الشوف والحد والمث بأحد غلال بيت الحرفوش، وكذلك جميع طرشهم وأرسل يستقدم المعتمدين والقلاع من صيدا وبيروت ليهدموا الحارة.

لا بد من التساؤل عما إذا كانت حارة قب الياس أو تل السمورة أو وهرة غلال ابن الحرفوش هي أسباب كاهية لشن حملات عسكرية وحروب، تستقطب معظم القوى الموجودة على الساحتين العسكرية والسياسية. أم أن هناك وسائل أخرى وأقل كلمة وأقرب إلى حسن التصرف يستطيع فخر الدين اللجوء إليها لاستعادة ما يدعيه من حقوق في حارة قب الياس التي تقيم فيها أسرته وروحه؟

وربما شعر الصفي أن هذه الأسباب غير كافية وعبر مقنعة فحاول تبريرها بسلامة بيه سيده، وبند مقاصده وركل ما يرمى إليه هو، وتوطئة نفس الأمير يونس وأولاده، وأن حارة قب الياس انتقلت إليه بالشراء فهو بطالب بحق شرعي وعادل⁽²⁾ وأخيراً جاء برواية مكتوب كورد حمرة، تدّعي لعلها تكون أكثر إقناعاً وأشد واقعية خصوصاً وأن الوزير في دمشق أرسل بعض مدوينة لإجراء الصلح بين الأميرين فمشلوا هي تحقيق ذلك

يقول الصفي الذي انمرد بهذه الرواية العربية والتي يبدو أنها من وضع وايتكار كيوان صديق الأمير المعني وبصيره ووالده لروحي لأنه تماثل مع ما عرف عنه واشتهر به من أساليب مبتكرة في الحداغ والاحتيايل، وتظهر لمساته واضحة في طريقة وضعها⁽³⁾

(1) تاريخ الصفي ص 135

(2) أثبتت لوثائق العثمانية المنشورة حديثاً بطلان هذا الزعم كما جاء في لحكم السلطاني الصادر في أول تشرين الثاني 1615م والقاضي بإعادة هذه الحارة وغيرها من الممتلكات الأخرى إلى أصحابها لشرعيين آل فريخ الامارة لدرية، أبو حسين ص 187 188

(3) حول اشتهار كيوان بأساليب الحداغ والإحتيايل راجع المعني ج 3 ص 299.

«أرسل الأمير يونس مكتوباً إلى كورد حمزة بلوكباشي، يعلمه فيه بعزل ابن معن عن صمد وعما صار في جماعته في ديباس وعجلتون وأظهر فيه البعض وشدد على كورد حمزة باعتناء هذه المصلحة واختلط هذا المكتوب مع المكاتيب التي أراد إرسالها للأمير فخر الدين لأنه أمي لا يصرأ ولا يكتب فلما اطلع فخر الدين على ذلك تغير خاطره على بيت الحرقوش لأنهم كانوا ردلاء»⁽¹⁾

إن رواية الصمدي حول هذا المكتوب لذته لا تستقيم مع انطق السليم وواقع الأمور ألم يكن الأمير يونس على دراهم بالتحالف الثلاثي المقدس الذي قد يكون من تقاليد الإنكشارية المتبعة بين فخر الدين وكيور وكورد حمزة، حتى يرسل له ما يمكن أن يستعمله كورد حمزة لإثارة فخر الدين عليه، وهل من المسلم به أن يقع كورد حمزة في مثل هذا الخطأ وهو الذي تعود على أمور الديوان والإدارة وكانت سلطته غالباً هي الفصل في أمور تعيين الولاة وحكام المقاصعات وهل من الممكن أن يكون هذا المكتوب حلقة أخرى من سلسلة من الحوادث المصطنعة والمفتعلة كمقدمة لمعركة عنجر وما حصل أثناءها وبعدها؟

«في شهر ربيع الأول في سنة (1030 هـ 1620م) صار الاتفاق بين الأمير فخر الدين والحاج كيوان وكورد حمزة وباقى عساكرهم عموماً أن يرجعوا من بينهم السفاق وسركوا السفاق ليكونوا شتتاً وحاداً وعدو أحدهم عدو لهم جميعاً وصديقه صديقهم»⁽²⁾.

لا يمكن الاستهانة بهذا التحالف الثلاثي المقدس الذي يجمع بين أمير طموح واثنين من كبار حيد الولاية استطلاعاً في وقت ما، أن يمسكا برعاع السلطة الرئيسية في ولاية الشام التي تعين الولاة وتجرد الحملات وتحكم في سائر الأمور

بدأت ملامح الخلاف الحدي بين الحاكمين تبرز بشدة، عندما بدأ فخر الدين يسمي معاملة متاوله جبل عامل التامعين لسنجق صمد الذي تولاه لأول مرة قبل وفاة راعيه القبوح هي دروة الحرب العثمانية الصفوية سنة 1598م واشتد مع توثق العلاقات بين الحرافشة من جهة ومشايخ صمد المتاوله من جهة أخرى، فيما هشل يونس في محاولاته للإبقاء على علاقات ودية معه، رغم نجاحه في الحصول على الأمان له وهو في أوروبا ومساعدة ولده علي في الحصول على سنجقية صمد في عياد أبيه؛ وصل إلى قناعة

(1) تاريخ الصمدي ص 134 وسدو مشاعر مؤرخ حداثية تجاه الحرافشة في هذا النص كما هي غيره

(2) الصمدي ص 94

مصادها أنه لا بد من رفع يد فخر الدين وسنطته عن شيعه جبل عامل والسبيل الأنسب إلى ذلك هو في توليه شخصياً هذه السحقية المتحصنة بإمارته فصبح بعدها فعلياً الأمير الشيعي القوي الذي يمتد حكمه من بوادي الشام إلى سهول فلسطين وما بينها من بلاد المتأولة، ما يهدد جدياً مشاريع عريمه المعصده وأهدافه المبهمة.

وهذا هو ما عجل في دفع فخر الدين إلى التخطيط لمعركة عسجر ورسم مصولها بهكر ودهاء ناديين.

معركة عسجر

تولى الأمير يوسف أخيراً سحقية صمد بريادة ألف ذهب، وأصبح يحكم مناصبه «سنجق صمد أمير لواء حمص صابط بعلبك وبماح العزيز»⁽¹⁾ حاكماً على الشيعة من أعماق البادية شرقاً حتى أطراف بلاد بشاره بما هيها مقاطعات جبل عامل الثلاث، والبقاعين ومدينتي بعلبك وصور، ومناطق صمد وبالس وعجلون في فلسطين⁽²⁾

أعصب ذلك الأمير فخر الدين وحفنه يستمر جميع طاقاته وقواه العسكرية والمالية والسياسية، فأرسل من المنية مكاتيب لباشا الشام وأوطاق الكعربة والدمردار أنه

«بلعنا أن اس الحرفوش زاد على صمد ألف ذهب وقبلتم منه ذلك فحسن عسجرا خدمة لحضرة مولانا السلطان على بلاد بعلبك مائة ألف ذهب، وإن كان عندكم غرض نفس وهوى يصير فتنة وإن قبلتم بريادة ألف ذهب ولم تقبلوا مائة ألف ذهب تحصر لديكم فالأمر إلى الله تعالى³ ثم وصلته اخبار من معتمده والواقف على مصالحه في اسطنبول فميد أنه اجتهد على رمان حسين باشا الوزير هي أن يقرر سحق صمد فما أمكن، إلا أنه فاحاً لجميع بما هيهم دولة الشام بريارته إلى صمد وإعلانه أنه استلم احكاماً ورسائل رسميه من الوزير علي باشا في اسطنبول بتقريره من جديد سنجقاً على صمد، أرسر صورتها إلى والي دمشق، وقال لتأكيد الحبر ودفع الشك والارتياب أن محمد آغا نعمتاي ومحمد بلوكباشي أحصرا هذه الأحكام من الباب العالي، فلم يلتفت أحد من دولة الشام إلى ذلك وجعلوا أن ذلك قرويراً»، فقد وصلت إليه أخبار تولية السلطان الجديد مراد وتوزير علي باشا، الذي

(1) لبنان والإمارة الدرزية، أبو حسن من 182 183

(2) نقلاً عن وثائق محكمة الشرعية في دمشق لحررشة مؤرر حيل من 80

(3) تاريخ الصمدي من 139

خدمه الحاج درويش بحمسة آلاف عرش حال تسميته، قبل أن يسمع بها أحد⁽¹⁾

على الصعيد العسكري وبعد بحصير دُؤوب، ومقدمات كثيرة معدة بعناية مدروسة، بدأ فخر الدين أخيراً حربه المعلقة على يونس ومن ورائه، على ما لاح في الأفق من بوادر اتحاد شيعي بين ألوية حمص وبعليك وصيدا التي اجتمعت في حكومة الحرهوشي، فجمع ألفي حيال، وهاجم بلدة كرك نوح التي كان بها مكة دينية مهمة عند الشيعة، وفتح باب المرور وقتل ما يقرب من ثلاثين رجلاً من أتباع ابن الحرهوشي وأسر بصرأ أرسلهم إلى بيروت وكان في البلدة مئة مقاتل من جماعة الأمير يونس عليهم مملوكة صوناشي البلد وابن العتمي، فلما باعتهم كثرة اخيل دخلوا إلى المرور ثم صعدوا إلى المئذنة واحتموا فيها ولما وصل ولده علي وشقيقه يونس برحالتهم، نزل المدافعون بأمان علي الشهابي، فأحرق الأمير جميع أحياء البلد بعد استسلام المدافعين صلحاً حتى لم يبق فيها بيت واحد بلا حريق وتوجه منه إلى سرعين التي كانت قديماً مسكناً لأهل حرهوشي فهرب أهلها إلى الزبداني ولكن عشير الأمير تبعهم ونهب منهم ما قدر عليه، واستمر فخر الدين بالبلد إلى قرب الظاهر حتى أنهوا حرقها ولم يبق فيها بيت عامر، وكانت هي والكرك من أجمل البلاد وأعناها⁽²⁾

اندلعت الحرب بين الأميرين، وبدأ فخر الدين هجومه على البقاع، وبما أنهما كانا أهم حكام البلاد فقد انقسم الناس إلى حربي متحاربين، حتى كل منهما أقصى ما يمكنه من مناصرين وموالين.

ضم معسكر الأمير فخر الدين رجال الشوف والعرب والحدرد والمتن وأحلافه من الشهابيين والأمير أحمد بن قاصصوه ولشيخ أحمد الكتاني والشيخ حسين بن عمر النافعة، يقابلهم في المعسكر الحرهوشي أمير يونس وسكنائته ورجال يلاذه وأقاربه وحلفاؤه عمر بن سيف والأمير عباس مع أعراب حمص وتركمان بعليك وعرب آل موسى

وكان في ولاية الشام ثلاثة أشخاص يديرون أمورها حينئذ، وهم: الوالي مصطفى باشا الخناق «كنده» مراد باشا «لورير صديق المعني وحاميه»⁽³⁾. وهو رجل ظلوم غشوم اعتمد على كيوان في أمور الولاية حتى صارت حقيقة أمور

(1) المرجع السابق ص 145 - 146

(2) الصمدي ص 147.

(3) تاريخ الأمير فخر الدين العلوي ص 181

السلطة في يده وهو دخله الشام و لياً، بعث كيواناً إلى المعني يطلب مالاً منه خدمة استقبال، ونفقة عسكره،⁽¹⁾ وصاحباً النمود الأول في الولاية كيوان وكورد حمرة وهما من رؤساء الحند في الشام، استبدا بأمر الولاية دون الوالي، وصارا يورعان الولايات والسماجق، ويتصرهان كما يريدان حتى لقب كيوان بالطاغية، وهو أصلاً من أوياش الناس، اشتهر بالاحتيال والتروير،⁽²⁾ وكان أقرب الناس إلى فجر الدين ساعده في حلائل الأعمال وسافر معه إلى أوروبا ورجع قبله ليسعى له بمساعدة يونس الحرفوشي في الحصول على العمود ليعود أمناً من غصب الدولة، وكانت العلاقة التي جمعت بين الرحلين وثيقة وحميمة حتى لقبه بعض كتاب سيرته من الأحاب بالأب الروحي لمخر الدين⁽³⁾، وقد أقسم الأب لروحي والاب وكورد حمرة على الولاء الواحد والاتفاق على جميع الأمور قسماً مراسماً احتمالياً فريداً من نوعه

وقعت فتنة بين كيوان وحند الشام وانتمى الحلاف بينهما فسار إلى المعني في قب الياس وهو يهياً للهجوم على البقاع وقتال يونس الحرفوش، ومكث عنده حتى أرسل الوالي وداً من الحند بصم عشرة بلوكاشنة و سترصوه فعاد معهم إلى دمشق، حيث عقد الوالي ديواناً صم كبار أعيان الحند والأهلين، فاحتفت مع كورد حمرة الذي حرج عاصباً مع بعض أنصاره، كطربمي بلوكاشي ومصطفي بلوكاشي ابن العميلي و لتحقوا بمخر الدين في البقاع

اشتهر كيوان في الأعمال الاحتياطية التي تحمل الأمور تبدو خلاف حقيقتها، وقد ذكر المحي في ترجمته قصصاً من باب نندرتير الدهشة لفرانتها، وتؤكد أن هذا الرجل بارع في الإحتيال و التزوير واحترقهما، وكنت هذه الاماليب سبيله للوصول إلى مركزه في ديوان الولاية و سلوب عمله فيه⁽⁴⁾، ووفقه الشيخ نجم الدين العربي أحد مشايخ وأعيان دمشق، ومن عرفوا كيوان وشهدوا بهايته هي بمبنيك، وترجم لأحد

(1) المصدر السابق ص 181

(2) خلاصة الأثر المحيي الجزء الثالث ص 299-301 اسهب محيي في ذكر معدي كيوان و براعته في نصب وانحيلة وكيف كان يظهر امره عن فجر دين كدباً وتحيلاً (مثل افعاله رواية مكتوب الأمير يونس)

(3) تاريخ فجر الدين، جيوفاني ماريتي ص 143

(4) خلاصة الأثر، محيي ص 300-301 ترجمه كيوان

صحاياء الدين أوقع بهم بمكره واحتياه (عبد القادر العنبري)⁽¹⁾ أرح وفاته بمصر شعراء الشام ومن بينهم شيخ الأدب أبو بكر العمري⁽²⁾ مدوّن حثه وظلمه وكذبه وعدوانه.

إن الرجال الثلاثة، كيوان وكورد حمرة وفجر الدين، هم الذين سحروا مواهبهم المادرة والمتعددة، وإمكانياتهم الذهبية والمادية والسلطوية، وتحاربهم المتحسسة والعميقة في التخطيط والتحصيل وصولاً إلى معركة عسكر

تثير معركة عسكر بالطريقه التي حرب فيها، والبعالغ التي أدت إليها والنتائج التي أسمرت عنها بعد دراسة أسبابها ومسارها والأوضاع السياسية التي سبقتها ورافقتها واعتمدها، والتقصي الدقيق المتحدر عن المشاركين فيها والمحططين لها، عدة تساؤلات وملاحظات، لابد من التوقف عندها والتمعن في كل هذه الملاحظات خصوصاً وأن هناك تبايناً وناقضاً بين المراجع المختلفة حول معظم هذه الأمور

لم تكن معركة عسكر بالتأكد كبيرها من الممارك المعتاده التي تنشب بين حاكم محلي متمرد وشخص من جهة، وفائد أو بكيريكي عثمانى بعده بالحرب والقتال إلى الطاعة والسكينة من جهة أخرى. فقد احتلّت فيها الأدوار وتداخلت بشكل أساسي وحديث يحول دور تصنيفها هي حالة معارك ذات الأهداف الواضحة، والأهرفاء الظاهرين، بل إنها من الممارك الماددة التي يصعب تعيين المقاتلين فيها والمقاتلين والتحديد الدقيق مع أي فريق يحاربون.

لتوضيح ذلك لابد من إلقاء بعض الضوء على الأمور الآتية

1- سعى المعني بطرق متعددة لاهتعال حصومة وعداء غير مبررين مع حليفه القديم، لأسباب يلخصها العموص إلا أنها تتعقّق بمشروعه العتد وتتركز حول عاية أساسية تجنح إلى إثارة يوسس الحرفوش لمقابلته العداء بمثله، مقدمة لتأريخ الصراع ثم تصحيره

(1) لكواكب اسائرة، العمري ج 3 ص 1740 والعنبري من رؤساء دمشق له قوة وبأس واحتلاط بالحكام

(2) أرح للعمري وفاته فقال.

وأرجف أهبها وللظم فصلا
فهي بملك قتل كيوان أصلا

وما طعى كيوان في الشام واعتدى
فقلت لهم قروا عموماً وأحو

وقال آخر

هل كن وفاء له الذكر يطل
عصم الله راح كيوان قتلا

قال لي صاحبي وقد مات كيوان
كهم راح النسيب أدت راح

والتهامه عسكرياً. فابتدأ بتصرفات مريبة بدون سبب ظاهر، أعقبها نفارة عسكرية وحملة عرو وتدمير أحرقت فرى البماغ وبكت سكرته وبهت خيراته، حتى لم يعد أمام الحرهوش سبيلاً لتأخير صدام فرص عليه

2- يمحصر هدف هذه التحركات، وما أعقبها من دسائس سياسية في ديوان والي الشام وبين أنكشاريته، وما انتهت إليه من تجريد العمائر وحوصل المعارك، هي القضاء على الأمير الشيعي، ومن ورائه ما بدأ يظهر حلياً من التماص شيعي حوله من مختلف المناطق، والحووف من تأسيس وحدة إدارية متكاملة تشمل كافة مقاطعات النقا وحبل عامل، وتمتد من صمد الى حمص شيعية بقيادة ولهوى والتوجه وقد شرح المحبي، وهو من أهل دمشق وأعيانها، الحو السائد في دمشق قبل الحروج إلى معركة عنجر فكان مما قاله.

أساء يونس معاملته السنه وصيق عليهم واجبرهم على اللروح من بعلبك وباقي نواحي إمارته إلى دمشق محرضين عمائر الشام صده⁽¹⁾

إن يونس رهصي، والرهص جريمة في شريعة ذلك العصر توجب قتال صاحبها هالمثال معه هي عرف ذلك الزمان كمر وفاته واحب شرعي⁽²⁾

يقول أحد الباحثين من الذين شككوا بما أورده الصمدي في أكثر من مناسبة وواقعه

إن كورد حمرة كان عميلاً خاصاً لمحمر⁽³⁾ ندين⁽⁴⁾، سواء صنعت واقعة المكتوب أم لم يصح إذ أن مجرد تبرع كورد حمرة بإرسال المكاتب لمحمر الدين، يكفي دلالة على أنه كان عميلاً له قبل المعركة فكيف يتحول إلى عدو له وحليف لأخصامه بعد قليل في الوقت الذي وصل فيه فجر الدين إلى قب نياس للاستعصاء على البماغ وصل كيوان وقد انسحب من دمنجق الولاية إثر محاولة حادة وملاسة صاحبة، وترك واليها و بكشاريتها وهو من أكبر أعوت الانكشارية فيها ومن أهم رؤساء حندها، وأن انسحابه وحده من الجيش في وقت يستعد فيه للحرب، كافٍ لأن يحدث صدمة معنوية لهذا الجيش فكيف يتركونه ينسحب حر⁽⁵⁾ مامهم وهم يعلمون إلى أين تتجه الأمور؟ ويشاء الباحث بمسه عما فرص على قيادة جيش شام وكورد حمرة بالدات أن لا يمنعوا كيوان

(1) خلاصة الأثر، المحبي ج 4 ص 295

(2) المرجع السابق ص 295

(3) يرد في بعض المراجع كورد حمرة، بدون اله و

من الرجوع حراً إلى جيش عدوهم ولو بالإعتقال أو القتل لو أن حصومة الاثني هي حدية وليست مصطنعة لأحكام التامر

لهم ما حصل حقيقة هي معركة عسعر. لابد من الرجوع إلى التفاصيل الكاملة لمعركة عراد التي شارك فيها الاقطاب الثلاثة أنفسهم: فخر الدين ويونس ووالي الشام وإنما في جهات مختلفة، إلا أن لحظة ولأسلوب التي حكمت الأولى استعين بها في الثانية لتشابه الظروف والمعطيات

يقول المحبي عن تفاصيل معركة عراد سنة 1606م

«رأس ابن جابولاد الأمير فخر الدين بن معن أمير الشوف، وبلاذ صيدا وأظهر له أنه قريبه مع بعد النسبة، فحضر إليه واجتمعاً عند منيع العاصي وسار الأمير علي ومعه ابن معن إلى ناحية البقاع العريزي من نواحي دمشق، ومرا على بعلبك وخرنا ما أمكن تخريبه منها واستمر في البقاع. وظهرا أنهما يريدان معاتلة عسكر الشام ولم تزل العساكر الشامية ترد إلى دمشق حتى استقر في وادي دمشق العربي ما يربد على عشرة آلاف وتزاحف العسكران حتى استقر ابن جابولاد وابن معن في نواحي العراد ورحب العسكر الدمشقي الذي مملكتيهما وكان ابن سيماء وصل إلى دمشق وأظهر التمارض، ولم يرحل مع العسكر الشامي واستمرث الرسل مترددة بين الصريطين ليصطلحا فلم يمدد لهم الإصطلاح وتزاحف الحيشان هوهم ابن جابولاد من صدمه العسكر الشامي فشرع في تصعيد أكار العسكر عن الإتمام وأوقع بينهم. ثم إنه أرسل إلى طائفة من أكارهم فوردوا عليه هي محيمة ليلا وألنهم الخلع وتواصوا معه على أنهم يكسرون عند المقابلة وكان في جانب ابن جابولاد ابن معن وابن الشهاب أمير وادي التيم ويونس بن الحرغوش فطابت أنفسهم للاقاء الشاميين، وتقابل الصريقان في يوم السبت من أواسط جمادى الآخرة سنة خمس عشر بعد الألف ولم يقع قتال فاصل بين الصريقين ثم في صبيحة نهار الأحد وقف العسكر الشامي في المقابلة واقتتلا فما مر مقدار جلسة خطيب إلا وقد اعمل العسكر الشامي حتى قال ابن جابولاد العسكر الشامي ما قاتلنا وإنما قابلنا للسلام علينا،

يستفاد من نص الصمدي عن اتفاق ربيع لأول من سنة (1030 هـ - 1620 م)⁽¹⁾ ومن

(1) حلاصة الأثر، المحبي ج3 ص 136-137

(2) اتفاق فخر الدين وكورد حمرة وكبون وانقسم عربون يكوبوا بدأ واحدة في ربيع أول سنة 1030 هـ - 1620 م.

معركة عنجر



⊙ معركة عنجر ← قوات فخر الدين ← قوات الأمير يوسف ← قوات والي دمشق



تعايرته الحزبية المراسمية، أنه نوع شبيه بما يتعامل به أعضاء الجمعيات السرية. يدل على أن بين الثلاثة أكثر من اتفاق آني على مصالح سياسية عرسية. إنه اتفاق دائم وثابت ومستمر وعلى جميع الأمور وفي جميع الحالات، فمن المنطقي أن يخطط الثلاثة لهذه المعركة المصيرية التي أرادها فخر الدين لنقصاء على خصمه وأن يستعملوا كل الأساليب والوسائل وخصوصاً تلك التي عااد عليها وبرع فيها كل من كيوان وكورد حمرة وأن الحلاف الذي ظهر بينهما في ديوان لياث ليس إلا حيلة وخدمة مسرحية يقصد منها التحضير المحكم لهذه المسرحية التي قصي لها أن تمثل بعد هجرة في عنجر⁽¹⁾

بث فخر الدين عيوبه وأرصاده وحواشيسه في كل دواوين الدولة، حتى في عاصمتها وهذا أمر معروف وشائع طرد أثنى عليه المعنويون بسيرة الأمير، واعتبروه حكمة سياسية بالغة وأن كيوان وكورد حمرة وهما، كما لا يخفى على أحد، من أهم الرجال المؤثرين في ديوان ولاية الشام الذين باصروا فخر الدين وأرووه، وورعوا أمواله تقادماً ورشوات هي كل انحاء فهل يمكن ليويس الحرهوش وهو حتماً لا يجهل مثل الجميع التحالف الخاص الذي يجمع الرجال الثلاثة ونمرسهم بنصب شراك المكر والحداع أن يستأمن أحدهم على سر يجمعهم عن رفقهم الثالث فخر الدين من النوع الذي عرف به كيوان واشتهر بإجادته في جميع أرجاء الولاية؟

وهل كان من السداحة ليكشف أحص مشاعره وبوياته نحو فخر الدين هي رسالة عادية إلى كورد حمرة ويستأمنه على سر يعلو به وهو أقرب أخصائه ورميله هي القسم الثلاثي؟ وهل كان أمير لواء حمص وصابط بعلبك و لبقاع يجهل نوع العلاقة بين الرجلين وكلهم هي النهاية أقطاب هي ولاية إدارية واحدة هي ولاية الشام، ويونس لا بد أن يكون حبيراً بكل حماياها، بعد كل هذه السنين، ولم يكن يجهل مع صداقته السابقة مع فخر الدين، أن كورد حمرة قد اعتد على إرسال مكاتيب إليه حيث يكون بأخبار الولاية وما يحري فيها من أمور⁽²⁾ كما يقول الصمدي

ابتدأت المعركة عند وصول الشهابيين إلى المجدل، قبل وصول فخر الدين، فقابلهم المسكر وأخرجهم من البلدة هربوا إلى تل مواحه لسبع صحر، وتحصنوا في برج حرب هناك فملك سكيان أبو سيما وابن الحرهوش البلد.

(1) امتداد الثلاثة على تمثيل ادوار مشبهة في أمور أهل أهمية راجع العري والمحيبي في ترجمة كيوان.
(2) الصمدي ص 133 (في هذا النص جاءت مكاتيب من كورد وحمرة وهو بعدية حمص إلى الأمير فخر الدين بأخبار لجانب الشمالي)

وصل فخر الدين برجاله من ناحية لشمال نحو برج المحدل، وشقيقه يوسف من ناحية الجنوب تحت البلدة فقسموا جيشهم ثلاثة أقسام فكانت لميسرة لفخر الدين والقلب لولده علي وعلي الميعة مدبره وشقيقه يوسف، ثم أطلق فخر الدين مائتي فارس (ومئة واحدة على رواية الصمدي) «فأمكت الاية مصطفى باشا وقامت العبرة وأندعر الوريير أي اندعار وأدبر صكره طالباً المزار، فتبعهم المتصرون إلى طاحونة عنحر وأسروا مائة منهم وقتلوا أربعماية رجل وخمسة من القواد، ثم قبضوا على الوريير وعشرة من خواصه، وانتهى الناس بالغنائم فحملوا الخيام والأثقال والحمال أما الباشا الذي لم يتمكن من الهرب فمسك قبضاً بانيد ولا وصل، ليه فخر الدين وولده علي نزلاً عن خيلهما وقبلاً ديله وعينوا معه أحد رجالهم ليوصله إلى قب الياس. أما المنهرمون هبأتوا ليقتلهم في بعلبك ثم عادرها يوسف إلى اللبوة بعد أن ترك سكانيته لحفظ القلعة وأرسل عياله إلى قلعة الحصن وتوجه هو إلى حلب».

هذا ملخص ما رواه الصمدي وتبعه الشدياق عن هذه المعركة التي يقولان إن أثني عشر ألف مقاتل شارك فيها مع الحرغوش وخمسة آلاف كانوا مع فخر الدين. عاد فخر الدين بعد العصر إلى قب الياس وأجتهد في جمع أسلحة مصطفى باشا وأعطى جماعته ألف عرش لمكائك أسلحتهم للوجودة في أيدي العشير فهان عليهم ما صعب، وقابل الباشا المقيم عند الحاج كنون، فحلف له أن هذه الركبة ما كانت باختياره بل عصباً عليه، باقدام من كورد حمزة بلوكباشي، ورجل الثلاثة فخر الدين ومصطفى الوالي وكيوان إلى تعنين ثم دخلوا بعلبك في بهار الأحد الثاني عشر من محرم (1033هـ - 1623م)، فلم يعدوا فيها من أمرائها أو من سكانها أحداً غير مايتي نصر توفحية وتسعة من البوكباشية سردارهم أحمد بن حرب من الدوير في جبل عامل موكلين بحفظ القلعة. هزل الأمير فخر الدين وولده علي في دار الأمير يوسف، ومصطفى باشا في دار الأمير شلهوب، وأحمد شهاب وسلمان سيما في در صهر الأمير يوسف، وتفرق الباقون في بعلبك يهيمون ما قدرروا عليه وبشر الحرغوش سكانيته في بعلبك وحصن اللبوة وبرج القبرانية»

إن أول تدابير اتحدتها مصطفى باشا بعد وصوله إلى بعلبك واستقباله وهذا من أعيان الشام وكبار الاغوات، تداول معهم بمحتف الشؤون بمشاركة فخر الدين وكان من بينهم نجم الدين العمري، المؤرخ الذي نزل مع لوفد في حياض على منتزه رأس العين هي:

- 1 - «يكون الحاج كيوان أغا اليكحرية وطريمي حسين بلوكباشي كتحذاء»
 - 2 - أعطى لصحر الدين تمسكاً - أمراً - بقتل الممسوكين من الحدود الإنكشارية الذين قاتلوا معه في معركة عنجر ولكن فخر الدين أمدى لهم عدراً وأقنع الباشا بعدم تنفيذ الأمر. «وطاول في القصية وأبدى المعضرة»⁽¹⁾.
 - 3 - أرسل إلى متسلمه في الشام وإلى كبرائها وأعيانها أمراً بانقبض على الإنكشارية الموالين لكورد حمزه وقتلهم، فبعد الأمر بحق بعضهم في القلعة، وهرب الباقون إلى حمص وحماة وحلب وبمروا في الأقطار⁽²⁾ يدي سبأ⁽³⁾.
 - 4 - أعطى لصخر الدين مقاطعة غرة وتواضعها وأحكام لتحويل بسحق صمد وأعطى ولده علي مقاطعة بقاع العرير وتحويل بسحق عحنون إلى حمص ولده الآخر وبابلس إلى مصطفي كتحذاء، وسحق اللجون إلى منصور - في الثالث وبظم لوالي والأمير أمور حند الشام سوياً وبدا في هذه المرحلة وكُنْ فخر الدين أعطى الصلاحيات التي كانت لكيوان وكورد حمزة مجتمعين.
- إن ما يثير مزيداً من الرسة والشك في حقيقة معركة عنجر كما أوردتها الصمدي، إن هذه المراسمات التي أصدرها الوالي مباشرة بعد المعركة تعاقب كورد حمزة وجميع أتباعه وهو الذي حافظ على ولائه للوزير منذ البداية، بينما تنهال المناصب والمقاطعات على كيوان وفخر الدين الذين قاتلاه وأسراه على رغم الصمدي. ويمكن تفسير ذلك بأن الوالي كان في حكم المسلوب الإرادة لوقوعه في قبضة فخر الدين المنتصر ولكن سياسته استمرت بدون تغيير بعد عودته إلى مركز ولايته حيث عاقب كل من كان له صلة بكورد حمزة وكيوان بينما استمرت علاقة التعاضد والتحالف بينه وبين فخر الدين حتى بعد عزله عن الولاية.

في هذا الوقت حدثت مشادة عنفية، لأسباب غير معروفة أثارت تكهينات مباينة بين فخر الدين وكيوان، لأن الأمير مع الحروح إلا بآبائه، ولما منع الحارس خروج كيوان ركب الأمير بصره إليه حتى يسترضيه فأنتهى الجدل بأن حول الأمير عن فرسه وتقديم إليه وجدنه من جواده ورماه إلى الأرض وضربه سكينين في رأسه ودعا السكمان للإجهاز عليه ودفعه⁽⁴⁾. هذه هي الرواية المتداولة عن مقتل هذا لرحل

(1) المرجع السابق ص 154

(2) المرجع السابق 154

(3) المرجع السابق 157

العامض بيد من كانت تجمعه به علاقة أكثر عموصاً لقد تنارى المعجبون بفخر الدين في استنباط أسباب تبرير قتله، فأسمعتهم محيلاتهم بحكايات عربية وغير مقنعة، وليس لها أي مستند تاريخي، يعكس إسماعيل بمسحة بسيطة من الجدية والواقعية هاكتفى المحيي بالقول إن هذا القتل كان بسبب معركة عنجر⁽¹⁾ أما الصفدي فيبرزه بعصور الأجل المحتوم وهراغ العمر⁽²⁾ ويرده 'المعروف' إلى عيط كيوان من المعني، لأنه لم يقتل الأسرى من الإبكشارية وأن كيوان توعد المعني بقوله 'إنه سيذهب إلى إسلامبول ليشتكو أمره فيها'⁽³⁾ كما ذكر الشدياق إنه صرب السلحدار فلامه المعني حوهاً من غضب مصطفي باشا وتبعه حيدر شهب و'أخرون'⁽⁴⁾

أما النعم الغري الشاهد العباس فمبحر كثيراً على قتله وقال مؤرخاً

لولا لم يدخل إلى خلق عشرين 'فساد وسكمان'⁽⁵⁾

تفرد الراهب حيوهاني ماريي⁽⁶⁾ بما ذكره عن موت كيوان، يكنى فخر الدين علي كيوان لأيام حديده لأنه كان يسجده كوالده وكان يحسن بالواقع إنه يدين له بألف وألف واجب فهو مستشاره الشهير والعزير،

«بعد قتله، ذهب فخر الدين إلى مصطفي باشا ليبلغه ما حدث، فأجاب هو كان مستحقاً لذلك من قبل الآن. وهذا الذي كان مقدر عليه استوفاه لعل الله تعالى يعمل كذلك بكونه حمرة بلوكباشي حتى بخمد الصب وتتمتريج مملكة الشام»⁽⁷⁾

«عند خروج مصطفي باشا من حلبك عاداً إلى الشام، مع كل من كان بها من هند والأعيان، طلع فخر الدين وولده لتوديعه، وعند ممارفته برلا عن خيلهما وقبلاً ذيله وخلع على كل واحد منهما خلعة. كانت له طبعة من حلبك وأي طبعة»⁽⁸⁾

إن معركة عنجر هي النتيجة الطبيعية لصراع مرير وحاسم بين أميرين قويين لكل

(1) خلاصة الأثر المحيي ص 301

(2) الصفدي ص 155

(3) فخر الدين، المملوك ص 187

(4) أخبار الأعيان لشدياق ج 1 ص 277 الكواكب سائرة، لمرى ج 3 ص 170

(5) الكواكب السائرة لمرى 32 ص 170

(6) تاريخ فخر الدين ماريي ص 143

(7) تاريخ فخر الدين عيسى المملوك ص 187

(8) تاريخ الصفدي ص 156.

منهما تحالفاته العائلية والطائفية والسياسية وقد انضم حشد الدولة في الظاهر بين رئيسين إن قادة معركة عنحر يمثلون الفئة العسكرية التي تعتمد عليها الولاية عادة لبسط سلطانها وقراراتها، فكان كيوان وأنصاره في جهة فخر الدين وكورد حمرة وجماعته في الجهة الأخرى. أما الوالي فلا يبدو لا قبل المعركة ولا أثناءها ولا بعدها خصوصاً، صاحب وزن وقرار مؤثر وحلي وفعال بل هو من أكثر المستفيدين منها في كل الأحوال لأنه سيتخلص من فئة من عسكره تشكل خطراً كبيراً من القوة التي تمنعه من مباشرة سلطاته وبالفعل إن النتيجة التي أدت إليها في الواقع هي في مصلحته تماماً وربما فاقت أحسن توقعاته، لأنه تحلص من الثمنين وأفسحت له المجال للقضاء على جماعة الجند التي خرجت معه من الشام قبل أن يقضي على من كان يحارب مع المترشحين خارجها. فمع عودته من بعلبك ودخوله إلى الشام هدم حاره كورد حمرة، وصيبت جميع أرزاقه وودائعها التي عند الناس، من نقد وأسباب مما قيمته خمسون ألف عرش ولم يترك بلوكباشيا ولا يكجريا ولا متعينا ولا صاحب مال حتى صادره، حتى توصل إلى الدفتردار، بعد أن كان لا يقدر أن يعادي أقل من يكون من يكحربة الشام فصار يمسك ويقتل أكثر من يكون فيهم⁽¹⁾.

إن ما ظهر مباشرة بعد المعركة من تصادم وتحالف وانفاق وبادل منافع بين فخر الدين والوالي الشام، يثير فعلاً الرسة والذهشة فقد سارا معاً لاستكمال عايات المعركة في احتلال بعلبك ونهبها، والقضاء على رؤساء الإنكشارية وأعوانه أكانوا من المقاتلين مع الباشا أو المقاتلين له، دون صدور أدنى إشارة عصب أو استنكار أو لوم أو عتب من أي جهة رسمية، تستهدف من قاتل أحد أهم ولاية الدولة وعدر به وقتل جندها وكانت عادة تستنصر قواتها وحيوشها وعمالها لأقل من ذلك بكثير. بل إن ما حصل هو عكس ذلك، إذ تواردت الحلع والامرامانات والإشارات التي تدل على ثقته ورصاها، وتشجيعها لمحر الدين، حتى أن الوالي مصطفى باشا نفسه بدأ عدواً ليوسف الحرهوشي وحليماً صادقاً للمعني منذ اللحظة التي جرح فيها من دمشق إلى البقاع حتى انتهاء ولايته على الشام.

إن المعركة نفسها تثير أيضاً أكثر من علامة سميها كيف يمكن لقوة أو مائتي فارس أن يثيروا بمحرد توجههم نحو ميدان المعركة دعر وإسار وهرار ألوف الجنود المحترفين الذين يمتنون القتال، ويتحدونه حرقة يعتاشون منها، ولهم هيه باع طويل وتجارب، وحبرة وتقاليد عسكرية كانت محل فخر لإمبراطورية لمترة طويلة؟

(1) الصمدي ص 106.

خرج الجند من دمشق ليؤدوا دوراً مرسوماً بعناية من قائديهم كورد حمرة وكيوان، وهو القرار عند ابتداء المعركة، لمنع فرسان يونس من إسيام بأي مجهود قتالي. لأن فرار العسكر بهذا الشكل سيؤثر حتماً على باقي المقاتلين من العشير، وأن الذي اشترك في معركة عراد وبوحيه العدو نفسه، من الطبيعي أن يستعين بنفس الوسيلة التي حسنت المعركة هناك لتجسيها هنا، حيث لا خوف كما كان. الحال هي المعركة السابقة من الدخول إلى الشام وبهجها واحتياحها.

لا بد أن الأمير يونس كان في حو هذه الدسائس و لإتفاقات السرية وكان على اطلاع على أسلوب فخر الدين في التماطي مع مثل هذه الأمور بحكم تحالفه السابق معه والعلاقة القديمة بينهما، ولم ينس ما حصل في معركة عراد إذ كان مشاركاً فيها، ولكن هل كان له خيار آخر بقيه المصير الذي ربما نراه؟ لقد أعاد حدوده لحراسة بعلبك قبل حدوث المعركة، والقائد الحكيم لا يعتمد إلى حد البدير، إذا كان مطمئناً إلى سير المعركة كما أن رجاله ورجال ابن سيما هم الدين قاتلوا، وربما وحدهم، لأنهم احتلوا قرية المحدل وأجبروا طلائع المعني من الشهابيين على التراجع وإحلاء البلد والدخول إلى البرج⁽¹⁾

لقد عاد مسرعاً إلى بعلبك، لأنه تأكد من موقف مصطفى باشا الحقيقي، وكان همه إبعاد عائلته لعلهم بمصيرها في حال دخول ابوالوالي وفتح الدين إلى المدينة فهو يذكر أن مراد باشا باع والدته علي حيدلاط ثلاثين عرشاً فأرسل عائلته إلى مأميتها وأحلى البلد، للتحول دون محارر شبيهة بما جرى سابقاً في حلب وتأكد من وضع حصونه وسكمانه وذهب إلى حلب لمعالجة الأمور.

لماذا أراد باشا الشام إعدام الإنكشارية الذين وقفوا في الأسر؟ وتخلص فخر الدين وهو الذي لم يعرف عنه الرحمة والحنن في أي موقف مماثل؟ وما الذي يبرر قتل كيوان بيده لمجرد منعه من الخروج من بعلبك وتهديده بالشكوى إلى اسطنبول؟ فتخلص فخر الدين منه رغم علاقتهما السابقة و لحلف لثلاثي الذي جمعتهما؟ وقد سُر مصطفى بقتله وتضمن مصيراً مماثلاً لرميله كورد حمرة رفيق فخر الدين الثالث، ثم استأصل عند عودته إلى دمشق ما بقي فيها من الإنكشارية بصرف النظر إلى أي جهة ينتمون.

إن النصفي، وهو المصدر شبه الوحيد لكل من كتب عن هذه المعركة على أنها جرت

(1) عادة كان المشاء في جند الحرافشة يستحوون بالبنادق والسيوف لفريضة لنصل أما سلاح فرسانهم فكان البنادق والسيوف والنباليس و سروس ومن يعرف بدقة رقم معدد لعديده وأن قدره بعضهم أحياناً بحمسة عشر ألف مقاتل من لسكان وأساء البلاد (التاريخ العسكري، سويد ص 360 الجزء الأول).

بين فخر الدين والعسكر الشامي، إذا صحت نسبة التاريخ إليه، كان من المقربين والمتزلمين لسيده إلى حد يدفعه إلى ذكر ما يوافقه كما يريد وأعمال ما يمكن أن لا يرضيه، فإذا انتقلنا إلى مصدر محايد ومطلع عرص لهذا الموضوع لوحدنا أن المشهد يختلف تماماً، ولترأينا أن الجند الشامي حرج من دمشق لمقابلة ابن الحرهوش لا لنصرته.

إن العسكر الشامي كانوا قصدوا محاربة أولاد الحرهوشي وإحراجهم من بعلبك وطلبوا من مصطفى باشا أن يحرج معهم فاسي أولاً وأمر بالتريص فلم يرضوا إلا بخروجه فخرج بهم بعد أن كتب عليهم حجة بذلك فلما تقابل الصريقان انكسر العسكر الشامي ووقع الوريير في أيدي عشير أنس معن ثم بقي عنده بالبقاء أياماً ثم ذهب معه إلى بعلبك في طلب أولاد الحرهوش،

ويقول المحبي في مكان آخر: «كان الشاميون قد حاصروا عليه فلما وقع المصاف بين الصريقين بالقرب من عنحر ولى العسكر الشامي هرباً فانكسر مصطفى باشا»⁽²⁾.

إن رواية المحبي تؤكد أن الجند حاصروا على الوالي وأن هناك اتفاقاً غير معلن بالهروب عند انداء المعركة ثم يلاحمة الحرهوش حتى بعلبك وإحراجه منها وأن الوالي كان على علم بما يخطط له لذلك أصدر على كتابة حجة تبرر خروجه وثوثق هذا التبرير لتلا يتحمل مسؤولية ما حدث كموطأ عثمانى وقد قام بذلك محتاراً وتابع ملاحقة يونس حتى إحراجه من بعلبك وعاد أخيراً إلى دمشق ليقتضي على من بقي من شهود على هذا التحاصر والمشاركين فيه

كان المحبي في العادة متحفظاً على الشيعة والحراشنة وعلى يونس بالتحديد، ورماهم بالرهص والجور واقتصر في خلاصة الأثر على ترجمة الأمير موسى لأنه كان يعتقد أنه أقرب أهله إلى النعس وهو يؤكد بشكل واضح لا لبس فيه أن الجند الشامي خرج من دمشق لقتال ابن الحرهوش.

ليس لما قاله الصمدي حول معركة عنحر أهمية كبيرة فهو من المقربين من فخر الدين والملازمين له وربما كان من أحصاء أعوانه وقد أمره بوصف مؤلمه لعايات سياسية ليس لها علاقة بالتاريخ أو الحقيقة، ويعترف الصمدي بذلك بكل وضوح عندما يقول أنه

(1) خلاصة الأثر، المحي ج 4 ص 295

(2) المرجع السابق ج 3 ص 267

كتب تاريخه «استجابه لإشارة من شارتة غنم ومخالصته حُزم»، وهذه الإشارة لا بد أن تكون صادرة عن حاكم أو رجل خطير يحسب لرعبته ألف حساب فلم يكن من المعقول أن يرمي الصصدي سيده بتهمة التآمر والتمرد على الدولة التي يجهد بأمواله ورشاويه للاحتفاظ برضاها.

إن مؤرخاً حيادياً⁽¹⁾ لم يكن طرفاً في هذه الاحداث ولم يناصر أحداً فيها يوضح كل ذلك بروايته الموضوعية التالية

«أتى مصطفى باشا إلى مدينة دمشق في أوائل سنة (1033 هـ - 1623 م) ولم يطل به الأمر حتى دب الخلاف بينه وبين حاشتها التي طلبت منه أن يقودها على وجه السرعة في حرب صدي الحرفوش فرقص في البداية وأعطى الأوامر بالتربص إلا أن الجيش لم يتراجع برغبته التي كانت تريد الحاحاً فما كان من الوزير إلا أن نزل عند إرادتهم فأصدر إلى الجيش أمراً مكتوباً وخرج على رأسهم للحرب.

فلما وصل إلى قرية عسحر هوجئ بالمرور الذين كانوا بقيادة الأمير فخر الدين وما أن نهيا الحيشان للدخول في المعركة حتى تلقى النكير وشب القتال ولم يمض الوقت الطويل حتى لادت الحيوش الشامية بالمرار وبسبب ذلك جلب في صفوف مصطفى هزيمة شعاة ووقع أسيراً...»⁽²⁾.

صعد المحاصرون في قلعة بعلبك وهي حصن السوة من رجال يوس رغم المحاولات المتكررة من فخر الدين وجماعته لإقتاعهم بالتسليم خصوصاً وأن بعلبك كتبت لبيت معن إلا أن حوابهم كان لا بتعير ، لا بسلم وفيما روح ولو مكثنا في هذه القلعة عمر نوح، وقد أصبحوا في عاية الصيو لقمة المؤن حتى أصبح أكلهم مقتصرأ على القمح والملح لأن اس الحرفوش ما كان يظن أن أحداً يلقاه فلم يحضر القلعة بما قد تحتاجه من مؤن والات الحصار فكان الحصول على الحطب يقتضي منهم مفادرة القلعة لسرقته فيتعرض بعضهم للموت لهذا سبب

وصل إلى بعلبك وهم على هذه الحال الحاح حسن من جماعة فخر الدين ليؤكد خبر القيص على يوس ، فأرسله فخر الدين ليلجأ لخبر إلى المحاصرين في القلعة لعل ذلك يقتنعهم بالتسليم، وبدوا أنهم كانوا على علم به من رفاقهم في اللبوة، فبدأت

(1) المستشرق الألماني هنري هوستند

(2) فخر الدين أمير الدرور ومماصروه، هوستند ص 164

المفاوضات بين الفريقين حتى توصلوا إلى اتصاف لتسليم القلعة بدون قتال بشروط تحفظ حياتهم وحريةهم وكرامتهم، بعد أن قتلوا نحو أربعين رجلاً من جماعة المعني خلال مدة الحصار، وفي اليوم الثالث من تسلم الشفعة عين حجر الدين مائة وخمسين معلماً ممن كانوا في المناريس لهدمها باستعمال الآلات والدبورة والأراميل.

في العاشر من ربيع أول (1033هـ - 1623م) وصل محمد باشا إلى حماه، ومعه مرمان بتعيينه والياً على الشام، وعزل مصطفى باشا إلى أهالي المدينة وعسكرها منعوا لوالي الجديد من الدخول إليها، وأرسلوا حملة من ألف جندي لمنع من ذلك، فرجع محمد باشا إلى حماه، وجعل حرقه وكلفته على حسين ابن يوسف الحرفوش وأرسل عروصاً إلى الباب العالي بما حصل معه وأقام مستظراً الجواب.

كما أرسل مصطفى باشا معاصراً من قاضي المدينة وبعثائها يدعى بأن أهل الشام وجندها منعوه من تسليم الولاية إلى حلفه، لأنه اجتمع بالأمير يوسف الحرفوش وكورد حمزة وقد يأتي بهم إلى دمشق فنصروا الناس وأرسل المحاصر مع كتبه سليمان أغا وعين معه عدد من الإنكشارية وأرسل معهم بعض جماعته لتوصيلهم إلى حماه في طريقهم إلى الباب العالي بعد أن دفع حجر الدين بمقات الطريق.

لم يمض شهران على دخول حجر الدين ومصطفى باشا إلى بعلبك حتى ظهرت الأمور على حقيقتها في دمشق باتفاق الأعيان والأهالي فيها على العداء ليونس الحرفوش ورفض لوالي الجديد، لأن هو قد يكون معه، كما ظهر موقف مصطفى باشا من حجر الدين ومن يوسف وقربه من الأول وكرهه للثاني وأن جهود حجر الدين وأمواله تبدل لإبقاء مصطفى باشا والحوول دور تبديله لأن المؤامرة قد تنكشف ويضع الاثنان في متاعب مع اسلا مبول فنادراً ما يتعمد أهل دمشق وواليتها على هجمات سلطانية صادرة عن الباب العالي.

من الواضح أن حجر الدين هو الذي يعول الجهود المبدولة وحركات المعارضة للوالي الجديد، وقد يكون هو المحرك الرئيسي لها خصوصاً وأن كتبه مصطفى قد انتقل إلى دمشق قريباً من مصطفى باشا لسمعه في موقفه بعد أن أصبح كلامه نافذاً في سائر الأحكام، وغدت بعلبك مسرحاً لانكشارية دمشق، وما يحصل منهم من تنكيد وتشويش^(١).

(١) إن كل هذه التطورات والتحالفات التي أعقبت معركة عجر وموقف كل من حجر الدين ويوسف إزاء النزاع بين الوالي القديم مصطفى باشا والأمير محمد باشا تؤكد أن كل ما جاء في تاريخ الصفا حول معركة عجر لا يتوافق مع الحقيقة وينطبق لحدث وأماكن اللاحقة.

عاد فخر الدين بعلبك في الرابع من شعبان سنة (1033هـ - 1623م) بعد إقامة سبعة أشهر فيها بعد أن حرب جميع دورها بما فيها دور الحرافشة وعجز عن هدم قلعتها إلا إنه الحق بها أضراً بالعدة وقبض من حسين ابن يونس ستة عشر ألف قرش مقابل المصافاة والصلح والإصلاح وعدم إعادة على أن يترك الحصار عن حصن اللبوة بعد أن رفض المحاصرون التسليم رغم طول مدة الحصار.

أما الأمير يونس فعاد إلى بعلبك حيث بقي أياماً قليلة ثم سار إلى معرة النعمان حيث قبض عليه مراد باشا ورفعه إلى قلعة سلمية ثم نقله إلى حلب ولم يصرج عنه إلا بعد أن دفع مبلغاً كبيراً من المال.

لم تنهض بعلبك من كيوتهما وبدأ بعد أن دمرها فخر الدين، فاموال سنة 1623م لم يُجَبَ منها شيء ولم يستطع الأمير يونس أن يحيي أكثر من سبعة آلاف عرش من أصل ضماها الذي انحصر إلى عشرة آلاف عرش⁽¹⁾ بعد أن وصل إلى مائة ألف ذهباً، ورغم كل ذلك استمر فخر الدين في محاولاته لتفليس منه نهائياً حتى تمكن من ذلك بدسائسه لدى والي الشام سنة 1625م هكبت نهائيه كنهائه سلميه علي وموسى علي بد الولاء العثمانيين مدعوعين بدسائس فخر الدين ورشاه⁽²⁾ وكان خراب بعلبك من اسباب حملة الدولة على فخر الدين وإلقاء "نقص عليه محتبئاً هي أحد الكهوف ثم مقتله في الأستانة في 3 نيسان 1635م، وقد شارك في هذه الحملة ولدا يونس حسين ومحمد انتقاماً لمقتل والدهما واستمر يحكم بعلبك كأسلافهما⁽³⁾ وورد أن يونس الحرافشة وقوى حكمهم في بعلبك والبقاع بعد موت فخر الدين وصاروا يتلاعبون بمقاطعتي طرابلس وصيدا المحاورتين تلاعب كبيراً⁽⁴⁾

إذا وصعباً رواية الصفدي عن معركة عنعر حبيب، فهو قبل كل شيء من رجال فخر الدين ووطنه وقد وضع مؤلفه بناءً لرعدة مرمية من سبده ورجعنا إلى مصادر أكثر حياداً مثل المحبي الدمشقي رغم عدائيته المذهبية التي، أعلن عنها في أكثر من مناسبة وردت في مؤلفه، لال الحرفوش، لوحدنا أنه لم يكن أميناً في سرد بعض الحقائق وخصاء بعض الوقائع، ولا عراية في ذلك هو صنع هذا المؤلف سواء صحت نسبته إلى

(1) أخبار الأعيان، الشدياق ص 289

(2) تاريخ بعلبك، مصر انه ص 264

(3) خلف الأمير يونس أربعة أولاد هم أحمد وعلي وحسين ومحمد

(4) التاريخ العسكري سويد الحرة الأول نقلًا عن أعراف 1924 ص 291-297

القاضي الصفدي أو إلى غيره⁽¹⁾ لم يتوخ من وراء كتابته التاريخ المجرد وهو ليس مؤرخاً ولم يعرف له تاريخ آخر، وعاقبته خدمة أعراض سيده السياسة وتأكيد الوقائع كما أرادها لا كما وقعت فعلاً وشعرها وتوثيقها، استباقاً لأية محاولة قد ترمي إلى إظهار حقيقة الأمور والكشف عن حدة كيوان ورفيقه وعصع مناورتهم أمام السلطة العثمانية خصوصاً

أقسم الرجال الثلاثة كيوان وكورد حمزة وفخر الدين على أن يكونوا بداً واحدة في كل أمورهم، وفي كل ما يعود إلى شؤون الحكم والسياسة هي ولاية دمشق لذلك أبدى فخر الدين اصراراً عريضاً على عرض معركة عسكرية على يوسف لا يريد لها بدون مبرر مقنع ولا سبب واضح فاستباح كل المقدسات لعائلية في قب الياس، والديبية في كرك بوح، وقواعد الودة ورهقة السلاح وعرفس، الحميل في سرعين هي هذه الأثناء تظهر فجأة هي أوساط حند الشام حمية مذهبية معادية للشيعة تقود إلى حركة داتية تمرص على «والي قسراً رعم إرادته، وسون أوامر من رؤوسائه، الخروح من مركز ناشويته لقتال يوسف الحرفوش وأحراجه من بعلبك هاتى أولاً فلم يرسوا إلا بحروجه بالذات مخرج بهم بعد أن كتب عليهم حجة بذلك. وهو دحش عشوم لم يكن أكثر من أعموة هي يد كيوان صاحب المواهب الاستثنائية في الحداغ والمكر والأعيب وطهار الأمور على غير حقيمتها حتى أصبح علماً في كل هذه المواقف وهو الأب الروحي لعمر الدين وأحد رئيسي حند الشام وثالث أصحاب لقسم.

وصل الناشأ إلى عسجر وهي دهبه أنه حارح للملاهة يوسف الحرفوش، فصوحيء ببحر الدين هي ميدان المعركة وبهجوم على حصه المحاصر قام به مئة أو أكثر من حوده، لم يلبث إلا قليلاً حتى لادت الجيوش لشامية بالصرار نازكة قائدها أسيراً بين يدي المنتصر، بلا جهد ولا حرب ولا قتال

هذه حقيقة لعبة عسجر، وضع قو عدها كيوان، وبصدها الحلماء الثلاثة، وكان صحتها قائد شيعي متحفظ وناساً عثمانياً سارح قدحلت إلى التاريخ الوطني اللبناني كأعظم مآثره ومآثره.

(1) أحمد بن محمد الحادي الصفدي، هو رجل دين درس في الأزهر، كان إماماً فقيهاً، درس وأفتى وناب في القصاء ترك مؤلفات دينية ودينية لم يذكر أحد من مترجميه بمن فيهم المحبي، تاريخه في عصر الدين من جملة مؤلفاته والأرجح أنه منسوب إليه لإعطائه قيمة ومصادقة

الفصل الثالث

الأمراء المحاربون

الأمير عمر

نَجحَ حَجر الدِّين عن طَريق اسْتِعمال عِلاقاتِه ودَسائِسِه وأموالِه هِي دَفْع الوردِير العُثماني إلى القِصاء على حِدة يوس الحرفوثر في أول سنة (1037هـ - 1627م) " وبقي أولاده في بعلبك، التي كانت هي حدة من الخراب استحال معها جمع المال السلطاني، ولما وصل أحمد كحك باشا سنة 1634م لقبال حجر الدين، استند على ولدي يونس حسين ومحمد، فشاركاه معه في القتل حتى تم القبض عليه وتولى حسن البقاع البعلبكي ومحمد البقاع العريزي، وبقيت هي لحكم على الأرحح حتى وفاة حسين سنة 1656م ويبدو أن الأمور قد استقرت بعدهما على الأمير عمر الذي كان أميراً سنة 1666م كما يظهر في قصيدة شهيرة يؤرخ فيها الشاعر عبد الرحمن التاحي البعلبكي انتهاء بناء قصر له⁽¹⁾ وقد بقي هذا الأمير في الحكم رغم ما نحلل مدة حكمه من نزاعات مع أقاربه حتى أول محاولة مأساوية قام بها الشهابيون ووالي الشام لإخراج بعلبك من سلطه الحرافشة وتسعية شهابي حاكماً عليها وهي المحاولة الأولى التي قام بها الشهابيون للوصول إلى حكم بعلبك

(1) حُظفت المصادر في تعيين تاريخ وفاة يوس وهـ 'عبد الوهي الذي حدد التاريخ باليوم والشهر والسنة

إحسانه الصافي فكل يوم

عمر وآلاء لهم لا تجحد

تشقى كما تشقى الرجال وتسمد

قصر رهي للأمير مشيد

(2) عمر الأمير الذئب من عمر لوري

من أسرة سادوا الوري بمكارم

ودا تأمنت لبقاع وجدتها

ولدائد عمر السعد قال مؤرخاً

سلف الدر، المرادي ج 2 ص 288

«ضمن الأمير فارس شهاب بلاد بعبك من قبل دولة الشام وطرده منها الأمير عمر بن الحرفوش الذي توجه إلى ناحيه بيت حمادة، وهي السابع والعشرين من شهر آب جمع الأمير عمر الرجال ونزل إلى المير فارس فقتله وقتل من جماعته خمسة وخمسين رجلاً من أجاويد وادي التيم،⁽¹⁾

هذه هي المرة الأولى التي يتولى فيها شهابي حكم بعلبك ولا بد أن هذا التدبير المتسرع الذي يصتد إلى الحكمة قد أثار سخط الشيعة واستنكارهم ليس في بلاد بعلبك وحدها بل في مختلف أماكن تواجدهم سيما في جبل لسان المحاور حيث لحاً عمر طالباً العون وعاد إلى إمارته يصحبه مقاتلين من الحماديين الشيعة هاجموا الأمير الشهابي وقصوا عليه وعلى عدد من أصحابه الآس معه من وادي التيم⁽²⁾

من الطبيعي أن يشير هذا الحادث أصداء كبيرة في وادي التيم، فههنا الشهابيون طلباً لنثار وعلى رأسهم أمير حاصبيا موسى وأمير راشيا علي، وصاروا يحرقان في أطراف النقا، فشمع أحمد المعني بحطيرة الأمر وجاء بنفسه إلى بعلبك لمعالجة الوضع ونجح في إحراء مصالحة بين الحرافشة والشهابيين، من أهم بنودها أن يدفع الحرافشة دية الشهابي المتيل ورفاقه وأن لا يسكن تدور في بلاد بعلبك⁽³⁾

عاد عمر إلى حكم بعلبك، غير أن النزاعات مع أقاربه ما لبثت أن أحترته على العودة إلى الحماديين مرة أخرى حيث توفي هناك سنة 1683م ودهس في طور ريا، وعلى أثر ذلك تمكن «ابن صدقة» أن يحور على سنجقية بعلبك وتدمر ووادي التيم ويترك بعلبك تحت حكم شديد ابن شقيق عمر⁽⁴⁾

(1) الدويهي ص 569 ولم يحرق بعد مقتل فارس شهابي حر على اسم بعلبك حتى الترمها ملحم شهاب لسنة واحدة 1748م سجلاب محكمة دمشق (المشير ص 78) وقد أشرنا إلى هذه الواقعة أكثر من مرة بتعدد دلائلها

(2) حطط الشام ج 2 ص 264

(3) أحيار الأعيان، الشهاباق 113 سبق الإشارة إلى هذه الواقعة

وكاست الدية المتفق عليها مبلغاً من المال ورأسين من أصايل لحيل والدية لا يمكن أن تدفع غير مرة واحدة فلا دين في لدية ولا تأخير لأجل حسب لاعراف لصناعة ولم تكن لتقاليد الخرجية تسمح حينها بدفع الدية مقابل أمير شهابي أو من هو في مكانته فيكمم في مثل هذه الحالة بدية رمزية غالباً ما تكون تسليم القاتل وسلاحه إلى أهل القبيل إذا كان يساويه ممره وقبراً فيعمون عنه ويعود مكرماً إلى قومه

روى ميخائيل ألوف هذه الحادثة مع بعض التباين في تفاصيلها وزواياه أكثر انتشاراً وتداولاً على ألسنة العامة ويطلقها هو الأمير شديد وليس الأمير عمر ويقول ابن الداهج إلى قتل الأمير الشهابي يعود إلى مقصيات العرص والشرف لا إلى لسانع على الحكم بين الأميرين فقط (تاريخ بعلبك ألوف ص 65)

(4) الدويهي ص 571

الأمير شديد

استمر التناصر والتعاون العسكري بين الحراشنة والحماديين في عهد الأمير شديد ثابتاً ومستمراً كما كان قبله، ففي العام التالي 1684م عندما هاجم الحماديون قلعة طرابلس لإطلاق رهائنهم ثم داهمو، عشقوت، شترك الحراشنة إلى جانبهم وكان من المقاتلين أفراد من بيت حمية، وهي عائلة كست ولا زالت تسكن في السهول الواقعة عربي بعلبك.

وفي سنة 1686م جاء أمر من الباب العالي إلى علي باشا والي طرابلس مع صيد الله حلبي ابن مخائيل الصريحي بالركبة على الأمير شديد بن الحرفوش بسبب أنه أخرب عليه قرية رأس بعلبك وأُحرق قنعتها هادى بالركبة عليه واجتمع إليه الأمير بشير بن الشهاب والمقدم قدسباي بن الشاعر ورعد شيخ الصنية وأصحاب الأغراض وساروا إلى بعلبك عن طريق الهرمل أما الأمير شديد فسار إلى بلاد جبيل واحتفى في المشايخ ببيت حمادة، وعاد التحالف الشيعي يبرز من جديد⁽¹⁾ مرة أخرى تأتي أوامر الباب العالي بتأديب الحراشنة والنخلص منهم فجمع الوالي العثماني كل القوى المحلية التي يمكنه جمعها بمن هبهم أعيان ولايته والسادسة وحكام وادي التيم التابع لولاية دمشق وبينير فاصداً قتال الحراشنة في بعلبك، إلا أن الموقف الشيعي، لوحد المقاوم بساهم في الحؤول دون تحقيق هذا العرص، علماً أن موضوع قريتي رأس بعلبك والقاع كان في أكثر من مناسبة موضوع خلاف الحراشنة مع ولاية الشام الذين عتروا القريتين من الأملاك السلطانية المباشرة التي تحسب رسومها لمطبخ أم السلطان⁽²⁾.

إن لجوء الأمير شديد هذه المرة إلى جبل لبنان سبب هجوماً قاده والي طرابلس فأحرق العاقورة وأربعين قرية من قرى الحمادية وهدم قبر الأمير عمر الحرفوش في طورريا⁽³⁾ إلا أنه انهزم في معركة عين البصنية حيث باعته ليداً الحراشنة والحمادية وقتلوا منهم خمسة وأربعين رجلاً وانهزم لعسكر⁽⁴⁾.

(1) الدويهي ص 547

(2) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 276

(3) دواني القطوف، المجلد 1 ص 263

(4) أخبار الأعيان الشدياق ص 195

(5) خملط الشام، كرد علي ص 265

الأمير حسين

كان الأمير حسين حاكماً قوياً جداً⁽¹⁾ كم وصمه دبلوماسي فرنسي في تقريره المرفوع إلى حكومته وهو معاصر للشيخ اسماعيل حمادة الحاكم في جبل لبنان، وكان الرجال على صلوات وثيقة جداً وكانا يتبادلان الزيارات والمديريات، حتى أن الأمير تقارل له عن بلدة العاقورة رغم أنها من تواع ولاية دمشق فأدخلها في إقطاعه، ولما شاهد يوسف لدحداح يخدم عنده في بعلبك أعجب به وطلبه منه ليدر له الأحكام وعاد معه وقربه منه وحمله شيخاً على العاقورة⁽²⁾.

والأمير حسين الحرفوش هو الذي طلب الأمير حيدر شهاب حمايته فسمعه إياها وأعطاه أمين وحسماية رجل من خيرة محربي بلاده أعادوه إلى الشوف وحاص على رأسهم مع ألف وحسماية محارب أحر استنطاع جميعهم من حربه، معركة عين دارا التي أعادته إلى دير القمر حاكماً⁽³⁾.

بقي حسين في الحكم حتى سنة 1712م ويبدو أنه قتل في غمرة أحداث تقاثل وشفت لم تصلنا موثقة من أي مصدر يركز إليه، وإنما أكثر ما بقي منها تنف من الأخبار المتواترة على النسبة العاس يروى بصنع محنمة وبشكل محراً لا يمكن أن يعتمد عليه أساساً لتوضيح حقيقة ما جرى أو على الأقل ليشير إلى طبيعته وكنهه، وغالب هذه المرويات تأتي على ذكر ما يعرف بمجرده «جبهة اللطامة»⁽⁴⁾.

(1) راجع تقرير القنصل حول معركة عين دارا

(2) أخبار الأعيان، الشدياق ص 90

(3) راجع معركة عين دارا في مكان آخر

(4) «جبهة» أو حديقه أو مجررة اللطامة اسم حادثة عامصة تتردد كثيراً على النسبة لعامة وروى بأشكال مختلفة ومتباينة حتى حول اسم الأمير الحرفوشي الذي قام بها فيقول بعضهم إن الأمير جهجاه بعد عودته من العراق واحتلاله بعلبك ومقتل أو هرب لحاكم مركي - لرجي - دعا أعيان النسبة إلى مأدبة ثم قتلهم حتى أصبح النسبة أقلية في المدينة وديت انتقاماً بمساندتهم للترك في وما أرسلوه في الشيعة من اضطهاد وعسف خلال فترة حكمه ويسبق الأدهبي سيراً عن عائنة كانت حينها من معدمي النسبة في المدينة إل كسر وقد قصص على معظم أبنائها في هذه الحادثة ولم يبق منهم إلا أفراد قليل

هذه الحديقة عرمت فيها بعدد (جبهة استطامة) شدة إلى ما حدث فيها وما أعقب ذلك من بطم أقرباء القتلى حرباً على ذويهم وتقع هذه الحديقة قبلي عسبه وهي الآن في ملكه لآثار (بعلبك) هي لتاريخ الرعامي ص 69) ويرى آخرون أن لأمير حسين قتل على إثر ثورة قام بها أهالي بعلبك وكانت لمجررة سيجة لذلك. وقال آخرون غير ذلك أيضاً تاريخ بعلبك مصر به ص 282-291، البديري ص 157

وتاريخ هذه حسين موضوع خلاف بين المؤرخين وإن كان 1724م هو التاريخ الأكثر تداولاً ولكن هناك وثائق رسمية تؤكد أنه توفي سنة 1712م وأن الأمير سمعيل كان حاكماً بعد هذا التاريخ.

الأمير اسماعيل بن شديد

حلف اسماعيل حسيماً وشيد داراً للإمارة كما يصيد تاريخ رواه المملوك عن الحوري نقولا الصايغ⁽¹⁾ وتروي الوثائق العثمانية الكثير من أخبار علاقته المتوترة مع الدولة التي يعيب معظمها عن المصادر المكتوبة والتي بقيت مجهولة إلى وقت قريب.

في سنة 1719م قام اسماعيل بدعم حملة الحاج الشامي، بوحدة من 200 حمل وعدد من الحراس المرودين بالبنادق⁽²⁾ ولكن علاقته الحسنة مع السلطات لم تعمر طويلاً، ربما بتأثير من ثورة حليمه وصديقه اسماعيل حمادة في جبل لبنان، كما يصيد هذا الأمر السلطاني المؤرخ في آب 1722

إن اسماعيل حمادة تمرد ورفض تحديد عقد الإلتزام على جبل وأثار معظم رعيته، وأرسلهم إلى أراضي القزلباش اسماعيل الحرهوش في مقاطعة بعلبك⁽³⁾

ولكن هذا القزلباش استمر في الحكم طويلاً بعد ذلك، وعادت الدولة لتستجدي به لرد غارات العرب والأكراد وانتركمان الذي بها جموع بعض القرى ويسبون التماساب ومناشدات بالندحل يصل إلى اسطنبول من شخصيات الدينية المحترمة في بعلبك⁽⁴⁾ في حزيران 1729م تمرد أحد الحرفضة على الدولة، وسطاً على قاعه من عشرين حملاً وعشرين بعللاً قادمة من دمشق، وأسر نجارها وحراسها وسجنهم في قرية مصايا في مقاطعة الربداني⁽⁵⁾، فالقوا في صيدا المكلف بمتابعه هذه الحادثة اللوم على الأمير اسماعيل لتقصيره في حفظ الأمن في مفاطعته، وكان هذا الحادث مقدمة لتوتر العلاقات مجدداً بينه وبين اسطنبول فأرسلت له في كانون الأول في نفس العام إداراً خطيراً تتهمه بالإحلال بالأمن في بيروت وصواحبها وتقديم الحماية والمأوى إلى الخارجين عن القانون في سائر مدن الشام وعدم تنصيده وأمر السلطان.

إن المبعوث الإمبراطوري جاء إلى بعلبك فوجد هذه العصابات هناك. ولما أظهر للتو الأمر الإمبراطوري بطلبهم قتل بمطاطة، إنهم طلبوا الأمان تحت حمايتي، ولم تسلمهم إلى المبعوث، وأعدته حاوي اليديين. إنك سوف بحاسب على هذا الفعل وتؤنب.

(1) دم اسماعيل فردوس عن تاريخه مضي البهيج.

(2) الإمارة الشيعية من 227 نقلاً عن تاريخ عمر نجيب الممر

(3) ا. د. م سجل 415 130

(4) ا. د. م سجل 392 135 المصود بهم رجال لدين السنة في بعلبك

(5) ا. د. م سجل 372 135

عندما يصلك هذا الأمر الإمبراطوري، سدمهم إلى مبعوثنا، إياك أن تحمي أو تستضيف اللصوص الهاربين من دمشق أو صيدا أو بيروت أو طرابلس أو حمص أو حماه⁽¹⁾.

في سنة 1731م كان لا يزال في منصبه كما عهد عهدي زراعي، حول قرية اللبوة، محفوظ هي محكمة دمشق الشرعية على الرغم من أمر سلطاني صدر إلى والي دمشق معزلاً ومظالمه وجرائمه ووجوب عزله عن منطقة بعلبك وقتله لأنه راهصي المذهب⁽²⁾. كما وصل في نفس الوقت أمر آخر إلى والي طرابلس يتضمن نفس الأحكام جوهراً من إلحائه إلى حلمائه في هذه الولاية، ويشير إلى العتوى الشريفة التي تقضي بقتل هذا النوع من الناس إشارة إلى هتوى أبو السعود أفندي بوجوب قتل الرواحص والقرلباش وأن اسماعيل يجب أن يقتل لأنه شيعي هرطوقي⁽³⁾. لم يكن القيص على اسماعيل مسأنة سهله على الدولة فلحأب إلى الحديمة والمكر وبدلت له الامان هما وثق بمعهدا قتلته سنة 1733م بتهمة الرقص والتشيع.

الأميران حسين وحيدر

رغم أن اسماعيل قتل على الرقص فقد حلعه راهصيان من أولاده هما حيدر وحسين و كانا على وفاق في أول أمرهما، ولكن تدخلات العثمانية والمطامع الشهابية، فرقتهما فسارعا وتبادلا الإمارة أكثر من مرة

ظهر عصب الباب العالي على الأخوين باكراً وانهالت شكاوى دمشق تنههما بالسطو على الممتلكات، والتعصب في بقصان الجباية⁽⁴⁾ وهي نهاية عام 1744م ست الأحكام الإمبراطورية أكثر جدية وتصميماً وأمرت بإعطاء الترام بعلبك إلى شخص آخر ولكن هذه الأوامر بقيت كغيرها بدون تنفيذ، حتى وصل العصب الرسمي على حسين إلى الدروة اثر اتهامه بأكبر عصيان ضد السلطة العثمانية يمكن تصوره

السماح الأمير حسين بن اسماعيل حرقوش استمر في عصيانه بالرغم من صدور أوامر بالقضاء على شرهم وبصورة الحق. عصى القانون المقدس، والمراسيم

(1) أ.م. دسجل 24: 136

(2) أ.م. دسجل 226: 140

(3) أ.م. دسجل 311: 140

(4) أ.م. دسجل 150 من 230

الإمبراطورية معلناً كسره ورندقته،

قتل يحيى أفندي مصي بعلبك لأنه رفض إصدار حكم لصالحه، فشنقه وصادر ممتلكاته⁽¹⁾.

إن قتل رجل دين سني على يد حاكم رافضي هو أمر ثار موجة من الغضب والاستنكار في الدوائر الدينية والرسمية على اختلاف مستوياتها.

طالباً هذا اللص وعائلته وأقاربه باقون في مركزهم في بعلبك، فإن الناس لن يكونوا بأمان من ظلمهم وتعديانهم منذ الآن وصاعداً لا تعطوا المقاطعة لهذا اللص حسين حرفوش أو لأحد من أقاربه أو عائلته أو أتباعه أو السائرين على نهجه، أعطوها لشخص عادل⁽²⁾.

في مثل هذه الظروف كان حيدر شقيق حسين هو الوحيد الذي يمكن أن يتولى الأمور في إمارة بعلبك فتحنى له حسين وأصبح هدفاً لعمليات التفتيش العثمانية حتى اعتزلت السلطة في أيار 1747م بأنه مجهول محل الإقامة⁽³⁾ ولكن سرعان ما وصلتها خبر أخباره

«لم يهتم بأموره الخاصة فهو جمع ثلثمائة أو أربعمائة من رجال العصابات، وهاجم قاهله متجهة من دمشق إلى بيروت، سلب مائة كيس من البصالح، وهدم القرى، وأحرق المؤن، وهاجم المتحولين حول بعلبك»⁽⁴⁾.

ولكن رغم عصيانه الدائم وما سبته إليه لأحكام الشريعة من شرور وأثام، لم يجد السلطان حلاً بعد أن عجز ولاته عن القضاء على هذا الكافر الرديق، إلا أن يشمله بعمو مبرز يرتكر على مشاعر التعاطف والشفقة و نحير

«إن صاحب عقد التزام بعلبك ابن الحرفوش (لتزاد قوته) أرسل عريضة إلى مقامنا الشريف يقول فيها أنه كان دائماً يدفع الصريبة هي مواعيدها ومع فوالدها، واستلم الإيصالات، وبرا ذمته، ولم يخالف القانون».

(1) ا.م. د سجل 152 ص 169-170

(2) ا.م. د سجل 152 ص 243 - 254

(3) ا.م. د 153 ص 69

(4) ا.م. د 153 ص 120

إن أبناء المفتي المتوفي في بعلبك يحيى أهدي، قدموا شكوى بحقه واتهموه بالقتل، طالبيين إعادة ممتلكات والدهم إليهم

أرسلت الدولة مأموراً، فهاجم حسين وسرق ونشر كل أشياءه وحاجياته وكل ما ملكت يده، وكان عليه أن يعادر فوراً إلى المنفى أما اليوم فإنه وعائلته وقومه في حال يرثى لها ويستحقون التعاطف والخبر.

إن جريمته قد عفي عنها، ولا يجب أن يتحمل المريد من الشقاء بعد ذلك،⁽¹⁾

يبدو من محتوى هذه المراسيم السلطانية أن حسينا اتهم بقتل المفتي السني في بعلبك وهو تحد خطير للدولة الحاكمة وهو أنها لن تكون المرة الأخيرة التي يفقد فيها هذا لمرمر السني حياته على يد حاكم رقصي

إن نصا في يوميات حلاق دمشق يشر شكاً حدياً حول صحة هذه التهمة الخطيرة

«في عام 1159 هـ بعد رجوع أسعد باشا من الحج أرسل عسكرياً عظيماً إلى مدينة بعلبك لصل واليها حسين فلم يحدوا له أثراً، فدخلت الأعوات وسلبوا وعللوا ما فعلوا ثم أتوا بشماعة رجال من أعيان بعلبك ومن جملتهم مصعبها لدمشق الشام هشنق المفتي وصربت اعناق الياقطين⁽²⁾»

إن هذا الحلاق الدقيق الملاحظه وبعيم في دمشق، والذي يشتم آل حرهوش في أكثر من مناسبة، لا يمكن أن يقع في خطأ حسيم ينسب مثل هذه الواقعة التي حصلت في دمشق ولا بد أنها بعيت أياماً حديث الناس ومحل اهتمامهم فهل أن المراسيم السلطانية اتهمت الحرهوشي زوراً أو جهلاً بهذا العمل الذي بصدته إدورتها في دمشق.

إن المؤرخ بعصه يعود في مكان آخر وينسب باللائمة في قتل المفتي يحيى أهدي المشهور بالعلم والكرم على آل الحرهوش في معرض ذكره لحادثة مماثلة كان صحبتها المفتي البعلبكي أيضاً حرت بعد ستة أعوام على لحادثة الأولى⁽³⁾

راهب باسيلي من حمص أقام فترة في رحلة سجدت في تاريخه عن تعديات متفرقة قام بها الأخوان حيدر وحسين طاولت مسيحيي معطقتهم مديين ورجال دين وصلت حتى إلى إقدام بعض رجالهما على قس قس كاثوليكي لمجرد صمته الكهنوتية ورعصه

(1) ا م د سجل 153 ص 169

(2) حوادث دمشق اليومية لشيخ أحمد البدهري الحلاق ص 71

(3) المصدر السابق ص 160

محمد إيمانه⁽¹⁾ وهي حادثة نادرة هي سيرة هذه الأسرة وعاداتها رغم ما ينصب إلى بعض أمرائها من عسف وتنكيل طال مختلف الصوائف بما فيهم أحياناً بعض الشيعة.

الأمير حيدر بن اسماعيل 1724 - 1774م

لم ينتهي النزاع بين الأخوين إلا باعبال حسين في 6 جمادي أولى 1164هـ - 1750م في أحد شوارع بعلبك فتجهت أصابع الإتهام إلى أخيه بالصلوع في تدبير ذلك. وفي يوم الثلاثاء جاء خبر إلى دمشق بأن حاكم بعلبك الأمير حسين كان خارجاً من الجامع هاغتاله ثلاثة أشخاص ورموه بثلاث ننادق وهرؤا هاربين فحمل إلى داره وفي اليوم الثاني توهي وقد قيل بأن الماتلين له أخوته حيث أن له من الإخوة سبعة والله أعلم⁽²⁾

ودكر مهندس انكليزي كان يقوم بدراسة الآثار في بعلبك أن حيدراً قتل حسيناً وصار حاكماً مكانه⁽³⁾.

إن هذا الاعتقال العامص وضع حداً لنزاع طويل بين الأخوين حسن وحيدر فتح محالاً رحباً للتدخلات الخارجية في شؤون الإمارة من طريق بصره أحد المنابرين فكابا يتناوبان على الحكم حسب موارد ثروة مستقر أحدهما في دار الإمارة ويتحصن الآخر في القرى الحبلية البعيدة ليحرب على أخيه ويستعد لحوله حري

«بينما كان باشا الشام في الحج سنة 1158هـ - 1745م ارسل الأمير ملحم الشهابي عسكرياً إلى بلاد بعلبك لمساعدة حسين ضد حيدر فحرب الدوروزاء بعلبك وقطعوا أشجارها وطردوا حيدر وأقاموا حسين مكانه»⁽⁴⁾

وفي العام التالي كانت عساكر والي الشام تستببح بعلبك بهماً وسلباً وهبلاً وبطارد حسيناً لقتله دون حدود

بعد أقل من ثلاثة أشهر على مارة حيدر وصل إلى دمشق بياً لا بد وأنه ثار موجة من الإستياء والعداء ضد العائلة «الخبيثة» بحرفوشية.

(1) حوادث لبنان وسورية لأب روفائيل كرامه ص 8 - 12

(2) يوميات المديري ص 157

(3) الرحالة وود، Robert Wood. في أطلال بعلبك

(4) المديري ص 71

«إن ابن الحرفوش حاكم بعلبك المتوالي اثر قصي المشهور قبض على المفتي وعلى أخيه وأحرقهم بالنار وهدم دورهم وقطع كرومهم»⁽¹⁾

لم يكن حيدر منذ السنين الأولى من ولايته على وفاق مع باشا دمشق وأقرانه، ولا مع الباب العالي في اسطنبول وكان عصب العنصر الدائم منه على وشك أن يلتهب كما جاء في انذار وجهه له في تشرين الأول 1755 م

إن الولاية الثلاثة في سوريا يتهمونك بالإغرة المستمرة على القرى بدل حمايتها إن أعمالك اللاشرعية والامير مقبولة جعلت بار غصبي على وشك أن يلتهب⁽²⁾.

ونميد عريضة وصلت إلى اسطنبول من باطر الأوقاف السلطانية، وهي من المؤسسات العثمانية المهمة. وكان ريع أوقاف بعلبك من أهم عائداتها. إن القيمير على هذه المؤسسة كانوا في مقدمة العاصيين من آراء حيدر وعائلته عموماً

إن الأوقاف الاسلامية في البقاع في مأزق شديد فمند ثلاث سنوات لم يدفع حيدر شيئاً، ويندحل في كل أمور الأوقاف. إن حملة عثمانية ضد ال حرفوش وحدها قادرة على اصلاح الوضع⁽³⁾.

كان حيدر أميراً مقداماً سحياً ومجهود السير وصاحب بحوة وحمية دفعه إلى الإهتمام بتوثيق علاقاته مع الشيعة في جبل لبنان وحبل عامل ومساندتهم والتشاور معهم

أقام فترة مناهة الاحتيازي في حبل عامر حيث شارك ناصيف النصار في بعض مساعيه لتوحيدية⁽⁴⁾

قاسى من ولاة الدولة وحكام الشوف الكثير من الحور واثارة القلاقل والحروب.

«في سنة (1168هـ - 1755م) عزلت الحكومة الأمير حيدر عن بلاد بعلبك فأبى الخروج منها وأمر جميع من فيها بالرحيل وكل من أقام بعد ثلاثة أيام ينهب ماله

(1) يوميات لنديري ص 160 اعين حسين في 6 جمادى أولى 1164 وقتل المفتي في أول شعبان من العام نفسه فيكون قتله حيدر وليس حسين كما توهم بعضهم

(2) ا. م. د. سجل 157 ص 195.

(3) الإمارات الشيعية ص 234 بعلت من نص لمريضة عن BOA Cevedet EVKa 9176

(4) دواني القلاوق، العلوف ص 252 - 253

وعياله فطفشوا إلى البلاد والقرايا وأقام بها هو عاصياً وأعطت بعلبك لحسين بن الحر فوش⁽¹⁾

وكانت الدولة قد أعطت بعلبك إلى الأمير إسماعيل بن شديد سعاية والي طرابلس ولم يتمكن حيدر من استعادتها قبل سنة 1763م.

كما حاول الشهابيون استراخ بعلبك من الأمير حيدر ولكن تعذر عليهم ذلك دون الاستعانة بحر فوشي آخر يعملون باسمه وقد تمكن ملحم من صمان بعلبك من والي الشام وأقام مكانه أخويه أحمد ومبصور ولكن الأمر لم يستقم له لمدة طويلة فهاجم بالتحالف مع حسين شقيق حيدر بعلبك ودحجها الأميران في سنة (1160هـ - 1747م) وحررا ما أمكنهما وتولى حسين الحر فوش ببيتها⁽²⁾ حتى تاريخ مقتله سنة 1750. بتدبير شقيقه حيدر.

كما أن الأمير يوسف الشهابي ورداً على وفوف حيدر إلى حاب الحماديين في جبل لبنان دعم أحد إخوانه محمد في الوصول إلى حكم الإمارة فالتحق حيدر إلى جبل عامل ثم عاد إلى إمارته من حديد لموت فيها أميراً⁽³⁾

في العترة الطويلة التي حكم أثناءها وصل على الأقل ثلاثة أمراء من أقاربه إلى حكم بعلبك فكان يمين العصيان ويصر على استرجاع إمارته وقد نجح بذلك في جميع الظروف في أثناء حكمه بدأت حملة بهجر الشيعة من جبل لبنان فسادهم، واتهمته وثائق عثمانية أنه قام بقيادة حملة عسكرية على المناطق المرتفعة في الجبل وهاجم بشري معسباً موت العديد من المسيحيين بينهم نساء وشيوخ، في نفس الوقت الذي كان فيه ولي طرابلس يقوم بمطارده الحمادية على رأس عساكره⁽⁴⁾

كما استقبل الكثيرين من المهاجرين و لمارين والمطاردين من جبل لبنان فأرسلت الأوامر العثمانية إلى الشهابيين بملاحقة هؤلاء القرلماش وردهم⁽⁵⁾

توفي الأمير حيدر حاكماً على بعلبك سنة 1774م وكان قد سن في العمر كريماً جداً، كما يقول الشهابي⁽⁶⁾.

(1) تاريخ البديري م م ص 187

(2) تاريخ الأمير حيدر ص 34 - 38

(3) دواني القطوف، الملووف ص 252

(4) م طه ش سجل 17 ص 145

(5) م طه ش سجل 17 ص 146

(6) تاريخ الأمير حيدر الجزء الأول ص 64.

الأمير مصطفى (1774 - 1784) م

تولى مصطفى إمارة بعلبك حلفاً لأخيه حيدر سنة 1774م دون ولده درويش الذي اكتفى بعد فشل مساعيه بحكم بعض قرى بلاد بعلبك ولكن المنافس البارز له كان الأخ الثالث محمد الذي استطاع الوصول إلى الحكم بقوة جيش أرسله والي الشام عثمان باشا المصري عام 1776م إلى بعلبك فهرب مصطفى إلى زحلة ليستعد للمقاومة.

تولى الجزار ولاية صيدا هي نفس العام فحمل مقره هي عكا ووقعت رهبته في قلوب الحلق واستعاد على المتأولة وأحد بلادهم وقهر حكامهم وبنده شملهم وصيحت أراضيههم وأرزاقهم⁽¹⁾.

بدأ أحمد الجزار حربه البقاعية على المتولة (آخر نيسان 1777م) بإرسال حملة يقودها كاخيته ابن قراملا إلى بعلبك وبدأوا يتمخضرون في الطرقات ومسكوا البعض من كباراء المتأولة وأخذوا منهم أموال كثيرة ومسكوا الأمير محمد الحرهوشي وحسوا الجميع ثم عادوا ببعلبك بعد مدة وهاجموا سعدنايل وأخذوا مواشي أهلها وقتلوا بعضاً منهم ثم هاجموا زحلة بعد أن تكاثروا بموصول نخدة من عسكر الأكراد⁽²⁾.

وبعد مباوشات عديدة أحرقوا القرية ودمر مار الناس، وتولا الأمير مصطفى لكانوا قتلوا أناساً كثيرين لأنه قاوم ورجاله القلائل وحارب العسكر وشعله حتى يهرب الناس. وقد حاصرت حملة الجزار الأولى على البقاع ويلات كثيرة حتى سميت السبة التي حصلت فيها «سنة ابن قراملا»⁽³⁾.

بعد خروج العسكر من بعلبك عاد الأمير مصطفى إليها وعادت تدخلات والي الشام ومطامع يوسف الشهابي تتعكس حلافت بين تحراشة وبراعاً على الحكم. وهي إحدى الحملات التي ساقها والي دمشق إلى رحة مطارداً مصطفى سنة 1781م استغل الأمير سيد أحمد شقيق الأمير يوسف العرصية وطلب مواجعة باشا الشام وطلب منه أن يعطيه قلعة قبة الياس ويوليه على البقاع

(1) الدر المرصوف، المنير ص 20 (جروس برس)

(2) حوادث لبنان وسوريا، كرامه ص 55-56 (الدر المرصوف المنير ص 25) (جروس برس) كانت رحلة وسعدنايل مثل للزرل وشتورة بلدات شيعية صرفة.

(3) المرجع لسابق ص 26. وكان ابن قراملا ظالماً عدواً عاماً للنساء فارساً عظيماً وكان له من العمر خمس وعشرون سنة

يقول حيدر المؤرخ:

«في آخر (1196هـ. 1781م) حصر لى دير القمر محمد الحرفوش طالباً بمساعدة الأمير يوسف للحلول في الحكم مكان مصطفى فوجه معه عسكرياً واهراً بقيادة أبناء عمه بشير بن قاسم، وحيدر أحمد، فدخل الجيش إلى بعلبك بعد أن هرب منها مصطفى وعياله إلى حمص ثم عاد إليها والياً بمساعدة والي الشام محمد باشا العظم. فعاد محمد إلى دير القمر حيث بقي هناك حتى وفاته بعد أربع سنوات ودفن فيها»⁽¹⁾

سأت العلاقات بين يوسف الشهابي ومصطفى بسبب تدخلات يوسف في شؤون إمارته ولأنه «أرسل عسكرياً مع الأمير شديد مراد إلى در الياس فكبسوا هذه القرية ونهبوها ونهبوا أيضاً في طريقهم قرية من بلاد بعلبك تسمى النبي⁽²⁾ وكان فيها أراق كثيرة وقتلوا فيها شيخاً متوالياً من بيت حمية⁽³⁾، كما أن مطامع الشهابيين بقلعة قب الياس قد أثارت عيظ مصطفى ودفعته هذه التدخلات إلى طلب عرامة كبيرة من أهالي رحبة فرحلوا خوفاً منه، ولكن المفاوضات ما لبثت أن قامت ببنه وبين يوسف، فراسله باصلاح أمره معه وقدم التوسيل بدفع المال فأجابه يوسف بذلك واصطلح الأمر بينهما⁽⁴⁾، على قول الأمير حيدر

في مدة حكم الأمير مصطفى تكب الحرار متاولاً جبل عامل «فانكسروا أمام عساكره الحرارة بعد أن هلك من المريقين خلق كثير وقتل الشيخ فاصيف رعيم المتاولة وأكبرهم ونرح من بقي منهم إلى بلاد بعلبك ليحنموا عند بني حرفوش»⁽⁵⁾.

استقبل بنو الحرفوش البارحين من أهل جبل عامل وحموهم وأكرموا وفادتهم⁽⁶⁾ وكان بينهم عدد من رجال العلم والمشايخ وأهم رعماء آل نصار بعد مقتل باصيف ومنهم قبالان الحسن، صاحب مقاطعة هوبين.

بعد اجتياح جبل عامل وهرار بعض أهله إلى بعلبك كان لا بد من أن يأتي دور مصطفى باعتباره الأمير المتوالي بقوي ندي قاتل الدولة مراراً واستقبل المطرودين من ديارهم فاتفق أحمد الحرار ووالي الشام محمد درويش باشا ودهموا مدينة بعلبك

(1) تاريخ حيدر لشهابي ج 1 ص 340 دال في مقبرة الشهابيين

(2) ربما قرية النبي إيلا اليوم وهي شمالي زحلة

(3) تاريخ القس زوهابيل كرامه ص 69

(4) تاريخ الشهابي ج 1 ص 134

(5) تاريخ كرامه ص 68

(6) جبل عامل حسن الأمن ص 357

فقبضوا على مصطفى وأخوته الخمسة وبقوهم إلى دمشق فشنقوا ثلاثة منهم بينهم مصطفى وسبوا حريم الحرفشة ونهبوا مدينة وصبوا فيها حاكماً من الانكشارية يدعى رمضان آغا (1784م). ثم استحصل لحزار على حط شريف من الاستانة بفصل بلاد بعلبك عن ولاية الشام وأحافها بحكمه وأرسل حاكماً عليها من قبله اسمه سليم آغا. وهكذا جرى في بعلبك ما جرى مثله في حب عامل وحبل لسان من قتل الحاكمين وسبي النساء وتدمير العمران وإهلاء الرعية وتهجيرها ليسهل قيادتها والتحكم فيها وامتصاص أقصى ما يمكن من خيراتها والتخلص من مشاكلة أعداء الدولة والدين والسلطة إلا أن حذوة المقاومة لم تجمد حتى في منافعهم حيث تشردو فقاد فارس الناصيف جهود متواصلة حبل عامل لاسترداد أرضهم وبلادهم. كما كان حرقوشي آخر يستعد للعودة إلى بلاد آبائه واستعادة موقعهم ويده سيف حمله معه من بلاد بعيدة وهو جهجاه بن مصطفى.

الأمير جهجاه بن مصطفى (1787-1817م)

يحدث أحياناً لبعض الشخصيات التاريخية التي تقوم بأعمال معيبة تثير إعجاب العامة وتقديرها أن ينسج الخيال الشعبي حولها هالة أسطورية من القدرات الخارقة ومنسوبة إليها أعمالاً لم تقم بها يوماً ويصنع على لسانها أحوالاً لم تنمط بها، فيحتلظ الأمر بين الواقع والخيال فيصعب وضع حد محصل بينهما

وضع جيش ولى الشام بالاتفاق مع أحمد الجرار نهاية مأسوية للأمير مصطفى وأهل بيته وعائلته. جعلت الاعتقاد يسود لفترة أن ذلك كان نهاية هذه العائلة صاحبه التاريخ الطويل، وأن الحكم قد انتقل إلى أعوات الدشا ومماليكه القادمين من أماكن قصية، إلا أن وريثه الشاب استطاع الفرار من المحررة واحتفى في المراي حيث لم يعلم أحد مكانه وغر عليه المساند والتصير في محيطه فأتجه إلى بلاد بعيدة كان يسمع من أهله أن لهم فيها من تجمعهم معه رابطة القرى والدم والتاريخ فتوجه إليهم في جنوب العراق مستثيراً نخوتهم وطالباً منهم حقه الذي تكلمه الأعراف والثقاليد في مده بالدعم والمساندة وإذا كان بعد المسافة يحول دون مؤازرته بالرجال والمقاتلين فقد اكتفى بمال وهير وسيف بغدادى وهرس كريمة أصيلة يحوص بها معركة المنتظرة⁽¹⁾.

(1) أعيان الشيعة لآسى الجراء السادس ص 350 وكما يستمد من المصيدة لشهيره التي يرددها المنشدور على لسان جهجاه

عندي سيف من بغداد حيثو يصن بحريوسم الأهاعي

يلاحظ أن ما قام به جهجاه لاستعادة حكم بانه يكاد يكرر بكل تفاصيله في ما ينسب إلى علي الصغير الوائلي في ظروف مماثلة

ترك جهجاه مصارب الخراغل قرب البصرة وهم قومه وقبيلته وعاد إلى بلاده يتسقط أخبارها ويستحث أنصار أبيه وعائلته على الاستعداد للقتال، فوجد أن الحاكم مكان أبيه من قبل الوالي هو محمد آغا العبد (رنجي) هدايمه بمرسان عطى حوافر خيولهم باللباد حتى لا تحدث صوتاً يعقده عنصر المأحذة ودخل إلى بعلبك بعد أن قتل كل من صادفه في الطريق وانتصر على أعدائه بنصاراً كاملاً وهرب العبد إلى سيده هي دمشق كما تقول الكتب إلا أن رواية سيرته وأشعاره يصرون على أنه قتل بيد جهجاه⁽¹⁾

وفي خلال ثمانية أيام من أيول حصر الأمير جهجاه ابن الأمير مصطفى إلى بعلبك بمسكرو حارب العبد متسلماً بعلبك وانتصر عليه هانهم إلى دمشق مع جماعة وبقي مستظراً أمر رجوع الباشا من الحج، ودخل الأمير المذكور بعلبك وجلس في سرايتها وملكها بالسيف وضبط كل ما كان مختصاً بدائرة الحكومة⁽²⁾.

كان على جهجاه أن يستعد للمعركة المقبلة سيما وقد وصلت تهديدات والي الشام بحجة أنه عاصي وقد أخذ بعلبك قهراً واحتصاناً وقتل عند أخذها البعض من عسكر العثماني ولما كانت محاولة التخلص من حرقوش في دون الاستماعة بأحد الطامحين من أقربائه غير مأمونة النتائج فقد أرسل الوالي جلاع حكم بعلبك إلى كنج بن محمد الحرهوش مع العسكر لتولي الحكم بعد جهجاه⁽³⁾.

وأمر جهجاه كل سكان بعلبك وصبيحها بالرحيل وكسر الطواحين وذهب مع جماعته وعصى في قرية تسمى صنبرا من معامل بعلبك فحاصره العسكر وأحيراً تدخل عباس التل حاكم الريداني وتم الاتفاق أن يعود جهجاه إلى حكم بعلبك ويدفع للتورير مبلغاً من المال فجاء جهجاه إلى رحلة فحصل فيها فرح عظيم ونهائي وقواص وأمر المطران بالرجوع مع النصاري وبدأت الناس تعود إلى بعلبك⁽⁴⁾. أما كنج فقد سجن في دمشق ليدهع بمقات لحملة الماشلة ومات في سجنه بظروف عامصة وقيل إن جهجاه هو الذي سعى في نهايته⁽⁵⁾.

(1) جاء في هذه لفصحة الشعبية

ما تدري يوم التي كان العبد حاكم
تركته مصرجاً عربي بعلبك
لا يمدل بحكمه ولا يراعي
يحد لسيف قطع نورباني

(2) حوادث لبنان وسوريا، كرامه ص 103

(3) دوسي القطوف، المصوف ص 267

(4) المطران هو ببادكتوس لتركمانلي الحنفي الصيب مطران بعلبك من لرهمة الشويرية (توفي سنة 1808م) (دوسي القطوف، المصوف ج 1 ص 267)

(5) تاريخ كرامه ص 107.

تمتع جهجاه بموهبة عسكرية حارقة هي التخطيط والقتال أمست له المور هي أكثر من عشر معارك على الأقل حاضها ضد لولة العثمانيين بمن فيهم أحمد الجرار، ورد بنجاح حملات متتامة تهدف إلى القضاء عليه وتعيين موظف عثماني مكانه، لقد صمد في فترة عصيبة على الشعة كان الحرار خلالها قد احتاج حين عامل وشرد رحاله وأعيانه، كما خسروا مواقع حكمهم في جبل لبنان ولازالو يتعرضون لصفط متواصل لاستئصالهم من ديارهم فلم تقى غير بلاد بعلبك ملجأ يأوون، ليه يصمدون جراحهم ويتحدون منه قاعدة انطلاق لجهودهم الرامية إلى العودة إلى ديارهم وبيوتهم وقراهم، وميداً ينطلقون منه في حملات قتالية متتامة لاستعادة ما فقدوه، في ظل قوة عثمانية طاغية تتفوق على طاقتهم المحدودة للقتال والمواجهة، فكان الهربون إلى بلاد بعلبك من جبل عامل ومن السيطرة وحبل وغيرها من مناطق شمال لبنان يقومون بقدر ما تسمح طاقتهم المتبقية بعارات إلى ديارهم الأولى يواجهون بها من أخبرهم على تركها ثم يعودون لتنظيم عارة أخرى بانتظار تغير الظروف، فكانت بلاد بعلبك هي القلعة الشعبة الأخيرة التي لم تسقط بعد وربما هذا هو السبب الذي جعل جهجاه هدفاً لهذا العدد الكبير من الحملات التي ترمى إلى احتياح بعلبك والقضاء على الحكم العثماني فيها وإعمالها بوجه الهاربين من الشيعة، بل وربما تهجير أهلها أنفسهم كلاً يبقوا أمام تجمع من ملاد أمن غير البوادي الصحراوية الواقعة إلى الشرق والنائية عن مركز العمران من مدن وقرى وسهول حصبة الحائلة من السكان إلا من هائل بدوية من الرعاة الرحل

بن مقاومة جهجاه المستميتة والباححة وحالت أصحاب محططات التهجير النافذين ولولة العثمانيين ورحالهم.

اعتمد هذا الأمير في ظل احلال ميران لقوى مع خصامه على تحطيطه العسكري البارع، وشجاعته المتناهية وإقدامه المنقطع لنظير وسمعته القتالية هي الممارك التي كثيراً ما دفعت المواجهين له إلى الهرب من أمامه عبد الصدم رغم تفوقهم الكبير في العدد والعدة حتى قبل بشوب الممارك واحتدم القتال

لقد اعترف بمواهبه القتالية معظم المؤرخين المعاصرين له، رغم أن ميولهم قد تكون غالباً مع المعسكر الآخر، وقد حصر بعضهم أكثر من معركة حاصها فكانوا من شهودها العيان ووصفوا كيف كان جهجاه يقودها بشكل مميز وفريد يدل على معرفة بصنوف الحرب وتمرس بالقتال رغم أنه لم يكن - مقدرة بأعدائه - كثير الأعوان والمقاتلين، إدا كان يعتمد على عنصر الاستدراج والمناعة فيقود حصمه إلى الميدان الذي يناسبه ثم يداهم معتمداً على كفاءته النادرة ويستصر عليه مناقصاً لكل التوقعات والمعادلات

السائدة ولعل من المناسب الاكتفاء بسرد بعض معاركه المهمة والتي حفلت بها بعض المراحل المعاصرة لها وستعتمد بالأكثر على مؤرخ شارك شخصياً في مشاهدتها دون المشاركة في القتال وهو مثل غيره من المؤرخين لا يتمكن من إحصاء إعجابه بشجاعة جهجاه ومقدرته رغم قلة ما يكن له من الموده والتأييد⁽¹⁾.

ثم يتأخر جهجاه عن اعطاء أول فرصة سنحت له لمقاتلة أحمد الحرار عندما انقسم الشهابيون فريقين⁽²⁾، أحدهما مع الحرار وعلى رأس قواته أميران، هما علي أمير حاصبيا ومحمد أمير راشيا، وعلى رأس الفريق الآخر الأمير يوسف الذي باصره جهجاه وانضم إلى عسكره في قب الباص حيث حرت المعركة الحاسمة في وادي أبو عباد فانهرم عسكر الحرار ولاحقه المنتصرون حتى قرية حربة روجا فنهز الحاصبي « وكان وجه الحرب للأمير جهجاه»⁽³⁾.

عاد الأمير جهجاه إلى بعلبك مستصر ولكن الحزار أعاد جيشه المنهزم إلى متابعة القتال فوقع المعركة الثانية بالفرب من قرية جب حبي في البقاع سنة 1789م بدون مشاركته فاكسرت قوات الأمير يوسف واضطر للتراجع إلى الباروك⁽⁴⁾، ثم لتلحني عن الحكم للأمير شير قاسم في نفس العام.

بعد انتصاره على الحرار ووالى الشام توقف جهجاه عن دفع المال السلطاني بعد أن داغ صيته واشهر أمره، فبقيت الدولة تنتظر الفرصة المناسبة للقضاء عليه وطرده من بعلبك حتى سنة 1789م حين وجه إليه من حمص عسكراً بقيادة إسماعيل الكردي، فباعته في قرية حارج بعلبك فموجئ جهجاه ولم يكن معه رجال ولم يكن على استعداد فانسحب كعادته لتدبر لمقاومة، فهاجم لكردي بعلبك وانحصرت إنجاراته في القبيص على حريم جهجاه ونهب متاعهم وقتلهم إلى دمشق⁽⁵⁾.

عاد جهجاه إلى بعلبك وأحلاها مع القرى المحاورة من جميع مكانها ثم ذهب إلى الجبال حيث جمع أقاربه ورجاله، وسار بهم إلى رحلة وطلب من أهلها أنه إذا خرج هو لمحاربة الأعيا الكردي أن يخرجوا من بيوتهم لمشاهدة الحرب دون الاشتراك فيها أو الاقتراب من ميدانها⁽⁶⁾.

(1) الدر المصنوع المبرص 61 وعبرها

(2) تاريخ الأعيان الشدياق الجزء الثاني ص 349.

(3) المرجع السابق ص 63

(4) لبنان في عهد الأمراء لشهابيين - تاريخ الأمير حيدر قسم 1 ص 146.

(5) حوادث لبنان وسورية، كرامة ص 113

(6) الدر المصنوع المنير (جروس برس) ص 64

عاد إسماعيل اعا إلى دمشق، هسّر به الوالي وأكرمه على سبيله حريم جهجاه وأنعم عليه بحكم بعلبك، فعاد بصحبة عسكر عظيم وأقام في بعلبك حاكماً

جمع إسماعيل الكردي عسكره وقصد رحلة لنقصاء على تمرد جهجاه، فأمن أهلها وأنعمهم انه يلاحق عريمه وحده، فأجانبوه ن جهجاه خارج للاقائه ونحن لا نحميه ولا نحاربه⁽¹⁾.

جمع الأمير المحارب رجائه في لكرنك ثم ذهب إلى هالوجا طالباً مساعدة الأمير شديد مراد، وعاد إلى رحلة يستعد للمعركة، فأرسل نقولا الدروبي إلى إسماعيل ليقول له «قم واجمع عسكرك واحصر حتى تسلمك جهجاه الموجود في رحلة» وقد حصر هذه المعارك المؤرخ القس خنانيا الأمير فوصفها بإسهاب وتفصيل بادريين، معتمداً على مارام وسمعه وشارك به.

«كنت حاضراً هذا الشر مغيراً مبيوساً»⁽²⁾.

حصر القائد المتهامي حالاً مع صباكره وهم بتماية فارس وماية راجل ولما وصل إلى رحلة أرسل من قبله جاويشاً ينادي بالأمان وأبغ لا يطلب أحداً غير جهجاه فركب الأمير جهجاه مع عدد قليل من رجائه وكان إذا خرج أبو ملحم جهجاه للحرب ينادي أهالي رحله تخرج في إثره كباراً وصغاراً ليشهدوا الحرب من بعيد - فخطر العسكر إلى جهجاه ممبلاً عليهم بحراة ومن دون جرع وتاعة قوم كثيرون فمزع العسكر وهربوا أمامه فاحصهم وأرعبهم وحاربوه فغلبهم وقتل منهم ما ينيف عن مائتي رجل أو أكثر ولم يقتل من جماعته أحد وتبعهم إلى الزبداني خارج حدود البقاع وعاد إلى رحلة وأرسل إلى بعلبك من أثناء برأس المصتي لأنه كتب وتكلم ضده،

وقد وقعت هذه المعركة في 10 كانون الثاني 1789م.

«وصلت هذه الأنباء إلى والي الشام دالاتي إبراهيم باشا فنوى أن يهاجم جهجاه ولكن جاء من يبصحه أن الأمير الحرفوشي متى شاهد الركبة قوية يهرب إلى الجبل ولا يمكن أن يحكم بلاد بعلبك غيره فسك الباشا وأرسل له خلّاع الحكم وحريمه عن طريق عباس التل مرة أخرى واكتفى بأربعين كيساً قبضها منه»⁽³⁾.

(1) المرجع السابق ص 65.

(2) المرجع السابق ص 77.

(3) الدر المصوف، المنبر دار لرائد ص 86.

معركة زحلة

هي آخر كانون الأول 1791م وضع جهجاه حطة لاحتلال بعلبك وطرد عسكر والي الشام أحمد الجرار منها ولم يكن معه أكثر من مئة معارب صلداتي فاستأجر مئة آخرين من أهل زحلة والحبل لمدة يوم واحد بحمسة قروش أو سبعة لكل منهم كان هناك حرس على المدينة من جهة العرب حيث تمتد السهول المسيحية فاختر الدحول من الشمال من ناحية الدبوة وكنت حطته تقصي بالدخول خلصة إلى وسط المدينة دون أن يشعر به أحد ومنع رحاله من القيام بأية حركة أو صوت قبله وأعطاهم كلمة السر وهي: عند الله فمن لا يرد عليها بمثلها نطلق النار عليه فوراً.

بعد قتل الحرس دخل مع شقيقه سلطان ورحاله إلى المدينة بعد منتصف الليل ولما وصلوا إلى وسطها، أعطى جهجاه الإشارة بإطلاق الرصاص وارتفع الصياح فظن العسكر الموحودون فيها أن حبشاً كبيراً يداهمهم فلم يقدرُوا على المحاربة وأدهلنتهم المناحاة هاركبوا إلى المزار والعيل منهم من استطاع أن يحمل سلاحه أو يركب فرسه فقتل أكثر من نصفهم وهرب الباقون إلى دمشق واحتل جهجاه المدينة وأقام هي زحلة مستظراً⁽¹⁾.

وصل الهاربون إلى الشام وأخبروا بما حدث لهم فتعهد الملا اسماعيل بالنار من جهجاه، وقصد زحلة مع ألف ومائتي فارس ولم يكن هي زحلة يومها أكثر من مائتي بارودة بالإضافة إلى خمسين أو ستين هم مجموع رجال جهجاه فحمر الأهالي حول زحلة حذراً يسورها من جميع الجهات بحيث لا تقدر الخيل على الدخول إليها إلا من معابر مهددة،⁽²⁾

هاجم اسماعيل البلدة من جهتي الشمال والجنوب فاحتفى الرجال في الخنادق حتى إذا قرب الخيل منهم يطلقوا النار عليها دون أن يظهروا أمام العسكر فينكمئ مهزوماً وكانت مهمة سلطان ومعه عشرون من رجاله أن يقاوم الفرقة الثانية من العسكر فإذا تعرض لهجوم تحميه الرجال الذين كمنوا في الكروم فجعل سلطان من نصه فخاً يطارده العسكر حتى يدفعهم إلى الاقتراب من المكمن حيث يصبحون هدفاً سهلاً لسلاح الكامنين،

(1) الدر المصنوع، المنير دار الرائد ص 76

(2) المرجع السابق ص 77

استمرت هذه المعركة أكثر من خمس ساعات بهزم العسكر على أثرها بعد أن قتل وجرح منه كثيرون ولم يقتل من المدافعين سوى رجل واحد هو ابن مبارك

هذه المعركة التي اشترك فيها ووصفها بدهة نفس المؤرخ حنايا المنير بعد أن استبدل لباسه الكهنوتي تظهر موهب جهجاه الحارقة في رسم الخطط الحربية الناجحة والتي تعتمد عالياً على عنصر الملاحاة والسرعة والتي يمكن الاستعانة بهما، بالإضافة إلى الشعاعة والمراس، عن لتفوق الكامح هي العدد والسلاح.

جهجاه والجزار

تولى أحمد الجزار ولاية الشام بالإضافة لى ولاية عكا سنة 1790م، فأراد أن يسدد حساباته القديمة مع جهجاه فاتفق مع بشير شهاب على عزله والاستعانة على انعام ذلك بحرفوشي آخر هو قاسم ابن الأمير حيدر، فحضر الإثنان عسكرياً سار من دير القمر وانضم إليه خمسمائة رجل من رحلة والمث من الأمراء النعميين وكان جهجاه في دمشق فالتقى العسكران في أنطح فانتصر عليهم وهربت فرسان الحبل، وأما الرثم فأدركتهم رجال أبو ملحهم، الذي من قبل مرومته، كان معه على رجاله أن لا يقتلوا أحداً بل يشلحوهم فقط سلاحهم وكتائبهم ويظلموهم. وقد قصص على الأمير مراد بن شديد اللامي فأعاد له حوائجه وهرسه وأطلقه مكرماً لأجل صداقة أبيه وكان رجال جهجاه أقل من ربع العسكر المهاجم ولم يخسر في هذه المعركة سوى أربعة رجال فقط

يقول مؤرخ معاصر في وصف هذه المعركة⁽¹⁾

«كان جهجاه جامعاً عسكريه معه في قرية تمسين فجاءا بلعه حضور العدو قام من تمسين إلى أنطح، فلما نظرت عساكر لبنان وقع الخوف في قلوبهم، فهربت الخيالة، أما المشاة فأمسكواهم وأخذوا منهم أسلحتهم بعد أن قتل كم واحد منهم وكان ذلك في 21 حزيران 1790م».

إنها معركة أخرى ينتصر فيها جهجاه بدون قتال رغم قلة حذوده إذ أن هيئته وسميته قد تمكنت من النفوس بحيث أن لعسكر يسرع إلى الهرب من أمامه بمجرد حصوره دون حرب ولا طعام، وهذا شيء عريب في لعنم العسكري سيما وأن من يؤرخ

(1) حصر هذه المعركة القس حنايا المنير أيضاً ووصف أحداثها، ويقول إن رجال جهجاه كانوا أقل من ربع العسكر الذي هاجمه ص 66 - 67 وذكر الأمير حيدر تفاصيل هذه المعركة بما لا يخفى عن ذلك ويرى أنها وقعت في أواخر سنة 1789م (تاريخ حيدر قسم 1 ص 50)

للمعركة هو معاصر وشاهد يقيم قريباً من مكانها. ويظهر في هذه المعركة ملامح المروسة والتبل في أحلاق جهجاه، فقد كسر مهاجميه وأخذ منهم جملة سلاح وخيل وما أراد أن يقتل أحداً منهم وقبض على الأمير مراد ولا وصل إليه أطلقه.

أراد الأمير بشير أن يشار لهزيمته ولا يبدو ضعيفاً أمام الجزار فجهز عسكرياً كثيراً جمعه من كل البلاد وعلى رأسه أخوه الأمير حسن وكاخيته ناصيف آغا وعدد من الأمراء اقاربه ومشايخ الدروز فلما علم جهجاه سار على خطته نفسها بإخلاء المدينة والقرى من الناس ومن العداة أيضاً فقد كان في دار المطران قنطاران من الربيب فأمر أن تعلق للخيل لكي لا يجد المهاجمون ما يستعيدون منه عند وصولهم وذهب إلى اللبوة للاستعداد للحرب⁽¹⁾ ولما وصل المهاجمون إلى بعلبك انهمكوا في أعمال السلب والنهب حتى إن الدروز الذين معهم نبتوا المخدبة في دار المطران وأخذوا كل ودائع البصاري ومصاغهم⁽²⁾ وثقل العسكر على الأهالي وهرصوا عليهم تقديم الدخائر⁽³⁾.

ولكن يبدو أن الذي أمرهم بنسبر وهو أحمد الحرارة اقتنع بعدم جدوى العسكر فأمرهم بالعودة فحصروا إلى دير نهمر بجبلة وعاز عظيم على الأمير بشير وأخيه حسن وعلى الأمير قاسم الحرفوش وعلى كل أمر الجبل وعلى الدروز أيضاً⁽⁴⁾ من الواضح أن الحرار شعر بعدم قدرته على اختلال بعلبك مع حامية بشر شهاب والمصاة على جهجاه، فعهر بعد شهر من حملة دير النمر وعودتها مخزية حيثاً من عساكر دولة ومقاربة كثيरी العدد وبعض مشايخ الحبل وأرسلهم مع الأمير قاسم الحرفوش وهو شاب يافع في السابعة عشر من عمره ولكنه يستعمل كهدف عسكري من شأنه الحد من المقاومة المحلية لكونه من الحرافشة وابن الأمير حيدر صاحب الأثر محمود عند أهالي الإمارة.

عند وصول العسكر انسحب جهجاه أمامهم متظاهراً أنه هارب⁽⁵⁾ ولكنه عاد ليلاً إلى بعلبك فأحرق بيادر تمنين ورباق ونهب ما وقع تحت يده لمنع العراة من الاستمادة منها وانسحب إلى رأس بعلبك هذه المرة بينما دخل قاسم إلى المدينة وبقي برها خربان والأهالي هاربة ولكن جهجاه ما لبث أن ظهر هجأة في رأس العين في بعلبك في أحد أيام حزيران 1771م وحارب قاسم وانتصر عليه وقتله

(1) حوادث لبنان وسورية، كرامه ص 116

(2) المرجع السابق نفس الصفحة

(3) المرجع السابق نفس الصفحة

(4) المرجع السابق ص 116

(5) الدر المصوف ص 117

مع اثني عشر شخصاً⁽¹⁾ ودخل إلى بعلبك وملك المدينة بسيطة وحكم بها.

لم تهدأ الحرب بين الحرار وجهجاه حتى تدرج عرله من ولاية الشام سنة 1795م، فاستمرت الحملات تتوالى من دمشق إلى بعلبك ولكن حنكة جهجاه وشجاعته لم تتركها لها محالاً لتحقيق أي هدف سياسي فتعود فشلة بعد أن ترك آثار التدمير والخراب والقتل في أمكة مرورها، وسأتى باختصار شديد على بعض هذه الحملات وكيف واحدها أمير بعلبك النصارى.

بعد مقتل قاسم الحرفوش ودخول جهجاه إلى بعلبك أرسل الجرار عسكرياً لمهاجمة المدينة والقبض عليه أو قتله فانسحب جهجاه إلى الربداني هذه المرة حيث جمع رجالاً وهاجم بعلبك فقتل نحو ثلثي العسكر ودخل لسرايا. وحاء في بعض المصادر إن شهابي وادي التيم أعانه بمائة درزي قاتلوا معه⁽²⁾.

دفاعاً الجرار الكرة بعسكر أكبر فانسحب إلى حوص الأمير سلمان تحت رحمة فتبعوه إلى هناك في 20 كانون الثاني 1792م فهاجمهم وقتل خمسة عشر رجلاً منهم وطردهم إلى المرعون في آخر البقاع وعاد إلى قب الباس⁽³⁾.

في شباط من نفس العام أمر الحرار بعسكر الشام في البقاع أن يهاجم جهجاه حيث هو في قلعة قب الباس فانسحب إلى الشمال وتبعه لعسكر وهبوا للفرار وأصبح ولما عجزوا عن جهجاه قتلوا في طريقهم بعض لرعاة من الأولاد وبعثوا برؤوسهم إلى الحرار فلما رآها عرف أنها رؤوس رعاة مواشي فحق على جنوده وأرسل لهم يقول: «نقد أرسلتكم لتقطعوا رأس جهجاه الحرفوش و بتم لم تستطيعوا إلا قتل الأولاد فتركوا البقاع هاربين إلى عكا وأراحوا البلاد من شرهم»⁽⁴⁾.

ويقول مؤرخ آخر: «إن العسكر قتل سبعة عشر ولداً من الرعيان وأرسلوها مع دالاتي حملها إلى رجل فلاح وذهب بها إلى عكا ضد الجرار فلما وقف على رؤوس الأولاد رعيان البقر محاليل السكرواح اسحبهم ذلك من حاملهم وعرضه على الحرار فحق وقال لهم أنا أمرتكم لتقطعوا رأس الأمير جهجاه وأنتم قطعتم رؤوس أولاد رعيان مواشي وطلب العسكر إلى عكا»⁽⁵⁾.

(1) تاريخ الأمير حيدر ج 1 ص 151

(2) دولي لقطوف، المجلد ص 272

(3) المرجع السابق

(4) المرجع السابق

(5) تاريخ سوريا ولبان، كرامه ص 127.

وكانت احر حملة شنها الحرار على بعلبك في السنة الأخيرة من ولايته الثانية على الشام ولم تختلف عن سابقتها، فقد اصحب جهجاه إلى رأس بعلبك وأحلى الناس بمن هبهم الرهبان، و تعطل موسم القر يد كن قريباً وعاد عسكر الحزار معدولا كمادته

نجح الحرار في اجتياح جبل عامل وقتل زعيمه الأكبر وشرد أهله، كما مجع عثمان باشا وأولاده في تنصيب يوسف شهاب ولياً على جبيل والبترون وحبّة بشري وكسر شوكة الشيعة في جبل لبنان، إلا أن هذه القوى القادرة ومن يحركها ويقف وراءها فشلت في النيل من جهجاه الحرفوشي رغم محاولاتها المتكررة بسبب عبقريته العسكرية المدة وجرأته القتالية المأدرة وهذا ما حبط للشيعة في سائر أنحاء لبنان ملجأً أمناً يأوون إليه وبقطة انطلاق يتحركون منها ويتحصنون فيها وهكذا استطاعوا الصمود أمام المخططات الهادفة إلى إخمادهم وبلاشيهم كما توقع الكثيرون، ولجهجاه في منع ذلك فصل لا يُحصى

نهاية جهجاه

إن النكبة التي أُنزلها والى عكا والشام أحمد الحرار بالأمير مصطفى وأولاده وسائر الحراشه سنة 1784م ذهب التاجين منهم إلى النصارى والانتماء حول جهجاه ابن مصطفى لاستعادة امارتهم فكان شقيقه سلطان هو وزيره وقائد عسكره ورفعه في معظم المعارك التي حاصها الأخوان بوجه الحرار وغيره من ولاية الشام وحكام الشوف وسائر الساعين لتقويض الإمارة والطامعين فيها.

بعد موت الحزار 1804م تحسنت علاقات الحرافضة مع الأمير بشير بعد أن كف عن التدخل في شؤون بعلبك بسبب مطامعه لشخصية أو تنميذاً لأوامر الحرار أو غيره من الولاة، وتوقف الضغط العسكري على جهجاه لسنوات عدة انصرف فيها إلى تثبيت أوضاعه وتمتين حكمه سيما بعد أن تحلص من منافسة أولاد عمه عمر بالقضاء عليهم (1794م)، فاستقبل الأمير مشير الشهابي في بعلبك وقدم له الدخيرة (13 ك 1 1799م) وأرسل شقيقه سلطان بعسكر إلى جبيل بصحبه جرجس بار القادم من بلاد صنف، كما سعى لضم الهرمل إلى أقطاعه بعد أن قتل أربعين رجلاً من أعوان الحماديين المعارضين لذلك⁽¹⁾ وعين فارس الشدياق مدرراً لشؤونه⁽²⁾.

(1) تاريخ بعلبك بصر الله ص 295 وأمر الحسن الشهابي ص 425

(2) أخبار الأعالي الشدياق ص 118

عندما تردد والي دمشق الجديد كنج يوسف باشا في إرسال طع حكومة بعلبك إلى جهجاه نادر إلى جميع الرجال وبشر الصي يظهر للوزير أنه وحده القادر على حفظ زمام الأحكام وإدارة شؤون تلك الجهات. فأرسل إليه الطع بوساطة الأمير بشير وحرص ناز ولما كان الأمير بشير يطمع منذ زمن بقرية الكرك من أملاك الحرافشة، تنازل جهجاه له عنها وكتب صكاً ببيعها لأولاده قاسم و خليل وأمين وأرسله له فوكل هيها نعمان بلوك باشي وصارت في ملكه. ويسدو من أبيات قائلها بقولا الترك بهذه المناسبة أن الأمير بشير اعتبر تملكه لبلدة الكرك حدثاً مهماً وسعيداً وحديراً بتقبل التهاني والمدائح. وهذا الصك هو كل ما استطاع بشير أن يشبع به طموحاته الواسعة في حكم النطاق والسيطرة على أراضيه وقسم منها

فحزرت واردة بعد الإهانة

كما كرك البلاد بك استعارت

جهازاً أنها لك مالكة

وقد جاءت براءتها نكادي

بدأت نوادر الشقاق بين جهجاه وأخيه سلطان في سنة 1808م فرحل الأخير إلى حمص مستاء ولم يرجع إلى بعلبك إلا بعد تدخل الأمير بشير في الصلح بين الأخوين ولكن الخلاف تجدد في العام التالي 1809م فعزل سلطان والي الشام كنج يوسف باشا، ودفع له ثلاثمائة كيس فمسه مكان أخيه وأصبحه بمسكر دولة فقام جهجاه إلى الكرك وأرسل عياله إلى عكار.

كان على جهجاه أن يقابل والي الشام ليعود إلى مركز إمارته. ولكن الأمير المائل الحذر من هذه الدولة ورجالها والخير بوعودها والذي عاهد نفسه أن لا يملكها منه، رفض مقابلة باشا دمشق وترك رحلة إلى عكار مع بعض أنصاره وحيم مثل بدو الصعراء في أراضي علي بك الأسعد⁽²⁾ فاستاء منه بشير شهاب واستجف به وتركه وبقي مصراً على رفض مقابلة الباشا حتى بعد تدخل الملا اسماعيل⁽³⁾. فاستمر صراع الأخوين بتشجيع من ولاية دمشق الذين يمترون الاثنى معاً، فتبادلا الإمارة والمنفى أكثر من مرة والتحا سلطان إلى عكار عند عبود بك قريب علي بك، وحينما عاد أميراً من

(1) مالكة هي الأراضي التي يملكها مات دون أن يكون لورثته حق التصرف بالبيع

وعلي بك الأسعد هو من أميين المربية في عكار وولي D D C T4 P23 (2) طرابلس (1824 - 1826م) توفي 1827م ابن عم عبود بك صديق جهجاه

(3) متعلم حماه 1810م غضب عليه سليمان باشا فالتحا إلى الأمير جهجاه في بعلبك حتى عاد إلى منصبه في نفس الوقت من العام (تاريخ الشهابي ج3 ص 572)



الأمير حجاج الحروشي

حدث فرّ حجاج إلى الصنبر هذه المرة ثم إلى الهرمل منتظراً سائح مساعي صديقه الدائم اسماعيل في حماه. ثم تركت الحيرة من حكم حجاج بدراعه مع أخيه سلطان، فكان الأميران يساويان على الحكم مما سهل ليدشوات دمشق التدخل في شؤون الإمارة والعائلة التي سقط منها في معارك لأخوين حمسه عشر أميراً كما يقول أحد الرحالة الغربيين، الذي عرف بعيبك وأميرها حجاج وقال عنه أنه يقيم في بعيبك ويحتمط حوله بمائتي مدرس منوالي. وقد قابله رحالة أوروبيون كثيرون وخصوصاً من الإنكليز وتحدثوا عن قسوته ومطامعه⁽¹⁾

أمضى الأمير حجاج سنواته الأخيرة متنقلاً بين الإمارة في بعيبك والمنفى في عكار أو الهرمل حتى وفاته أميراً في 17 آذار 1817م دون أن يقابل والياً عثمانياً إلا في ساحة القتال

عند وفاة حجاج كان ولده نصوح في ثمانية عشرة من عمره فسار به عمه الأصغر أمين إلى دمشق والتمسوا من واليها صائح باشا حكومة بلاد بعيبك فأعطاهم الخلع وهرب سلطان إلى الهرم والتجأ إلى بيت حمادة مشايخ لمقاطعة⁽²⁾.

(1) Travels in Syria and the Holy Land, by John Lewis Burckhardt chapter 1

(2) تاريخ الأمير حيدر ج 3 ص 633

الفصل الرابع

بعلبك تحت الحكم المصري

الأمير أمين بن مصطفى

هو ابن الأمير مصطفى وشقيق الأميرين جهجاه وسلطان تولى الإمارة بعد موت أخيه واستقل بحكمها سنة 1825م رغم دسائس الأمير بشير الشهابي لدى والي الشام ولما دخل ابراهيم باشا إلى المدينة رفض الأمير الحرعوشي التعاون مع المصريين وظل موالياً للعثمانيين ما أعلن تمرده وقرر إلى البحر يتنقل من مكان إلى آخر مطارداً من القوات المحتلة وقد فشلت الجهود للدولة لنعمو عنه والتي شارك فيها عدوه القديم الأمير بشير لأنها اشترطت أن يقابل ابراهيم باشا شخصياً، ولكن الأمير أمين رفض مقابلته خوفاً من عذره أو ربما خوفاً من عذر الأمير بشير وأن يكون مصيره مشابهاً لمصير ابن عمه جواد بعد ذلك.

استمر الأمير أمين يحوب القرى والأرياف مع عائلته وولده قبلان هاربين ومطاردين وقد أظهر قبلان من صروب الصروسية والضجاجة ما أصبح حديث الناس يتناقلوه رواية وشعراً ثم تركا البلاد إلى العاصمة اسطنبول حيث قوبلا من أصحاب الشأن بالتكريم والاحترام وعاد الأميران بعد انسحاب ابراهيم باشا⁽²⁾.

(1) تاريخ بعلبك نصر الله ص 303 ونسب له أنه كان وراء مقتل ابن شقيقه جهجاه الأمير بصوح
(2) أخبار الأعيان الشديوي ص 449 تاريخ بعلبك كروف ص 102 جمع قبلان كالعديد من أفراد أسرته
مجد السيف والقلم فترددت سيرته كمقاتل بطوري مدغم الغمر انبعلبكي هي بقائها حية في الوجدان
الشعبي حتى اليوم

في يوم حمص فذاك يوم ثان
معه وما لاقوا من الخدلان

سل صته يوم القرينين وقسه
وسل الهشادي ما لقوا لما النقوا

الأمير جواد بن سلمان

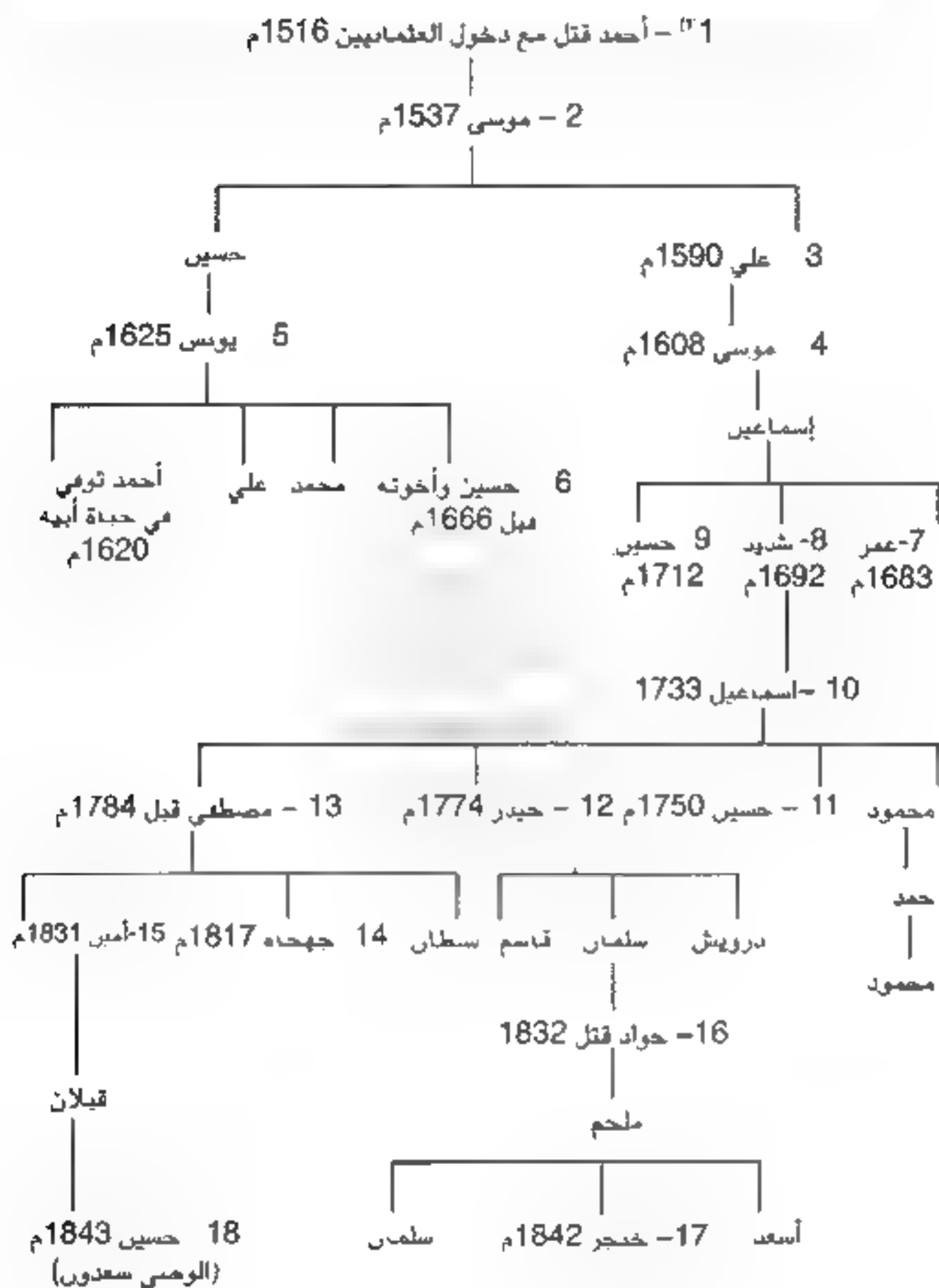
تولى إمارة بعلبك عند دخول المصريين الأمير حواد الحرفوشي سنة 1831م ولكن سياسة ابراهيم باشا كانت تقضي بالتخصيص تدريجياً من جميع الحكام المحليين الذين كانوا يدعون مالاً معلوماً للحريبة فعينت هؤلاء الحكام مأمورين من طرفها براتب محدود قد لا يساوي عشر إيراد بلادهم السابق ثم عمدت لعرلهم وتعيين موظفين غرباء مكابهم⁽¹⁾.

حتى الأمير بشير الشهابي نفسه حليف محمد علي ورجله في بلاد الشام الذي أحضر من والي مصر محمد علي أمراً حارماً بخصوصه لشريف باشا أن يتصرف في لبنان مستملاً كعادته، فهذا الامتياز صار نصيباً عليه وصار يترقب فرصة يهيئ بها شرف الأمير، فرجع أولاً استقلاله وراء ال حرفوش في بلاد بعلبك ورتب لهم معاشاً⁽²⁾ وعزل حواد عن إمارة بعلبك وعيّن موصيه أحمد آغا الدردار فكان ذلك سبب عصبانته على الدولة المصرية فأخذ يحرك الفتن عليها ويحول من مكان إلى مكان إلى أن أدركه يوماً بقرب بيروت ملتبساً فارس أكراد أرسلهم شريف باشا المصري حاكم دمشق عليه وكان مع الأمير جواد أبناء عمه الأمراء محمد وصاف وعيسى وسعدون وثلاثون فارساً فجمعهم بعضهم على حمص واقتتل المريقان، وفعل الأمراء الحراشة فعلاً خلدت لهم ذكراً جميلاً فانهزم الأكراد وقتل منهم أحد أمرائهم عجاج آغا وذهب بعد ذلك الأمير جواد إلى بلاد حمص وقد تفرقت عنه أصحابه وبينما كان في محل يدعى الحريشة دهمه ثمانمائة فارس من الهنادى فرسان ابراهيم باشا وأخذوا يطلقون عليه الرصاص ثم أمسكوا عليه جسر التل المنسوب على العاصي الذي لا بد له من المرور منه للتملص منهم فحينئذ هجم عليهم هجمة وفرق جمعهم بصرب الحسام ومرو منه بعد أن قتل منهم نحو عشرين فارساً وهر هارباً، غير أنه ما برح لا يأمن على نفسه ورأى أن العصيان لا يجديه نصراً وأن لا مناص له من يد أعدائه فاستأمن للأمير بشير وطلب منه أن يأخذ له الأمان من ابراهيم باشا إلا أن هذا كان يكرهه فخافه وسلمه إلى شريف باشا حاكم دمشق فأماته شرمية⁽³⁾.

(1) مستخبات من الجواب على اقترح لأحباب مشافة ص 122

(2) مستخبات مشافة ص 122

(3) تاريخ بعلبك لوف ص 45.



(في الفترة الأخيرة المضطربة بساود حمد ومحمد ومحمود وخنجر وشديد ويوسف بن حمد على الإمارة)
(1) الأرقام تشير إلى تسلسل ترتيب الأحكام الخوفاشة

يروى محسن الأمين في أعيان الشيعة نقلاً عن كتاب حوادث الشام أن الأمير جواد سكن بعد عزله في بيروت وجعل له ابراهيم باشا 1150 قرشاً راتباً لقله ذات يده وكونه من اشراف الناس وبعد ذلك صدر أمر بتوقيف صرفيات الكتاب والمتسلمين والنظار لكثرة النصفات وبقيت الصرفيات موقوفة ثمانية أشهر ولما كان الأمير جواد جواداً كاسمه وقلّت ذات يده جمع إليه جماعة وحرك معه أولاد همه الأمير حنجر والأمير محمد وصار يقطع الطريق وصارت له شهره عظيمة وهانه الناس ثم أرسل كتاباً إلى رجل اسمه عبد القادر أغا حطاب بأن يأخذ له مرسوم الأمان من الوزير شريف باشا حاكم دمشق من قبل ابراهيم باشا فأخذ له ذلك المرسوم ثم كاتب الأمير جواد الأمير خليل الشهابي أن يحصر إلى دمر ليدخل معه لمواجهة الوزير فدخل دمشق وواجه الوزير شريف باشا وبقي في دمشق أياماً وجعل يعين عنده خيالة وطلب شريف باشا إلى ابراهيم باشا أن يجعله (سرسواري) رئيس خياله ولكن خلافاً قديماً حول اتهامه بمقتل أحد الاكراد فجدد بيته وبين أحمد أغا اليوسف وشمدين أغا من رؤساء اكراد الصالحية ولما أن شريف باشا شدد عليه قليلاً وتكونه أي النص شجاعاً ركب وخرج خارج البلد وبعث إلى أحمد أغا اليوسف أنه إذا كان له عنده حق فليخرج إليه لئلا يمسى عليه ذلك الحق وكان بين اكراد الصالحية رجل يسمى عجاج أغا وهو منسلم جبل دروز حوران وهو من الرجال المشهود لهم بالروسية فاستأذن الوزير وأحد رجاله وتوجه إلى ناحيه النبك فبلغه أن الأمير جواداً في دير عطبه فلما بلغ الأمير جواداً حصوره ركب وخرج من القرية وصار الحرب بينهم وقتل عجاج أغا وخرج الأمير جواد واشتد خوفه لكون أحمد أغا يخص الأمير بشير وتوجه الأمير جواد إلى عند بشير فقبل وصوله أرسل الأمير بشير جماعة فكمنوا له عند جسر القاصي وقبضوا عليه وأحضروه إلى الشام فأمر شريف باشا بقتله فقتل⁽¹⁾

إن هذه الرواية رعم عرابتها تعيد أن الأمير جواد عصا على المصريين فأرسل شريف باشا عجاج أغا لقتاله فقتله جواد وذهب بسند الأمان عن طريق بشير وبوساطته ولكن بشير تذكر حلافهما القديم فسلمه إلى شريف باشا في دمشق حيث قتله سنة 1248 هـ - 1832 م.

يحيط الغموض بنهاية جواد وقاتله. هل قتاله الأمير بشير عدواً أم سلمه بحيلة إلى

(1) أعيان الشيعة، محسن الأمين ج 6 ص 380

شريف باشا فقتله؟ أم أن بشيراً سعى فعلاً إلى الحصول على عمو له غير أن شريف باشا قتله بدون رضا وسعيه. المهم أن حواراً بين متمرداً حتى مقتله وقاتل المصريين في كل مكان لتعذر قتالهم في بعليك نفسها هي تقرير دبلوماسي أرسله القنصل الفرنسي في طرابلس بيروثيه (PERET E) إلى وزير خارجية فرنسا المارشال سولت بتاريخ 7 حزيران 1839م يعيد أن مدير طرابلس لم يحقق أي نتائج في سعيه إلى مراقبة المتمردين في حوار عكار ولقضاء عليهم بسبب الخوف المسيطر من هذه العصاة المؤلفة من نحو خمسمائة رجل وعلى رأسهم الأمير حواد⁽¹⁾.

من بين الذين وصفوا نهاية الأمير حواد من معاصريه أحد المقربين من الأمير بشير والذي عمل مديراً عند الشهابيين لفترة من حياته، فسرد هذه الرواية التي تؤكد أن مقتل الأمير حواد كان رغم إرادة بشير، وأن الأمير حواد كان عاصياً لا يستقر مكان وقد عجز المصريون عن الطمأنينة حتى سئمت نفسه في الفرار والمطاردة فوجه إلى دير القمر مع ثلاثة من حواصده وطرح نفسه في سجن المجرمين فأخرجته الأمير بشير ووعدته بالسعي عند الحكومة للعمو⁽²⁾، ولما كان إبراهيم باشا بعيداً هي حلب كتب الأمير إلى الحكمدار شريف باشا فحاء جوابه برسالة الأمير حواد ورفاقه إلى دمشق سريعاً وسأل الأمير محمود الشهابي⁽³⁾ وكان في دمشق إذا كان جده يعتاظ في حال قتل الأمير حواد فأرسل محمود ليجبر إلى جده بسرعة ورجع الحواري قبل وصول حواد إلى دمشق ومعه رسالته ليجري بك⁽⁴⁾ تلتزم عدم قتل حواد واستبدال العقوبة كونه سلم نفسه طائعاً فحاول بجري بك اقتداع شريف باشا بالعودة عن عزمه والخطار إبراهيم باشا حتى يبت بالأمر فرفض وكتب إلى إبراهيم عن رغبته في قتل حواد وعند وصوله أحضره لديوانه وأجلسه وتكلم معه طويلاً وصرفه ثم الحواري به المأمورين بقتله مع أتباعه فقطعوا رؤوسهم أمام باب السرايا مما أوجع الأمير بشير كثيراً وحاب أماله بالمصريين وصار يتربص منهم روال نعمته كما أراؤوا، نعمة غير⁽⁵⁾.

تحاول هذه الرواية تبرير قتل حواد الحرفوشي وتنمي لخبائة والقدر عن الأمير بشير، وأن القتل جرى رغم إرادته وبعيداً عن تدبيره رغم أن راويها هو من أهل الدراية

(1) D D C. T5 p421

(2) حميد لأمير بشير الشهابي.

(3) أحد أركان الحكومة المصرية في دمشق.

(4) منتعبات في الجواب على اقتراح الأحزاب مشقة ص 138 ومن بواضع أن مشافة مطلع على الحقيقة ولكنه يداري شرف الأمير بشير بذكر خلافه.

والعلم وقد مارس أعمال الحكم كما أنه ملّم بالتقاليد المرعية والتي تقضي بحماية التوقيع والدفاع عنه في جميع الظروف وأن من حسن التدبير أن يكتب بشير إلى شريف باشا يستصدر منه عصواً على جواد قبل أن يسلمه إليه وإذا صجز عن ذلك ينأى بنفسه عن التدخل بالأمر والتعهد به ويعلم وقبعه بحقيقة الحال».

ولكن يبدو أن ميخائيل مشاقة والمؤلف المجهول لذي نقل عنه محسن الأمين يحسان الأمير الحرّوشي حقّه مرتين الأولى في رواية مقتل عجاج آغا الصابط المصري وما نتج عنها، والثانية محاولة مشاقة تبرئة بشير الشهابي من المساهمة في قتل حواد والعدرب بعد أن أمته وكمل تسليمه إلى محمد شريف، وهذا عمل مشين ومستنكر يشانه ما قام به سلمه وابن عمه يوسف بتسليم عدد من آل علي الصغير إلى الحرار بعد أن أمهم واسكنهم تحت حمايته هي مشعرة وهذا ما كشفته الوثائق المصرية الرسمية وباعتراف صريح من الشهابي نفسه الذي يناقض هذه التبريرات.

كان الأمير حواد شجاعاً نبياً كسائر عشيرته⁽¹⁾ ثار على ابراهيم باشا بعد أن دخلت جيوشه بعلبك وحولتها إلى مركز عسكري قيدي في حربها ضد الدولة العثمانية وحملات القمع التي تشنها على المتمردين وقد وحّه الحملات المصرية التي كانت تطارده في أماكن كثيرة بشجاعة بادرة اشتهرت بين الناس والهمت الشعراء قصائد بمدحه والإشادة بشجاعته⁽²⁾ وقد بقي بقايل المصريين حتى معركة دير عطية التي رونها وثيفة مصرية أرسلها حاكم دمشق الحكمدار محمد شريف إلى لقائد العام ابراهيم باشا جاء هيها.

«عندما وصلت قافلة الجمال التي كنت تحمل أحذية الآي الصارديا المشاة الأول في دمشق إلى النيك علمت بوجود الأمير جواد وعصائته في تلك النواحي فخشبت أن تستمر في طريقها إلى حماه وأرسلت تعلمه بواقع الحال فأرسل عندئذ قوة من الفرسان بقيادة عجاج آغا ولدى وصول هذه القوة إلى النيك تبقت أن الأمير جواد ورجاله في دير عطية فتابعته سيرها إلى هناك واشتكت مع شردمة الثوار في قتال أسمر عن جرح الأمير جواد وقتل الأمير خنجر والأمير محمد والأمير هندي من

(1) أعيان الشيعة الأمير ج 6 من 380.

(2) وهي كثيرة ومنها للشاعر البعلبكي محمد الحسين المرتضى

إذا أتى وديون المجد يقصيهها
من حظه فتعالى الله معطيها
يهي الأهالي ويمنو عن تمديها
على البلاد فيا طوبى لأهلها

يحمي البريل وبلقي الصيف مستمياً
كل الكمالات رب العرش صيرها
حلم وعدل وجود وافر وهي
جواد قد جاد رب العدين به

الثوار وقتل عجاج أغا واحد البلوكباشية و لمرسان من جانب السلطة.. ويصيد أنه كتب عندئذٍ إلى الأمير حمد متسلم بعلبك ليتعقب لأمير حواد والبقية الباقية من جماعته، وأنه عين شقيق عجاج أغا رئيساً على فرسانه في السويداء إلى أن يصدر الأمر بتعيين حلف لمصاح المذكور وقد ورد في دبل هذه الرسالة الكلام التالي، لقد كتب إلى اسماعيل بك وخمستان بك وشريف باشا بالقبط على الأمير جواد توطئة لاعدامه في دمشق⁽¹⁾.

خرج حواد من المعركة حريصاً بعد أن فقد ثلاثة أمراء من قادة الحرافشة، وربما تدخل بعض الوسطاء من معارف العائلتين الحرفوشية والشهابية لتسوية موضوع حواد بالاستعانة بمكانة الأمير الشهابي عند السلطات المصرية المتعمدة، والتفاليذ والأعراف تفصي بأن الكميل إذا وجد في نفسه القدرة والأهلية والرغبة في القيام بتسوية الخلاف كما يسمى تطوع لذلك، وإذا كان لديه أدنى شك في اتمام الموضوع على الوجه الصحيح يبقى بعيداً عنه لئلا يلحقه عار القتل وورر لنتيجة

ولكن الشهابي كما يبدو من رسالته إلى محمد شريف، وجد في سليم حواد إلى جلالة خدمة يقدرها الحاكم المصري ويتقرب بها إليه دون الاهتمام باعتبارات المروءة والنحو وعادات البلاد وأعرافها

نميد رسالة بتوقيع الأمير بشير الشهابي مؤرخه في حمادي الأولى موجهة إلى محمد شريف باشا، تعرض أنه لئلا تاريخه الحممة نحو الساعة الواحدة من الليل فلم تشعر إلا والأمير جواد الحرفوش حصر لمحلنا وقيعاً مترامياً وحيث أننا لا محل لنا ولا وقيع إلا رضى هذه الدولة السعيدة فعلاً وصنعناه تحت الترسيم لكي نوجهه إلى أعتاب دولتكم ويكون الأمر به لسعادتكم وبعده سيصل محفوظاً والآن لأجل احاطة العلم السامي بذلك اقتضى تقديم هذه العريضة عجالة⁽²⁾.

يتضح في هذه الرسالة أن بشيراً يعتبر الحرفوشي وقيعاً لا أسيراً أو سجيناً والوقيع كما هو معلوم هو الذي يصح مصيره باختياره بين يدي صاحب مكانة يثق به هو وسائر الناس لإنهاء مشكلته على وجه يصمر سلامته وحرية وكرامته وتؤكد هذه الرسالة

(1) المخطوطات الملكية المصرية المجلد الرابع عدد 5936 ص 170 بين هذه الوثيقة حقيقة معركة دير عطية ومقتل عجاج أغا وتؤكد عدم صحة ما نقله صاحب «لأعياض عن كتاب حوادث الشام» واتهام الأمير حواد بمقتل الكردي. وإن معركة البلك حصلت بين عسكر مصري وثائر على هذا الحكم.

(2) المصدر السابق رسالة بشير عدد 5960 ص 182

الواضحة المقاصد أن بشيراً رغم اعترافه بأن حواداً هو وقيعه ومع ذلك يصع مصيره بين يدي محمد شريف لأن كل ما يهمه هو رضى هذه الدولة السعيدة، وكأنه يحث الحاكم المصري على قتله دون الاهتمام بالاعتبارات الأخرى، وخصوصاً ما قد يلحقه من أذى معوي وانعكاس ذلك على حرمة ومكانته الاجتماعية والأخلاقية والعشائرية.

وهذا ما تؤكد رسالة محمد شريف بن إبراهيم باشا في حمادى الأخرى 1255 حول القبض على جواد وهي تتضمن مخصصاً لكتاب بشير إليه حول التجاء جواد واستعداده لتسليمه، ثم يفيد بأنه سيأمر بإعدامه حال وصوله إلى دمشق أمثالاً للأمر السريعسكري السامي⁽¹⁾

ثم أتبعها برسالة أخرى تبدأ بوصول أمير حواد إلى دمشق وإعدامه مع ستة من أعوانه مؤرخة في 5 حمادى الأخرى سنة 1255م⁽²⁾

وحد إبراهيم باشا أن بعليك تهدد بموقعها المتوسط كلاً من دمشق وحمص وطرابلس وبيروت وتسيطر هي لوقت نفسه على طريق عسكري شهر يصل شمال سوريا بجنوبها، ويصيق حاداً عند بعليك فطراً لاقتراب السلطتين بمصهما من بعض عظم حاميتها ورودها بكل ما تحتاج إليه نقطة عسكرية محورية لتسعمل بها العثمانيون عن عكا وأمر ابن أخيه عباس أن يأتي إلى بعليك على رأس الأتالي الثاني عشر من المشاة والأتالي الخيالة الثالث وبطاريات ثلاث فعمل وأصبح لديه في بعليك أربعة أليات من المشاة والأتالي من الخيالة ومدفعية كافية.

إن كثافة القوات المصرية في بعليك حدثت من إمكانيه تحريك الحراشة صدهم رغم أن أكثرهم يعارضون هذا الوجود ويتحيزون لفرصة المناسبة للاقتصاص عليه.

كان الأمير أمين والأمير جواد أول من أعاد رهصهما الحصور لإبراهيم باشا وخرجاً إلى البير يقااتلان عسكريه حيث أمكنهما، ثم سافر أمين إلى الأستانة ونقي حواد متمرداً يتجول مع رجاله في كل مكان لمقاتلة عسكري الدولة ودعوة الناس إلى الثورة عليها حتى قتل بيد شريف باشا في دمشق. وكان إبراهيم باشا قد عين بعد عزل حواد حاكماً من رجاله على بعليك هو أحمد أغا الدردار ثم عين بعده حسين أغا وردة ولكنه يبدو أنه اقتنع أخيراً بوجوب عودة الحاكم الحرفوشي فأصبح الأمير حمد الحرفوش أميراً على بعليك تحت النفوذ المصري

(1) المرجع السابق عدد 5960 ص 182

(2) المرجع السابق عدد 5972 ص 187.

الفصل الخامس

آخر الأمراء

الأمير خنجر الحرفوش

بعد إعدام جواد هي دمشق ومقتل رفاقه لأمراء الثائرين في معركة دير عطية، قام الحراشنة هي البقاع وساندهم و لحمداديون في الهرمل وعكار ومتاوله جبل عامل بقيادة حسين البصار بثورة عامه وشاركوا في المعارك الدائرة حتى انسحاب المصريين وسقوط حكمهم الأمير بشير وبنيه إلى خارج البلاد.

هاستولى الحراشنة بقيادة الأمير محمد الحرفوشي على بعلبك على رأس تسعماية من جماعته وسبعماية من المعلقة قرب رحمة، هجموا أكثر من ألف سديقة وأسروا أربعماية من جنود المدينة⁽¹⁾

ورغم أن التحذات المصرية القادمة من حلب دخلت إلى بعلبك من جديد في 10 حزيران 1840م إلا أن الأمير محمود الحرفوشي احتل حصناً قرب بعلبك واستولى على خمسة مدافع وكميات من الذخيرة، وأسر مائتي سدي ثم دخل إلى بعلبك ظاهراً مع غروب شمس 29 تموز 1840م وهي الصباح سيطر على الأبنية ونهب محازبها وأسرى ثلاثماية من العساكر وفر الباقون مستعجدين عثمان باشا المراتط هي رحلة⁽²⁾.

وهي اليوم التالي 30 حزيران غنم الأمير محمود قافلة من ثلاثماية حمل محملة بالذخائر قادمة من حلب، وسقط حراسها لأربعماية أسرى دون أن يبدوا مقاومة ذات شأن⁽³⁾.

(1) D D C T6 P66

(2) D D C T6 P88

(3) المرجع السابق التقرير نفسه

وصل إبراهيم باشا إلى بعلبك وأقام فيها مترقياً التطورات العسكرية ومتابعاً أخبار البوارج الانتكارية التي تقصف مدن الساحل، ثم عقد مؤتمراً في المدينة للتداول حضره شريف باشا والأمير بشير وبكري بك وكبار القادة وعرر قواته هيها حتى وصلت إلى عشرين ألف جندي، وعادت بعلبك مركزاً لقيادته العامة وهي حين كانت التعزيزات المصرية تصل إلى بعلبك من حلب وعك وبيت الدين كانت الثورة على المصريين قد عمّت جميع المناطق في بيروت والحل وكسروان وحل عامل وبرر بين الحراشنة أمير آخر قدر له أن يلعب دوراً مهماً في الأحداث السياسية والعسكرية اللاحقة، وهو الأمير حنجر الحرهوش. في أيامه أعلن الحماديون والحراشنة ثورة مشتركة على المصريين استمرت حتى جلائهم⁽¹⁾.

لعب الأمير حنجر الحرهوش دوراً بارزاً في غالب الأحداث السياسية الخطيرة التي عصمت لبنان في أيامه، فابتدأ ظهوره بمشاركته في الثورة العامة على حكم إبراهيم باشا وتنقل بين مختلف نواحي بلاد الشام جامعاً الرجال للقتال وداعياً العموم إلى الثورة على الحكم المصري فكان على رأس الثوار في كسروان حيث توجه إبراهيم باشا بنفسه مع اثني عشر ألف جندي من المشاة لقتاله وأرسل رجالاً إلى حل عامل لدعم الشيخ حسين الشبيب النصار عندما أعلن تمرد على الحكم المصري الشهابي، وقاتل في بيروت وصواحبها في المكلس والمنصورة وست شاب ودير القلعة وحوبيه وغرير كما قاتل في البقاع والبيك والرداني ودمشق ومرحبيون وبلاد بشارة وصمد وياق⁽²⁾.

التقى حنجر مع أخيه سلمان بالأمير عي للمعي في المريعات، وأنضم اليهم الأمراء اللمعيون والشهابيون بعسكر العامة في الحارمية والدكوانة واشتبكوا مع المصريين في الأشرفية هابهزموا

«وجد الأرنؤود في طلبهم فتبدوا مخدولين. لما علم عباس باشا بتمرق الثالرين أمر الأمير بشير بالقبض عليهم فقبض على حنجر وأخيه وستة رجال من المتأولة وأودعهم الأمير عبد الله الحبس في غرير فلما عرف بهم أهل كسروان هاجموا السجن وأخرجوا الأميرين ومن معهم وانحدروا إلى جونبة ثم إلى المكلس حيث اشتبك الأمير خنجر وجماعته بالعسكر وعلى رأسه عباس باشا وسلمان باشا المرساوي والأمير محيد فأرسل الباشا عليهم عسكر الأرنؤود هزم الأمير خنجر

(1) الامارات الشيعية ص 177

(2) أخبار الأعيان الشدياق ج 2 ص 473

وأحرق العسكر المكمل وبعض المنصورية وبيت مري ودير القلعة. وقصد بيت شباب مع العرعر صر باشا النمساوي ليورغ سلاح على الثائرين، حيث اشتبكوا مع الأمير مسعود حميد الأمير بشير فعادوا إلى جونية،⁽¹⁾

ويقال إنه كان على اتصال وتنسيق مع نستر وود فتصل برطانيا في دمشق وقد لاحق هلول الجيش المصري المنسحب، فالتقى مع الأمير محمد الحرهوش والأمير عبد الله شهاب شقيق الأمير بشير ملحم في الربداني وطلقوا مع فرسانهم إلى الهامة باتجاه دمشق ولكن إبراهيم ترك المدية باتجاه الجنوب فهاهوا الأمير بشير ملحم إلى مرجعيون وسار الحمير إلى صمد عن طريق بلاد بشارة ثم إلى يافا حتى دخل إبراهيم باشا غزة وسار مع عساكره إلى داخل مصر فعاد الحمير إلى بلادهم

إن العداء الذي أظهره الشيعة تجاه الحكم المصري والثورة المبكرة التي قاموا بها، قبل أن تنتشر إلى سائر الجهات اللبنانية هي آخر أيام هذا الحكم، بعد تدخل الدول الأجنبية الساهر للقضاء عليه، دفع الدولة العثمانية المهيمنة إلى الإعتماد على الشيعة في مقارعة خصمها المنتصر فصبحت حجة على مقاطعات جبل لبنان وطلب منه احتلال مدينة طرابلس ومقاتلة أعدائه المصريين حتى أخرجهم، كما يفيد بيورلدي صادر عن عرب محمد باشا سر عسكر في الشام موجه إلى متسلم طرابلس وأعيانها وإلى «افسخر الأمراء الكرام المنتصوب من طرفنا رأساً على كامل أمراء ومشايخ ورحال مقاطعات بلاد جبيل والكورة وجبة بشري وبوابهم الأمير حنجر الحرهوش ريد محده» يطلب إليه وإلى مشايخ هذه المقاطعات بقاء على تعهدهم، «أن يمشوا إلى مدينة طرابلس ويصربوا عساكر دشمن الموجودة بها ويشتتوا شملهم ويخرجوهم ويستولوا على المدينة⁽²⁾» ولا يخرج مصمون هذا البيورلدي عن فحوى الكتاب الذي أرسله جوقموش باشا إلى حمد المحمود متسلم بلاد بشارة يطلب منه احتلال مدينة صمد و«مطاردة إبراهيم باشا والبطش به»⁽³⁾ أو عن الكتاب الذي أرسله محمد رشيد باشا إلى الشيخ سعد الدين حمادة والشيخ أبي نصر حمادة و«شيخ محمد كج حمادة» أعطاهم فيه قول على بلادهم وتمويص أمورها بيدهم، داعياً إياهم «أن تشدوا همتكم بالمجاسرة أنتوا وأهل بلادكم» لمقابله العدو نفسه⁽⁴⁾

(1) أخبار لأعيان، التشدياق 469

(2) أوراق لبنانية مجلد 1955 ص 127

(3) نص الكتاب كاملاً في فصل جبل عامل

(4) المصوغات المنكية المصرية لجزء الثاني أسد رستم رقم 3915 ص 499.

بعد انسحاب ابراهيم باشا إلى بلاده عينت الدولة خنجر الحرفوش أميراً على بعلبك دون معارضة. وفي هذه الأثناء عاد الثائر الحرفوشي القديم وعدو المصريين الأمير أمين وولده قتلان من اسطنبول إلى بيروت ومعه أمراً شاهانياً بولاية بعلبك وأرسل ابنه إلى دمشق ليصادق على الأمر المذكور ولكن والده توفي بينما بقي هو ينتظر في دمشق انتهاء الاجراءات التي يقتضيها التصديق، ولما كان يوماً في القصر الذي نزل فيه ينتظر انتهاء مهمته أقبل نحوه بعض الحشد ليبشروه بصدور فرمان طمناً بإنعامه فظن أنه صدر أمر بقتله فحن من ساعته وبقي مجنوناً حتى وفاته سنة 1864م⁽¹⁾.

حصار زحلة

نشبت الفتى الطائفية في لبنان على أثر انسحاب المصريين وبقي بشير المالطي وتعيين بشير ملحهم مكانه احتاج الدرور دير القمر وبقيت رحلة كبرى لبلدات المسيحيين نفس في حالة قلق خوفاً من التعرض لهجوم درري شبيه بما حصل في الحبل كان وضع الرحليين العسكري حرجاً نظراً لقلة عددهم وانفراد بلدتهم بالوقوع بين طوائف متباينة بعيدة عن حمل لبنان مما يعوق وصول الوحدات بسرعة هضر أهلها أن يطلبوا مساعدة الحرافشة فاتفقوا مع الأمير خنجر وأخوته وأولاد صمه وكانوا رعاء قومهم ورؤساء عشائهم على الدفاع عنهم في حال تعرضت زحلة لهجوم درري⁽²⁾.

تعمل زحلة الأودية الشرقية لسان، وقد دخلها الدرور بفتح الطريق أمامهم إلى قلب المناجق المسيحية، لذلك كان لمركة رحلة أهمية تتجاوز البلدة إلى سائر المقاطعات المسيحية الأخرى فكان الدفاع عنها مسألة بالغة الأهمية بالنسبة للدول الأوروبية وفتاصلها المعتمدين في دمشق، فسعى القنصل الانكليزي السر ريتشارد وود إلى تأمين وقوف الحرافشة بجانب أهالي زحلة واستحصل لهم على إذن من نجيب باشا

(1) تاريخ بعلبك ألوف ص 47

(2) تاريخ زحلة، الملوف ص 164



والتي الشام يميز لهم مساعدة أهالي رحلة⁽¹⁾ ولما توجه وقد منهم شاكين مولولين ترك القنصل الروسي دمشق ووصل إلى البصع وأصر على حنجر الحرهوشي الأمير الشجاع لسطيم فصيلة من المتطوعين المناولة للدفاع عن المدينة،⁽²⁾

كما ساهم ثابت البحمدوسي كآخيه الأمير سمان في التوسط بين أهالي رحلة وسيدته شقيق خنجر لمساعدتهم في رد عماره الدور عنهم وقد وعدوه أن تكون رحلة حمى لبحراشة عند الحاجة⁽³⁾

وفي يوم الأربعاء 22 تشرين أول 1841م دخل الأمير خنجر رحلة مع ستماية فارس تدق أمامهم الطبول بقيادة حسن حميه من طاريا وسلمان الحاج سليمان من بدنايل وفارس الديراني حامل البيرق من قصرنبا⁽⁴⁾ وفي 25 من نفس الشهر زحف

(1) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 315.

(2) سوريا ولبان وفلسطين، باريلى 373 وحول دور القنصل وود يراجع منحيات مشافه ص 140.

(3) تاريخ رحلة المملوك ص 164

(4) تاريخ رحلة، المملوك ص 166، و لرجال الثلاثة من عائلات معروفة لهم في بلاد بعلبك

الجميع بقيادة الأمير حيث جرت المعركة مع الدروز المهاجمين في شتورة وجلالا خارج المدينة فصر الدروز إلى قمل وأصيب رعيهم شبلي العريان برصاصة في بطنه وأخوه علي بأخرى في فخذيه وقتل منهم أكثر من سبعين قتيلاً ولم يقتل من الزحليين إلا ثلاثة وقتل واحد من رجال الأمير فقطع شبلي العريان أذان القتلى وأرسل مع ابن عمه خراعي يطلب العون من الشوف ووادي التيم وحوران فحاجته التجنّات بالخيول والرجال،⁽¹⁾

وهي أول تشرين الثاني كان نحو خمسة وعشرين المأ من الدروز يهاجمون رحلة⁽²⁾ فوضع الأمير خنجر ثلثماية من رجاله في خسق قديم عند البيار وقطع طريق المعلمة فانكسر الدروز وتبعهم أهالي رحلة ورجال الأمير وقتل منهم أكثر من ثلاثماية، وأربعة من أهل رحلة وثلاثة عشر نصراً من المعلقة. كما قتل الأمير يوسف الحرفوشي عند عين المعلمة وأصيب الأمير منصور برصاصة ما لبث أن مات بعدها بأيام في قرية النسي شيت، هذا ما يتناقله أهالي رحلة عن هذه المعركة التي يراها الحجاب الأحمر في شكل مختلف فيقولون: إن صاحب هذا المشروع هو ناصيف بك نكد الذي قصد رحلة مائ وخمسمائة مقاتل من الدروز فأكسر الرحليين الأمر وهاموا وقعدوا ووجهوا كبارهم وأعيانهم إلى الأميرين جبر ومحمد الحرفوشي حكام البلاد العلوية ستمينون بهم وقد حملوا إليهم الهدايا البهيسة فأنجدهم بسبعماية من المتأولة.

«وقف الدروز مترددين أمام مداخل رحلة بين مقدم ومحجم ففاجأهم الأميران الحرفوشيان في خيلهما الحراره فاشتد بهم أرب النصارى فهاجموا الدروز فقرر الدروز الانسحاب ولم تتبعهم الرحالة لأنهم كانوا يتمنون بغيرهم ولم يقتل من الدروز إلا سبعة رجال فقط»⁽³⁾

بعد انسحاب الدروز وصلت فرقة من الجيش السلطاني تحت قيادة رشيد باشا وعسكرت في المعلقة فخاف النصارى أن تكون غايتها المساعدة عليهم كما فعلت زميلتها الموجودة في دير القمر عندما احتلتها الدروز ولكن الأمير خنجر سارع

(1) تاريخ رحلة بطوف من 166 كانت المعركة الأولى بين الأمير خنجر وأولاد عمه وجماعته مع الدروز في ثعلبيا فصرموا العريان فشد الدروز ونكفهم عادوا لمهاجمة رحله ثمانية آلاف محارب، تاريخ بعلبك ألوف 47

(2) يقول الشدياق إنهم كانوا نحو ستة آلاف وانضم إليهم العريان بألف فارس (أخبار الأعيان من 489)

(3) هذا ما ترويّه المصادر الدرزية عن حصار رحلة ويبدو لاختلاف الشديد بين الروايتين، الحركات أبو شقرا من 62.

لمقابلة القائد، وسأله إذا كان آتياً لمساعدة الدرور أم النصارى فأجابه رشيد باشا لست ضد أحد منهم فصححه خنجر بأن المعلقة هي المكان الأنسب للبقاء فيه في هذه الحالة⁽¹⁾

لم يكن خنجر يثق بحياد القائد العثماني خصوصاً أن ما حصل في دير القمر من انحياز إلى الدرور كان معروفاً من الجميع لئلا طلب منه عدم الدخول إلى رحلة والبقاء خارجها في المعلقة فحمى الأمر خنجر رحلة مرتين الأولى من انحياز الدرور والثانية من الدخول العثماني.

أثار موقف خنجر في دهاعه عن رحلة بحب الكثيرين من الدين أرحوا هذا الحدث ومن المعاصرين له يقول باريلى قصص راسب في بيروت (1839 - 1853 م) «لو لم يدافع الأمير خنجر الحرفوشي عن شعاب رحلة ومداخلها لاجتاح الدرور كل لبنان»⁽²⁾.

كان أهل رحلة احتاطوا بمعاهدة الأمراء الحرافشة على مساعدتهم لرد غارة الدرور ووصدوهم بأن تكون رحلة حمى لهم عند الحاجة وقد تم هذا الأمر بواسطة البعمدوني كاحية الأمير سلمان، فألقى إليها الأمير سلمان وبعض بني عمه بحيله ورجاله البعلبكية الشحمان فكسر أهالي رحلة بمساعدتهم الدرور شر كسرة.

ويقول مؤرخ مسيحي معاصر لحصار رحلة:

«بالحقيقة إن الحرافشة المصير ليمس على رحلة فمط بل على كافة النصرانية في لبنان لانه لولا انكسار الدرور في رحلة لكانوا أدلوا النصرانية لدرجة متناهية بعد فورهم السابق على اهالي دير القمر»⁽³⁾.

بقي خنجر أميراً حتى سنة 1842م حيث استطاع لأمراء شير وسعدون وشديد، أن يحصلوا على ولاية بعلبك لحسين ابن قبال بن أمير، وأقاموا له وصياً سعدون لأنه كان صغير السن، فتوفي سعدون بعد سنة واحدة، فاستولى أمير حمد على الحكم وبقي حتى

(1) T7 P 51 Bourée تقرير الفصل بوريه

(2) سوريا ولبنان وفلسطين باريلى ص 374

(3) حصر اللثام عن بكسات الشام مكاريم ص 13 جمط نصر مؤرخين النصارى لخرافشة جميلهم في صد العراء عن رحلة وإبعاد العسكر العثماني عن لدخول بيها بحجة المحافظة كما فعلوا في دير القمر ولكن بعضهم الآخر لعدم تجاهل هذا الواقع فكل ما ذكره انشديق عن الأمير خنجر أنه هر من رحلة بجماعته إلى جهة القردل متأهباً للهروب إن ظلمت الدرور بون أن تأتي على ذكر سقوط أمهرين قتلى هي المعركة هما يوسف ومصور فصلاً عن رحالهما الآخرين (حصار الاميان 489) ولم تف رحله بتعهدا بأن تكون حمى للخرافشة فوشى بعض أهلها بالأمير سلمان إلى العثمانيين في 12 كانون الثاني 1859م

عام 1845م عندما استطاع الأمير محمد أن يحصر أمراً بالتولية مصحوباً بمحمد آغا بوطو على رأس ألف وحسمانية من الحيد لأكراد وحيم هي بر الياس هلاقاء الأمير حمد برحاله إلى تمنين والقي الأميران هي الدلهمية حيث تم المور بعد معركة حامية للأمير حمد فقتل من الأكراد ستين رجلاً وقتل من رجائه ثلاثة فقط. وعاد إلى بعلبك ظافراً.

ولا تزال السنة البعض تردد منشدة أبي تارحلية نظمها الأمير حمد أو نظمها مجهول على لسانه فخرت واشتهرت وفيها يذكر أسماء بعض المعارف التي برز هيها الحرافشة قبله معدداً مآثر قومه ومفتخراً بتاريخهم⁽¹⁾.

ثورة الحرافشة والهجوم على دمشق

إن الفتن المتواصلة بين الحرافشة بالاصافة إلى نوبيا الدولة المرمية بالتحلص منهم وتسليم حكم بعلبك إلى متسلمين من اعوتها أدت إلى صدور فرمان سلطاني بقصي بتحرئة بلاد بعلبك إلى مقاطعات صغيرة على رأس كل منها أمير حرهوشي مما أوجب اسباباً إصافية للمشاحبات بينهم فاستعلب الدولة هذا الواقع وتجاوزت الأمراء استارعين محمد ويوسف بن حمد وشديد وحيدر، ونفى السلطان حكم الحرافشة على بعلبك سنة 1850م.

ثار الحرافشة ودخل الأمير محمد بعلبك وحكم البلاد رعباً عن إرداء الدولة والتف حوله أقاربه وجموع أنصارهم وأعلنوا رفضهم للتجنيد الاحباري والتدخل المباشر للإدارة العثمانية في بلادهم واتجهوا إلى دمشق⁽²⁾، فأرسلت الدولة جيشاً لمواجهتهم بقيادة مصطفى باشا فالتقى الفريقان في قرية معولا في لحبل الشرقي وتحصن بها محمد مع إخوته عساف وعيسى وحنبل وأولاد عمه آل حسن، فحصرتهم العساكر الشاهابية إلى أن دخلتها بوسيلة من أهلها فهرب الأمير حيدر وأولاد عمه وبقي محمد وعيسى وعساف محاصرين في كهف برفصون التميم واستسلموا في القتال حتى هجمت عليهم العساكر فقتلت عيسى وأسرت محمد وعساف⁽³⁾ وعاد مصطفى باشا وطوف بعلبك مع ثلاثة آلاف جندي فعاء الحرافشة مسالمين للتفاوض⁽⁴⁾ ومنهم الأمراء حمد⁽⁵⁾ وابنه يوسف وحنجر

(1) قصيدة شعبية يمدد فيها معاصر قومه وما اشهر من أيامهم موجهة إلى قائد العسكر العثماني ومطلعها
ولك بوطو لا سوق جسد أسم عشائر حصمكم فرسان

(2) مجتمع حبل لبنان في عصر الثورة لصناعية بومبيك شوهاتيه ص 471

(3) تاريخ بعلبك الوفا ص 949 تاريخ رحلة معلوف ص 187

(4) أعيان الشيعة ج 1 ص 340

(5) أمير بعلبك الذي ثار سابقاً على السيطرة بصرية وبعد بفيه استمر ولده محمود ثائراً في لقرى.

وهاعور وشديد وسليمان لكنه عذر بهم وأمر بانقصر عليهم ونقلهم إلى دمشق، ثم نقلوا إلى حريرة كريت مع محمد وعساف وألعت إماره بعلبك وتحولت إلى لواء عينت على رأسه القائم مقام تيمور باشا⁽¹⁾.

أرسل القنصل العام العربي في بيروت لساردا تقريراً إلى وزير حارحة المكوت دولا هيت بتاريخ 8 تشرين الثاني 1850م جاء فيه

« في نفس الوقت الذي انفجرت فيه الثورة في حلب ثار الحراشة أمراء بعلبك والبقاع وقصصوا دمشق ولكنهم حوصروا في معلولا التي غالب سكانها من المسيحيين فانهزموا والقي القبض عليهم ونقلوا إلى دمشق هبما انصرف العسكر التركي كعادته إلى القتل والنهب..»

وصل الأمراء الحراشة عقيدين إلى بيروت واقتيدوا على متن باخرة تركية مبحرة إلى القسطنطينية قال أحدهم الأمير خنجر أنه ليس مدبياً ولم يكن إلا أداة وأنه يحب معاقبه من هو أعلى منه رتبة⁽²⁾

رغم كل هذه المكات استمرت مقاومته الحراشته وقد هرب بعض المبعدين من كريت ومنهم أمير بعلبك محمد ورفض الحراشته كعادتهم لواء الثورة والتمرد من جديد وكان على رأسهم هذه المرة الأمير سلمان الحرفوش.

سلمان آخر أمير حرفوشي

هو من أهم أمراء الحراشة وأحر من عاش ومات كأمر منهم وسار ذكره على السمة الرواة والشعراء ولا تزال أحباره وسيرته تروى في المجالس والسهرات حتى يومنا هذا مثل جهجاه وحواد وقبلان ومحمد وغيرهم من سابقه

لارم أحاه حنجراً وشاركه في معظم تحركاته فقاتل إلى جانبه المصريين والعثمانيين ودافع عن رحلة وقاتل بشيراً لشهائي وأولاده كما قاتل مع الثوار سنة 1840م في مختلف مناطق لبنان من كسرون إلى العاقورة إلى بيروت ووصل مطارداً جيوش ابراهيم باشا حتى تحوم غرة هناك إلى حاسب حنجر ووراءه هي كل أعماله.

(1) تاريخ بعلبك الوف من 49

(2) القنصل D D C. T9 P383 De Lesparda ويتحدث المنص لسبارد في تقرير آخر أن الحراشة أصبحوا مديني بأموال كثيرة لتجار كما ذكر شوهائية في كتابه عن مجمع جبل لبنان.

في رجب 1250 هـ 1836م أرسلت له الدولة العثمانية بيورلدي سرور واستهاج بصدافته واعتراه بخدماته للدولة العليا ووعد بإحالة متسلمية بملك إلى عهده بعد استعادتها .

بعد نفي حنجر أصبح سلمان هم أمرء أسرته الذين نجوا من القتل أو النفي ولما عينت الحكومة قائمقاماً على بعيت ثار بمص الحراشة وعلى رأسهم محمود الحرهوش فأرسلت الدولة «الاياء» رابط في ثكنة بعيت التي ساهوا امراهم باشا وبدأت الحملات تتطرق منها للقضاء على التمرد ولما عجزت العساكر عن إحصاع محمود فاوصته الدولة ومنحته عموا ثم عزل القائمقام وعين مكانه فرحات باشا فبدأ التمرد الأول لسلمان بعد أن اتهم زوراً بقتل ابن عمه محمود⁽¹⁾ فعين عصبه وجمع الرجال حوله وسيطر على القرى وهرص الغرامات وقطع الطرقات فعزل فرحات باشا في نفس العام وعين القومندان صالح راكي بك وكيلاً للقائمقامية وأتى إلى بعلبك مصحوباً بعسكر «شاهابي» وفي مدة وكالته ذهب الأمير منصور عم الأمير محمود ومعه أحمد حمية وأحرقا أمراً بقيادة منتي حبال ونعهدا للدولة بإبقاء نمرد الأمير سلمان فطارده حتى التقيا به في سهل طاريا فتناوشوا هناك وأسمرت المعركة عن انهرام الأمير منصور ومن معه وسر العوميد ان صالح بك العساكر متعباً آثار سلمان دون أن ينال منه

وفي سنة 1854م أصدرت الدولة عمواً عنه وعينه قائداً على منتي فارس بلقب «سرهرار» وعهد إليه والي دمشق بالمحافظة على الأمن في القضاء فبودد إليه رجال الحكم في الولاية ومتصرفية جبل لبنان وقبائل الدول الأوروبية ورعم وجود قائمقام على بعلبك كان الأمير سلمان هو الحاكم المعلي الذي توجه إليه محتلف المراسلات الرسمية مشفوعة بألقاب التكريم والتعظيم والتي تتعلق بأمور الأمن والتجاورات، وردد بصوص أكثر من ثلاثين تحريراً منها موجهة إليه من متصرفية لبنان بين عامي 1854 و1857م⁽²⁾.

رغم أن والي دمشق لم يول سلمان رسمياً على بعلبك إلا أنه كان في هذه السنوات يباشر الأمور كأمير بحكم الواقع نظراً بقوة شخصيته وبموده على الأهالي وتجدر عائلته في حكم بعلبك وإمارتها فاضطرت سلطات الولاية وغيرها من المراجع

(1) لم يجتمع الشيعة على اعتال إلى جانب العثمانيين إلا في موجهة امراهم باشا

(2) تبين فيما بعد أن أحمد حمية هو قاتل الأمير محمود الحقيقي فقتله سلمان، المحفوظات الملكية المصرية أسد رستم الحرء، الايع ص480

(3) ان بصوص هذه المذكرات والرسائل مدرجة في المحررات السياسية فيليب وفريد الحارون

الرسمية العثمانية إلى عص الطرف عن هذا الواقع ومعاملة سلمان وكأنه الأمير الحاكم وتجاوز القائم مقام المعين في أمور كثيرة.

ساعدت بريطانيا السلطان في حروبه لاستعادة بلاد الشام من سيطرة إبراهيم باشا وخرجت من هذه الحرب كصاحبة نفوذ الأوروبي الأول في عاصمة السلطنة وسائر أنحائها. وأصبحت السياسة لفرنسية بنكسة حظيرة أدت إلى تراجع نفوذها أمام مناهستها الكبرى. فأصبح المعتمدون لبريطانيون يتدخلون في أحص الشؤون الداخلية العائدة للولاة العثمانيين والسلطان في استمبول الذي وقع أسير النفوذ البريطاني بعد أن أمن له النصر في هذه الحرب الشاقة.

كان الحراشة من أول التأثيرين على إبراهيم باشا فقاتلوا المصريين منفردين أولاً وبالاشتراك مع الحيوش العثمانية فيما بعد وساهموا في دحرهم ومطاردهم حتى حدود مصر فقام الأمر بحجر وسلمان ومحمد بدور مهم في هذه الحرب في صفوف العثمانيين في مختلف أنحاء بلاد الشام ومع ذلك تركزت لهم السلطات العثمانية بعد الحرب ووجهت عليهم عدة حملات عسكرية قتلت بعضهم ونعت آخرين وشردت من أنحاء منهم في السوادي والقمار وب دو من مراجعة تقارير الدبلوماسيين البريطانيين العائدين لهذه الفترة أن السياسة البريطانية في دمشق وبغروت قد بلغت في عدائها المحلول الدافع لهذه الأسرة. ولعبت دوراً واضحاً في التأثير على السلطات العثمانية لملاحقة أمرائها واستئصال نفوذها وحتى وجودها وكانت مواقف المعتمد البريطاني في دمشق بالغة الحماس في التحريض على إبعاد الأمير محمد الهارب من كريت وإقصاء الأمير سلمان وسائر الحراشة عن أي نفوذ سياسي في بعلبك، بل وصلت إلى حد التأكيد على بقاء سلمان في سجنه ومكافأة الأضا الذي ألقى القبض عليه⁽¹⁾.

استطاع الأمير محمد حاكم بعلبك السابق وأخوه عساف أن يهربا من المنفى في جزيرة كريت إلى قبرص ثم إلى بافا ومنها إلى بلادهما حيث أعطا العvisان على السلطة وتقللا بين قرى بعلبك مع رجالهما في الوقت الذي كان فيه الأمير سلمان مقيماً على الطاعة في المدينة ما أدى إلى تنافس بينهما كاد أن يتحول إلى مواجهة وصدام فتدخل الوسطاء لإزالة الجفاء والخصام بينهما وتوصلاً إلى إبرار اتفاق بين الأميرين

(1) المحررات كتاب لفصل البريطاني إلى حكومته مؤرخ في 12 كانون الثاني سنة 1859م جزء أول

وافق عليه الوالي العثماني في دمشق و حين بدأ أن الأمور تميل إلى الوفاق وأن الدولة رابعة في العمو عن المصي الهارب وإشراكه في لامبيارات التي حصت بها سلمان ليستمر على طاعتها، قد حل القنصل برانت لدى الباشا لتسبب هذا الاتفاق وأوعر صدره على الأمير محمد وجهد للتأثير عليه بعية نحاد موقف معادٍ للأميرين كما يعترف هو نفسه في تقرير أرسله إلى حكومته في 27 كانون الثاني 1858م يقول فيه .

«أتشرف بإتيانكم أن الأمير محمد الحرفوش قد هزّ منذ نحو عشرين يوماً من منفاه في قبرص وجاء يافا ومنها دخل جن لبنان وقد حمل مسيحيي رحلة التابعة إيالة بيروت على الانضمام إليه لمهاجمة الأمير سلمان من بعلبك أحد أعضاء عائلته المعين من قبل والي دمشق محافطاً على توطيد الراحة في القضاء المذكور وله ذات أربعين فارساً. وقد رين الأمير محمد لشعب رحلة اقباع مسيحيي دير القمر بالانضمام إليه بحجة أن الأمير سلمان هدد بعض مسيحيي رحله القائمين على حراثة الاراضي حول بعلبك بالطرد والقتل، فاجتمعت قوات هؤلاء المسيحيين متحدة وبضرب عددها بألف مقاتل بين راجل وفارس وعلم انصال البحر بالأمير سلمان جمع حاجلاً بعض انبائه وذهب بهم من مقره في العين إلى بعلبك تاركاً شقيقه ورائه ليستمر قوة عظيمة ولاحقه. ولدى وقوعي على هذه الحوادث عهدي إلى ترجماني أن يسأل الباشا بالتوسط بين الصريقين فيأمرهما بدروم السكينة فأجاب الباشا الطلب وتوهم الصال حياءً بحيث تمهد لبعض ذوي النفوذ التدخل في الأمر واقترحوا أن يعرض على الباشا قسمة الراتب بين الأمير محمد والأمير سلمان فيعطى كل منهما رزق عشرين فارساً وأيماء محافظطة القضاء بينهما فقبل الأمير سلمان بهذا الاقتراح وهو موطن الثية على عدم إجرائه بوجه من الوجوه اعتقاداً أن الباشا لا يوافق عليه مطلقاً».

وهي خلال هذه المفاوضات تمكن الأمير سلمان من اقناع الزحليين ومحالصهم بالانصال عن الأمير محمد، وقد أخبرت أن لباشا أصبح ميالاً إلى الرضى بالاقتراح المتقدم ذكره وقسمة رزق الحنود بين الأمير سلمان والأمير محمد إجابة لمساخي أصدقاء هذا الأخير.

ولذلك رأيت من واجبي أن أوضح للباشا أن موافقته على هذه القسمة بحق رجل أرسل إلى المنفى وهرب منه خصية واعتدى على مندوب دولته لا توليه شرفاً. ومن جهة

أخرى فالمرجح بأن الأمير سلمان لا يرضى بالتسوية المذكورة بل يهاجم الأمير محمد علناً فيشأ عن ذلك حرب أهلية ومن خلال ما تقدم فإن الأمير محمد يعيش مع أتباعه على نفقة أهل القرى التي ينزل فيها ويقتصب منهم الأموال قسراً ويستولي على مداخلهم. فوعدني دولته بالانقياد لرأيي وانضاد الأوامر إلى الصريحين بلزوم السكينة وعليه فأمل أن الأمير سلمان سيعرر في مركزه وأن الأمير محمد سيكره إذا لم يقبض عليه ويعاد ثانية إلى مصاه،

وكان القنصل العام البريطاني لمسنر مؤر أشد تحملاً من زميله في دمشق على الأمير محمد فأفصح عن اقتراحه بشأن إبعاده عن كل سوريا بشكل حاسم وصريح كما جاء في أحد تقاريره تعليقاً على رسالة زميله برانت.

أتشرف بإفادتكم أن الأمير محمد الحرفوشي قد رجع حمية من المنفى إلى بعلبك منذ ثلاث سنوات لا مند عشرين يوماً كما قال المنيو برانت في رسالته. فهو حق كثيراً لافرار السكينة العامة وراحة أهالي بعلبك والاقضية المجاورة إبعاد الأمير محمد الحرفوشي عن قضاء بعلبك حتى وعن سوريا بأسرها،⁽¹⁾

لم يقتصر عداء القناصل البريطانيين على الأمير محمد بل أن تقاريرهم الأخرى تؤكد على شموله سائر الحراشنة وخصوصاً الأمير سلمان رغم مواقفه العديدة المتوافقة مع توجه الدبلوماسية البريطانية وخصوصاً عندما أنقذ مع أخيه حنجر وسائر أساء عائلته وأنصاره رحلة من الهجوم الدرزي الشهير وهي مفاسد أخرى كثيرة ومنها حريق بريثال واجتماع بدبايل مع القنصل البريطاني

وضع الأمير سلمان حداً لبعض نتحاوت التي قام بها بعض أقربائه في رحلة وسعى بالتعاون مع القنصل الانكليزي المسر ريتشارد وود إلى إحراء الصلح بين الصريقين فرار القنصل والأمير سلمان بدبايل حيث تم الصلح بينهما يوم الخميس في 29 تموز 1854⁽²⁾

قتل ناطور رحلي في بريثال فقام أهالي رحلة بهجوم على البلدة وأحرقوها وبيدوا أن أهلها كانوا من مناصري الأمير محمد الحرفوشي المقيم فيها. فأمر الأمير سلمان حاكم بعلبك جميع المتاوله أن لا يعترضوا الرحليين ولا يقاتلوهم وقام بناءً على اتصالات قناصل الدول الأوروبية وقائمفمية النصاري موأد المتنة ومنع ردات الفعل⁽³⁾.

(1) من القنصل العام في بيروت مؤر إلى حكومته بتاريخ 17 شباط 1858 ج 1 عدد 247 من 295.

(2) تاريخ رحلة، معلوف ص 188.

(3) تاريخ رحلة، المعلوف 191.

امتدت شهرة سلمان وسطونه ونموذه إلى مناطق بعيدة عن بلاده وانتشرت بين القبائل وفي البوادي.

هفي سنة 1858م أثار محمد لخرور من أمراء قبيلة الموالي⁽¹⁾ الأمير سلمان الحرفوش ليمده بحيش لمأهضة عرب الحديدية⁽²⁾ الذين واقعوه ودحروه إلى قرية القاع⁽³⁾ على حدود قصاء بعلبك فجمع الأمير سلمان جنداً من جميع قصاء بعلبك وكان حاملاً العلم حمود الحاج سليمان ويأعي نطميللي من بعلبك. فلما بلغوا محل رين العابدين على بعد ثلاث ساعات من حماء في الثامن من تشرين الثاني انتظى سفير الحرب. فأبلى عسكر الحرفوشيين بلاءً حسناً، وانكسر الحديديون بعد أن قتل منهم أكثر من ثلثماية نمر. فطمع البعلبكيون بهم وقتلوا أثرهم ثم شعلهم النهب عن تأثرهم. فتقدم محمد الحرفان وأعطى الأمير سلمان فخر السلويات ووعدته أن يروحه أسنّه على مرأى ومسمع من الأمير محمد الحرفوشي فأوعر ذلك صدر هذا حقداً وكان قد أبلى بلاءً حسناً فلم ير مكافأه فاشتى على محمد الحرفان ورماه بالرصاص فجندله وعندئذ طمع الأعداء بهم فأعادوا الكرة عليهم بثبات حاش فأثخنهم حراحاً ودحروهم إلى قرب مدية حماء وهناك كفوا عنهم فقتل من عسكر البعلبكيين أكثر من تسعين نمرأً وذكر الأمين هذه الحادثة في أعينده بما هو قريب من ذلك⁽⁴⁾.

هي 19 تشرين الثاني 1858م أرسل القنصل ترانك بقريراً إلى حكومته صممه تفاصيل هذه الحادثة⁽⁵⁾.

«سبق لي أن تشرفت فأخبرت سعادتكم هي رسالتي المصدة في 15 الجاري بأن فارس المرید رصيم قبيلة عربية نزع إلى الثورة وهاجم محمد الحرفان رعيم قبيلة عربية أخرى. قد كانت الحكومة أناطت به السهر على الراحة حوالي حمص وأن الأمير سلمان الحرفوش من بعلبك جمع قوة من الشيعة والمسيحيين لنصره هذا الأخير، وانضم إليه وطارد فارس المرید إلى ما وراء حماء حيث اشتبك القتال فظهر الأمير

(1) موالي. ينتشر الموالي بين ممره اسلمان وحادة تدمرية وبعدهم مع الحديديين قديم استمر بعد سلمان وأحر ما وقع بينهم من صدامات كبيرة حرب سنة 1933م ومحمد الحرفان من شيوخهم المديحيين وأهم أمر نهم في القرن التاسع عشر ما زال الموالي يرددون أحبارهم حتى ويومئذ البدو الحرة لأول ص 455.

(2) ينتشر الحديديون بين حماء وحلب وقد تمت تسمية مراعات قديمة على الملكية بينهم وبين الموالي عام 1928 وذلك بمبادلة المناطق المتداخلة بين القبيلتين لبدو بحره الأول ص 434.

(3) قرية هي آخر بلاد بعلبك مما يلي بواء حمص.

(4) أعيان الشيعة، محسن الأمين ج ص 262.

(5) المحررات السياسية ج 1 عدد 200 ص 349.

سلمان على خصمه ظهوراً باهراً بيد أنه بينما كان رجاله مشغولين في جمع أسلاب العدو، تراكضت قبيلة الحديدية من قصاء حلب لنصرة فارس المزيدي فأعاد هذا الكرة على الأمير سلمان وكسره شر كسره، وقتل من رجاله رهاء 150 رجلاً وفي عدادهم محمد الخرقان، وأخذ أعصاء أسره حرقوش. ويقال أن العرب كانت خسارتهم أعظم من المريق الآخر. ثم عاد الأمير سلمان إلى قريته العين.

«وقد ولى فارس آغا قدرو قائم مقامية بعينك وحرم الأمير سلمان راقب الضراسن الموظف عليه قبلاً، لأن القائم مقام الحديد يستصحب معه مائة وخمسين فارساً هذه القوة قد ردت لطرده الأمير سلمان من بعينك. فإبه مدد علم بأن الباب العالي أمر القائم مقام بالقصاص عليه أصبح يستحلف به»

بعد عودته من حماه عصى الأمير سلمان على الدولة ثانية وحال في البلاد يدعو إلى التمرد ويجمع الرجال ويتحدى الدولة وأمام عجز التحاكم التركي فارس عا عن معالجة الأمر، أمدته الدولة بحمسمائة جندي بظهي بقيادة حسني باشا للقصاص على هذا المرد.

«كان الحراشنة يتحدون رحلة ملجأ لهم وسكانها عصداً منذ القدم»⁽¹⁾ وكان اتفاق سدابل بقصى باحادها مكاناً آمناً يحضون فيه عند الأزمات، فدخلها سلمان متحصناً وقد شجعه على ذلك ما كان يمتدحه من إخلاص الرّحّلين له بعد تاريخه الطويل في مؤاررتهم والدفاع عنهم ولكن بعض أبناء لنديه وشوا به للقائد العثماني فوقع في قبضتهم مرة أخرى هي 12 كانون الثاني 1859م.

أرسل المصطل الانكليزي إلى حكومته تقريراً مسهباً عن تفاصيل اعتقال سلمان في رحلة يظهر فيه حماسه لهذا العمل وتظهر تقريره طينة مدة سجن سلمان خوفاً من أن يجرح الأمير من سجنه بتسوية مع الدولة يسمى إليها بعض الأعيان وتقصى بدفع عشرين إلى أربع وعشرين ألف ليرة بكثيرة ويرى أن مثل هذه التسوية تشف عن قصر نظر لأنه يحشى إذا أطلق سبيل الأمير أن يعود إلى الثورة مع عائلته وأبناء طائفته المتأولة وهو يعار على هيئة الحكومة وأمن مطلق التي تقع تحت سيطرة الثوار⁽²⁾

كما أورد في هذا التقرير المرفوع إلى حكومته.

(1) تاريخ رحلة المملوك ص 148

(2) يبدو أنه كان هناك بؤاد تصق بين متولة بعينك وبصارى رحية، بأن يدفع الرّحّلين المدينة عن الأمير سلمان، لقاء اشتراك المتأولة في صد الهجوم لدرري عن بصارو لنعاع بمياده سمعيل الاطرش وحطار لعقاد، كما تفيد رسالة سرحان لهاشم

«أتمجل بإيقاف سعادتكم على كريمة القبض على الأمير سلمان وفقاً للبيان الذي تلقيته الآن. لقد كان يرود الناحية فبراقه يورباشي متكر من فرقة الصرسان المنظمة المقيمة هي بعلبك بأمرة حسني بك فلما انتهى اليورباشي المذكور إلى مخبأه في أحد بيوت رحلة ذهب حالاً إلى بعلبك وأخبر حسني بك فركبا وناع احر إلى المعلمة وهي قرية مجاورة لرحلة لكن الأولى تابعة إيالة دمشق والأخرى إيالة بيروت وكان أن أخذ الجنود المقيمة في رحلة وطوق البيت البارل فيه الأمير سلمان وأندره شراً إذا ثم يستلم ذاته فأبى وأخذ يطلق النار على الجنود بيد أنه لم يصب أحداً لأن الوقت كان ليلاً ثم عرض أن يستسلم إلى حسني بك إذا ما أتاه إلى داخل البيت فأحابه أن يأتي هو بذاته إليه فلم يرص وحينئذ استدعى حسني بك صاحب البيت وسأله عن ثمن بيته فإذا هو خمسة آلاف قرش تركيه فقال البك أنه يدفع له عشرة آلاف وأمر الجنود بإضرام النار فيه وبينما هم يهيمون بذلك بدا للأمير سلمان أن يستسلم وجاء مع ثلاثة من أتباعه عزلاً وعرض على البك مالا ليسمح له بالمرار فامتنع»^(١)

يتابع القنصل برانت إرسال تقرير حول سجن سلمان مبدئاً بأراءه بذلك وضرورة القبض على كل فرد من أسرة حرهوش بسبب قوتهم وظلمهم وثوراتهم العديدة على سلطة السلطان».

«جاء بالأمير سلمان بعد ظهر أمس وسجن في سراي السر عسكريه وألماوا أتباعه في السجن العمومي في دار لولايه وفي بية السر عسكريا إذا أمكنه أن يقبض على كل فرد من أسرة حرهوش محققاً سبب سيطرة سلاله هؤلاء الأمراء القوية وقد ظلموا الملاحين وقاموا بعده ثورات على سلطة السلطان وإن كانوا ساعدوا قوا بجلالته في محاربتهم محمد علي باشا مصر».

ويذهب القنصل بعيداً في عواطفه تجاه حسني بك لصابط التركي الذي ألقى القبض على سلمان مشيداً به وطالباً من حكومته مكافئته مادياً على ما قام به ما يمكن أن يشتم منه أن حسني بك لا يبغي من وراء عمله تنمذ وأمر واليه فحسب وإنما يقوم بخدمة لجهة أخرى تستوجب المكافأة والتقدير.

«إن سلوك حسني جدير بكل إطراء فقد ندى بسالة وبشاطاً وبراهة ولا شك بأنه سيكافأ على سلوكه بما يستحق إنني لا أعرفه ولكني سمعت إطراء حيائه ووصف جدارته من كل فم ولا أرتاب في أن سعادتكم ستهتمون بأمره ليحصل على مكافأة مناسبة».

(١) المحررات بتقرير مذكور ص 353-354

في هذه الفترة التي كان الأمير سلمان يقوم بمهام الأمير الصعلي على بعلبك، بالرغم من أن سلطات دمشق عينت متسلماً تركياً يقوم بمهام القائم مقام، لم تأبه له كثيراً حتى الهيئات الرسمية كالقناصل ومنصرفية جبل لبنان بقيت تتعامل مع سلمان وتتواصل معه لمعالجة الأمور الهامة حتى أن السلطات العثمانية نفسها وبحكم الأمر الواقع كانت تقدمه في مراسلاتها على القائم مقام وتصمي عليه من الألقاب والتشريفات الترتوكولية ما لم تجص به ممثلها نفسه

اجتمع عموم الشيعة في جبل وبلاد بعلبك والهرمل من حماديين وبعلبكيين وأصدرو وثيقة تحدد الأسس الأخلاقية والشريعية لعامة التي التزم الجميع بها على أن يحصموا في كل أمورهم ومنها دفع لصرائب الرسمية «الميري» إلى أولي الأمر منهم وهم الأمير سليمان وسائر الحراشة والمشيخ الحمادية دون تمييز بين سكان قرى لواء بعلبك وباقي الأهالي من الحماديين في مختلف مناطقهم⁽¹⁾.

إثر القصاص على الأمير سلمان ظهرت بوادر تمرد بين الشيعة على احتلاف انتماءاتهم وردد «الصوات» يدعون الناس إلى حمل سلاحهم للإصمام إلى «الثوار» وعمم مظاهر الاستعداد من كفر ريد هي أواسط البقاع إلى سائر البلاد وهام بعض المتمردين بالدخول عبوه إلى بعلبك فهرب المسلم، ونهب المعبرون ما وجدوه في دار الحكومة وممتلكاتها

إن وشقة عمر معروفة لوجيه ماروسي هو لشيوخ سرحال الهاشم كتب وصفاً شاملاً للحالة الحاصرة. وكان شاهد عيار لها ومشاركاً شيطاً في تحركاتها، في رسالة بعث بها إلى أحد وجهاء المتأولة في جبل لبنان أنشيع حسن همدن تناول فيها الحالة العامة في البقاع من جوانب عديدة مؤرخة في 26 دي القعدة 1276 هـ - 1859 م⁽²⁾

(1) الوثيقة راجع رسالة سرحال الهاشم

(2) هناك مقاطع غير واضحة في هذه الرسالة بسبب كثرة استعمال الرموز والاشارات والإيماءات ولكن أهم ما فيها أنها تأتي على ذكر الجهود ومحاولات لإطلاق سراح الأمير سلمان من سجنه وتوصل الأمر إلى قتال الدور، لأن المسيحيين تكلموا بدفع بمعية عنه فهل كانت العاية من هذه التحركات والدعوات إلى القتال هو القيام بتمرد ضد السلطة وقد بدأت بهجوم على بعلبك أم أن العاية هي مساعدة الرحليين هي التصدي للهجوم الدرزي الذي بدأت تباشره هي ما أشارت إليه الرسالة من وصول ثلاثة آلاف فارس درزي من حوران إلى البقاع وعلى رأسهم سماحير لأطرش أحد رعماء الدور الذي قدم بقومه من حوران وكان مع حطار العماد على رأس المقاتلين الذين دخلوا رحلة وأحرقوه في نفس العام رغم أن هناك تقارير دبلوماسية تمهد عن تدخل مكتب لفتننل الانكليزي لتشي لأطرش عن عرصه

«بعض الرسائل المتبادلة بين لأطرش والمبصر الانكليزي موريي المحررات السباسبية لجرء الثاني اعدد 53، وبعد دخول الدور إلى رحلة ذهب لأطرش إلى محاصرة سيقاه سعيد جنبلاط بالإجلال والهدايا (التمركات أبو شقرا ص 202) .

حال وصولنا إلى بلاد بعلبك، بإذننا نجمع لجماعة وصالحنا بينهم ووصفنا
بينهم اليهود الشرعية بأنهم يعملوا بمشربكم ومشرب أوادم بيت حمادة الذي حضروا
الجمعية وبادرنا بجمع دصوت، حتى وهبنا لقريه كصرب أول بلاد البقاع.. . .

تدلوا علينا أن عسكرهم قليل، والناع لجمع الصوب هو المتسلم في بعلبك، والمراد
أن يحفظوه حتى يخرج من بعلبك، وبعد ذلك تصير البلاد في أيديهم، ويفعلوا
بمشربنا ونحن صحبتهم، فما شعرنا إلا وفعلوا المكيدة وحاطوا الصراية، وصاروا
يتكثرون بعشيرة الحمادية فأنهزم المسلم وقتل من ربه خمسة أو ستة أشخاص،
ونهبوا موجوداته ما ينوف عن ألف كيس من حيل وتحف وسلاح ودراهم. ولم
يقارشوا أحد من بعلبك

وصاروا يتكلموا مع الحمادية والنسكية أسا ما فعلنا ذلك، إلا بمشرب الشيخ
حسن همنر وخيارية بيت حمادة

أن مرامهم بكل تأكيد، يجمعوا الصوب سبعة للبصاري لمحاربة الدروز، لأنهم
متكلمين بدفع المطلوب عن الأمير مسلماني

أما من طرف المتسلم وحسن بعلبك فإنهم كتبوا بمضيطة بأن العمل عملكم وعمل بيت
حمادة وأنهم وجهوا أنصار صحنه ال حرفوش لعمل ذلك الصبح

ربما بكرة الجمعة يصل ألف خيال أكراد وربما يحصل قتل وقتك في عشيرة
الحمادية، هيا صاحب المروه استترك بقيام حريم بيت حرفوش من صبح الحمادية،
ونحن نتوجه بعشرة أنصار مع الشيخ اسماعيل وكافة المشيخة وكم نصر لقيام المذكورين
في بلادنا.

انتهصوا الهمة ونحن نجمع لكم حمادية أهل البلاد صحنه الشيخ محسن فرجو
السرعة وإن لزم خطابات للشيخ محسن أرسلوه نحن نوصله. واكتبوا إلى حمادية
بلاد بعلبك. لأن الإمرام المرقومين ما فعلوا ذلك إلا لعدم الحمادية

من الواضح أن كاتب الرسالة يسعى إلى المساهمة مع الحماديين والحراشنة بجمع
المقاتلين من أجل غاية لا توصفها الرسالة تماماً. لأن المرسل له على علم واتفاق مع
المرسل بشأنها فهو يطلب منه كتابة خطب إلى الشيخ محسن كبير الحماديين لحثه
على المساهمة في هذا السعي.

٢٧ من شهر ربيع الثاني

من شهر ربيع الثاني
١٢٨٥

٢٧ من شهر ربيع الثاني

٢٧ من شهر ربيع الثاني

٢٧ من شهر ربيع الثاني

٢٧ من شهر ربيع الثاني

في هذا اليوم قد تم...

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

خيركم العباد الطاهرين...
كانت في هذه...



بسم الله الرحمن الرحيم

٢٧ من شهر ربيع الثاني

من شهر ربيع الثاني

والله اعلم بالصواب...
بسم الله الرحمن الرحيم...

من شهر ربيع الثاني...
بسم الله الرحمن الرحيم...

رسالة من الأمير بشير أحمد أبو اللمع قائمقام المصاري إلى المطريرك الماروني حول العلاقات المارونية المتواليّة وأصابعها خلال حوادث المصاري ووجوب الرجوع طامبوس شاهين عن مهاجمة قرى المناولة وإعطائهم قولا بعدم حصول الحرب لأن الأمير محمد الماروني قد عاد إلى بلاده ليلا، وحرص على المصاري المشتكين في بلاد المناولة

ولكنه يعتقد أن بعض الحرافشة يجمعون المقاتلين من أجل عاية أخرى، وهي مناصرة النصارى ومعاربة الدور. ويسدونه غير راض عن ذلك وأن هذا التعارض في الأهداف سبب اشكاليات ومنارعات وصت إلى حد التقابل.

إن المتسلم المهروم من بعلبك وضع تقريراً اتهم فيه بيت حمادة وبيت حرفوش بمهاجمة بعلبك ونهب موحوداته، وقتل عساكره بينهم يرى كاتب الرسالة أن الحرافشة تستروا باسم الحمادية ليقيموا وحدهم بهذه العادة وهو يخاف أن تؤدي إلى هلاك الحمادية على أثر حملة يقوم بها ألف كردي من عساكر الدولة للإنتقام من أصعانه الحمادية لذلك يعد العدة للتوجه مع المطاردين إلى جبل لبنان حيث يقيم عيال الحرافشة في ضيع الحمادية لأن رجالهم كانوا في ذلك الحين مطاردين لتمردهم على الدولة وعصيانهم.

الخرافشة والفتن الطائفية 1860م

تتباين المصادر حول حقيقة موقف الشيعة عموماً في البقاع في الفتن الطائفية التي اجتاحت البلاد سنة 1860م⁽¹⁾

لا شك أن ما يعرض له لشيعة الحسيين انعكس نواتجاً في البقاع لم يصل إلى درجة المجابهة العامة كما جرى في مناطق أخرى، وإن كانت بعض التقارير تتحدث عن أعمال سلب وبعديات قام بها الحرافشة على بعض القرى وإغارات مارونية على أطراف قرية حدث بعلبك.

إن الأنبياء التي نقلها المهاجرون الحسيون الشيعة شجب النصوص بمشاعر التوبير والعداء. كما وصلت رسائل إلى الحرافشة كتبها نصارى من لحبل تحدثت عن نوايا بصرانية بالإعتداء على عيالهم للاحثين إلى بعض القرى الحمادية في الحبل.

إن عريضة أرسلها وكلاء عموم رحنة إلى المطيريك إثر وصول جماعة من قبله إلى المدينة لمعاينة الأحوال عن كثب تنقل صورة واضحة عن أوضاع رحنة وسائر النصارى في البقاع، وعلاقتهم بالخرافشة وشموهم بأن وجودهم في المقاع لا يستقيم بدونهم وهو شعور حقيقي ليس فيه محبات ولا مدارات ولا معامل، لأنه موجه إلى المسيحي الأول ولن يصل إلى مصانع غيره في كل حال.

«نقضي أنه عند حضور أولادكم لهذا الجانب وجدنا حاصله المعايير من ملائمة

(1) D. D. C. T11 p144. مذكور سابقاً

العمادية على تعلقاتنا لزم لنا جمع الوسائط لأجل المسألة مع جناب أفتدينا
الأمرا حرقوش المحترمين. وتوجهنا لشم أيديهم. وبوقته اندرج حال أولادكم وكل
من النصاري الزراع توجه لمحبه وصار نجمع الباقي من مزروعاته. والآن لقد اطلعنا
على تحرير وارد إلى بعض جنابهم من حد نصارى بأن طابيوس بك شاهين مراده
ضرب العاقورة بسبب أن عيال جناب الأمراء المؤفى إليهم بالمحل المرقوم وحيث أننا
وجنابهم الحال مصرحه اطلعنا على التحرير المرقوم، وقدمنا لحسابهم الرجاء بأن هذا
الأمور بما يكون عادم الصحة وباشربنا بنقديم لديكم لكي يكون شريف مسامعكم.
إنه أولاً لولا وجود الأمراء ببعلبك، حالاً لم يمشي قطعاً ولا بوجه مطلقاً والذي
كما نطنه من طابيوس المرقوم أنه عوضاً عن هذه المساعدة نحونا بخدم كافة
الخدمات إلى عيال جنابهم حتى يردادو بقيام مصالحنا. والآن ظهر الأمر بحلا هذه
فلأجل ذلك لزم نصرح . لمبطلتكم لكي يصير أمركم إلى المرقوم طابيوس يكف يد
عن كذا عمل. لأن يكفي ما جرى علينا وإذا وقع أدنى ابحرار، من المعلوم يصير
الحال أكثر من الماضي وإذا رغبتنا بإيضاح الذي عمال يحصل لحساب الأمراء من
المساعدة لعموم النصاري بطول الأسهاب بشرحه فالرحا في غيرتكم وحكمتمكم
يصبح كلما يصع فيه اللياقة مع عيال جنابهم. لكرّموا علينا بمرسوم الإبحاني لكي
يصير عرصه لديهم لأجل رقع (الوسوسة) لأن أملنا بغيرتكم لتمد جنابهم كلما
يلزم من المساعدة. هذا ما لزم مع عدم ابراحنا من صالح دعاكم. وتكرر لكم ما بخدم
ثانياً وثالثاً⁽¹⁾

25 اب 1860م

أولادكم

وكلاء عموم رحلة

(1) إن هذه الوثيقة لا تحتاج إلى إيضاح وتطبيق حول العلاقة بين نصارى لبقاع وشيعته والأمراء
المرافقة (صورة الوثيقة الأصلية)

نهاية سلمان

بقي سلمان عاصياً ومنمرداً ينتقل من مكان إلى آخر حتى دخل رحله وبات فيها ليلتين فأعلم بعض أهلها حسني بك بمكانه فأتى وحاصره في أحد بيوتها ثم قبض عليه ونقله إلى السجن في دمشق.

تفيد التقارير الدبلوماسية المرسلة إلى الحكومة البريطانية اهتمام المبعشرين والقناصل بسجنه وسميهم إلى عدم الإفراج عنه وكان القنصل البريطاني يرسل إلى حكومته باستمرار ما يصد بأنه لا يزال مسجوناً حتى يحال أن استمرار سجنه هو من القضايا السياسية المهمة عند الخارجية البريطانية، ولما بدأت المساعي لإطلاقه تقترب من النجاح، بدأ موقف القنصل معارصاً يعترض أن هذه النسوية تشتم على قصر نظر وأنه إذا أطلق الأمير صم إليه أعضاء عائلته وكثيرين وأبناء طائفته المتأولة وعاد إلى إثارة الصن التي اعتادتها هذه الأسرة فتسقط هيبة الحكومة وتخرب المحال التي تقع تحت سيطرتهم⁽¹⁾

عندما سجن سلمان استمر أخوه أسعد وابن عمه محمد في عصيانهما ودهما بعلبك محرراً ودحلاً بيب الحاكم التركي فهربوا وحشياً فقتلوا أربعة من أتباعه ونهبوا ممتلكاته من سلاح وحبل ونقود وهربوا سالمين⁽²⁾ إلى قرية بعثة وصعدوا في حركاتهم المناوئة للدولة في سائر أنحاء بلاد بعلبك فسار القائم مقام فارس آغا إلى دمشق وعاد مصحوباً بحمسمائة حندي بقيادة حسن آغا ليأرحي ولكنه فشل في نقصاء على الثائرين.

عندما تعثرت المساعي المبذولة لإطلاق سراحه هرب سلمان من سجنه بعد سبعة شهور، وعاد إلى بلاد بعلبك عاصياً ومطرداً حيث هاجم الحرافشة في هذه الفترة بعلبك ونهبوها، رغم نصائح القنصل لاسكيري بتعريب حامية المدينة بعدد من المرسا ثم لم تلبث المفاوضات مع حسني بك والقائم مقام محمد راعب أهدي أن أدت إلى عودة أسعد الحرهوش إلى الطاعة وبعبه مأموراً على جميع المسلوب في الفش الطائفية التي كانت على أشدها وحملته «يوزباشي» على مني حيال كما أنهى الأمير تمردهم وعاد إلى طاعة الدولة التي كلمته بالمهام الشاقة التي لا يمكن أن يقوم بها سواه، وقد ساهم في هذا العمو يوسف كرم الذي تدخل مع هؤلاء باشا لإقرارهم.

(1) ترحر «المحررات» بالتقارير الدبلوماسية التي بدر على عدا القنصل البريطاني للحرافشة وخصوصاً سلمان ومحمد

(2) حول هذه الحادثة راجع وثيقة سرحني النهاشم في مكان آخر

وأثناء إقامة فؤاد باشا في إهدن وبناءً على طلب يوسف كرم منح المفوض فوق العادة عضواً لكل المتمردين والحكوميين بعقوبات مختلفة من الحراشة. إن يوسف كرم دون أن يأخذ في حسبان ما قام به هؤلاء في حوادث 1860م دفع لهم ديناً قديماً من العرمان بالحميل وأمر تأييدهم له مستقبلاً كما أن فؤاد باشا كان يبحث عن مناسبة للعمو عن هذه العائلة وإعادة علاقتها مع الحكومة،⁽¹⁾

عاد سلمان إلى القيام واقعياً بمهام حاكم بعلبك وقد عين قائداً للقوى غير النظامية التابعة لحيش عرستان

لم يكن التقيد بأوامر الدولة والانصياع لأمرائها سهلاً على سلمان الحرفوش، إن طبيعته ونشأته وتجاربه وتراث أسرته تناقض ذلك. كان يوق دائماً إلى إمارته المعتصية حيث يمارس سلطته مستقلاً بلا هيود، رغم أنه الأمير الواقعي وموضع الطاعة والاحترام من الجميع، إلا أن كرهه الموروث للأتراك وحراته معهم وتاريخ قومه جعله يأخذ موقف الحذر منهم والمرتاب بمصداقيتهم

كُلف بحكم مناصبه الرسميه بأمر كريمة إلى بعثه منصرة لطباعه مثل مطاردة المظلومين من أهله كمحمد وأخيه عساف عند هروبهما من النعي وإعلانهما العصيان ثم التحاكما إلى الشيخ طمان حمادة في شمعطار⁽²⁾ القرية الواقعة عربي بعلبك من أعمال جبل لبنان والجارحة عن سلطة الولاية، أو عندما أمره حليم باشا بالإعارة على الهرمل وما نتج عن هذه العارة من ديول محلية ودولية فلما طلست منه الدولة أن يرافق جردة الحج مع فرسانه خاف حوادث الدهر وأعلن العصيان مرة أخرى ولم يست أحمرة وعندما حصر حصن بك لحمع المربعة العسكرية التي لم تكن تحصل قبلاً هي بعلبك تحت حكم الحراشة وهذه هي المرة الأولى التي يعتمدها الدولة هي المدينة سنة 1864م، استأمن الأمير العاصي ولكن أفره وتباعه ورحاله خنقوا عليه ودعوه إلى الثورة والعصيان حيث مكانه الطبيعي المعاد

عاد الأمراء إلى الثورة فطاردتهم الدولة وقتلوا في قرية الشعبية ثم المأكهة ثم وادي همره وصعوداً إلى الجرود في عبور أعرش، وأخيراً وقع الأمراء حسين قنلان وفارس وداوود وتامر في الأسر فنصوا إلى أدربه مع حريم سائر الحراشة، أما ياعي

وفؤاد باشا هو وزير لدارجية العثماني الذي سبق ذكره، D. D. C. T11 p144 (1)

(2) تاريخ بعلبك، نصر الله ص 334.

يا عي البار من المشهور وتابعهم الأُمير فشق في بعلبك بعد أربعة أيام من أسره⁽¹⁾ ولم يبق من العصاة إلا سلمان وأخوه أسعد ولكن أسعد ما لبث أن أطلع وحده فتقي إلى أدرنة وبقى سلمان وحيداً عاصياً وفاراً ومطارداً ومريضاً حتى حاءت النهاية.

أمضى الأمير سلمان عامه الأخير يقاتل ثائراً مع صديقه القديم يوسف كرم الذي سعى يوماً لدى فؤاد باشا للحصول على عمو عن لحراشة وقد حاص معه معظم معاركه هي أنحاء محتلة من شمال لبنان

في شباط 1866م هاجم يوسف كرم وسلمان الحرفوش بلدة عزيز من ناحية البحر والحبل ولكنها نحت من التدمير بفصل العرق العسكرية التي أرسلت لحمايتها. كما تجرأ الرحلان على مهاجمة العرق الامبراطورية المحيطة في الراوية⁽²⁾

جاء في تقرير الصابط المرسى، الثب، (AL THABE) المروع إلى رئيسه في وزارة الحرب المرسية بتاريخ 5 شباط 1866م⁽³⁾

«ان العناصر التي تؤلف قوا كرم هي الأمير سلمان الحرفوش سيد بعلبك الذي افتزع الأنراك منه مقاطعته منذ عدة سنوات ووضعوا ثمناً لرأسه وكنت وحيداً في رغرتا مع قوا الدرك عندما هاجم كرم والأمير حرفوش على رأس رجالهما رعباً لاحتلالها»

وحاء في تقرير آخر رفعه فتصل فرنسا العام في بيروت إلى وزير الخارجية بتاريخ 8 آذار 1866م⁽⁴⁾

«ان ظهور الأمير الحرفوش في الجبال، وما حصل في الكورة من شأنه تأخير النتائج التي تسعى اليها، وهي إخضاع الحبلين المضللين دون ان يهرهوا إلى التعرف ويلتحقوا بالمقاومة المسلحة».

ان يوسف كرم لو لم يشد ارره سلمان الحرفوش لما حدثت نصه باهل مقاومة⁽⁵⁾

وقد بذل مدير عرير أفندي شهاب محاولة للإيقاع بين كرم وحرفوش فأرسل

(1) ولا يزال يطلق على بعض دربه أحياناً إسم بيت المشوق وهم من أوجه بعلبك حتى اليوم

(2) D. D. C. T12 P 303

(3) D. D. C. T12 p 315

(4) D. D. C. T12 p 366

(5) الامارة الشهابية والقطاعيون الدرور مصيب بك من 37

برقية إلى داوود باشا في 21 آذار 1866م بحبره عن عرص سلمان قتل رفيقه لقاء وعد بالعفو يضممه قبصل هرسا المقيم في بيروت مباشرة بعد الهجوم على عرير⁽¹⁾ وهي تأثير الشكوك حول حديثها وصحتها و لعاية من إرسالها وهي على الأرجح ليست إلا نوعاً من الماورات التي لجأ إليها لحاكمون عند عجزهم عن وضع حد لتمرّد الصديقين نعية التفريق بينهما

إن آخر معارك سلمان مع الأتراك حرت في عين عطا في جبل لبنان الشرقي على مقربة من بعلبك، انسحب على أثرها الرحلان تاركين في الميدان عدداً من لقتلى والجرحي، وقد تأكد أن كرم وحرفوش اللذين كان يعتقد بأنهما محاصران انسحباً بعد عدة ساعات مرفقة بثلاثة أو أربعة رجال⁽²⁾

دقيقت العساكر الامبراطورية على سلمان حرفوش وأمن أخيه في نواحي حمص ولا أعلم المصير الذي ينظرهما،⁽³⁾

تعددت الروايات حول مكان القبص على سلمان وطروقه، كما احتملت حول كسبة موته وملابساته وإن كان غالب المهتمين يعتمدون على بيت في قصيدة شهيرة معناه وردب على لسان سلمان عند التبص عليه وهي بشكل رساله موجهة إلى أخيه أسعد الذي كان حينها في المنى

حسن درويش يا أسعد حان في ورماني بالمهالك والردى

يمول ألوف

«ذهب إلى بلاد حمص فآراً فوشى عن مكانه رجل يسمى حسن درويش وكان قد رماه الأمير سلمان في صعره فوشى لهولو باشا فحضر بعسكره وقبص عليه وأرسله إلى دمشق وتوفي في السجن بعد ثلاثة أيام في عهد الضائمقام محمد بك اليوسف»⁽⁴⁾.

بعد معركة عين عطا تمزق رجل سلمان وهرب هو إلى ريبا وهي قرية صغيرة

(1) D. D. C. T12 P 348

(2) D. D. C. T12 P 351

(3) من تقرير القبصل المرسى لدمم في بيروت M. Des Essards إلى حكومته في 23 نيسان 1866م، D. D. C. T12 P360

(4) تاريخ بعلبك، ألوف ص 52

تقع على الحد الفاصل بين بلاد حمص وبلاد بعلبك شمالي الهرمل على بعد عدة أميال منها، هي وسط أملاك الحماديين التي ساءت علاقته بهم بعد عارته على الهرمل تنميذاً لأمر حليم باشا فأمنت نفسه الأبية أن يقصدهم لاجئاً مع سوء علاقه وهم أخوانه كما كانت عادة أهله هي الظسروك العصبية، ولعله كان ينتظر فرصة مناسبة أو أن يعلموا بوجوده من فلاحي القرية، أصابه مرض الجرب فاحتفى هي مغارة معرلة مع حادته حسن درويش وابن أخيه هذعم المتى الذي لم يتجاوز، ثمانية عشرة من عمره فأرسل حادته إلى حمص ليحلب له دواء فعاد مع التجند طعماً بالمكافأ فأسر وقيد على فرسه ونقل إلى دمشق سجيناً بينما نحا ابن أخيه ليروي ما حدث.

ندارس قباصل الدول هي دمشق موضوع محبة وفررو رباة الوالي صباحاً للشاحح بشابه فلما علم الوالي بعزمهم سارع إلى قتله ليلاً خوفاً من مطالبهم بإطلاقه أو بالحفاظ على حياته

قتل الأمير سلمان بيد الأتراك في عظم البائه وأحداده بعد أن شتت الحراشة بين قبيل ومنعي هي كريب وأدرية والأناصول ومصر وغيرها من الأمصار التي قلما سمع باسمها من بغي منهم في بلادهم ولا يزال الناس بعد قد كل رحل خطير الشأن عظيم القدر يحشون من لمراع الذي سيحلمه، يرددون مع سلمان أو مع من قال على لسانه هذا البيت الدائع من الشعر الذي قل من لا يحفظه ويردده من أهالي بلاد بعلبك والهرمل وسكان المودي والمدن حتى حلب والحريرة

يا ذلك يا بعلبك بعد سلمان صرتي مزاج لخبول العدا

(1) هذا ما روته عن نهاية الأمير سلمان بنة ابن شميقة ورد الحرقوش وهي حر اميرات الحراشة من القرن الماضي، عاشت في بيتها وكانت تمنى أن أحبار عنها وذكر هم محورة بذلك وتذكر أن إحدى ساء الأمير سلمان وكانت تعيش في سطميول. قرب بعلبك لبعض شؤونها في مستهل القرن العشرين واستقبلت بها بلبق بمثلها من حل المدينة ومكثت فيها أسبوعين

بين الولاية والمتصرفية

على امتداد قرون عديدة كان يبدو أن هناك حلفاً واقعياً وثابتاً يحكم العلاقات بين العائلتين الشيعيتين القويتين حرهوش وحمدة والذي انحصر الحكم الشيعي بهما منذ ما قبل المصح العثماني في ولايتي طرابلس ودمشق بعد انفصال سنجق صمد والحاكمة بولاية صيدا المستحدثة، حتى توهم بعض المؤرخين الأحاب أن الأسرتين من أصول واحدة قدمتا إلى لبنان معاً فأقامت إحداهما في بلاد بعلبك والنقاع بينما انتشرت الأخرى في حبال لبنان العربية حتى أطراف بلاد بعلبك عند منبع العاصي والواقع إن ما يجمعهم على هذا الصعيد أنهما قدمتا من منطقة واحدة وراء النمرات من عشيرتين متحاورتين تنتميان إلى مذهب واحد⁽¹⁾ بقي يساهم مع عوامل أخرى متطابقة في الكثير من تحديد مظاهر وجودهما السياسية والعامة وغالباً ما قابلا معاً في جهة واحدة، في وجه عدو واحد وتعرضتا لظروف وبعقيدات تحمل ما لا يعد من عناصر الشايه والتعائل قد يبلغ حد التطابق أحياناً

قام نظام المتصرفية في حبل لبنان بصمات الدولة الأوروبية الكبرى في ذلك الوقت وبقيت بلاد بعلبك تؤلف جزءاً من ولاية دمشق بينما ألحمت الهرمل كما كانت دائماً بحبل لبنان وفي المترات القادرة التي لم يكن فيها الأمير سلمان ثائراً على والي الشام كانت السلطات تصد إليه مهمات ومناصب إدارية وعسكرية تحاول من ورائها أن تشيه عن رفع سلاحه بوجهها بعد أن عجزت أن تأمن شر هذا السلاح بطرق أخرى. وبحكم إحدى مناصبه هذه قام سلمان بناء على أوامر المشير حليم باشا سرعسكر ولاية سوريا بعارة على الهرمل أمضا تجاديات السياسة الدولية فيما بين أقطانها من جهة وبينها وبين الدولة العثمانية من جهة أخرى

يشرح القنصل الفرنسي الانعكاسات الدولية لهذه الحادثة العادية التي حولتها الأعراض السياسية إلى أمر خطير له بُعد دولي ساهم في وضع حد لنعوذ أسرة تاريخية عريقة كانت محور أحداث حسام طيلة أكثر من أربعة قرون.

يمكن متابعة مراحل هذه الحادثة العادية في مطهرها والمعقدة من حيث نتائجها في

(1) جبل لبنان، نشرشل ص 151

(2) سوريا ولبنان وفلسطين باريلي ص 45

وثائق رسمية ثلاث تقارير القنصل المرمسي، موقف الدولة العثمانية المعلن على لسان معتمدها قبولي أفندي وموقف الحكومة، المرسلة هي رسالة وزير خارجيتها (توفويل)

جاء في تقرير القنصل المرمسي لعام في بيروت «اوتري» (OUTREY) إلى السيد «توفويل» (THOUVENEL) وزير الخارجية بتاريخ 19 تموز 1862 م⁽¹⁾.

«حدث في لبنان حادث خطير أرى بصي مصطراً إلى إبلاعه لسمادتكم منذ عشرة أيام علمت أن سلمان الحرهوش يقوم بحملة في قضاء بعلبك وأن مهمته أن يقوم بعمليات في لبنان ترمي إلى توقيف عدة أشخاص مطلوبين من مشير دمشق. اعتقدت أن هذه الأخبار معلومة وعُترف لي لم أعرها اهتماماً كبيراً لأنني اعتدت على مبالغات السكان في سوريا ليس أمر هوجت كثيراً لدى علمي أن حملة سلمان الحرهوش قد انتهت نحو الهرمل ولم يتمكن في المرة الأولى إلا من توقيف شخص واحد أطلق سراحه بعد هجوم الأهالي على جماعته وأنه عاد إلى العمل بعد أوامر حديدة وصارمة من حليم باشا وقد سقط في الهجوم على برج الهرمل أربعة قتلى أو جرحى وتمكن سلمان من توقيف أربعة من الأهالي قادهم إلى دمشق بدائي أن هذا الخرق لحدود الحبل خطير ورأيت من وحي أن أرسل إلى قبولي أفندي المذكورة المرفقة وكنت أفصل أن أبعد هذه الخطوة بعد الاتفاق مع ممثلي لقوة العظمى في بيروت ولكن وكيل السلطان ملزم بالذهاب إلى حلب هذا المساء ولم أشأ أن أصيب لحظة واحدة قبل إبلاعه على تطورات القضية ووجهة نظري فيها.

عند استلامه رسالتي جاء قبولي أفندي لمقابلتي ولم يصر الوقائع ولكنه حاول أن يحصف من حطوة تصرف حليم باشا بأن يشرح لي أسباب هذه الحادثة على الوجه الآتي:

«يبدو أنهم أبلغوا المشير بوجود بعض المشبوهين في الهرمل عند عامل الناحية المتوالي⁽²⁾ وخصوصاً الهاربين من الحندية وأن طلب تسليمهم من داوود باشا⁽³⁾ لم يؤد إلى نتيجة لأن حاكم لبنان العام لم يتمكن من القبض على المطلوبين لعجزه أو لعدم رغبته أو لعدم تواجد الأشخاص أصلاً في البلاد. تختلف الروايات حول هذا الموضوع باختلاف مصادرهما.

(1) D.D C T11 P712

(2) الشيخ محسن حمادة.

(3) متصرف جبل لبنان المقيم في بعبدا

بعد عدة أيام من المراسلات قرر حليم باشا القيام بهذا الأمر بنفسه متجاوزاً داوود باشا وأنظمة الجبل ونظم في السر لإجراء الذي أطلعكم عليه

أعرب لي قبولي أفندي عن مدى أسفه لأن إجراءات متسارعة تتخذ دون استشارته ولم يتردد في الاعتراف بمعارضته لها ولم يعدي شيئاً لأنه يبدو أن لا سلطة له على المشير ولكنه وعدني بأن يكتب إلي حليم باشا ليستدعي سلمان الحرفوش من بعلبك

لدي بعض الأفكار السيئة حول هذا القائد المتولي. يجب أن أعترف أننا لا نستطيع تحريره لأنه حالف أوامر رؤسائه. إن قائد جيش عربستان وحده هو المسؤول عن حرق حدود الجبل.

في 19 تموز أرسل القنصل العام مذكرة رسمية إلى قبولي أفندي الموصى غير العادي للباب العالي في سوريا⁽¹⁾

«منذ عدة أيام علمت أن الأمير سلمان رئيس المرق غير النظامية هي بعلبك تلقى أوامر سرية من دمشق بجمع ما يمكنه من الرجال والذهاب إلى لبنان لوقوف عدة أشخاص معنيين وخصوصاً الشيخ محسن وتبليغ له التعليمات استعمال السلاح عند الضرورة

أما تأكدت أن الأمير سلمان حرق حدود لبنان على رأس مشي رجل واحتل برج الهرمل هي أراضي الجبل وأن عدة قتلى أو جرحى سقطوا وبعل أربعة موقوفين إلى دمشق هي الواقع إن سكان الهرمل طلبوا العدة من حكاهم المباشرين وليس من غير الممكن في حال عدم الاستجابة من أن يسموا إلى الأحد نأثرهم بقواهم الخاصة وذلك بالقيام بعبارات على الحرفوشي وجماعته هي سهل بعلبك نفسه. وهي حال حدوث ذلك لا يمكن التكهن بنتائج ذلك على الجبل وسيعتبر أهالي الهرمل عندئذ في حالة الدفاع المشروع عن النفس» وجاء في مذكرة قبولي الحوائية⁽²⁾.

بيروت في 22 محرم 1279 هـ (19 تموز 1862 م)

«كتبت هذا الصباح للقائد العام وعلمت مثلكم أن الهرمل هي برج عالي موجود على حدود الجبل وأن رئيسه الشيخ محسن يمنح ملجأ للهاربين من الجيش الإمبراطوري وأن سلمان الحرفوش دخل لتوقيضهم ولكن الشيخ محسن شرع بالمقاومة رافضاً تسليم المظلومين وأن الحشود المرافقين للأمير سلمان قاموا ببعض أعمال العنف.

(1) D D C. T11 P 220

(2) المصدر السابق يلاحظ أن رد السلطات العثمانية جاء في اليوم ذاته لتاريخ لذكره المرسية

إن حكومة جلالته تتجنب كل ما من شأنه المساس بالأنظمة التي تحكم جبل لبنان. وسأعالج هذا الموضوع مع د. وود باش،

وجاء في رسالة وزير الخارجية الفرنسية⁽¹⁾:

«إن الإعتداء ضد الهرمل الذي قدم به سلمان الحرقوش بأمر من حليم باشا يعتبر في الواقع خرقاً دولياً لحدود لبنان وقد طلبت من سفيرنا في اسطنبول أن يتقدم من الصدر الأعظم طائلاً إليه الاحترام الدقيق لامتيازات لبنان المكرسة في الاتفاقات الأخيرة

ويبدو لي أن أفضل ما يمكن المطالبة به هو تعويض عائلات الضحايا لأن سكان الهرمل كانوا في حالة الدفاع الشرعي عن أنفسهم ومن شأن ذلك أن يكرس مبدأ عدم خرق حدود الجبل هي نظر الجميع، ثم نصف الوزير أن مباحثات تحري لنشر صباط فرنسيين على حدود الهرمل بعينك بين لبنان والولاية لمراقبة التجاوزات ومعها

إن هذه الحادثة الدولية الخطيرة التي كانت محور اتصالات وتحادثات واسعة بين مختلف وزراء خارجيه الدول الكبرى حينها والسفطات العثمانية بما فيها الصدر الأعظم نصته لها على الصعيد المحلي أسست ومعنى ونتائج معانته تماماً

في منتصف القرن التاسع عشر اشتد تحام لمياسه العثمانية هي لبنان نحو التخلص من نفوذ بقايا الأسر الحاكمة القديمة وتنصيب موطمين من الإدارة العثمانية كمستلمين وقائمقامين مكانها. فبعد روال الحكم الشهابي هي الجبل عيت ولاية دمشق قائمقامين من الأتراك حكماً على بعلبك وبلادها حيث كان هناك أسرتان تتقاسمان النفوذ والمصيبة هما الحراشنة أمراء بعلبك الدائمين والحماديين الذين تكاثروا في بلاد بعلبك بعد الهجرة من جبل لبنان وأصبحت الهرمل المحاذرة مركز القيادة والولاء لجميع الحماديين حيثما وحدوا، ورغم علاقات التحالف والمصاهرة بين الأسرتين كان لا بد أن تظهر بدور الوردواجية في استقطاب السلطة والولاء. استغلها موطمو الباب العالي للإيقاع بينهما خصوصاً بعد أن ظهر أن القضاء على سلطة الحراشنة والأمير سمان تتطلب جهوداً عسيرة غير مضمونة النتائج، فسعت إلى إيقاع الصدام بين الأسرتين رعية بالتخلص منهما معاً أو من

(1) D. D. C. T11 p226

الأمير الحرفوشي المتمرد المتعب وانشاكس، فدفعته إلى القيام بهذه لفامرة الشائكة التي أثارت مشكلة سياسية على تصعيد الدولي لم تكن في حسابات حليم باشا ومساعديه.

كان شيخ الهرمل رعيم الحماديين مصطفى في مصاربه في السموح المشرفة على بلدة الهرمل حينما داهمه سيمان بمن استطاع جمعهم من رجال البقاع وقسم منهم ينتمون إلى العشائر الحمادية المقيمة في بلاد بعلبك رافقت الأمير دون إبلا عنها وجهة الهجوم وهوية الهدف، وتحت إمرة إلى جانب المقاتلين غير النظاميين فرقة من العساكر العثمانية وأوامر من حليم باشا لقائد العام للحيش العثماني في ولاية سوريا بتميز الهجوم ودعمه وتعظيمه. لم يكن الشيخ محسن متحسناً لهذه العارة المباحة لكنه قابل مهاجمه بالعدد القليل من أقربائه والدميين في داره من حيز متكاريه⁽¹⁾ وأحبرهم على الانسحاب بعد أن اشق عن صفوف المهاجمين، انفرسان من العشائر حينما أدركوا هدف الهجوم وغايته⁽²⁾

أدت هذه العارة كما توقع القنصل الفرنسي إلى أن يأخذ الحماديون ثأرهم⁽³⁾ بقواهم الخاصة من خلال عارت على الحرافشة هي سهل بعلبك نفسه، أهمها عماراتهم على عيون اعرش ومداخمتهم لعدد من الأمراء ولم تنته هذه العارات إلا بانحسار الوحود الحرفوشي الصال عن بقاع وبلاد بعلبك نهائياً

السقوط

بعد ثورات متلاحقة وحروب مصيبة مع العساكر العثمانية توالى الحطوب على الحرافشة خصوصاً بعد ثورة الأمير محمد وهجومهم الجسور على دمشق وسقوط أهم أمرائهم في معركة معلولا بين قتيل وأسير سنة 1850م وما أعقبها من عذر مصطفى باشا بمن تبقى منهم وارسائهم إلى المدهي البعيدة هي أرحاء الامبراطورية. وأمضى أمراؤهم الدين نجوا من القتل أو الأسر آخر أيامهم كسلمان وحمد ومحمود يواجهون قوة لا قدرة لهم عليها. ومن المنه أن المعتمدين الاكثير كانوا يدعمون السلطات

(1) إسم يطلق على الأعوان المسلحين

(2) كانوا يجهلون ان الحملة تستهدف الشيخ محسن وهم يرتبطون به بولاء عشائري بعضهم من مقاتلته.

(3) وهذا ما أبداه وزير الخارجية الفرنسي ماسيو توفوبيل M THOUVENEL في رسالته المذكورة، فضلاً والمؤرخة في 22 آب 1862م. هاجم الحماديون مناطق البحر مشة رداً على انتهاك سيادة الجبل. عنوان بحث في جريدة الديار عدد 18 آذار 2000، انطون شعيان

العثمانية باتجاه القضاء على الحراشة و ستئصالهم من سوريا كلها عيرة على مصلحة هذه الدولة وأمنها كما يقوون⁽¹⁾ وكانت يكثر في هذه الفترة أهم حلفاء السلطان وأكثرهم نفوذاً على إدارته هذا أن الموقف الدولي يكاد يجمع على معاداة آل الحرفوش، وإنزال العقاب بهم، والتخلص من وجودهم في لبنان فإن الدول الكبرى الفاعلة بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية المحتملة على معظم الأمور المتعلقة بلبنان والمتنافسة على النفوذ فيه، قلما اتفقت على أمر كتحاقها على الخطر الذي يمثلته آل الحرفوش على مصالح كل منها⁽²⁾ رغم أن لدولة عثمانية وفرنسا لأسباب مختلفة أعادت النظر في هذا الموقف لاحقاً وبعد هوب الأوان.

كان القنصل الإنكليزي يقترح على حكومته ضرورة القبض على كل فرد من أسرة حرفوش، بسبب قوتهم وظلمهم وثورتهم، وتعاد أميرهم عن كل سوريا⁽³⁾.

بينما يعرب القنصل الفرنسي عن مخاوفه إلى حكومته من أن تشكل هذه العائلة تهديداً للقوات الفرنسية المراقبة في لبنان بتوجيه من المراسلة الأولى لدولته وهي إنكليزا.

كتب القنصل الفرنسي العام في بيروت الكونت مونتينيغليو Le Comte Bentivoglio إلى وزير خارجيته توفونيل بتاريخ 9 أيلول 1860م

1 - لم تنقطع بحركات سعيد بك* وسائر رعماء الدروز التي تكاد تكون يومية إلى القنصلية الإنكليزية، أن تأكيد الحماية و النصائح المعطاة جعلت هؤلاء الشيوخ أكثر اطمئناناً مما كانوا عليه منذ بضعه أيام.

لقد أكدوا لي أن هجرة الدروز نحو حوران توقفت⁽⁵⁾ ولا يصكرون إلا بنوع من التحالف الذي أوشك أن يبرم مع متاوله بعلبك لمقاومة أي هجوم فرنسي يشن عليهم بالتعاون مع الصرق العثمانية.

(1) راجع تقارير القنصل الإنكليزي براب حول ضرورة الخلاص من الحراشة (مذكور في مكان سابق)

(2) تقارير القنصل البريطاني وتمير القنصل الفرنسي عن تحالف الحرفوشي الدرزي وتصريح هؤلاء باشا في محاصر اللجنة الدولية لدى تقاوى آل الحرفوش يصبون جميعاً في هذا الإنجاز.

(3) المحررات الحازن من 353 مذكور بكامله في مكان آخر

(4) الرعيم الدرزي سعيد بك جبلاط.

(5) هرب لكثيرون من الدروز إلى حوران هرباً من ملاحقة والعقاب بعد وصول الجيوش الفرنسية إلى لبنان وتأييد اللجنة لدولته لموطئها معالجة ديول حوادث 1860م

إن المتوالي حسن همدان⁽¹⁾ عضو مجلس القائمقامية المسيحية يقوم بالوساطة بين أمراء بعلبك الحرافشة والمقاطعية الدرور في لبنان ليصلوا إلى هذه النتيجة⁽²⁾.

إن الحماس الذي أبداه القنصل الإنكليزي في متابعة حملة حسني بك للقبض على الأمير سلمان وطلب المكافأة له من السلطات الإنكليزية من أجل ذلك، وهو ضابط عثماني قام بما هو من صلب مهمته في خدمة دولته يثير التساؤل عما إذا كان هذا العمل خدمة مدهوعة الأجر بناءً على طلب دولة أجنبية.

إن القنصل المرسى قلو من نجاح لوساطة لتي قد تؤدي إلى قيام جبهة عسكرية هي وحه ألقوات المرسية المراقبة في لبنان

وهكذا أصبح القصاص على الحرافشة مصلحة مشتركة بين الدولتين اللدوديين

ويبدو أن الدولة العثمانية وعلى لسان وزير خارجيتها تبادل انكترا وهرسا موقعهما السليبي نحو هذه العائلة وأنها ترى وجوب معاقبتها

في إحدى اجتماعات اللجنة الدولية طرح المسدوب النمساوي السيد فيكبيكر weckbæcker سؤالاً يتعلق بالعقد حسني بك حيث أثار عصبية في هيئة محكمة بيروت غير العادية فصيحة بطلاً للثهم الموجهة إليه حول ما أتاه حين كان قائداً لحامية بعلبك

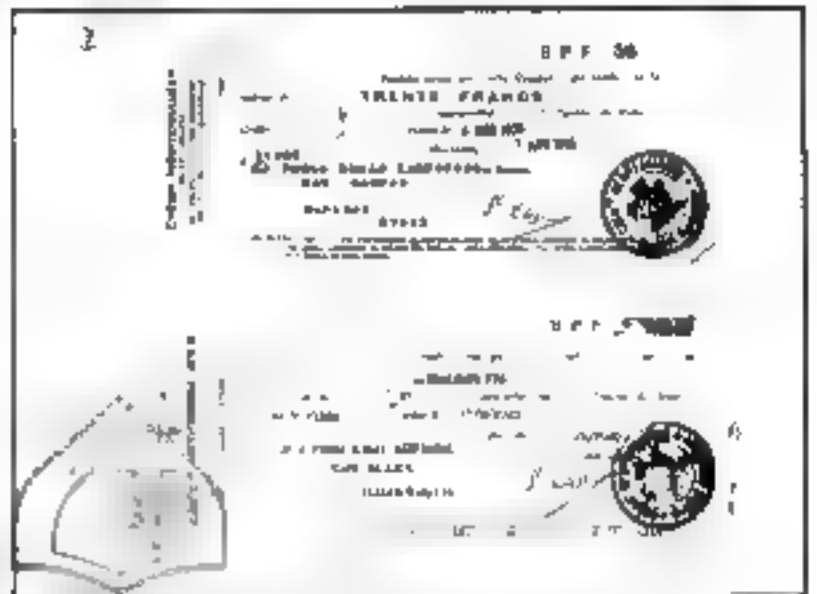
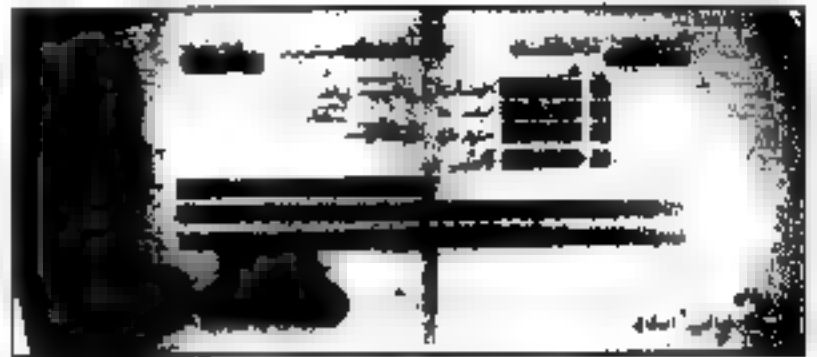
وقد أجاب فؤاد باشا أن أية تهمة صريحة لم توجه إليه حتى الآن وأن سلوكه سيحصى لتحقيق دقيق وسيتم معاده عن منصبه في المحكمة مؤقتاً والذي يبدو له أن طبيعة الذنب المنسوب إليه أقل خطورة من ذلك المنسوب إلى بعض أفراد عائلة حرهوش⁽³⁾

تصاهرت عوامل عدة للتعجيل في طي صفحة من تاريخ الشيعة في البقاع تعود إلى أربعماية عام حلت أولها اتفاق الرأي الدولي الممثل بالكلرا وهرسا أكثر الدول بعوداً في هذه الحقبة، مع رعية الدولة العثمانية، في الخلاص من هذه العائلة بالإضافة إلى

(1) هو حسن همدان حمادة من الحصين في كسرو - (مقاطعات جبل لبنان رياس عدم من 289 وقد سبق ذكره.

(2) D D C T10 p256.

(3) لجنة بيروت لدولية لمحاكمة الكاملة الأب بطون صومر 62 - 63 أيضاً D D C T10 p320 ويبدو أن معثلي فرنسا وبريطانيا وتركيا جميعوا على اتحاد موقف سليبي من هذه العائلة.



مختصة بوزارة الداخلية

صورة فرم من تحصيص الراتب بدل
أموال مصبوبة وأوامر دفع تركية
وفرنسية ولبنانية
خصصت الدولة العثمانية لكل فرد من
الحراقة راتباً شهرياً بدل أملاك العائلة
التي صادرتها الدولة مكاملها
وقد بقيت الحكومات المتعاقبة تدفع لهم
هذه الرواتب في عهدي الاستبداد
والاستقلال

الرقم	الاسم	اللقب	الدرجة	الوظيفة	الراتب	الملاحظات
١٩٩	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٠	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠١	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٢	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٣	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٤	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٥	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٦	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٧	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٨	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢٠٩	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد
٢١٠	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد	أحمد

هذا هو جدول الرواتب الشهري للعائلة التي صادرتها الدولة مكاملها
وقد بقيت الحكومات المتعاقبة تدفع لهم هذه الرواتب في عهدي الاستبداد
والاستقلال

عاملين داخلين مهمين أولاهما الحرب الطائفية التي بدلت مقاييس كثيرة وتحالفت تقليدية ودعم مسيحي كانت كلها من المسلمت المسيحية في هذه المنطقة، والعامل الثاني جبهة شيعية لم يعد تماسكها التريحي مؤثراً بعض المستحدثات والتدخلات والآثار التي خلفتها الحوادث الطائفية وشعبتها وانعكساتها وأثارها السياسية والتنسية أيضاً

تمكنت السلطة أخيراً من التحكم في مصير الحرافشة وهو أمر عززت عنه طويلاً فيما مضى. حتى حريم الأمراء وصغارهم لم يتجوزوا من مشقة الأسى ومعاناته. فقبضت الدولة عليهم وأرسلتهم إلى بلاد لم يسمعو بها قط قبل ذلك كأدرية وكريت ومجاهل الباضول⁽¹⁾ إصاعة إلى شرد بعضهم في دمشق والقاهرة وسائر مدن ومناطق الامبراطورية، ولم يبق في هذه العائلة غير بعض أفراد ساكنين في القرى لا أهمية لهم كما يختم ألوف تاريخه عن أيامهم العذرة⁽²⁾ وقد صادرت الدولة أراقيهم وبيوتهم وأملاكهم⁽³⁾ وخصصت لكل فرد منهم رتناً أسعته بدل أملاك مصسطة بقي المورد الوحيد للمشردين منهم في مختلف مناطق الامبراطورية حتى سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924م⁽⁴⁾ أما القلة التي بقيت في بلاد بعلبك في لبنان فقد استمرت الدولة المنتدبة تدفع لهم مرائبهم حتى الاستقلال⁽⁵⁾ ونقبت أملاكهم مصادرة رغم بعض المحاولات المصائية لاستعادتها. وقد توجه بعض المؤرخين أن من درية هذه العائلة من تحلى عن تشيعه واستبدله بمذهب آخر وهذا قول لا صحة له رغم أن هناك من يحمل الاسم نفسه دون أن تجمعهم معه أية رابطة من قرابة أو نسب وإنما هو تشابه في الأسماء وحسب فقد رعم أحد المؤرخين أنهم تنصروا⁽⁶⁾ وقال آخر أنهم تظاهروا بالدرزية⁽⁷⁾ وبالعثماني وقد استمروا على تشيعهم رغم ما عابوا لأجل ذلك من عنت وعناء دون أن يشذ واحد منهم عن هذا المذهب وقد عانى الشيعة في بلاد بعلبك بعد عيابهم حالة من

(1) تاريخ بعلبك، ألوف ص 52

(2) تاريخ بعلبك، ألوف 53.

(3) راجع الكشف الذي يتناقله الحرافشة عن أملاكهم المصادرة

(4) راجع عريضة أحد الحرافشة من سكان مصر التي رفعها إلى الملك فاروق سنة 1941م

(5) تنازل الحرافشة عن مرائبهم لقاء مبلغ مفصوع بعمته الحكومة اللبنانية لكل فرد منهم وثيقة 04.

(6) فخر الدين المعني الثاني الحوري بولس قرالي ص 44

(7) مقدمات جبل لبنان في القرن التاسع عشر رياض عسك ص 179

(8) أسد رستم، آراء وأبحاث، ص 53 - 104.

الصعب والتراجع لاحظها قبضل عام فرسي عمل في بيروت بعد أكثر من عقد على نفيهم فكتب إلى حكومته.

إن القسم السوري الذي يمتد في الشمال حتى الهرمل وفي الجنوب نحو جبل الشيخ - ومرتمعات راشيا وحاصبيا والتي تحوي السهول الخصبة هي البقاع وبعليك ذات أهمية كبيرة بموقعها الجغرافي بين لبنان و د تي لبنان، (الجبل الشرقي) وسكانها.

كان قضاء بعليك فيما مضى تحت التبعية المطلقة للمتأولة ولكن شيئاً فشيئاً أخذ المسيحيون يحلون مكانهم فإذا لم تنوّه هذه الحركة فمن المرجح بعد عدة سنوات أن يأخذ الروم مكان عدة آلاف من المتأولة لا يزالون في هذه البواحي.

ومن أجل إقامة التوازن بين الطائفتين قام مدحت باشا بجهود ناشطة في المسطيطينية حتى يحصل على النمو لصالح العائلة الشديدة الأهمية حرفوش التي سادت قبل نفيها، في قضاء بعليك

إن سهول البقاع التي كان قسم منها ملحماً بلبنان منذ عدة سنوات هي حالياً وبشكل كامل بين يدي المسيحيين وخصوصاً المتأولة⁽¹⁾ إن هذا السهل الذي فيه ماية وأربعين قرية يدع مليون فربك صرانب مع أن سماته الإدارية لا تتجاوز 75 ألف فربك وهذه ثلاثين مدرسة بروتستانتية⁽²⁾.

بالإضافة من تحاهل المؤرخين اللبنانيين المعاصرين والمتأخرين ما نال سائر أبناء طائفتهم في مناطق أخرى

إن هذه العائلة التي حكمت قسماً كبيراً من لبنان - ربما هو القسم الأكبر مساحة وسكاناً⁽³⁾ وجباية⁽⁴⁾ بالإضافة إلى المناطق الوسطى من سوريا هي فترات كثيرة وبيع من أهلها بالإضافة إلى ميادين السيف والحكم وسياسة، أعلام في العلم والفقه والشعر ما لا يمكن طمسه من كتب التراجم ودروب الشعر، والذاكرة الشعبية الباقية رغم السنين، وإن ما خلفوه من آثار لا تزال باقية من القلاع والحصون والمربط والمساكن

(1) بعد نفي الحرافشة ومصادرة أملاكهم تمكنت بعض العائلات المسيحية ومعظمهم من الذين كانوا يعملون في خدمة الحرافشة والأهصام بأمورهم المدنية والكتابية من الحصول على ملكية القسم الأكبر من الأملاك لمصادرة عن طريق الإدارة العثمانية

(2) D D C T14 p.226

(3) راجع جداول السكان والمساحة في فصل آخر

(4) لبنان في القرن السادس عشر، عصام حبيفة - جدول الجباية في بعض البواحي اللبنانية ص 61

قائمة المصنفين	رقم المجلد	تاريخ
١. الباقون	١. محمد بن محمد	١. سنة ١١٠٠
٢. المراسم	٢. محمد بن محمد	٢. سنة ١١٠٠
٣. مذهب الميرزا	٣. محمد بن محمد	٣. سنة ١١٠٠
٤. أحمد بن محمد	٤. محمد بن محمد	٤. سنة ١١٠٠
٥. سما	٥. محمد بن محمد	٥. سنة ١١٠٠
٦. تحت	٦. محمد بن محمد	٦. سنة ١١٠٠
٧. مفسر	٧. محمد بن محمد	٧. سنة ١١٠٠
٨. حاشية	٨. محمد بن محمد	٨. سنة ١١٠٠
٩. حاشية	٩. محمد بن محمد	٩. سنة ١١٠٠
١٠. حاشية	١٠. محمد بن محمد	١٠. سنة ١١٠٠
١١. حاشية	١١. محمد بن محمد	١١. سنة ١١٠٠
١٢. حاشية	١٢. محمد بن محمد	١٢. سنة ١١٠٠

عريضة مرفوعة إلى الملك فاروق من أبناء
الهرافشة الذين دعوا إلى مصر

جدول قديم بأعلاك حرهوشية مصدرة
في البقاع.

والأوقاف. وقد كانت بعلبك وبلادها من أعنى مدينتي سوريا أوقافاً وحبوسات على المدارس والمشاهد داخل البلاد وحارحها. بها فيها الحرم من الشريص وكان الأمراء الحرافشة يقومون بالإصافة إلى مهاتهم في الحكم بالولاية الشرعية عليها لم يجد أحد أوائل المكلمين والمترعين المساهمين بوضع أول تاريخ شبه رسمي عن لبنان⁽¹⁾ ما يقوله في الإشارة إلى هذه العائلة وتاريخها. ندي استمر أكثر من أربعماية عام سوى أنها دعائه من الشيعة بحوار بعلبك، يخاف سطوتها عسرو الطرق وسكان سهل البقاع وهي عائلة الأمراء الحرافشة.

وهذا هو حال معظم رملاء هذا المؤرخ ندي أدجن كمبره في صلب التاريخ اللبناني الكثير مما وصفته محيلته الخصصة وحدها فاندع به الكثيرون جهلاً أو تجاهلاً وساروا على مواله وتغريب أنه لولا رعيتهم وحماسهم في إبراز بطولة فجر الدين وأمجاده لكان نصيب هذه العائلة من الذكر في محرى الأحداث أقل بكثير فأمجاد الأمير بحاجة إلى قلاع بسقط، وقرى تدمر، وأوراق تنهب وخصوصاً أمراء يهرمون، من هنا كان للحرافشة دوراً يؤدونه في تاريخ لبنان ولو أردنا التوقف عند مثل هذه الهبات لوحب علينا مناقشة الحر، الأكبر من التاريخ الساسي الكلاسيكي، عندما يأتي على ذكر الحرافشة أو غيرهم من الشيعة اللبنانيين، حتى أن صحة تشيع هذه العائلة، ونعلمها بدهيها، نعصر للكثير من الأوهام التي حاولنا عبثاً أن نجد لها مبرراً ولو باطلاً في صفحات التاريخ، ناعسار أن من شاعه وروحه هم من جهادة هذا العلم وكبار رجاله

يقول أسد رستم

تظاهر الأمراء الحرافشة بالانتماء إلى الشيعة ليسايروا سكان المنطقة التي تولوا أمر القطاعها⁽²⁾.

«وقال آخر محتهداً ليوضح كيف أصبح لحرافشة دروراً؟»

إن بلاد بعلبك التي يحكمها الأمراء الحرافشة، كانت تحصص لسلطة ال تنوخ ولا

(1) لبنان مباحث عمية وجغرافية لجر، لأول لجه من الأدب، بهمة اسماعيل حفي بك متصرف جبل لبنان والمؤرخ هو الأب بولس نجيم مذكور سابقاً (م. 1931)

(2) آراء وأبحاث أسد رستم ص 104

يستبعد أن يكون الحرافشة قد اعتنقوا الدعوة التوحيدية إرصاءً لسادتهم⁽¹⁾.

ولم يقتنع الأب بولس قرالي أنهم كانوا سعة أو دروزاً فكان له رأي آخر.

«عمرت البلاد وايعت الأراضي، وجرت تيار المسيحية حكامه أنفسهم، من آل شهاب المسلمين، وحرفوش الشيعي، فتنصروا، وأصبح لبنان معقل الكاثوليكية هي الشرق»⁽²⁾

إن مناقشة مذهب الحرافشة هو عبث لا طائل منه (فالفرض) لأزمهم منذ العصر المملوكي ودهموا من أجله ثمناً باهظاً في العهد العثماني ولم يشذ عن هذا المسلك واحد منهم في القديم والحديث

وقد فات المؤرخ رستم أن مدينة بعلبك لم يكن من أهلها شيعي واحد بعد نحو قرن على حكم الحرافشة هي أيام الأمير علي

سكان مدينة بعلبك⁽³⁾

في منتصف القرن السادس عشر

سنة	10614
نصارى	1182
يهود	174
شيعة	لا يوجد
دروز	لا يوجد
المجموع	11970

(1) مذكور سابقاً عمام

(2) مذكور سابقاً الأب بولس قرالي ص 44.

(3) راجع جداول السكان والمساحة في فصل آخر

الباب الخامس

الحكم الشيوعي في جبل عامل

الفصل الأول: بنو وائل

الفصل الثاني: جبل عامل في ظل التزام فخر الدين

سنجق صفد

الفصل الثالث: الثورة الكبرى

الفصل الرابع: ناصيف النصار

الفصل الخامس: حرب الطياح

الفصل السادس: الحكم المصري في جبل عامل

الفصل السابع: نهاية الحكم الوطني



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

الفصل الأول

بنو وائل

بنو وائل "الدين عُرِّهوا بعد فترة بني شارة، هسمي حبل عامل باسمهم ثم حملوا اسم علي الصغير، أخذ رجالهم وبعدها بني بشار وأخيراً اشتهروا ببني الأسعد. هم عشيرة من نادية نحد تنسب إلى السوائل من عنزة⁽²⁾ هاجرت إلى حبل عامل في وقت مبكر من العصر المملوكي أو قبله بقليل، هي تاريخ لا يمكن الجرم به، واستقرت هي جنوب بلاد شارة وأقامت مصارمها على تلة، حيث تقوم الآن قرية عدسة، وما لبثت أن سادت على غيرها وحكمت حبل عامل أو بعضه في صوره مسنمة بحسبها بعض فترات الإنقطاع المتباعدة حينما ترعم على الانكفاء أو الاحتفاء لتعود بعد حين إلى الظهور من جديد، تتأرجح بين القوة والضعف وبين المؤرد والعبء وقد أحدثت مراكز حكم متعددة وأقام شيوخها هي قلاع وحصور أممها قلعة تثنين مقر الحاكم العام وشيخ المشايخ صاحب السلطة الأولى على باقي أساء عشيرته وغيرهم من الحكام والسكان. وقد بقيت هذه القلعة مقر إقامة بعضهم إلى عهد قريب⁽³⁾

هذا ما تكاد تجمع عليه معظم المصادر المعروفة وهو المتواتر عند الناس. وقد أسهب المؤرخون العاملون هي تفاصيل نسب هذه الأسرة، وأسماء النابهين من أفرادها، قديماً وحديثاً، وعلاقتها ببني شارة، ودورها القيادي في حبل عامل، بعد خضوعه للعثمانيين وتقدمها صموه المقاومين لسلطانهم، أو المدافعين عن شخصيته الخاصة، يوحه الطامحين إلى السيطرة عليه والقصاء على خصوصيته وتمييزه.

(1) بطن من ربيعة من لعدانية فرع إلى بكر وتعلب وعرة

(2) بطن من أسد بن ربيعة

(3) آخر من ولد هي هذه العنة بزيه ابن شبيب باشا لاسعد توفي عام 2005 وقد زار هذه القلعة وكانت لا تزال عامرة السيد محسن الأمين أثناء الحرب الأولى أعيان الشبة، ج 11، ص 278.

- تداخل تاريخ هذه الأسرة بتاريخ جبل عامل بحيث يصعب الفصل بينهما. فأيام قوتها ومنعتها هي الفترات المجيدة في تاريخه وأيام بؤسها وتقهقرها هي الفترات السوداء في مسيرته، والعكس صحيح كما لو أن القدر التاريخي ربط بينهما طيلة هذه القرون المتعاقبة

- كان ابن شارة في العصر المموكي من كبار رجال لدولة والحكم، يشغل عدة مناصب قيادية هي الأجرة المدنية والعسكرية، في ساحة دمشق بالإصافة إلى كونه حاكماً عاماً على جبل عامل ورئيس لعشائر فيه أو مقدم العشير كما هو لقبه الرسمي وقد يكون أحياناً «مقدم التيممة»، مما يمد أنه يحكم وادي التيم أيضاً لأن النطاق الجغرافي لهذا الإقليم كان يشمل منطقة من جبل عامل أوسع مما اقتصر عليه فيما بعد وهي جميع لحالات هو المدافع المباشر عن البلاد التي يحكمها التي قد تتسع أحياناً إلى خارج حدود جبل عامل، فتشمل مناطق محاوره تمتد أو تنحصر طيفاً لتطوره السياسية والإدارية السائدة، يرد عنها العارات سواء أتت من البحر كما فعل سنة 1451م⁽¹⁾ عندما ردّ العراة الصرنحة عن صور، أو من البر كما فعل قبيل، لإجتياح العثماني هي معركة شيبين سنة 1503م⁽²⁾.

ظهر واضحاً أن هذه العائلة لعبت دوراً قيادياً مع غيرها، في مقاومة نمود هجر الدين بين صيدا وصمد وهي اسعي إلى إقامة حلف شيعي عاملي - بطنكي في وجه تمده مما أخبرها على الروح من بلادها باستطاع تحسن الظروف ولا تعلم يقيناً إذا كان هو الروح السياسي الأول لكنه حتماً لم يكن الأخير لأنه تكرر في مناسبات لاحقة أكثر مساوية وقهراً

لأرم تاريخ هذه الأسرة، المتفاوت بين الشدة والرخاء، والمتقلب بين العز والعبث، عوامل أساسية ثلاث تركت بصمات عميقة على كل مسيرتها، وبصمات أعمق على كل ملامح تاريخ جبل عامل وهي التشيع والسيف والشعر.

(1) حطّط لشام كرد علي، ج 2، ص 189.

(2) صدق الأخبار الجزء الثاني، ص 929.

1 - التشيع

كان جبل عامل هو المقاطعة اللبنانية الوحيدة التي كان جميع سكانها، حكّاماً ومحكومين، ينتمون إلى طائفة واحدة مما حسه طيبة تاريخه، التعقيدات والمتاعب ذات الطابع المذهبي أو الطائفي التي عرفتها المشرق اللبنانية الأخرى.

كان معظم سكّان جبل الدروز كحيرانه في وادي التيم دروزاً، في الوقت الذي كان الحاكمون غالباً من السنة، يمارسون سلطنتهم عبر طبقة درزية أرسقراطية تتألف من عائلات محدودة ومحدّدة، تتولى الإشراف نوافعي المباشر على منطقة أو قرية أو عدّة قرى، بما فيها دير القمر نفسها مركز الإمارة⁽¹⁾ وبياصر الحاكم التوحي أو المعني أو الشهابي سلطته بواسطة هذه الطبقة، وعبرها دون أن يتمكن من تجاوزها دون مخاطر كبيرة.

وعندما تكاثر المسيحيون والموارنة خصوصاً، هتّز الانتماء الطائفي عند العائلة الحاكمه فلم يعد من السهل معرفة حقيقة بعض الأمراء الشهابيين وأسسائهم للمميس، والتبس الأمر على الجميع ولا يزال العنوص حتى اليوم يلماً حقيقة الانتماء الطائفي لبعض الأمراء، وسائر الانتماء بين أبناء البيت الواحد، فقد كان الأمير يوسف مارونيّاً على الأرجح، وشقيقه سنياً مما أدّى باستنحية إلى اصطفاط طائفي ما لبث أن تطوّر إلى فتنة وصدام مما أطاح بالإمارة الشهابية وأشعل حوادث منتصف القرن التاسع عشر الدامية.

هي مدينة بعلبك والبقاع الأوسط كان يعلب لوجود السني في أول الأمر بينما الحكّام انحرافشة من الشيعة. وكذلك الحال في جبل لبنان فقد كان الحماديون شيعة بينما أصبح لسكّان المواربة أكثرية دروز بوقت وهذا التباين سبّب مشاكل وقلاقل كثيرة في المنطقتين، وكان من أهم أسباب النزاع التي لارمت باريحهما.

أما الوائلتيون فهم كمعظم سكّان جبل عامل، من الشيعة⁽²⁾، وكذلك جميع الأسر القديمة التي سادت قبلهم أو هي زمانهم فكان هذا التجانس المذهبي الشامل، عامل وحدة وتآلف بين الجميع، حكّاماً ومحكومين، على اختلاف ألوانهم وطبقاتهم

(1) كان حكم دير القمر لال بك بيسماهي في عصر وقت مقر لحكم الشهابي

(2) كان عدد سكان جبل عامل حسب إحصاءات الطنسية في القرن السادس عشر، أكثر من خمسين ألفاً بينهم نحو ثلثماية مسيحي يقيمون في بعلبك، وبقاؤون من الشيعة

وأوضاعهم الاجتماعية والثقافية مما عزز اللحمة بينهم وأكد على وحدة الشعور والانتماء والترابط فكانوا، جميعاً محاربين وفلاحين، في آن معاً، ينصرفون إلى الزراعة والمهام العادية في زمن السلم ويبادرون إلى السلاح وقتال عندما تدعو الحاجة. وكان رجال الدين والمقه يشاركون العامة في الحالات فكان هناك تحالف وتلاحم بين الحكام الرميين والمراجع الدينية، فهما عادة على وفاق وتعاون، يساهم أصحاب المعائم في تثبيت سلطة رجال السيف ومساعدتهم، بها لديهم من تأثير أدبي بالغ في صفوف الناس بإدارة الشؤون المدنية أيام السلم، ودعم الجهود العسكرية عندما تدعو الحاجة. وكان بنو وائل أنفسهم يحضرون لسلطة المراجع الدينية في أمور الشرع والقضاء والإحتداد، ويظهرون لهم بالإحترام الشديد، ويقدمون لهم مظاهر الإجلال والحصوع وقد ذكر المؤرخون العاصيون كثيراً من الحوادث التي تدل على نوعية العلاقة التي كانت تقوم بين الحكام الوائسين ومرجع الشيعة من كبار الأئمة والعلماء ومنها أن الشيخ ناصيف البصار الوائلي قصد بموكب حافل على عادته قرية «عيناتا» لزيارة العلامة السيد محمد الأمين المعروف بمعتى الشارنبي هو حده يناول أحجاراً وطيباً لباء حدار منزله، هزل الشيخ عن ظهر جواده، وقبل يد السيد وأخذ يساعده على حمل الأحجار والطيب، ولم يقبل أن ينوب عنه بعض رجاله وذلك تزيكاً واحلالاً وخصوصاً لما يمثل هذا السيد من موقع روحي مميز⁽¹⁾. وكان العلامة الأكبر شيخ الطائفة عبد الله آل نعمة الحبيبي، إذا رار تسير برل صيماً على أحد الأهلين فيهرع إليه حمد اليك أو علي بك حكام ذلك العهد، متمسين قبول دعوتها فلا يقبل ولم يعرف عنه أنه صعد القلعة أو قبل صباغة حاكم وكان كسره من العلماء والقضاء على براهة بالعة وكانت سلطنتهم هي السلطة العليا التي تحصى لها الرقاب والرؤوس. ولم يكن يجسر رعيم قتل مهما عظم شأنه، وكبر مقامه وتوهر ماله وجنده، على مناواة العالم أورد حكمه⁽²⁾.

(1) تاريخ جبل عامل صفا، ص 96.

(2) المصدر السابق، ص 105.

2 - السيف

كان لجبل عامل في مختلف العصور، حدود جغرافية ثابتة ومحددة متعارف عليها، تشكل كياناً سياسياً موحداً يتميز بخصائص ثقافية ومذهبية واجتماعية وديموقراطية، تختلف عن خصائص المناطق المحيطة به، مما جعل من الدفاع عن هذه الحدود أحد أهم المهمات الأساسية التي تحدد أهليه حكمه وحدارته، وثبتت الثقافة السكان حول قيادتهم ودعم رجال الدين والعلم لهم فكر على حكمه من الوائليين، أن يكونوا قبل أي أمر آخر قادة عسكريين، على قدر كافٍ من الكفاءة والأهلية للقيام بواجب الدفاع عن هذه الحدود المهددة دوماً، بفاعلية ومهنية، فأعانتهم طبيعتهم القتالية وتقاليدهم الصروسية التي شأوا عليها حيلاً بعد حين على القيام بهذه المهمة بمهارة نادرة، واحتراف معيّر، جعل منهم محاربين شداء وهرسان محليين وهي حالة استعداد للقتال تكاد أن تكون دائمة لقد أحاط بهم الطامعون والمترتصون من كل الجهات وإلى الشمال والشرق هناك حكّام الشوف الحاضرون ابدأ، لتلبية أوامر الولاة العثمانيين بالهجوم على بلادهم واكنساحها في كل وقت ومي لجنوب توالى غارات الأعراب يقصد الغزو والنهب، أو يبعرك الحكّام المستطعمون الطامحون إلى توسع رقعة نفوذهم ومدّ سلطتهم نحو الشمال، فكانوا في حالة استعداد دائم لصعد أي هجوم محتمل في أي وقت وأى مكان. وكان الصدام بينهم وبين الولاة العثمانيين من الأمور التي ما تكاد تتوقف حتى تتحدّد بصورة دورية وكأنها من التقاليد السياسية طيدة عقود طويلة، كما هو حال المناطق الشيعية الأخرى في لبنان

لقد اضطررتهم هذه التهديدات الدائمة إلى تحويل حملهم إلى مجتمع عسكري منمرّس له تقاليد وأسابيليه الحربية يتحوّل سكانه جميعاً إلى جنود مجهّزين وجاهرين، عندما تدعو الحاجة ويدقّ النعير، كما يتحوّل حكمه إلى قادة ومقاتلين سواء كانوا من الأسرة نفسها أو من الأسر الحاكمة الأخرى التي يربطها جميعاً تنظيم تراتبي، أثبت جدواه وفاعليته في مناسبات عديدة.

أصدر الشيخ ناصيف النصار عام 1749م منشوراً يفصلي بترميم الحصون والقلاع ونقل مراكز الحكومات إليها وشحنها بالسلاح والمقاتلة⁽¹⁾، وكان تحت يده حصون وقلاع وفداوية يركبون الحبل وفرسان وأنطال شجعان⁽²⁾.

(1) المصدر السابق ص 87

(2) الدرر العسّان الشهابي، ص 79.

وكانت الأوامر تصدر عن الرعماء والقادة بالوقوف دائماً على قدم الإستعداد وحمل السلاح لدى سماعهم أول طلق ناري⁽¹⁾

كانت مراكز حكمهم في قلاع محصنة أقاموا فيها مع رجالهم، يخرجون منها للقتال. فإذا طُصروا عادوا استعداداً لحولة أخرى، وإذا انهزموا عادوا إلى بلاد إلى خارجها، وقاموا بعبارات على أعدائهم حتى يتمكنوا من العودة منتصرين بعمل صمودهم أو تغيير الظروف، كما هُزموا عند عودة فخر الدين من أوروبا سنة 1618م أو عند حكم محمود أبو هرموش لجبل عامل سنة 1707م أو عند اكتساح الحزّار لبلادهم وبكة جبل عامل الكرّي سنة 1780م

كانت قلاعهم وحصونهم منتشرة في سائر أنحاء بلادهم وأهمها: تيبين، هوبين، مارون، ميس، دونه، شمع، شحور، يارون، لقط، مرج قلاوية

تمرس العامليون على الحرب والعروسة ووصلت شهرة بعض رجالهم إلى خارج جبلهم فمال الشهابي إن محمود النصار كان يعد بألف فارس⁽²⁾ وعده بوهل بمائة⁽³⁾، كذلك اشتهر قاسم المراد وباصيف بصفته.

لمد تعاضد على حكم الشوف ثمانية أمراء شهابيين من 1697م و1840م، بالإضافة إلى عدد غير محدود لم يعثر حكمه طويلاً لم تمت أمير واحد منهم في معركة على صهوة جواده، بينما قتل في الفترة نفسها من المقتلين عدد يصعب تحديده، من حكام جبل عامل وقادته منهم علي بن علي الصغير وأولاده 1661م ومحمود النصار وقاسم المراد 1779م وباصيف النصار 1780م وقبلاان الحسن وأخوه إبراهيم 1785م وحمزة بن محمد النصار 1784م وحمد العباس وأخوه حسين وأولاد عباس العلي 1783م وحسين الشيب 1839م كما مات في سجون الدولة وغالباً بالسّم، مشرف 1700م وفارس الناصيف 1824م وعلي بك ومحمد بك 1865م

كانت حروبهم دفاعية في معظمها تتم عادة على أراضيهم، ودخل حدودهم، بوجه عدو عريب أتاها عارياً من الشمال، مغنياً أو شهابياً، أو من الجنوب معتدياً على حدودهم طامعاً بأحيائها كظاهر العمر، أو مؤدياً ومعاقباً يصدونه. أكان

(1) راجع تاريخ صفا 82 - 83.

(2) برهة الزمان لشهابي، ص 1004.

(3) كشف اللثام بوهل، ص 200

والياً على دمشق أو صيدا أو عكا فلم يعرف أنهم دخلوا في قتال خارج حدود بلادهم طمعاً في تحكّم وسيطرة ولم يخرج رحلتهم للقتال خارج جبل عامل إلاّ لمساعدة حليف، (صاهر العمر، أبو الذهب، يوسف شهاب) أو مطاردة غازٍ (عسكر إبراهيم باشا المصري - أعراب الحولة ومرج بن عامر) ثم يعودون إلى ديارهم حال انتهاء القتال وقتلما جرى مع غيرهم من لأعيان براع على أرض أو حكم أو معصم. إلاّ ما تتناقله بعض التواريخ من رويات وأساطير عن وقائع حائره وعامصة، حرت في المجهول في بداية أيامهم احنى على إثرها انحصام مقترصون من آل سودون وشكر، بينما حافظت علاقاتهم مع العائلات العامية المقدّمة مثل المناكرة وبني أبي صعب في غالب الأحيان على ما تمليه الأعراف، من وّد وتواصل، ويقتصيه الحظر الخارجي من عناصر وتحالف.

وعالياً ما كان هاجس خيرانهم في الشمال، لدهوعين بتشجيع من أولي الأمر في دمشق أو صيدا، هو الاستيلاء المتماهي على أطراف جبلهم والتوسّع على حسابهم. وقد تمكّنوا بعد حروب ممّادة من تحقيق بعض مما سموا إليه، ولاسيما عند حلول السكبات الكبرى بهم واضطروهم إلى انجلاء إلى خارج بلادهم، كما حصل في عهد فخر الدين، وبعد ذلك، في عهد العزّز، فعسروا على هترات متمطّعة مباحق وقرى عاملة في مقاطعات حُزْبٍ وحمية لتعاج وجبل الريحان، وبعضها كان من حواضر العلم والسياسة عندهم

قاتلوا في الشمال كما قاتلوا في الجنوب وقد استلزم الحفاظ على عاملية قريتين صغيرتين (البصة ومارون) معارك عديدة ومماوصات شاقّة، تحاورت ما اعتادوا على القيام به من عاراب متباعدة في نفس الجهة لصدّ عروات الأعراب المتكرّرة (بنوصعي - الهنادي) ومطاردتهم حتى مضاربهم أحياناً لمنع تكرار هذه العروات.

دافع الوائليون على رأس العاملين أكثر من أربعة قرون عن جبلهم بوجه الطامعين، وبذلك حافظوا على طابعه وترثه وخصوصيته وقيمه، التي بقيت حيّة إلى اليوم. ولولا استماتهم في ذلك، لكانت حال النبطية وست حبيب وتنين وشحور والزرارية وصور، وهي من مراكز حكمهم وحواضر عاملة، كحال ما غيّرت من طبيعته وطابعه، النكبات والماسي والأطماع، من بعض ديار جبل عامل القديمة والعريقة كجزين وهونين

3 - الشعر

إذ كان الشعر ديوان العرب فهو على الأخص يحمل تاريخ بني وائل وسيرتهم وأيامهم وحروبهم ومعاركهم، وتاريخ ولادتهم ووفيتهم وأعراسهم، وهلاهم ومبائهم وأيام عزهم وبؤسهم وانتصاراتهم وهرثهم ومشاعرهم وعلاقاتهم. فهو من أهم المراجع التي حطت تاريخ جبل عامل وتاريخهم من الصياح، وصانته من عو دي الأيام وتعاقب السنين. فقد كان الكثير من شيوخهم وهرسائهم ينظمون الشعر ويذكرون فيه وقائعهم وأسماء معاركهم وكمية حوصها وبواريجها وأسماء أعدائهم من حكام وقبائل وأسر، ويفاضلون بأسابهم وماصيهم وحاصرهم مما يجعل من السير متابعة أخبارهم وتاريخهم من خلال ما ينظمون من الشعر وما ينظمه غيرهم هي مدحهم والإشادة بمآثرهم وتعدد أعمالهم، والحوادث التي حرت معهم بتفاصيلها وتواريخها وأسمائها وقد انته بعض المؤرخين المأخزين إلى هذا الواقع فأزجوا لهم من خلال شعرهم، وتمكوا بمصل هذا الإرث الشعري الثمين، من سدّ بعض النقص الحاد في المراجع التاريخية القديمة التي تفرض لتاريخ جبل عامل وبني وائل خصوصاً وغيرها من المواضيع

تتأري الشعراء العامليون عند كثر أحداث تاريخي مهم، هي تحويله إلى موضوع مصيد تتناول أدق تفاصيله واسابه وأثره مما يمكن أن يكون بحث مفصل حول أهمية هذا الحدث وتقييمه ووضع أحياء في موقعه المناسب بين ما سبقه ولحقه من أحداث أخرى

إن المساحات الشعرية بين الشعراء العاميين وغيرهم، ساهمت في إلقاء مريد من الوصوح على تفاصيل أحداث حسام ووجهات النظر المحتملة و لتناقص حيائها، وأحياناً كان التراشق الشعري، يترافق مع معارك لميامية والحربية، فبني الشعر محفوظاً ومرت الآثار الباقية كما أن لتاريخ على حساب الحمل شعراً، كان من تقاليدهم المرعية عند كل حدث هام، سواء أكان معركة أو هجرة أو ولادة أو وفاة أو تدشين قلعة أو بناء مسجد، فتحدّد زمانها بدقة دون أن يضطر المؤرخ كما يفعل عند الشك إلى التقصّي والمقابلة والجهد في لبحث و لترجيح.

(أ) الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الأسعد، الشيخ علي السنيني وانهقد المصد، شبيب ياش الأسعد

إن خلاف ناصيف مع طاهر وتحالفه معه، وما جرى بينهما من مواقع ووقائع هي الحاليتين، وتشربد العاملين بعد النكبة التي عصبت معركة يارون، ومعاباه المبعدين وحنينهم وغير ذلك، من المحطات المعصية هي تاريخ جبل عامل، لا تزال تتردد من خلال ما حلّقه الشعراء وحنهم ممن تأثر بهذه الحوادث، وكانوا من شهودها العيان وقد يكون الشاعر أحياناً من صانعي الأحداث أنفسهم، كحمود المحمود وعلي بك أو من الشعراء الآخرين المقربين منهم أو المبعدين عنهم، ولكنهم تركوا لنا ما جادت به قرائحهم تأثراً بعادته، أو انتعاء ميمعة أو سعيًا لعاية وعدد هؤلاء غير محدود وإن كانت شهرة بعضهم تقدّمت على غيره كإبراهيم الحارثي، وإبراهيم يعيا وحبیب الكاظمي ومسيماں الصولي وعلي السبيتي وإبراهيم صادق وعمرهم

إن التراث الشعري بشكل بهذا المعنى مصدراً مهماً لا يمكن تجاهله عند التأريخ لحبل عامل، أو لأحدى أسرهم وخصوصاً هذه الأسرة التي مارست الشعر نظاماً أو كانت من موضوعاته الأثيرة أو كان بعض رجالها من المدوّقين أو المشغفين أو المفصّودين أو ربما أحياناً هدفاً للهزاء وبهجوم من عدو أو خصم أو حائث، وهي جميع هذه الحالات لا بد من توصيف المعالم بس ما يحثج إليه الفن الشعري من حيال ومبالغة وبين ما يمنصيه علم التاريخ من نيمٍ ودقّة

وقد يكون الشعر العامي أحياناً أكثر نصافاً بالتاريخ من المعقّي، لحلوّه من الصناعة والتكلف وشدة التصاقه بالوجدان الشعبي والذاكرة المتواترة والمتوارثة، بما فيه من أرجال وأهاريج قد لا يعرف قائلها وإنما تناقلته لأجيال ورّدته، لتألمه مع طبيعتها وعواطفها دون الإلتفات بالضرورة، إلى ما يتصمّنه من دلالات تاريخية يمكن أحياناً توثيقها والإسناد إليها مثال على ذلك قصيدة شاعر قالها هي معركة كفرمان، لا تزال تتردد على ألسنة العامة كما هي تصانيف المؤرّخين وتزخر بالدلالات عن عواطف الناس وأسماء الأبطال وسير القتال، مقيدة بالورن والمعنى بحيث يدسبب الحذف أو التحريف أو التعبير هي منها وفي وقائعها، لشهرتها وشيوعها على الألسن وهي الذاكرة .

(1) مثل قصيدة شاعرة المريح في معركة كفرمان وهي قصيدة طويلة مطلعها

قال وثل مريح في بيوتو شكل في رمان كل احوالو شكل

بنو وائل وبنو بشارة

«جمع الأمير ناصر الدين بن الحنش لعموم (سنة 909 هـ - 1503م) وكانوا نحو خمسة الاف رجل إلى قرية شبحين⁽¹⁾ ورحف على عبد السائر بن بشارة في جماعة قلايل، فانكسر جيش ابن الحنش بأمر لله تعالى، بهير رجال كثيرة وقُتل من جماعة ابن حنش نحو مائتين قتيل والله أعلم، ثم عموا بعد ذلك عنهم»⁽²⁾

هذه آخر مرّة ظهر فيها اسم ابن بشارة في كتب التاريخ، وكان يتردّد قليلاً كأحد زعماء العشير في البلاد التي تحمل اسمه وما حاورها، وكان يقرن أحياناً بالرافضي⁽³⁾، للدلالة على اشتع أسرته التي كان من المؤكّد أنها حكمت جبل عامل وأنها كانت ذات قوة وبأس وقد تعاقبت أحيال منها على الميام بمختلف وطائف الحكم والجيش والسلطان⁽⁴⁾

بعد معركة «شبحين» ومع الصبح العثماني، أصبح يعود ابن الحنش وتنامى دوره، حتى أسند إليه حفظ الشام في عبات السلطان سليم وبائنه العرالي هي مصر، فيما احصى اسم أسره ابن بشارة ولم يعد يظهر لأيّ من أفرادها ذكر، ولم يعد لهم في بلادهم أثر سوى الاسم الذي عرف به بقسم الحنوبي من جبل عامل أو بكامله في بعض الأحيان

تساءل الكثير من الباحثين عن مصير هذه العائلة، هل قصى عليها الإحتياج العثماني ولاقت مصر المصير الذي سيلفّه ابن الحنش بعد هجره وخيرة؟ هل ذهب بنو بشارة صحبة الدفاع عن سوريا مع المماليك فمك بهم السلطان سليم أو بعض جنده؟

من العسير الحصول على جواب شافٍ بهذا الشأن، لمقدان المصادر فلا بدّ إذن

(1) قرية عامليه هي بواحي صور

(2) صندوق الأخبار ابن سيوط، ص 929، الدويهي ص 378.

(3) إنباء العمر العسقلاني الجزء 7، ص 216 الحلقة لصائفة من تاريخ جبل عامل، علي جابر ص 435

(4) الملوك المفريري، ج 3، ص 456 و 532، ج 4، ص 67.

من أعمال منطق الأمور ومنهج التاريخ، للوصول إلى تفسير، قد يبدو مقنعاً، ولو لم يكن هناك سبيل لإثباته وتأكيد.

يقول محمد جابر آل صما في تفسيره: «نقال سبطه بني بشاره إلى غيرهم» إن محمد بن هزاع الوائلي القحطاني من رؤساء عشيرة ضرة، كان معاصراً للأمير بشاره أو لأحد أعقابه وصهرهم لهم، واليه انتقلت الإمارة في جيل عامل بعد انقراض سلالة، وابن هزاع هو الجد الأول لأل علي الصغير، فيتصل نسبه ببني تغلب، القبيلة الوائلية المعروفة وأول من قدم من نادية نجد إلى الديار العامرية في عصر الدولة الصلاحية، وحظ رحاله ونصب خيامه على الجبل الجنوبي قرب قرية عديسة، وأسس هناك منية ثم تزل آثارها ماثلة كما ذكر بعض أفراد الأسرة، ويصيف المؤرخ باحثاً، عن بشاره، وأن منهم، من قال إنه بشاره بن مقبل القحطاني وهذا القول انصرد به الشيخ علي سبيتي وتابعه شبيب باشا الأسعد في العقد المنضد⁽¹⁾

هي الواقعة أن شبيب الأسعد لا يسعد كثيراً عن محمد جابر آل صفا، عندما ذكر أن محمد بن هزاع الوائلي القحطاني، دخل حين عامر وكان الحاكم هو الأمير بشاره بن مقبل القحطاني فحررت واقعة بين الوائلي وبشاره انتهت بعلية الأول، فاستولى على البلاد وحكمها وتروج بنت بشاره فوثر لحكم من بعده أبناءه وأحماده وانحدوا من قلعة تسين مركزاً لحكومتهم، واستمرّوا حكماً حتى أهضت الحكومة إلى أحمد بن مشرف الوائلي⁽²⁾

تستقد الروايات التي تناقلها معظم المؤرخين اللاحقين، إلى الإيهام والترابط، حتى ولو تحاورنا الخلط الواضح في الأساليب والروايات، أن حكماً يدوم نحو أربعة قرون كما يعتقدون وهي المدة المصالة بين وفاة صلاح الدين الأيوبي التي حدثت في عهده الواقعة والمصاهرة واستقال لحكم حتى ظهور أول وائلي صغيري حاكم في حل عامل هي المصادر المكتوبة، لا بد أن يظهر لصاحبه أثر و ذكر أو اسم هي تاريخ معروف، كما ظهر لبني بشاره طيلة الفترة نفسها، وبشكل متتابع، مما يؤكد أنهم بقوا حكماً حتى أواخر العصر المملوكي على الأقل وهذا ما يرجح أن الأقوال المتواترة هي

(1) تاريخ جيل عامل، صما ص 36.

(2) العقد المنضد، شبيب الأسعد، ص 26.

هذا المحال، أقرب إلى الأساطير والمرويات، منها إلى الصدقية والواقعية. وهي تتناقض مع أسطى عناصر الإقناع والتسليم بواقعيته حتى يحور اعتمادها.

وهناك أسطورة أخرى شائعة وردت بأشكال متعددة هي معظم التواريخ العاملة، وهي رواية علي الصغير الذي أعطى اسمه لعائنه طيلة عدة أجيال، ومآلها أن أحمد ابن مشرف الوائلي توفي، وزوجته بحال الحمل، وكان تزوجها من بني عمومته بني سالم المعروفين بالسوالمة، وهم محمد من أفخاذ عمرة، فحاء أخوتها وقومها وحملوها إليهم وكانت مارتلهم بأطراف بادية تشام مما يلي نجد، فولدت غلاماً، وحيث كان لها أح اسمه علي وكان غائباً في اليمن سميت ابنها علياً، وعرف بالصغير للصرق بين اسمه واسم خاله، فكان يُقال له علي الصغير، فشب الغلام وامتاز بالعبادة، ولما صار في الخامسة عشر من عمره، وقف على حقيقة أمره وأمر أبيه وأن جماعة يُقال لهم بنو شكر، أصبحوا يتصرفون بالأحكام لحقو البلاد من حكم هذا البيت في غاية التأسف يتمنون عودته لحكومة أبيه وجده وانقادهم من جور ظلم المتسلطين عليهم، وأخبرته عن رجلين من وكجوه البلاد وخواص أبيه همهر قوماً من بني رحمة ونهض بهم وسار قاصداً تلك البلاد ووصل، والقوم مشعولون بأمراس لهم في تبين وقانا، فجمع أنصار أبيه وهاجمهم فبازت عليهم الدائرة واستولى على البلاد ومارال بحكومتها وعنهما قدامها سوه

إن الأساطير المتوارثة هي صدور العامة تبقى في باب أحاديث السمر، إلى أن يعمد أحدهم إلى إدخالها في تاريخ مكتوب، فينفقها المؤرخون، وتصنع من صلب التاريخ وجرءاً منه، تبس عليها الوقائع وتستنتج منها المبادئ، رغم أنها لا تتطابق مع الواقع أحياناً إلا بأسماء أبطالها وبعض ملامح متناثرة ليس من اليسير فرزها والبناء عليها إن الروايتين الشائعتين تؤكدان أمرين مهمين

1 - إن الوائليين قد حلموا بني بشره في الحكم وإن هناك نسباً يربط بين الأسرتين.

2 - تعيد الرواية الثابتة أن هذه الأسرة قد واجهت طروفاً صعبة فقدت فيها موقعها المتميز حتى قام مقدم من أفرادها أعاد لها أمجادها بشجاعته وبسالته وحسن تدبيره، إن نقطة الإبطلاق، هي أن حقيقة ثابتة لا تقبل المناقشة والتأويل،

وهي أن نبي بشارة كانوا من الحكّام في حين عامل حتى أوائل القرن السادس عشر، عند المنح العثماني، ثم عابت أخبارهم عن مسرح الأحداث حتى القرن السابع عشر، تاريخ ظهور اسم أسرة جديدة تمرص نفسها على مجريات الأمور العامة، وتتقدّم في مراتب السلطنة والتعاطي مع الحكّام هي أسرة علي الصغير

لا بدّ من استعراض الأحداث التاريخية والوقائع والظروف التي أحاطت بجبل عامل والمناطق المجاورة قبيل المنح العثماني 1516م

بعد معركة (شيخين 1503م) تصالح نائب دمشق سيدي (1506م) سعي من الأمراء مع ناصر الدين ابن الحنش، مرضي بالماليك عن أمير البقاع الذي تولّى نيابة صيدا، بالإصافة إلى مقدمية البقاع، وكبرت منزلته عندهم، حتى استطاع أن ينصم إلى كبار الشخصيات التي كانت في استقبال سلطان قانصوه الموري، في طريقه إلى حلب لمواجهة السلطان سليم الأول وأن يقنم له تقديماً كبيرة من المال والعداء وهي العهد العثماني حصل على إقطاع الأمرية الكبرى بالشام وأعطوه سنحاً وأصبح حاكماً على البقاع وصيدا وسروت قبل أن يعثه الفراسي 1518م

بعد مقتل ابن الحنش برز أحد حذمة البدوي بن فريخ، وبرقي به الحال إلى أن البرم مالياً عظيماً على لواء صعد وبابلس وأمازه الحج، فحرب كورا كثيرة، وقتل خلقاً كثيراً حتى حنق في قلعة دمشق لظلمه وبحريه العمالات التي استولى عليها، وخصوصاً البقاع وصعد كما أخاف الدروز وقتل منهم مقتلة عظيمة، وربما فعل مثل ذلك بكثيرين غيرهم

إن الفترة التي أعقبت المنح العثماني، هي من أكثر المترات التاريخية عموصاً وفقراً بالمصادر التي تعرض لأحداثها، فقد انقصى مع العهد المملوكي عصر المصنّفات التاريخية الموسّعة، كابن طولون والمقريزي وابن نوري بردي والمرادي وغيرهم ولم يظهر في لبنان مؤرّح معروف قبل القرن السابع عشر، لذلك كان من الصعب إلقاء الضوء على هذه الفترة المهمّة، لانعدام المصادر وشحّها، حتى أننا لا نستطيع معرفة اسم حاكم بعلبك الحرفوشي بعد مقتل أميره سنة 1516م، ويقطع التاريخ حتى نهاية القرن السادس عشر، إلّا من فقرات بادرة في بطون حمته من كتب السير والتراجم.

كذلك في الشوف فقد تصارت الآراء حول من كان يحكم قبل حجر الدين المني الثاني، رغم أن التواريخ اللاحقة التي وصفت هي القرن السابع عشر وما بعده، حاولت أن ترمّم هذا التاريخ فاحتلفت أسماء أمراء وأسرة حاكمة لا تصمد أمام أي نظرة مدققة.

خريطة بلاد بشارة



بعت جبيل 1858 م.



كان حبل عامل، إدارياً من أعمال صيدا وصعد وقد توالى على حكمهما ابن الحنش وابن فريخ، وهما حاكمان على حسب كبير من القوة والبطش، والميل إلى القتل والتدمير والتخريب، وكان سوو بشارة من أهم الأسر الحاكمة في هذه النواحي، لأننا لا نعرف أسرة أخرى محلّية محاورة، تمتع بوضع مناهس أو مشابه لها لو كان ابن الحنش قد هزم أو انتصر في معركة شيعين على بني بشارة، فإن الدافع لقتالهم متوفر في الحالتين كما أن حليفه ابن فريخ أوقع في البلاد التي حكمها الخراب والقتل، كما فعل في البقاع ومع لدور وهي جهات صمد. فقد يكون أحدهما أو كلاهما، قد ترك أثراً من بطشه في جبل عامل، كانت هذه الأسرة صحيته، مما حملها تتكلم، وتحتفي عن وجهة الأحكام والأحداث ولو إلى حين. لاسيما وأن الجيوش العثمانية المستصرة كانت تنظر إلى الشيعة بعين العداء والنمور وقد تركت بصماتها في الكثير من بلادهم فليس غريباً أن يعمد أحد عمالها أو بعض حوشها إلى استدرار رضى المسكين برمام الأمور بالمسب على الشيعة، والسيكيل بهم كما حصل في البقاع انطلاقاً من كل هذه المعطيات، بيد و من المرحّح، أن أحد الحاكمين ابن الحنش أو ابن فريخ أو كليهما، وراء احتفاء بني بشارة عن مسرح الأحداث، هي هذه العنزة لمصيبة التي اتسمت بتبدل الحكام والدول وأن ما اشتهر عنهما من قسوة وبطش، وما عرف عن عدائهما لآل بشارة، وتوليئهما أحكام صيدا وصمد، أرغم هذه الأسره بعد مواجهة لم تصلنا بماضيها، أن تتراجع ونحتمي، بانتظار تعيّر الظروف ولأحوال ثم نعود إلى الظهور عند أول فرصة سانحة، ولكن باسم جديد هو علي الصغير الوائلي.

إنا نرى أن بشارة وعلياً الصغير، ما هما إلا إسمان لأسره واحدة، تعيّر اسمها بتعاقب الظروف والأحوال والدول. كما يحصل غالباً مع غيرها من الأسر المقدّمة، وكما حصل مع أسره علي الصغير بمسها بعد هجرة من الرمن عندما احتفى هذا الإسم وعُرف أبناء حامله ببني بشار ثم تبدّل إلى بني لأسعد فلا عراية أن أسرة تبدّل اسمها كل ثلاثة أجيال، وهي هي ووج محددا كما يتبدّل اسم بني بشارة في حالة تقهقرهم وتراجعهم وربما ظهر في بني بشارة رجل شجاع أعاد إليهم سابق مجدهم وأعطى للأسرة اسمه «علي الصغير» كما فعل حميد بشار من بعده ثم أسعد الحليل أخيراً. وهذا أمر معروف ومتبع عند الكثير من العشائر العربية الكبيرة ومن المعلوم انه تصرّع عن أسرة علي الصغير في أحقاب مختلفة، وحتى بعد أن أصبح تعرف باسم

نصار، العديد من الأسر الأخرى التي حمت أسعاء مختلفة، لا يمكن حصرها بسهولة، والتي ربما لا يعلم حقيقة نسبها، لا بعض أنسابها والمطلعين على دقائق تواريخ الأساب هي عاملة.

إن أسرة حظيرة الشأن حكمت جبل عامل وعبره، من مقاطعات بر الشام، وتداول اسمها واسم العديد من أفرادها غالب تواريخ هذه الحقبة، مقروبة بألقاب الحكم والسلطان ومفصلة أهمية دورها وحلائل أعمالها، هابى بشاره هو مقدم التيامنة⁽¹⁾. وتبو بشاره زعماء العشير هي بقرن الرابع عشر⁽²⁾. ومن عادة السلطان أن يكتب باستقرار بن بشاره في بظر الشام كما فعل سنة 783 هـ⁽³⁾ وقد استقر جمال الدين ابن بشاره في بظر الجيش عوضاً عن ناصر الدين بن مشكور⁽⁴⁾ وهي سنة 811 هـ قدموا إلى وادي التيم وعاشوا في معاملة صمد

بلح أيوب بن بشاره العاملي، أن محوماً من الصريح في أكثر من عشرين مركباً أعاروا، على مدينة صور وبهوها، فاقبل مسرعاً بر حاله هفت ظهم وأحلامهم عن البلد وقصص على عدة منهم وقطع رؤوسهم⁽⁵⁾

إن ألقابهم والمناصب التي أسدت اليهم، وطين أعمالهم ووعائهم، يدل بما لا يقبل الحدل أنهم من الدين لا يعمل التاريخ أحمارهم، ولا بهمل أعمالهم، ويعمل من المستعرب ألا نجد لهم أثراً بعد معركة شيعين، ولا تفسير لاحتوائهم وروال آثارهم بعد سقوط الدولة التي كانوا من ركانها وأصحاب لسلطة والنمود هيها، وهي دولة المعاليك، وحلول دولة أخرى معادية مكها، قد ينالهم من بطشها ما بكرهون، فتقاوموا مع من قاومها، وانهرموا بعد انتصارها أو هضمو السخي عن واجهة الأحداث حتى تنقصي العاصفة، وقد حافظوا على تميزهم وتقدمهم باستظار تعبّر لأحوال والظروف، وعادوا مجدداً إلى واجهة الأحداث بعد أن بذلت العادة وتعرف وتغاب الأجيال اسمهم القديم باسم أحد رؤسائهم البارزين وصاروا يعرفون باسم علي تصغير.

(1) الحقبة الصائفة من تاريخ جبل عامل عبي حيدر ص (440 - 436)

(2) السلوك العقري، ج 4، ص 67

(3) المصدر السابق، ص 72.

(4) المصدر السابق، ج 3، ص 456.

(5) المصدر السابق، ص 532.

(6) خطط الشام، ج 2، ص 189.

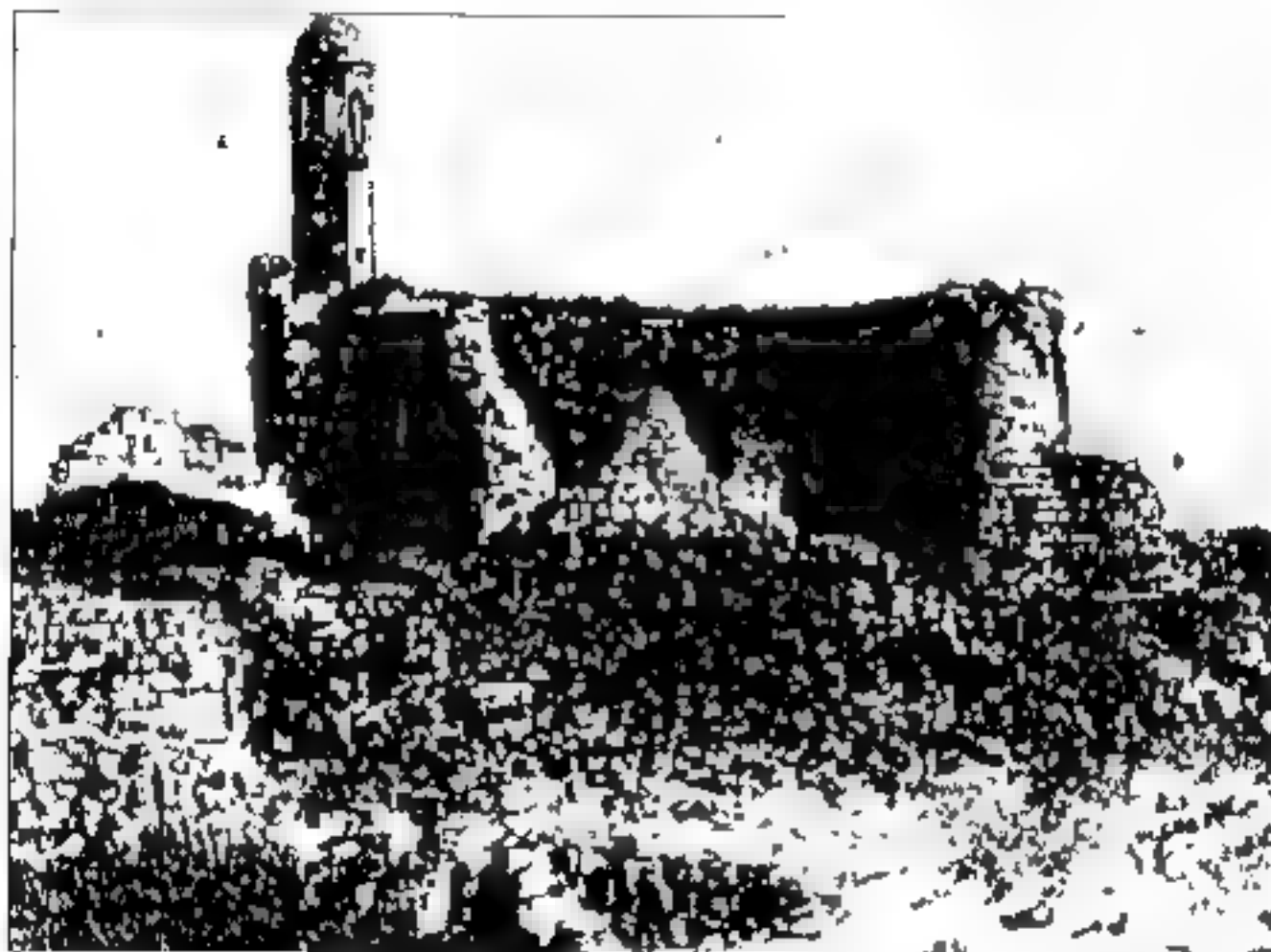
بدأ إسم علي الصغير يتردد لأول مرة في مستهل القرن السابع عشر، هي مقدمة الأحداث كأسرة لها المقام الأول، على رأس قمة النمود والمكانة في جبل عامل. مما يؤكد أنها صاحبة عزّ تليد وماص مجيد يسمع لها باحتلال هذا المقام بدون منافسة ظاهرة، أو معارضة فاعلة، ودون إشارة إلى حدث أو سبب أو تطور يصتر ذلك غير ما ذهبنا إليه، حتى جاء المتأخرون يظنون في علاقة بين الإسمين. نوو بشاردة وبنو علي الصغير هاخرصوا لعياب التوثيق والتأكيد لهما أسرتان متمايرتان، وأحدوا يجهدون في البحث عن طبيعة العلاقة بينهما، فاحتمت الآراء بين معركة حسمت الأمر بعلية واحدة انتزعت الحكم من الأخرى، أو إعجب أمير من الأولى بحصال أحد أفراد الأسرة الثانية، دفعنه إلى استخلافة في الحكم والعمال أو مصاهرة ربطت بين الأسريين، وجملت التوارث بينهما طبيعياً وشرعياً كما حصل في الشوف، عند انتقال الحكم من المميين إلى الشهابيين ولكن عاب عن دهن هؤلاء أن انتقال الحكم بالمصاهرة، أو بالعلية أو بتعب الظروف لا يزيل الأسرة الأولى من الوجود تماماً، وإن أفقدها مقام الرئاسة وال نمود.

بقي إسم علي الصغير ملازماً للأسرة التي حملته فترة محدّدة من الزمن، ثم توارى كما توارى إسم بشاره قبله. وأصبح بنو بشار هو الإسم الوحيد الذي يتردد على الألسنة واحتمى على الصغير في رواق التاريخ، وربما صاع الرابطة بين الإسمين لولا توفر التوثيق والتاريخ والتأليف التي كانت كنه معدومة قبل ذلك، والا لكانا نبحث اليوم عن العلاقة بين علي الصغير وبشار وأين احتمى بنو علي الصغير؟ ولما علمنا أن بشاردة وعلي الصغير ونصاراً هم إسم لأسرة واحدة لم يعد أحد من المتحدّرين من دريتها يحمل أياً من هذه الأسماء حتى اليوم وقد يحفل بعضهم ما يربطهم بها من سبب.

إن واقع الحال يكاد يجرم، أن هنئ من بني بشاردة كان على قدر كبير من لإقدام والنحوه والشجاعة، استطاع بقدراته وصفاته وما بقي لقومه من ذكر وأثر، أن يعيد لهم ما صاع من أمجادهم، وما سلم من تقدّمهم فاشتهر أمره وداع صيته وعظم قدره حتى عرفه الناس وأطلقوا اسمه على سائر عومه وسبحوا حوله الأساطير، فاستقدموه من المجهول بطلاً فتك باعدائه من آل سودون وآل شكر فأعاد أمجاد أبيه وأجداده. مما لا يدخل في علم التاريخ، وإنما هو أقرب إلى التوحّد الشعبي وما يلصقه بأبطاله الخياليين من الحوارق والمخزات.

حصل نزاع بين عائلتين حاكمتين سقط فيه جد شيوخ بني علي الصغير قتيلاً فقام

قومه بالانتقام له بمجررة كبيرة تعدت عنها الناس وحبس بهم الحبال مع الوقت هبوا على هذه الحادثة رواية متكاملة، كثر عناصر الإثارة والمبالغة فاحتلط التاريخ بالأسطورة، مع أن التفريق بينهما يسير ويمكن رد كل عنصر إلى حيث ينبغي أن يكون في موضعه الصحيح ولا بد من الإشارة إلى أن لكل عشيرة عريقة فتاها الذي يعاثر علي الصغير⁽¹⁾.



جامع هوبير⁽²⁾ عندما كانت من مراكز الحكم في جبل عامل. بناه قبلان الحسن سنة 1166هـ - 1753م.

وتاريخه الباقي حتى اليوم

ومسجد فاز بيتيامة

مد أمه الناس وصلوا به

دو الفصل قبلان حليف البدي

أرخت خسروا ركعاً سجداً

(1) قصة «بميرق» الذي لم يبق منه من آل سعد - الدرور تشبه رويه علي الصغير، والرويان قويتان من تاريخ الأمير جهاد الحرفوشي مشقة بريحيه وإن كان لحبال الشهي والشمر العامي أصناف عليها مصحة ملحميه

(2) قرية تقع الآن في فلسطين المحتلة

الفصل الثاني

جبل عامل في ظل التزام فخر الدين سنجق صفد

بقي جبل عامل بمقاطعاته المختلفة منجقاً إدارياً، سنجقية صفد، ولم يكن يعني العامليون كثيراً من هو العامل «سنجق» الذي يعنيه والي دمشق مباشرة، أو عن طريق الملتزم الأساسي وقد تولاهما منصور بن المريح مِرَات متتابعة ولمترة طويلة. وكان يحصل الإقامة فيها⁽¹⁾ ويرسل من تنوب عنه إلى غيرها من المقاطعات كنابلس ومجلون والبقاع ولما كان منصور حاكماً شيعياً قوياً في دولة سُنَّة المذهب⁽²⁾، فلا شك أن العاملين شعروا في ظل ولايته، أنهم أكثر حماية وأمناً لذلك لم يحدث ما يعيد عن التزامهم أو تمردهم، ربما بسبب فقدان المصادر أو لانتفاء المبررات إلا أن إحساسهم بالخوف والقهر، لم يكن قد ظهر بعد كما حصل في ظل ولاية فخر الدين بعد فترة من الزمن

بعد أن تولّى صيدا (سنة 1009 هـ - 1600م) أصبحت صفد هي الهدف التالي لفخر الدين، وقد ساعده في الوصول إلى مبتغاه توفر ثلاثة عوامل مهمة

1 - بعد اشتعال الحرب العثمانية الصفوية من جديد، اردت رغبة الإدارة العثمانية من موقف الشيعة الموالي للصفويين ورأت تعيين حاكم محلي عهدت إليه أمر مراقبتهم والتصدّي لهم في حال قيامهم بأية تحرّكات معادية⁽³⁾.

(1) فخر الدين أمير الدرر، فوستميد، ص 109.

(2) كان منصور بنويّا ينكسب بالرجاء ثم تنوب لبقاع وصفد ومجلون وإماره الحج، يقول بعضهم بتشيعة ومنهم فوستميد، فخر الدين ومعاصروه ص 151

(3) بيت بعمارل كثيرة، الصبيبي، ص 165.

2 - استدرج مراد باشا والي الشام بدسيسه من فخر الدين، الحاكم القوي، ابن فريخ إلى مقره في دمشق وقتله في (13 ربيع أول 1003 هـ - 1593 م). ثم أبعده ابن الحرفوش في نفس العام، فتخلص بذلك من منافسين، كانا يقفان عائقاً أمام مخطمته الواسعة

3 - خدمت الظروف فخر الدين بوصول صديقه وصاحبه مراد باشا إلى الوزارة الأولى، فعيّنه «سنحق بك» على صفد بالإصافة إلى مركزه في جبل الدرور وصيداً⁽¹⁾

قبل فخر الدين، لم يكن هناك ما يدس على توتر العلاقات بين العاملين وحبل الدرور، ولكن مع تعيينه على صيد، وسكنه على تحوم جبل عامل، حصل أول صدام بينه وبين الشيعة في معركة الزهراني (1600 م) فلم أصبح والياً على صفد 1603 م دخل العاملين في حكمه ولو انه اكتفى كمن سبقه من ولاد الترك الذين تعاقبوا عليها بجمع المال السلطاني، وإيراد دمشق حصنها منه لكات الأمور ربما سارت على وثيرتها السابقة. غير أنه كان يعني من ولايته أموراً تتجاوز جمع الضرائب، إلى تمهيد جبل عامل وإعدادة لتسهيل مشروعاته الواسعة وطموحاته المعقدة فاستولى على بعض القلاع والحصون وأمدّها بالمقاتلين، وصار يعدّ العدة لتنفيذ ما يجول بأفكاره من مخططات

استولى بالحنيلة على قلعه بأنها من⁽²⁾. بعد أن صرب حياضه بالقرب منها فعاد صاحبها لدعوته على عادة بلاده، فدخل، الأمير صبعاً مع عدد من مرافقيه وقد أحصوا سلاحهم عن الأنظار، ثم تبعه الساقون على دعوات كمالهم ولما تكامل عددهم وثبوا على الموحدين بالمنعة فتملكوها وأحلي أصحابها ووضع مكانهم عسكرياً من قبله⁽³⁾.

كما أخذ قلعة الشقيف حدة من صاحبها⁽⁴⁾ وكانت بحراسة حامية من الملاحين البسطاء وحصنها جيداً ونقل إليها أمواله وحرّاته⁽⁵⁾

ثم سيطر بالطريقة نفسها شيئاً فشيئاً على كل المناطق التي تقع بين بيروت وجبل الكرمل⁽⁶⁾.

(1) فوستميك، مصدر مذكور ص 150.

(2) بانياس قرية في الجليل قريبة من جبل عامل تقع اليوم في الأراضي السورية وهي عبر المدينة الساحلية كما توهم فرالي وغيره

(3) فوستميك، م م، ص 151.

(4) للبحث عن تاريخها، علي الربيع ص 229.

(5) تاريخ فخر الدين، بولس فرالي، ص 84.

(6) فوستميك، م م، ص 151.

نشر فجر الدين في جبل عامل حاميات عسكرية، وأسكن شقيقه يوسف في مدينة صور التي احتفظ لها بمكانة هامة في جميع حططه المستقبلية هرمم مباءها وأقام فيها بعض الأبية⁽¹⁾

نظر العامليون بنوحمر وريفة إلى ما يقوم به فجر الدين. فقد اعتادوا على «سنحق بك» يقوم بتحصيل المبلغ لمررر وهو سوس كيساً. ثم يتبدل بعد عام أو أكثر ههما انفرد فجر الدين بإقامة مر كر عسكرية هي قلب بلادهم. خبروا من تصرفات حنوده ما ساءهم وأثار قلقهم فاستشر لتدقر هي صوس الناس، وبدأ الأعيان والوجهاء والعلماء يتدكرون للإتفاق على موقف أو عمل ما. فانعقدت الجمعيات لعامة⁽²⁾ لاستعراض الأمور مما أوحده. وربما لأول مرة. حالة واسعة من الشعور العام بالخطر الجماعي، ساهمت في دفع الناس شيوفاً وفلاحين وعلماء، إلى البدء في التمكير باتحاد تدابير دفاعية والبحث عن سبل الحماية والترقب والاستعداد.

إن هذه المحاولات العامة والهواحي المشتركة، حركت شعور العاملين وإحساسهم شكل أكثر تحديداً ووضوحاً بوحدتهم وكيانهم وربما بدأوا منذ هذه اللحظة بالنصرف كوحدته متمرة. لا كشيوع منف عدين بوحد المصالح بينهم حيناً، وبصرفهم أكثر الأحياء. وبدأ التاريخ أيضاً من هذه اللحظة بالاهتمام بهم، والتعرض لهم وذكر شؤونهم وأخبارهم. بعد أن أهمهم رماً لأنه لم يكن لديهم ما يستوقفه من قبل ويثير اهتمامه.

قبل فجر الدين لم يكن من السهل أن ينظر إلى العاملين كشعب تجمعه لحة محددة، ويتميز عن غيره من حيرانه بوضع سياسي وأمني وإداري خاص، يحصي فيه أو تكاد معظم عوامل التفرقة والتباين ولكن ممارسات فجر الدين وحدث بينهم ودفعت بكل عائلاتهم وأطيافهم وطبقاتهم إلى اتحاد موقف إراءها.

إن القتل والسجن وهدم البيوت ومصادرة الأوراق ونهب المواشي والقيام بفارات عشوائية، تحلم وراءها الدم والدمار ساوت بين العاملين، وعرست بينهم إحساساً بالحاجة إلى التصامن والتعاون والسعي الموحد، إلى الحد من كل هذه

(1) قرالي، م.م. ص 84

(2) انعقدت جمعيات من الحايين الشهي وبمعني وموضوعها و حد في لحالتين وهو الملاقات المنردية بين العريقين تاريخ لصصي ص 66 - 67 - 68

التعديلات، والبحث عن قوة يمكن الإستمالة بها يشدهم إليها التقارب الحمراهي والتجاسس المذهبي فقصداوا الأمير الحرفوشي المقيم في مشعرة، وشكوا إليه متاعبهم وتشاوروا سرّاً في التدابير التي يمكن أن تتخذ من سياسة فخر الدين العاملة فكان أن زادت هذه الإتصالات، لخرق اتساعاً وقادت إلى تصلّبه وجنوحه إلى قدر أكبر من التثكيل والبطش أجبر جميع لشيّوح الكبار وغيرهم من الأعيان، إلى اللجوء إلى بعلبك وطلب المصونة والحماية من الأمير يوسف الحرفوش، الذي نجح بعد فترة في رفع يد فخر الدين عن ولاية صمد، حماية لسكان جبل عامل وتولّأها هو شخصياً وكان ذلك من أهم أسباب النزاع الذي انصهر عسكرياً بين الأميرين بعد ذلك

ظهر العداء بين فخر الدين ومناولة جبل عامل منذ تولّيه على صيدا، ثم على صمد واشتدّ بمرور الوقت حتى نشأ عداية في أوروبا استمرّت جماعته بالإغارة على قراء فباعوا عيانتا سنة 1614م واصطيدوا بأصحابها آل شكر

وكان آل منكر العاملين قد شاركوا في حملة لحافظ أحمد باشا سنة 1614م. كما دعموا حسين الدارحي المقتول على صمد، وكذلك آل شكر وآل علي الصغير قبل أن يقع الدارحي قتيلاً في معركة مع الأمير علي فخر الدين⁽¹⁾

وحال عودته أظهر عداوته لهم وقبض على أحد شيوخهم الذي جاء مرحباً به، فمارفوه وما عادوا قابلوه⁽²⁾ وهرب مشايخ بلاد بشارة بيت منكر وأولاد علي الصغير إلى بعلبك عند الأمير يوسف، فدعمت عساكر فخر الدين عيانتا وأنصار وبنب جبيل وهونين الموقعا والزرارية فهدموا البيوت ومهبوا العلال⁽³⁾

إن ممارسات فخر الدين الإنتقامية في جبل عامل أرادت النفور والتساين بين مختلف عائلاته وطبقاته وحلقت الظروف المناسبة التي دعمت نفوذ آل علي الصغير كقوة مركزية مطاعة، على حساب بعض العائلات، التي كانت تنافسهم أحياناً فاحتقن آل سودون وآل شكر وبقي العداء للمعيين متأججاً حتى نهاية حكمهم في الشوف وصار الصدام بين الفريقين من الخصائص السياسية الدائمة بين المنطقتين

(1) تاريخ الصفي ص 40.

(2) المصدر السابق، ص 71.

(3) المصدر السابق، ص 72.

آل سودون وآل مشطاح

إذا كان التمعن في تاريخ لبنان عملية عسيرة ومعقدة وشفافة، كمن يتلمس طريقه في الظلام، عبر حقل من العام الهوى والعصية و لمدھنة والعشائرية والمسالفة، التي يبرز ما يوفقها، ويعمل ما يناقضها فإن في تاريخ جبل عامل كل ذلك، بالإضافة إلى هخ آخر يتمثل في عدد كبير من الأساطير، تسربت إلى متنه في حقب مختلفة وتجدرت فيه حتى صار إعادة المصن بينهما عمل شاق يقتضي الكثير من الدقة والحذر

حمل جبل عامل هي العصور المتأخرة بالعديد من المؤرخين والكتّاب وأهل العلم، ممن تعمقوا في كتب التاريخ والمثير واستنبطوا منها براءة ملحوظة أحداثاً وأسماء لا تعني شيئاً محدداً هي داتها، ولكنهم دعموا بها هذه الأساطير وربطوها بحيوط قد لا يلصق ومنها إلا أصعب المعرفة والضرر والجلد، ونوا عليها أخبارهم ووثقوها وأماصوا في التحليل والمصارمة والحدل حولها، وسببوا إلى معالم جغرافية وأثرية لا يتأكد من واقع وجودها ودالاتها، لا من عابها وشاهدھا وبأكد من جدية نسبتها وحدواھا إن ارتاع هذه الأساطير والحكايات من حيث وصفت، وإعادتها إلى مكانها الطبيعي في حبر المرويات والتراث وتنقية التاريخ من آثارها ونداعياتھا، كان يسيراً وممكناً لو لم يكن لها ولو في حرم يسير وهامشي من وقائھا، ما يحتم إبقاؤها حيث هي وإهمال معظم الباقي.

قد يرى البعض أن الحل هو في الإقتصر على المصادر الموثوقة، وإهمال هذا النوع من السير بكاملها خوف لوقوع في الزلل والشطط ولكن هذا الحل له محاذيره السالفة فإن ما كتب عن جبل عامل، هي مؤلفات البعدين عنه، سواء في مناطق لبنانية أخرى أو خارج لبنان، قد أهمل عمداً، هي أحوال عديدة، الإهتمام بأحداثه داتها إلا بما يساعد في برار وقعة تسأثر باهتمامها وعنايتها، فتزد أحداثها مبعثرة ومحتصرة هذا عدا عن ما قد تحجج إليه من تحامل في غالب الأحيان.

لذلك لا بد من مقارنة هذه الأساطير التاريخية، ولو بأقصى الحذر والتأني والإعتماد على المقاربة والتدقيق، للوصول إلى الهدف المنشود في وسط هذا الحقل من الألغام.

يبدأ تاريخ جبل عامل العثماني الموثق والمكتوب، في السنوات الأولى لحكم هجر الدين المعني في جبل الدرور، وهذا ما ينطبق إلى حد بعيد على سائر المناطق اللبنانية، وقبل ذلك، كان يصطر الساعي إلى ملاحقة تنف معثرة، لا يركن إليها في بناء سياق تاريخي واضح ومتكامل.

ليس من المرجح أن يكون لعامليين قد رحبوا بالسلطان العثماني الفاتح، بل إن عواطفهم على الأقل لا بد أن تكون إلى حزب المماليك، رغم ما عابوا، وعاش الشيعة الآخرون من حورهم إلا أنهم حصعوا كسائر بلاد صعد وصيد، لحكم ناصر الدين ابن الحش، ثم لحلفه منصور ابن هريخ. إلا أن المؤرخ محمد حابر آل صفا، يذكر نقلاً عن تاريخ حوادث ناشأ ملخصاً يعيد بأن السلطان سليم بعد انتصاره في مرج دابق عام 1516م وسقوط سوريا في يده سأل عما إذا كان بقي من آل سودون أحد يذكر، فذكروا له أميراً منهم يدعى سودون بك من أهل التمرى احتار العرلة في بيته وعكف على العادة، وله ولدان من أهل لشحاعة والناس، أحدهما يدعى ذو المقار والثاني قاسم رار السلطان سليم هذا لأمير في بيته، وشهد على اعتكافه وصلاحه وورعه فأكرمه وأحسن إليه وأعجب ببسالته ولديه فأدعم عليهما بأقطاع بعض الأراضي وجعل كل منهما رئيساً لفرقة من الحند⁽¹⁾.

لا يذكر الكاتب إذا كان سودون في حينه من سكان جبل عامل، وإن كانت الريارة قد تمت في بيته أم أن هناك سودون آخر يقيم في مكان خارجه.

إن اسم سودون يتردد في جمل عامر باعتباره إسم أسرة قد حكمت بعضه في يوم غير معلوم التاريخ، ومنطقة لا يمكن تحديدها، إلا أن المرويات العاملة تصرّ على الكلام عن هذه الأسرة، وتسهب في أخبارها ويقول المؤرخ المذكور نقلاً عن مخطوطة شاهدها، وأوراق مؤرخين آخرين أطلع عليها إن «أسرة سودون أو أبو سودون حكمت جبل عامل أو قسماً منه في عهد المماليك، وبقيت في عهد العثمانيين، وكانت على

(1) تاريخ جبل عامل ص 38.

نزاع على الحكم مع آل علي الصغير، وندخل لأسطورة لتروي قصة صغيري حاكم هو حسين بن علي الصغير أجبر كقرية الآخر، على التزوح هرباً من فخر الدين المعني تاركاً الحكم لآل سودون ولأسرة أخرى من أعوانها هي آل مشطاح وعمل مروّضاً للخيل - ميرياخور - في جبال نابلس متخفياً قبل أن يعثر عليه بعض جماعته عند آل طوقان⁽¹⁾ ويدعونه للعودة فأمدّه صاحب نابلس بخمسمائة فارس سار بهم إلى بلاده حتى وصل إلى بنت جبيل، وكانت قاعدة آل سودون فهاجمهم، وقتل رجالهم، وثبت أنصارهم من آل الشامي، وآل مشطاح، وتغيب ابن سودون الهارب من وجهه على طريق خربة سلم وتركه عبد العين وقتله واجتزأ رأسه فسميت العين باسم عين بو سودون حتى اليوم، وقتل مديره ابن مشطاح بطريق القصير، عند شقيف هناك لا يزال يدعى للآن (شقيف مشطاح)، وبما أن نائب الشام سنة 1478م كان اسمه سودون استنتج بعض العاملين، أنه ربما عين أحد أقاربه هي أحد مناصب الحكم في جبل عامل فتوارثته أسرته حتى قصى الصغير عليها⁽²⁾.

نعت الطابع الأسطوري على هذه الرواية التي لا تختلف كثيراً عن الروايات التي اشتهرت عن آل علي الصغير، ولكن أسرة سودون كانت بدون شك، من أصحاب السطوة والحكم في سنة 1600م على الأقل وقد هانت فخر الدين وهرمته في ذلك التاريخ كما أورد الدويهي.

«في سنة (1009هـ - 1600م) جاء باشا الشام في البحر، وطلع لمدينة صيدا الأمير فخر الدين وقدم له الهدايا والدخائر قطيب خاطره وكتب عليه إيالة صيدا وأقاليمها فسكن الأمير فيها فحسدوه بيت سودون، حكّام بلاد بشارة وقرابيهم بيت ظريفة القاطنين في قلعة باناس فرحموا على بلاد صيدا نحو أنصي رجل وبنلوا عند نهر الزهراني. فخرج إليهم الأمير فخر الدين بخمسمائة رجل فوقعوا في الخيال التي كانوا قد بعثوها لينهبوا ساقية صيدا فكسروهم ثم اجتمعت عليه الرجال وكسروا جماعة الأمير⁽³⁾».

يبدو من نص الدويهي، أن هذه المثلة كانت تحكم فعلاً في بلاد بشارة، وأنها كانت

(1) عاقله من أعيان نابلس أسلمهم من المماليك صدر منهم مسمون عليها من وراء الشام

(2) المصدر السابق، ص 41.

(3) الدويهي ص 422.

على قدر من السلطة بحيث استطاعت أن تجمع أئمة مقاتل، وتهرم فخر الدين. وقد تكون أسرة من أهل العلم، لاشتهار أكثر من عالم دين، يحمل هذا الاسم. وأحدهم ينسب إلى ميس الجبل⁽¹⁾ حيث تقول الأسطورة إن كبيرها قتل قريباً منها وقد تكون أسرة علي الصغير هي التي قصت على وجود آل سودون إستاناداً إلى المرويات الشعبية، وربما بمساعدة آل طوقان حكام نابلس. ولم تترك هذه الأسرة بعدها أثراً يذكر عنها، سوى عين ماء بالقرب من ميس الحمر وأساطير تروى بين العامة عن ظلمها ووحشيتها⁽²⁾.

يقتضي تنقية بعض التواريخ العامية من لأساطير التي علفت بها، والمبالغات الحماسية التي تحدث من واقعيتها، والتي تتشارك في ذلك مع بعض أهم المصادر التاريخية اللبنانية التي تتناول نفس الحقبة الزمنية وتعالج الأحداث والوقائع نفسها أحياناً، فتاريخ الأمير حيدر هو من أهم المراجع التي لا بدّ، لأي باحث، من الرجوع إليه يعتمد إلى الإسهاب في وصف معركة ربحها الملقبون أو الشهداء، على العاملين منادياً في ذكر التفاصيل السليطة، بلغة حماسية وممجّعة، بينما يختصر إلى حدّ العموص إذا كانت الأحداث تحري باحواه لا يرسمي ميوله وعو طمعه وهي ذلك لا يختلف عن الركيبي مع تبدل الأطراف وتناقض القواطم⁽³⁾.

يقول الركيبي في وصف هجوم عامي علي الشوف:

«حين وصل الخبر إلى أهالي الشوف، بوصول عسكر الدين قلوبهم بحسب الله مشعوف، رعد في الشوف غراب البين وبادوا بأجمعهم الهرب من أين إلى أين؟ ووقع فيهم الرحيل والشتات وخرجت المحمرات في البراري هائمات إلخ»⁽⁴⁾.

ويقول الأمير حيدر في وصف معركة مشابهة

«ولما وقعت العين على العين، وهاج كل من الفريقين، صدم الأمير حيدر جموع الشيعة فاخترقها، وبادر صموههم فمزقها، وانكسرت جموع الشيعة المتأولة وانقصوا بعزائم عاطلة.. إلخ»⁽⁵⁾.

(1) هو الشيخ حميد بن علي بن محمد بن سوبون الميسري، توفي سنة 1566م. ذكره صاحب الأعيان كما ذكر غيره بضمين اسم سوبون.

(2) صمام. م. ص 42

(3) تاريخ الركيبي، ص 95

(4) الفرر الحسن الشهابي ص 9

ما إن ظهر فخر الدين المعني الثاني على تحوم جبل عامل، حتى بدأ التاريخ يلتفت إلى هذه البقعة التي كان أهملها منذ المصح لعثماني، لأنه لا يهتم عادة إلا بالأحداث الكبيرة المدوية، ونقدر ما ينتج عنها من حروب وصدامات تترك تعقيدات وبصماتها على التطورات اللاحقة تميّرت، لئلا نترك السدقة لفخر الدين، بالإضافة إلى قلة المراجع التي تناولتها في بيان عمومها بما حصل أثناءها من أحداث جسام وتطورات خطيرة من شأنها أن تثير انتباهاً خاصاً واهتماماً رائد حتى هي الأماكن البعيدة جغرافياً عنها، ويبدو أن الأمور استمرت في جبل عامل، على نفس وتيرتها، لسابقة للفتح العثماني، بحكم التقاليد والأعراف المطاعين من الجميع، يدير شؤونهم العامة إلى حانب علمائه الذين احتصلوا بدورهم لتمام، أسر حاكمة فتصرت علاقتها مع دمشق وصفد على دفع الصريبة المصروضة، وحدثت بعض المصاعب عند التلؤك عن الدهج هي المواعيد المقررة وكانت المرة الأولى التي يفرص فيها لدويهي إلى تاريخ جبل عامل عند ذكره للهجوم الذي قام به آل سودون على فخر الدين بالقرب من صيدا سنة 1600م، كما يصح الصمدي سلسلة طويلة من الأحداث التي ذكرها عن جبل عامل وبلاد شاره بذكر الهجوم الذي قام به بعض حشود فخر الدين على عيّنات والمركة التي جرت من حرائه

بررب أسر ثلاث على رأس المصمليين طيلة هزمه حكم فخر الدين (1590-1600م)، بالإضافة إلى أسرة سودون وجرانهم بيت طريفة القادمون من وراء حدود جبل عامل (بابياس) وهي آل شكر وآل مكر وآل علي الصغير.

بدأت الأساطير فتاوت نهاية آل سودون وآل شكر، على يد علي الصغير، أو أحد أحفاده القادم من بلاد بعيدة لاستمادة مكنه عشيرته، بعد أن شردها حصومها من لأسرتين ولم يبق غيره للثأر والحكم، فإن بتاريخ مدحج هذه الرواية تماماً ويؤكد أن العائلتين قتلتا فخر الدين في نفس الوقت، ندي كانت فيه أسرة علي لصغير تشارك معهما في مقاومته، والتجأت مع بيت شكر إلى بعلبك عند الأمير يوسف ورخت لأسرتان بولاية حسين اليازجي على صفد ومن الواضح أنهما كانا يتواجدان معاً على رأس السلطة أو الرعامة، ويسيران في نفس الاتجاه السياسي المعادي والمقاوم لتسلط المعني.

لقد انقطعت أخبار أسرة سودون منذ انتصارها على فخر الدين في الزهراني، أما آل شكر فقد ذكرهم تصمدي ثلاث مرات على الأقل «كسنة عيّنات 1614م» وتأيدهم ولاية حسين اليازجي، بالاشتراك مع الصغيريين وأخيراً فيام فخر الدين بالإنتقام منهم بهدم سوتهم ومصادرة علاهم 1617م والتجاؤهم أخيراً إلى بعلبك في نفس

العام. كما ذكر الصعدي أسماء آخرين من أعيان عامته تعرضوا لتكيل حجر الدين ورجاله أمثال الحاج علي بن أبي شامة في بنت حبيب، وهرحات بن داعر في قرية أنصار⁽¹⁾

من المؤكد أن آل سودون كانوا حكام بلاد بشرة، أو من حكامها على الأقل وأنهم هاجموا حجر الدين وقاتلوه وانتصروا عليه، كما أنه من المؤكد أن آل شكر كانوا من العائلات المرموقة في العقد الثاني من القرن السابع عشر.

ومن المؤكد أيضاً أن العائليين قد احتفظوا عن مسرح الأحداث في النصف الأول من القرن السابع عشر، إثر هزيمة قاسية لم تقم لأي منهما بعدها قائمة.

بعد استبعاد الأساطير التي يفتخر بها الموصوع بشكل روئي غير مقنع ومراجعة المصادر العامية الجادة التي لا يزال بعضها مخطوطاً والاستدلال بالوقائع العامة العائدة لهذه الفترة، يمكن ترجيح تفسير معايير يفترب من الواضح إلى حد بعيد دون إمكانية إثباته، بما يصعب موصغ الحادثة التاريخية التي لا تقبل الحدال

دخل جبل عامل في إقطاع حجر الدين بحكم الترامه سنحوقه ودخلت عساكره إلى قراه وقلاعه ههنا مشايخ، ببلاد لمقاومته وفي مقدمتهم الشيخ حسين الصغيري كسر أسرته، الذي اضطر إلى الهرب من بطش الملتزم الجديد، فاحتفى في مكان قرب نابلس بانتظار الفرصة المناسبة للعودة وفي خلال عياله اشتدّ يهود آل سودون وتعاظم قدرتهم وتكاثر جنودهم، فقاموا بهجومهم مع أفرادهم على حجر الدين في صيدا، بعد أن شتموا كثيرهم بخطورة مطامحه للسيطرة على بلادهم. وعندما رأى الصغيري الممارس الظروف تسمح له بالعودة إلى بلاده واستعادة وموقعه السابق فيها، وذلك قبل أو أثناء غياب حجر الدين عن إيطاليا وتغير أحواله عاد الصغيري، وربما برفقة مساعده صغيرة من آل حاروان رعماء نابلس فقاتل أحصامه من آل مشطاح والشامي، وانتصر عليهم ونعقبهم حتى أقتلهم ولم يترك لهم بصيراً ولا أثراً، وعاد إلى حكم بلاده كما كان من قبل ولما عاد حجر الدين من عييته الطويلة وساءت علاقاته مع الشيعة هرب آل علي الصغير وال شكر إلى بعلبك، وعملوا سوياً على الوقوف بوجه حجر الدين. وبعد سقوطه عاد النارحون إلى بلادهم، حتى حصل خلاف بين الأسريين سنة 1649م انتهى بالقضاء على آل شكر. ولم تظهر بعد ذلك أسرة أخرى تنافسهم حتى استقرت الأحكام بين يدي أسر ثلاث متحالفة ومتعاونة وهم الصغيريون والمأكرة والصعبية.

كانت نهاية فخر الدين على يد والي دمشق سنة 1633م. فتولى حكم الشوف علي علم الدين، وهرب ملحم المعني إلى جبل الشيخ ينتظر الفرصة المناسبة للإقصاض عليه.

تلاشت السلطة المعنية واستعاد العامليون لتحكم بشؤونهم على ما كانوا عليه قبل أن يتولى فخر الدين «سحوق صفد». ولا بد أن كراهيتهم له قد انتقلت إلى من خلفه من أسرته، وهو الأمير ملحم فوالوا حصمه لأمر عبي علم الدين وعملوا على دعمه ومساندته

استطاع الأمير ملحم المعني بعد أن دفع ثلاثين ألف قرش إلى الوزير مراد باشا، أن يعود إلى حكم جبل الدرور، وأن يلتزم سحوقية صفد، ويعيّن من قبله اسماعيل الكردي من أمراء رأس نحاش، متسلماً على صور حتى تاريخ وفاته سنة 1658م

رغم الوهن الذي أصاب لأسرة المعني، في أو حر عهدا، في حكم الأخوين قرقمار وأحمد، ثم حكم الأخير منفرداً، ثم بهمد الدراع العاملي المعني تماماً فقد قام أحمد المعني بعروة هاشله على البطية لم تحرر نتيجة تذكر، فاستجار بولي صيدا والبيش الإثنان مع العامليين في واقعه وادي لكمور (1078 هـ 1666 م) في عهد الشيخ أحمد بن علي الصنمري شيخ «المتاولة» كما هزم ألف من العامليين أحمد المعني وهو على رأس جيش من سبعة آلاف رجل وذلك سنة (1070 هـ 1659م)⁽²⁾

قلاع جبل عامل

يمرّد جبل عامل عن غيره من المناطق اللبنانية بعدم وجود مدن أو قرى معيّنة، كما أن ثابتة للحكم، يقيم فيها الحاكم بقعة دائمة، ويباشرونها مهماته هي سائر لجهات كدير القمر هي جبل الدرور ويعتقد هي البقاع، رغم وجود بعض القرى التي كان يقيم فيها أفراد من بعض العائلات الحاكمة، مما جعلها هدفاً سهلاً للغارات، يشنها من يسمي إلى مهاجمتها أو إلى الانتقام من أصحابها، كميناتنا لال

(1) هو أول من حمل هذا اللقب، راجع لمر 733 وبعينه 386

(2) مشعرة في التاريخ، الشيخ حسين الحشيش من 101

شكر، وبنت حبل لآل سودون والتنطية لنصبيين والكوثرية للمناكرة. غير أن فترة تدخل حجر الدين في جبل عامل، والغارات التي قام بها هي مناسبات متعددة، صد عائلات وأهداف ومراكز سكيته عاملية مختلفة، والسياسة التي سار عليها خلفاؤه من المعيين والشهابيين بعده بالإضافة إلى تعديل التنظيم الإداري السابق، واعتبار صيدا مركزاً لباشوية منفصلة عن ولاية الشام فرض على الحكام العاملين أن يبتعدوا عن القرى لتجنب المصاحبات العسكرية، وما ينتج عنها من خسائر فادحة بالرجال والأموال، والانتقال إلى أبراج أو قلاع محصنة تحدد من إمكان الغارات المباشرة. وتؤمن أكبر قدر من الحماية بوحدها وتحافظ على حالة استعداد دائم لأي طارئ أو غارة أو هجوم أو عزوة سواء من جانب الوالي هي صيدا أو عامله هي الشوف أو من الاثنين معاً وربما كان ذلك من التناوب الإقطاعية والعسكرية العربية التي مارسها الصليبيون طيلة مدة وجودهم في جبل عامل من إقامة الحاكم أو القائد هي قلعة محصنة وهو تقليد ساد لفترة طويلة من العهود الإقطاعية في أوروبا نفسها

عمد حكام جبل عامل إلى بناء أبراج محصنة أو ترميم القلاع القديمة الباقية من العهد الصليبي وقلعه، والإقامة الدائمة فيها لما توفره من مبررات دفاعية ضد أي هجوم محاسي، وكأهم هي حالة حرب وتأهب واستمرار دائم، يحكم بهم الحوف والفلق والبرق والاسعداد لأي طارئ يأتي من خارج البلاد، ويحلب معه عادة الماسي والكوارث، والطمع هي إحصاءها، وبها ما أمكن من أراقها المتواصلة. فهي منتصف القرن السابع عشر كان معظم شيوخ جبل عامل قد استقلوا إلى قلاع يقيمون بها خارج المدن والقرى على الشكل الآتي

حاكم مقاطعة تبين (بلاد بشارة) قلعة سمين

حاكم مقاطعة هوبين (بلاد شارة) قلعة هوبين

حاكم مقاطعة صور (ساحل قانا) قلعة مارون

حاكم مقاطعة ساحل معركة (الشومر) قلعة ميس.

حاكم مقاطعة بلاد الشقيف قلعة شقيف أربون.

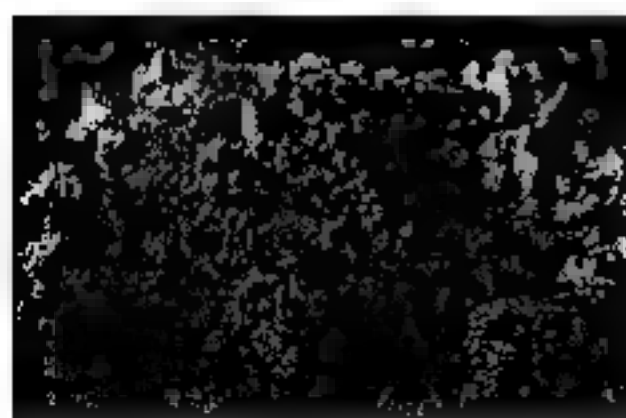
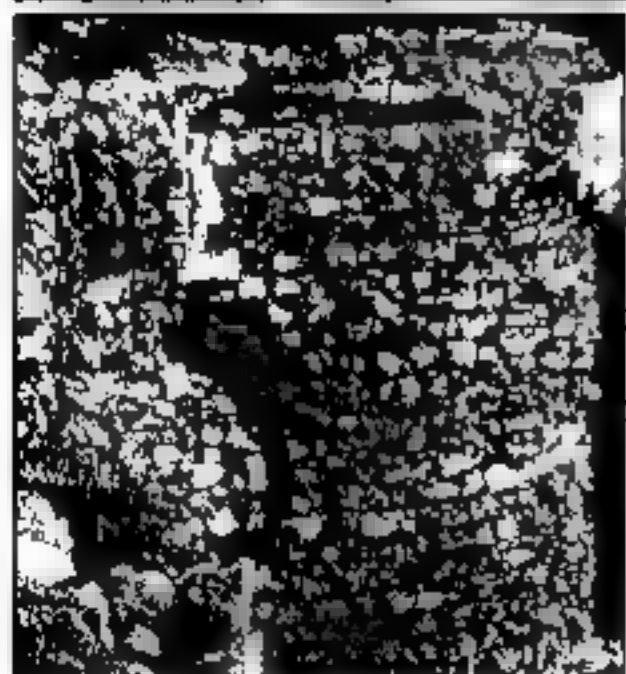
حاكم مقاطعة جباع قلعة جباع

حاكم مقاطعة إقليم التفاح لا قلعة له في هذا الوقت

وانشئت في مختلف أنحاء جبل عامل قلاع أخرى كثيرة منها القليعة، مركبا ابل

السقي، تل دبين، دير ميماس، الحربة، كوين، القعقبة.

كانت سلطنة العثمانيين على جبل عامل في هذه الفترة تقتصر على جمع الضرائب التي يجنيها والى صيدا. وكثراً ما تمنع العاميون عن الدفع، وكان ذلك سبباً للكثير من الحروب والمشاحنات. وفي سنة 1773م كادت الضرائب العثمانية موزعة على مقاطعات جبل عامل وقلاعها مدمرة بباقي مقاطعات ولاية صيدا على الشكل التالي



(1) تاريخ لبنان الحديث، منير وممداد اسماعيل و D.D.C T2 p 325 - 327 من تقرير الفحص الفرنسي هي صيدا

بالقروش		
18158	منطقة بلاد بشارة بإشراف الشيخ باصيف	المقيم في قلعة تبين
18158	منطقة بلاد بشارة بإشراف الشيخ قنلان	المقيم في قلعة هوبين
18158	منطقة صور بإشراف الشيخ أحمد 'عباس'	المقيم في قلعة مارون
9770	بلاد لشومر بإشراف الشيخ علي عباس	المقيم في قلعة ميس
11247	بلاد الشيف بإشراف الشيخ علي نقارون	
7196	بلاد جناع بإشراف الشيخ حسين منصور	المقيم في قلعة جناع
7196	بلاد النعاج بإشراف الشيخ حمزة منصور	وليس له قلعة ⁽²⁾
97809	مجموع مقاطعات جبل عامس	
66927	جبل الدرور	
137353	البلاد الحاصفة بحكم الشيخ صاهر النمر	صعد وعكا والناصره
58786		مدينة بيروت
50000		مدينة صيدا
410875		مجموع ميري ولاية صيدا

(1) ربما كان اسمه مركباً كما جرت العادة في تسمية أبناء هذه العائلة وهو أحمد عباس المحمد النصار.

(2) أصحاب الملاع الخمس من العائلة لصغيرة نولثة و بياقون من بني صعب ومنكر

العاملون وجبل الدروز بعد فخر الدين

يحاول بعض المؤرخين العاملين المعاصرين، بدراسة الالتزام الدقيق بالواقعية والموضوعية تفسير الانتفاضات الدموية المتوالية التي قام بها العاملون ضد الولاة العثمانيين والمعارك التي حاصوها ضد المعسيين ثم لشهابيين المدفوعين غالب الأحيان بأوامر من الولاة المذكورين بأنها لا تعدو كونها جهوداً للتخلص من أي وسيط محتمل بينهم وبين العثمانيين، أو أنها تراعات عاديتة على الحكم والتموذج بين الطامحين، وقد ذهب فريق منهم إلى حد اعتبارها انتفاضات فلاحية، ذات مصيرون إقتصادي بحت، يرمي إلى التخفيف من الضرائب المرتفعة التي تتحطى قدراتهم المتواضعة على الدفع.

يقول أحدهم: إن الحديث هي جبل عامل عن الحكم الوطني، والروح الوطنية وانتصام القومي، هو اسماط مفاهم برزت في بداية القرن العشرين، على أحداث ووقائع تاريخية حدثت في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

إن في هذا التفسير تحدياً وتحاملاً على نواحي التاريخي، العامل، رغم صحة القول، إن المفاهم القومية هي القرن العشرين هي غيرها في القرون السابقة ولكن الشعور الإنساني بالإنتماء إلى وحدة ما، هو رعة عريضة وطبيعة أصيلة، لارمت الحسن البشري هي مختلف المجتمعات والعصور، وأن شعور العاملين بوحدة الإنتماء والمصير والتطلعات هو الذي عيّن السبل المشروعة لتحقيق لمصالح العامة، لمجموعة تتأثر سلباً أو إيجاباً بنفس المقدار هي ظلّ واقع قائم ومحاولة تعبير نحو الأنسب والأفضل والأكثر عدالة وأماناً.

من أجل ذلك، كانت الانتفاضات العامية في غالب الأحيان، تقوم بوجه الوالي العثماني في صيد، الممثل المباشر للسلطة الحاكمة، والسطان، سببها المطلق ورمز جبروتها، ولم تكن العارات المعية و لشهابية لمتكررة إلا وحهاً من وحوه هذا الصراع، لأنها تتم عادة بأمره ويموافقته أو باعتباره بدئها على الأقل.

إن مقدار الصرية وطريقة دفعها والمستمد منها، لم تلعب إلا دوراً محدوداً في هذا

المحال. لأن دافع الضرائب الأساسي وهو الصلاح العاملي، يدفع وينفس المقدار سواء كان الحاكم عاملياً أو معيّناً أو عثمانياً فلا يختلف الأمر في جميع هذه الأحوال ولكنه يدفع إلى القتال بحماس وإقدام للدفاع عن مثل يعتر أنهما من لأهمية بحيث تدفعه إلى المحاطرة بنفسه وبماله للدفاع عنها وتحقيق ما يمكن منها

إن الانتصار في هذه المعارك، نشر مشاعر الإعتزاز والفخر في نفسه، كما أن الهزيمة تثير الحسرة والأسى، وفي الحالتين يعتر نفسه معيّناً شخصياً ودنياً بالأمر وهذا هو الشعور الحقيقي بالوطنية، بصرف النظر عن تسميتها أو حيرها الحمر أهلي أو البشري، إنه يقاتل دفاعاً عن حدود صفة حمر أهلية معينة، في أية جهة كانت ويلبّي دعوة الرعيّم الشاهر سيمه من أجل قضية مشتركة وعامة.

إن معركة العاملي هي وجهه الوالي العثماني، أو المعني أو الشهابي، لقادم من لشمال، أو الزيد بي المادم من الجنوب، هي في وقع لأمر معركة واحدة لهدف واحد، هو الدفاع عن وطن، يمتدّ وطنه، وقوم يعتبرهم قومه، قبل أن تتسع مفاهم الوطن والقوم في القرون القادمة، وتتعمق في مفاهم الفلسفة والتاريخ والحمر أهلي وعلم السياسة

ربما كان هذا الشعور كامناً قبل أن يأتي فجر الدين وبشيره، ولكنه ازداد حدة ودرواً مع عاروب المعنيين اللاحقة، فلم يكفد والي صيدا الأول خورشيد باشا، يستلم مهام باشويته لمستحدثه، حتى عمّت الثورة بوجهه كامل أنحاء جبل عامل، ولم تحمد بعدها بصورة نهائية أبداً فكانت تناحج من وقت إلى آخر تبعاً للتطورات السياسية والعسكرية الطارئة، وكلما هاجم شهابي بعسكره قرية من قرأه، أو دسكرة من دساكره، أو حصناً من حصونه دون الإهتمام بشخص صاحب كل منها، ومن يكون لأنه يكفي أن يكون عاملياً ليثير الحوة والإسراع في وحدان كل عاملي آخر ويبادر مسرعاً إلى التصدي والدفاع

لقد قاوم العامليون فجر الدين بالدفاع، وبإمكانيات محدودة، ولما تبين لهم عقم هذه الجهود بسبب النور الشاسع في موارد القوى هاجرت فياداتهم المعروفة في ذلك الزمان دون أن يشدّ أحد من عائلاتهم الحكمة التي سيلصقون حولها هي الملمات للبحث عن قوة خارجية يسندون إليها، وتجمعهم معها رويط معيثة تحثّم قيام تحالف سياسي مشترك، فلما انتهى عهد فجر الدين، وعدد المعنيين إلى حجمهم العادي، قام العامليون بمحاولة صدّهم، اعتماداً على قواهم الدنية وحدها، لأن التعادل هي القوى عاد إلى فرض توارثاته على الصراع، فلما جاء الشهابيون واستعان بهم ولاء صيدا، كان

العامليون قد اكتسبوا مريداً من الشعور بالإنتماء والخبرة هي المقاومة والنزوع إلى الإستقلالية هي تصريح شؤونهم فأحدث المعارك حتماً أكثر، ولم تعد الغارات المباحة تكفي لتحقيق نتائج سياسية وسلطوية. فتولت ثوراتهم مدد عهد مشرف وقبلة، وتتابعبت هي عهد أولاده حتى اكتسب هي وقت ما بعداً عاماً إقليمياً ودولياً، وتحولت إلى حرب شاملة بين باصيف النصار على رأس العاميين، والسلطة العثمانية بقيادة ولاتها هي صيدا وعكا ودمشق، وعمّالهم من الشهابيين بقيادة يوسف الشهابي وتحالف العاملون لأول مرة مع قوى محلية كظاهر لعمر وقلبيته كأي الذهب، ودولية الاسطول الروسي، واتسع ميدان الحرب إلى مختلف أنحاء سوريا، وامتد إلى سنوات طويلة، تحول جبل عامل هي نهايتها إلى رص محروقة بعد أن قتل رعيمة وخيرة مقاتليه وعلمائه، وتشئت الباقون هي مختلف الأنحاء، وصاغت معالم استقلاله ووردهاره التي قاتلوا من أجلها طوال أحيال، ولم يبق لعنة طويلة إلا الدم والدموع والحسرات والذكريات، وقصائد تتأقظها الأساء عن لمرروس الصائح المقود

من الصعب أن يفصل روح التمرد والثورة التي طبعت تاريخ شيعة الشمال بما يجري عند احوالهم هي الحبوب فالعدو العثماني هو واحد في المطلقين والجمع والتكامل وهتوى أبو السعود أمددي ومن عمر بها واستوحى مخططاتها هي المحرك الرئيس في الحائين إن الحرب الشيعة العثمانية العامة التي اندلعت في وواحر القرن السابع عشر ألهمت بنارها جبل عامل وجبل لبنان هي وقت واحد، وإن لم يكن ذلك متداولاً ومعروفاً حتى عند أكثر العاملين عوضاً هي المصادر التاريخية وسوصح الوثائق الرسمية أن هذه الثورة الواحدة دارب في جبهتين، وشملت الشيعة هي كل المناطق التي يتواجدون فيها ضمن حدود لبنان الحالي

ظهور بني علي الصغير

إن المتناقضات والمعائطات والمبالغات التي تناولها المؤرخون العاملون هي شأن بداية هذه الأسرة وتسلسل أسبابها وتراعاتها الأولى مع غيرها من الاسر، لا تصمد أمام أول تحليل علمي أو منطقي أو واقعي أو ربحي يحاول مناقشتها واخصاها لسياق تاريخي مقب، أو محصل فهي لا تحرج عن كويها مجموعة غير مترابطة من السرد القصصي المرسل، الذي لا يكاد يتضمن من التاريخ إلا إشارات مبهمة تتعبط بدون تحفظ هي التورخ، والأسماء والحوادث، وتنقل بين العصور بما يحالف هي معظم الأحيان، أو يفلت من الإطار العام المتعرف عليه هي التسلسل والمنطق ومحربات

الأحداث المعروفة أو المحتملة

إن ما هو متداول في أمهات المراجع لعمامة المعتمدة وغيرها، والذي يصنّف أحياناً إلى قاطبة الإطمئنان له، والإقتناع به، لا يثير حلاً مهماً في السياق التاريخي العام، لأن التعرّص له أو إغصاله سيأخذ ما دام لا يمسّ لواء التاريخي في جوهره ولا يشكل ثغرات مهمة فيه.

عُرفت الأسرة النوايلية في بدايات العصر العثماني بالأسرة الصغيرة، أو أولاد علي الصغير وكانت في عهد فخر الدين تشترك مع أسر أخرى، قد تتساوى أو تقل أهمية عنها، في إدارة الأمور العامة في جبل عامل، ولقي تركّز في هذه الفترة حول مقاومة محاولات فخر الدين للسيطرة عليه وإحصاءه عن طريق الترميم مسجّقة صمد والتكليف بالقوى التي تعارض هذا التوجه أو تقاومه.

في بداية القرن السابع عشر، كان آل سودون من حكام بلاد شارة كما أن هناك أسرة أخرى، هي آل شكر كانت كما يظهر، تشارك آل علي الصغير في حكم أحرار من البلاد من مركزها في عيانتا، الذي قد لا يكون المركز الوحيد. وتنتهج الأسرتان سياسة واحدة هي تحالف ظاهر، أو على الأقل في حاله عدم عداء، إذ أن آل شكر قاموا بمحاج، بصدد عمارة لبعض حند فخر الدين على قريبتهم، وقتلوا قائد العارة وعدداً من جنوده، ولاحقوا المعتدين حتى الحولة، كما أن الأسرتين اجتمعا على تأييد ولاية حسين اليارحي عدو فخر الدين ومناهضه على صمد، كما فعلت الأسرة الثالثة آل منكز سنة 1617م قبل أن تضطر الأسرتان إلى ترك ديارهما في العام نفسه والإنتهاء إلى القوة الشيعية في البقاع التي كان يمثلها الأمير يوسف الحرفوش.

ذكر المؤرخ الصعدي هذه الحوادث عن بيت شكر، وهو معاصر لها وربما شارك في أحداثها مما يؤكد صحة وقوعها ومدلولاتها ويبيد أن الأسر الأربع التي ذكر إحداها الدويهي وذكر الصعدي الثلاث الباقية، كانت تتقاسم، وربما على درجات مختلفة النفوذ والحكم في جبل عامل في الفترة التي كان فيها فخر الدين أميراً على جبل الدروز ومتولياً على سنحوق صمد أو ساعياً لولايته.

كانت معركة الزهراني التي انتصر فيها آل سودون على فخر الدين، كما كان لجوء آل شكر بصحبة آل الصغير إلى حمى الحرفوشي في بعلبك آخر ما ذكره التاريخ عن العائلتين الأولتين، فلم يسمع أو يؤتى بعدها على ذكر لهما وبدد وكان الصغيريين امردوا بحكم جبل

عامل ومشيفة العشيرة منذ ذلك التاريخ

أسهبت الروايات العاملية هي بمصير أحداث النهاية المأساوية لآل سودون، وتمايزت في سرد الطريقة التي تمت بها، كما تماوتت في تحديد زمانها ولكنها اتفقت على حصول نزاع متمادٍ بينها وبين آل علي لصغير، انتهى باستئصالها على أيديهم في وقت اختلف في تعيينه ويرجح أن ذلك حصل على يد حسين بن علي الصغير المعاصر للأمير حجر الدين، والذي صطر بعد خلافه معه إلى الفرار خارج بلاده نحو الجنوب، فاصرد آل سودون بالحكم وطمو . حتى تألب الناس عليهم. فعاد حسين الصغيري وربما بنجده من بعض حماة في حبال بابلس والبلقاء، ومن بني عمه في النادية، وقام علي رأس حربه بمداومة آل سودون في ست حيل، فطوق منازلهم، وهرم حديدتهم، وقتل رجالهم، وشئت أنصارهم. وتنتع آثارهم حتى أقضاهم قتلاً وشريداً، ولم تقم لهم بعدها قائمة ويسدو أن هذا الهجوم الماحق كان في حدود سنة 1613م وهي السنة التي اضطرت فيها حجر الدين إلى ترك مارتة والسمر إلى إيطاليا، مما عثر الأوصاع في جبل عامل، وسمح للصغيري بالعودة، بعد أن انحسر نفوذ عدوه حجر الدين ولما عاد بعد خمس سنوات 1618م انبصر الخلاف مجدداً بين جميع العائلات المعتمدة في جبل عامل ولم يعد لبني سودون عندها وجود

بعد زوال بني سودون بقي بنو شكر من الأسر النافذة، ودور تسلطان في جبل عامل، وكانت عينات قاعدتهم، وربما مدوا نفوذهم في وقت ما إلى قانا وتبين وسدو أن الأسرتين كانتا في أول الأمر على شيء من تفاهم وتخالص، إلا أن حلاهاً حاداً ما لبث أن استمر بينهما، وأدى إلى صدام دموي قتل فيه أحد مشايخ الصغيريين، وانتهى بانهرام بني شكر ومقتل كبيرهم أحمد وتشتت الباقيون فكانت نهايتهم كمائلة عاملية حاكمة سنة 1649م⁽¹⁾

استمرّ العداء المعني الصغيري بعد مقتل حجر الدين، وانحسر حكم المعنيين عن الشوف، وتولّى عليه الأمير علي علم الدين من قبل والي الشام سنة 1639م فكان من الطبيعي أن يناصره آل الصغير باعتباره عدو المعنيين ومنافسهم على الحكم، فلما مرّ السلطان مراد في حلب قاصداً بعدد لمحاربة الصفويين، اجتمع إليه أصحاب الإيالات والحكم من بلاد الشام وغيرها، فخاف ابن علم الدين وارتحل إلى

(1) جبل عامل تاريخ وأحداث راسم رزق، ص 200.

بلاد بشاره فاجتمع عليه أهلها وناصروه فقصدهم الأمير ملحم المعني، وهاجم قرية أنصار في 19 آب 1638م وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وتوالت الصدامات بين علم الدين وملحم، فهرب أهل الشوف وعرب والمث والحد من بلادهم وخليت بلاد الدرور وقرى الأمير ملحم⁽¹⁾ ويقول المؤرخون العامليون إن أنما وحسماية قتل من المتأولة سقطوا، في أنصار مقر آل منكر، واستباح ملحم القرية سلباً ونهباً، وكانت هذه المحررة حلقة في سلسلة العارات المعية التي شملت الكوثرية وعيناتا وبت جبل ودراريه وحوميس، وهي التي أطلق عليها العامليون معركة أنصار الأولى تمييزاً لها عن معارك أخرى وقعت في نفس القرية في تواريخ لاحقة⁽²⁾.

على أثر حركة العصيان الواسعة التي شترك فيها الحماديون والمعنيون والشهابيون وغيرهم سنة 1658م، قامت ندولة باتحاد ندابير قصدت منها مواجعه مثل هذه الحركات في المستقبل، ومنها تنمية صيدا مركز ولاية مسعدة، وتعيين والتركي عليها هو علي باشا، والحق جل عامل وحل الدرور بها، بعد أن كان الأول يتبع سنجق صمد، والأخير ولاية دمشق وكان هدفها الرئيس في هذا التنظيم الإداري الجديد إضعاف أولاد العرب وزيادة فعالية الرقابة على مناطقهم⁽³⁾ جاء الوالي الجديد إلى صيدا لتنفيذ سياسته لشدة وخطورة، التي أرست الدولة على اتباعها مع رعاياها من أولاد العرب. فكانت الفتنة العظيمة بينه وبين مشايخ المتأولة لني ذكرها الشهابي باحتصار شديد وسكب عنها المؤرخون العامليون القدامى، بينما اقتصر المحدثون على الإشارة إلى عظمة الواقعة وهداحة الحسائر وكثرة الضحايا وعلى رأسهم علي بن علي الصغير وأولاده سنة 1072هـ - 1662م⁽⁴⁾.

ربما هذا هو الصدام المباشر لأول بين لصعيريين وبين الوالي العثماني، دون أن يطلب من حكام لشوف معاونته في حربه لأن العلاقات بين الطرفين لم تكن تسمح بذلك، بعد أن احتضن الحكام القدامى من معنيين وشهابيين هرباً من السلطة.

(1) الدويهي، ص 519، وكذلك الشدياق، ص 125.

(2) المتأولة في جبل عامل، حمد رضا (جبل عامل بين 1516-1697م) علي إبراهيم درويش، ص 151.

(3) الدويهي، ص 551 (صن يحطم درع أولاد العرب عمل صيد، ياشوية).

(4) جبل عامل في التاريخ المقيم، ص 176.

واستبدلت بهم أخصاصهم في مناصب الحكم

على أن إرادة القتال وإمكاناته، قد تمت وترسخت عند النوائيين والعاملين عموماً، واستحداث مركز ولاية في صيدا، سيريد من إمكات الصدام مع ولائها وسيثير في العاملين وشيوخهم هواجس حمة

بعد مقتل علي وأولاده الدين لا يعرف عددهم ومن هم كل أولاده أو بعضهم، تولّى الحكم أحمد بن علي الصغير، وهو أول من تصدّق المؤرّحون للسابيوس إلى اسمه لقب «شيخ المتأولة»⁽¹⁾ وقد توفي فجاء عام (1090هـ - 1679م) بعد أن شهد على الأرجح وقعتي النبطية والكمور (1077هـ - 1666م) والتي استصرهيهما المشايخ، على الأمير أحمد المعني في معركة النبطية⁽²⁾ وعلى والي صيدا، في المعركة الثانية



قصر الشيخ من بني علي الصغير في تبدير

(1) المقتطفات لشيخ حمد رضا سنة 1910 ص 491، رويش م م (

(2) راجع عن ذلك واقعة استصدفة عالم مشعري للأمير المعني في قصص، مشعرة



سازمان اسناد و کتابخانه ملی

الفصل الثالث

الثورة الكبرى

إن نجاح حجر الدين في الترام لواء صفد من ولي دمشق ومحاولاته ولو بالعنف المتواصلة للسيطره على جبل عامل أرست سياسة العداء والحصام بين العاملين والمعنيين وازدادت العلاقات توتراً ودموية بعد حول الشهابيين مكان أسنائهم المعنيين في حكم جبل الدور.

فما كاد أول شهابي يصل إلى الحكم حتى أصبح الأداة الطبيعية الطنعة في يد النابا العثماني لإحصاع الشيعة في جبل عامل، وقمعهم كلما أمرت الإدارة العثمانية بذلك¹ وقد استمرت هذه العملية مضرة في يد النابا العثماني² حتى أواخر عهد الشهابيين وانهيار إمارتهم في جبل الدور، بعد خروج ابن هبم باشا وحظيمه الأمير بشير الشهابي من لبنان.

المواجهة الأولى - الشيخ مشرف

هو مشرف بن أحمد بن علي بن حسين بن علي الصغير ثار سنة 1110هـ - 1699م أو 1700م على إرسال باشا وخرج عن طاعته وقبض على جماعة من رجاله وقتلهم. تنسب إليه مررعة مشرف بساحل صور ود رة فيها باقة حتى الآن³، وكان قد بنى

(1) استعمل هذا التعبير Instrument naturel du Pacha في وصف بشير الأول القنصل الفرنسي Bourée في تقريره عن تاريخ لبنان لعموم إلى رئيس الوزراء الفرنسي ماسيو غيرو Guizot في 17 كانون الثاني 1848م، D D.C. T9, p 208

(2) استعمل القنصل لروسي في بيروت دارلي هذا التعبير في وصف الأمير ملحم حيدر شهاب في تاريخه، ص 62.

(3) أميان سنة محسن الأمير 142 ص 466 وقد حثف في تاريخ وفاة مشرف فقال الامين إنه توفي في صيدا في صفر سنة (1112هـ - 1700م)

فيها مسجداً، ونقش على أحد حدران داره شعراً وديكته بالجملة التالية وأشاد هذا البناء وأعلاه وأحسن النظر لو كافأ بناه الشيخ الكبير الملقب بالصغير شيخ مشرف بن نصار دامت سيادته،

يقول الشدياق

«وسنة 1700م خرج الشيخ مشرف بن علي الصغير المتوالي اليميني صاحب مقاطعة بلاد بشارة عن طاعة إرسال باشا، وقبض على بعض غلمانه وقتلهم. فاستهض الورير المذكور الأمير بشيرا لقتاله، وأطلق له ولاية صمد مع مقاطعات جبل عامل الثلاث، وهي مقاطعة بلاد بشارة ومقاطعة إقليمي الشومر والتماح، ومقاطعة الشقيف. فجمع الأمير من رجاله الصيفية ثمانية آلاف مقاتل، ورحل بهم إلى قتال مشرف اليميني فالتقى به في قرية المبرعة من بلاد بشارة، واصطفت المبريقان للقتال ولم يصطرم نار الحرب بينهم إلا قليلاً حتى انكسر رجال مشرف وهلك منهم خلق كثير وقبض على مشرف وأخيه الحاج محمد، ومديرهما الحاج حسين المرجي، فأرسلهم الأمير إلى إرسال باشا، فقتل الورير الحاج حسين وسجن مشرفاً وأخاه وولى الأمر من صمد إلى حبر العاملين، فوضع الأمير ابن أخيه الأمير منصوراً والياً على صمد وجعل تحت يده نأ طاهر عمر بن أبي زيدان العمر المشهور، شيخاً على تلك الديار لأنه قبسي وحضر إلى الأمير سو مكر المتأولة أصحاب إقليمي الشومر والتماح، وبنو صمد المتأولة أيضاً أصحاب مقاطعة الشقيف، ودخلوا في خاطره فأقرهم على مقاطعتهم، ورجع إلى دير الفمر معزراً»⁽¹⁾

يقول حيدر

«في هذه السنة ظهر الشيعي بن علي الصغير صاحب مقاطعة ديار بشاره إحدى مقاطعات جبل عامل، وقرر الخروج عن طاعة إرسال باشا وبدا أمره. ورمى القبض على جماعة من غلمانه وقتلهم فاستهض الورير المذكور الأمير بشيرا إلى قتاله ومحاراته، وأطلق له ولاية مدينة صمد مع ولاية مقاطعات جبل عامل الثلاث وهي مقاطعة ديار بشارة ومقاطعة إقليمي الشومر والتماح ومقاطعة الشقيف. وضم الجميع إلى ولايته. فجمع الأمير جموعه القيسية من الديار اللبنانية، وصار قاصداً قتال مشرف المذكور، وكان مشرف يهرب فأسرع الأمير بشير إلى قتاله ولم يتأخر

(1) الشدياق، ص 312 يسميها القنصر نشرش بمناصاة المتأولة. حل لنصار ص 26.

فالتقى به في قرية المزيرعة من قرى بلاد بشارة وقد جمع رجاله وأحرابه لملتحاه، فحشد إليه الأمير بشير بحيشته واصطف لمرافق للقراع ولم تهج الحرب بينهما إلا قليلاً حتى انقضت رجال مشرف وانحطت عزائمهم وولوا مدبرين هظفر بهم الأمير بشير وأهلك منهم خلقاً وقبض على مشرف من على الصغير وأخيه الحاج محمد. ومدبرهما الحاج حسين المرجي. وأرسلهما إلى إرسال باشا فقتل الوريث المشار إليه الحاج حسين واعتقل مشرف وأخاه ووضعهما في السجن وأطلق للأمير بشير التصرف في تلك الديار جميعها، فاستولى عليها واستقر له الأمر فيها. فوضع أخاه الأمير منصور والياً على صعد، وجعل تحت يده شيخاً على ديارها عمر ابن أبي زيدان، وكان المذكور رئيساً قيسياً وهو والد صاهر العمر المشهور وكان قبله شيخ بلادها⁽¹⁾.

هذا كل ما ذكرته المصادر اللبانية الكلاسيكية عن ثورة الشيخ مشرف، وتنعهم العامليون في الخطوط العامة لهذه الرواية، بسبب فقدان أي مصدر عاملي خاص أصاب إليها شيئاً مهماً، إن هذه المصادر كآيت السيد توحيد المنوهر لكل من يحرص لهذه الحركة، وإن أصابوا إليها بعض لآراء الخاصة، والحماس العاطفي، الذين لم يعيروا هي وقائعها وأسبابها ودلائلها شيئاً يتوقف عنده، فهي ليست حادث صدام عادي بين شيخ حاكم وبعض رجال الوالي، فكان لابد من تدبّر هذه الشيخ الجسور، فما كان من البطل السهامي إلا أن لى بداء سيده العثماني ولمن المتطاولين على علمان الباشا درساً قاسياً وتركهم بين قتيل وأسير

إن لوثائق العثمانية الرسمية والأوامر السطوية والسير الذي حفظ هي سجلات المحكمة الشرعية هي صيدا وطرابلس بعد أن أصبحت جميعها هي متناول الباحثين وخرجت من المحفوظات إلى التداول تنرد هذه الحركة وجهاً معاكراً ومحتلماً عن كل ما كتب بشأنها سواء في تاريخها الصحيح أو في مضمونها ودلائلها

لم تكن ثورة الشيخ مشرف في الواقع إلا مشاركة لعمالية هي الثورة الشيعية العامة التي قام في الشمال، وكان جبل لبنان والبقاع جناحها الشمالي كما كان جبل عامل جناحها الآخر. فكان المتمردون ينتقلون من الجنوب إلى الشمال وبالعكس حسب ما تقتضيه التطورات، وما تعرضه طبيعة موجهات لداثرة، أو مستلزمات النجدة والمساندة والأمان كما أن الدولة تعمدت معها كحركة واحدة قام بها متمردون ينتمون

(1) انظر لحسان الشهابي حوادث 1115هـ ص 5.

إلى الجهة نفسها، واتحدت في سبيل القضاء عليها تدابير مشتركة في وقت واحد. أبطأت إدارة العمليات السياسية والعسكرية بالسلطات العليا في العاصمة دون أن يكون للشهابي أو للوالي إلا تلقي لأوامر وتنفيذ.

قام الشيخ مشرف بتحركه بالترامس مع اشتداد المعارك في الشمال، حيث كان المقاتلون من جبل عامل يتسللون في عمق الأراضي الحاصصة للسلطة وينضمون إلى أحوالهم في المعارك الدائرة شمالاً في ولاية طرابلس.

في شباط 1696م صدر عن الباب لدلي الحكم السطاسي حول اشتراك العاملين في الثورة.

«إن المفضوب عليهم القزلباش الدين يتلقون تعريزات من جبل عامل يرهبون عامري السبيل والملاحين في جمال سرحال في ولاية طرابلس،

ووجهت في الحكم بمسه أمراً إلى والي صيدا لإغاثة القزلباش، ومنعهم من العبور شمالاً نحو طرابلس، حيث يتسببون بالدمار والهلاك

وهي أيار 1696م تلقى الأمير أحمد المعنى أمراً صريحاً بحمل بعض الانهام الصمعي بمساعدة الثوار ومساندتهم وندو أنهم يتجمعون في المناطق الشمالية من جبل عامل تمهيداً للانتحاق بميدان المعارك بدعم ومساندة من الشيخ مشرف.

«إذا تكررت هذه الأعمال بدعمك ومساندتك أو بدعم ومساندة الشيخ مشرف مثل تقديم الملجأ إلى اللصوص القزلباش القاطنين في المناطق الزراعية القريبة من صيدا، وحيثما وجدوا يقتضي استئصالهم»⁽¹⁾

يرى المؤرخان الشهابي والشدياق ومعظم من أحد عيها (وهم جمهور المؤرخين في لبنان والعاملين منهم) أن انتصار الشهابي على مشرف وأسره بين يدي الوالي كان سنة 1700م سطشت به وأقصته عن الحكم، وأصبح الشهابي هو السيد الوحيد يوزع المقاطعات على الموالين له بعد أن وضعها لباشا بتصره المطلق

إن سجلات محكمة صيدا تعيد أن عقود الإلتزام أعطيت منذ آذار 1699م كما جرت العادة، إلى الشيوخ أنفسهم. فكان على الحاج أحمد (الصمعي) متسلماً بلاد

(1) أ م د السجل 317 - 81: 108.

(2) أ م د السجل 1093 - 108.259.

بشارة ومحمد ناصر الدين (المنكري) على قديم الشومر بالإشتراك مع سليمان ابن صعب⁽¹⁾ (الصعبي) واستمر ذلك في السنوات اللاحقة

هذا ما يؤكد أن المؤرخين اللبنانيين وغيرهم لم تمتهم الدقة في التواريخ بحسب، بل إن ما ذكروه من اطلاق مقاطعات بلاد بشارة والشومر والضميف تحت يد الأمير بشير هو قطعاً مناقض لما يستمد من السجلات في محكمة صيدا الشرعية، ولسنوات عديدة بعد هذا التاريخ، وأن الباب العالي وحه اهتمامه إلى الاقتصاص من مشرف في تاريخ سابق قبل إقصاء أحمد المعني وهربه وربما تحدث بعض الإجراءات ضد أمير الدرور وشيخ الشيعة معاً

إن كل ما استطاع الأميران الشهابيان منصور وبشير الحصول عليه من معام هي جبل عامل فيما بعد هو جباية بعض رسوم نهائية الخارجة عن نطاق السلطة بما فيها الرسوم على الحواميس وأثقالها في منطقتي بلاد بشارة والضميف وهو تدير مأثوف في نظام الحماية العثمانية⁽²⁾ سيما بقيت عقود الإلتزام الرسمية بين بدي المشايخ العاملين كما كان الحال دائماً.

في الوقت الذي بلغت فيه ثورة الشيعة الشماليين أقصى امتدادها ووصلت المعارك مع القوات العثمانية ذروة عنفها صدر أمر سبطاني إلى ولاية دمشق وصيدا وبيروت شن هجوم تاديب على سبعة عشر قرية هي جبل عامل هرب السكان وحتت البلاد من أهلها فانهضت الصرايب بمقدار ثلاثين ألف فرس وطرد الحكام المحليين الذين حلفوا مشرف وهم علي الحاج أحمد وأحمد المنصور من الوائليين ومعايل ابن علي منكر وسليمان الصعبي⁽³⁾ وهم رؤساء العشائر العمانية الثلاث

وهي المنرة التي كانت القوات العثمانية تتأهب للقيام بهجوم صخم على ال حمادة في بلاد جبيل والبترون تسلم والتي صيد⁽⁴⁾ مرأ من الباب العالي يطلب منه اتخاذ أقصى التدابير لمنع الإتصال بين جماعي الثورة والحوؤل دور وصول التعريرات من جبل عامل إلى ميدان العمليات في الشمال ومع شيعة الشماليين من التواصل مع احوانهم الجنوبيين لإحكام الحصار على المزيقين تمهيداً للعصاء عليهما فطلبت منه أن يسارع

(1) م. ص. ش سجل واحد ص 28.

(2) الإمارة الشيعية ص 189 سجلات المحكمة الشرعية في صيدا سجل رقم 1 ص 6 - 7

(3) موري مهمه دفتری سجل 114 ص 1 وشكايات سحر 40 ص 675

إلى «قطع وربط الطرقات والممرات حتى لا يستطيع القرلباش أن يأتوا إلى جبال صيدا وببيروت لمساعدة هؤلاء اللصوص وحتى لا يتمكن أحد من آل حمادة من الهرب إلى الأمير بشير (ولاية صيدا) أثناء اناباتهم»^(١).

إن هذه الإبادة تستهدف المريقص معاً، ما داموا يقاتلون سويّاً جنباً إلى جنب، في الشمال كما في الجنوب.

ومن أخطائه سيوف المصلط منهم كدث سجونه له بالمرصاد، فحشر العاملي مع الحيلي في رنانة صيقة، ثم يحرّجها منها أبداً

إن عدداً كبيراً من أفراد آل حمادة ماتوا في سجن صيدا بسبب الاكتظاظ مع إخوانهم في الدين في جبل عامل^(٢)

«بعد عزل إرسال باشا عن ولاية صيدا وحلول الأمير حيدر الشهاب حلياً للأمير بشير المتوفى عاد الصعيريون إلى إظهار ثورتهم وتمردهم، وأغاروا على بعض بلاد الشوف وانصم إليهم الماكرة والصعيبية، هبّرت حيدر من والي صيدا الحديد، واشترى منه الترام المقاطعات الحموية واستعدّ بحربهم بدعم من الوالي الذي توخى من هذا النزاع بعض المكاسب المالية والسياسية»^(٣)

هاجم حيدر النبطية فالتفاه لماولته حارحها، فانتصر عليهم وهلك منهم خلق كثير، ودخل بعضهم إلى القرية وتحصّن فيها فغار الأمير بمرسانه وأهلكهم جميعاً، وانحلى ببو علي الصعير عن بلاد بشارة واستولى حيدر على ديارهم وأقام محمود أبو هرموش نائباً فيها من قبله سنة 1707م^(٤).

إن قدر هذه الأسيرة التاريخي كمدح حلها أن تقاوم باستمرار عدوّاً شرساً يتموّق عليها في مصادر القوّة والإمكانيات تفوّق ساحقاً إذ لم يكن بمقدور جبل عامل بالنسبة لمساحته وعدد سكّانه، أن يجتد أكثر من لاه معدودة من الملاحين الذين يضطرون عند دعوتهم للقتال إلى هجر أرضهم وموئلتهم وعائلاتهم، فلم يكن المقاتل العاملي

(١) شكايات سجل 40 ص 722 - 723.

(٢) الإمارات الشيمية ص 154 فضلاً عن بر نجيم في مجله المشرق عدد 25 سنة 1927 ص 810 - 820

(٣) التاريخ السياسي للإمارة الشهابية، عباس أبو صالح، ص 47.

(٤) انشدياق، ص 313.

معتاداً على البقاء طويلاً في ساحة القتال، أو على خوض الحرب بعيداً عن موطنه. فالعامليون في النهاية فلاحون مسلّحون لا يستطيعون هجر قراهم وزرعهم وعائلاتهم طويلاً، وهي مهذّدة بالتدمير والبور والسبي. وعدوّهم الرئيسي هو والي صيدا الذي يمثل الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، الذي يتمتع باحتياط من الإمكانيات البشرية والمادية لا حدود لها. وبمعدوره الاستعانة بما يلزم من قوات الولاية العثمانية الآخرين، كما أن سلطته تحوّله في الوقت الذي يريد إصدار الأوامر إلى القسم الشمالي من ولايته، والمؤلف من جبل الدور وملحقته، بعشد رحاله ومساعدته على إخضاع العاملين المتمرّدين، وهو ما فعله باستمرار بحيث أن إمارات التي قام بها ولاية الشوف على حير بهم هي حل عامل تواصلت بشكن يكاد يكون مهنهراً على امتداد قرون عديدة.

لم يكن الشهابي يناور ما يقوم به أي صابط عثماني بأنتم بأوامر الوالي هي صيدا أو دمشق وبمساعده وتحت أشراعه

في هذه الفترة التي حلت فيها بلاد بشارة من سكانها وانحصت الحباية إلى أدنى درجاتها ورفض المشايخ الشيعة قبول عقود الإلزام العثمانية وهصلوا الرحيل عن ديارهم على الحصوع لإرادة السلطة عهد الوالي بتأديتهم والإقتصاص منهم إلى حيدر الشهابي، وأمدّه بكل أسباب المساعدة والدعم ورعّم كل هذه المعاناة استمر المشايخ في تمردهم. ورفضهم دفع الصرايب المتوجبة على والي دمشق، رغم أن أمراً سلطانياً وصل في حبه إلى والي صيدا يطلب فيه القيام بتسديد المبالغ المتوجبة على مقاطعات جبل عامل الثلاث بلاد بشارة والشومر والشقيف

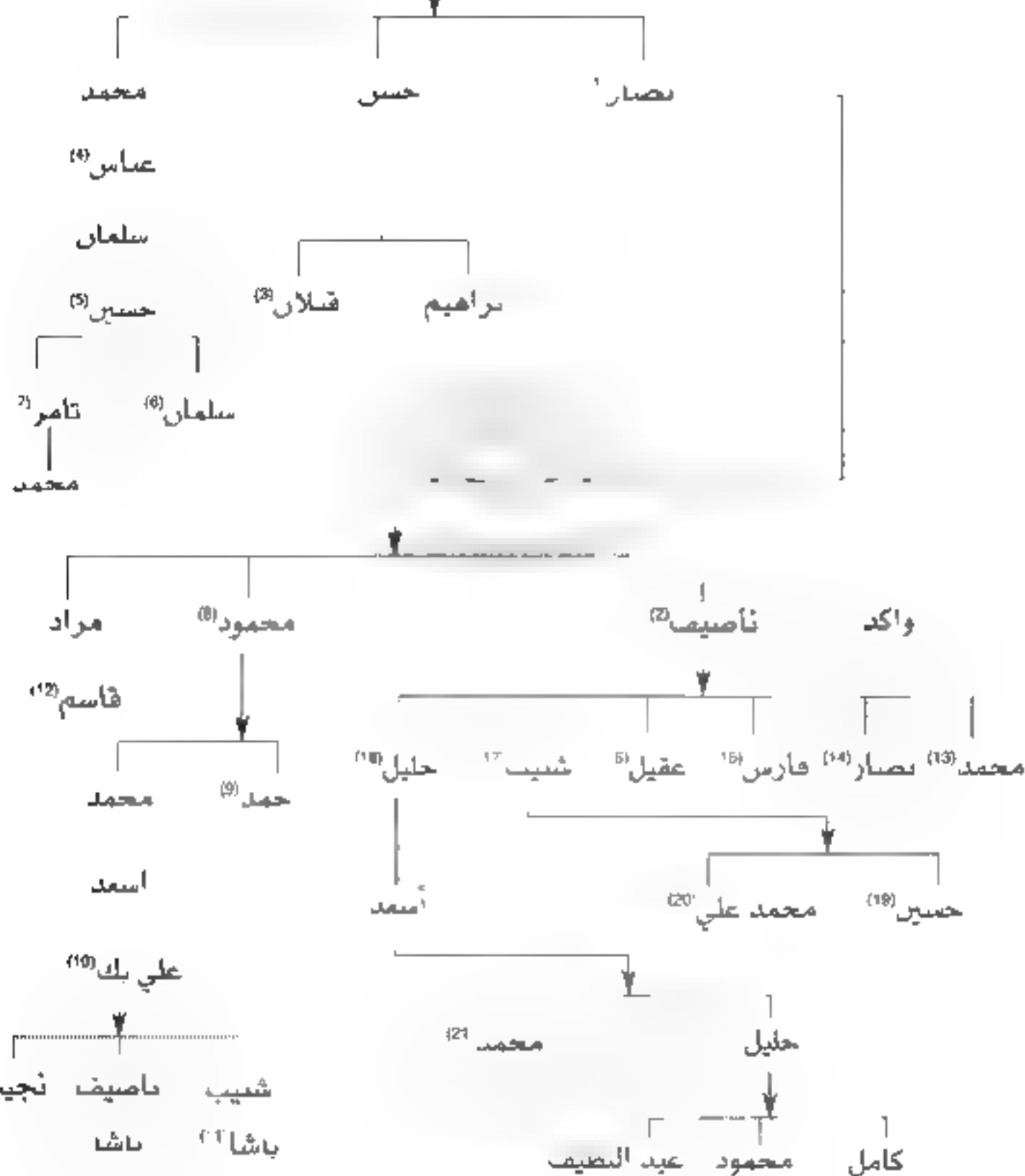
إن النقص في حباية الرسوم اثر اهتمام لئاب العاني ولا بد أن تقارير الولاية عن فراع الأرض من الملاحين داعي لصرّيب، وحلو البلاد من مشايخها المنتزمين ورفضهم القيام بهذه المهمة تبرير لمحرهم عن إرد المبالغ المطلوبة إلى الخرينة العامة، قد أثارت قلق الباب العالي فتلقى وى دمشق أمراً بالاهتمام في معالجة هذا الواقع ومراقبة الظلامات التي يوقعها الأمير في جبل عامل⁽²⁾

(1) ا م د الحكم 422 - 101 - 120

(2) ا م د حكم 131.415

سوا والدين عرفوا في العهد
الملوكي ببني بشارة، وفي العهد
العثماني ببني علي الصغير، وفي
مرحلة لاحقة ببني بشار ثم آل
الأسعد

علي الصغير
أحمد
مشرف
نصار



(1) لا يمكن الركون الى مصدر موثوقة لمعرفة أسماء سادتين بنصار من آل علي الصغير ←

ولكن هذه المظالم استمرت بوتير متصاعدة .

في 15 كانون الثاني 1731م أرسل القصر نوما اللبودي تقريراً عن الأحوال العامة في البلاد إلى رئيس رهبانيته في روما جاء فيه

تابع لهامش

فهو بشار بن أحمد بن بشار بن مشرف بن أحمد على قول الشيخ عبد المحسن الظاهر وهو بشار بن أحمد بن بشار بن مشرف على قول الشيخ لفتيه وربما قرب إلى الواقع . يكون هو بشار بن بشار بن مشرف المتوفي سنة 1114 هـ 1702 م بن أحمد بن عبي الصمير شيخ المتأوله المتوفي سنة 1090 هـ 1679 م وند أول المؤرخون جدون نسب من أول من ربيعة إلى علي الصمير وفيه خمسة عشر عقب ومن عبي الصمير إلى ناصيف وفيه ثلاثة عشر آخرى (حبل عدل علي د ويش ص 244) لم تثبت له موطن مصدره.

- (2) قرع ناصيف حبل عامر من سنة 1750م إلى 1781م
- (3) أكبر آل بشار سناً مكث بعد نكبه الحرار مدة في بعلبك والنهر مله قتل في انمراق سنة 1785م
- (4) باني صبور وحاكمها توفي سنة 1778م
- (5) صاحب مقاطعتي جبل هوبين ومرجعيون والشيخ لعاملي لوحيد لدى سالم حصريين توفي سنة 1848م
- (6) خلف واند في بيت حبل ناسم مدير جبل هوبين وتوفي في مهس سنة 1880م
- (7) راجع الوثيقة رقم D1 بتوقيع ثامر وشقيقه سلمان
- (8) هو حمد (ابو حمد) الفارس الشهير قتل في بحولا سنة 1779م
- (9) توفي سنة 1852. وهو المعروف بـ حمد النبل
- (10) آخر حكام جبل عامر في العهد لاهطاعي توفي سنة 1865م
- (11) صاحب القصر لمصدر توفي في صيدا سنة 1917م.
- (12) قتل مع عمه محمود في نفس المعركة
- (13) هو لأكبر سناً بين أولاد ناصيف
- (14) توفي في الطيبة سنة 1814م.
- (15) توفي مسموماً سنة 1824م وهو قائد ثور طليح وشيخ المشايخ
- (16) يقوون أيعص به هو الذي قاد الهجوم على بعلبك واحتل قلعتها أيام الجرار
- (17) توفي في شحور سنة 1805م
- (18) مات قبل عودة ي. س. ناصيف وصادقه مع سيمان باشا وبتقن ولده اسعد إلى الطيبة
- (19) حسين الشبيب قائد الثورة على الحصريين شق في دمشق سنة 1839م
- (20) شارك في الثورة مع أخيه ونجا من الأسر وعاش بعده 40 عاماً
- (21) شارك ابن عمه علي في الحكم وبنى ومار لاثنان معاً في دمشق باسم عالماً

وقبل تاريخه بعشرين يوماً هاجم الأمير حيدر بلاد المتأولة والقبلية بلاد الشقيف وأقليم الشومر باثني عشر ألف رجل ونهب البلاد وقتل فيها نحو أربعين قتيلاً وأخذ منهم المأ وحرق البلاد ونهب سحته وقطع أشجاره وهدم سرايات الحكام هدماً مريعاً⁽¹⁾.

قاد شيوخ من آل الصغير هذه المقاومة، فتمرسوا بالقتال وأساليبه وهنونه واكتسبوا ذهنية المحاربين وطبيعتهم، فصاروا أقرب إلى لقادة العسكريين، منهم إلى الشيوخ الحاكمين. ولا بدّ أنهم تأثروا بالتراث الشيعي في المقاومة والمواجهة، مما أكسب حروبهم طابعاً رسولياً وقديراً، تجاوز في أحيان كثيرة المبادئ والتقاليد العسكرية المتعارف عليها، في تقدير قوة الحصن ومورده في احتمالات الريح والحسرة

لذلك بدا أن الكثير من رؤسائهم ورجالهم وكألهم حاهرون للقتال أبدأ هي حصونهم أو حارحها، على صهوات حيادهم وسيوفهم مشهورة، وليست فترات السلام البادرة التي معموا بها، الأهرصة عرصية للترقب والاستعداد للحولة المصيلة

لا تكاد يعرف معركة هامة حاصها الصغيريون، لا وكان عدوهم بموقعهم عدداً وعدة بأصعاف مصاعمة⁽²⁾ فلم يكن حول مشرف عمر عدد قليل من الأعوان، حينما هاجمه بشير الأول الشهابي على رأس جيش من ثمانية آلاف مقاتل، فتصدى له في معركة الماسمية قبل أن يلجأ إلى داره في المررعة، حيث حوَّصر وأسر في النهاية، ليقتضي نحوه بعد فترة وحيرة بعداً عن بلاده بين يدي الباشا هي صيدا في ظروف غير واضحة المعالم، كما تقول المصادر اللبنانية

وكذلك الحال في معركة البطيّة التي حاصها الصغيريون مع باقي حلفائهم لصدّ حملة الأمير حيدر على بلادهم بإيعاز من والي صيدا فلما حُرقت صموههم وتمزّقت، سارع الباقون على قيد الحياة إلى المحصّن والقتال في داخل القرية حتى هلكوا جميعاً، ولم يستسلم أحد منهم وانحلى من بقي من آل علي الصغير عن بلاد بشاره إلى حيث يمكنهم الإستمرار في المقاومة بشكل مختلف

حتى في الممارك التي انتصروا فيها كن عددهم قليلاً أمام أعدائهم، ففي معركة

(1) مجموعة اللودي الأب بطرس فهد الكسليك ص 148

(2) كان هذا هو حال الشيعة في مناطقهم الثلاث لأن عدوهم وهو السلطة العثمانية غالباً يجمع بقدرات وامكانيات غير محدودة أمام منافقائهم المتواضعة

البحيرة كان جيش والي الشام عثمان باشا مؤلفاً من اثني عشر ألف رجل مروّدين بالمدايع، ولكن القائد الصغيري شهير بصيب، هاجمهم بحمصاية فارس، بعد أن قطع على نفسه عهداً أمام رحاله أن يسي مقاماً حديداً للبي يوشع إذا ظفر بالعدو، وكانت نتيجة المعركة مقتل معظم أفراد جيش الوالي، ولم ينج منهم إلا من ألقى نفسه في البحيرة، ولم يبق المهاجمون حديداً واحداً كذلك هي معركة كمرمان التي هزم فيها مئات من العامليين بقيادة شيخ الصغيري نفسه جيش الأمير يوسف شهاب وأوقعوا فيه آلاف القتلى.

في سنة (1144هـ - 1732م) جاء دور الأمير ملحم ابن حيدر ليتفق مع أسعد باشا العظيم والي صيدا على قتال الصغيري بعد أن وعده بولاية بلاد شاذلة فسار إليهم متدفعاً بأسباب تافهة⁽¹⁾ وقد مال إلى حاسه سلمان الصعبي والي الشقيف، فذهبهم بني علي الصعير والتقى بهم في أرض يارون وقد جمعوا رحانهم وأحرانهم فظمر بهم الأمير وأهلك منهم حلقاً، وقصص على معدتهم بصر، وحرّ بخوته إلى قرية جوياء، فسار حلمهم وتبعهم إلى المييطرة وقتل من غلمانهم جماعة، ونهب تلك الديار ثم رجع إلى لبنان ومعه بصر الصغيري موثقاً وبقي عنده معتقلاً مدة محضر إخوته بعد أيام وأرتموا لدى الأمير ملحم واستعانوا بفضله وحلمه حتى أطلقه⁽²⁾.

ولكن الشكاوى من بصر الحديدة كانت لا تزال لها حس العثماني الأول وكان ولاية دمشق وصيد، يدلون أمام الباب العالي بأنصر الذي أصبح تقديداً ود ثماً وهو استمرار الممارك التي تنعكس سلباً على الحياة⁽³⁾.

فرصت الظروف السياسية والادوية المحيطة بحبس عامل والتي جعلته يبدو كجزيرة متميزة، وسط محيط معاد وطامع، على ال علي الصعير أن يقودوا مقاومة تكاد تكون يائسة هي بعض الأحيان وقدرة هي أحيان أخرى فقاموا بهذه المهمة على امتداد أحيال متعاقبة، صامدين أو مازحين ومطاردين غالباً. وكان كبار شيوخهم ورؤسائهم يبدون كمرسان محاربين ينتهون في غالب الأحيان بما أسرى كمشرّف ونصار، وأما قتلى في

(1) لتاريخ السياسي عبّاس بوصالح ص 60، سبب الذي ادّعاء الأمير ملحم أنهم أظهروا لشمته والسرور بموت والده حيدر ويعول الشدياق بهم حصو - يول حيولهم بالبناء سروراً (أخبار الاعيان، ص 317)

(2) نوه الرمان، الشهابي، ص 913 حيث يكتمى المؤرخ بالنول بن الأمير ملحم قتل ثلاثة عشر رجلاً من قبيلتهم علي الصغير، ونهب الدور تلك اسلاد ثم رجع أولاد الشيخ بصر وفكوا أحاسم

(3) أ. م. د. 145:52

المعارك كعلي بن علي الصغير ومنصور بن علي الصغير¹ وباصيف النصار ومراد النصار، ومحمود النصار وقاسم مراد وحمزة الحمد وغيرهم، ولطالما أحسروا على الحلاء عن بلادهم وبيوتهم، والإلحاح أحياناً لسنين طوال، إلى البوادي والقمار، والقيام بعارات متواصلة على مراكز العدو الذي سيطر على بلادهم حتى يعودوا بمصل حيولهم وسيوفهم إلى ما كانوا عليه.

لقد حلوا عندما تسلط قهر الدين على جبل عامل، وأقاموا في مشمرة وبعليك كما حلوا عند تعيين محمود أبو هرموش حاكم على بلاد بشارة² وكان حلاؤهم الأقصى والأطول بعد احتياح الجرار لجبل عامل ومقتل الشيخ ناصيف وتشتت العاملين في أماكن محتلمه.

واقتضى الأمر من الشيخ فارس الناصيف، حرباً عواياً وعارات دامية، استمرت نحو عشرين عاماً، حتى استطاع العودة مع من بعد من عشيرته إلى ديارهم

من أجل ذلك، احتللت الأسطورة بالتاريخ في سيرة هذه العائلة وتناقل الناس في عهود مختلفة سيره البطل العامص في بادية نجد والعراق وحبال بابل واللقاء، والذي يعود شاهراً سيمه على حصان أصيل، يجمع أحراره ويمثل أعداءه ليعيد مجد أبيه بعد أن عصته العرب، الظالمون وقد تكررت هذه الرواية في أحيال مختلفة، مما يؤكد تعرض هذه الأسر مرّات عديدة إلى ظروف مأساوية قصت بإحتمائها بمص الوقت لتعود إلى موقعها السابق في كل مرّة

لم يلق العاملون السلاح بعد الهزيمة القاسية في يارون فحرت معركة أنصار المثيرة للحدل قبل انقضاء العام والتي قال عنها المؤرخون العاملون أنها لم تكن إلا حدة قام بها أولي الأمر تنفيذاً لمتوى الشيخ نوح شهيرة³ بينما يراها غيرهم من معاصر الشهابيين بعد أن سقط فيها ألف وجسمانية قتيل⁴ واستمرت الأحوال على اضطرابها حتى ظهور ناصيف النصار على مسرح الأحداث.

حمل تاريخ العاملين والشهابيين بمواجهات متلاحقة وحروب متواصلة من الصعب حصرها وتنميتها بوضوح لتصارب التواريخ والتفاصيل والأسماء التي أوردها كل من تفريقين، فجاءت متنايئة إلى حد التعارض ولتفقد وهيئاً تصيب جديداً إلى طبيعة

(1) قتله عثمان باشا والي صيد سنة 1716م وحكم بلاد بشارة قسم شهاب فأشقى بها مظلالم كثيرة، تاريخ الشهابي ص 16

(2) جبل عامل في قريين، السبيني لمرقا م. 5.

(3) تاريخ لشهابي الجزء الأول ص 29.

«العلاقة العدائية بين المنطقتين والصدام مستمر، يقول العاملون»

«في سنة 1163 هـ 1750 م نشبت في قريني الخربة⁽¹⁾ والقلية حرب بين عسكر الشيعة البالغ مجموعه ثمانماية رجل وعسكر للأميرين نجم وسيد أحمد. انتهت بانتصارهم وحملاتهم الصمديين على الأميرين الذين بلغت قتلهم أكثر من ألف⁽²⁾ وحول معركة حجاج التي حرب في نفس العام 1750 م يسترسل الشهابي والشدياق في الإشادة بانتصار ملحم على المتأولة وكيف أحرق الأمير الشهابي بلادهم وقطع أشجارهم وعن كفاءة قادة عسكره من إمورية وعن مئات القتلى المتأولة الذين سقطوا في ساحة المعركة⁽³⁾».

بينما يقول العاملون أن عدة معارك حصلت هذا العام بين المتأولة والدرور بقيادة الأمير ملحم

«في اليوم الثاني عشر من دي لقعدة كان الأمير ملحم معسكراً بجيشه انحرار على سع القصيبة مستعداً لمحاربة الشيعة هنمي إليه حدوث موقعة في أرض القليعة من أعمال مرجعيون بين الأميرين نجم وسيد أحمد الشهابيين وبين الشيعة، وانتصار الشيعة على عسكرهما وأشار عليه أصحاب الرأي من رجاله بأن يباعث بلاد بشارة صباحاً قبل اجتماع رأيهم على أمر يصلحهم، فتصميم الصلحة في بلادهم وبلغى العرب في قلوبهم وعسكرهم فتصرفوا، وبذلك يدل منهم مأربه بإخصاعهم، فاستحسن هذا الرأي ومشى بجيشه إلى العرب من لقصيبة وقطع به محاصة (عين أبي عبد الله) على نهر الليطاني، وكان مشايخ بلاد بشارة مر بطين على حصر القعقية فبلغهم خبر رحفه هلاقوه مسرعين في أرض دير قابون النهر بمر يسير نحو حمسين رجلاً فحاربوا عسكر الأمير ملحم بهذا العدد القليل وكان عدد جيشه رهاء عشرة آلاف، فاندلجت الواقعة عن قتل أربعة رجال منهم وخمسة من رجال الأمير منهم، وكان من جملة قتلى الشيعة الشيخ مراد بن نصار الصعيري ثم انصرف عسكرهم بحماية وبلغ الأمير قريني شحور ومارون فهدمهما وأحرقهما في 13 دي القعدة من هذه السنة⁽⁴⁾»

وكانت هذه المعارك آخر مواجعت حرت قبل أن يستأنف الغارات الشهابية على جبل عامل الأمير يوسف وأوامر ورعاية عثمانية في عهد ناصيف النصار

(1) برج الملوك حالياً قضاء مرجعيون

(2) الشيخ سليمان طاهر مجلة المرفان مجلد 24 ص 942

(3) تاريخ الشدياق ص 321 وتاريخ الشهابي ص 41

(4) الشيخ سليمان طاهر، مجلة المرفان مجلد 24 ص 799 تلعبت عن تاريخاً ص 450 الشيخ علي الرين، ويبدو الاختلاف والتناقض بين رويات المرفان وأصحا وبين هات روایت محايدة مزيل هذا الموضع الشديد

الفصل الرابع

ناصر

«هو شيخ المتأولة الكبير المشهور في كل سوريا بمسائلته وعظم قدره»
كان عميد عشائر جبل عامل بطلاً مغواراً وقائداً محمكاً، جمع إلى الشجاعة
والنخوة سحاء الكف وحسن التدبير، وغيرة القومية والمروءة المحصنة،⁽¹⁾
ناصر هو أشهر أمراء الشرق الأوسط وأعظم أمير عربي قام في القرن الثاني
عشر للهجرة⁽²⁾

«عهد ناصر النصار هو أزهى عهود جبل عامل، وأشهى عهوده هو الذي تلا
استشهاده، كان العامليون في عهده يتمتعون بالحرية والاستقلال، لا يخضعون
لظالم ولا يتحكم بهم غاشم فبرروا في ميادين القتال وفي معاهد العلم وفي
مجالس الشعراء»⁽³⁾

«هو رئيس عاملة على الإطلاق مدبر شؤونها وحامي صولتها ومصرج كرنيتها
ومعيد حريتها ومحطم نير الاستعباد. ومبهد الظلم والخور والاستبداد».

هو القائد المطاع، والحندي الباسل الماتح والمصلح المفكر والأمير الحكيم العليم

(1) D.D.C. T2, p 212.

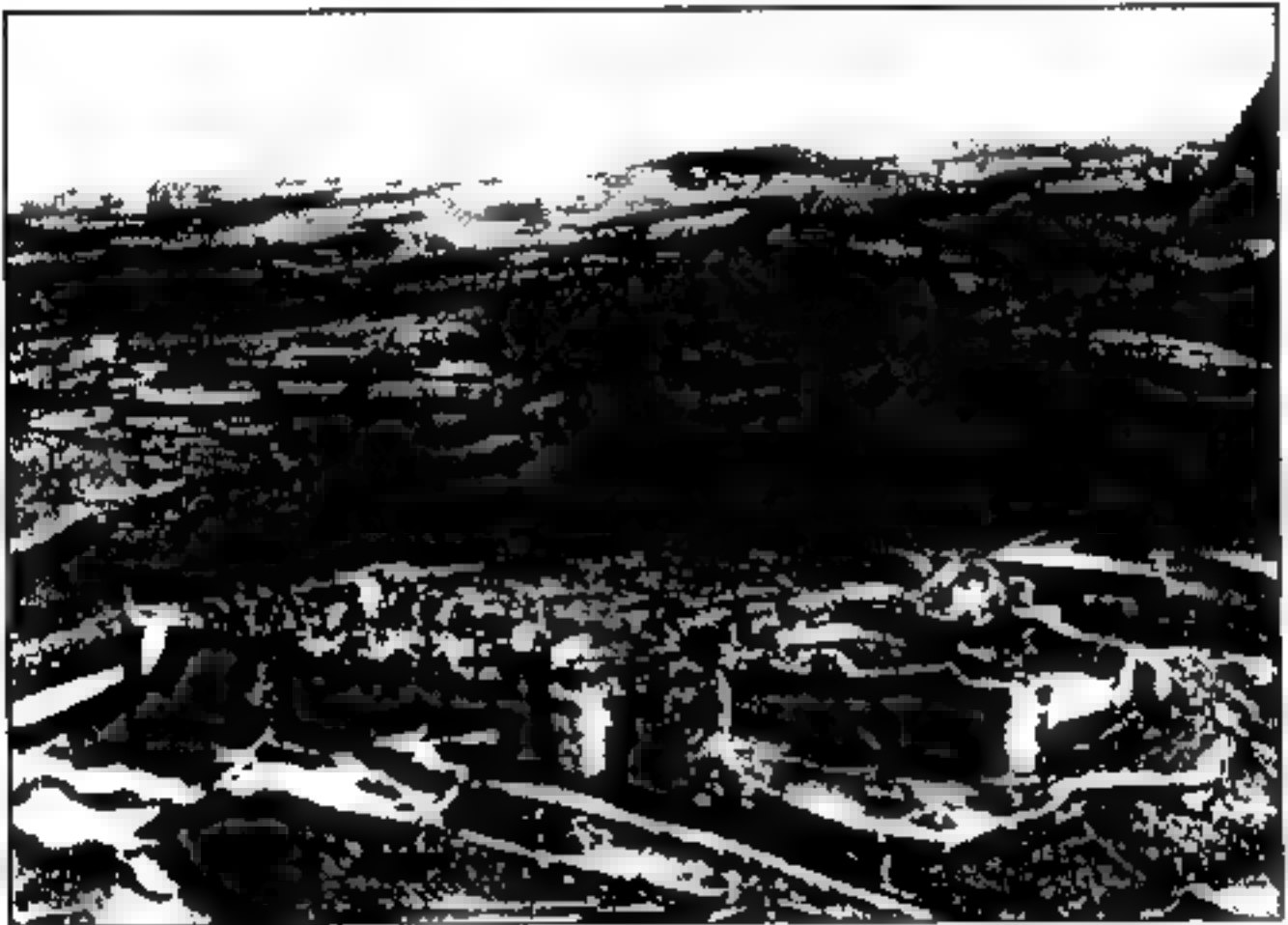
"Nassif grand chek des Muthualis et fameux parmi ces peuples par sa valeur"

من تقرير المارس دوتويس De Taulés في 2 أيار 1772م.

(2) تاريخ جبل عامل، ص 117

(3) المصدر السابق، ص 51.

(4) جبل عامل السيف والقلم، حسن الأمين، ص 145.



قلعة تهبين مقر ناصيف كما كانت مقر الشيخ الحاكم قبله واستمرت كذلك بعده حتى نهاية الحكم العائلي

«لم ينهرم في معركة قط ولم يشترك في حرب إلا وربحها وكانت انتصاراته غربية في بابها تكاد تتكررها العصور قتل من أعدائه ثلاثة آلاف قتل في موقعة كمر رمان وقتل من جيشه خمسة عشر رجلاً فقط، وقتل من أعدائه في وقعة البحرة ثمانية آلاف، وقتل من عسكره رجل واحد هو الشيخ حبر الحمادة وبعد نصره كان لا يستأصل ولا ينهي ولا يدمر تمكن من يوسف الشهابي وظاهر العمر وعما عنهما وهرم الـ المزيد بعد أن قتلوا أخاه محمود و بن أخيه قاسم المراد وطاردهم إلى الرمتا في أرض الأردن، ثم عما عنهم وخبغ على ولدي كبيرهم فاصل المهنا واستمر الشعراء يتعنون بمراثي أخيه وابن أخيه نحو مائة سنة»⁽¹⁾

أشاد به الفاضل الدين عرهور⁽²⁾ وأشار إلى علو مكانته وبلغ بموده وسالته في الحروب كما أحاطه المؤرخون بالعماديون بهالة أسطورية رفعة إلى مرتبة الكمال كإسار، وكحاكم، وكمارس وتعتت بمائده وصفاته فرث الشعراء من معاصريه ومن تلاهم، سبل من المدائح والمراثي التي تعدد مناقبه، وشيد بمحامده، وتبكي في استشهاده العصر الذهبي لحبل عامل، عصر العزة والمنعة والانتصارات كما هو عصر العلم والعدل والحرية وحسن التدبير

«هو عامود المتأولة وأفرس أهل عصره»⁽³⁾

«هو شيخ المتأولة وكبيرهم نطل صنديد وفارس غر»⁽⁴⁾

ابتدأ التاريخ يحدثنا عن ناصر منذ سنة (1163 هـ - 1749 م) في كل شهر بل في كل يوم إلى سنة استشهاده سنة 1780 م،⁽⁵⁾

كان ناصر يتمتع في الواقع بمر يا فريدة قلما حتمت في غيره من حكام بلاد الشام في عصره ليس كحاكم أو شيخ أو قائد عسكري انتصر في عشرات المعارك وحسب، بل وربما قبل ذلك كإسار وفارس، حتمت فيه الصفات الإنسانية المحمودة، إلى جانب شمائل العروسية النبيلة، جعلت منه شخصية تاريخية مميزة، تصلح سيرته

(1) جيل عام من التاريخ العميق ص 398 - 402

(2) D D C. T2 p. 150.

(3) الدر المرصوف في تاريخ الشوف انفس حديدا بغير، طبعة دار التراث ص 73

(4) المصدر السابق، طبعة جروس برن، ص 35.

(5) المقية م. م. ص 397.

الواقعية لتكون أقرب إلى سير التراث الشعبي الذي يحسد ما يطلبه الناس في الاسان، والحاكم والفارس من صفات مننوده يمتدونها عادة، ولا سيما هي الحقبة العثمانية التي عانى الناس خلالها من حث الحكّم وبهمهم وظلمهم طيلة قرون عديدة.

لا تقيدنا المصادر المعتمدة، كثيراً فيما يتعمق بالتاريخ الدقيق لولادة ناصيف وطروف شأته الأولى⁽¹⁾ قبل أن نصح الرعيّم الأكر لحيل عامل، وغالب المصادر العاميّة التي عرضت للموضوع، تكتفي ببعض لافتراصات والاستنباطات والمقارنات، التي يمكن أن تلقي بعض الضوء على ذلك، فتعيّن تاريخ ولادته إعتماً على سنّه عند وفاته، التي تفاوتت فيه الأقوال بين الخامسة والستين في بعضها، حتى يصل إلى التسعين هي أقوال أخرى، ونستعين بالحدس للمقاربة من ظروف شأنه وطبيعته ومحيطها⁽²⁾

ولد ناصيف على الأرحح سنة 1713م وبدأ يشارك إخوته وأولاد عمومته هي تولي لأمر، بعد وفاة أبيه سنة 1731م أصبح الشيخ الأول، والمرجع العام في وقت سابق وقريب لسنة 1750م التي بدأ فيها مسيرته الحربيّة والسياسيّة والمهادنة كشخصيّة تاريخيّة معيّنة. تواكب المراحل التاريخيّة المخصّصة مسيرته التي سيطول أكثر من ثلاثين عاماً بعد هذا التاريخ

كان والده نصار الشيخ الأكر، وعمه حسن صاحب قلعة هونين وحاكمها، وعمّه الآخر محمد معيم هي قلعة مارون، فلما ظهر ناصيف كان قنلان ابن حسن، وعباس ابن محمد إلى جانبهم من أهمّ شيوخ الأسرة الوثنيّة

كانت هناك محاطر عديدة تهدّد حيل عامل، وبغلق استقراره وازدهاره، وبزوع أهله المتأصل إلى الاستقلال في إدارة شؤونهم، والخصوع لشيوخهم وخدمهم، لا لآي حاكم آخر، سواء أكان عثمانياً أم من الطامعين لدائمين من حيراهم، فكان على ناصيف أن يهتمّ بمعالجة هذه المشاكل التاريخيّة المرمية التي كلّمت البلاد الكثير من أمنها ودماء أنائها، والتي يمكن إيجارها بالأمور الأساسيّة التالية

1 - العداء الثابت والمستمر للعثمانيين وخصوصاً ولاية صيدا وأنشام وما سببه ذلك من صدامات دمويّة، تكاد تكون متواصلة فتدفع العاملين إلى التمرد، مما يؤدي إلى حملات تأديبية يشنها والي صيدا مباشرة، أو بواسطة حكام الشوف ووادي التيم.

(1) إن مولد الشيخ ناصيف كان عامصاً وشأته كثر عمومصاً (تاريخ تسعين ص 114)

(2) يقول الشيخ عبد المحسن الظاهر في مخطوطة عن الأسرة الوثنيّة إن ناصيف ولد في مجدل سنة 1715م.

تتصف بالقسوة والبطش والدموية. يسج عنها عادة مئات الصحايا والويلات، وإحراق الأرزاق والقرى، وتحريب العمران والحرث ونسل وكثيراً ما كانت تتسبب في وقوع العديد من شيوخ بني علي الصغير أنفسهم بين قتيل وأسير أو مطارد.

2 - أطماع حكام الشوف المتعاقبين بإحصاع جبل عامل لسيطرتهم، خصوصاً وأنه كان يتمتع سبباً بشيء من الإردهار الإقتصادي، إضافة لما فيه من حصون وقلاع وموارد بشرية، تثير شهية المعنبيين والشهابيين بعدهم خصوصاً وأن لوضع الاجتماعي والمذهبي للمقاطعات التي يترموها عدة من والي صيدا لا تسمح لهم، بممارسة سلطة مطلقة على سكانها فقد كانت دير القمر مثلاً، وهي مركز حكومة الشهابيين تقع في ملك وحكم الكنديين وكذلك باقي المناطق الأخرى. ولم يكن التوسع خارج جبل عامل أو حتى التفكير به ممكناً، لأن حدود جبل الدرور الشمالية هي حدود ولاية طرابلس، كما أن حدوده الشرقية هي حدود ولاية دمشق فكل محاولة توسع نحو أي منها يصطدم سلطة أحد لوليين، بينما يشترك جبل الدرور وجبل عامل في الحصوع كلاهما لولاية واحدة هي ولاية صيدا، وبالتالي لوال واحد معاد هي غالب الأحيان للعامليين، ويرتبط بأي فرصة لاحتصاعهم وتأديبهم. مما أوجد بين سكان المقاطعتين أحقاداً مستمرة وثار ت مماثلة. طسعت علاقتهما لقرون عديدة، وكان والد ناصر نفسه قد وقع أسيراً في معركة أنصار التي سببت أعمالاً ثأرية دموية، لم تقتصر على معركة مرجعيون التي أعقب الهجوم العاملي على وادي التيم وما رافقها من فتك وتحريب.

3 - لم تكن العواصف تهدت على جبل عامل من لشمال وحده، بل كانت أطرافه الجنوبية تعاني من مشاكل مهمة أيضاً، وإن كانت من نوع آخر. فهو وإن حلت أرضه من وجود قبائل بدوية ذات بأس وشأن، فإن أطرافه الجنوبية هي الحولة ومرج بن عامر والجولان وحتى جبال نابلس والبيضاء وبوحي صمد، ترحل بالقبائل التي اعتادت على القيام بعروض منظمة ولاسيما في مواسم الحصاد والرعي إلى داخل البلاد تعرو وتعرّب وتعود بالعنات إلى مصاربها بانتظار موسم آخر تعود فيه غزوها.

ومن جهة أخرى ظهرت في مناطق بعضها، قوة ناشئة بدأت تشكل نوعاً من الكيان المستقل المتماسك وتلوح مطامعه على الحدود العاملة بالسيطرة على بعض القرى الحدودية مما يقتضي معالجته ووضع حد له، سيما وأن هذا الخطر الناشئ

قابل للتمدد والتوسع ولا بد من النصدي له حرباً أو سلباً، خصوصاً وأن شيوخاً بدوياً قوياً وطموحاً هو الشيخ طاهر العمر قد سقطت مع أولاده غالب العشائر المهمة في البلاد، وأصبح الجميع بحسبون لبأسه وسطوته كل حساب.

4 - يتألف جبل عامل تاريخياً من ثماني مقاطعات هي تنين، وهوبين وساحل معركة، وساحل قانا، ومرجعيون⁽¹⁾، ولشقيف وإقليم الشومر، وحجاج. وكان شيوخ من بني علي الصغير يحكمون المقاطعات الخمس الأولى بينما مقاطعة الشقيف هي يد الصعبيين وحجاج والشومر بيد المذكرة، ورغم أن حاكم تنين هو الحاكم العام والرئيس العمومي الذي تراجع سائر شيوخ ورغم أن تقاليد عشائرية وأعرافاً وأصولاً تحكم العلاقات بين الجميع، وتشكل ضوابط وأخوة الاحترام والاتساع بقوتها المعنوية والادبية وسلطة الرئيس العمومي، إلا أن بعض النزاعات لا بد أن تنشأ أحياناً بين أفراد الأسرة الواحدة أو لأسر المختلفة، مما يعكس سلباً على وحدة البلاد وقوتها وتلاحمها، وهو شيء خطير على بلاد تكاد أن تكون في حالة حرب واستهداف دائم، لذلك كان على ناصيف أن يهتم بذلك وشتت الأسر التي تقوم عليها وحدة البلاد، لنواجه أعداءها كجبهة مترابطة تحت قيادة واحدة، كما أن حصون البلاد ودلحوقها للحراب ولهجر بعض الحروب المواقفية، أو بعدد أصحابها واحلاف أحوالهم بين القدرة والمحر، وهذا يشكل ثغرة هامة في إمكانيات البلاد الدفاعية ويلحق بالنسبة العسكرية العامة الوهن والضعف. وأخيراً كان على البلاد أن يكون لها مرفأ خاص لتنشيط التجارة والبادل، خصوصاً وأن صيدا وهي أقرب مرفأ إلى عامل تقع تحت سلطة الوالي الذي قد يكون عادياً هي أكثر الأحوال

كان ناصيف رجل حكمة وسياسة كم هو رجل حرب وقتال، وكان يوصل اللجوء إلى الأساليب الأولى لمعالجة الأمور ولا يخطأها إلى الحرب، إلا إذا عز عليه السبيل لتلافيها. إن أول الأمور التي وجّه ناصيف اهتمامه إليها هو ما يُعرف بالحبشة الداخلية، أي القضاء على أسباب النزاع بين شيوخ أسرته فيما بينهم، أو مع الشيوخ الآخرين من آل صعب وآل منكر، سبب وأن بوادر نزاع كانت تظهر أحياناً بينه وبين ابن عمه قنلان الحسن، أكبر أبناء العشائر سناً وأعظمهم قدراً وعلاقات قبل ظهور

(1) في فترة ما تأرجح إقليم مرجعيون بين ودي خيم وجبل الدروز حتى سقر مع جبل عامل مع عودة الشيخ فاضل الناصيف والمعاهدة التي أبرمها مع ودي عكا

ناصر. فسعى إلى إحلال التماهم والانفاق بين جميع المشايخ، بإعطاء كل منهم ما يرضي طموحاته ويعتبره من حقوقه الموروثة. فسعى إلى تكريس ذلك باجتماع عام حصره ظاهر العمر كما حرت عادة العشائر بدعوة شيخ موثوق صاحب قدر ومنعة ورأي يشاركهم في مداولاتهم. ويقوم بسور الحكم والشاهد والمساعد على إحلال المودة والصفاء بين الجميع فتمّ لإجتماع في صور سنة (1164هـ - 1750م). تقاسم فيه المجتمعون المقاطعات و لقلاع و تحصون على الشكل التالي⁽¹⁾

قلعة تبين (الرئاسة العامة)	ناصر النصار
قلعة هوبين	قبلان الحسن النصار
قلعة مارون (دير كيما) وصور	عباس المحمد النصار
بنت حبل	سلمان الحسن النصار
قلعة دويبة	طاهر ومزاد النصار ثم ولده قاسم المراد
مررعه ربيع	آل بريح لصعيريين
قلعة الشقيب	علي وجهير لمارس الصعيريين
قلعة ميس	علي العباس
حناع	آل جواد والمناكرة
قلعة قنا وشمع	آل نوكد (بوصليي) الصعيريين

كما اتفق المجتمعون على تقسيم باقي القلاع والمراكز على سائر المشايخ وهروب الأسرة اردهرت مدينة صور في عهد ناصر بعد أن كدت قرية صغيرة وكان آخر من عمرها ابن بشاره سنة 1421م كما حاول حجر الدين تحصينها وبني شقيقه يوسف محل إقامة له فيها. فلما دخلت في حكم عباس المحمد ابن عم ناصر وأحد أركان حكمه أعاد عمارتها وأسكن فيها عدلات مسيحية ومسلمة، وأقام فيها داراً للحكومة ومسجداً وكنيسة وأحيا مباءها وعرض على القنصل الفرنسي تسهيلات تجارية، لتشجيع التجار الأوروبيين على استعماله فأصبحت سوفاً تجارياً رائجاً، وقد أثار

(1) تاريخ تبين، م. م. ص 115

هذا المرهاً الشيعي في ذلك الوقت اهتمام التجار الفرنسيين فسعوا إلى التقرب من الشيخ عباس وكسب وده كما أدرك القناصل أهميته التجارية وموقعه المريد على الطرق الممتدة من صيدا إلى عكا

أرسل القنصل الفرنسي في صيد كيرامبو في أول تشرين الأول 1763م إلى حكومته في باريس تقريراً جاء فيه

أتشرف بأن أرسل لسعادتكم ريثماً المرر الذي تحدثه الحالية (الفرنسية) ويتعلق بهدية قدمت باسمها إلى الشيخ عباس المحمد الحاكم الجديد⁽¹⁾ وملتزم هذه المناطق ومرهاً صور وأهمية هذا المرهاً لصفنا وضرورة إقامة علاقة صداقة مع هذا الشيخ الذي يتولى الحكم فيه، بالإضافة إلى ضرورة حفظ سلامتنا على الطرق الممتدة من صيدا إلى عكا، وصور قائمة بينهما، نجعل هذه الهدية أمراً ضرورياً.

ولمسون سعادتكم حسن تصرف هذا الشيخ تجاهنا في الرسالتين اللتين وجههما إلى وأعتقد أنه كان صادقاً في كلامه.

كان عباس يقيم فيها شتاءً ويستعملها باصيف مكاناً لاجتماعاته السياسية واستقبال صوفه الهاميين⁽²⁾ وصار لحبل عامس ميناؤه "لحامس بن صيد، مركز الولاية وعكا حاصره ظاهر العمر وأصبحت صور من حواضر حبل عامل التجارة والسياسة، وأمتها السمن

(1) الشيخ عباس هو حاكم صور ومقاطعات قاب وشحور وشمب بنى عباس في المدينة داراً للحكومة لا يزال عامرة حتى اليوم ومسجداً وكنيسة وحنماً رسوقاً كبيراً فيه عشرات المحلات والأقبية واستودعات على ممره من ميناء وأنشأ بيوتاً لصيادي الاسماك والتجارة عرب الميناء وهي الآن حارة البصاري كما أنشأ بنية للسكن في شبه جزيرة الحنوصي ورصف الارقة والشوارع واقبية ميناء فاكمن بقاء المدينة بأحيائها الاربعة لصناعة حتى اليوم وهي البصاري والمبارة والحمرة، والمصاروة (المصريين)، واستغرق البناء عشرة أعوام واستقدم سكاناً من جبل وعكا وصيد وصرى لعملية وبنى لنفسه داراً على رابية قريبة في الآن بلدة العباسية

لقب بالمعشوق لوسامته وحب الناس له ودهن في مسجد صغير حمل اسمه «المعشوق» وقيل أن هذا المسجد حمل الإسم قيل ذلك ولا يزال قائماً حتى اليوم وعليه بلاطة نقش عليها

هذا مقام وصريح محمد عباس التوائي حاكم صور وقسم كبير من إقليم الضومر وعليها تاريخ وفاته شمساً

أبي حمد العباس بن محمد

مجايد من راء اللحد فاح عبيرها

فلما سري للحد فلت مؤرجاً

1187 هجرية

فلحور مرنا روحه أو مسيرهم

عن الامين، مجلة حريات عدد 27 2001 وحفظه حبل عامل محسن الامين ص 266

(2) تاريخ لبنان لحدث مبر وعادل اسماعيل ص 120-121 وهو ترجمه لوثيقة 42 هي D.D.C. T2 p133

(3) مثل مشايخ لدور وأمرأ الحرافشة وولاء الدولة

(4) تاريخ جبل عامل، صفا ص 92

للمتاجرة وإهراق شحنتها واستياع منتوحات البلاد من قطن وتبع وريوت وحبوب،⁽¹⁾ فالتزم ناصيف الميناء من والي صيدا، حتى قتل عنه «لاكروا» أنه كان يتعاطى التجارة والحرب معاً. وأنه كان مخيفاً ككاهن كما كان محيماً كعسكري، وأقام في قلعة تبين بعد أن أعاد بناءها ورممها مستعملاً حاراتها القديمة نفسها، فربح واشتهرت كمركز مهم للسياسة والحكم والأنب هي آن معاً.

كان المتأولة يومئذ في سماء عزهم، فقد بيع جيشهم العشرة آلاف فارس من الأنطال المذبزين، ولهم حكم بلاد بشاره وصور، وارتفعت عنهم سلطة ولاية لبنان، فتمادوا في سلطتهم حتى كانوا يعيرون على أطراف ولاية الشام ويمسكون المال، السلطاني عن والي صيدا⁽²⁾.

أحكم الشيخ ناصيف سيطرته على أسرته وعشيرته حتى صغفت في وجهه مقاومة سائر الأسر، ويبدو أنه أرصى آل صعب بالمصاهرة وأخصع آل منكر بالسياسة⁽³⁾.

كان آخر نزاع جرى في أسرته هو الصراع الذي جرى على صور بين قبلاں وعباس فقد رفض قبلاں قبولها أولاً، لأنها كانت بلدة بحرية لا يوجد فيها من أسباب العمران غير ملاحه هي سواحبها فكانت من نصيب الشيخ عباس الذي عظمها وأنشأ فيها مرافق كثيرة، حتى غدت بعد أربع سنوات بلدة عامرة زادت تجارتها وجمعه، فعاد قبلاں إلى المطالبة بصمتها إلى حكمه فلم يُحب لطلبه فهاجمها في عيد عباس ونهب بعض دورها ومناحرها، وأسر حمزة المحمد شقيق عباس وساقه إلى هوبين وقد أورد محمد جابر آل صعبا في تاريخه، تفاصيل هذا الخلاف وتطورات، بما يدل على الكثير من تقاليد جبل عامل وشماثل أهله وشيوخه في هذه المنة⁽⁴⁾.

ولم يظهر في جبل عامل أي صراع داخلي بعد هذا التاريخ حتى إنقضاء عهد ناصيف، انتهت ناصيف هي السنوات التالية بثبت سلطته على عموم جبل عامل بعد أن أمّن انتصاف أسرته حوله وحصونهم لسلطته، فقام بعده عارات باحجة، قصد من ورائها القصاء على عروات البدو الصاريين في فلسطين، على أطراف بلاد بشاره، فأغار مع شقيقه واكد على (عرب القنيطرة) عام (1166هـ - 1752م)، ومع ابن عمه عباس على أهل «شريعة منثور» (بين طبريا وبناس) وقتل منهم عشرين رجلاً، كما أغار الشيخ قبلاں

(1) المصدر السابق، ص 84.

(2) السيف والقلم، م. م.، ص 186.

(3) محمد جابر آل صعبا، م. م.، ص 93 - 95.

(4) تاريخ لركيمي، ص 38 - 36.

والشيخ عباس على عرب «مرج رميش» هي نفس العام «ونهبوهم نهبة عظيمة»¹⁴. وأصبحت قوة ناصيف مرهوبة، وسلطته مرعية في كل حل عامل وفي حواره. يشير الركيتي إلى ركوب الشيخ محمود أبو حمد بنصار إلى إقليم الشومر واعتقال الحاج علي سليمان الصعبي، لمخالفة ارتكها بحق أحد الناس، كما استجد به الشيخ طاهر العمر لإعائته على تأديب أولاده وإعادتهم إلى طاعته ولما اطمأن إلى صلابة وضعه الداخلي، والتفاف الجميع حوله وتحت قيادته، كان عيه أن يتعامل مع القوى الخارجية الكبيرة التي تحيط بحبل عامل وتتحكم به.

كانت السلطة العثمانية هي الأولى التي وجه ناصيف اهتمامه نحوها فهي التي قاسى منها العاملون الولايات على امتداد أحيال طويلة، وهي صاحبة السطوة الأهم التي يسعون إلى الحد من وطأتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ومهما كلمهم ذلك، هي الصرة التي أعقبت تولي ناصيف رعاية حل عامل، هام ولي صيدا بحمس حملات عسكرية على الأقل، فقتل وحرب ونهب ما قدر عليه، هي محتلم عواحيه وقد عذد «الركيتي» وهو المؤرخ المعاصر له عدة حملات قام بها الباشا أولها هي حمدي الأول 1167 هـ - 1753 م على قرية أنصار قسبتها وقتل بعض أعيانها مما دفع بالعاملين في اليوم التالي إلى مهاجمته هي «معركة أنصار» وهو واد بين أنصار وقلعه ميس و لزر رنة فأرسل ناصيف أحام وابن عمه، إلى الشام لعانة من العسبر معرفتها تعاماً، إنما لا بد أنها تهدف إلى الشكوى من والي صيدا، وربما السعي إلى وضع حد لتعدياته، ولكن من بواضع أن هذه البعثة لم تحقق عرصها بدليل معاودة الوالي سعد الدين العظم هجومه على بلاد شاره مرة أخرى فقتل ونهب ثابية مما اضطر ناصيف إلى السمر في اليوم ذاته إلى الشام لعله يحقق ما عجز مبعوثاه عن تحقيقه، ولكن يظهر أنه لم يوفق في رحلته أيضاً بدليل أن معركة عظيمة وقعت بعد أقل من شهرين بين ناصيف وقلان والوالي نفسه، هي رأس العين وقتل من الفريقين نحو ثمانين رجلاً وتكررت المعارك على التوترة نفسها، مما يدل على أن جهوده لوضع حد إسلامي لهذه الحملات لم تأتي بنتيجة تذكر، وأن اتصالاته بوالي الشام شخصياً أو بواسطة موفدين، لم تؤدي إلى تحسن الحال، حتى وصل إلى قناعه ثابته، بمقم محاولة الحد من اعتداءات الولاة العثمانيين باتباع سبل المفاوضة والافتداع، وبحتمية المواجهة لذلك يراه بعد هذا التاريخ يسعى بنشاط واندهاع إلى تحسين العلاقات مع حيرابه الدور والريادة، ومحاولة خلق حبهة متحالمة بين الأطراف الثلاثة للوقوف في وجه العدو المقبوض من الجميع.

كان رعماء عاملة قبل عهد ناصيف متباينين متنافسين لا تجمعهم عقيدة ولا يلتقون على موقف، رعم وحدة المذهب والدينار، وكانت علاقتهم مع الدور تتسم بطابع الخلاف

والتنايد غالب الأحيان، سواء في الشوف أو في وادي لقيم، وطالما استغل العثمانيون هذا النمور واستعمله الولاة لصالحهم وعاباتهم

بعد توحيد كلمة العاملين بدأت مساعي ناصر الشبيطة والمتواصلة لتوحيد كلمة الفلسطينيين والدروز وشيعة الشمال، في جبهة واحدة موحدة ومتحالفة، بدل تنديد جهودهم في بركات تصح المحال لنوالي بعثاني لتناد من خلالها، وضرب أحدهم بالآخر لإصعاف الجميع، حتى يسهل إحصاعهم واستئثارهم وتنديد قدراتهم وطاقتهم، فتدب نفسه لهذه المهمة منطقياً جوده منتقلاً من قطر إلى قطر، ومن بلد لآخر، ليجمع رعماء هذه الأقطار وكأنّ هو وحده المعني بهذه المهمة دون غيره من هؤلاء الرعماء

فقام بعدة رحلات ودعا إلى سلسلة من الاجتماعات في سبيل هذه الغاية. ففي شهر رجب عام 1179هـ - 1775م صارت الجمعية بين الشيخ ناصر والشيخ عباس وعلي المارس والأمير اسماعيل والشيخ علي جنبلاط في حاصبيا⁽¹⁾

من الواضح أن المقصود بالجمعية هو اجتماع عام يتم على عقده مسبقاً لبحث أمور معينة يتحده المجتمعون لبحثها سوياً والإتفاق على موقف موحد منها والمجتمعون مع ناصر هم عباس المحمد حاكم صور، وعلي المارس الصمعي صاحب قلعة الشقيف، والأمير اسماعيل الشهاب حاكم حاصبيا والشيخ علي جنبلاط كبير الدروز وممثل الأمير يوسف الشهاب

قال الشيخ عبد المحسن الظاهر، إن المجتمعين قرّروا الإتفاق والمعاهدة على عدم الاعتداء والعذر بعضهم (العاملين والدروز)

وبعد عدّة أسابيع قصد ناصر وابن عمه عباس وعثمان الطاهر، بلاد الدروز لاستكمال المناقشات والمشاورات التي حثت في الاجتماع الأول، وانضم إليهم أحد أولاد ظاهر كما حصر الاجتماعات التي عقدت في لطيفة، الأمير محمد الحرهوش وحمل معه رسائل من ناصر إلى بعلبك وتمكّن حليفه الأمير اسماعيل من حكم حاصبيا وكر اسمه وحافظ منه أهل البلاد واتفق مع المشايخ بن متوال⁽²⁾

بدل ناصر جهوداً حثيثة ومتواصلة لإتمام مشروعه التحالفي، بين الأطراف الأربعة، رعم العوائق والعقبات، لأنه كان ميقناً كما يبدو من أن تحالف متاوله حبل عامل مع أمير

(1) المصدر السابق، ص 52 - 51.

(2) تاريخ الشهابي القسم الأول ص 67.

الدروز هي دير القمر، ومشايخهم الكبار ودرور حاصبيا ووادي التيم، والشيخ الزيداني وهوته المتصاعدة، بالإضافة إلى حرافشه بعسك وشيعتهم سيغبر الكثير من موازين القوى هي كل بلاد الشام، ويصع جداً نهائياً للنمود المطلق للشاوات الأتراك وتدخلهم هي كل الأمور التي قد تعود عليهم باللمعة شخصية، على حساب حرية وكرامة ولقمة الأهالي المحليين ورعماثهم فتتقل مرّات عديدة بين عكا وصور وحبل الدروز، ولكن علاقته بظاهر العمر هي هذه الفترة تعرّضت لشرح خطير حيث نشب النزاع المسلح على أثره بين الرحلين وحصلت بينهما عدة مواقع وعارات حدودية متبادلة، خرج الطرفان بعدها أكثر اقتناعاً بعدم جدوى هذا الحلاف العارض، وبضرورة التحالف لتحقيق أهداف مشتركة كان كل منهما يعم لها مستقلاً عن الآخر، رغم ما يجمعهما من رؤية موحدة للأوضاع ويفتربهما من طرغ متجانسة ومتشابهة

رغم أن هذه الانصالات والريارات، أثمرت هي إيجاد علاقة ود وتأيد بين ناصيف وكبار رعماء الدروز هي تلك الفترة، ولكن شخصية الأمير يوسف الشهاب النصيفة والمتزدة، وحرصه الشديد على الاحتفاظ برصى الولاة العثمانيين هي صدا، ثم هي عكا بعد ذلك، وتسميده لرعياتهم ووأمرهم، حالت دون إتمام التحالف الشيمي الدرري، وحملت يوسف ينضم إلى المعسكر المقابل، الذي يسير وراء الباشا ويقابل أمامه

رغم هذه الصعوبات أثمرت جهود ناصيف التوفيقية وحولاته المتواصلة، عن توثيق روابط الود والإتفاق على التآزر وتناصر في سبيل أهداف عامة بين مجموعة من أعيان البلاد كان من الواضح أن مقاومة العثمانيين وعدم دفع الضرائب والإضرار هي تدبير شؤونهم بعمل عن تدخلات الولاة المرعجة تأتي هي رأس أولوياتها، وتنضم هذه الجماعة طاهر العمر هي قسطين وناصيف النصار هي حبل عامل واسماعيل الشهابي هي وادي التيم وعلي حنبلاط أحد أهم مشايخ الدروز، والأمير منصور الشهابي في دير القمر

ما لبث هذا التحالف أن أعاد حط الأورق السياسية على صعيد بلاد الشام عموماً فتشاً فيها حزبان كبيران، يتنازعان النمود والعلطة في البلاد التي يدعوها الأتراك عربستان، فكان هناك حرب الأتراك وعلى رأسه عثمان باشا وزير الشام وأقرانه باشاوات الولايات الأخرى الأقل شأناً. وبالمقابل هناك الحزب الآخر وعماده الشيخ ظاهر ومشايخ بلاد عكا وصفد وعشائر المتولة هي حبل عامل وشيوخ القبائل الرّحل

الصارين في هذه البلاد أما مشايخ جبل ناس وعره وياها والرملة والخليل فانقسموا بين الحربين^(١).

وكذلك الدروز هشايح الأمير منصور الحرب الآخر بينما اتخذ يوسف وبتاثير من كواخيه - كما هي عادته - جانب الدولة

وقيص لحزب المشايخ مناصر اقليمي دو شأن هو علي بك الكبير، ومساند دولي فعال هو الأسطول الروسي، الذي يجوب الشواطئ السورية مند حين. والذي سيكون عاملاً فعالاً في بعض المعارك التي بدأت تلوح تباشيرها ويجري الاستعداد لها من الجانبين



ناصر صيف وظاهر

أراد القدر أن يحكم ظاهر العمر وناصر البصار، بلدين مجاورين متداخلين هي عصر واحد، وتجمع بين الرحلين أوجه شبه عديدة. كان كل منهما فارساً مفوّراً ومحارباً شجاعاً وقائداً محنكاً، جمع إلى الشجاعة والعودة والتسامح، حكمة القيادة ونبيل الحلق والفروسية، وتشارك في العداء للترك والبروع إلى التخلص من سطوتهم. وحمل مشاريع سياسية استقلالية تفوق قدرتيهما وطاقة ومورد بلديهما على القيام بها.

كانت العلاقات عادية بين الشيعيين في أول أمرها، وكانا يلتزمان في علاقتهما بما تقضي به الاعراف بين شيوخ العشائر، فقد حصر ظاهر كشاهد وحكم على الاتفاق الذي تمّ بموجبه توزيع القلاع والمقاطعات بين آل بشار في صور سنة 1164هـ 1751م وكان على صداقة وطيدة مع قبائل الحرس صاحب قلعة هويس، وابن عم ناصر صيف، كما كان الإثنان يحاولان أحياناً تسوية خلافات ظاهر الكثيرة مع بعض أولاده الثمانية، فياماً بما تمليه أواصر الصداقة والود بين الأسرتين.

وضع ظاهر يده على لواء صمد رعماً عن الباب العالي غير أنه لعضبه وبهديداته⁽¹⁾ واهتم بصناعه القطر وبرويجها فكان يحاجه إلى مراء تحت سيطرته لإبقاء التجارة في مناطق حكمه، هانتقل إلى عكا وبقي فيها سرايا عظمية وسوراً وأبراجاً⁽²⁾ فازدهرت وبنت وتقاطر إليها الناس من أنحاء سوريا وقبرص واعتزعت به الحكومة المصرية كحاكم على عكا⁽³⁾ رعم الأوامر لصادرة من «سطنبول إلى باشوات دمشق وصيد، بإنهاء سيطرته التشريعية على معظم ليليل» بعد دخول طبريا والناصرية تحت سلطته وأرسل فرقة خاصة من المدفعية وأخرى للأعمال لهدم تحصيناته⁽⁴⁾

في حينه كان الشيخ ناصر صيف البصار، هو الشيخ الكبير للمتأولة الذي يحكم البلاد من صيدا إلى حدود عكا،⁽⁵⁾

كانت العلاقات متينة بين الشيعيين بحكم لصداقة والحوار ووحدة الطوائف والأهداف

(1) أ. م. د 40-43 149 سنة 1734

(2) حطط الشام الجزء الثاني ص 288

(3) الإمارات الشعبية ص 195

(4) أ. م. د 53-55 149 سنة 1742 تمور

(5) أ. م. د 38 150 سنة 1743 حيران

(6) Ciaranbaull D.D.C T2 p 150 من تقرير القنصل كبيراً سول صيدا 23 نيسان 1776

مع أن فترات من الحلاف عكرت صفوها، ووصلت في بعض الأحيان إلى الحرب بينهما، فقد انتهت بعد خمسة عشر عاماً من التحالف إلى حلف متين العرى وثبات الأهداف، كان له الأثر الكبير في تاريخ هذه المنطقة من سوريا

تأزمت العلاقات بين الشيعيين بسبب قريتين حدوديتين هما البصة ومارون، كانتا في حكم ناصيف باعتبارهما من أراضي جبل عامل، فكتب له ظاهر طالباً منه التخلي عنهما بدعوى أنهما تابعتان لملسطين، فردّ ناصيف بالرفض عاصباً وباصحاً ومتوقفاً وبمصر ما جاء في ردّه إذا عندنا مقابل سيفك سيوف أحد منه، وياراه كيدك مكائد كثيرة، إنك تقدم لأننا طامنا بعي علينا فانتصنا من الباشي وعاهدنا فقمنا بعهدنا وات ورأيك، ونحن نرى فيما يبدو منك والسلام.

إن العلاقات المضطربة بين ظاهر وأولاده لعبت دوراً ما هي دفع الأمور إلى الصدام العسكري بينه وبين ناصيف، فعلى الظاهر وعثمان ظاهر كانا عالماً بتمردان على والدهما، ويلعبان دوراً أساسياً في علاقته بناصر، عندما يتدخل مصلحاً بينهما أو حامياً لأحد الأولاد لمتمردين، أو مشاركاً مع الأب في إعادة الأبناء إلى حظيرة الطاعة الأتونة بحدّ السيف، كما فعل في معركة وادي المعظمية⁽¹⁾ ويستقبل بعضهم أحياناً أخرى كهاربين، أو لاحقين، من انشقاق أمهم كما فعل مع عثمان ثم مع علي

سواء كانت الأسباب تعود إلى الانشقاق أو وقع في بيته، أو إلى مطامعه في السيطرة على بعض أطراف جبل عامل، أو التحرش بناصر، فقد قام ظاهر بهجوم مناعت على قرية البصة⁽²⁾ وقتل منها أناساً، وبهت بعض مواشيها في 23 ربيع الثاني (1180 هـ، 1766 م). وبعدها بأيام أعار على طريخا حيث تصدّى له ناصر، وانتصر عليه في معركة كبيرة عدّت من المعارك المهمة في سرائر التاريخي، وأدبيات جبل عامل وفي يوم الاثنين ثاني جماد الأول كبس ظاهر العمر قرية تربخا وصار بينه وبين الشيخ ناصر وقعة عظيمة وانكسر الشيخ ظاهر كسرة عظيمة، وقتل من عسكره مئة وخمسون رجلاً، وأخذ من عسكره أيضاً مئة قلعة. وقتل عشرون رجلاً من عسكر الشيخ ناصر⁽³⁾.

يطيب العاملون في الإشادة بطولة ناصر وأخيه محمود في هذه المعركة، وكيف عن ناصر فارس ظاهر وأمرله عنها، بعد أن أحكم لرمح في صدره، ثم عما عنه، وأعاد له هرسه المعروفة «بالريضة» فثلاً له لا حاجة لنا بالريضة بعد أن رجعت لنا

(1) تاريخ لركبي، ص 54

(2) المصدر السابق، ص 55. والقلعة هي المرص بما تحمله من عدة

«البصيصة»⁽¹⁾، ويروي المؤرخ العسطيني ميخائيل الصباغ المعركة على شكل مختلف قليلاً، دون أن يحزم بانتصار أحد المريمين فيقول ما منحصه: «إن المتاولة وهم قوم من ذوي البأس والجسارة والنجدة، وأميرهم وكبيرهم ناصيف النصر بحدود بلاد بلدين لهم، وهما البصة ومارون، فكتب لهم ظاهر أن يتارلوا له عنهما، فأرسل له ناصيف الجواب بالرفض وأغلظ له القول، فذهب سعد أخو ظاهر عنه يبيع ناصيف بالتنازل، فما استفاد شيئاً، فعصب ظاهر وأرسل يطلب تقرير بلدين من باشة صيدا فأرسل له الباشا تقريرهما، فأرسل عليهما خيله وطرده ولاية المتاولة منهما وتولاهاهما قبل ذلك إلى ناصيف فحرد خيله وأتاه فالتقيا بقرب قرية طربيجا، ووقعت بينهما حرب طالت أياماً، كانت سجالاً، فلما رأى الدكرلي ذلك استعمل الموم وكبس المتاولة في بلدهم على غرق وأخذ ولدين لناصر وعاد إلى أرض المعركة فالتزم ناصيف أن يترك موقع القتال ويسرع ليخلص ولديه فأكسر المتاولة بسبب ذلك شر كسره،

يشكك المؤرخون العاملون في صحة واقعة بخارة الدكرلي ودحاها في الوصول إلى عمق جبل عامل، إلا أنهم يشيرون إلى أسر الكوكتيين بطريقة الصدفة، ويصيرون أن ولدي ناصيف كتباً لأبيهما بصمان ما لقياه من حسن معاملة ظاهر، وأنهما مع ما هما فيه من رعايه واحترام يطلبا أن يأتي علي رأس صكر لتحليصهما من الأسر، فكتب لهما والدهما ما يصيدانه ثم يها له عيش ولم يعمص له جص مد وقعا أسيرين وأنه يستلر انخماص مياه الأنهار ليثيرها حرب شعواء، تميد لها الحبال ويطيير لها الهام، فلما وقف ولداه على جوانبه أعاد الكتاب عبته إلى أبيهما، بعد أن كتباً على حاشيته البيتين التاليين: «جواً يصيد بعدم قبولهما عره،

كتب الرمان عجاليا في جبهة الأيام سطرأ

هل سمعتم أو رأيتم أن نهرا صد بحرا

وكان ظاهر واقفاً على هذه المراسلات فدعى بالعلاميين وسرحهما إلى أبيهما مكرمين، بعد أن أهدهما جوادين من خيرة خيوله⁽²⁾، فكان ذلك من الأسباب التي أرادت الجماء وسرعت بالتحالف بين الشيعيين.

من الواضح أن معركة طربيجا السلاب كما يسميها العاملون كانت من المعارك المهمة

(1) جبل عامل في التاريخ المقيمه ص 95

(2) تاريخ صماء م م ص 120.

التي ترددت أصداؤها هي تراثهم القومي والشمري، وعدوها في مفاخر جبلهم، فكانت موضوع سعال شعري ومبارزة أدبية بين كل من شعراء المناولة والدروز والمسلمين وظالما أثارت قرائح الشعراء العاملين فتعنوا بها وبأبطالها.

واكب الشعر العاملي كعادته هذه المرحلة السياسية والعسكرية الخطيرة والحافلة بالأحداث والتعاملات والحروب، فكان ديواناً سياسياً اجتماعياً وعسكرياً يرحر بالتفاصيل والمشاعر والآراء التي يمكن أن تشكل مرجعاً تاريخياً قيماً لكل أحداث هذه الفترة وخصائصها

قال الشاعر البانسي⁽¹⁾ يهاجم العاملين ويتهمهم بالحيانة مما يدل على وجود تحالف سابق بينهم وبين طاهر قبل إعارته على البصة.

كنتم له يمين فحانت احتها لا خير في يميني تحون شمالها

يا عصاة حادث بما لا ينبغي ولربما جلبت النفوس بكالها

هيرد الشعراء العاملين مدافعين متحربين مهذبين، فكان هذا التراشق الشعري، وصف تاريخي شامل للممارك وطروها وتنائها، من وجهة نظر كل الأطراف وهي عرض مفصل للأوضاع السياسية والاجتماعية والعسكرية للمجموعات المهتمة والمشاركة، وربما شارك شاعر درزي في هذا السجال فكان لكل طرف شاعره أو صحيفته بلعة اليوم، تعتر عن موقفه وما يراه إزاء كل التطورات التي ارداد تسارعها، وحجمها في هذه الحقبة وقد حصت كتب لأدب العاملة بهذا الميضي الشعري الذي فحرت الأحداث، وما خلصته من آثار ونتائج، إن قيمة هذه القصائد ليس هي ما بلغته من الفن الشعري فحسب بل إن قيمتها في أنها سجل لتاريخ جبل عامل العسكري⁽²⁾ والسياسي وسجل موثق لمشاعر بنه إزاء كل هذه الأحداث.

إن ما بقي محفوظاً أو متداولاً في هذا لسعال الشعري، الذي ينظمه عادة شعراء من معاصري الأحداث والمشاركين فيها والمتعاطفين مع أحد أطرافها تنقل إليها بأمانة، دقيقاً من التفاصيل والشاعر والمواطن والآراء العائدة لجميع الأطراف والتي كانت

(1) هو الشاعر الفلسطيني عبد الحليم البانسي كان يمينه وبين لشاعر العاملي الشيخ ابراهيم لعاريصي مهاجرات ومراسلات أدبية وقد أرسل له بعد معركة طبريا قصيدة طويلة أبرز ما جاء فيها
يا للرجال لمحنة لا يردعي غير ابن نصار يحل عقالها
ناصر من يحمي الثغور ومن به أيدت سماء المكرمات هلا لها
يطل له القى الرمان قصاده لو طولته الشامخات لطلها
ويد مقبلة السان كريمة مدب على المستضعفين ظلالها

(2) جبل عامل السيف والقلم حسن الأمين ص 377

تحكم الأحداث المعينة وتقوم بدور المصدر التاريخي لكل أوجه تماثلاتها فهي التعبير الصادق عن المناخ السائد حولها بكل حليته⁽¹⁾.

كما يحدث عادة بعد كل معركة عسكرية كبيرة طرحت معركة طريحا الدولاب طبيعة العلاقات بين طاهر وناصر، نفسها بقوة على الوضع السياسي العام، وربما أراد طاهر من ورائها الحصول على موقع أفضل مما كان له قبلها، واستمر بعدها في مفاوضات ترمي إلى تنظيم هذه العلاقة في إطار محدّد وواضح، سيما وأن موقعه الإداري قد جعله معتد بتقدمه على ناصر، باعتباره الحاكم المعين من قبل السلطة العثمانية على صمد وغيرها من المقاطعات الفلسطينية، والحائر على عدة ألقاب تفيد عن مكانته السامية هي سلسلة الرتب الرسمية، فهو حاكم صمد، وشيخ عكا، والباشا، وأمير الأمراء⁽²⁾ بالإضافة إلى عدة ألقاب ومهام أخرى هي الوقت الذي يحصر بمود ناصر هي البلاد التي يعتبرها بلاده، دون أن يحاول في أي وقت التوسّع خارجها أو الحصول على أي دتمة عثمانية، أو وظيفة تجعل له صفة ما هي الإدارة الحاكمة. إلا أن سبحة المعركة أفرزت واحداً معاً لما خصّص له طاهر، إذ برز ناصر على إثرها قوة عسكرية يحسب لها حساب، ومد فعلاً عن حدود جبل عامل لا ينسأهل حتى في حدود قرية صغيرة تقع على أطراف مقاطعته، ويبدو أن قصّة أحد ولدي ناصر الياقطين التي ذكرها الصباغ ونقلها عنه معظم المؤرّخين اللاحقين، هي حال صحتّها، هي ردّ على استقبال ناصر لعثمان، الابن المتمرّد على والده والذي كان يعتبر ناصر حاميه الكبير، ويعيش في كنفه ويشاركه في مساعيه السياسية الرامية إلى تكوين جبهة محلية متحالفة، حيث كانت تصود في لبلاد حالة حرب تهدأ لتعود فتتجدّد كل

(1) يقول الشاعر براهيم يحيى العاطلي منتهراً سبي قومه وانتصارهم على ولاء لدولة وبكتهم بعد معركة يارون ومشاعرهم نحو الأمير لشهابي وما حنّ بعلما، جبل عامل من حطوب

كأن لم يكونوا في مقام من لعل
ولا طوقوا بالعشرية والعب
ولا حقت اعلامهم فوق فيلق
ومن نكد الايام أن شهابهم
وقال أيضاً

وكم عالم في عامر طوت به
صوئح حطب جرحها ليس بالألم

(2) حسن الأمين، م. م. ص 188 وكانت الدولة قد عثرت أخيراً بالأمر الواقع فشرعت سيطرة طاهر على عكا وملعقاتها

ثلاثة أشهر⁽¹⁾

شملت الوساطات لإحلال السلام وإزالة أسباب لجفاء بين الرعيمين وأهم من ساهم فيها زعماء الدرور الثلاثة، على جنبلات² وعبد السلام العماد⁽³⁾، وكليب النكدى⁽⁴⁾، بالإضافة إلى الأمير اسماعيل لشهابي، أمير حاصبيا، وحال الأمير يوسف، وكانوا جميعهم يدعمون ناصر وبصومون في الوقت نفسه بالوساطة بينه وبين ظاهر⁽⁵⁾.

ويبدو أن من الذين قاموا بدور أساسي في جهود الصلح، سعد العمر شقيق ظاهر، وعباس المحمد حاكم صور، وقد رتبوا اجتماعاً بين الرحلين في صور بتاريخ 17 ربيع الأول 1181هـ 16 آب 1767م وذلك بعد مرور أيام على معركة جرت بين رجال باشا صيدا وهران الشيخ عباس، حصره عباس وظاهر وعلي جنبلات إلا أن ناصر لم يحصره لأسباب عبر واضحة تماماً⁽⁶⁾ وربما كانت زيارة الأمير حيدر الحرفوش بربيل عيباتاً إلى صور، بعد ثلاثة أيام من هذا التاريخ لها علاقة بكل هذه الجهود التي بحلت أخيراً في حمل الرحلين على إبرام اتفاق تاريخي ساهم في عكا بتاريخ 8 رجب 1181هـ - 6 تشرين الثاني 1767م، بدأت معه مرحلة جديدة في تاريخ الشيعة وتاريخ بلاد الشام كلها، أهم ما جاء فيه:

«أقسم ناصر وظاهر على السيف والمصحف أن يكونا وقومهما متصافين ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء، وأن يساعد أحدهما الآخر على كل من حاربه أو ناوؤه أو هاجمه وأن تكون الصرصة صرصة والطعنة طعنة،

«أن لا يكون للبasha شأن مع جميع المتاولة هي دفع مال الميري، وأن يمنع عنهم كل ظلم يأتي من قبله، ويساعدهم على أعدائهم وكل من ناوهم وقتلهم،

إذا وقع حرب على ظاهر وطلب مساعدتهم يبنون ويدفعون لظاهر وحده مال الدولة، ويقوم هو بمحاسبة البasha به.

(1) D D.C. T 2, p 150

(2) من كبار مشايخ الدرور، توفي سنة 1778م

(3) من كبار مشايخ الدرور، توفي سنة 1788م.

(4) من كبار مشايخ الدرور، التحق بالأمير يوسف وقاتل معه في جبل، ثم هرب وارتحل إلى جبل عامل عند الشيخ ناصر البصار توفي سنة 1785م

(5) D D.C. T 2, p 151 من تمرير النص الرسمي في صيد المشار إليه سابقاً

(6) تاريخ الركب، ص 56 - 57.

وأسقط ظاهر ناصيف الربع من مال ليبري المفزّر على بلاد بشارة وأعاد له البصة ومارون⁽¹⁾.

كانت هذه المعاهدة الدفاعية لهجومية لتي تحدّ من ارتباط المتأولة بالباشا العثماني، تتطابق مع أهداف ظاهر وناصيف في الوقت نفسه، وتلبي حاجتهما معاً، وتتناسب مع ما يخططان لمستقبل الأيام، هي تلك الأثناء لم تستطع قبائل المتأولة القوية الشكيمة العاطنة في صور وديول لبنان الجنوبي أن تعايش لا مع الباشاوات ولا مع جيранها اللبنانيين، شيخ هذه القبائل كان ناصيف لصار، قوياً وقادراً يملك أراضي شحيّة وعدداً من الحصون، وكان باستطاعته أن يدفع إلى الميدان عدّة آلاف من أمير الفرساں حداً ظاهر للحصول على هدفه المنشود حدو الأمير فخر الدين، إذ رأى أن التلاهاً عاماً للقبائل العربية المتاخمة لأملاكه يساعده في تأسيس دولة مستقلة وعلى هذا عقد حلفاً قوياً مع المتأولة واشترط على الباشا أن يرفع عنهم الضريبة⁽²⁾.

إن ما دفع ظاهر للتحالف مع المتأولة كما يستنتج تفصل باريلي، هو عايته الطموحة الساعية إلى تأسيس دولة مستقنة، ولا يعد هذا لهدف كثيراً عما يسعى ناصيف إلى الاستعانة من حاسبه بهذا التحالف لتحقيقه فقد أصرّ على ذلك ارتباطه بباشا صيدا وأحد من طاهر عهداً بالوقوف معه في وجه الظلم الذي يعرّض له جبل عامل وركّز على ذلك في مضمون الإتفاق بحيث يبدو حلياً أن فك الارتباط، مع الباشا ومقاومة سلطانه هي العاية الأولى التي سعى إليها ناصيف من وراء اتعاقه مع طاهر، كما أن محاولته التاريجبة من أمير الطوف لا بدّ لعت دوراً مهماً في تكوين هذا الحلف.

بدأت أحكام الإتفاق تأخذ طريقها إلى التنفيذ بعد إبرامه، شارك ناصيف حلّيمه في القيام بحملات متوالية في فلسطين لشبث سلطان طاهر على المتمرّدين عليه بمن هبهم ولده علي وقام الحلّيمان بعبارات على نابلس وصمد ومرح الجش، حتى حان الوقت لتوجيه الجهود نحو مقارعة العدو الأكبر والأقوى وهو الوالي العثماني سواء في دمشق أو في صيدا.

لا بدّ أن عاية ناصيف الأساسية من مساعيه السياسية التي استمرّت سنوات طويلة، تقصي بإعداد نفسه وقومه وحيرانه ليكون الجميع على أتم الاستعداد، حتى تأتي

(1) حول المعاهدة بين الشيخين جبل عامل، حسن الأمير ص 191، ويلاحظ أن ظلم الباشا العثماني كان حاجتهم الأهم

(2) سوريا ولسان وفلسطين، باريلي ص 71.

الظروف المناسبة للاصطدام مع العثمانيين، و شرع أكثر قدر ممكن من الإستقلال عن سلطانهم، والحد من ممارساتهم القمعية على حل عامل وسكانه، وقد قطع شوطاً كبيراً بحسب ما تسمح به إمكانياته المحدودة، في بلوغ هذه المرحلة، فقد أمّن وحدة القيادة بالنماف سائر القوى العاملة حوله كما أعد ما استطاع من عدة لذلك، وأمّن تحالفات بالغة الأهمية في محيطه القريب فظاهر نعمر أقوى حكام فلسطين، وهو متفق معه هي العاية والأهداف، وقد انضمّ بينهما الحار الثوي اسماعيل الشهابي أمير حاصبيا كما أشأ صلوات ودّ وقاهم مع رعماء الدرور الثلاثة⁽¹⁾ ولو بقي منصور في جبل الشوف أميراً ولم يبعده ابن أخيه يوسف ويحل مكانه، لربما كانت الأمور قد أهدت وجهة أخرى، ولكان الحلف الذي طالما سعى إليه ناصر قد شمل عامة الرعماء المحليين على اختلاف مقاطعاتهم وطوائهم

كانت النهضة الإقتصادية التي نعمت بها المنطقتان في ظل حاكميها تدفع نحو زيادة أواصر النفاور والتكامل التجاري بينهما وشهد مرهناً صور وعكا اردهاراً تحارباً بارراً، سيجع اردياد التعامل التجاري مع أوروبا وخصوصاً فرنسا، وكذلك مصر وقبرص، فاهتم الملاحون بزراعة شتيع والقطن، وصار التجار المرنحة ينصلون بهم مباشرة وبدفعون لهم ثمن منتجاتهم معدماً هتامت المساحات المروعة، وأصبح للقطن العالمي وخاصة نتح بلدة أنصار سمعة عالية في الحدود وللتبوع رواحاً شديداً هي دمياط وبذلك ارتفعت مداخيل الملاحين والعاملين في التجارة وأصحاب الأراضي والمشايخ فانعكس كل ذلك إيجاباً على قوتهم العسكرية، ونفوذهم السياسي وأصبحوا يحاهرون باستقلاليتهم عن الإدارة العثمانية مباشرة وبشكل حاسم.

في شباط 1754م وقبل نهاية السنة المالية أعلنت السلطات المركزية في اسطنبول، بدهشة ودعر، أن بلاد بشارة واطليم لشومر ولشقيف بقيت بدون عقود الإلتزام هذه السنة، لأن الحكام السابقين رفضوا تجديد عقودهم إن الوالي أطلع إدارته أنه رغم محاولاته لم يتمكن من تجديد العقود مع من كان منذ القديم مسميداً منها⁽²⁾.

إنهم يقدمون أعداداً واهية، ويتدمرون من ارتفاع الضرائب، وأن كل قرش إضافي مدفوع يقتضي إعادته إلى الملاحين إن أوامر عديدة أخرى وصلت إلى الإدارة العثمانية

(1) جبلاط وعماد ونكد

(2) أموري مهمة بغتري (ام. د) سجل 156 من 231

المحلية تعالج هذا الواقع الداهم فإن شيعة جبل عامل يرفضون أن يعودوا إلى طاعة السلطنة⁽¹⁾.

كان الشيخ ناصيف يمارس سلطته باستقلالية ملحوظة مستهيناً بالباشوات الأتراك متحدياً لهم كلما وُجدت فرصة لذلك.

«اعتقل الشيخ ناصيف نائب القنصل المرسني في الرملة واقتاده إلى تبين».

«أبلغ القنصل المرسني في صيدا باشا الولاية بالحادث فكان كل ما فعله أن أبدى استياءه من الشيخ المتمرد الذي يرفض أن يدفع له الميري الموجهة للباب العالي»⁽²⁾

وكان الوالي يقف عاجزاً أمام تحديات ناصيف له حتى في عقد زره مركز الولاية

«أرسل الشيخ ناصيف مائة وخمسين فارساً وأمرهم بمصادرة البضائع ومصادمة قوات الباشا إذا حاول منهم»⁽³⁾.

كانت لدولة العثمانيين تمر في أتعس أحوالها وقد انتشرت الحركات الانفصالية والاستقلالية في الكثير من ممتلكاتها فكانت مصر والحريرة العربية واليونان ترهق راية العصيان، ونحرح عن الطاعة، كما أن الأسطول الروسي يحوب مواشي المتوسط والشواطئ المصرية والسورية خصوصاً. يدعم هذه الحركات ويدعمها قداماً، حتى الانكشارية في العاصمة نفسها يمزقون على السلطان ويسعون الأحوال هي أكثر من مكان مما شجع حلف «ظاهر - ناصيف» على مباشرة تحركه، خصوصاً وأن حليفاً قوياً في مصر هو علي بك الكبير قد اتفق معهما على المساعدة والتدور في مواجهة العدو المشترك.

اشتد أثر ظاهر العمر بمحارمته لزعماء الشيعة واعتز جانب الشيعيين وطمحت نموس الصريقيين للاستقلال الناجر، فخلعوا بيرا السلطنة الترككية وأبوا دفع الضرائب⁽⁴⁾.

بعد عودة الجيوش المصرية إلى بلادها حادت الدولة العثمانية من معية التحالف والتعرد الذي جمع طاهراً وناصر، فاستدت عثمان باشا الصادق والي الشام يعاونه

(1) الامارات الشيعية ص 198

(2) من التقارير الدبلوماسية المرسية Marit V2 p96 عن جبل عامل السيد والفلم الأمير ص 348

(3) المصدر السابق من أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مارسيليا ملف رقم 796 هي 1781-12-24

(4) تاريخ صفا، ص 122

والي صيدا، على رأس ثلاثين ألف مقاتل لإحصاء جبل عامل وبلاد فلسطين، والقضاء على الحليين، وكان ناصيف على رأس مقاتليه يعد نفسه لهذا اليوم منذ زمن طويل، فحاض في هذه المرحلة ثلاث معارك تاريخية مهمة، طالما أثارت في العاملين مؤرخين وشعراء فيصاً من مشاعر الصحر والاعتزاز باعتبار أن ما قام به أسلافهم على قلّة عددهم، يدلّ على اندفاعهم في لدفاع عن بلادهم وتمرسهم في فنون الحرب والقتال، وقد انتهت هذه المعارك بدحلولهم مدينة صيدا مركز الباشا العثماني وهذه المعارك هي معركة النحرة، معركة «لنبطية كفرزمن» ومعركة «الحارة العارية».

1 - معركة البحرة

اتفق الرعماء الثلاثة علي بك وصاهر وناصر على قتال والي الشام عثمان باشا ودولته، فأرسل المملوك المصري صهره، وقائد عسكره محمد أبو الذهب على رأس حملة عسكرية من أربعين ألف جندي ومائة وعشرين قطعة مدفعية على أن يلتقي ناصر وطاهر على أبواب عكا، ومنها تنطلق الحيوش نحو دمشق وبالعقل كان أبناء طاهر وأبناء ناصر في استقبال الحملة عند وصولها إلى عكا لما وصل أبو الذهب إلى أراضي عزة والزملة ومقاطعات عكا حصر إليه أولاد طاهر ومشايخ المناولة وانصموا إلى عسكره، فصار جيشاً عظيماً يهوي على مئتين ألف رجل، وسار بتلك العساكر طالباً دمشق اتجه الجميع إلى دمشق بعد أن انصم إلى العسكر المصري عشرة آلاف مقاتل عاملي واثنًا عشر ألف مقاتل فلسطيني.

«توجه أبو الذهب جهة دمشق ووصل إليها يوم الإثنين تاسع عشر من صفر 1185 هـ. وكان معه تسعة صناجق وخمسة من أولاد طاهر ومشايخ المناولة والصمدية أهل البدع والرفص»⁽¹⁾ وعند وصول الحيوش المتحاربة إلى دمشق أرسل علي بك كتاباً إلى أهلها يطلب منهم نصرة، بعد أن عذّب مظالم التوالي العثماني، وأن غايته تطهير هذه الأرض نصرة للدين وغيره على المسلمين، واستخرنا الله وهو نعم الوالي وسألناه أن ينصر دين محمد وعلي.

تحارب أهل المدينة وخرجوا لملاقاة العسكر المتحالف فسقطت دمشق سلماً بعد أن

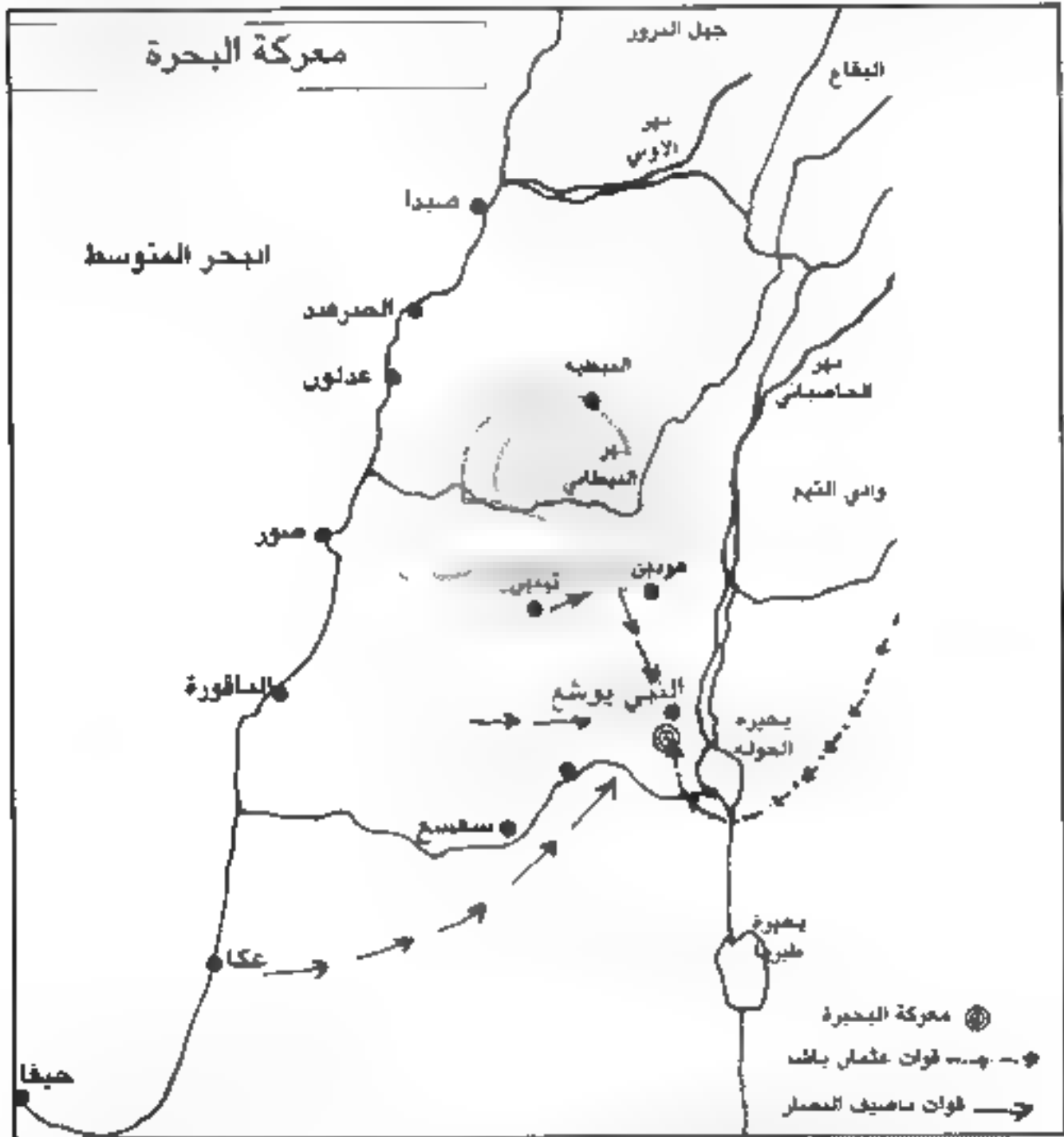
(1) D.D.C T2. p 174 تقرير لملحق لجاري لمريسي في صيدا، السيد درغون

Dragon بتاريخ 31 يار 1771م. ويقول مريدي، بهم ثمانون مدفعاً

(2) سنك الدرر، المرددي، ج 1، ص 57

هرب واليها وجماعته فدخل العسكر إلى المدينة هي السادس من حزيران 1771م. وتلقى القادة الماتحون أبو الذهب وظاهر وأصيب النهابي من الوفود التي تقاطرت من كل أنحاء بلاد الشام⁽¹⁾

ولكن أبا الذهب فاحاً حلقاه لأسباب غير واضحة تماماً برغبته هي العودة السريعة



(1) تاريخ تينير، م م ، ص 139 يقول هولندي إن بقوى لمي دخلت دمشق تتألف من خمسة آلاف فارس من المماليك وألف وجمعية راجل من بشارية وسبع كل معنوك حارسين ورجلان يحملان العصي وألف وجمعية فارس صفدي بأمر علي الظاهر وألف وميتي فارس متوالي بقيادة ناصيف (ثلاثة أعوام هي مصر والشام هولندي الجزء الأول ص 86)

مع عساكره إلى مصر غير عابئ بمحاولات ضاهر وبصيف بقاعه بالعدول عن عزمه فعاد الجميع إلى ديارهم بانتظار ما يجد من تطورات

«شاع رحيل أبي الذهب في العدا فتعجب أهل الشام كل العجب من ذلك، ولم يعلموا السبب فيه ورجع أولاد الشيخ ظاهر والمشايخ المتأولة كل منهم إلى مكانه وقد ذهبوا من قيامه وتأسفوا على سعيهم الباطل»⁽¹⁾.

«أثار ذلك كله دهول الشيخ ظاهر وناصيف البصائر اللذين حاولا سؤاله عن الباعث على تكوُّسه على عقبه على هذا السؤال غير أنه ثم بحبيبهما على سؤالهما بل هدهما شامخاً بأنصه، ورحل هو ورجاله بقضهم وقصيصهم كأنهم منهزمون من وجه عدو جاذ في أثرهم»⁽²⁾.

ويصف الحوري محارب برك المعركة ودخول بي الذهب دمشق ثم انسحابه المأخىء منها مستعرباً وينهي بالقول «في اليوم الحامس عشر من وصوله نأدى بالأمان وهدم خيامه ورحل راحعاً إلى مصر الله لا يمتعه بالسلامة ولم يعرف أحد سبب رحيله ورجوعه»⁽³⁾.

حين بلغ عثمان باشا قيام أبي الذهب عن الشام كان هارباً في حمص فرجع إليها وحضر عنده الأمير يوسف الشهابي⁽⁴⁾ الذي يبدو أنه وعد عثمان باشا بالاشتراك معه في الهجوم الذي كان في نية الباشا أن يقوم به على المتأولة في الحولة كما يظهر من اعداد الوالي إلى الدولة عن كسرتة في موقعة الحولة إنها كانت في حياة الدرور لتحلهم عن الميعاد

قام عثمان باشا في 30 آب 1771م من دمشق قاصداً بلاد الشيع من الجهة الجنوبية الغربية فاحتار حصار نبات يعسوب جنوب الحولة، ولم يعرف بمسكركه نحو بلاد ظاهر العمر في صمد وطبريا بل انصرف إلى شمال الجسر، حيث برل على حدود بلاد المتأولة بين بحيرة الحولة والحيال العدمية المظلة على البحيرة وما حولها من سهل المحيط وسهل الحالصة⁽⁵⁾.

ويقول المؤرخون العاملون إن العاميين وحدهم هم الذين قاتلوا جيش الوالي

(1) برقة الرمان الشهابي ص 964

(2) للبحث عن تاريخها، عني الريس ص 504

(3) المصدر السابق، ص 505

(4) العرر العسا، لشهابي، ص 87.

(5) للبحث عن تاريخها، الريس، ص 511.

العثماني تحت قيادته ناصيف وحوله حمزة المحمد وحمد العباس وعلي المارس.

أما التركماني فيسهب على غير عادته في الحديث عن هذه المعركة ربما لما بلغه عن أهميتها في حبه ويقول في وصفها مركب الشيخ ناصيف والشيخ حمزة والشيخ حمد العباس والشيخ علي ظاهر العمر وأولاده إلى جسر بنات يعقوب لمحاربة عسكر عثمان باشا ناشة الشام ومعه باشتين، فكسروا لباسوا المدكورة كسرة عظيمة وأحاطوا بالدولة الدل والهوان، لأنهم انحملوا خيمة عظيمة، ما صار مثلها في الزمان، ورموا بأنفسهم وخيلهم، وجميع ما معهم في بحيرة الحولة، وغصموا منهم من جميع الأجناس، ولا سيما المدافع، و لحمال، والحيل، والبغال، وما عليهم من السيوف المسقط، والصراش والأثاث، فقد صارت لمن ليس له فيها ملك ولا ميراث. وأما العمائم والقوايق، فقد طاشت على وجه الماء تركض أسرع من حجارة المناجيق. وأما الخبثانة من المارود، فقد احترقت، وسطع منها إلى السماء عامود، وقتل أناس، وأناس اسودت منهم الجلود، فأنخملت الدولة خملة قوم عاد وثمود، وأحاط بهم البلاء والمصائب السود، وما سلم من عساكر الدولة إلا القليل، وكانوا عشرة آلاف مصر، وعسكر البشارية ثلاثة مئة خنال، سلم الجميع، ما قتل إلا رجل واحد، اسمه الشيخ حبر من الحماديه

وأما ما كان مع الدولة من عسكر العرب، فقد هربت كحمال أحاط بها الحرب، وشردوا في البراري هاربين، إلى المجاة طالبيين، فأصبحت عساكرهم خامدة، وفي الحمول والحمل راقدة، كهشيم تدروه لرياح، ورال عنهم السرور والأفراح، وكانت الواقعة والخدعة على الدولة.

ويسترسل في وصف الهريمة القاسية التي وقعت على عسكر الدولة بلعة خطائية مسجعة قبل أن يحتمها شعراً مما يدل على الأثر البالغ والصدى الكبير الذي خلّفته هذه المعركة في مشاعر المعاصرين وذهابهم .

شكلت النتائج الحاسمة لمعركة النجرة منعطفاً أساسياً في السبوك السياسي العام والعلاقة بين المتأولة من جهة والسلطة العثمانية الحاكمة وباقي القوى المحلية المؤثرة في الأحداث، من جهة أخرى فقد رجعت من معنويات العاميين بعد معاناة طويلة وأكدت قدرتهم على مواجهة حبروت لباسوا وبضئهم كما أكدت وجودهم كقوة مؤثرة وفاعلة في مختلف المعادلات السياسية والعسكرية المائدة في تلك الفترة وما بعدها

دكسوا على عساكر الشام تحت غسق لطلام فألبوهم بالويل والنقم وكسروهم كسرة مهولة وغرقوا أكثرهم في بحيرة الحولة وهرب عثمان باشا بنصر قليل من رجاله وقد احتوت الأعداء على وطاقة وإثقاله⁽¹⁾.

ويقل محمد جابر ال صما عن لأكرو، أن جيش ظاهر والمتاولة داهموا جيش عثمان زحفاً على بطونهم من أربع جهات وكان جيشه مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل واثنني عشر مدفعاً وأربعة مدافع لذلك الحصون عدا العربان وعشائر عزة والصقر والهواره وأن ناصر النصار قطع سبيله رأس قائد ماردبني ظناً أنه عثمان باشا الذي هز ناجياً بنفسه وترك خيمته وسلاحه وخيوله وأما الجيش فقد فني من آخره ومن سلم من القتل رمى بنفسه في بحيرة الحولة فمات غرقاً.

ويقول المؤرخون العامليون أن حملة عثمان باشا كانت على الشيعيين لما تبداوا طاعة ولده درويش باشا والي صيدا، ورفضوا دفع مال الميري المقطوع فحجز عثمان باشا لحربهم، وعسكر الشيخ ناصر النصار بحنوده في جوار مقام النبي يوشع الواقع في الشرق الجنوبي من جبل عامل، وعمد مشايخ الشيعة ديوان مشورة ورتبوا خطة بالهجوم ونضربوا إلى الله أن ينصرهم على العدو الباغي، وكان مقام النبي يوشع ساية حصرة فصطع الشيخ ناصيف عهداً على نفسه أن يبني المعام بناء فخماً إذا طمر بالعدو ثم كنس المقام بعمامة بوصفاً وتبركاً ولما أحرر البصر بناء على الشكل الحاصر، ورفع فوق الضريح قبة شامخة وانتدب ناصيف فرقة من أبسل جنوده وأوفرها شجاعة لا تزيد عن حمسمية فارس فستت العدو وزحمت إليه ليلاً فأحاطت به من جهات ثلاث وأعملت فيه السيف، ولم ينج من القتل إلا من ألقى نفسه في البحيرة. ولم يقتل من المهاجمين جندي واحد وفر الوالي عثمان باشا منهزماً لا يلوي على شيء وكان الناس لعهد قريب يعثرون على أسلحة العرقي في البحيرة⁽²⁾.

دب الخوف في قلوب الولاة العثمانيين بعد معركة البحيرة هترك والي صيدا درويش باشا مركز ولايته مع حمايته إلى الشام عند والده ولم تفلح المحاولات التي جرت لإقناعه بالعودة إليها والدفاع عنها بوجه لهجوم الشيعي المرتقب⁽³⁾.

(1) تاريخ حيدر الشهابي، ص 89

(2) تاريخ جبل عامل صما، ص 123

(3) كان درويش باشا في أشد حالات الحزن فهو لا يأكل ولا ينام وكان أقل ما يمكن أن يحدث معه تجمل دموعه تهمر D D C. T 2, p 176 تقرير مسعود راعون Dragon لمشار إليه سابقاً.

2 - معركة كفر رمان

إذا كانت معركة الحولة من أهم المعارك التي استصر فيها باصيف النصارى والمتاولة على الدولة العثمانية، فإن معركة كفر رمان هي من أهم المعارك التي تقابل فيها المتاولة والدرور المتحالفين مع ولاية الدولة العثمانية، وخصوصاً والي الشام وأولاده ولا سيما والي صيدا درويش باشا ومن باصرهما.

عاد درويش إلى صيدا مرغماً، فعصبت عليه المشايخ بني متوال حكام بلاد بشارة وأرسلوا يتهدّدونه أنه يقوم من صيدا، فأرسل درويش باشا أعلم الأمير يوسف وترك له مال ميري بيروت وجبل الشوف تلك السنة، وعاد هارباً إلى الشام عند والده عثمان الذي طلب من الأمير يوسف المسير إلى بني متوال،⁽¹⁾

كان الأمير يوسف أمير الدرور الكثير كثر الإحلام لسبب العاني، وكان عليه أن يلتقي مع الباشا مع خمسة وعشرين ألف مقاتل إلى ثلاثين ألفاً. لقد أعني ثلاث سنوات من الميرة بدون مقابل وقصص خمسين كيماً،⁽²⁾ وكانت نعمات حبشه وتجهيراته على بقة السلطان. لما نظر الباشا إلى عصاوة بني متوال ومظاهر الفقر حاف على نفسه لأنه كان حباباً فأحلى مدينة صيدا ورجع إلى الشام فطلب منه الأمير يوسف أن يرجع إلى صيدا وأن يكون الأمير وعساكر بلاده في خدمته، فما قبل الباشا بذلك وبعد وصوله إلى الشام أرسل عثمان باشا ينحي الأمير يوسف على المسير إلى بني متوال.⁽³⁾

لا يمكن النظر إلى جيش يوسف الراحف لمقاتلة التأثيرين الشيعة إلا على أنه جيش عثماني في التجهير، والهدف والأوامر رغم أن أفراده هم من الدرور والمسيحيين هي غالبيتهم. لذلك لم يهتم أميره بمحاولات باصيف بحث الصدام والوصول إلى تفاهم يؤمن له حصر نشاطاته العسكرية بوجه لقوات العثمانية وحدها، ويبدو أن مفاوضات حثيئة قد حصلت لبحث الحرب، وكان من الساعين إليها كبار مشايخ الدرور وعلى رأسهم علي جنبلاط وهم أصدقاء باصيف والمتعمهون لحطته ومقاصده مد الساعي التي قام بها الطرفان في وقت سابق لإزالة الخلاف بينه وبين طاهر، ويقول القس حنايا المنير وهو من المعاصرين لهذه الحرب. إن علي جنبلاط حمل رسالة من طاهر

(1) تاريخ الشهابي، ص 90.

(2) D D C. T 2, p 210 تقرير العارص دوتوليس (De Toulis) «مشار إليه سابقاً»

(3) تاريخ الشهابي، ص 90.

يعرض على يوسف ثلاثة تقديرات مقابل تحييه عن العثمانيين والإضمام إلى حلفه مع ناصيف وهي:

- 1- أن يحمل المشايخ المتأولة على أن يحصروا ويتراموا عليه ويطلبوا رصاه.
- 2- وأن يقدموا له نفقة عسكر دراهم معلومة.
- 3- أن يسلمه مدينة صيدا التي كانت على أهبة السقوط بين أيديهم.

فبقي يوسف مصراً على الحرب رغم موقف لرعماء الدرور وبصيغة الأمير اسماعيل بالتمهل ريثما تنتهي المفاوضة، وطلب من ابن اخيه أن يتأخر حتى وصوله لأن المتأولة يدفعون إلى الأمير ما يريد وأنه يحمل رسالة منهم حملها له علي الطاهر، "وكذلك موقف الأمير منصور الذي كان يؤيد المتمردين ولو هي سره.

كانت عاة ناصيف مقاتلة العثمانيين وحدهم والاستعانة بكلّ لقوى المحليّة لمحابتهم محاول أن يثني يوسف عن حربه ولو كان الثمن السارل له عن صيدا وهذا ما يؤكد أن عايته لم تكن إلاّ الخلاص من سلطه العثمانيين لا توسيع بموده أو زيادة أملاكه ومطامعانه بدليل العرض الذي هذمه إلى يوسف بأن يتولى المياده العامة للثورة مقابل مشاركتهم جميعاً في محاربة العثمانيين للتخلص من ظلمهم⁽¹⁾

يقول قنصل فرنسا المارس دو توليس في أحد تقاريره الدبلوماسية المرسلة من صيدا والمؤرخة في 18 حزيران 1772م

«إن الذي دفع المتأولة وهم جميعهم من شيعة علي إلى الثورة ضد الباب العالي هو طعيان الباشا ولا يربحون شيئاً من ثورتهم غير الاستقلال والتخلص نهائياً من دفع العائدات المفروضة عليهم من سلطان»⁽²⁾

«جهز الأمير يوسف ركبته على المتأولة وكانوا حينما رأوا أنهم قد انتصروا على عثمان باشا في موقعة الشيخ ظاهر وأن علي بك قد حصر إلى بلادهم واتفق مع الشيخ قد قويت شوكتهم وبمزدوا هأخذوا يتطاولون على أطراف بلاد الشوف والحولة ومرجعون وتلك الجهات وتواردت عليهم الشكايات فكتب إلى خاله الأمير

(1) المصدر السابق ص 91.

(2) سوريا ولبنان وفلسطين باريلي، ص 77.

(3) D.D.C T 2, p 253

اسماعيل حاكم وادي التيم واستدعاه الى الركوب معه عليهم فأجاب. ونهض الأمير يوسف حتى وصل إلى جباع الحلاوة أولى بلاد المتاولة. فاجتمعت المتاولة عسكرياً واحداً وتجرد منهم نحو مئة خيال وأقبلوا على عسكر يوسف فانكسر العسكر أمامهم ولم يصدقوا ذلك حتى رأوا العسكر يراحم بعصه على الهريمة، فساقوا في آثارهم واعملوا في أفضيتهم السلاح هبات منهم خفق كثير بالسيف، وبعضهم بالتعب، وبعضهم بالملش، وكانوا نحو ثلاثين ألفاً فمض منهم أكثر من ألف وخمسمائة بصر وتشتتوا في البراري والقفار، وكان يوم ضيمة لمتاولة فاغتنموا أسلاباً لا تحصى وعادوا الى بلادهم ورجع يوسف إلى دير ثمر محدوداً وقام العويل والنحيب في جميع أقطار البلاد وكنت ترى النساء في كل مكان كالأغربة من لبس الحداد وانكسرت بعد ذلك نفس يوسف وتمردت المتاولة،

هذا ما نصف به معركة كفر رمان مؤرخ شوفى، بينما يحتصر آخر يقول ان متاولة بلاد بشارة نفضتوا مع طاهر العمر صدقاً صيد، فطلب الباشا من الأمير أن يركب معه بعسكر على المدكورين فجمع الأمير ثلاثين ألفاً وذهب لمحاربتهم وقد بين قواد العساكر بعض العوبة من الأمراء والمشايخ، فلهذا السبب ما حصل توفيق فانكسرت عساكر الأمير وقتل منها أكثر من ألف والهرم الباشا في صيدا⁽¹⁾

تتفق المؤرخون الشوفيون بمن فيهم الأمير حيدر في عرره، على أن المتاولة لم يكونوا راعيين في قتال الأمير يوسف، وأنهم أبدوا استعدادهم لإعطائه ما يريد وأن مشايخ الدرور والأميريين اسماعيل ومصصور الشهابيين كانوا يرون وحبوب التمهّل والمأوصة وصرف النظر عن هذه الحملة لتي أمر بها والي الشام ووالي صيدا وقبص يوسف ثمنها من السلطات العثمانية مالأ وعاءات وعراءات وربما كان تعهده بقتال الشيعة هو الذي عجل أو ساعد على إحلاله أميراً مكان عمه مصصور الذي ترك الإمارة مضطراً إلى بيروت والذي كان يتجه بعو طمه وجهوده لتأييد الثوار ضد الدولة، ولكن يوسف بتأثير من صهر سته وعدم خبرته وبهمه إلى المال والسلطة، وكونه أداة طيعة بين يدي جماعة عامصة تدير الأمور باسمه منذ تولّيه على جبيل لمبات رسمتها دون أن يكون له من القرار شيئاً، ولم يكن له رأي ولا تدبير، فقد كان سعد الخوري عقله المدتر، أصرّ على موقعه وهاجم المتاولة في عقر دارهم⁽²⁾

(1) الدر المرصوف في تاريخ شوفى، (المن حساب) ص 46

(2) حوادث لبنان وسوريا، القس روفائيل كرامة، ص 39.

«فقام عثمان باشا والي الشام انطلاقاً من التكتيك التركي بتأليب الدروز ضد المتأولة فهاجم الأمير يوسف عملاً ببصيرة الباشا على رأس عشرين ألفاً من الجبليين بلاد المتأولة حارقاً الصياع والمرروعات ولم تصع محاولات علي الطاهر بإقناعه بالتخلف عن محاولة الأتراك وتولي شرف قيادة التحالف كل القوى الحبيّة فیتخلص الجميع بالتالي من جور الباشوات فهاجم خمسمائة من المتأولة الشرسيين حتى الوحشية عساكر الأمير في النبطية ولم يستطع الدروز الصمود ولو للحظة خاصة وأنهم كانوا يحاربون لمصلحة الباشا رغماً عنهم فوّلوا هاربين باتجاه الجبال من ملاحقة المتأولة الذين أراقوا منهم دماء كثيرة وعاد يوسف إلى دير القمر ملتحاً بعاره 1500 أرملة كرفاً من العربان ملأوا سماء القمم اللبنانية بالزعيق واللعنات أما العمال الدروز الذين كانوا يحتلون عاصمة البشيك فقد تراجعوا من الخوف بعد سماعهم بأنباء الهزيمة»⁽¹⁾

«بعد وصول الأمير يوسف إلى قرية كفر رمان أحرقها كما أحرق قرايا إقليم النماح وجناب وسار إلى النبطية فالتقى بطارش عسكر المتأولة بنحو خمسمائة حيال هاتكسر عسكر الدروز كسرة عظيمة لم يكن في الزمان انكسار مثل تلك الكسرة حتى مات كثير من التعب ومنهم من جُذِموا عمولهم وكثيراً رموا سلاحهم وثيابهم وقيل ان إسماعيل قتل ثيابه في شجرة فبقي واقفاً إلى أن وصلوا إليه وقتلوه. وقد مات من الدروز ما ينوف عن ألف وخمسمائة قتيل ولو تكون وصلت عساكر المتأولة لما كان سلم إلا القليل»⁽²⁾

يكاد يجمع المؤرخون الشوهيون قبل العاميين و لأحاب على أن عسكر المتأولة الذي اشترك في القتال لم يحاور عدد أفراده لخمسمائة فارس، مئيل عشرين إلى ثلاثين ألفاً، وربما أكثر. كان عدد الحيش المهاجم ومع ذلك حقق العامليون هذا النصر الكاسح الذي لم يحصل مثله في الزمان: كما وصفه الأمير حيدر.

لا يمكن مقارنة هذه المعركة بأية معركة أخرى من حيث نتائجها وعدد المشاركين هبها من الجانبين واختلال المساواة العددية بين الفريقين بالإصافة إلى العرق الضاسع في الاستعداد والتجهيز. فعسكر الدروز هو الذي بادر بالهجوم محمّراً على نمقة الدول

(1) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، بارسى ص 91

(2) المرجع السابق، ص 76.

(3) تاريخ الشهابي، ص 91.

العثمانية وامتعتاً بإمكانياتها اللامحدودة بينما حرسان ناصيف وصلوا فجأة هي لحظة المعركة وشاركوا فيها على غير استعداد سابق، ومع ذلك كانت هذه الحصيلة الكبيرة من القتلى والمارين والعمارة والمعدورين أمام عدد قليل من الحرسان.

كيف يرى المؤرخون العاملون معركة كمر زمان

يقول محمد خابر آل صما إن أسباب هذه المعركة كما سمعتها وأنا علام يافع من الشيوخ والمعمرين يرويها أحدهم عن أبيه عن حذو ممن شهد المعركة بنفسه فيصمها وصفاً دقيقاً كأنك تراها ويذكر الأماكن التي حصل فيها المراك والتهجوم والدفاع وأسماء القواد الذين أبلوا بلاءً حسناً فيها

«حسر الباشا معركة الحولة . البحرة ولم يقدر الأمير يوسف على تحديه رغم إعلانه النصير العام. فرحف لاكتساح جبل عامل بحيش كثيف يزيد على أربعين ألف مقاتل ولما دخلوا البلاد من جهة صيدا بدأوا يحرقون القرى ويدمررون المزارع ويقطعون الأشجار ويقتلون من يمع هي أنديهم من السكان الامنين ولا يعصون عن شيوخ ولا صبية ولا نساء».

كتب الشيخ علي المارس إلى الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل بسط له القضية وبستجده للدفاع عن البلاد وحماية الطائفة هب ناصيف وأرسل الصواب لجمع الجيود وكتب إلى حليمه طاهر العمر صاحب هسطن يطلب النجدة

«وكان جيش الأمير يوسف يسير في أربع فرق. فالمرقة الأولى وهي المصدمه وفيها الأمير يوسف في أول الحيش. والمرقة الثانية، وهي الجناح الأيمن كانت تسير في طريق جباع . حومين . حبوش . البطية والمرقة الثالثة وهي الجناح الأيسر كانت تسير في طريق العرقوب . فالمدينة . الجرمق . كمر تينيت . البطية . والمرقة الرابعة وهي الفلب كانت تسير في طريق جرجوع . عرب صاليم . والبطية. ولما وصلت طلائع الجيش المهاجم إلى جدع وأحرقتها بعث الشيخ علي المارس رسولاً آخر إلى الشيخ ناصيف يحبره بحركة العدو وما فعله من المظانع ويستعجل قدومه،

ثم عبأ خيالته تعبئة حربية محكمة فأحاطت بمرقة الأمير من جهات ثلاث من العرب والشرق والجنوب تاركاً جهة الشمال ليسهل طريق الفرار والانسحاب. وحشي حماس الشأن المشاة فحبسهم في «خان الميري» ومنهم من التحرك إلا بإشارته،

وبدأت المعركة بإطلاق الرصاص، فدعر لأمير يوسف ورأى الخطر المهدق به، فارتبك، وتشوشت جنوده، وصيق المهاجمون الحلقة فالتحوا إلى الفرار ركباً بقلّة لا يلوي على شيء، وكانت الأوامر أن لا يقطعوا عليه الطريق ولا يمسّ بسوء، ولما سمع الشباب المحصورون بالخان أريز الرصاص اشتد هباجهم فسقبوا جدار الخان الشمالي، ولم تزل آثار النقب إلى اليوم وتعقبوا العدو هاشتبكوا معه في ساحات ثلاث (في الحزائر) شمالي البلدة (ووادي بو نعيم) شرقيها، وبين ريتون كضرمان، وكان جيش الشيخ ناصر المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل قد وصل إلى قرب قرية شوكن وهناك التقى بكشاف يصيح (علق الشر، علق الشر) أي دارت رحى الحرب، فأسرع رجاله سالكاً طريق (ريدين) ودخل بلدة من الجهة الغربية ليدهم مقدّمة الجيش المحيطة عرسي البلدة، وتذك عن طريق «نبعة حبيب»، لأنها مصيق واقع بين جبلين مخاف الكمين وسار بخبله خبياً إلى ساحه العراك ورأى الحرب قائمة على قدم وساق فهجم هجوم المستميت، ولم يلبث العدو أن لوى عنانه متقهقراً إلى كهر رمان

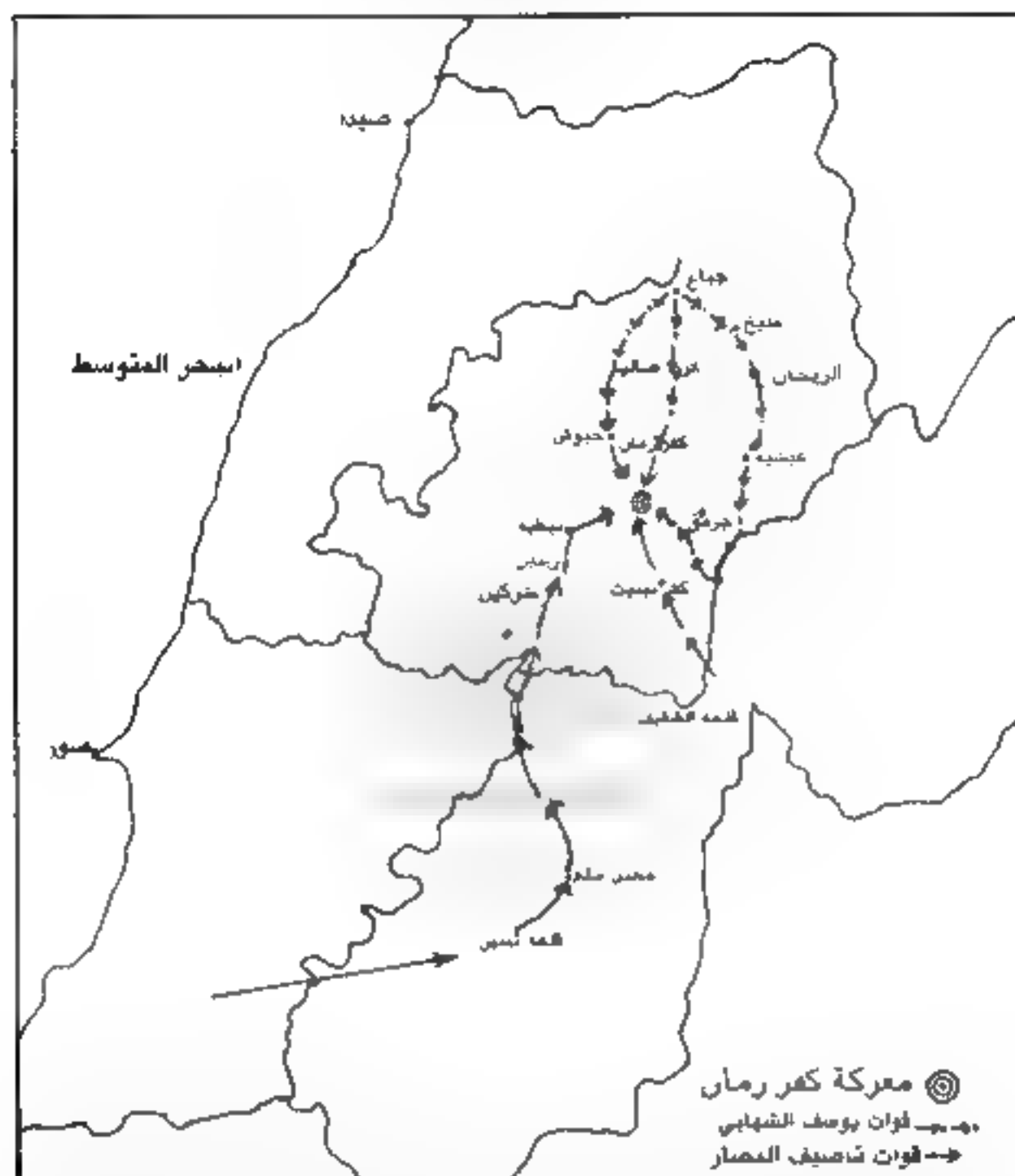
«هجم الشيعة بالسلاح الأبيض فانهزم الجيش كله انهزاماً تاماً يصعدون في جبل العرقوب ورواسي سعد المطلة على سهل الميديه وعمدة حرجوع، وحرب الشيعة تعمل في أقمينهم وتندحهم دبح الحاج ومات أكثرهم خوفاً وتعباً»⁽¹⁾

أما الشيخ محمد تقي المقية، فيرى أن وقعة كهرمان ينبغي أن تُعدّ من الأيام المشهودة التي يتحدّث عنها التاريخ العربي فإنه لم يحدّثنا التاريخ أن حمصاية بطل يكتسحون عشرين ألفاً من المهاجمين، على أن الروايات وسعين ألفاً على أكثرها، غير أن يوم كهرمان قد انطوى على مثل ذلك⁽²⁾ ويقول أحد المستشرقين عن هذه المعركة إن الحملة التي جلبت الصحار للمتاولة هي حملة الأربعين ألف درري العاملة لحساب الباب العالي، التي حرقت من حائلها تحذوف الرعيه في العنائم والأسلاب والانتشار في بلاد المتأولة التقاهما الشيخ ناصر ثلاثة آلاف فارس يساندتهم بعض الفرق التابعة للشيخ ظاهر. فأوقع بها وشتت شملها عند أول اصطدام إن هذا الانتصار المؤرر جعل اسم المتأولة رهيباً محيماً واصاع على الدروز صفة التفوق التي عرفت عنهم في سوريا⁽³⁾.

(1) تاريخ جبل عامل، ص 129

(2) جبل عامل في التاريخ، المقية، ص 217.

معركة كفر رمان



تناول المؤرخ الفلسطيني ميخايل الصباغ معركة كفر رمان بإيجاز بالغ وحفظ
لعلي الطاهر دوراً فيها فيقول «إن الدرور باتوا قرب كفر رمان فوق القتال وما
مضت ساعة حتى انهزموا أمام علي الطاهر وقبلان وباصيف وتبعتهم خيل الطراد
يقتلون كل من أدركوه منهم».

(1) تاريخ الدرور، المستشرق جان ميشال هكتور دو بارادي، ص 46 - 47.

3 - معركة صيدا

كان الأمير يوسف عند وصوله إلى حمر صيدا قاصداً بلاد المتاولة، قد ترك الشيخ علي جنلاط مع ألف وحمسمائة من غفال لسرور لحماية المدينة، بعد أن هرب واليها، ولكن بعد هزيمة يوسف بركها جنلاط، وعاد إلى بلاده فسقطت في أيدي المتصرين، فدخلها المتاولة وعين طاهر أحد رجاله حاكماً عليها

وأما عثمان باشا الكرجي والي الشام، حين بلغه ما أظهرت المتاولة من العداوة أرسل يعرض إلى الدولة العلية من تملكهم إلى مدينة صيدا فحصر دخط شريف، إلى الأمير يوسف في القيام إلى الشيخ طاهر والمتاولة وأن تكون ميري بيروت ومال ميري الحبل في تلك السنة له خرج عسكرياً⁽¹⁾

بدأت الدولة في التحصير لخصوص معركة حاسمة مع المتاولة وحملاتهم فكانت معركة صيدا الثانية التي أطلق عليها العاملون اسم معركة حارة صيدا أو الحارة وربما عرفها البعض باسم السهل الذي كان أحد مباديها وهو سهل العازية

في هذه الأثناء مات عثمان باشا الكرجي⁽²⁾ فحضر إلى الشام عثمان باشا المصري ساري عسكري على عريسان، فكتب إلى الأمير يوسف يعرفه من قدومه، وأعلن صد الصباح باشا عن طرابلس وحضر مكانه عند الرحمن باشا ثم أرسل عثمان باشا إلى الأمير يوسف يأمره أن يجمع العساكر على بني موال، وأرسل إليه الدالي خليل لحفة طبعه، إلا أنه كان بطلاً في الحرب، وحضر صحبته أحمد الجزار وبصحبتهم ألف خيال، ومعهم مدافع ورنبركات وجباجبا، وفي وصولهم إلى عين السوق التقاهم الأمير يوسف بكل إكرام وجمع عساكر بلاده وساروا جميعاً إلى حصار مدينة صيدا وكانت تنوء العساكر عن العشرين⁽³⁾ الماء⁽⁴⁾

يبدو واضحاً من هذا النص للأمير حيدر بن انتصارات المتاولة هي معركة الحولة وكفرزما وملكهم لمدينة صيدا قد أثارت حق الدولة المهمة، في حربها الروسية. فأتحدث تدابير استثنائية ترمي إلى محاربة ثورة المتاولة بكل قواها، وعينت قائداً عسكرياً على جميع قواتها في الولايات العربية فجمع ما قدر عليه من جيوش الولايات

(1) تاريخ الشهابي، ص 92

(2) والد درويش باشا والي صيدا ومحمد باشا ولي طر بصرى أوصى الأمير يوسف شهاب إلى حكم شمالي لبنان ثم جبل الدروز شخصية عامصة كان لها دور أساسي في تهجير الشيعة من جبل لبنان.

(3) تاريخ الشهابي، ص 92.

الأخرى غير الشام وصيدا، فعاء حليل الوزير، على رأس عسكر حلب، وأحمد الحرّار أحد رجالها المؤثوقين قبل أن تنكب به بلاد الشام ويعين ولياً هيماً بعد، وحجّرتهم بما قدرت عليه من مدافع وبربركات وأمرت رحبها المحصن الأمير يوسف بالإتصمام إلى هذه القوّات وتحرير صيدا من قبضة المتمرّدين.

طلب الثور من يوسف التخلّي عن المعركة فرفض كعادته، عندها زحف الثائرون إلى «سهل الصّاع» وخطّموا قوّاتهم فكن حناهم، لأيمن بقيادة ناصيف ومعه المناولة وألف من المناربة المشاة، وكان عليهم مواجعة الدور والحنّاح الأمير بقيادة علي الظاهر يواجه العقال ويعتمد على المراكب الحربيّة الروسيّة التي تتقدّم على الساحل وفي الوسط تولّى المواجعة علي بك والشيخ طاهر على رأس ثمانماية من المماليك

«وصلت مراكب المسكوب من عكا إلى صيدا لمعاونة الثائرين، وصربت المحاصرين للمدينه من عسكر الدولة ورجال يوسف فانسحبوا إلى سهل العاربية حيث تلاقى الجيشان في 12 حزيران 1772م فصربت عساكر الدولة عساكر المناولة والسفن هي المدافع والبربركات وراح منهم نحو مئة قتيل وهجم الدائي حليل والحرّار على المناولة فانكسر عسكر الدور من خلف الدولة، وكان الدور وهم راجعين يشلحوا من الدولة الذين معهم ولولا الدائي حليل لما سلم من الدور والدولة اساء، وكان قد فعل في تلك الوقعة اعمال تعجز عنها الشجعان فعاد إلى الشام وهو يدم الدور على قبيح أفعالهم، انتصر المناولة وحلماؤهم انصاراً باهراً حر، وسقط من الدور فوق الألف وخمسمائة رجل، وغنموا منهم غنيمة عظيمة⁽³⁾ بعد أن هكّوا الحصار عن صيدا الذي استمرّ 7 ايام، وبقيت صيدا في أيديهم حتى 1775م حين قتل طاهر العمر وحاءها الحرار واليا⁽⁴⁾.

بعد ساعات من المعركة دخل ناصيف إلى صيدا، وقام بريارة القنصلية المرسية وبصحبه أخوه كما جاء في تقرير القنصل نمؤرخ في 28 حزيران 1772م، رارني الشيخ عباس العلي أحد مشايخ المناولة وتبعته ريرة الشيخ ناصيف الذي يفوم بوطيفة الشيخ الكبير بينهم وهو مشهور في كل سوريا ببسائته، جاء ليراني بعد ساعتين أو ثلاثة من المعركة وكان بصحبته أخوه وعدد كبير من أقاربه أو أصدقائه الضخورين بالنصر ويبدو عليهم جميعاً سيمااء المحاربين وقد أهداني كل منهما حصاناً جميلاً،⁽⁴⁾.

(1) تاريخ الشهابي، ص 93

(2) تاريخ الركبي، ص 69

(3) جبل عامل السيف والقلم، حسن لامين، ص 204

(4) D D C T 2, p 241 تقرير امارس نوغويس في 28 حزيران 1772م.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن تقارير القناصل المرسيين في صيدا إلى حكومتهم تساهم في إلقاء الضوء على الكثير من الأحداث التي وقعت في الولاية وحوارها. وقد حصلت هذه التقارير بالمعلومات والتحليل والاستنتاج، للكثير من الوقائع التاريخية المهمة التي تتعرّض للعلاقة المتوترة باستمرار بين السلطات ومتاولة حل عامل. وكذلك لتحركات ناصيف واتصالاته والممارك التي شارك فيها. ومن اليديهي أن علاقات هؤلاء القناصل، سمحت لهم بالإطلاع على أمور قد يكون من المتعذر على المراقب العادي، أو المؤرّخ المعاصر، أن نطلع عليها ومن الأمور التي انفرد بذكرها بعض القناصل أن السلطان العثماني نفسه أو الباب العالي كان يرسل التعليمات إلى ولاته طالباً إليهم معاملة الشيعة بالقسوة والقمع، ولم يكن ذلك تصرفاً يترك لصلاحيات الوالي وطعنه واجتهاده، بل هو أقرب ما يكون إلى سياسة عامة تنتهجها الدولة على أعلى المستويات فقد جاء في تقرير القنصل الفرنسي دو ليه De Lamoignon إلى حكومته بتاريخ 20 آب 1743م، إن السلطان العاصم جداً من رفض المتاولة دفع الضرائب والخصوع لأوامره أمر ولاته بما فيهم سليمان باشا وأمير الدرور بتدمير قصورهم وقلاعهم وجعل جميع السكان طعاماً للسلوك.



إلى جانب ظاهر وناصرين ظهر في مصر علي بك الكبير كحاكم آخر ينزع إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية والتحرّر من تسلّطها وسلطانها، فطرد الوالي العثماني وأمسح عن دفع الضرائب وشاعت سطوته في جميع الأقطار وصرب السكة باسمه في القاهرة وأبعد الوزير القائم باسم الدولة العلية، وتسلم قلعة السلطان، وألبس الصبي وجاقاب في عشيرته،⁽¹⁾ وهذه السمة تطاهرت أمور الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا وعظم اسمه عند الجمهور وكان متمقاً مع مشايخ المتاولة حكام مدينة صور وبلاد بشارة وكان في تلك الأيام أعظمهم جاهاً وأكثرهم مالاً ورجالاً الشيخ ناصيف النصار وكان تحت يده حصون منيعة وأنطال أشداء فطابت لهم الأيام وشمّت عنهم الحكام⁽²⁾.

تحالف الرعاء الثلاثة ودحوا الشام، وسيطروا على صيدا وهزموا ولاية الدولة وعمالها، في أماكن مصلحة وبعد انسحاب أبي الذهب المصافي والعامص من الشام وانتصار ظاهر وناصرين على عثمان باشا لكرجي في الحولة، أرسلوا يبشرا حليفهما

(1) D.D.C T 2, p 77

(2) هي قيادات لعسكر.

(3) عن تاريخ لشهابي (تاريخ تيسير ص 176)

الثالث في مصر، ويشرح أن له حياة صهره أبي الذهب، فأرسل أحد قواده اسماعيل بك لقتال أبي الذهب وخرج مع ضيمه عثمان الظاهر قاصداً عكا حيث التقاه طاهر وباصيف بكل إكرام وتعزير واحترام.

اتفق الحلفاء الثلاثة على مساعدته علي بك، لتمكينه من العودة إلى مصر بعد أن سيطر عليها عدوه أبو الذهب وأعادها إلى حظيرة الدولة العثمانية.

(في 15 ربيع الآخر 1186 هـ. 1772 م) ركب الشيخ حمد العباس والشيخ أبو حمد والشيخ طاهر إلى نحو مصر لحصار يافا واستقاموا في حصارها قرب شهر ونصف⁽¹⁾

كان بين وقعة الباعوات في الحولة (معركة الحولة أو البحرة) ووقعة كصرمان مع الدور خمس يوماً، وبين وقعة كصرمان ووقعة صيدا مع الداني خليل ومعركة الغارية، والبشارية والدور ثمانية أشهر إلا يومين⁽²⁾.

بعد معركة الغارية استمر التحالف في سعيه المشترك لتحقيق أهدافه، فأرسل ناصر أحمد وقائد عسكره محمود النصار المعروف بأبي حمد، وابن عمه حمد العباس إلى حصار يافا لتمهيد الطريق أمام علي بك لاستعادة مصر ولكن هذا التحالف أصيب بصرمة شديدة في معركة الصالحية ضد أبي الذهب حيث قُتل علي بك وهُزل معه صليبة بن طاهر قائد العرسان الدين أرسلهم والده للقتال ضد صهره وهائده السابق محمد أبو الذهب الذي عاد من حديد إلى الشام وبعث لحسابه الحاصل هذه المرة وللإقتصاص من طاهر، بعد أن جمع رحله وأحرته من المتأولة، واسماعيل أمير حاصبيا وسار على أثر علي بك لتحدثه ولكن بلغه خبر معركة الصالحية عند وصوله إلى غزّة فرجع إلى دياره حاسراً

عاد أبو الذهب إلى بلاد الشام، مشمولاً برضى الدولة العثمانية هذه المرة ومباركتها، وأوامرها بالقضاء على لتمرّدين فهو ون كان قادماً من مصر على رأس جيش من ستين ألف مقاتل، لا يختلف من حيث عاقبته وأهدافه عن أي حملة عثمانية يرسلها الباب العالي، لتثبيت سلطته ومعاقبة عصاة، وبشر الدمار، والقتل في مختلف الأرجاء التي يمرّ فيها، فاحتلّ غزّة ثم حاصر يافا، وكانت هي اقطناع ظاهر يحكمها قريبه كريم الأيوب متسلماً من قبله دام الحصار سبب يوماً ثم تملكها فأمر رجاله بنهبها، وأن يعملوا السيف بكل من كان فيها دون فرق أو تمييز، حتى المرياء وأبناء

(1) تاريخ لركبي، ص 70

(2) المصدر السابق ص 68، 69

السبيل والزور، وحمل من رؤوس القتلى كواماً و هراماً ليوقع ثرعب في قلوب جميع حكام البلاد وأهلها حتى لا يقاومه أحد وقد نجح في ذلك، فانتشرت في سائر البلاد حالة من الهلع والرعب ولا سيما في فلسطين وحبش عامل، لارتباطها السابق بعلي بك الكبير عدو أبي الذهب وسيد القديم، وقد وصف الركيبي حالة ثرعب على طريقته المعوية والبسيطة.

وأبو الذهب تعبت من سطوته جميع العجم والعرب، وما من أحد إلا نزل به الهم والكرب، حل بالناس الويل والعطب، وكأن يقول الهرب ثم الهرب، ما دام أبو الذهب لنا بالطلب، بكثرة جنوده وعساكره اللاسيين الصروع ذات الزرد، حتى أنهمذكروا أن الجمال التي تنقل العساكر من مصر إلى عكا ثلاثون ألف جمل غير المراكب التي في البحر.

والشيخ ظاهر فلم يجد له ملجأ إلا هو ولا أولاده، فسأهر إلى عرب الطيار إلى البرية ثم أرسل اليك إلى صمد هدمها وخربها، وخربت صور، ورحل أهلها وعزلت صيدا ووجلت منه أهل طرابلس وهو في عكا⁽¹⁾

أما مبحايل الصباغ وهو أعلم الناس بحسب ظاهر فقد قال: إبداع الشيخ ظاهر ما جرى هي ياها، ورأى قراحي أولاده وكبار رجاله، خاف على نفسه وترك عكا وجعل فيها الدكرلي ومعاربته، وسار بأهل بيته وبعض رجاله، وفهم إبراهيم الصباغ إلى قلعة هوبين، عند الشيخ قبلان ليحتمع هناك بمضايح المتأولة وينتذر معهم، فيما يجب عمله ليدفعوا عن نفوسهم وعن البلاد شر أبي لذهب بالمال والمهادنة أو بالحرب والقتال⁽²⁾

من الواضح، أن مقتل علي بك الكبير وهجوم أبي لذهب واكتساحه المدن الفلسطينية، بحيوشه الهائلة العدة والعدد، ومؤازرة العثمانيين له، والمجازر التي ارتكبها ودخوله عكا مقر طاهر، حتمت على الحلبيين ظاهر وباصيف التشاور في الموقف الواجب اعتماده، لمواجهة الطرف الراهن المستجد، فاجتمع في هوبين عند قبلان وهو الشيخ الحكيم الذي لا يقطع ظاهر أمراً بدون مشورته⁽³⁾ ولا بد أن حظورة الوضع وسقوط المدن وتراخي أولاد ظاهر ورجاله، قد جعلهم يجنحون إلى المفاوضة والمهادنة وينتظار مرور العاصمة التي لا قدرة لهم على مواجعتها، ولم يحسبوا يوماً لها حساباً فم يدر في حلد أحدهم، أن جيشاً مصرياً من ستين ألف جندي حيد التدريب والتسليح، وبمواكبة اسطول بحري سبرحف لقتالهم إلى جانب القوات العثمانية وقد كانوا يأملون بتحالمهم مع علي بك أن تكون هذه القوة إلى

(1) المصدر السابق، ص 77

(2) تليحت عن تاريخه، الرين، ص 548

(3) كما يرى الركيبي.

جانبهم، كما حصل في معركتي الشام والعدنة فقصدت بديهياب حسن التدبير واتباع قواعد الحكمة، أن يحاولوا معالجة الموقف بالثروة والسياسة، وربما بتسويق وتقاوم مع طاهر فاسترصوا باشا الشام بالنقاد والمهيرة، «ساهر الشيخ ناصر أيده الله إلى عكا لمواجهة محمد بك أبو الذهب فأكرمه إكراماً رائداً وكانت شفاعته ماضية عند جنابه هي كل شيء يريد ثم ما لبث قبل أن تمعه ويذهب بعض المؤرخين إلى أن أنا الذهب منع ناصر من معاداة معسكره إلا بعد أن يأتي جميع مشايخ المتأولة لعنده»⁽¹⁾ ولكن موت أبي الذهب المصافي بعد أيام قليلة حال دون معرفة حقيقة بواياها، كما ألقى طلاً من العموص على طبيعة هذه لريادة وعائيتها وما جرى فيها من الرحلين من محادثات، وهل كان هي بيته لنوسط لظاهر أم أنه كان أشبه بالأسير عند أبي الذهب، بانتظار وصوح الموقف العام لجميع المتأولة لعاملين، وكيف ستنى له عند موت مصيحه، أن يهب من معسكره أموالاً لا تحصى، ويعود إلى بلاده رغم كثرة حبود أبي الذهب وأعوانه

وكيف سمح الحيد لناصر يهب ومعسكرهم دون ممانعة؟

وهل كان بصحة ناصر عدد من الرجال يمكنه من يهب أموال لا تحصى، هي وسط جيش كثيف العدد وكامل العدة رغم هذه فائدة الممانعة؟

إن الركنتي المتابع دائماً لتحركاته بكلمي بالقول إن ناصر وقبلاان رجعا من صدهم «سالمين غاممين، وارسدوا سرية قليلة إلى عند السنحوق في صيدا، لاستعادتها من ممثل أبي الذهب طوعاً أو كرهاً، فحاصر فيها وقتل منهم خمسة رجال وقال لهم لن أخرج منها إلا بأمر سلطان»⁽²⁾

حاصر الأسطول العثماني بقيده حسين باشا قبطان عكا، بسعاية أحمد الجزر، واعتماداً على حياة أحمد الديكرلي رئيس المعاربة، وهم صباط الأبراج والأسوار، ورمهاها بالكلل والقنايل فأحدث ابينها تهدم وحجارتها تطير⁽³⁾ فاتفق الشيخ ظاهر وذووه على أن يرحل من عكا إلى قلعة هوبين عند الشيخ قبلان كما فعل قبلان، حين حاصره محمد بك أبو الذهب مع عر مصر فتحضر وخرج بغياله قاصداً هوبين ولكنه

(1) الزين، م. م.، ص 550.

(2) تاريخ الرقيبي، ص 38.

(3) الدر المرصوف في تاريخ الشوف المير ص 59، تاريخ ظاهر العمر ميخائيل الصباغ، (الزين ص 550)

قتل عدراً في الطريق، فلما علم أولاده بمقتله فرّوا إلى جبل عامل، ملتجئين إلى الشيخ ناصيف النصار زعيم المتأولة⁽¹⁾، ثم راسبهم حسن باشا بالرجوع إليه وأمنهم إذا دخلوا في الطاعة، ووعدهم بتقرير الولاية عليهم مكان أبيهم، وهم عثمان وصالح وسعيد وأحمد وعلي، فحذرهم ناصيف أن لا يلقوا دواتهم في هذه الأخطار وأن يتجنبوا أسباب الهلاك، غير أنهم لم يمتثلوا لكلامه بل قاموا بالأمان ودخلوا على حسن باشا ما عدا علي، الذي تمرد وثار فقتل حسن باشا حصين، وقبض على إخوته.

سعى عثمان للحلول مكان أبيه بالتودد إلى حسن باشا والتقرب منه، فجمع إخوته وقاموا جميعاً بزيارته فحذر بهم والى القصر عليهم وأرسلهم إلى القسطنطينية ومعهم أولاد علي، الحسن والحسين⁽²⁾.

استمر علي وحده عاصياً ومقاوماً، وقد ضارده الجرّار طويلاً واشترك ناصيف أحياناً بمطاردته، عملاً بالمقتضيات الإدارية وتقاضد الحكم الإقطاعي، بعد أن أصبح الجرّار والياً على صيدا وعكا ولكن بعض مؤرخين العاملين يرون أن ركوب المتأولة مع عسكر الجرّار لمحاربة علي الظاهر، لا يعني أنهم حاربوه فعلاً فإن هناك من القرائن ما يدل على أن مشايخ المتأولة لم يركبوا حاديين هي معاديتهم له، وكانوا يفصون له سرّاً بتحركات الجرّار ووقوع الهجوم. ليسعد ويأخذ حذره ولما استطاع محمد باشا العظم أن يبال منه عدراً وعيلة، أخذوا رأسه، وبعد التواضع أحضر ناصيف جثته ودونه هي عياناً⁽³⁾.

إلى جانب التحالف المصيري الذي أقامه ناصيف مع طاهر، ثم لفترة قصيرة مع علي بك الكبير، حاول في الوقت نفسه أن يؤسس شبكة من العلاقات الواسعة والمتشعبة مع أكبر عدد ممكن من الرعماء ولحكّام في لبنان وبلاد الشام، بعد أن رهص يوسف التجاوب مع مبادراته ومساعدته لضمّه إلى التحالف بأيّ ثمن قبل أن ترغم موارد القوى الأمير منصور على التّخّي ولاعتزال في بيروت، مترقياً فرصة تسمح له بالعودة للمشاركة بالأحداث، وقد ساعدته اتصالاته الواسعة والمستمرّة على تكوين أصدقاء عديدين، ولطالما ترحمت هذه الصداقة إلى مواقف اجتماعية وسياسية عميقة وفاعلة، جعلت منه لاعباً مهماً حتى في سياسة الشوف المحليّة فقد كان كبار زعماء الشروز من

(1) الدر المرصوف المسير، ص 59

(2) عيسى إسكندر المعلوف (تاريخ تبيين، م م ص 236) (يلبحث عن تاريخ م م م ص 551)

(3) تاريخ الركب، ص 82

أصدقائه، وربما كما يقول لفصل الفرنسي من مؤيديه⁽¹⁾ ومن بينهم علي جنبلاط الذي تبادل الزيارات معه أكثر من مرة، وشرك في مفاوضات سياسية مهمة في أكثر من منعطف مصيري، وقد استمرت هذه لعلاقة رغم أن التطورات، حثمت عليهما أحياناً أن يتقابل في ساحة القتال في معسكرين متقاتلين. وهذا ما جعل بعض المؤرخين يشككون في الموقف الحقيقي غير العلني للجنبلاطيين أثناء الحرب التي دارت بين ناصر ويوسف في صيد والبطية، وعن مبلغ حماسه للقتال في معركة كفر رمان⁽²⁾، ولما مات الجنبلاطي ذهب جميع مشايخ جبل عامل إلى جبل الدروز للتمرية، كما أرسل ناصر ولده عقلاً لزيارة أولاد لمتوق متابعة للعلاقات واستمراراً للتواصل، فلما غضب يوسف والعزّار عليهم قصدوا دياره، وطلبوا منه التوسط مع العزّار لإنهاء الخلاف الحاصل⁽³⁾. كما أن الشيخ كلب النكدي حرّ من دبر القمر إلى جبل عامل، وأقام عند ناصر لسنوات عدّة⁽⁴⁾ كما أنه احتفظ بعلاقات متينة مع الأمراء الشهابيين، فتحالف مع اسماعيل أمير وادي التيم، كما طلب الأميران سيّد أحمد وأفندي مساعدته في النزاع مع أحبيهما يوسف، وربما هذا ما دفع يوسف إلى استرضائهما، وإعادة أملاكهما حشّة لإصطدام ناصر أو إثارة عصه، حتى أصبح الرعيم الشيعي، حامياً للعديد من اللاهثين والهاربين والمسلمين من جميع المناطق والطوائف ومن أمراء الحرافشة اللذين قصدوا حماه، الأمير محمد الذي أقام فترة في شعور، حتى أعاده ناصر إلى بلاده مصحوباً بمرسانه ورجاله، والأمير جيدر الذي أقام في عيناتا، ثم في صور، وقد عاد الأميران فيما بعد إلى سابق موقعهما في إماره بعلبك، واثركية الشيمة في جبل لبنان، انتقل الكثير من الحماديين إلى مختلف أحياء جبل عامل، فساهم جميع سكانه حكماً وأهلياً في حسن استقبالهم، والقيام بأعباء هذا الاستقبال فأقام بعضهم في جبل عامل وقائمو مع ناصر في مواقع مختلفة وسقط منهم قتلى عديدون⁽⁵⁾.

(1) D.D.C. T 2, p 150 مشار إليه سابقاً

(2) بشكك المؤرخون الشوفيون في دور علي جنبلاط في معركة كفر رمان.

(3) D.D.C. T 2, p 359 الترجمان الثاني في تنصيصه الفرنسيه في صيدا رينار Renard في 11 نيسان 1781م.

(4) الإمارة الشهابية والإقطاعيون الدروز سيّد نكد، ص 151

(5) كما حصل في معركة أنصار ومعركة البصرة

يوسف وناصيف

يختلف ناصيف عن غيره من لرعماء لمحبيين في عصره، أن مقاييس التحالف والتعاون والودّ مع غيره من الحكّام الآخرين، لا تقتصر على تجاسد المصالح والأمزجة الشخصيّة وهي المعايير التي كانت سائدة حينها، وإنما تتعلّق بالمواقف السياسيّة المجرّدة، ولا سيما مع السلطة العثمانيّة الحاكمة. فـيوسف الشهابي كان العدوّ المحارب الذي طالما وصع موارده وإمكانيّته في خدمة الولاة العثمانيين، وسخر كلّ قوّته العسكريّة لتنفيذ أوامرههم بالإعارة على حلّ عامل أو غيره من المناطق، للمساهمة في إحصاع المتمرّدين والمتردّين والثّريين بوجه التسلّط العثماني، الذي كانت مقاومته الشاغل الأساسيّ لـناصيف طيلة سنوات كثيرة. فلما قصّت الظروف أن يعضب والي الشام الحديّد عثمان باشا المصري على يوسف ويصلّ عصبه إلى حدّ تحريد حملة عسكريّة لتأديسه وطرده، سارع ناصيف إلى تناسي كلّ مواقف خصمه السابقة وما أرقق من دماء عاملية في خدمة الولاة العثمانيين وامتناعاً لأوامرهم، وهبّ إلى نحدثه هي البقاع



هي عام 1773م وقع الإحتلاف بين عثمان باشا والأمر يوسف فحضر الناشا عسكرياً وخرج إلى البقاع ونصب خيامه في ثرائياس وكان عسكريه ينوف من خمسة عشر ألف، فجمع يوسف عسكرياً لبلاد ووجه إلى المعينة، وحدث جملة مواقع بين الفريقين، فأرسل يوسف إلى ناصيف النصار أن يحضر لإسعافه، فحضر بخيل وبني متوال، ولما علم عثمان باشا بقدوم ناصيف خاف من اجتماعهما عليه. فلما وصل ناصيف إلى القرعون هرب عثمان في الليل بعساكره، وفات أكثر الوطاق والمدافع وأرسل يوسف إلى ناصيف يدعوه إليه فأجاب أن الحاجة قد قصيت وفي مهمات أبادر إليها ورجع إلى بلاده وعاد يوسف إلى دير القمر ومطاب له الأيام وصار بينه وبين ناصيف والمتاولة محبة عظيمة،

إنّ يوسف هو عدوّ ناصيف طالما هو في معسكر العثمانيين يقاتل معهم ولخصائهم. أما عندما تقصي مصالحه بمواجعتهم فإن ناصيفاً لا يتوانى عن الإستجابة لدعوته إلى قتال والي الشام، فهو لا يموت هذه المناسبة التي تتيح له قتال ولاة الدولة بصرف النظر عن أشخاصهم وأسمائهم رغم لعداوة لقديمة والتاريخ الدامي بين الرجلين مادام

يوسف قد نقل سيمه من خدمة العثمانيين إلى قتالهم فكان ذلك كافياً لتبصير بين الأمير يوسف وبني متوال محبة عظيمة وتزول من بينهم جميع الأحقاد القديمة ويأخذوا على بعضهم البعض اليهود والموشيق⁽¹⁾

لا بدّ في مجال دراسة دلالات هذه الواقعة، من الإشارة إلى عدّة أمور، منها أن ناصيباً بعد أن أدّى مهمته وعزّ من أمامه ولي الشام رفض أن يقابل يوسف محتجاً بصيق الوقت، وبأن ما يهمّه هو قضاء الحاجة التي جاء من أجلها لا غير ذلك من المراسم الاجتماعية وقد يكون في ذلك إشارة إلى أنه لا يزال في نفسه بقية من تحفظ تجاه يوسف على الصعيد الشخصي وأن ما دفعه إلى القدوم هو رغبته في انهرام الوالي، وبعدها لا يهتم لأمر آخر سيما وأن المؤرّح لشهابي يؤكد أن عسكر يوسف لم يكن حاصراً وقت هروب وانهمزام الجيش لعثماني حيث أشار إلى وصوله في اليوم التالي وانهم أخذوا ما تركه ناصيب وعسكره من الأسلاب⁽²⁾

والأمر الآخر أن معمرات الأمور في برائنا من يدّ على أن ناصيباً الذي لم يدخل معركة حتى حينه إلا وريحها، قد أحرر من "الصيت العسكري والسمعة القتالية، ما جعل جيشاً كبيراً كجيش والي الشام يمرّ من ساحه المعركة عند وصوله، ولكأن الهزيمة واقعة حتماً دور أي صدام بين الجيشين لأن مجرد حضور ناصيب كافياً لهزيمة جيش من خمسة عشر ألف مقاتل معززين بمكانة الدولة العثمانية وسلطانها وهذا ما جعل أحد المؤرّحين العاملين المحدثين يعلّق على ما سبق فيقول: "إن ناصيب لم يدخل معركة وخسرها عند خمسين سنة، وأصبح اسمه في بز الشام كاسم عنزة بن شداد في الجزيرة العربية قبل الإسلام⁽³⁾"

لن تكون حملة ناصيب إلى البقاع وعزر والي دمشق من أمامه، هي المرّة الوحيدة التي يُنقد فيها يوسف من مصير مجهول بل سيجرّد حملة أخرى إلى الشوف نفسه ليعيده إلى منصبه في دير الزمر بعد أن طرده الدرور وبأدوا بشقيقه سيّد أحمد حاكماً عليهم، فهرب مستغيثاً بالجرّار فأعاده وأمده بعسكر وسار ناصيب إلى جبل الدرور على رأس مقاتليه لنصرته.

(1) برهة الزمان، الشهابي ص 978

(2) تاريخ بيبين، حسن صالح، ص 185

(3) المصدر السابق، ص 181 كذلك كان عدو جهجاه الحرفوشي بهرم أمامه قبل لقائه خوفاً ونهيماً بسبب شهرته في القتال

وقد وصف الركيني هذه الحملة الشيعية وأسهب في الإفصاح عن مشاعره العدائية الملتهبة ضدّ الدرور، والتي لا بدّ أنها تمكّن مشاعر أنباء جيله حميماً وهو أفضل من يعتر عنها بعمويّه ويمصّع عما تركته عارات حيدر وملحم ويوسف الشهابيين، من أحقاد دهيئة ورعية في الثأر عند جمهور العاملين، كما تظهر تعلّقهم بناصيف والتفافهم حوله وأسرهم به، وفي هذه السنة، يوم السبت، في الرابع عشر من ربيع الأول، (1195هـ - 1781م) ركب الشيخ ناصيف، والشيخ حمد العباس، مع أحمد باشا الحزار ولأمير يوسف بن الشهاب، على الشوف. وكان الركوب في أول برد العجور، في سابع وعشرين شباط،

ثم انتهى وصول عسكر المتأولّه مع الشيخ ناصيف، أيده الله وخلده وأيدّ سعده وصل العسكر إلى جزين، فحين وصل لخر إلى أهالي الشوف بوصول عسكر الدين قلوبهم بحب الله مشعوف رفق في الشوف ضراب البين، ونادوا بأجمعهم «الهرب من أين إلى أين»،^١

ووقع فيهم الرحيل والشتات، وخرحت المخدرات هي البراري هائمات، والرجل يصر من أسيه وأمه وأخيه، وصاحبته، وسيه، خوفاً من المية تلتقيه،^٢

إلى جانب المحر والإعتزاز بشر دخول العسكر العاملي إلى الشوف مشاعر النفس بما أصاب حيل الدرور على يد ناصيف وصحبته هيأتي سرد المؤرّج العاطفي أقرب إلى رحيّة حماسيّة تظهر عما يمتعن في الصدور من علّ، وما هي القلوب من أحقاد، حلّمتها أجيال من العرواب والصد مات والحروب

«وأما أصحاب الكلام من أكابر الشوف، من جملة كلامهم إنهم يقولون: «الله، هذه المصيبة التي شملتنا! شهد الله ورسوله، والنبي شعيب، أن مرتبتنا ما تحت منها، ولا عيب، إنها إن وصعت مرتبتنا تحت مرتبة الثور الذي حامل السبع أراصي على قرونة».

ثم بعد ذلك، رجعت العساكر بأمر جناب الشيخ ناصيف، لا زالت شمس سعده بالإشراق طالعة، ورايات محدة بالإقبال ساطعة، من جزين إلى بلاد بشارة،

(١) تاريخ الركيني، ص 95

وركبت على درور الحملة والعار، وما دخل بلادهم إلى الديار (دير القمر)، وخذلهم، إلا ناصريف باشا في الزمن الأول في سنة 1123 هـ وأخذ امرأة الأمير حيدر أم الأمير ملحم وهي هذا الوقت دخلها الشيخ ناصريف، دام مجده، وكانت أصحاب العقل تظن أن الباشوات ما بقدرين عليها، فوَقعت عليهم الخدلة والخمول، وألقى الله في قلوبهم الرعب وشملتهم الدنة والمسكة. وكان قائلهم يقول: «والله، وسندي شعيب، إن مثلنا مع بني متوال، كمثل السمرة مع الجراد، إذا حضر واحد منهم يهرب منه ألف»⁽¹⁾

بعد انتهاء المعارك يورد المؤرخ بعضه كتاباً أرسله يوسف إلى ناصريف، حامداً وراحيا ومتملقاً: «وأما حصرة جناب الأمير يوسف، انتقل إلى المخاضة، ويعدوان، وجعل يهدم الدور والبنائات، وأرسل إلى جناب حضرة الشيخ ناصريف، المؤيد، الموفق، المسدد، ويطلب من الله العظيم، وشعيب النبي الكريم، أن لا يعدونا صاحب الهمة العلية، والمصر الزكية للرضية، أن رأيتم لائقاً هي عبرنا غير مأمور على جنابكم الشريف أن تكفوا المسكر عن القتل والنهب والحريق لأن البلاد بلادكم والرعة رعينكم وأمر جنابكم ما من علينا في الرجاء والصفح ورهيقنا ورهيق جنابكم فرد رهنق»⁽²⁾

«وإن شاء الله عز شأنه الطريق فرد طريق، لأن غيرتكم ورأيكم السديد الذي بدا معنا، وبدلتموه لدينا، ما سبفكم عليه لا أح ولا صديق، فيحب علينا حمظه على الدوام على ممر الدهور والأيام».

ناصريف والجزائر

بعد نهاية ظاهري العمر وبرور الجزائر كأهم وأهمى ممثلي السلطة العثمانية في بلاد الشام، أصبحت نهاية ناصريف الأساسيّة معناه وقت فقط رجع ما عانتها بلاد الشام من مساوي، لحكام والولاة فهي لم تعرف طيلة تاريخها العثماني والياً يماثل الجزائر دباه وحسة ووحشية وعدراً وتحزداً من جميع الصفات

(1) المصدر السابق، ص 97

(2) تاريخ التركيني، ص 95.

الإنسانية. فكان يحسد الحاكم الشرير بأحط عيوبه وقبائح رذائله رغم كل ما خبرته من مظالم الولاة العثمانيين وجورهم ومساسدهم

من العسير على المؤرخ المدقق لإحاطة بالأسباب والظروف والخلفيات التي دعت يوسف شهاب، والجماعة التي تسير، إلى لتقاط هذه الشريحة المحهول الأصل، والذي لا يعرف أحد عن ماضيه شيئاً، سوى أنه تعمّد السكن في إحدى مقاهي دير القمر التي يطل عليها بعض طيقات مقعد يوسف حيث اعتاد لجلوس فلما سأل عنه قيل له: إنه ضريب من الأتراك يتكلم لغة مصر وليس عليه من الكسوة ما يقبىه المرد فقد باع جميع حوائجه حتى الجبة التي عليه، باعها أمس ليشتري لنفسه طعاماً فصحه كاخيته بقبوله لديه وربما يلزم لخدمات خصوصية فاستدعاه الأمير وعرف منه أنه عرض نفسه للخدمة عند الزيادة والمتاولة فرفض، فقبله الأمير وفوض له الأحكام في مدينة بيروت^(١).

لا يمكن الجرم بمهنية الخدمات الخصوصية لبي اقتراحها الكاحية وهل تشمل الاعتيالات السرية وهي المهنة التي أتمها واحترفها الحرّار في مستهل حياته كما طهر لاحقاً وظالما مارسها يوسف حتى مع أقرب المقربين إليه لأنه ليس من المألوف في تقاليد الحكم أن نفوض أحكام المدن إلى مسترد محهول، كم يسبق له القيام بأي عمل إداري أو عسكري إلا إذا أدى خدمات ذات طبيعة ذهنية تخرج عن نطاق المهام المألوفة

أصبح الحرّار حاكماً على بيروت مما مكّنه من تقديم مشروع إلى الباب العالي يرمي إلى القضاء على كل حكم محلي في ولاية صيدا مقابل توليته عليها، وقد عرض مشروعه على أحد مأموري الدولة متسائلاً لماذا الدولة مرتصية بأن وريثها والي الإيالة الواسعة الأنحاء يبقى محصوراً داخل مدينة صيدا ولا يحكم من الأرض سوى ثلاثة أميال طولاً من مصب نهر الأولي إلى ساقية سابيق وعرضاً من شاطئ البحر إلى حدود قرية الهلالية التابعة لمان وأما جميع الإيالة فيتمتع رؤساء العشائر وأتباعهم من خيراتها،

(١) الجواب على اقتراح الأتراك، ميخائيل مشافة ص 5 والمؤرخ ولد ونشأ في دير القمر وعمل في خدمة انشعبيين وله من ثقافته وعلاقاته الواسعة ما يجعله مصداقاً يركن إليه في أحبار الحرّار وغيره من عمال الدولة في هذه الفترة ولا شك أن أصل الحرّار وشأنه يكتسبهما العموص والمتواتر عن سيرة هذا البشاق في أنه كان حلاقاً في اسطنبول ثم سافر إلى مصر حيث عمل في ديوان علي بك الكبير وهناك اكتسب لقبه (الحرّار) ثم رجع إلى الأسنة ومنها جاء إلى حلب وصار يتحول في بلاد الشام ودخل في خدمة بعض ولاتها فأرسل مع قوة صغيرة إلى بيروت سنة 1773م ثم دخل في خدمة الإدارة العثمانية في الروميلى وسحق دقرة حصار صاحبها نريخ فليستف من عادل مدع ص 77 - 78

فأحايه الأمور أن قهر العشائر يلزمه حروب ومصاريب كثيرة، والنتيجة هي ذلك لا تواري التعب والأكلاف فافترج الجزار وإذا كانت تنعم الدولة على عبدها هذا بمنصب إيالة صيدا فأقوم بهذا العمل ولا أكنمها شيئاً،⁽¹⁾ وهذا ما حصل، فأصبح الجزار والياً على صيدا وصار سيده الأمير يوسف تحت أمره هما هو موقف ناصر النصار؟

كان يوسف يحكم مقاطعاته بمرسوم من ولي صيدا، فكان تثبيتته في إمارة الشوف أو طرده منها يتوقفان على صدور منشور من الحرّر، فاستغل الشياقي هذا الواقع لاستزار أكبر قدر ممكن من المال بتعبس أحريص مكانه، فلا يجد يوسف أمامه إلا الإرتواء بين يديه واسترصائه بمبلغ أكبر من المال لإعادته، وقد كرّر اللعبة مرّات عديدة حتى انتهى مشوقاً على باب عكا

إن هذه الطريقة التي مارسها الحرّار لسدّ نهجه إلى المال لا تحدي مع ناصر النصار، لأن موقعه لا يتأثر سلباً أو إيجاباً بمنشور أو بإرادته تصدر عن الحرّار أو غيره من الولاة، بل هو إفراد ناتج عن حالة شخصيّة واجتماعيّة وشميّة وعشائريّة، تحمل من المستحيل تغييره بأيّ تدبير إداري، حتى ولو صدر عن السلطان نفسه⁽²⁾، إلا إذا اصررت بقوة كاهية لتحقيقه وتبدّل الواقع الراسخ بالأساليب العسكريّة وحدها وهذا أمر ليس من السهل اعتماده دائماً ودونه صعوبات وأكلاف وحسابات لا بدّ من مراعاتها، ولن يكون اعتماد هذا الخيار الشاق والمكلف حكيماً ومفيداً وحاسماً في جميع الظروف

كانت شخصيّة ناصر وتاريخه العسكري والسياسي والتماف العامليين حوله، وموقع عشيرته، وابشار قواته هي حصون وقلاع متناعدة ومحكمة، تحمل من تكبير الحرّار بإراحتة أو القضاء عليه أمراً مستبعداً هي هذه المثرة المبكرة من ولايته على الأقل وقد كان التشابه بين شخصيتي طاهر وعمر وناصر النصار قد لعب دوراً أساسياً في تسهيل التحالف بينهما وتوثيقه وصموده، فإن التناهر بين شخصيتي الحرّار وناصر لا يمكن إلا أن يعكس آثاره على العلاقة بينهما، التي لابد أنها كانت مشحونة بالجفاء والتوتر منذ اللحظة الأولى لتي التقى فيها، أو تقاطعت مسيرتهما في أي محال كان. وإذا كانت قوة ناصر وموقعه وشخصيته قد أحرزت الحرّار على إحصاء بوابه الحقيقة وتأجيلها، بانتظار الظروف المناسبة التي تسمح له بإظهار ما يبيت من عدو وعداء،

(1) المصدر السابق ص 7

(2) كان ناصر وباقي مشايخ حلّ العامل برقصون حياً تثبتهم على مقاطعاتهم بمقود الوالي. وهذا سبب متاعب جمه للإدارة العثمانية وكثيراً ما أدى إلى صدامات بين الطرفين راجع الحكم لسلطاني دفتر المهمة سجل 77 156

هنا الواقع السياسي العام قد مرص على ناصيف أيضاً التروّي في المبادرة إلى تصحير النزاع عسكرياً، أو إعلان عصيانه وتمردّه كما فعل يوم كانت الأوضاع مناسبة لذلك.

لقد قُتل حليفه طاهر وتشرّد أولاده و بعدم الأمل في دعم من خارج الشام، أكان مصرياً بعد قتل علي بك أو أحمياً، بعد سحب الأسطول الروسي، والوالي العثماني الحالي فاق كل أسلحه في الشرسة والمكر، والأهم من ذلك في طول مدّة ولايته فلم تكن تتجاوز مدّة الولاية السابقين سنوات قليلة ينقلون بعدها إلى مكان آخر بينما الوالي الحالي يتصرّف وكأنه باق في منصبه إلى الأبد، هيئته إلى عكا يحصنها ويعزّز دفاعاتها، ويصيف إلى عساكره فرقاً مستحدثة، لكل ذلك تقضي الحكمة بأن يجنح ناصيف إلى المهادنة، وتقوم بينه وبين الحرّار علاقات حذرة، ففي ليلة العشرين من صفر 1190 هـ - 29 أذار 1776 م جاء الحرّار إلى صور وبات ليلته فيها عند الشيخ حمد العباس "قريب ناصيف وحاكم صور، وفي ثاني ربيع الأول 11 نيسان جاء ناصيف إلى صور وتقابل الرحلان في ظروف غير واضحة تماماً حول ماهية هذا الاجتماع، وهل كان من ترسب حمد العباس لترطيب الأخواء بينهما أم به لقاء شكلي لا يحتمل أي مصموم سياسي معدّة ولكن ما يثير الاهتمام أنه بعد خمسة أيام من الاجتماع المذكور حصلت معركة بين الحرّار وعلي الطاهر، أعقبها وقائع أخرى شارك فيها هرسان ناصيف وقد كان على الطاهر يشكل عقبة مهمة أمام محططات الحرّار فهو كأبيه محارب شجاع وقائد مجرب انتصر في معارك عديدة ولكن الحرّار استطاع في النهاية القضاء عليه بعد إبعاد إخوانه ومساعدة والي الشام محمد الأعظم فهل كان اجتماع صور محاولة خداع قام بها الحرّار لطمأنية ناصيف، ومحاولة كسب تأييده أو على الأقل تحييده في الصراع الدائر مع علي الطاهر خوفاً من نصمامه إليه أو دعمه ومساعدته؟ مما يجعل من القضاء على الاثنين عملية عسيرة وغير مؤكّدة النتائج، إن هذا ما يمكن استنتاجه قياساً على أساليب الحرّار في الخداع ولتي استعملها مع أولاد طاهر منذ البداية فأوقع بينهم، واستمال أخوة علي ببدل نعوذ ونعوذ بإعادتهم إلى ما كان عليه والدهم وبالفعل فقد اعترف لهم بعض السلطة في مرحلة ما، قبل أن يتمكن من استدراجهم إلى حيث تمكّن من العذر بهم وتسليمهم إلى حسن باشا، الذي قتل بعضهم وأرسل الباقين إلى عاصمة السطنة إلا أنه من الواضح أن ناصيفاً بقي على حذره الشديد من عذر الحرّار وإن بادله طاهرياً بعض المحاملة بالاشتراك معه في بعض الحملات الثانوية، فكان لا يأمن من الاجتماع به إلا بعد اتحاد كل الدايير التي يؤمن له

(1) ورث أباه في حكم صور 1773 م ومات في سجن الحرّار 1783 م

الحماية. ربما من أجل ذلك لم يجتمع به إلا هي صور وهي تحت سلطته وبها بن عمه ورحاله. فالجزائر سيكون فيها تحت رحمته وليس العكس فلما دعاه مع غيره من المشايخ لموافاته إلى عكا رفض الجميع ذلك معللين أنهم يخافون أن يعذب بهم كما عذب بأولاد طاهر. وحل الأمر بذهاب قبلاز وحده إلى عكا بالنيابة عن الجميع، متوسطاً ومماوصاً وعاد باتفاق بين الطرفين 1776م أحل الصدام بينهما ولكن إلى حين .

كان هذا الإتفاق ينم عما يمكن أن نسميه توازن الرعب بين المزيقيين، فقد تنازل كل منهما عن بعض مواقفه ليتقيا في منتصف لطريق الخوف كل هريق من الآخر، ورغبته بتأجيل الصدام إلى وقت ربما تكون فيه الظروف مناسبة له أكثر في مستقبل قريب

نص الإتفاق على أن ناصباً ورعماً حراً عامل لا يقاتلون مع الحرّ ولا يقاتلونه بل يقعون على الحياد بين المتنازعين على السود في المنطقة كما تمهدوا بدفع أموال السلطان بصورة منتظمة ولكن العتأخر منها يقسط لأحال معلومة ومحدّده⁽¹⁾ كما أنهم لا يشتركون في الحملة على الدرور، ولكنهم يسمحون للقوات المحاربة بالمرور من ديارهم دون أن تعرّض للمرقلة أو النصفي⁽²⁾

كان عند المتناولة من الحيرة والنداب مع الولاة العثمانيين، ما جعلهم يحادرون من الحرّار ويخوفون من عدده ومكره ونواياه وقد كانوا يدركون أن دورهم سيأتي بعد انقضاء على أولاد طاهر، خصوصاً وأن حاكم حلّ درور نهالك على الخصوع له، والحصول على رضاه ويميز الأب ابيموس ركار عن حقيقة هواجس المتناولة وموقفهم وهو معاصر لهذه الأحداث ومرافق لها فيقول سنة 1776م، «نظر المتناولة هذه الأفعال من الدولة، قالوا في بصوتهم ليس بعد مسك أولاد طاهر إلا نحن وهكذا عدلوا عن (التمكير في) مساعدة الدولة. وساروا إلى بلادهم وجيشوا بعساكرهم واستعدوا لملاطشة الدولة إن هي قارشتهم. فالدولة فأتت على بلادهم إلى جسر الأولي. وما كُتبت أحداً من المتناولة، وجعلوا وطاق العساكر على لجسر والصيدان والجزائر حصراً إلى صيدا وغلايينهم (ومراكبهم) منها في صيدا ومنها على ميناء بيروت، واستعدوا لركبة الحبل واستعاثوا لذلك (بالمناولة) وما أجابوهم. لأنهم قالوا في بعضهم ، ساعدناهم على الدرور لا يبقى هي السلم سوانا وبعد أن ينتهوا من

(1) السيف والعلم، حسن لأمير، ص 311

(2) يشمل التمهّد أن يدفعوا فوراً (أيلول 1776م) 150 كيساً و150 كيساً أخرى خلال

سبعة أشهر وثلاثية كيس سنة 1777م

(3) السيف والعلم، م، م، ص 311 ويلاحظ أن العامين تمكنوا حتى هذا التاريخ من الحفاظ على بعض استقلاليتهم عن والي عكا

السرور يرجعوا علينا، ولأجل ذلك ما طابقوا معهم»⁽¹⁾.

في السنوات اللاحقة كان ميراث القوى يميل بسرعة لصالح الجزّار فقد رقي إلى رتبة الدليل الثالث، وامتلات حرثه بالمدل ومعسكرته بالرجال، وفرص رهيته وسطوته على رعاياه، وقد قصى على علي لظاهر، وتحلّص من إحقته وأصبح أمير الشوف ألعوبة من يديه، فلم يبق سوى ناصيف حائلاً دون تحقيق مشاريعه المرسومة، وعائفاً أمام شهوته للسلطة المطلقة ونهب جبل عامل وبترازه على هواه كما فعل بياقي أقسام الولاية. والوهاء بما تعهد به للدولة عند تعيينه

في الجهة المقابلة لم تكن بعض الأمور تسير في مصلحة ناصيف، فقد حسر جميع حلمائه وحصعت البلاد المحيطة به لسلطة الحرّ الذي لم يعد يتصرف كوال عثمانى مثل الدين اعتاد ناصيف على التعامل معهم سلباً أو حرباً، بل هو أقرب إلى حاكم مركزي، أسس إقطاعية شاسعة شبه مدوّنة موحّدة مرهوبة الحجاب، وقد حسر ناصيف أهمّ قادته الذين طالما حاصوا المعارك إلى جانبهم وأهمهم أخوه محمود، وأبو حمدة وابن أخيه قاسم المراد وقد قتل الإثنان في إحدى المعارك مع العربان (1193هـ - 1779م) كما كان عباس المحمد حاكم صور قد مات قبل ذلك (1187هـ - 1773م) كما مات شيخ المناكرة علي المنصور في نفس العام وأعتقه شيخ الصعية علي التمارس 1779م وهم الدين طالما كانوا إلى جانبه في الأبحم الصعية وحاصوا معه أهم معاركه⁽²⁾

«اعتبر الحرّار أن الفرصة المناسبة لعزو جبل عامل قد بدأت، فساق عليه جنده وكر عليه الكرة بعد الكرة، فلم يتسنّ له الفوز، وكان كلّ مرّة يرجع خائباً»⁽³⁾

قرّر الحرّار الاستيلاء على جبل عامل كما قرّر ناصيف الدفاع عنه مهما كان الثمن

(1) فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، علي الرين، ص 40
(2) فقد ناصيف اثنين من «ولاده على الأقل في حياته فيبناءً على مقولة أحد المعمرين من أهالي عبادنا قام بحث عاملي بالتفقيب بين أطلال جامع قديم في محفل سم فوجد صريعين متجاورين دارسين نقش على بلاطة احدهما تاريخ جاء فيه

شرف المية في لقرع وحسبه	نسب الشهادة إليها بكنية
نال السعادة في التميم فحاصوا	مكن لحدان محاوراً لأخيه (1161 هـ)
وعلى انبلاطة الأخرى	
نجل نصار المدي	مات وأعلق عراء
مات عمر المحدث أرح	طبيب الله ثراء (1164 هـ)
(عن رسالة ليل شهادة الكفاءة، ناصيف لنصار، محمد سعيد سام)	
تاريخ صفا ص 137.	

وربما كانت معركة «الزيب» التي استمرت ساعتين وقتل فيها ستة من جنود الجرار، هي من أول التحرشات التي بدأ يقوم فيها استعداداً لمعركة تقرر نهاية عدوّه. فقد صدر فرمان سلطاني إلى والي صيدا يأمره بالسير على جبل عامل، معللاً الأسباب بامتناع سكانه عن دفع الميري وتمردهم أمام ظاهر ومشاركتهم في الحملات على والي الشام، والإستيلاء على أماكن متعددة من ولاية صيدا مثل شما عمرو وحيما وعكا⁽¹⁾.

«ولما رأى ناصيف أن الأمور تتجه إلى الأسوأ، امتنع مشايخ جبل عامل عن دفع الأموال المقررة، وصاروا يعترضون القوافل التحريية التي تمر في بلادهم في طريقها إلى هلسطين، ورادب التحرشات والمواجهات. وجار الحزار على المتاولة فصافت صدورهم من شدة الظلم والإهانة فاجتمع مشايخهم واتفقوا على عصاوة الجزار وتصلبوا في المقاومة وحصل جملة وقائع⁽²⁾ حتى حرت معركة يارون التي استشهد فيها ناصيف ونقلت جبل عامل من حال إلى حال، وأدخلت المتاولة في صق مظلم من الآلام والمعاناة لا تزال حية في وجدان العاملين حتى اليوم

نكبة جبل عامل ونهاية ناصيف

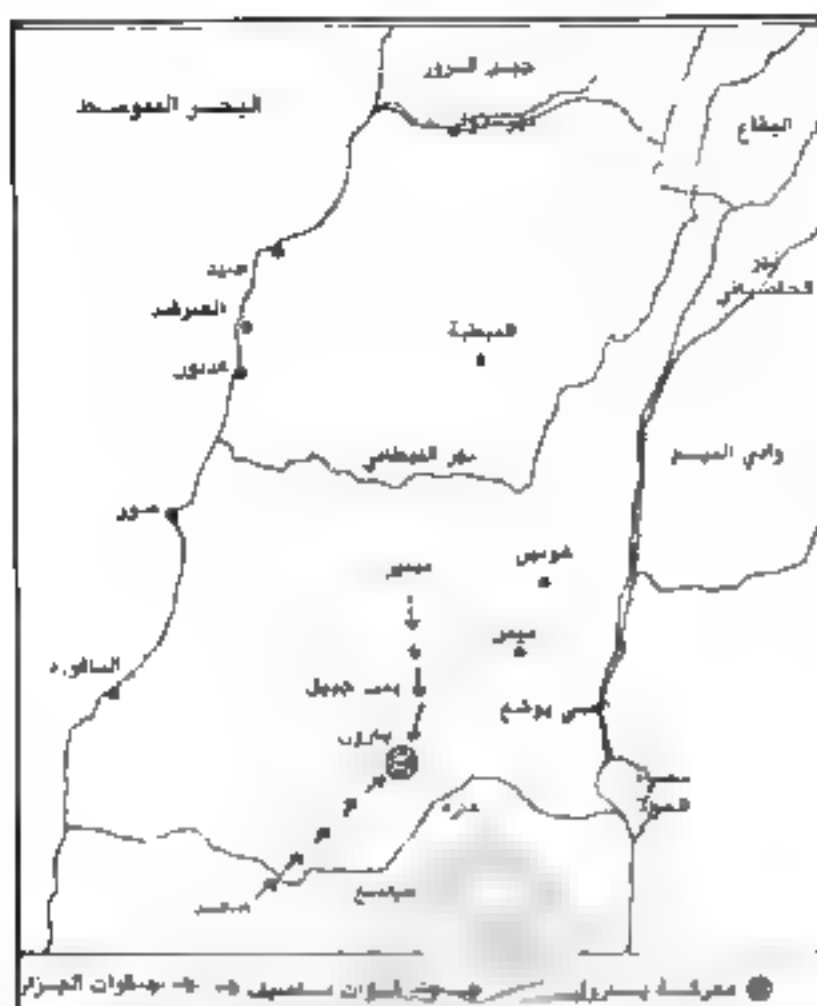
قد تكون معركة يارون أهم المعارك التي حرت في جبل عامل على امتداد العهد العثماني برمته لما حلته من آثار مفضلة ومدمرة، طاولت المكان والأرض والعمران وقصب على كثير من معالم اردھاره العلمي والاجتماعي والاقتصادي التي مترته عن البلاد المجاورة، طيلة القرون السابقة، وشردت قسماً كبيراً من أهله في مختلف بقاع الأرض، وهام الحرون في الأحراش والمعاور ولحبال لسنين عديدة، وبيع أحراره عبيداً في سوق النعاسة، وحربت مديته وقراء، ودكت حصونه وقلاع، ولحق بمشايخه وأعيانه وعلمائه من الظلم والفساد والإدلال ما غير طبيعته وتركيبته وصاغت كنوزه وطمس تراثه ولم يعد أبداً بعدها كما كان.

«وصار أهله في هذه الفترة لا يعدون أكثر من خمسمائة عائلة هاجروا إلى الجبل الشرقي (Anti - liban) ولبنان الموارنة وبما أنهم قد حرموا من أرضهم الأصلية سينتهون بالزوال على الأرجح ويأخذون معهم حتى اسم هذا الشعب»⁽³⁾

(1) نقلاً عن مخطوط سليمان الظاهر (لامين، م. م.، ص 216)

(2) منشورات من العواصم على اقتراح الأحياء، مشافة، ص 16.

(3) لبنان في القرن الثامن عشر ص 255 [Volney] و«مقصود أنهم يرحلوا إلى الناع «الجبل الشرقي» وإلى جبل لبنان».



معركة يارون

اتفق المؤرّحون العاملون على وقوع معركة يارون وانهزام المتأولة، ومقتل ناصيف، واحتلوا على بعض الأمور التمهيدية والدولية التي تتعلق بحريّات المعركة وطروف مقتل قائدها

يقول محمد جابر آل صفا:

هاجم الجزار جبل عامل بجيش كثيف في سنة 1195 هـ - 1780 م من الجهة الجنوبية متظاهراً بأنه يريد اجتيازه إلى وادي التيم لتأديب العصاة. فأدرك الشيخ ناصيف قصده، فأسرع لصدّه بشردمة من خيله لا تزيد عن سبعماية فارس كانت ترابط معه دائماً في حصن تبينين.

وكان الشيخ ناصيف بطلاً مقدماً تعود خوص المعارك وممارسة الحروب، يهزأ بالثنايا ولا يبالي بالموت، فحملته الحرارة والبسالة على مبارلة ذلك الجيش اللهب بخيله القليلة، ولم ينتظر وصول بمية الجمود والأعوان المرابطة في القلاع وزلّت قدم جواده على بلاطة يارون وعاجله بعض الحوود بإطلاق الرصاص، فخر قتيلاً وتشتت

جنوده وطويت صحيفة استقلال جبل عامل بعد باصيف وسقطت بمقتله الحكومة الإقطاعية الأولى بحصونها وقلاعها،⁽¹⁾

يقول القس حنايا المنير:

«أرسل الحزّار إلى المتأولة جيشاً من لسكمان والمغارسة، فجمعوا رجالهم وصادموا العسكر، وانتشبت بينهم الحرب إلى أواخر النهار، فانتصر عسكر الحزّار وقتل منهم مقتلة عظيمة وقتل في ذلك النهار الشيخ ناصيف النصار، وكان عامود المتأولة وأهـرس أهل عصره وقتل ممدار ثلث عسكر الحزّار وانهزمت المتأولة بعد ذلك»⁽²⁾

أما حيدر الشهابي هي عرره، فلا يخرج كثيراً عما ذكره المنير وربما أحد عنه، إنما يذكر أن ناصيفاً أصيب برصاصة فقتل كما يقول السبيتي. إن الحزّار أرسل عسكراً إلى حاصبيا فمرّ من يارون فظن أهل بلاد بشرة أن لعسكر يريدهم، فحصر ناصيف وصارت وقعة قتل فيها ناصيف وخربت البلائق

قرر الحزّار إحصاع جبل عامل بالقوة، فصار إليه بحيش رايح عديده بين 3 و4 آلاف حيّال، وبميه الشبح باصيف بقوة من سبعماية معادل وكانت المواجهة هي يارون حيث استعمل الماعليون هي القتال وحاصّة قائدهم الشيخ ناصيف، الذي طلّ يقاتل إلى أن سقط قتيلاً، وسقط معه ما يرايح بين ثلاثماية إلى أربعماية رجل وهرم الباقون

يقول الركيني

«وفي سنة 1195 هـ في يوم الإثنين الخامس شوال صار بين الشيخ ناصيف وبين دولة أحمد باشا الحزّار، وقعة هي أرض يارون وقتل الشيخ ناصيف وحزنت عليه المتأولة أجمع إلى مرجعيون، وصار الأمير اسماعيل يعد النساء ويأخذ عليهن خضراً، كما أحد العداد والخراج، وهدمت الدولة القلع، وأحدوا ما في القلعة وهدموها، وهرب المشايخ إلى بلاد بعلبك، والشيخ قبلاان وأخوته إلى بلاد الشام. وجعل الأمير اسماعيل (أمير حاصبيا) يمسك أتباعهم ويبلغهم بأمر الحزّار وجعلت الدولة تأخذ من الرعية الأموال والخيل والسلاح وكانت هذه نسبة سمة خوف وجزع ودعر شديد»⁽³⁾

(1) تاريخ صفا، ص 137.

(2) الدر المرصوف المنير، ص 73

(3) تاريخ الركيني، ص 99.

ويقول صاحب برهة الرمان «وهي السنة 1197 هـ و1781م بعد رجوع أحمد باشا الجزائر إلى عكا، جعل يصرع جهده في امتلاك بلاد بشارقة كما امتلك بلاد صفد. وكان المتأولة متحصنين في الملاح ومستعدين للقتال. وهم ثلاث قبائل تحت رئاسة ثلاث



البلاطة التي سقط عليها دسيف عن صهوة حواره في معركة يارون 1781م.

مائلات، وهم بنو علي الصغير، ومقدمهم الشيخ ناصر، وأخوته، وبنو منكر فريقي منهم، مقدمه الشيخ محمد الحسن وعشيرته، والآخر مقدمه الشيخ حيدر المارم.

وكان منهم أبطال لا تطلق في الحرب، وكان قد جرى بينهم وبين الحزّار وقائع كثيرة ولم يقتصر منهم بطائل، فحُزّ لهم هذه المرة عسكرياً عظيماً. ولما بلغ الشيخ ناصر النصر قدوم العسكر، جمع رجاله وبادى بقائيل بني متوال، فاجتمعوا إليه من القبائل الثلاث لأنه كان كبير المشايخ والجميع يتقادون إليه. وسار بتلك العساكر قاصداً عسكر الحزّار وانتشبت بينهم الحرب وحمل في مقدمة العسكر الشيخ ناصر النصر ولم يلبث أن أصابته رصاصة في رأسه همتل، ثم قتل أبو حمد وكان يعد في الحرب بألف فارس. فانهزمت المتأولة وأحلت البلاد ودخل عسكر الحزّار بلاد بشار، وتسلموا قلعة هوبين وقلعة يونين (تبين)، وحاصروا قلعة شقيب أربوب، وكان بها الشيخ حيدر المارم فأحدوها وقتلوا كل من فيها وباد اسم علي الصغير وبني منكر⁽¹⁾ وانقرصت العائلتان كما توهّم مؤرّح آخر⁽²⁾.

وحاء في تقرير الفصل لعام الرئيسي في صبيك إلى الكوب دوفيرجس Vergennes Comte De ساريح الثاني من تشرين أول 1781م عند زمن طويل أعطى المتأولة للباب العالي مبررات كبيرة للشكوى منهم بسبب عدم انتظامهم في دفع الأموال الأميرية وكانت غالباً ما تصدر من اسلمبول وأمر بتدويرهم ولكن كانت لدى شيوخهم المتحدون، من أجل الصالح العام القوة الكافية لمقاومة الولاء العثمانيين. وجد الحزّار نفسه مرّات عديدة في هذه الحالة وقد يكون الباب العالي أو الدفاع هذا الوزير، وراء مصلحته الشخصية على الأكثر، هي التي دفعته للإنتقام من هؤلاء الشيوخ. لقد أرسل الصين إلى ثلاثة آلاف جندي لقتال القوة الرئيسية للمتأولة بقيادة الشيخ ناصر الذي كانت الأمة تنتظر منه حمايتها ولكن مقتل هذا الشيخ في المعركة مع عدّة مئات من فرسانه بينهم عدّة مشايخ وضع حداً لهذه الحرب⁽³⁾.

«كانت الدولة العثمانية تنتظر مد فترة بعيدة الفرصة المناسبة للقضاء على ناصر

(1) برهة الزمان في تاريخ جبل لبنان م م / شهدي من 1004 توهّم الشهابي وكثيرون غيره أن محمود النصر المعروف بأبي حمد قد قتل مع ناصر في هذه المعركة وهذا خطأ شائع لأن أبا حمد قتل مع ابن أخيه قاسم المراد على نهر الترماد في الجولان في قتال مع عرب سنة 1193هـ - 1779م قبل ناصر ويبدو أن الذي قتل مع ناصر هو شقيقه الأصغر أحمد كما ذكرت التقارير الدبلوماسية المرعية المعاصرة للمعركة

(2) كشف الشام، نوفل انظر بلسي ص 200

(3) D.D.C. T 2, p 385

ولكنها تدرك صعوبة ذلك، وما يقنصيه من جهود وتكاليف ومحاول، فلما تعهد الجزّار بالقيام بهذه المهمة لقاء تعيينه والياً على صيدا رأت في هذا العرض ما يحقق سياستها دون أن تتكبّد ما يتطلّبه هذا الأمر من عناء ومشقة.

وكان الفرمان السلطاني الذي نقل أمر باب العالي بتدمير المتأولة والخلاص منهم يورد مبررات أوجبت هذا القرار الخطير. من أهم ما أورده هي الأمور الآتية⁽¹⁾

1 - تمردهم أيام ظاهر العمر ومشاركتهم في حملات العسكرية على ولاية الدولة ودورهم في هزيمة عثمان الكرخي في معركة البصرة.

2 - عرواتهم على دمشق إذ هاجموها بقوة مؤلفة من ثلثمائة إلى خمسمائة فارس.

3 - الإستيلاء على بعض الأماكن من ولاية صيدا مثل شماعمر وحيما وعكا.

4 - امتناعهم عن دفع الميري رعم تعهداتهم.

لأبد أن الجزّار قد رسم خطته ونسّتها منذ أن تولّى منصبه الإداري، ولكنه عمد إلى المداينة والمراوغة بانتظار أن يمضي على ولاد طاهر وعبرهم. من الذين قد يقومون عقبة دون ذلك، فلما حقق مراده وبلغ القوة التي تؤهله لإتمام هذا الأمر، عمد إلى السعي لاستصدار المرسوم «الهامايوني» الذي يطلب منه القضاء على رعماء المتأولة وتدميرهم، معذراً حالات تمردهم السابق، وتمنعهم عن دفع ما يرضه الولاية عليهم، وبدأ يتحرّش بهم دون أن يمضج عن نواياه الحقيقية، أو يجهّز حملة للقضاء عليهم، كما هي عادة الولاية العثمانية قبله. فقد كان يحطط للإيقاع بهم عذراً، كما فعل بأولاد طاهر، ولكن بفضة ناصيب وحدره قوّت عليه هذه الفرصة، فأشبع أنه بصدد إرسال عسكر إلى وادي النعم، وهي سته مهاجمة جبل عامل، وشيوخه عاهلون عن قصده الحقيقي، فيوقع بهم على غره لكن ناصيباً أدرك خطته وسارع إلى لقائه بمن كان موجوداً معه في حصن تيسين من المقاتلين، دون أن يدعو «إلى إعلان التمير لعام بواسطة الصوت كما جرت العادة ربما لأن مجاعة الجزّار لم تترك وقتاً كافياً لذلك أو لأنه لم يشأ أن يعطي عدوّه فرصة لتجميع باقي قواته، فقاتل العامليون جيشاً مجهّراً ومسلحاً مثل هذا اليوم ويتمتع بتفوق عددي كاسح، وربما لو لم يقتل ناصيب في وسط المعركة لكنت النتيجة مختلفة، فإنه لم يكدر يسقط من على فرسه حتى حرق البهون من عسكره ووقعت انهزيمة

تشكّل معركة يارون واستشهاد ناصيب منقطعاً تدريجياً وترشياً في تاريخ جبل عامل. ومن خلال جميع الروايات العاملية حول مذبحة، نلاحظ حرصاً على جعل استشهاد أسطورياً مما يدلّ على مدى تعلقهم بشخصيّة الشيخ القائد التي يظهر فيها حريجاً لمدرسة

(1) جبل عامل السيف والقلم حسن الأمير ص 314

كربلاء، بما فيها من معاني القيادة والإحلاص والإيمان حتى الاستشهاد، كما يفهم العاملون هذه المدرسة⁽¹⁾.

احتلت المؤرخون العاملون في كيمية استشهاد ناصر، قوتها البعض إلى تعثر جوده على بلاطة يارون في حصم المعركة بينما وجهه حروب أصابع الاتهام إلى قتل دور دليل مقنع⁽²⁾.

تساءل بعض المؤرخين العاملين عن سبب تحلف قبلان عن الاشتراك في معركة يارون، وتقاسمه بعدها، عن الأحد نثار ناصر، ومتابعة المقاومة والقتال. لأن مكانته المرموقة كانت تؤهله لتسلم رعاية جبل عامل بعد ناصر، حتى رماه بعضهم بالخيانة وهي ذلك تحن وتحامل على الشيخ الوائلي الحكيم كما يسميه لقناصل الغربيون الذين عرفوه وعلى الواقع التاريخي.

إن كل الدلائل تشير أن معركة يارون كانت حملة سريعة قصد بها الحرار أن يصاحي ناصر على غير استعداد. فبالله ناصر كان معه من رجال هي قلعة سنين، دور أن يدعو باقي قواته لكسب الوقت ومنهم قبلان صاحب قلعة هوبس.

أما بعد المعركة ومقتله وسقوط باقي القلاع للعاملية، فلم تكن حكمة قبلان وسنة ونجاريه تشجعه على الاستمرار في قتال يارون، صددت عدو عرف نفسه ووحشته، فاختار الحلاء عن بلاده إلى الشام، ثم إلى الهرمل وبعدها بيوت حياه (1199 هـ. 1785 م) مما تلاه في المراق وهذا يؤكد عداوة قبلان للحرار ودوله واصطراذه إلى اللجوء إلى أمكة لا تقع تحت سلطته.

ويقول صاحب العقد المصعد عن مقتل ناصر: وجاءه فارس رنجي وأطلق عليه الرمح فأصابه بجرح ثبت له فاشتكى كراً عليه وصريه بالسيف فقتله فحماه ثلاثة فوارس فأراد أن يميل عيان جواده نحوهم فزلت نعال الحود على بلاطة فسقطا معاً وأطلق أحدهم الطينجا فأصابته وطعنه الآخر في صدره فوقع قتيلاً⁽³⁾.

ويمول المقيه

«استشهد ناصر في يارون على بلاطة واسعة تعرف اليوم باسمه والظاهر أنها سطح صخرة ضخمة معمورة بالأرض، سطحها يساوي سطح الأرض متصله بمضبرة يارون. رأيتها بنصبي سنة 1963م ورأيت فيها أثراً يشبه ترفق حافر حصان عليها، وكنت أظنه مصطنعاً ورأيت حمرة بسيطة هي نفس الصخرة، يزعمون انها بقايا لون

(1) جبل عامل السيف والقلم، حسن الأمين، ص 219

(2) جبل عامل في التاريخ، المقيه ص 408 ولسيف والقلم بقلاً عن السيتي ص 218

(3) العقد المصعد، الأسعد، ص 34

دمه. وروي عن شيوخ البندة أن ناصيماً أراد أن يستعمل صرباً من صروب الضروسية، فأشار إلى جواده بإشارة يعرفها فارتفع به عن الأرض ووقف على رجل واحدة ثم انزلق مما سهل على قاصديه قتله،⁽¹⁾

استشهد الشيخ ناصيف النصر يوم الإثنين، الخامس من شوال سنة 1195 هـ فقد بلغه أن جيش الجزار مر في بلاده بدون دن منه، فذهب بمن معه لنعته، فقتل.

وفي هذا الوقت، كان ناصيف قد فقد حماة فرسانه، وبقي حوله جيل جديد، عاش في النعمة والرفاه ثلاث قرى وكان عليه رحمه الله، أن ينتبه إلى أنه يقاتل في هذه الساعة بأناس غير الدين قاتل بهم بالأمس، ولكنه القدر ونهاية العمر. وقيل إن عمره إذ ذاك كان فوق الستين، وسمعت ممن روى عن شيوخ عيناها، أن عمره كان يوماً وتسعين سنة وأنه كان يشد حاجبيه بعصاه. وعندما قتل، تصرق عسكره، ولو كان بعض الدين كانوا يقودون حروبه أحياء لكان لهذه المعركة مصير آخر،⁽²⁾

بقي الشعراء يتعصون بمراثيه ومراثي أحبه وابن أخيه مائة سنة، حيث كانوا يمتحنون العناء على الرماية بذلك⁽³⁾

استمروا يندبونه لأكثر من خمسين سنة، وأكثروا سيد الشهداء ولكن في المكر الشيعة الحنوبي لا شهيد بعد الحسين ولا تزال مراثي الشعراء الكثيرة في ناصيف تشكل ومضة لاهية في الأدب العاملي.

أفتى العلماء بتحريم إقامة المآتم لتحديد تذكري ناصيف بعد أن صارت تقليداً عاملياً، خوفاً من تناسي الناس لقتل الإمام الحسين. وكانت التقية تستلزم إقامتها في أماكن خاصة سرية.

يقول السيد محسن الأمين إن من عوثة العاملين أن المرس إذا أصابها معص يطوفون بها حول قبر ناصيف ويرحون برءها بذلك وجعل الملاحون من قبره مراراً للتبرك به، كما يرحون منه الشعاعة كسبلاء على الإمام الحسين.

ومن المعروف أن ناصيماً دفن في اسبي يوشع رعم أن بعض الباحثين من المثقفين العاملين توصلوا حديثاً إلى اكتشاف قبره في يارون منقوش على ناصيته «صريح المرحوم ناصيف بيك الوائلي 1330 هـ».

(1) نقل الشيخ المقيده هذه الرواية عن بعض شيوخ تبين في ذريته ص 408. انظر صورة لصخرة اليوم

(2) المصدر السابق، ص 405 وهناك اختلاف كبير في تعيين تاريخ معركة يارون ومقتل ناصيف بدقة.

ولكن التاريخ الذي يبدو مؤكداً هو 23 أيلول 1781 م كما جاء في تفصيل الفصل العرسي المعاصر

للمعركة هي صيدا ارازي D D C. T2 p.387 ARAZY

(3) جيل عامل في التاريخ، المقيده، ص 406

وقد يكون قبر وائلٍ آخر يحمل إسم الرعيم التاريخي المعروف⁽¹⁾

قتل ابن نصار فيالله من مولى شهيد بالدماء مصرح

وتداولتنا بعده أيدي العدى من فاجر أو غادر أو أهوج

هي دولة عم البلاد الظلم في تاريخها والله خير مصرح⁽²⁾

يشكل ناصر، نصار بمودحاً ملمتاً وهريداً بين الرعماء اللبنانيين، وأصحاب الإقطاعات الدين برروا على مسرح الأحداث منذ دخول المنطقة تحت سلطة العثمانيين، وحتى انتهاء الحكم الإقطاعي، وتبدل النظام العثماني الذي كان سائداً قبل ذلك.

نحلى بمرآيا أخلاقية رقيقة، ومثل إسبانية سامية وسلوكية هي الحقلين الخاص والعام صارمة في مقاييسها المبدئية وثابتة في أهدافها السياسية العامة، المتحررة من الغايات المصلحية الداتية، وسوارع لأنيّة، لتي كانت من التقاليد المشروعة والمتعارف عليها هي تراث ذلك العصر

خاص عشرات المعارك ولم يعرف عنه أنه حاول توسيع نطاق مقاملعاته على حساب غيره.

كان رعيماً وقائداً حماهيرياً قبل أن يكون حاكماً على الطريقة الشائعة في ذلك العصر وصاحب شخصية هريدة لم يعرف عنه به نجاح أو حق أو طمع بما بين يدي غيره أو راحم أو أشترك مع باقي الرعماء هي، التنافس على ولاية أو التزام، أو الحصول على لقب رسمي، أو مرتبة إدارية. كل هذه الأمور التي كانت المحور المركزي في سياسة الرعماء الآخرين والعامل الأساسي المحرّك لنشاطاتهم

بادراً ما كتب عنه القناصل المرسيون في تقاريرهم الدبلوماسية لعاصرة له، دون الإعراب عن تقديرهم له وإعجابهم به رغم أن المصالح قصت بأن تنصرف أهواؤهم إلى الجانب المعادي، كما ذكره مؤرخو جبل عامل بميض من مشاعر المحر والولاء، وأسبعوا عليه هالة أسطورية من البطولة والتصحة تبلع حد المعجرات، وكذلك أبدى المؤرخون الآخرون عند ذكره من مظاهر الإعجاب والإحترام، قلما طفر بها غيره، لقد أحبه قومه وانتقوا حوله وقاتلوا معه باندفاع غير عادي حتى أصبح السبعماية حامل بندقية منهم ضد الجزائر، تواري خمسة عشر إلى عشرين ألف درري وماروني متحدين⁽³⁾. وقد مدحه

(1) أعيد الشيعة محسن الأمير، الجزء 15 ص 102 موقع تبني www.tibnen.com

(2) تاريخ مقتل ناصر للشاعر إبراهيم يحيى

(3) لبنان في القرن الثامن عشر المؤتمر الأول لجمعية البديّة للدراسات العثمانية، ص 255 عن Volney.

الشعراء في حياته كما رثوه بعد استشهاده بالعشرات من الفصائد العاطفية المؤثرة التي يبدو فيها صدق الشعور والتعاني في الولاء وعمق التصنع والحسرة على مصيره المحزن. تمكن فخر الدين المعني من بسط يده على مساحات واسعة من الأرض خارج الشوف، نتيجة حروب متواصلة شتھا على جيرانه وحلفائه وأسيبائه من آل سيف وأل حرهوش، وأسلاف ناصيف وغيرهم كثيرين عبر مقاطعاتهم وحزبها، وحصل من الدولة على فرمانات بالترامها. بعد أن اشترى دهم الزوراء والولة، وبث عيونه ومعاونيه في كل مراكز القرار، بدلون أموالاً طائلة للاحتفاظ برضى الدولة وأعيانها. ولما لم يعد متأكداً من رضاها عادر إلى الجانب الآخر من المتوسط، ساعياً لإقناع شعوب بعيدة، يعلم مطامعها القديمة وندفية سلامه أو ما جاورها يحاول إيقاظ هذه المطامع بوضع نصه في تصرفها وتسهيل مهمتها ويقع بالنتيجة أسيراً بأيدي الأتراك، دون أن يحاول رعم كثرة جنوده ووجهه إمكانياته لسحول معهم في معركة واحدة فكان على النقيض من ناصيف دفع معظم الحكام المحليين الأقوياء إلى معاداته، واعتمد على الاستفواء بالسلطة على سلبهم مقاطعاتهم بالرشوة والعمارة علو أنه حاول التحالف معهم لربما كان بعقدوره إجماع جهة قوية تحميه من مزاج الولة وتقلباتهم. أما يوسف الشهابي المعاصر لناصر لناصر فقد اختار أسلوباً معديراً ورهص التحالف معه ومع طاهر رعم العروض المعربة، ووضع نصه في خدمة الولة حتى أصبح آخر الأمر العوبة في يد الحرار. يعامله بإدلال محبراً إياه على سلب أموال الناس لإرضائه، حتى أصبح مكروهاً من الجميع وعمد إلى قتل أحويه وأقربائه، والعديد من الأعيان هي الشوف وكانت نهايته دليلاً وحيداً بين يدي الحرار، وحول رقبته مبدل الحصوع والعبودية⁽¹⁾ ولم ينقده كل ذلك من المصير المشين فشنق مع أستاذة على أسوار عكا بينما انتهى ناصيف على صهوة جواده، وسيحه يفطر من دم أعدائه الذين حاربهم بإصرار وإباء طيبة ثلاثين عاماً متواصلة

تختلف معركة يارون عن غيرها من لحملات والمعارك والمذابح التي اعتاد العثمانيون شتھا مباشرة، أو بواسطة الولة، على منظمة هي لبنان والشام بقصد إحضار أهلها أو تادييهم أو إحبارهم على دفع الأموال الأميرية، أو القضاء على رعيم متمرد أو استبداله بأخر، فهي كانت مقدمة لحرب إغناء شاملة ساقها الجزار بعد إعداد طويل ضد ناصيف وقومه، فاصداً تدمير بلادهم والقضاء على أسباب الحياة

(1) كشف الشام، بوجل بوجل ص 201

فيها باجتماع أهلها وطرد من لم يقتل منهم في خارج بلاده ويبنو هذا الهدف واضحا من خلال الأساليب المستحدثة التي استعملت في هذه الحرب، والنتائج المباشرة التي أدت إليها.

اكتسحت حدود الجزائر البلاد بعد المعركة فأحرقوا القرى ودمروا المنازل وهدموا الحصون والقلاع، وطاردوا المشايخ والأعيان وتعلماء وأممى الجزائر بهم قتلاً ودبها وأسرا، وتشرد الباقون في مختلف بقاع الأرض، هتشر العاملون في الشام وبعبك والهرمل وعكار، ووصلوا إلى العراق وإير والهند وأفغانستان. وتركت الناس المدن والقرى وترك أهل صور بيوتهم ومدينتهم منذ أن تسامعوا بمقتل ناصر، وخذت القرى حتى قبل دخول عسكر الجزائر ونهب الناس وسبوا وقتلوا وذمرت بيوتهم وحُزرت حقولهم، انهزمت المتأولة وسيا الجزائر نساءهم وأطفالهم، وكانت قباع المرأة بقرشين، والولد بقرش واحد ورحل الدين سلموا إلى بلاد بعلبك واحتموا صد الحرافشة⁽¹⁾.

«أما عساكر الدولة فقد سبت نساءهم وباعوا كل واحدة بربع غرش إذ كانت القتلى أكثرها في عسكر المعاربة،

صار الأمير اسماعيل يعد النساء بأخذ عليهن خصرًا، كما أخذ العدا والخراج وهدمت الدولة القلع وأخذوا الأولاد والنساء وقتلوا الرجال وأخذوا من الرعية الأموال والخيول والسلاح وكانت هذه السنة سنة خوف ودعر وحزن شديد⁽²⁾.

«هرب المشايخ مع خواص أتباعهم، ودخلت العساكر في البلاد، وأهلكوا كثيراً من الرجال مستعملين انتهت وتفضيخ النساء والعداري، وبعد إبطال تلك البلاد لحالة الصعاب بعد شجعانها، بعضهم بالقتل وبعضهم بالفرار حينئذ خصعت للجزائر خصوص المملوك⁽³⁾».

«ولما سبقت النساء والأولاد إلى سوق النخاسة وبهت الأموال وصميت، حُمِلت ثروة جبل عامل المكزية المتمثلة بأعداد لا يمكن لنكتهن بها من الكتب والمؤلفات والمخطوطات، وحملت وقوداً لأفران عكا لمدة أسبوع وما سلم من الذهب راح صحبة الدفن تحت الأبقاص. ويقول شيخ علي مروة أنه رأى بعينه في عكا بعض الكتب

(1) الدر المصنوع، المير، ص 73

(2) تاريخ الركيبي ص 99

(3) منتديات من الجواب على اقتراح الأحياء، مشافة، ص 15

العامة وقد كتب عليها إنها من موقوفات الحزار، لأن النور ليسير منها انقذه بعض علماء بلاد عكا وحفظ عدد آخر في مكتبة جامع الحزار

بعد كل هذه المصائب والمواجع ساد لإعتقاد عبد الناس أن الله يعاقب العاملين لذنوب ربما ارتكبوها، أو لأنهم عصوا أمره لله وقد عبر عن هذا الشعور الركين في تعليقه على الأحداث «لا شك إننا عصينا الله حتى أمرل علينا هذه البلايا وسقط الضجرة على البرقة، أعادنا بالله في ذلك وقد جاء في الحديث «إذا عصاني من خلقي من يعرفني سلطت عليه من خلقي من لا يعرفني»⁽¹⁾

إن من نجا من القتل والسبي وقع ضحية لسعرة من يدي الحزار، كان الحزار جرد على المتأولة سيف الظلم، ويأخذ رجالهم إلى ورشه عكا (بالسحرة) ومعاملهم مثل معاملة فرعون الظالم لبني إسرائيل بالقساوة الشديدة. وكم من المئات منهم قتلوا في الطريق بالمأقورة لما كان يحشرهم السائقون لهم بسرعة الحري. فمن شدة الصرب كان يحشر بعضهم بعضاً وبسبب ضيق الطريق هناك كانوا يسقطون في البحر بالحمسين والسين وما يسأل ولا يرجعهم أحد. ويوصلهم إلى ورشه عكا كانوا يستعملون معهم شدة القساوة

«وكم وكم ماتوا من شدة القساوة ومن ذلك أنه في أحد الأيام كان الوقافة على الورشة بأمر الحزار، واصفين فلا حين من بلاد بشاره بمحل بين السوريين يشتعلون فيه بعضهم يحمرون الأساس وهم نحو مئتين وثلاثين نمرأ والبضبة يسحبون التراب بالحبال في القمص من الأساس، فدمق أن انطلع القسم الأعلى من الأرض، وصار الدين فوق يصيحون على الدين في الأساس ليسرعوا بالخروج قبل أن ينطبق عليهم التراب وكذلك صارت الصيحة من الوقافين ومن الملاحين أقاربهم الدين كانوا في عكا، وإذا سمع الحزار الصيحة وعرف سبب ذلك إذا كان هناك انتهر الجميع أن يسكتوا قائلاً لهم دعوهم، إذا كان الله قتلهم ما لكم وما لهم. ومنهم من يخرجوا أحداً منهم. وسقط حائط الأساس، وانطبق على الجميع وقبرهم كلهم أحياء، وما خرج أحد منهم. وهكذا كانت معاملته الوحشية لهم»⁽²⁾

(1) الركني، ص 102 قام عثمان باشا بتحرير شيعة جبل لبنان بمساعدة أولاده ولكنه فشل في إتمام ذلك في جبل عامل بعد هرائه الحاسمة في معركة البصرة وصيدا وقرار ولده باشا صيدا درويش باشا ولكن حلفه الجراد نجح في القيام بذلك بعد معركة يرون ولكنه فشل في البقاع أمام المقاومة التي أبدتها الحراشة في وجه حملاته والمقت أن يوسف شهاب كان الأداة الأولى في جميع هذه المحاولات.

(2) تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، إبراهيم العورة، ص 54.

يقول القنصل الفرنسي المعاصر لهذه الأحداث متحدثاً عن صور، جميع سكان هذه المدينة أخلوها تماماً عندما علموا بهزيمة الشيخ ناصر خوفاً من عسكر الباشا أن يبيدهم وينهبهم⁽¹⁾

إن الحرب بعد معركة يارون لم تنتهِ بمقتل ناصر، فقد استمرت بأشكال أخرى لمدة خمسة وعشرين عاماً واصل المامليون بقيادة آل ناصر حربهم المقدسة للعودة أسياداً على بلادهم. لقد طرأ كثيرون أنهم قد انقروا بنهاية هذه المعركة.⁽²⁾ وما أعقبها من أعمال القتل والبطش، حتى الركبي الذي طالما انصاع مع انتصارات ناصر السابقة اعتبر عندها أن أمر آل ناصر قد زال وأصبحوا هي ذمة التاريخ فكتب معلقاً.

«تاريخ ابتداء أول حكم بيت علي الصغير من وقعة عيناقل إلى يوم قتل ناصر مئة وست وثلاثون سنة. فهدم مدة حكمهم ثم آل أمرهم بعد قتل ناصر قدس الله روحه الشريفة الشهيدة، إلى أن هربوا ورحلوا إلى ديرة الشام وإلى بعلبك والهرمل»⁽³⁾.

كما اعتقد كثيرون أن المناولة جميعاً هي طريق الزوال بعد هذه النكبة

ولكن لا المناولة ولا آل علي الصغير ولا حتى أولاد ناصر قد انتهوا، بل استمروا يقاومون رغم كل ما حصل لمدة خمسة وعشرين عاماً عادوا بنهايتها أسياداً على بلادهم.

وهو فصل محبب آخر في تاريخ جبل عامر

(1) D.D.C. T2, p 386

(2) كشف اللثام، نوفل، ص 200.

(3) تاريخ الركبي ص 102



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

الفصل الخامس

حرب الطياح

بعد اكتساح جبل عامل واستباحته وسقوط أحر قلاعه (قلعة الشقيف) وتدمير بيته العسكرية والاقتصادية، صدر من المستعبد الاستمرار في مقاومة منظمة ومركبة. فلجأ الماعليون إلى نوع خاص من الحروب، يتناسب مع الأوضاع المأساوية التي يعانون من وطأتها، تلتجئ الهاربون والختامون والمشردون في مجموعات صغيرة متنقلة، يصرب عساكر الحرار التي انتشرت في القرى ومسلميه الدين عهد إليهم إدارة أمور البلاد، ورغم كل هذه الظروف المعساة تمكن فارس الناصيف، وأخوته وعدد من المشايخ الذين هربوا إلى خارج البلاد من تشكيل فرق متطوعة تنسّل إلى جبل عامل، وتهاجم عمال الحرار وحبوده والمعاملين معه، وتغير على القوافل التجارية معطلة سبل المواصلات ومظاهر الحياة العادية، التي يمكن أن تؤمن للحرار وجماعته الأمان والاستقرار

وقد عُرفت هذه الفرق المقاتلة لدى العامة باسم «الطياح» وهو تعبير شعبي يقصد فيه «الهاربين أو المطاردين»، الذين يعارضون نوعاً من حرب العصابات التي تعتمد على اختيار مكان وزمان المواجهة والصرب بسرعة، وإلحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر في صفوف العدو ثم التواري قبل وصول تعزيزاته كما تعتمد على اقتناص الفرصة المعاسبة، للقيام بثورات محدودة أو عامة، بدعوة عموم السكان للمشاركة في الأعمال العسكرية ومهاجمة العدو، هي كل مرة يكون في وضع سياسي أو

(1) أحر القلاع الماعلية التي سقطت في يد الحرار بعد معركة بارون فتسلمها من صاحبها حيدر المارس وكان معه 500 إلى 600 رجل وبعض العائلات التي تنجأت إليها كما سقطت القلاع الأخرى تسين وهوبين وبارون ووشمع وميس وجياح.

عسكري يسمح بذلك، كانت تبدو أشبه بحرب مستمرة تواصلت بعد نكبة يارون، وتلاحقت حتى لا يستسلم العدائيون لواقع المرير، الذي يحاول الجزّار فرضه بواسطة الممارسات التأديبية الدائمة، ولنجاح في تغيير الجغرافية البشرية وإذابة الكيان الذي طالما حرص جبل عامل على الدفاع عنه وتعزيزه على امتداد القرون السابقة وتبديد روح المقاومة لأيّ تدبير سطوي يتحده الحاكمون.

كان الناس ينتظرون أية بركة أمل أو إشارة تنبئ بإمكانية الإشتصاص على هذا الواقع، والحروح من المعاناة. وكانت صور قد أصبحت ميناء جبل عامل، والمركز التجاري والسياسي فيه وقد رجع بعض سكّانها الذين هربوا عند سماعهم بهوت الناصيف، ولكنهم كانوا يمتنون الثمن بالإعتماد على إشاعات تصيد بأن عمارة بحرية ستصل من الباب العالي لعمل الجزّار فصاروا يترقبون وصولها بين لحظة وأخرى.

هلمّا مرّت البارجة المرسية المجر (Auror) في 8 أيار 1782م يرافقها عدد من المراكب التجارية طنّ أهالي صور بشيعة لحلاص قد دنت، فثاروا مع شيوخهم حمد النعاس لمساعدة الأسطول الموهوم جال وطبولة إلى عكا، ولكن الباشا قمع هذه الحركة بقسوة بالغة ثم استدعى حاكم صور القديم بأمان كادب وعذر به "، فماب هي سخن عكا مع أخيه حميد وأولاد عباس العلي صاحب قلعة مسن وقصص على جميع الرجال وال أمر الحرير والأولاد إلى أن ذروا في البلاد يشحدون ويطلبون من الناس كما يقول الركني⁽¹⁾

وحاول العلماء التحصيف من معاناة الناس هذا الشيوخ علي حاتون على القرى، حتى يسدّ بلصة الجزّار لعام 1782م وكنّ ما بدلت له قرية شيئاً من الدراهم، أو الغلة يقول لأهلها «احسوه من الركاة، وبرقمه هي دفتر، ثم يعطيه للدولة حتى طلعت الركاة من نصيب الدولة وحرم منها مستحقها من الفقراء والمعوّرين وبهذه الطريقة تكون دولة الجزّار قد استأثرت بنصيب الفقراء والمعوّرين وأبناء السبيل»⁽²⁾.

أصبح الشيخ فارس الناصيف رجل مقاومة والمواجهة في كلّ أنحاء جبل عامل،

(1) D.D.C T2 p 389-390

(2) الركني، ص 102.

(3) جبل عامل، رزق، ص 288.

وهي المناهي حيث تبعثر العامليون، ودخرو هي موحات غير متكافئة مع عدو لا حدود لقسوته ووحشيته

«لم يكن في عسكر الجزائر جنود من العرب بل ملأ بشليكة بعسكر من المشردين والقلة الذين جمعهم من كل أنحاء تركيا بشناق، البان، معاربة، تدافعوا من كل الجهات وعاشوا حياة مأجبة تحت رايته،»⁽¹⁾

في الوقت الذي كان الحرار منهمكاً في إرسال حملة إلى جبل الدرور وتناقضت أعداد جنوده الذين تركهم في جبل عامل لحفظ البلاد، استغل فارس الفاسيف هذه الاضطرابات وعاد مع حوالي ستين فارساً من الذين كانوا يعيشون في ولاية دمشق، وتكاثر عسكره بالملاحين المتأولة الدين اصموا، إليه، حتى وصل العدد إلى نحو ألف رجل، وهاجموا عسكر الباشا المنتشر في مختلف القرى وتقدم فارس في الجبال المؤدية إلى قلعة تبين وهي مسقط رأسه ودار أمه، فسوحى بوجود قوة مسلحة من المعاربة فقتل المسلم من قبل الحرز وهو الحاكم العام إبراهيم أغا، وأباد أكثر رجال الحامية واستولى على أموال الباشا بعد أن طرد الكاتب إبراهيم مشافه إلى عكا مع دعاتره ولم يحسر من رجاله سوى أربعة، وغادر القلعة بعد أن ترك فيها بعض جنوده⁽²⁾.

أحدث احتلال قلعة تبين مركز حكم بصيف المديم ومقر الحاكم العام الحالي من قبل الحرار صدى كبيراً فتجمع السكان للاستصمام إلى الثورة وخاف الحرار من انتشار التمرد في كل مكان وخصوصاً أنه في سبيل إرسال حملة إلى بلاد الدرور، فاستدعى عساكره للعمل ضد المتأولة، كما عاد الأمير اسماعيل خليفة مع رجاله إلى صيدا وأعلنت مدافع القلعة بطلقاتها بصراً موهوماً كاملاً أحرزته عساكر الحرار على المتأولة، لإيهام الناس والخط من عر ثعهم ومنعهم من الالتحاق بالثائرين⁽³⁾

سنة (1198هـ - 1784م) اجتمع العاملون في شحور بقيادة الشيخ حمزة ابن محمد البصار، ورحض عساكر الحرار نحو القرية هالتقى الطرفان في معركة

(1) القتل باريبي ص 90

(2) جبل عامل، حصن الأمير، م م ص 323 يقول قائد الثورة في هذا الهجوم كان عقيل شقيق فارس وكان من أهدافه استتراج الثورة التي تركها بوه مطموره تحت شجرة في انحصن

(3) في 2 حزيران 1748م الفصل D D C T2 p421 Arazy

انتهت بانتهزام المتأولة وقتل عدة مئات منهم، كما كان الحاروق وهي العقوبة التي أعلن الباشا أنها خاصة بهم. مصير عدد آخر وعلى رأسهم قائد هذه الإنتماصة الثالسة⁽¹⁾ وبعد هذه الواقعة كما في وقعت أخرى كثيرة، شردت الناس في البراري والأوعار والحبال والأقمار وكل مرئ في عقله محار، وصار الناس من الدولة يهربون وفي كل واد يهيمون⁽²⁾ وعرضت رؤوس القتلى في صيدا لإرهاب الناس ومنعها من التحرك.

لم تحب الدولة إعجابها بعائر الحرز في قتل أكبر عدد من رعاياها، واستباحة بلادهم وأعراسهم رغم الشكاوى التي تقدم بها العاملليون، إلى أسطمبول يطلبون رفع الصمم والظلم عن بلادهم. فكانت بمرس صدر في أيار 1786م تحمل منه صاحب النمود الأول في ولاية طرابلس وصيدا، وأصاحب إليه ولاية دمشق، فأصبح سيد سوريا الأول وأناطت به انتظام جهات المتولة حصاراً⁽³⁾ تعصع لأوامره البلاد الممتدة من اللادقية شمالاً، إلى عزّة جنوباً، ومن البحر المتوسط غرباً إلى نادية الشام شرقاً. يحكم هذه البلاد الثالسة بواسطة متسلمين من قبله وتوسعت سلطته فاستقل إلى دمشق ووضع اثنين من ممالكه، وهما سليمان في طرابلس وسليم في صيدا، واسطر لإداره المساحات الثالسة التي أصبحت تحت حكمه أن يتقل بين أنحاء محتلمه وبعيدة عن حل عامل، للإهتمام بأمورها فاسفر لثأرون بهماكه بإعداد حملة إلى نابلس، وتوزيع قواته في الولايات الثلاث، وقررو مهاجمة عماله وحنوده بعد إحلال صور والمصاء على مسلّمه وعسكره في المدينة ولكن سليمان مملوك الحرار ووالي صيدا قمع المحاولة قبل تنفيذها واعتقل المشايخ نقائمين بها وأرسلهم إلى عكا، حيث قتلهم الباشا بكل وحشية في 10 أيار 1785م فوضع على الحاروق أربعة وثلاثين رجلاً منهم عرضهم على أبواب المدينة على مرأى من القنصل الفرنسي الذي كتب إلى حكومته يقول إن جشهم لا يزال معروصه حتى الآن، ويضاع بأنهم سوف يستبدلون بعدد من مواطنيهم المسجونين والمتهمين بالإشتراك مع المتمردين⁽⁴⁾.

(1) يقول مشافة بهم وهموا ثلثابه نأثر على الحاروق وكان كل من يقع منهم في يد الحرار يعدم فوراً مشافة، م.م، ص 12

(2) الركيبي، ص 110

(3) كشف اللثام بوفل بملأ عن المؤرخ اسركي واصف، فدي ص 200

(4) دار لوثائق لقومية في باريس (A E B. I) مجلد 797 بتاريخ 16 أيار 1785م عن جبل عامر لسيف والظلم، ص 353

وكانت حملات القتل والنهب التي تقوم بها العساكر العثمانية لا تتوقف لأن الحنود طالبوا بأن يكون نهب المدن هو دخلهم خصوصاً في عياد مرتباتهم المعتادة وقد شجّعهم الباشا على اعتماد هذا المصدر المربح وقال لمتخرج القنصل المرسى أنه من دون ذلك لكانت حياة الحنود العساة لا تطاق.⁽¹⁾ فكان من الطبيعي أن يريد ذلك من معادة السكن الدين لم يغادروا قراهم ومبارلهم. فاقترضوا على اقضاء ما هم في من الحاجة إليه من قوت وتركوا تلك التكتبات بصماتها على جبل عامل فأعادوا الرخالة المرسى أولميه الذي دار صور في أواخر القرن الثامن عشر أنه لا يوجد هي الأمير طورية لعثمانية مدينة تشابه صور في تعاستها وبؤسها وأشار سان ايبان (St Argnant) أنه لم يبق من هذه العاصمة الصنيقية التي كانت سابقاً في عابه الثراء وبقوة لا ما لا يتمكن الإنسان أن يسلبه منها⁽²⁾.

كان بعض شيوخ بني علي الصغير قد لجأوا بعد النكبة عند الأمر يوسف شهاب بعد أن تعهد لهم بالرعاية والحماية وأرسلهم في مشمرة ولما عاد الحرّار من نابلس إلى دمشق وتهدّوا للذهاب إلى البحار على رأس قافلة الحج ولحوقه من ثورة أخرى يقوم بها العاملون المشرّدون في كلّ أنحاء الشام أرسل إلى الأمر يوسف بالاتفاق مع سعد الحوري، الذي كان لا يزال أثناء رهينة عنده يطلب منه بأن يقبض على المشايخ الوائلين الدين عنده ويرسلهم إلى سليم باشا مملوكه في عكا ولما كان يوسف يشارك سيده الحرّار في طباع كثيرة، قبض على المشايخ السبعة عشر، وأرسلهم إلى حتمهم حيث شنقوا حال وصولهم، فم يحفظ الحوار ولم يرغ الدمام، ولامه الناس على ذلك وتباروا في دمه وتقبيح أفعاله⁽³⁾.

استمرّ الحرّار في حكم جبل عامل حتى وفاته كما بقي أولاد ناصيف وآل علي الصغير يحتفون نهاراً ويحرجون ليلاً، حتى قيل أن جبل عامل تحت حكم الحرّار نهاراً وحكم أولاد بشار ليلاً وبقي بعضهم في مشمرة وملكك والهرمل وعكا

(1) المصدر السابق، ملاً عن تقرير تقصية صيدا في مجلد رقم 1037

(2) جبل عامل السيف والقم الأمين، ص 353.

(3) تاريخ الشهابي، قسم 1، ص 141

وعبرها من المناطق حتى الشام والعراق وقد تدهورت قبيلة المتاولة في سوريا كما
عبر باريللي عن واقع الشيعة يومها، فلما وصل بابليون حاصر الجزار في عكا
كتب إلى مشايخ البلاد والحكام أن يحصروا، إلى مقابلته ويحصلوا على أمانه
ورحمته، وبدأت تأتي إليه أهل تلك البلاد ويأخذوا الأمان، فحصر مشايخ بني متوال
فأعطاهم حكم بلادهم فصاروا من عند أمير لجيوش إلى مدينة صور وقدّموا له
الدحاير هي البلاد وتسلموا القلع التي كانت لابائهم⁽¹⁾

ويبدو أنهم كانوا على استعداد للقتال مع بابليون لفتح حصن من الجراد بأيّ ثمن.
يقول باريللي إن متاولة صور الدين عابو أكثر من غيرهم من صفاقة المستبد خرجوا
إلى معسكر الفرنسيين تحت أمره أحد أحماد ظاهر

والواقع أنه لو حرمت القبائل السامية أمرها مثلما فعل المتاولة، ووقفت في
حندق واحد مع الفرنسيين في حصار عكا، لاستطاع بونايرت أن يستولي على كل
البقعة حتى حلب دون أن يكون لنداهج المستعبد عن عكا نتحة حاسمة⁽²⁾

إنها فترة قصيرة عاد فيها آل علي الصغير إلى ديارهم وقلاعهم كما عاد باقي
العشائر والمهاجرين، إلا أنهم ما لبثوا بعد انسحاب بابليون أن عادوا إلى مواضعهم
السابقة، واستأنموا سيرهم الأولى في حركة لطيف، حتى موت الحرّار في 23
نيسان 1804م

(1) المقصود بأمير الجيوش قائد لحيش الفرنسي بابليون بونايرت وبنا وصلوا إلى عكا حصرت إنيهم
مشايخ المتاولة فأعطوهم لحكم (فصول من تاريخ الشيعة الرين ص 89. وبرهه الزمان، ج 2 ص
887)

(2) تاريخ سوريا، باريلي، ص 99. 98

عودة المحاربين

اتسعت حرب العصابات بعد موت الحرّ ر شملت بلاد عكا وصفد، وصار هناك نوع من الإردواحية في السلطة، حاصطر الناس، ر يدهموا المال الميري والدحائر مضاعفة للحكومة والمشايخ، وكلّ منهما لا يعترف بسلطة الآخر ورأى سليمان باشا الوالي الحديد وكان سلس القيادة ولبن العريكة، ما أصاب لبلاد من الخراب وأن استمرارها على نفس الوتيرة لن يمد أحداً، فرعم قوة الحرّار وبطشه لم يستطع مع كل الوسائل الوحشية التي اعتمدها طيلة أكثر من عشرين عاماً، أن يصع حداً لنفوذ المشايخ وقدرتهم على مقارعة الدولة ونحدي سلطانها، كمال إلى اللين ولكنه كان يعلم أن الإقصاح عن رعيته بالدحول هي تسوية مع عارمن الناصيف وأنصاره لن تصل إلى نتيجة لعدم ثقة العشائر بصدق رعيته، مطراً لما عابوا من عذر أسلحه وإحلافهم لليهود كما وأن اتّباع هذا السبيل سيظهره بمظهر الضعف والاستسلام مما يحرمه حرية المساومة والمساومة معهم⁽¹⁾.

كانت وجهة النظر المعتمدة في الولاية كما فصلها إبراهيم العورة الذي رافق بحكم وظيفته، كلّ مراحل المفاوضات وأطلع على حصيلاتها وتشعباتها، أن المشايخ ليس لهم مهنة يقتاتون منها ولا ملك يقوم بمعاشهم يكتمون به ولا هم مثل بقية الناس وليس لهم صنائع، ولا تعودوا على المتاجرة ولا عدهم مال يتاجرون به، ولا أحد يركن لهم ويسلمهم ما له، ولا يمكن أن يتسولوا بل يهون عليهم الموت بكل سهولة ولا التسول، حيث أنهم من أناثهم وأجدادهم تعودوا على الحكم والكرامة والجاه فإذا داوموا على أعمالهم تخرب البلاد وشرهم وصرهم لا يقع على بلاد بشارة بل يشمل أيضاً بلاد صفد، وبما أنه يتعدّد الحلاص منهم بالحرب والقتال كما أثبت الواقع القائم، لذلك رأى سليمان باشا وواقفه أركان ولايته سنة 1805م حبيب اليهودي الصراف وحسن أما وعلي باشا أن يعتمد إلى السياسة والحيلة في بدء المفاوضات فوضع في بلاد بشارة

(1) تاريخ ولاية سليمان باشا العامل، العورة، ص 55

ضابطاً أرناؤوطاً يدعى بكر أذا من عمدة الصباط الدين كانوا محافظين عكا، وأمره سرّاً أن يرأسهم ويتعاضى معهم، كأنه يريد أن يجعل نفسه واسطة لتبيل الأمان، الذي يرهّبونه، أي أن مهمة هذا الصابط أن يدفع الثوار إلى طلب الأمان بمبادرة ذاتية، مما يسهّل عليه فرض الشروط التي يريدونها مقابل أمانه ولكن المشايخ لم يهتموا بعروضات بكر أعا هردّوا عليه بحواب «ناشف» واعتبروا عروضه مكيدة وفحاً كما تمّودوا على مثلها أيام الحزارة.

عمد الطرهان إلى طلب وساطة الأمير بشير لشهابي وتدخله صامناً وكافلاً، لما يتفقاً على تنفيذه، باعتبار أنه قريب من الوالي، وله العيرة الثامنة على العشائر باعتبارها من رؤسائها⁽¹⁾.

تحمّس الأمير بشير للتوسط بين المريقين، ورأى في ذلك المسعى فرصة اتحدتها من توفيقات التاريخ، واستعملها لبلوغ غاياته وأهمّها أن تلك الوساطة تمنحه المزايا التالية:
أولاً - استعلاّب حب وميل سليمان باشا له، وأن معاطاة عصية مهمة بطير هذه توجب زيادة الثمر والإعتبار

ثانياً - إن هذا الأمر يكسبه التّقديم على سائر العشائر، ويوثق صلته معها، بحيث يمكن أن يستعمل هذه العلاقة لصالحه مستقبلاً

ثالثاً - إن النجاح في هذا المسعى يكسبه النصيب الحسن والمجر، وإن بعقدوره التأثير في سائر العشائر ويمتطليح أن يطوعها ويقصصها ساعة يشاء.

عيّن الأمير بشير كتّبه جريس بار، وأرسله إلى عكا مع مشروع اتفاق لعرضه على الوالي، ولكن المفاوضات تعثرت واعتمد «لولي الحوري سابا كاتب»⁽²⁾ رسوله إلى الأمير في استكمال المفاوضات وبعد مد ولات كثيرة أصرّ سليمان باشا على عدم إعادة فارس الناصيف وسائر المشايخ إلى حكم بلادهم كلسابق، لتجريدتهم من أسباب القوة والمنعة والتأثير على أهالي بلاد بشارة وجبل عامر، أي تعبير أحرّاء صفتهم الميادية والسياسية، وتأمين سبل المعيشة لهم بما يكفي لنمقاتهم، والحماية من ذلك بقاء سيطرة الوالي المباشرة على البلاد، وصمان عدم تنافس فارس على سلطته والعودة إلى سيرة

(1) المرجع السابق، ص 57

(2) من رهبنة دير المحطّص عمل كانياً في ولاية صيدا قد ترفّقه، تخرّج من روما ثم أصبح رئيساً عاماً للرهبنة ومطراً

أبائه وأحداه. ولا بد أن فارساً وسائر المشايخ قبلوا مرغمين بذلك، لأن وضعهم الحالي سيكون أفضل مما هو في حالة التشرد التي كانوا فيها، ولا شيء يمنعهم من السعي لاستعادة ما يرونه حقاً لهم سلباً أو حرباً عندما تسمح الظروف.

أصدر سليمان مرسوم الأمان وحمله الشيخ إبراهيم⁽¹⁾ بنفسه للأمير بشير، الذي أرسله للشيخ فارس. وبعد ثلاثة أيام حصر هارم في ديوان حافل بحضور علي أغا والد عبد الله باشا وراغب أفندي مأمور الدولة العبي وقاضي عكا ومفتيها، وحاييم الصراف وحنا العورة الكاتب وحريس بار وكيلاً عن الأمير بشير وصدر عن الديوان عقد الصلح الذي ينص على الأمور التالية:

أولاً. يعطي المشايخ مقاطعة إقليم الشومر على أن تستثنى منه قريتي الصرهند وأنصار وميس القريبة من الصرهند، معفاة من الضرائب وتكون لهم ولديريتهم بحدودهم ومصرورة القلم مجموعة القدم⁽²⁾.

ثانياً. يترأس فارس السانصيف عشائر جبل عامل بصمته شيخ مشايخ العشيرة ويتعامل أمورها ومصالحهم وفصل الدعاوي بينهم.

ثالثاً. لا يكون للشيخ فارس ولا لعمره أدنى مداخل في بلاد بشاره أي مقاطعات جبل تبين وجبل هوبين وساحل معركه وساحل قلنا ومرجعيون ومقاطعة الشقيف وإقليم النماح، لا يتدخلوا بهذه المقاطعات، لا بحكومة ولا بعلاحة ولا بزراعة بوجه من الوجوه.

رابعاً. يلبوا الطلب في أي وقت للمحاربة هي أحد المحلات دون تردد ولا عاقبة نظير الشرط الملزم به أمير جبل لبنان.

في اليوم الثاني أرسل الوالي حسن شيب⁽³⁾ وأمره أن يتوجه فعند الشيخ فارس ويطلب منه أن يوزع خبرته ومعرفته، قرابا إقليم الشومر على المشايخ كل منهم قدر لزومه بالعدل والإنصاف، وأن يعملوا بذلك دقنر ممضي منهم.

بعد الاتفاق على كل ذلك أرسل الوالي وراغب أفندي تنماساً للباب العالي أن يصدر أمراً ملوكياً مؤكداً لتقرير هذا الترتيب وأرسل إلى الأستاذة مع رسول حاض فعاد الجواب سريعاً بقبول هذا الترتيب وأستحسانه، وتأييده فأصدر الوالي المرسوم اللازم لتعفيذ هذا الاتفاق

(1) هو الشيخ إبراهيم نعمة معتمد الأمير بشير ورسوله

(2) معفاة من الضرائب

(3) الحاج حسن شيب هو كاحية الشيخ هارم (الشهيد المرمر من 710)

ووقع المشايخ على سند يعيد قبولهم به وتقيدهم به، ووقعه الامير بشير كميلاً ومأمور الدولة العليا راغب أفندي وقاصي عكا ومميتها، وهم ما نص عليه هذا الاتفاق.

- 1- ترتفع حالة الحرب بين الفريقين وتعود علاقة المسلم المرعية في الأحوال العادية.
- 2- يبقى الحكم بيد المتسلمين من لولي وتبقى الأملاك المصادرة أيام الجزار.
- 3- يعطي العشائر إقليم الشومر لقاء أملاكهم تساقطة وتجري الرواتب على بعض شيوخهم حتى أوان الحصاد.

4- يقيم الشيخ فارس الناصيف رئيس العشائر في المكان الذي تحدده له الدولة في جبل عامل، دور إن يكون له أو لغيره من العشائر أدنى مدخلة هي بلاد بشارة.

من الواضح أن هذا الاتفاق، أقرب إلى معاهدة هدنة مؤقتة بين طرفين عدوين يصع حدوداً قاسية على عودة الأمور إلى مجراها الطبيعي السابق قبل معركة يارون ويكتفي بإبهاء ثورة العامين مع بقاء القيود والمصادرات التي تحدت من الحكم الذاتي، الذي طامنا قاتلوا من أحله وحرصوا عليه (العلم).

وتتميداً لبنود هذا الإتفاق صدر عن الوالي الصحت الموجه إلى الشيخ فارس وحده بعد مصادقة الباب العالي على مضمونه.

بيان بالمحلات التي أنعم بها على ولدنا الشيخ فارس الناصيف وناقي حمولة آل الصغير وعلى مشايخ حمولة الصعبي بأجمعهم، وعلى مشايخ حمولة الماكرة بأجمعهم، مع حسين ابن حواد منصور لأجل معاشهم ما عدا الذي مسلمين قبل تاريخه لولدنا الشيخ محمد الناصيف، وأخوه بشار والشيخ شبل إبراهيم والشيخ مرعي الصعبي والشيخ دندش ونصر الله وعلي الحمرة وبندر الحمرة فهؤلاء معاشهم معين من طرفنا وحزبنا لهم بذلك دفتر بتاريخ 21 جمادي أول سنة 1220 هـ.

التوقيع سليمان

المطرية، مطحنة المعيرية الواسطة، الوسامية التحتا، الخرائب وتوابعها، جمحيم، أروية، مغراقة القاسمية، سيبه دير تقلا، القعقية، الزرارية، المروانية، عدلون، الوسامية الموقا، البيسارية، خربة الدوير، خرطوم، عين أبو عبد الله، شتوية العربان، البابلية، الداوودية، براك الرور، اعداد ماعر العربية، مزرعة القرية.

الحارثية، مزرعة النبي ساري، زيتون بكليك المروانية، تماحتا، الغسانية، مغارة محيدلة، سمية العريان، السكسية، اليهودية، الحديد، زيتون بكليك الزرارية، اللوبية، الكوثرية، كضريدة، زيتون بكليك القاقعية، زيتون بكليك المشعراني، زيتون بكليك البابلية.

هذه القرايا التي أنعمنا بها على ولدنا المومي إليه وباقي مشايخ الحمائل المذكورين أعلاه وجواد بن حسين منصور

ويبدو أن هذا الإتفاق قد استثنى بعض مشايخ الدين لم يقاتلوا الدولة في الفترة السابقة، فكانوا موضوع قرار مستقل عالج وضعهم على حدة بإعطائهم، قرى الطيبة وعدشيت وطير فلسية، ومنهم ولدي الشيخ ناصيف محمد⁽²⁾ وبصار وحبيد اسعد الخليل⁽³⁾. كما يتبين من الرسالة التالية الموجهة من الوالي إلى نائنه في تبين وهونين

فهر الأماثل والأقران متسلما في تبين وهونين الحاج إبراهيم زيد قدره

بعد السلام التام المنتهي إليك حضر لهذا الطرف افتخار المشايخ المكرمين الشيخ محمد الناصيف وحصل على سمو الخاطر الكامل من جهتنا، والآن قد سمحنا للمذكور في قرية الطيبة يتصرف بموسمها هذا العام وفي العام القابل يمشيها مطلقاً في كيسه ويمتثلها من غير ميرّي فلا تقار شوه بأقيمة المذكورة، وقد أمرنا للمذكور بإتمامه في كلّ شهر خمسمائة غرش تدفعوها له من طرفكم، ابتداء ذلك من الشهر الداخل إلى أن يكون مطلع الموسم القادم تنقطع الشهرية المذكورة، وكذلك سمحنا إلى أخيه الشيخ بصار الناصيف وإلى أسعد الخيل وإلى هادي المقبل في قرية «طير فلسية»، مطلقاً يتصرفوا بها هذا العام ويمشوها على كيسهم في المقبل وأمرنا بإتمام شهرية إلى المذكورين تسعين غرش في كلّ شهر ابتداءً من شهر الداخل وحين طلوع الخير تنقطع الشهرية المذكورة فهذا المنوال مشوا المشايخ المذكورين عليه ولا يصير منكم تصوّر في مساعدتهم ومراجعاتهم تاركين أحوالهم على ذلك والسلام.

وعلى هامش الوثيقة ما يلي «ومزرعة عدشيت تابعة للطيبة في تصريح الشيخ محمد المذكور أعلموا ذلك».

(1) من المذاكرة

(2) يقول عبد المحسن الظاهر إن خلافاً ثبت من فارس ومحمد ولدي ناصيف ولكن معظم العشائر أتت الأول لجدارته رغم أن محمد هو الأكبر سنّاً

(3) ابن حيل الناصيف البصار.

أقام هارس في قرية الزرارية التي دحنت في منكه في دار بنيت على نفقة الولاية، وعين له مايتي كيس تدفع في كل سنة من خريبتها (1813م) ولابد أنه اعتر أن الإتفاق مرحلة آتية، يعود بعدها إلى بلاد بشارة كما كان أهله من قبله وقد احترم هذا الإتفاق وقاتل مع سليمان باشا في أكثر من مناسبة قتل فيها عدد من عشيرته من بينهم أحمد بن عباس المحمد باني صور ولكنه لم يتوقف عن المطالبة بما يراه من أحصر حقوقه بالعودة إلى ما كان قبل عامل عليه قبل النكبة وسأده في مطالبه شير الشهابي وبشير جنبلاط، ولكن ذلك لم يتحقق إلا بعد وفاة سليمان وتولية عبد الله باشا الخريدار على عكا فتعدلت الاتفاقية سنة 1821م وعاد المشايخ إلى حكم بلادهم كسالف عاداتهم بعد أن صمّت مقاطعة مرجعيون إلى حكمهم وكانت تقع وادي التيم وترك لهم خمسين ألف عرش من أموالها لأميرية ومقابل ذلك تعهد هارس بتقديم ألفي مقاتل عند حاجة الولاية.

يقول الأمير حيدر أحمد شهاب «في حوادث سنة (1237 هـ - 1821م) أرسل عبد الله باشا إلى الشيخ هارس الناصيف ابن الشيخ ناصيف البصار والمشايخ المتأولة، أنه يريد أن يرجع لهم حكم بلادهم، أي جيت عامل التي مقال لها الآن بلاد الشومر، وبلاد الشقيم، وأن يرفع المتسلمين الذين من قبل اللورير، ويترك لهم خمسين ألف عرش في كل عام، ومئة عرارة شعير، بحيث أن يكون صدهم ألفين نمر خيالة وثلثم صكر مقيمين تحت طلبه إلى أي وقت لزم للورير، فأبى المشايخ المذكورين ذلك ولم يقبلوا احتساباً من العدر».

ثم بعد جملة مراجعات أرسلوا (المشايخ) استشاروا الأمير بشير الشهابي حيث كانت محبة رايدة عظيمة، وكان الأمير يروم قيام صالح المذكورين، فأشار بقوله أن اللورير قد خاصم دولة والي دمشق خصماً طويلاً واحتياجه إليهم طويلاً ورأى أن ذلك صالح لهم أن يرجع لهم حكم بلادهم كما كان في أيام آبائهم ويصير لهم الأمر والنهي وترتفع يد المتسلمين من رعايهم وأهل بلادهم، فأرسلوا الحاج حسن شيت الذي كان بمقام كاخية عند الشيخ هارس الناصيف إلى عبد الله باشا يطلبون منه ما أمر به وأن يحرر لهم صكا بعدم التعيير بما وعد

فحرر لهم الباشا أن لا يقع معهم في لزمان انتماص ووجه لهم الخلع كما كانت عادة آبائهم من والي صيدا في قديم الزمان، وأبتدا أولئك المشايخ يهتمون في تدبير خيل وسلاح ويعينوا أساساً من بلادهم حسب ما أمرهم عبد الله باشا

وأعطاهم أيضاً بلاد مرجعيون، وربط عليهم مالا معيناً كما كان على أيام المتسلمين⁽¹⁾.

توطدت علاقة العاملين بعبد الله باشا بعد الإتفاق الأخير، ولعب متاوله جبل عامل دوراً مهماً في الإنتصار الذي أحرره على درويش باشا والي دمشق، والذي أثار غضب أسطمبول، وأرغم الأمير بشير على الهرب إلى مصر وعبد الله باشا على الإحتماء خلف أسوار عكا حتى توسط لهما محمد عبي باشا وتمكن من الحصول على عفو عن الوالي والأمير مقابل مبالغ باهظة أراد عبد الله باشا حياتها من أنحاء ولايته بما فيها مقاطعات الشيخ فارس

رفض فارس الحصول لطلبات الباشا المترايدة باستدعاه إلى عكا وقبض عليه ولم يصرح عنه إلا مقابل مبلغ صحم كما أشارت القنصلية الفرنسية في بيروت في أحد تقاريرها

وتوفي الشيخ فارس عند عودته إلى قصره سنة 1824م متأثراً بالناسم الذي دسه له الباشا أثناء إقامته عنده فكانت نهايته على يد العثمانيين مثل أبيه والكثيرين من النابهبين من قومه⁽²⁾

وهكذا انتهت مرحلة أخرى من تاريخ جبل عامل بموت الشيخ فارس الناصيف وبدأت مرحلة أخرى تحت سلطة إبراهيم باشا بعد سقوط بلاد الشام في يد القائد العسكري المصري الزاحف.

(1) الشهابي، القسم الثالث، ص 710

(2) أرشيف وزارة الخارجية، لمرسمة، معمظة رقم 8 تاريخ 8 تشرين أول 1924م عن الأمير ص 334.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

الفصل السادس

الحكم المصري في جبل عامل

حاول إبراهيم باشا بعد أن طرد العثمانيين وأحكم سيطرته العسكرية الثامنة على بلاد الشام، إرساء قواعد إدارية عامة تهدف إلى إقامة دولة مركزية عصرية، على الطريقة الأوروبية والنصاء على النظام الإقطاعي لسائد، واستراخ السلطة السياسية من الرعماء المحليين، وإحلال مؤسسات مكانها لتولّى إدارة الأمور العامة تحت إشراف مباشر من الحكمدار المصري، المعين في دمشق محمد شريف باشا. هرات الإدارة الجديدة أن تلحق جبل عامل بجبل لبنان الذي أُنقي تحت حكم الأمير بشير الثاني مع ارتباطه بالحكمدار هي دمشق. وكان الأمير بشير يعتمر نفسه حليماً للمصريين بسما عاملوه في الواقع كأحد عقالمهم⁽¹⁾

ولّى الأمير الشهابي ولده مجيد على مقاطعات جبل عامل، وكان شاباً جاهلاً عديم الخبرة أساء معاملة الأهليين وأرهقهم بالعسف والظلم وساق المئات منهم إلى السجون فتمر منه الناس وعمت البقرة على الحكم لحديد وبدأ التملل سدر يتحرك وشيك

فرصت ضرورات الحرب مع العثمانيين وتدخل الدول الأوروبية بنشاطها وقباصلها ومعتمديها في تأليب الناس على المصريين أن يعتمدوا سياسة متشددة تجاه الأهليين، ويلجأوا إلى إجراءات استثنائية ومصارمة لمعالجة الموقف الدقيق هبدأت ملامح التمرد والثورة تظهر في سائر المناطق

إن أسباباً عامة أثارت الإستهاء هي جميع أنحاء سوريا دفعت الناس إلى الوقوف إلى جانب العثمانيين في هذا الصراع، كما أن هناك أسباباً خاصة بالأعماليين رادت في

(1) لم يكن موقع الأمير بشير في الدولة المصرية كما كان قبل سيطرتها، فلم يعد في ظلها أكثر من متسلم معني تحت سلطة الحكمدار المصري

نمورهم من الحكم المصري ودفعت الشعور التفتيدي المعادي للعثمانيين إلى أن يتراجع وعوامل الثورة والعصيان أن تترسخ وتتفهم صد السلطة الجديدة.

أجبرت حاجات الحرب ومتطلباتها الإدارة المصرية على اللجوء إلى تدابير قاسية ومحكمة لم يألفها الناس ولم يتقبلوها ومنها التجديد الإحصاري، لسد النقص في الأعداد المطلوبة سواء للجنه الدائمة الإشتغال مع العثمانيين أو لقمع المتمرث والثورات المتلاحقة في دجل البلاد، فكانت العملية تتم بما يشبه إقصاء الشباب في سن الحادية من أماكن مرورهم أو تجمعهم أو سكنهم وإرسالهم قسراً إلى حروب، لا شأن لهم بها.

أثارت الاضطرابات المتكررة في أماكن متعددة من البلاد والهدافة إلى التخلص من حكم المصريين وتدريبهم عزم الحكومة على برع السلاح الموحد في أيدي الناس، ليسهل إخبارهم على الخضوع لأوامرها وعدم القدرة على العصيان أو الثورة، الأمر الذي زاد من النقمه والعصب، خصوصاً أن حيازة السلاح هو تقليد متوارث وعادة متأصلة، ليس من السهل القضاء عليها هي جميع بلاد الشام كما أن الحاجات الحربية تتطلب أموالاً باهظة، وإشاعات مبنوعة عمدت السلطات إلى محاولة نأمنها عن طريق زيادة الضرائب، حتى وصلت إلى ثلاثة أضعاف قيمتها المبدية كما لحأت إلى تطبيق نظام السخرة ولصاوده همزمت على الأهالي وحبوساتهم ووسائل النقل التي يملكونها أعضاء رادت من دمرهم، واستيائهم، وبالتالي دفعتهم إلى ثورة همد تناولت السخرة الرجال والنساء كما تناولت العمل والملاحين وكل صاحب صنعه حتى شعر أهالي البلاد المحتلة بأنهم مهذبون ومصطفون على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم ومناطقهم، فقامت حركة بمرد عامة في حل لنادر وبطنك والشوق وحبل عامل وصور وجوران وفلسطين وغيرها من أنحاء البلاد وتدعى الناس إلى الإشتغال على الحكم المصري والثورة عليه ومواجهة صياكهم.

كان للعاملين بالإصافة إلى كل هذه لأسباب التي يتشاركون فيها مع غيرهم في المعاناة منها والسخط عليها، دوافع أخرى خاصة بهم، فقد فقدوا مرة أخرى ما يتمتعون به من استقلالية في شؤونهم الخاصة، وأخضعوا للحكم الشهابي الذي يحتفظون عنه بأسوأ الذكريات والذي أعاد إلى أذهانهم صراع الأيام العابرة، وما رافقها من عارات ودماء ودمار، بالإصافة إلى الأحقاد المتعصبة هي لموس بن زعماء البلدين والتي لم يكن من السهل تجاوزها أو تناسيها⁽¹⁾

(1) كان ذلك أول مرة يتحالف فيها العاملون مع عثمانيين في تاريخهم، بتاريخ العسكري الجزء الثاني ص 520

«كانت سياسة المصريين في جبل عامل أو مع الشيعة على الإطلاق غيرها هي بقية البلدان التي شملها عدلهم وعمّ أنحاء سوريا، ولم يظهر له أثر في بلاد الشيعة. لقد صوّرها الشهابيون في عيون المصريين بلاداً ثائرة، وشعباً متمرداً يجب أن يحكم بالشدة والبطش، فصبوا عليها غضبهم، واكلوا بالزعماء والأعيان وزجّوا معظمهم في أعماق السجون»⁽¹⁾

مهما كان في هذا القول من مبالغة أو تحامل فإن طرد الحكام المحليين من جبل عامل، وإحصاعه بالعنف لحكم لشهابيين وحده كاف لإثارة التمرد في النجف، وإيجاد المناخ الملائم لقيام ثورة عامّة عند أول دعوة مناسبة

عندما حلف سليمان باشا سلمه لحرّار في ولاية عكا، كان العامليون يقومون بحرب عصابات ضد الدولة العثمانية بمساعدة رعيهم لشيخ فارس بن ناصيف البصار، فاضطر سليمان إلى عقد اتفاق معهم، اعترف لهم فيه بسوغ من الحكم الذاتي، هي جبل عامل لأمر الذي قاتلوا من أحله طيبة حكم الحرّار وبقي الإتفاق قائماً حتى ولاية عبد الله باشا على عكا حيث عقد معهم اتفاقاً جديداً سنة 1821م أعاد إليهم بموجب حكم بلادهم كما كان قبل الحرّار وطلّ هذا الإتفاق سارياً حتى وصول إبراهيم باشا إلى بلاد الشام 1832م فأدخل جبل عامل في حكمه وحققه بالامارة الشهابية⁽²⁾

مات الشيخ فارس الباصيف ومضى عبد الله باشا في ولايته حتى وصول إبراهيم باشا عارياً فكان من الطبيعي أن يقف العامليون إلى جانب الوالي الذي قاتلوا معه في معارك المرة وحسرت نفات بعقوب، وأبرم معهم الإتفاق الشهير الذي أعاد إليهم كامل امتيازاتهم السابقة واستقلاليتهم الاثيرة وأضاف إلى ذلك منافع أخرى بينما عدّوه إبراهيم باشا هو حليف الشهابي الطامع ولما حرّ عن حكم جبل عامل لولا الاحتلال المصري.

بعد موت الشيخ فارس الباصيف أصبح حمد لإس الأكبر لشقيق الباصيف والفارس الشهير المتوفي سنة 1779م محمود البصار، هو لمقدم بن آله، نظراً لسنّه ندي بزيّد حتماً عن أربعة وخمسين عاماً مرّت على موت والده، وربما أكثر من ذلك عملاً بالقاعدة القديمة التي تقضي بأن يتولى الرئاسة الأكبر سنّاً، فيما حاصر إبراهيم باشا عكا جمع حمد الذي سيُعرف بلقب البيك، وهو أول من حمّله من العشائر، جيشاً واهراً وقاتل مع

(1) محمد جابر آل صفاء، م. م. م. ص 150

(2) ليدن في تاريخه وتراثه، ص 330

المحاصرين في معركة «البهجة» خارج عكا حتى وقعت الهزيمة على الجيش العثماني، بعد أن سقط من جنده مائتان وأربعون بين فارس وراجل.⁽¹⁾ ولما استولى إبراهيم باشا على بلاد بشاره هرب حمد إلى دمشق حيث ترك عائلته وجهر جيشاً شارك في معارك حمص، ودر ب حتى بلغ قوته فلما بهارت مقاومة لعثمانيين وأسر رئيسه باشا عاد إلى بلاد الشام، وأقام في الرنداني بعد أن صدرت الحكومة الجديدة أملاكه ولم ترجعها إليه إلا قبل رحيلها بثلاث سنوات⁽²⁾

كان من نتيجة انتصار إبراهيم باشا على العثمانيين، أن خضع جبل عامل للحكم الأمير بشير الشهابي في ظل الإدارة المصرية الجديدة في دمشق، فأرسل الأمير الشهابي ولده مجيداً لإدارة مقاطعته وكان شامناً عزاً لم تحنكه التجارب فأعتمد الشدة والعنف في إدارة البلاد، واحتقر العلماء ولأعيان، فكان في محبسه في صور رهاء الألف رجل،⁽³⁾ كما قرب بشير منه أحد المشايخ الموالين الذي حثار مناصرة المصريين، فعهدوا إليه برعاية العشائر، واعتمدوا عليه في القيام بمهمات مختلفة في جبل عامل ودمشق فكان الوحيد الذي باصرهم من آل بصر، وقدم إليهم خدمات عديدة هي ملائحة المتمردين وثبتت نفوذهم في البلاد وهو حسين السلطان حميد عباس المحمد وصديق الأمير بشير⁽⁴⁾

ثورة حسين الشبيب

لم يخضع جبل عامل للحكم المصري لشهابي طوعاً، فسرعان ما أعلن حسين الشبيب حميد ناصيف وابن شقيق فارس الثورة في أوائل تشرين الثاني 1839م، وطالب برفع يد المتسلمين عن بلاده وإعادة الحكم إليه كما كان الحال في عهد عمه ووالده⁽⁵⁾.

تمتقر المصادر العاملة إلى تفاصيل وافية عن هذه الثورة، التي يبدو من مراجعة

(1) جبل عامل في التاريخ المقيمه ص 180

(2) العقد الممتد، الأسعد، ص 38

(3) آل صما، ص 58

(4) انهم بعض حصومه بالتصحر وهو رعم باطل

(5) بشير بين السلطان والمرير اسد رستم ج 2، ص 172، توفهم محمد جابر آل صما أنه من الصنبييين (ص 148) كما توفهم أسد رسم أنه ابن فارس الصنبيي، وتوافق أنه «بن شبيب الناصيف شقيق فارس والمتوفي في شحور سنة 1220هـ - 1805م (أعيان الشيعة الأمير ج 11، ص 337، والركهي ص 30)

وثائق الحكومة المصرية أهميتها وانتشارها، وصعوبة القضاء عليها، حيث تطلبت حملات عسكرية متكررة، وجهوداً أمنية واستخبارية لافتة، ومداولات على أعلى مستوى إداري وسياسي في صيدا ودمشق والمأهره وقد عصت هذه المصادر عن معظم أحداثها وحتى عن شخصية قائدها وسببه فقد توهم الكثير من المؤرخين العاملين أنه من الأسرة الصعبية، بينما هو في الواقع حسين شبيب الناصيف النصار ابن شقيق الشيخ فارس الناصيف شيخ مشايخ جبل عامل، ورئيس عشائرها لا ولده كما توهم آخرون وكما توحي بعض الوثائق المصرية الرسمية⁽¹⁾.

أورد أسد رستم أحداث ثورة حسين شبيب مستنداً إلى وثائق المحفوظات الملكية المصرية وذكر أنه في أوائل تشرين الثاني من السنة 1893م، رفع الشيخ حسين شبيب لواء الثورة في بلاد بشارة من أعمال لبنان الجنوبي، مطالباً برفع المتسلمين من بلادهم وإعادة الحكم إليه كما كانت الحالة في عهد والده، متعهداً بدفع الأموال وتقديم العلال وبصيانة الأمن وتعديل في ظل الحكومة المصرية. وجمع حوله نحواً من ستمائة بصر أرمنجية وخمسون مسلحون بالبنادق ومئة وخمسون سلاح بسيف كالمرد والطينجة والخضر واليطلقان والعصى وحضر إليه جماعه من بلاد بعلبك من رجال الأمير حنجر الحرقوش يعدونه بالمعونة. ولدى وصول هؤلاء قوبل براعته وصار يتلمظ بأقوال حارجة عن الطريقة بقوله إذا كان لا يحاب إلى سؤاله فإنه سيزداد شقاوة حتى يسري صرره إلى التواحي الموجود بها، فأوعز إبراهيم باشا إلى محمد شريف باشا أن يطلب معونة الشهابي الكبير أمير لبنان، ومعونة مدير أمانة صيدا الشيخ محمود عبد الهادي. فأرسل الشهابي حميده الأمير مجيد على رأس قوة صغيرة مؤلفة من خمسمائة رجل فقام إلى تنطية ومنها إلى ميس، هيارون، حيث أحتك بالشيخ حسين وكرهه على المرر إلى الوعر

تعطلت مصالح بلاد بشارة بسبب ثورة حسين الشبيب، وتوالت المراسلات بين مختلف القادة العسكريين والإداريين، حول سبل القضاء عليها والقوات العسكرية القادرة على هذه المهمة. فأرسل محمد شريف باشا إلى القائد العام إبراهيم باشا في 5 رمضان 1255 هـ «كنت بلفت أعتابكم السامية في عريصتي مكتوبة في 23 من شعبان أن بقية فرسان عبدكم، أحمد آغا الدارته لي قد ذهبوا عند مدير صيدا لأجل تدمير الشقي الذي يقال له حسين شبيب، واستأذنت في إرسال عبدكم الأمير محمد وأنصار الجبل الذين معه

(1) أسد رستم، م.م. ص 172

وانتدابهم لتلك المهمة إذا وافقت عليه إرادته دولتكم، ولقد جاء من عبدكم مدير، إيالة صيدا كتاب يقول فيه أن الأشقياء المستمين حول الشقي المذكور قد دبح عددهم حتى الآن مائة وخمسة وثلاثين شخصاً، وأن الحيالة لا يصلحون لقتالهم إذ إنهم مقيمون بأرض ذات حجارة، وأن مصالح بلاد بشاره قد تعطلت بسبب أولئك الأشقياء، ويلتمس إرسال الجنود السكبانية وقد قال يوسف قرداحي في الكتاب الذي أرسله من صيدا إلى عبدكم بحري ذلك، إن مصالح بلاد بشاره قد تعطلت بسبب شفاوة الشقي المذكور أما العساكر السكبانية الموجودين لدينا فإن أكثرهم أتوا من جبل عجلون قبل أيام، كما أن الدين قد دهموا من قبل، باتوا متعبين وقد مرض أكثرهم فصلا عن عدم معرفتهم ببلاد بشاره، وأما الأمير مجيد وأنصار الحبل فهم خشيرون بتلك الديار وقد رأينا أن نرسله في خمسمائة جندي إلى تلك الجهة مصرعين ليقصوا على معاسد ذلك الشقي فأرسلناه إلى بلاد بشاره في خمسمائة رجل هذا ما كتبناه ليحاط به علم دولتكم والأمر لولاها فيه وفي كل شأن، كتب إبراهيم باشا على ظهر هذه الوثيقة العارية الآتية، أكتب إلى الأمير بشير يرسل مائتي فارس ولا تنظر أبداً إلى بعد السكبانية وأرسل طائفة منهم ثم أرسل الباقيين فإنه لا ينظر هي مثل هذه الأيام إلى موت الرجال فكيف إلى نعيمهم⁽¹⁾

ويبدو في رسالة ناسيه من محمد شريف إلى قائدكم أن هذه التدابير لم تؤدي إلى النتيجة المطلوبة وقد ازدادت الثورة حدة، وأخذ حسين والأشقاء الدين معه يمسدون في تلك الديار.

كما وأن أعمال فئات من الشيعة والاستعانة بهم للقضاء على ثورة قد فشلت أيضاً، أكتبنا إلى عبدكم الأمير بشير بأن يزم مشايخ المتأولة الدين بأقليم الشومر تدميرهم وأن يساعدتهم عند الحاجة، إلا أننا لم نقتطع ثمرة من ذلك، ويقترح في النهاية بعد أن يبدي شكوكه في إمكانية نجاح فرسان أحمد آغا في مهمتهم إرسال الأمير مجيد مع خمسمائة منتحيين من جنوده للقضاء على الثورة.

ينصح من متابعة المراسلات المتعلقة بهذه الثورة، أن مماوصات حرت بين الإدارة المصرية ممثلة بمدير إيالة صيدا محمود عبد الهادي، وبين موهدين من رعيمة الثورة استعملها المدير لخداع الثائرين والتحتس على أحوالهم، كما يقول ذلك صراحة في كتابه إلى محمد شريف باشا، يذكر أنه تطورت هذه الموضوع، وما أعاده به حواسيسه

(1) المحفوظات الملكية الرسمية، مد سم، المجلد الرابع ص 257 محظوظة رقم 6092

(2) المصدر السابق ص 258

الدين أرسلهم إلى معسكر الثوار بجمعة لتفاوض، وكيف بدأ شيعة البقاع يفتدون للمساعدة، ويلتحقون بالمقاتلين، وينقلون رسائل التأثير الشيعي الأحرر الأمير خنجر الحرهوش، وفي هذه الرسالة عرص مسهب بجميع أوضاع هذه الحركة والجهود المصرية - الشهابية للمصاء عليها

«أعرض لبلوتكم بخصوص الشقي حسين الشبيب ومن معه انعمتم على عبدكم بأنه صدر أمر دولتكم بإرسال الأمير مجيد لشهاني وصحبته، من عسكر الجبل ما يسف على خمسمائة نمر ومقداره سور خيال باشبورق أكراد وأتراك لصرب الشقي المذكور ومن معه وتكيلهم وأمرتهم بأجراء مساعدة مع الأمير المومي إليه، وعرض لسعادتكم عما يتم معهم بأوقاته وحسبما أمرتوه ورسمتوه صار قريين ادعان عبدكم فنعرض لسعادتكم انه بتاريخ 17 الحاضر إذ كنت عبدكم موجود بقرية طرشحنا من أعمال الحبل لإبحار مطلوب المصري فمي تلك الليلة لساعة أربعة من الليل حصر لطرف عبدكم الشيخ سعيد عبد العال ويده تحرير وارد له من الشقي المرقوم وصممه تحرير لعبدكم، وعند هذا العتة وحده يلتمس الأمان من الطرف الأشرف السرعسكري بحيث يصير رفع متسلمين بلاد بشاره والشقيب وجباة وهو يقوم بها بالخدمات المرصية ما عدا النظام ويكون الأمان على دمه وسلاحه والذي يخصه ولا يدخل البلاد غرب ومظهر الميل لدخوله تحت نمر الاطاعة وبوقه عبدكم عحبت من سخاهه عقله بتطلياته لخارجة عن الطريقة ولاح لعبدكم لربما المذكور يلتمس هكذا أشياء أملاً للحصول على الأمان فقط، حيث محقق عند الجميع سطوة سيف دايمة السعادة المعظم خصوصاً على من هو نظير هذا الحبيث الحاسر فبالحال عبدكم حررت له جواب بصيحه وطمانه للاستحلاب وأملت باحسانات ولي نعم، وعرفته إذا كان لا يمكن إلا بالأمان من طرف دولته يفيدنا لكي نسترحم بطلب الأمان وبلاستحسان صار إرسال جواب المذكور صحبة الشيخ أحمد مصتي المايسية وأحد خيالة الميري مع المعتمدين الوردين من طرفه بالمكاتيب وجمل المقصود بإرسال المعتمدين هو لأجل الإطلاع على حاله ومصدر الأتقياء الموجودين معه وكيفية أمره وقد تبنه عليهم أن يتحمسوا عن فعل المرقوم وكيفية منشأ هذا المساد والتعصب الحاصل منه ومقدار الأتقياء الموجودين معه، ويحضروا يصيدوا عبدكم. فالآن حصر المعتمد والخيال ويدهم الجواب منه، ومن مطانعة وجد تطلبه نظير الأول وقرروا أيضاً أنهم قد شاهدوا الأتقياء الموجودين معه فوجدوهم

يبلغوا مقدار ستمائة نفر، منهم أربعمائة وخمسين نفر بالبندق، ومقدار مائة وخمسين نفر من غير سلاح فقط مع الواحد منهم مثل فرد طبنجة وخنجر ويطلقان والبعص بالعصي، واذ بتلك الساعة التي كانوا بها عنده حصر لعنده سبعة عشر مسلحين من فواحي بعلبك ومعهم مكتوب له من الأمير خنجر من تعلقات الشقي الأمير جهجاه يخبره انه مسك شبلي العريان بأطراف حماء وعلقه على عود وان المعتمدين المذكورين قد اطلعوا على المكتوب المذكور وشاهدوه عياناً كما وحصر لعنده واحد شقي يسمى درويش بعلبكي من بعلبك ومعه كام نفر وانه من هذا الوجه صاير للمذكور جسارة على ارتكاب الفساد وقرروا معتمدين أيضاً ان المذكور بالابتداء كان منتسب معهم بالكلام فعند حضور مكتوب له مع أنصار بعلبك المتقدم الشرح عنهم قويت مراعاته، وصار يتلصص بأقوال خارجة عن الطريقة بقوله إذا كان لم يحاب لسؤاله ولا يزداد شقاوة حتى يسري سرره على النواحي الموجود بها الآن وخلافها، فاقبضى لأعراس للأعتاب السنية السرة عسكرية بهذا الخصوص وعن صدور أمر سعادتك بإرسال الأمير محيد الشهابي لضمير الشقي المذكور ومن معه وتكملهم وبحوله تعالى وحسن توجهات الأنظار الشريفة من يوقع هذا الخاسر ومن معه باليد وبحاروا مقابلته فعلهم والذي ينع من أمر ذلك يقدم الأعراس لدولتكم بعنه بأوقاته طبق معاد الأمر الكريم أهتد،⁽¹⁾

عاد الجواسيس المصريون ومعهم بالإصافة إلى ما حصلوا عليه من معلومات، رسالة من حسين بعرض فيها مطالبته وشروطه على محمد علي باشا بمسه في 19 رمضان 1255 هـ وجاء فيها

«سلطانم رفيع الحناب، فسيح الرحاب، حميد المرايا، كريم الشيم، أفندم المعظم أدام الله تعالى وجوده الشريفة، المعروض إلى أعتاب دولتكم، تشرفنا بأمركم الكريم فحواه السامي يشير بما قاصد به مرحم دولتكم من الأمان ورأى من الطرف الأشرف أفنديا السرهسك المعظم ويكون الأمان على جميع ما حصل منا من دم ومال وغيره، والأمان لنا وإلى كل من يختص بنا على الدم والمال والسلاح، ثانياً بإعطاء الثلاث مقامات عهدنا والمعاش الذي كان بيدنا سابقاً، وإعطاء المقاطعات عهدتنا حسب شرطنامات الصائفة كأيام ولدنا المرحوم الشيخ فارس الناصيص، ورفع المتسلمين والمعاش الذي كان بيد المرحوم فوق معاشنا استحق، يصيم بحالنا وحال

(1) المصدر نفسه من 270 - 269 محظطة رقم 6103.

أتباعنا وأنني متعهد على موجب الأعراس الذي تقدم مني سابق بدفع الأموال والفلال، بحيث أن لا يدخل إلى البلاد أحد غيري، ومتعهد بكل صعط يحصل في الطرقات وغيره مما هو صد رضى هذه الدولة السعيدة، وأنني لا أواجه دولة أبداً حيث رأينا الدين واجهوا كيف جرى بحالهم، وأما المطالب من مال وأغلال فانا متعهد بنحازها ودفعها تمام هذا ما وجب قنصى إعراسه لدولتكم أفندم،⁽¹⁾

طلب قائد الثورة من محمد علي باشا في هذه الرسالة الطلبات الآتية

- 1 - الأمان له ولجن سار معه على الدم والمال والسلاح
- 2 - إعادة المقاطعات الثلاث إلى حكمه كما كانت أيام الشيخ فارس الناصيف وراقب له ولجن معه.
- 3 - لا يدخل البلاد أحد غيره ويمهم من ذلك أن يستقل بحكم جبل عامل دون أن تدخله قوة إدارية أو عسكرية أخرى
- 4 - يتعهد مقابل ذلك بدفع الأموال والفلال المروضة وتأمين الأمن والطرقات

صدر أمر من عسكري إلى محمد شريف باشا مؤرخ في 3 رمضان 1255هـ أي أن تاريخه سابق لتاريخ المفاوضات مع حسين ورسائله إلى محمد علي، يؤكد أن القيادة المصرية كانت بحادع وتعاطل وتحذر المساكر في الوقت الذي كان معتمداً يفاوض في بلاد بشارة، ويعري الثوار بعود كاذبة، بتصفى هذا الأمر مواهقة القيادة العليا على إرسال الأمير مجيد ورجاله إلى بلاد بشاره لتأديب حسين شبيب ومرفق به أمر آخر من إبراهيم باشا بوجوب عدم الالتفات إلى راحة الحدود السكان وهرز المرصى منهم وإرسال الأصحاء للتكفل بالشقي حسين شبيب مؤرخ في 12 رمضان من العام نفسه،

وفي 16 رمضان أرسل مجيد كدماً إلى محمد شريف باشا رفعه إلى إبراهيم باشا وحيه يذكر أنه ضرب الشقي حسين شبيب وشنت شعله واضطره إلى الفرار وأنه جاد في أثره لإلقاء القبض عليه

ويميد تقرير مجيد الشهابي أن المعركة المصلة جرت في النبال المجاورة ليارون وكان مع حسين مايتان من رجاله وقع منهم أسير واحد ولم يذكر عدد القتلى بعد أن تبين أن المفاوضات هي حدة للإطاق على الثوار، وتسهيل مهمة مجيد وغيره

من القواد المصريين كسليمان باشا وأحمد أنعا، هي القصاص عليهم واجهه الثائرون هذه الحملة وانسحبوا بعد قتال عيب بينما درج حسين البلاد مع أخيه محمد وحفنة من أنصاره المخلصين إلى حوران وأرياص دمشق⁽¹⁾

«اتصل خبرهم بشريف باشا المصري والي الشام بوشاية أحد مشايخ السرور⁽²⁾ فأرسل عليهم فرقة من عسكره أحاطت بهم في منزل كانوا فيه وكان حسين بك الشيب مريضاً مديماً فأوعز لأخيه علي بك أن ينجو بنفسه فخرج من الدار ويده سلاحه يهتد بالموت كل من يدنو منه، فأخترق صفوف الحند، وهم لا يعرفونه يتبعه جماعة من رجاله فيهم نصر الله نعنوع من المروانية وأيوب علق ونصر الله رهون من يحمر ودخل الحند البيت فكان من السهل القبض على حسين بك لشدة مرضه، وبقي معه جماعة من رجاله وبيهم شاب وافر المروءة يدعى موسى قليط من قرية (ياطر) جنوبي لبنان عامل. وسأل قائد الحند عن محمد علي بك بعد أن قص علي حسين بك وحشي موسى قليط أن يتعقبوه فقال: أنا هو ولكن يشابهه شكلاً، فقبضوا عليه وساروا بهما إلى دمشق فامر شريف باشا بشمهما، وبما محمد علي بك بنفسه وعاش بعد هذه الحادثة 40 سنة. دون أن يعود إلى بلاده حلالها⁽³⁾»

وهكذا ومع الناصر المائل بين يدي جلاديه ومعهم عشرة من أتباعه بعد قتال مسميت استمر ثلاث سنوات في 28 شوال وسقط شهيد وأثني آخر، كما سقط الكثيرون قبله وهم يقاتلون جيشاً أجنبياً جاء ليحصص حص عامر ويقصي علي روح المقاومة عند أهله، فاستقص هذا الشيخ العاصي وقاوم بسلاح حتى بقى حبله مستقلاً بيد يديه لدين التمسوا حوله، وقاتلوا معه بالمصي والطينحات جيشاً حديثاً عجرت جيوش الإمبراطورية العثمانية عن مواجهته حتى أن الدولة عجرت أن تغل مل صيدا والشقيف إلى عكا، إلا مع سليمان باشا قائد الحند الداهب لتأديب حسين، نظراً لتسلط المذكور على المارة والمسافرين⁽⁴⁾ وقد ساندوا العاملين وقاتلوا معه «وكانت جميع مشايخ قرايا هذه الجهة تقدم له مهما طلب⁽⁵⁾».

(1) تاريخ جبل عامل آل صفا، ص 148

(2) المصدر السابق

(3) محمد حابر آل صفا، ص 148

(4) نقول مدير إيالة صيدا بن مصالح بلاد بشارة قد تعطل بسبب الثورة محمطة رقم 6092 ص 257.

(5) المصدر السابق إن الوثائق المصرية الرسمية حول ثورة حسين الشيب منقولة عن المحفوظات الملكية لرسمته التي جمعها الدكتور أسد رستم المجد الرابع ص (280 - 250)

حمد المحمود

بهي حمد البيك مختصياً خارج جبل عامل طيبة الفترة التي أعقبت السيطرة المصرية عليه، فإن سنه المتقدم وموقعه لا يسمحان له بقيادة الثورات الشعبية وحرب العصابات أو الاشتراك بها، لما تتطلبه من كُرٍّ وفرٍّ وتقل في الأجرأش والجبال، وربما قد ساهم بنصوده و تصالاته بدعم ومسانده ثوره ابن عمه حسين من وراء الستار، أو أنه اقتنع بعدم التصدي لقوة طاعية كقوة برهم ناشد، وانتظر الظروف السياسية المناسبة فلما تبدل الوضع الدولي وعزمت لدول الكرى على التصدي لمشاريع محمد علي، وانتقل الجيش العثماني من حاة التر جع والهرمة والحمود التي كان فيها، إلى المبادرة والهجوم لاسترخاع البلاد التي انزعجت منه رأى حمد السك، وهو الشيخ لمحرب الحكيم أن الوقت حان لظهوره وعودته إلى الاشتراك في المقاومة والقتال، فرجع إلى بلاده وأعلن الثورة على المصريين وكسب أساطيل الحماء قد اقتربت من سواحل الشام والجيش العثماني بتجمع في حلب فاصطدم بالأمر محبد الشهاى عند حسر (القمقية) وردّه على أعقابها، وانضم إلى الجيوش العثمانية التي وصلت إلى حمص وحاص معها معارك عدة حتى عنته الدولة العثمانية حاكماً على جبل عامل، وشيخ مشايخ بلاد شاره وعهدت إليه بمطارده الجيش المصري في الحبوب وأرسل إليه الحسارال العثماني حوقموش باشا قائد جيش لحلماء الحطاب الاتي.

«افتحار العشائر الكرام حصرة متملم بلاد بشارة بك عالي قدر حفظه الله، قبل تاريخه أصدرنا لحباكم أوامر كافة بشأن سرعة توجهكم نواحي صمد ومن حيث وردت لنا أخبار الآن عن هزم إبراهيم باشا بالقيام من الشام والمرور من نواحي جسر بنات يعقوب اقتضى، والحالة هذه، اسراعاً بصدار امرنا تكراراً لحباكم لكي بحال وصوله إليكم تقوموا حالاً بجميع خيلكم وركلكم إلى صمد. ومتن ملفكم قدوم إبراهيم باشا سواء كان من نواحي جسر بنات يعقوب أو من جسر الجامع، يلزم منكم بالحال والساعة تسرعوا بكامل جيوشكم لصربه، وتتبعوا آثاره أينما توجه، وتبطشوا به وبالأكثر ثباتاً. ولا تقبل لكم عدراً كنا عن عدم قيامكم عاجلاً، حيث هذه آخر الوقعات. ونحن نحولته تعالى عارمين على القيام بالذات نصمد ولا يلزم زود تأكيد عن ذلك اعتمدوا أمرنا هذا والله تعالى يحفظكم،»

جهّر حمد بيك جيشاً من ثمانية آلاف مقاتل على بمقته الحاصة، ورحف به لقتال

(1) محمد جابر آل صفاء، ص 151. وحمد البيك هو ابن من ثرمة هذا النلقب من حكام جبل عامل وشيوخه.

المصريين، وجرت بين الطرفين معارك عدة أهمها هي وادي العبيس في بلاد عكا، فأسر أربعماية وعشرين جندياً مصرياً ثم هاجم صمد وانترعها من المصريين، وعين أحد أخصائه حمد العزي متسماً عليها، ثم دخل طبريا والناصرية وشفا عمرو وحرر الأسرى من سجون عكا، وكان د ثماً على توصل وتسيق مع القوات العثمانية وأسطولها وقواتها

كما فعلوا دائماً مع أسلحة، رافق الشعرء بشعرهم مسيرة حمد النيك من معركة إلى أخرى، وأشادوا بمآثره ومواقفه وعدّوا محاسنه ومصاحره، مما جعل من الممكن استخلاص أهم مراحل تاريخه والكثير من طباعه وسحاياه من خلال الشعر العاملي الذي تناول كل هذه الأمور بتفصيل، قد يعي عن التواريخ المكتوبة البادرة بعد تجريده مما يحتمله من مبالغة وحيال

على اثر الدور العسكري الهام الذي ساهم فيه حمد النيك يقال الجيش المصري انصرف إلى ممارسة مهام الحكم والسياسة، فأرر الدولة في محاولة التخلص من الحكم الشهابي، واستمرّ يحكم مقاطعاته مستقلاً عن بدخلات العثمانيين وبعداً عن مصايقاتهم، وقد قدّروا له مساعدتهم في الحرب فأعدّوا عليه الرب حتى دنا من ربة الوراة، وأرسل له شاه إيران إلهندياً والأعلم وأرسله كبار رجال الدولة عمربين له عن تقديرهم ومودتهم⁽¹⁾ كما يتبيّن في الرسالة الآتية التي أرسلها إليه محمد باشا القرصي وكان يومئذ مشير⁽²⁾ (الأوردو عرسسان) وتولى بعدها منصب الصدارة العظمى

في التحية الوهية والتسليمات البهية أن بتاريخه ورد تحريركم الحال السرور وحصل به كمال الأنس والحبور بما افاده من بيلكم ربة - مديرية إسطنبول عامرة شاهانية بغاية الإحسانات العميمة للوكابية وفي الحقيقة إن ذلك من ثمرات شجرة صداقتكم المعهودة، ومكافأة لما قد أبررتموه في خدمة الدولة من العيرة المشهودة. بناء على تكرار تقديم الإلهاء من طرفنا بمسارعنكم لخدمة الدين والدولة وقت سوق الأردو الهمايوني لإبعاد الإرادة السيئة، وما أجريتموه حينئذ من الهمة المخلصة الوفية، ومن كان مثلكم من عبيد الدولة العلية المتصفين بالصدق والاستقامة يستحق فوق هذا من الرفعه والكرامة. فبعض عناية ذي القدرة الصمدانية، وولي نعمة العالم والبحرية لا ترالون مشمولين بالرضا السامي

(1) آل صبا، المرجع السابق، ص 150.

الملوكاني، حائزين الترقى وبلوغ الأمانى إلى أن نهنيكم برتبة الوزارة العظيمة المقدر في ظل صاحب الشوكة والاقتدار والآن بناء عليه وخاصة لتنهئتكم بهذه المسرة حررنا لكم شقة المحبة والخلوص فواصلونا بمشعرات صحتكم المرضوبة مع إفادة المهام المطلوبة ودعمتم

عن الشام في 11 ربيع أول سنة 1269 هـ محل الختم

«كان حمد المحمود عالماً فاضلاً شاعراً حكيماً خبيراً بأحوال العالم والتواريخ القديمة وأسابغ العرب كان من أهل العلم والمصل أديباً قرأ على الشيخ حسن القبيسي في مدرسة الكوثرية، جدد بناء قبة تبين بعد أن هدمها الجزان وأقام فيها»⁽¹⁾

«رغم جبل عامل حمد الديك أو حمد المحمود أبيخ» من أنجبت أسرته، كان فارساً مقداماً، وكان أديباً شاعراً تلقى الحكم الإبراهيمي بأسى عميق فقد أفقده سلطته وهذا طلاً لا حول له ولا طول، رأى فشك ثوره ولدي عمه فأنز الصر ولما لاحت له الفرصة أختنمها بجدارة»⁽²⁾

«في ساعات النصر يمر الشعراء ملتفين حول حمد مندفعين في تهنئه والإشادة بانتصاراته والنهني بأمجاد الجبل وحمد إلى جانب مكانته، كان شاعراً واجتمع للشعراء أمير تشوقه المدائح، وشاعر يهم ما يقولون، وأمجاد معربة بالمدح فالتقى في قصره مجموعة من الشعراء لم يلتق مثلها إلا في قصور الملوك السالمين، فهي حياة مصغرة لصيف الدولة قد ابهت في جبل عامل وإذا كانت مدائح شعراء سيف الدولة غير ممجوجة فكذلك هي مدائح حمد المحمود الوائلي وكما كان سيف الدولة شاعراً، كذلك كان حمد، وكما كان الأول فارساً مقداماً، كذلك كان الثاني، كان المال موهوراً والتيد مبسوطة فاردهر الشعر اردهاراً يعز مثيله، وشهد جبل عامل عصر ذهبياً لشعر، وكانت تبين قاعدة حكمه وفيها ملتقى وفادهم وكان قد جدد بناء قلعتها، هذه القلعة التي شهدت أرمي أمجادها أيام عمه الشيخ ناصيف النصر ورالت عن مكانتها حتى أتاها حمد فأعلى بنيانها،

(1) المرجع السابق، ص 157 - 156.

(2) العقد لمنص الأسد، ص 44.

(3) أعيان الشيعة محسن الأمين ج 9، ص 508.

وأعاد رونقها وجعلها قصراً منيعاً هو أشبه ما يكون بالبلاط الملكي برجاله
وشعرائه وبطشه واعتداده،¹

توهي حمد النبيك بدون عمب فعلمه هي زعامة جبل عامل حميد شقيقه علي بك
أسعد المحمد يعاونه ابن عمه محمد بك أسعد الحليل



بقايا مقر حكام جبل عامل في تيسير

(1) حسن لأمير، عصر حمد المحمود، ص 49-48

الفصل السابع

نهاية الحكم الوطني

علي بك الأسعد

شأه في كنف عمه ولارمه في معناه في دمشق ثم في لربداني واشترك معه في معاركه ضد إبراهيم باشا حتى وفاته، كان لعنه الرسمي في المراسلات الحكومية رئيس المشائر وشيخ مشايخ بلاد شارة كأسلافه، «بني من العز والصولة ما لم يبلغه رعيم قبله من رعماء الشيعة، بعد الرعمم الأكبر ناصيف نصار، وبعد عصره عصر الشيعة الذهبي هي العهد الأخير في جبل عامل، ساد فيه الأمن ورأت أهوال الحروب، وانصرف الناس إلى استثمار الأرض وغرس الأشجار، هاجمت اقتصاديات البلاد وامت الثروة، وكان للظلم والتبع العالمي سوق رائحة في مصر وغيرها من البلدان، وارتفع شأن الطائفة فحطبت وذهبا الطوائف».

مما لا شك فيه أن عهد علي بك في السياسة والرياسة والأدب كان استمراراً لعهد عمه حمد على اختلاف الظروف بين العهدين، عهد الانتقال من حكم المصريين والشهابيين إلى العودة لحكم الدولة العثمانية وما رافق ذلك من تطورات وملازمات⁽¹⁾

رها في عهد العلم والشعر والأدب وانتشر حتى بين العوام والنساء فتبع مسكن عدد غير قليل من الأسرة الوائليه أو من اللواتي نشأن في ظلهم في قصور تبين وكان هو نفسه أديباً ماهراً وشاعراً عبقرياً تتحلى في شاعريته روح الشاعر العربي الصطري، أحاطه أهل الشعر والأدب من سائر الأقطار العربية وكان كرمه الأسطوري وما يروي عن سخائه وبدله، بالإضافة إلى تدوقه الشعر، ونعيقه بالأدب ما أطلق المواهب من

(1) آل صبا، ص 66

(2) فصول من تاريخ الشيعة، لرب، ص 190.

عقالها، ونفع القرائح الى غايتها ما أستمّر طويلاً بعد عهده ولربما لا يزال حتى اليوم شيء وبقية من وجهه⁽¹⁾

كما ازدهرت حوله وفي رعايته أهم المصادر التاريخية العامية، التي لا تزال تشكل حتى اليوم نواة المحاولات الرائدة لكتابة التاريخ رغم تناقصها أحياناً وعدم شمولها، ومنها شرح الشيخ علي السبيتي لقصيدة من نظم علي بك عدد فيها مفاحر قومه ومآثر عشيرته وهو «الحوهر المجرد» في شرح قصيدة علي بك الأسعد، وتاريخ الشيخ علي مروه «جبل عامل في قريين» وتاريخ محمد معنية «حواهر الحكم» والشيوخ المؤرخون الثلاثة ممن عاصروا علي بك وكانوا على صلة وثيقة به

يقول السبيني عن علي بك «راجت في وقته في تلك البلاد صرامة العلم والأدب وكان الجميع يتسابقون لإحرازها والتردي برذائلها وكثيراً ما كان له احترام للعلم وأربابه، واهتمام برفع قواده ونوابعه، ولقد بسى في نفس قلعة تبين السرايات العديدة والدور الكثيرة والدوائر للضيقات والحشم، وكانت تلك القصور تدهش العقول لما فيها من الرويق والعمش والرخام فضلاً عن إيفان البناء الذي أستحضر له أحسن وأشهر دوي فن البناء وهندسته في ذلك الوقت⁽²⁾

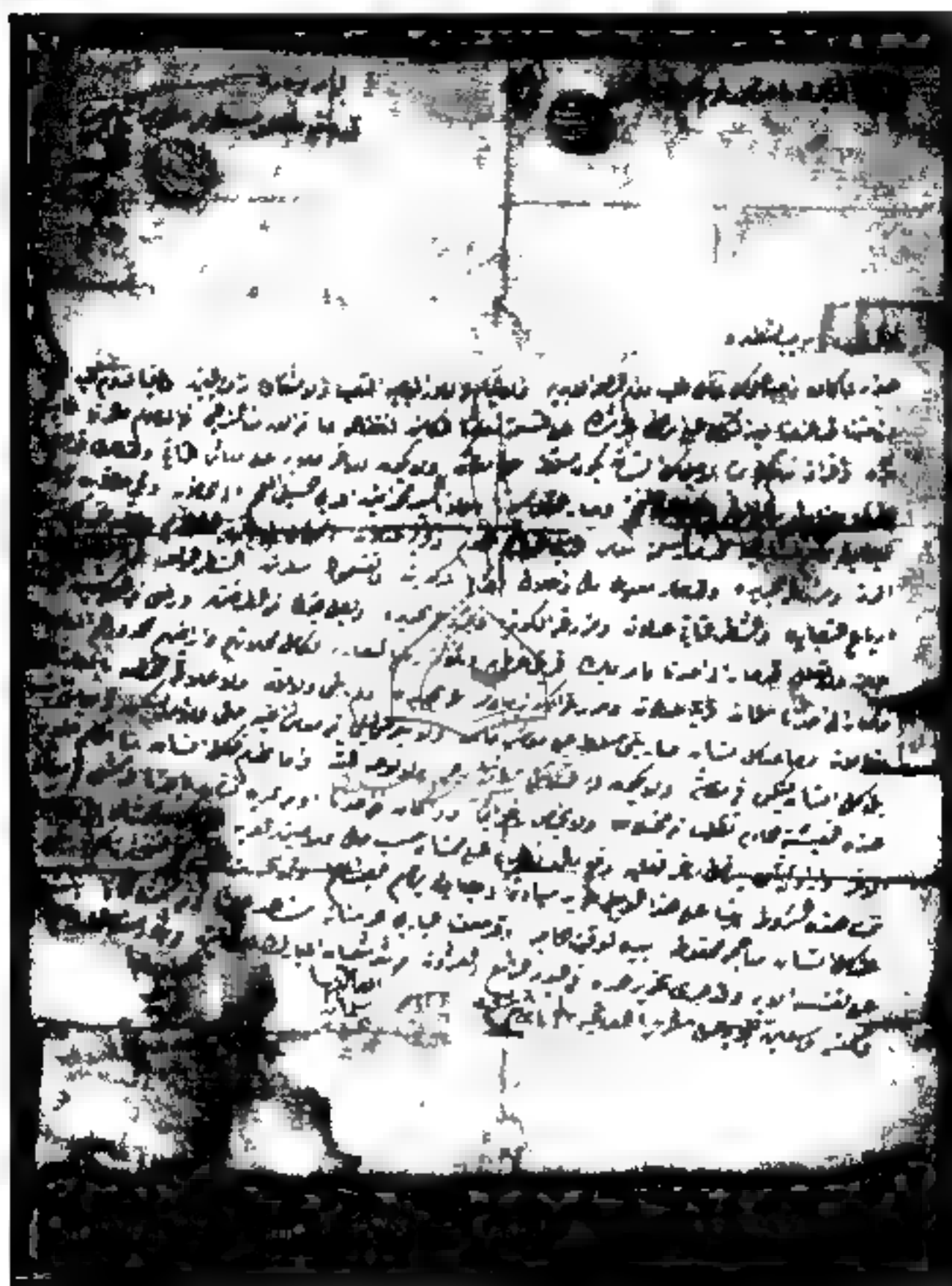
وأصبحت قصور تبين محمد الرحال، ومقصود الوقوف بهيكل علي بك ومحمد بك بصودهما على الأمصار المجاورة وأقاما علاقات ودية مع أمراء البادية وشيوخ الصبال كآل المريد ورؤساء بني حسن من عمرة وال لحاسي رؤساء قبائل الهوارة والهنادي وولد علي⁽³⁾.

امتدت فترة حكومة علي بك ومحمد بك ثلاثة عشر عاماً، لم تشهد كعهود أسلافهما كوارث وحروباً كثيرة، فقد كانت على العموم فترة استقرار وأمن وازدهار، رغم أنه تحللتها حوادث 1860م الطائفية بين الدرور والمواربة، وقد وصلت ديولها إلى بعض أطراف جبل عامل فاحتهد علي بك بماله ورجاله لعموم المسيحيين، مع احتفاظه بعلاقات المودة مع كبراء الدرور ولما جاء نورير هو د باشا لإخماد الفتنة اصطاحه معه إلى الشام وجبل لبنان بعد أن جثد على معقته ألف فارس من العامليين، وأوكل إليهم القيام بمهمات أمنية في حوران وعوطه دمشق ووادي التيم وفي حاصبيا وراشيا، وقام

(1) جبل عامل في التاريخ لمعينة، ص 439

(2) راجع جبل عامل في التاريخ لمعينة 446 437

(3) آل صفا، ص 159



قصة عقارات قري الخرطوم وعدلين و نصيرية و بكورية و عديدة بين الاخوين تامر وسمان اولاد
حسين السلمان في حضور علي بك الامجد و سيد محمد أمين الحسيني في 24 شعبان 1275 هـ

ينقل المسيحيين من هذه المواحي ومن جبل لبنان إلى المدن الساحلية الامة كبيروت وصيدا وصور، كما أوى بعضهم بقعة تبين محلّه ومركز حكومته حمائاً على سلامتهم هيئته هؤلاء باشا مستشاراً هي المجلس الأعلى الذي أله للنظر في شؤون سوريا والتحقق من المص التي حدثت فيها⁽¹⁾

بعد حوادث اقليم التماح وقضاء جزين تحركت الخواطر في بلاد بشاره وفي بلاد حكا وصمد وطبريا ولكن مكوات بيب علي الصغير منعوا حدوث ذلك في بلادهم وحالوا دون كل شريق على بصاري مقاطعتهم⁽²⁾.

وقد قامت بينه وبين الأمير عبد القادر الجزائري صاحب الدور الشهير في حمايه مسيحيي دمشق مراسلات تدل على تعاون وتقدير هي تنميد العايات بصها، كما يتضح من إحدى رسائله التي يطلب فيها اتصال المراسلة بينهما وبنوه بالخدمات والهمة والعيه التي ظهرت منه هي أيام الثمنه⁽³⁾.

كان علي بك بعد الى معاحلة المهام التي يندب نفسه لها أو بكلمه بها الدولة بالحنس والروية واستعمال بموده الأدبي ومركزه الصلي والمعوى هي إنهاء الخلافات والممارعات التي يسعى إلى إنهاؤها، فكان يعد راية الصلح وهي من حصائص أسرته وتقائدها فتحقق الدماء وبعد الألفة بين نقائل استعارية والمثبات المتناحرة، كما فعل في إحلال السلام بين عشائر الهواره والهادي عند خلافهم مع محمد سعيد شمدين، أمير الحاج، نشامي بعد معركة «صغورية» أو عندما أنهى الدراع لقائهم بين آل المريد وآل الدوحي والتيان من رعاء الأعراب ورؤسائها، كذلك أنهى ثورة اسماعيل خير بك رئيس عشيرة المتاوره وجاء بالزعيم «نصوي» إلى مركز الإيالة لإنهاء تمرده كما حال محمد بك دون استمحال الصدام بين الدرور والمقاولة في حصار جباع⁽⁴⁾.

ورغم كل ذلك لم يتمكن علي بك من حث صراع طويل مع أحد أهم أبناء عشيرته تامر الحسين، وتعود جذور هذا الخلاف بين القريش إلى العهد المصري، عندما كان حسين المسلمان هو الرعيم العاملي الوحيد الذي ساءم المصريين عند احتلال ابراهيم

(1) العهد المص ص 98

(2) حصر الشام عن نكبات الشام شاهين مكاريوس ص 209 ط مصر 1895م

(3) نص الرسالة هي العهد المص ص 155

(4) من حصائص الرعاءه لبي سعى بمقامها بمعوى من حق الدماء بين المتقاتلين

(5) آل صبا، ص 159

باشا لسوريا، وكان صديقاً للأخير بشير الشهابي فلما انهرد بموقفه الموالي للمصريين نصبه إبراهيم باشا شيخ مشايخ جبل عامل، في الوقت الذي اختار شوعمه جانب العثمانيين، وقاتلوا المصريين فلم اسحب المصريون عاد حمد البيك حاكماً عاماً وشجراً على المشايخ فعيّن بصفته هذه ولده ناصر الحسين مديراً على مقاطعتي هوبين ومرجعيون، وكان الحاكم يقيم في قلعة هوبين قبل أن يخرّبها الزلزل وينتقل حسين السلمان إلى بنت جبيل حيث عمّر داراً وسراياً وحملها مقراً له.

كان ناصر الحسين أكبر سنّاً من علي بك فاعتبر أن من حقّه أن يكون هو الحاكم العام ورعيه العشيّة، وأن تكون تسيير مركز حكومته مما اشعل نزاعاً بين القرينين استمرّ مدّة طويلة وسبّب مناوشات وصدامات بينهما كانت تنتهي عند تدخل الوسطاء إلى صلح لا يدوم طويلاً.

سافر ناصر إلى مصر بطريق البر سنة 1862م ترافقه حاشية كبيرة وبرز صيماً على حديوي مصر سعيد باشا الذي أكرم وفادته مقدّراً موقف والده الموالي للأسرة العلوية، وقد طلب وساطة الحديوي لفتح الباب للعائلي لمحه حكومة جبل عامل ورئاسة العشائر مكان علي بك لأنه أكبر رعماء العشائر سنّاً، ولأن المنصب كان لأبيه في عهد الحكومة المصرية في بلاد الشام. لذلك سافر إلى الأسمانة وحلّ صيماً على محمود بديم باشا الصدر الأعظم وهو الذي كان ولداً على صيدا سنة 1855م وقدم له هدايا ثمينة، ويبدو أنه عاد من الأسمانة بقرار إعدته حاكماً على بنين قاعدة جبل عامل مما حدّد النزاع مع علي بك وعادت العلاقات بينهما إلى سابق عهدها وتنازعهما، ولابد من الإضافة في تفاصيل هذا الحادث العابر في طاهره، لو لم تتحدده السلطة مناسبة لإلغاء الحكم المحلي في جبل عامل الذي ستمرّ إلى نهاية وجودها.

عرض شبيب باشا الأسعد أسباب هذا لخلاف وتنازعه فقال

إن تآمر الحسين السلطان العباس كان يدير حكومة جبل هوبين ومرجعيون، وكان بها أبوه من قبله وقد نشأ بعض أسباب ودواعي أمالت والذي لتبديله لكونها كانت عليه وظيفة رئاسة العشائر وهو من بني عمومته وقد التمس هذا العزل والتبديل بتنصيب البطل النبيل محمد بك الأسعد الخليل، وهو أقرب إليه من ناصر نسباً وأحب الناس لنفسه، وكان والذي شديد المحبة له حتى أنه لا يمزقه عن نفسه، ولما أقلق هذا الأمر ناصر بك وأزعجه وصاعف حدّته المطبوع عليها ذهب للوالي وهو إدارك محمد خورشيد باشا وبث ما في صدره، وإذا به حرك من لوالي شيئاً كان يحده في نفسه من غرض

سابق عندما كان هي رمزة الهيئة التي كانت بجمعية هؤلاء باشا بحادثة سوريا، وكان بينه وبين والدي عدم توفد وهو رجل حقوق وبالتصادف أن الوالي كان على إزماع التوجه لجهاب عكا لتسوية بعض حائل كان واقعاً بادرته، فقام من مركز الولاية وحرر لوالدي أن يقابله في صيدا وأن يكون معه محمد بك فواهه هالك، ولدي مقابله أولاه تمام الرعاية وأكرمه⁽¹⁾.

ومع ذلك كانت مقابلة عاصمة علي مديروي شبيب باشا، انتهت بتقديم علي بك استقالته بسبب رعة الوالي، في إبطال قراره بتعيين محمد بك، وإعادة تاجر إلى وظيفته، فجاء من أوعر صدر الوالي موهماً إياه أن هي بيته مهاجمته بمن معه من الرجال فالتحد الإحتساطات الواحة وأبلغ علي ومحمد بالتوجه إلى مركز الإنابة في بيروت وسار إلى عكا حيث قابلته في الطريق شبيب وحقته داعين الوالي إلى التوقف في تعيين حيث أئدى إمعانه بمحكمة لقصور وعودة لهواء⁽²⁾.

تدو رواية شبيب باشا عن واقعة توقف والده ورهقه غير مقبلة لأسباب عديدة أولاً، كان لشبيب من العمر عند حصول التوقيف 12 عاماً، مما يجعله قاصراً عن معرفة نواطر الأمور وحقيقة الأسباب حيث من الطبيعي أن يرى ظواهر الأمور دون حماياها نظراً لصغر سنه

ثانياً إن تعلق الراوي بالدولة العثمانية وحرصه على عدم ذكر أي إشارة ولو يسيرة تشينها أو تحدثش هروص لطاعة التي يراها وحنة نحوها، وبأكده على التزمه ووالده بالتعلق، الكامل والحصوع المطبق لأوامرها وبواميها، تجعله يحكم عن ذكر كل ما يتعارض مع مسلماته هذه ولو كان على معرفة بها وطلاع عليها

ثالثاً اكتمى الراوي بذكر ما يحمل الولي لولده من حقد وصعينة، تعود لعلاقة سابقة دون أن يتجاوز ذلك إلى ما كانت تتجه إليه نيّة الولاية في ذلك التاريخ، والسياسة العثمانية عموماً نحو سائر الانقطاعات اللبنانية وحصاعها للحكم التركي المباشر.

رابعاً كان علي بك يشعر أن الأمور لا تسير في صالحه من جانب الدولة منذ مدّة، وقبل هذا اللقاء، فأرسل حانياً من أمواله وتحفه، وحتى رياض فصوره وأودعها في أمانة

(1) العقد المصدد، الأسعد، ص 109

(2) المرجع السابق ص 109

الحاج درويش صاحب (ميفدور) مما يدل على أنه كان يشعر بحظر أو ضرر قد يتعرض له من السلطة⁽¹⁾

خامساً: كان بإمكان درويش باشا أن يطلب تعيين تامر الحسين، بل أن يعينه حاكماً عاماً، دون حاجته إلى استدعاء علي بيك ومعه محمد بيك، لو كانت غايته محصورة بهذا الأمر، ولم يكن هي بيته القصر على الرعيين وعزلهما معاً.

سادساً ثم يعين تامر الحسين بعد القصر على قريبيه، مما يؤكد أن استبدال محمد بتامر لم يكن الهدف الحقيقي من تصرف الوالي. وقد لاحظ تامر نفسه ذلك فأسقط هي يده عند اعتقال الرعيين⁽²⁾ و درك حقيقة مقاصد رجال الدولة، وعرض على أبناء عمته مساعدتهم والميدام ثورة ضد السلطة فأبى ذلك قبل أن يأتي سعد الدين الأمير الصمني، بأعوانه إلى صيدا بقصد الهجوم على الثكنة العسكرية وإيقاد الموقهين⁽³⁾

من الواضح أن سياسة الإدارة الثمانيّة هي ذلك الوقت كانت ترمي إلى القضاء على سلطة الحكّام المحليين وتنصيب موظفين مكانهم، هددت الشقاق بين الرعيين والوائس بإصدارها قرارات متناقضة تنص أحدهما مكان الآخر لتحرئة قواهما وضربهما ببعضهما البعض مقدّمة للقضاء على الجميع والعاء الحكم الإقطاعي، وهذا ما فعلته بعد توقيف الرعيين مباشرة وكان لا يزال في بيروت، إذ ألعب ولاية صيدا، وولاية الشام وقامت مكانهما ولاية سوريا، وتحدث دمشق قاعدة لها وقد اتبعت الأسلوب نفسه في القضاء على الحراشة في بعلبك، والعاء الحكم المحلي فيها وتعيين قائمقام تركي مكانه في هذا المنصب.

بعد توقيف الرعيين، نقلوا ليلاً إلى سجن حربية كانت راسية في مباء صيدا، فنقلتهما إلى بيروت حيث أمضيا شهراً، لا يسمح لهما بمعاذرتها. وقد استكتب الوالي بعض الناس عرائص شكوى عليهما، وبدأ أن السلطات تبدل جهداً قوياً للميل منهما، وقد بقيا في بيروت حتى صدرت التعديلات الإدارية المرتقبة، وأصبحت المدينة سنجاً ملحاً بولاية سوريا المستحدثة وعين شروسي راده محمد رشدي باشا وألباً عليها قبل أن يصل بعد ذلك إلى مرتبة الصدارة العظمى.

(1) العقبة ص 318

(2) المرجع السابق، 321.

(3) المرجع السابق، 321-322.

«طلب الوالي من علي ومحمد التوجه إلى الشام للترؤد بالأوامر قبل رجوعهما إلى ديارهما، فوصلوا إلى دمشق حيث قيل إن الهوء الأصغر داهمهما وقضى عليهما. فتوفي علي في ربيع أول 1282 هـ - 1865 م وتحق به محمد بعد أربعة أيام، وقال آخرون إنهما ماتا مسمومين، كما يؤكد تقرير هرسي رسمي⁽¹⁾ وانتهت بوقاتهما حياة جبل عامل السياسية ورال الحكم الوطني عن البلاد وحكمها الترك حكماً مباشراً حتى الحرب العالمية الأولى⁽²⁾».

«كانت وفاة الرعبيين العظمين صربة أليمة للشيعة، عقدت الطائفة بعدها عزتها ومنعتها واستقلالها الذاتي الذي تمتعت به رمزاً، وكثر بعدها أدعياء الرعامة والرئاسة⁽³⁾».

«كان علي بك إذا سار يواكبه حمماية فارس شاكى السلاح على خيول مطهمة قد تمندوا السيوف المحلات بمحارها بالذهب والمصه، والقرانيات الصخمة الواسعة الثم وبأيديهم الرماح⁽⁴⁾».

«سنة 1282 هـ 1865 م انتهت حياة علي بك ومحمد، في دمشق وبوقاتهما انتهت حياة جبل عامل المعنوية والعسكرية ولاديه، لانها هضمت استقلالها الذي شبه الاستقلال المركزي وحكمها العثمانيون حكماً بالسا، أقفلت المدارس وتعطلت نوادي الآداب وأشغل العلماء وطلاب العلم بطلب معاشهم وقسمت البلاد إلى ثلاثة أقضية صور وصيدا ومرجعون وخصصت البلاد لمطام الجندية ولتأدية الضرائب كما تصرعها الدولة هي سائر مقاطعاتها».

«أجرل علي بك العطايا للضريب والبعيد، والصغير والكبير، والحاضر والبادي،

(1) D.D.C. T14 p225

(2) يقول صاحب أعيان الشيعة دهن علي بيك في مشهد المنسوب إلى السيدة ريد الصغرى المكناة بأم كلثوم عربي للمشهد وعلى قبره لوح فيه تاريخ من نظم الشيخ عبد الله البلاغي ودهن محمد بيك بمبرة باب الصغير قرب القبور المنسوبة لآل السيد وكان على قبره رخام وتاريخ أثلمه بمص الناس، أعيان الشيعة الجزء 12 ص 200

كنت أزور قبريهما في طفولتي برهقة حدتي سيطرة ولديها سمدى به علي بك وكاتب على قنطرة سجة كجميع أفراد عائلتهما بهما ماتا مسمومين ثم طمست النيدلات التي حصلت في مقام السيدة ربيب معالم لمريين وكانا متجورين إلى الفاحية لشرقية، أحر المعام وبنيهما شاهدان لهما بسم وشعر وتاريخ

(3) تاريخ جبل عامل، صفا، ص 162.

(4) تاريخ تبين، حسن صالح، ص 389

فبالغ الشعراء ممن عاصره وتخلّف عنه في تعداد مآثره ومكارمه ومصاخره، وكان العلماء والأدباء يعيشون بعين مراه فكان يقطعهم الإقطاعات ويمنّهم بالمرتبات ويبقدهم من النكبات،⁽¹⁾

«ألعت المرممات العثمانية حكم بني وال في جبل عامل ولكن وجودهم الماعل استمرّ دون أن ينقص من رعاتهم شيئاً، واستمرّ نفوذهم وانقياد العاميين إلى رئاستهم كما كانوا طيلة القرون السالمة

يقول القنصل لفرنسي في أحد تقاريره إلى حكومته حول هذه الفترة

ربما كانت معاملة الأتراك لمناولة جبل عامل أشد قسوة مما تعرضت له أية جماعة أخرى في سوريا. لذلك كان المناولة مستعدين لالقاء أنفسهم بين ذراعي أية قوة أجنبية تريد حمايتهم. حاولت حكومة مدمحت⁽²⁾ التدخل لصالحهم بدون فائدة. سأحاول عندما تسع الفرصة أن أثّر اسباب حمدي باشا⁽³⁾ حول مصيرهم ولكي أشك أن تتحرراً هذه الحكومة على التدخل لصالحهم⁽⁴⁾

اتحاد الأسر الثلاث

لم تترك الأسرتان اللتان برزتا في القرن السابع عشر هي تاريخ جبل عامل إلى جانب اللواتيين وهما آل سودون وال شكر من آثارهما سوى العن المعروضة (بعض يوسودون) بالقرب من نبع الحجير⁽⁵⁾ وتقدماً⁽⁶⁾ فيه هدية حربة هي عيانتا، لا يزال الأهالي يطعمون عليها حتى اليوم اسم بني شكر⁽⁷⁾ وبصفة إشارات مصرفة هي كتب التاريخ، كانت آخرها معركة حرت هي عيانتا سنة 1059 هـ 1640 م. ولكن أسرتين

(1) المقيّم، م. م. ، 327

(2) مدمحت باشا (1822 - 1884 م) من أعظم رجال الإدارة العثمانيين صدر أعظم (1872 -

1877) والي سورية 1878 م

(3) أحمد حمدي باشا والي سوريا (1878 - 1883 م)

(4) من تقرير القنصل العام الفرنسي إلى الخارجية في 15 أيلول 1880 م

DDC. T14 p.214

(5) كان اسم سونون كثير الشيوع في بقرن الخامس عشر وبينهم عدد من حكم المماليك كسودون المحمدي نائب صمد سنة 1409 م (جبل عامل، ر. م. ر. ر. ، ص 196) ولا يذكر التاريخ علاقة لأحدهم بهذه الأسرة ولا يخرج كل من ذكر مثل ذلك عن دائرة الافتراض ولتحسين

(6) تعرف اليوم بأهنية بني شكر

غيرهما بررتا بعد ذلك إلى جانب الوائليين على مسرح الأحداث وهما بنو مفكر وبنو أبي صعب فتشكل من الأسر الثلاث ما يعرف بحكومة الاتحاد العاملي الثلاث⁽¹⁾.

إن تاريخ هذه الأسر الثلاث هو في الواقع تاريخ واحد، لا سيما في محطاته المصليّة والرئيسيّة. فإن التحالف بينها يكاد يكون مستمراً دائماً، رغم بعض التماير الذي ظهر أحياناً وهو ما يحصل عادة ضمن الأسرة الواحدة دون أن يقصي على اللحمة التي تبرر الحاجة إليها عند مواجهة عدو مشترك، أو خطر محقق. كانت الرئاسة العامة لشيخ المشايخ من آل علي الصمير وكل شيخ يباشر الحكم في مقاطعته مع التقيد بتوجيهات الرئيس العامة ولا سيما في الأزمات والحروب، وقد تطوّرت العلاقة بينهم ولا سيما بعد حكمة الجزّار إلى نوع من الاتحاد الوثيق، بعد أن قاتلوا معاً وتمردوا معاً وثاروا معاً حتى أصبحوا وكابهم أسرة واحدة تحت أمرة شيخ واحد يماوص عن الجميع في حالتي الحرب والسلام، ويتولّى التوقيع أمام المراجع الحكوميّ وهذا ما فعله فارس الناصيف عند عقد الصلح مع سليمان باشا. فكان ممثلاً لجميع العشائر الثلاثة، ومسؤولاً عن كامل تصرّفاتهم العامة وهو الذي يتولّى توزيع التعويضات والمدلات والأملاك التي عهدت بها الدولة العثمانية إليه كبديل عن أملاكهم المصادرة فكان أميناً على صالح كل أسره منهم وحريصاً على وحدة الجميع⁽²⁾.

ثم يقتصر اتحاد الأسر الثلاث على الموقف السياسيّة والعامة، بل تعدّى ذلك إلى نوع من المشاركة في شيوخ الأراق والممتلكات الخاصة بعد أن تولّى رئيس العشيرة فارس الناصيف إبرام اتفاقية الشهير مع عبدالله باشا بالنيابة عن الجميع، وإدارة شؤونهم باعتبارهم وحدة متكاملة تنطبق عليهم المبادئ والأعراف نفسها ويتشاركون في نصر الأملاك والمراقق ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى اتفقت الأسر الثلاث بمبادرة من علي بيك الأسعد على إيجاد رابطة نسب بينها وصار أحدهم يكتب للآخر بإبن العم وصارت هذه سنة وقاعدة تريد اللحمة بينهم وتستتبع قواعد متشابهة في التعامل والأعراف والمطالبة بالتأثير ودفع الديّات وسائر العلاقات الاجتماعيّة، فيما بينهم ومع الآخرين رغم بقاء القاعدة القديمة في "نرواج والتي تقصي أن العشيرة الأولى تتروّج من الثالثة ولكنها لا تروّجها أي تأخذ ولا تعطي"⁽³⁾.

(1) آل صفا، ص 98

(2) راجع الوثيقة المتعلّقة بأملاك الأسر الثلاث

(3) العقد المضد الأسعد، ص 93.

تميزت العلاقات بين الأسر الثلاث بالتناصر والتحاليف والود وقلمما حصل تباعد أو خلاف تطور إلى صدام وكاب النمرعات بين أبناء الأسرة الواحدة هي أكثر شيوعاً كما حصل بين قبيلان الحسن وعباس المحمد على حكم صور أو بين علي بيك وثامر الحسين على الرئاسة العامة، فكانت كل أسرة تحترم أملاك الأخرى وقلاعها ومقاطعاتها، وقد وصل التقيد بالأعراف والأصول بين أفراد العشائر إلى حد أن يرفض أحدهما التحول في منصب الآخر أئمة وكرامة كما حصل عندما صدر أمر الوالي بمرل حمد بيك من المديرية وعرضتها الحكومة على سائر العشائر من الصمبية والمناكرة فما قبلها أحد احتراماً له، فلم تجد غير رجل واحد قبلها يرتي يرتي أهل العلم وظهر من الظلم والمثالب ما جعل حمد يعود إلى منصبه بعد سنة أشهر ويستقن في صيدا استقبالاً حافلاً من العشائر والوحوه⁽¹⁾

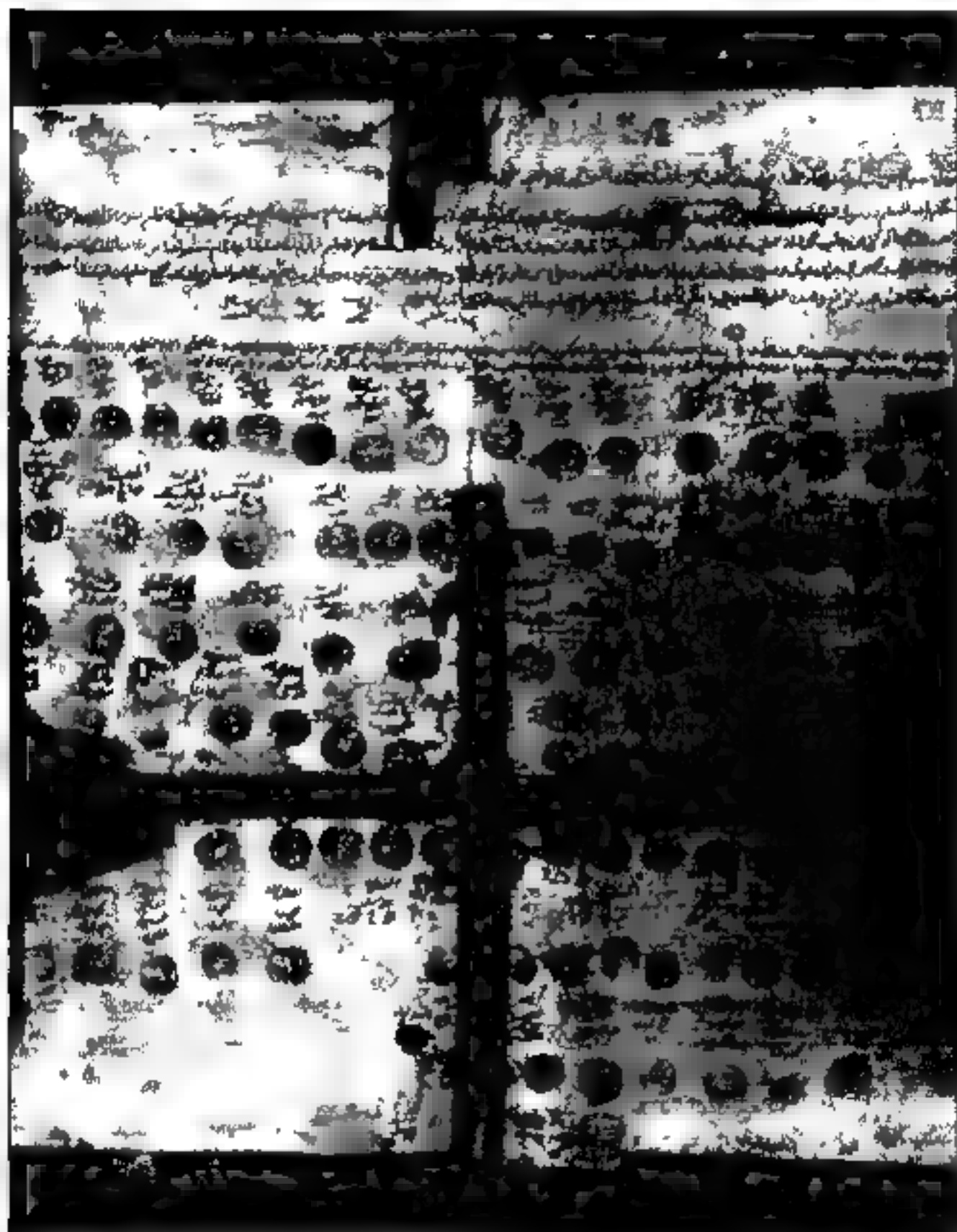
إذا كان تاريخ سي وائل هو نصه تاريخ حل عامل فقد شارك المناكرة وبمدهم آل أبي صعب هي أكثر معظمتاته الهامة وأرماته المصيرية التي وقفت فيها هذه الأسر غالباً في جهة واحدة ولم تذكر المصادر أن إحداها هانت ألبايتين تحت قيادة عرييه وهي مواجهة عصر الدين كان الصغيريون والمناكرة معاً هي المقاومة والابعاد، وكان الصمبيون إلى جانبها هي مقاومة الحرار مكاب قلعه الشقيف آخر الملاح العاملة التي سقطت بيده بعد معركة يارون بعد أن صمد الشيخ حيدر المارس الصمبي مع عدة مئات من رجاله أشهراً أمام الحصار، وقد مات الشيخ أحمد المارس الصمبي صاحب قلعة الشقيف والمواقف المشهودة في معارك سدولاب وكفرمان وصيدا هي قلعة تبنين وهو عائد من صمد بعد أن حاص معركته الاحيرة مع والي الشام وصيدا، محمد باشا العظم إلى حاسب الصغيرين كباقي معاركه، سنة 1775 م⁽²⁾

شردت الأسر الثلاث بعد نكبة الحرار وفقدت متحدة في حرب العصابات حتى عاد الجميع معاً تحت الشروط نفسها.

طلما تردّد في التاريخ اللبناني و لتقارير دبلوماسية العربية تعبير يحتصّ بجبل عامل وهو «مشايخ المتأولة» دون ذكر العائلة أو العشيرة أو المنطقة والمقاطعة لأن المشايخ العاملين حافظوا غالب الأحيان على موقف موحد جعل المتعامل معهم والمراقب لسلوكهم السياسي يعتبرهم جهة واحدة وحبية واحدة لا موجب للدلالة على بعضها

(1) أحيان الشيمة، محسن الأمين، ج 509 ح 92.

(2) تاريخ نبي صالح من 105 وحسن الشقيف عباس وهي من 95



وثيقة مهمة بتواقيع واختام نحو 200 عام من جبل عامل حول سبب استحقاق العشائر
 آن علي الصغير وال صعب وان منكر أملاكهم في اقليم الشومر وانها ليست معاشا مجانيا بل
 هي بدل املاكهم التي اعتصبها الحرار بوجه النادر والجبر

باسم الأسرة أو الشخص أو أي علم آخر. حتى أن أرز قهم التي عوصت الدولة بها عن كل ما صادرت من أملاكهم. كانت مشتركة دون تحديد وتعيين فتولى فارس التصار توزيعها فيما بينهم كما يتأكد من الوثيقة الآتية.

لأسباب غير معروفة تماماً، تقدم أحد شيوخ العشائر الحكام سنة 1858م بسؤال شرعي موقع من الأسر الثلاث بيت منكر وبيت أبو صعب وبيت علي الصغير، يطلب شهادة علماء جبل عامل ومشايخه ورجال الدين فيه عن حقيقة الظروف التاريخية حول ملكهم لإقليم الشومر وقد أحاب على سؤله نحو مئتي عالم وقعوا الإجابة عليه وهذا نصها

سبب تحريره

هو أنه لما كان واجب على كل عاقل طلب الراحة الأبدية؛

سؤال اسمهم من سيادة مشايخنا وعلمائنا الكرام ومن جناب إخواننا وأحبابنا هي قصص الشميم الأخلاء المحترمين بوجه العموم

نسألكم بالله العظيم ورسوله النبي الكريم وأصحابه العر الميامين شهادة بطلبها منكم يوم موقت عظيم يوم لا ينع فيه مال ولا نول إلا من أتى ربه بقلب سليم أن نصيدونا معلوميتكم من إعطائنا القيم الشومر من المرحوم الحاج سليمان باشا ومن المرحوم راجب الهدي الوكيل من جانب الدولة العلية في أياله صيدا من أجل تنظيم مال الأيالة بعد وفاة المرحوم جرار باشا (.) إعطائنا الإقليم المرقوم لنا معاشاً مجانياً أم استعواصاً عن أملاكنا التي اغصبها منا جرار باشا بوجه العدر والجبر في صيد، وصور وفي قصاوات بلاد بشاره والشميف وجباع من عمار قرايا ومحلات ومطاحن ومن ريتون وبساتين وأعراس كما هو معلوم لدى الجميع منكم أن نصيدونا معلومية ذلك على نفس خطائنا هذا بحسب الوقع وهذه الشهادة نطلبها منكم فإنها مسؤولية من يعلمها ومطالب بها لدى العدل الحكيم

بيت علي الصغير.

بيت أبو صعب

بيت منكر

الجواب.

شاع وداع وملاً الاسماع ونقله الخلف عن السلف نقلاً متواتراً ومتضافراً ان المعاش المذكور قد أعطي للعشائر المذكورين وهم آل علي الصغير وآل صعب وآل منكر عوضاً عن أملاكهم وعقارهم التي انتزعها من أيديهم المرحوم الحاج أحمد باشا الجزار وكان المعطي لهم بدلاً عن أملاكهم المذكورة المرحوم الحاج سليمان باشا

هذا هو المحقق عندنا والذي نشهد بين يدي الخالق عز وجل.

ولأجل البيان بحسب طالب الشهادة حررنا جوابنا هذا في السؤال المحرر في صدر القرار والله أعلم بحقائق الأمور.

ويلي ذلك توقيع نحو مئتي عالم من 'علام جبل عامل'

24 شعبان 1275 هـ (1858 م).

الفهرس

الباب الأول

15	الشعبة في الدولة العثمانية
17	الفصل الأول: الشيعة والدول الإسلامية الثلاث
26	الشيعة والمماليك
33	عاشوراء كمروان
42	الشيعة بين المماليك والعثمانيين
49	الفصل الثاني: الشيعة رعايا الدولة العثمانية
56	كيف تحولت الطوائف إلى شعوب
59	الدولة والملة
62	تراخي قبضة الدولة وسلطة الإدارة
65	ظهور الحكام الولاة
67	تحصيل الضرائب
71	تحول زعماء العشائر إلى زعماء طوائف
74	تراجع دور رجال الدين
75	دخول الموارنة إلى المعادلة السياسية اللبنانية
84	السياسة الشيعية اللبنانية في ظل الدولة العثمانية
97	الفصل الثالث: التكامل الشيعي
103	الفصل الرابع: الشيعة وجبل الدروز
108	الشيعة والإمارة اللبنانية
110	تاريخ لبنان وتاريخ الشوف
117	الشيعة وفخر الدين
125	الشيعة وآخر المعنيين
128	انتقال إمارة جبل الدروز إلى الشهابيين
132	معركة عين دارة

الباب الثاني


136	لبنان الشيعي في القرن السادس عشر
143	الفصل الأول: جبل عامل
167	الفصل الثاني: بعلبك والبقاع
177	الفصل الثالث: جبل لبنان
181	كسروان
192	جبيل والبترون
196	جبة بشري
201	الفصل الرابع: المدن الساحلية
201	بيروت وصيدا
207	طرابلس
210	صور
212	الفصل الخامس: حواضر العلم عند الشيعة في لبنان
212	جزين
218	مشغرة
220	كرك نوح

الباب الثالث

223	الحكم الشيعي في لبنان
228	بعلبك والبقاع
229	جبل لبنان
231	جبل عامل
231	جبل الدروز ووادي التيم
241	مساحة المقاطعات في العهد العثماني

الباب الرابع

247	الحكم الشيعي في البقاع
249	الفصل الأول: إمارة بعلبك الشيعية
259	تاريخ الحراقة
264	الأمير علي بن موسى
269	الأمير موسى بن علي

275	الفصل الثاني: الصراع الشيعي المعني
275	صراع الأميرين
282	تواصل الجناحين
291	معركة عنجر
309	الفصل الثالث: الأمراء المحاربون
328	معركة زحلة
329	جهجاه والجزار
332	نهاية جهجاه
335	الفصل الرابع: بعلبك تحت الحكم المصري
343	الفصل الخامس: آخر الأمراء
346	حصار زحلة
350	ثورة الحرافشة والهجوم على دمشق
364	الخرافشة والفتن الطائفية
372	بين الولاية والمنتصرفية
376	السقوط
	
	الباب الخامس
385	الحكم الشيعي في جبل عامل
386	الفصل الأول: بنو وائل
396	بنو وائل وبنو بشارة
405	الفصل الثاني: جبل عامل في ظل إلتزام فخر الدين سنجق صفد
409	آل سوديون وآل مشطاح
415	قلاع جبل عامل
419	العامليون وجبل الدروز بعد فخر الدين
421	ظهور بني علي الصغير
426	الفصل الثالث: الثورة الكبرى
426	المواجهة الأولى
441	الفصل الرابع: ناصيف التصار
454	ناصر وضاهر
463	معركة البحرة
468	معركة كفر رمان

475	معركة صيدا
484	يوسف وناصيف
487	ناصيف والجزار
493	نكبة جبل عامل
507	الفصل الخامس، حرب الطياح
521	الفصل السادس، الحكم المصري في جبل عامل
535	الفصل السابع، نهاية الحكم الوطني



مركز تقيتكا كچويز علوم اسدي